PHILBY



الربع الخالي

تأليف

هاري سانت جون فيلبي

« عبد الله فيلبي »

THE EMPTY QUARTER



مكتبة العبيكان



« الحاج عبد الله فيلبي »
هاري سانت جون بريد جر فيلبي

ولد فيلبي في عام ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٥م من أسرة إنجليزية محافظة وكان مولده في سيلان حيث كان يعمل والده بتجارة القهوة.

بعد عودته إلى إنكلترا التحق فيلبي بمدرسة وستمنستر وهناك بدت علامات نبوغه، ثم التحق بعدها بكلية ترينتي Trinity بجامعة كمبردج وتخرج فيها ١٩٠٧م بدرجة امتياز.

ثم درس فيلبي سنة أخرى في جامعة كمبردج اللغتين الفارسية والهندوستانية وذلك عقب التحاقه بقائمة الخدمة المدنية لدى حكومة الهند البريطانية، أمضى بعدها سبع سنوات في الهند وقد درس خلالها اللغة البنجابية والأوردية، وبدأ يتعلم القرآن واللغة العربية مما خوله فيما بعد ليكون ضمن البعثة المتجهة إلى البصرة في عام ١٩١٥م.

ثم كانت بعدها أول بعثة له إلى الجزيرة العربية وكان ذلك في ١٣٣٦/١/١٣هـ - ١٩١٧/١٠/٢٩م.

ثم توالت بعدها بعثاته ورحلاته وزياراته إلى الجزيرة وتوطدت علاقته بالملك عبدالعزيز، وقد ساعدت رحلاته الكثيرة على تكوين كم هائل من المعلومات الجغرافية والأثرية والتاريخية عن الجزيرة العربية والتي دونها جميعها فيما بعد في كتبه التي سنعرض لها.

أعلن فيلبي إسلامه في عام ١٩٣٠م.

وكانت وفاته في بيروت في عام ١٩٦٠م، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين.

الربع الخالي

وصف للصحراء الجنوبية الكبرى للجزيرة العربية المعروفة بالربع الخالي

تاليف
هاري سانت جون فيلبي
«عبدالله فيلبي»

تعريب
د. حسن عبدالعزيز أحمد

مراجعة وتدقيق وتعليق
د. فهد بن عبدالله السماري
د. عبدالعزيز الشبل
عبدالله المنيف
عبدالرحمن الشقير

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيلبي، هاري سانت جون

الربع الخالي: وصف للصحراء الجنوبية الكبرى للجزيرة العربية المعروفة بالربع الخالي / ترجمة حسن عبدالعزيز أحمد. - الرياض.

٦٦٨ص، ١٧X٢٤سم

ردمك: ٥-٨٦٠-٢٠-٩٩٦٠

١- الربع الخالي (السعودية) أ- أحمد، حسن عبدالعزيز (مترجم)

ب- العنوان

ديوي ٩٥٣,١ ٢١/ ٥٢٦٩

ردمك: ٥-٨٦٠-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢١/ ٥٢٦٩

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ /٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه نقل عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيلاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة، حيث كتب فيلبي بأسلوبه السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها،

وآثارها، واقتصادها، وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءاً من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الإنجليزي. ومع ذلك؛ فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب؛ فإن المكتبة تشكر كل الذين أسهموا في مراجعة الترجمة على ملاحظاتهم القيمة، وتخص بالشكر سعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري أمين عام دارة الملك عبدالعزيز الذي بذل الجهد في مراجعة هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق،،

الناشر

مكتبة العبيكان

الإهداء

إلى زوجتي ووالدتي ، اللتين تحملتا وطأة رحلتي الطويلة عبر السنوات المثيرة : أهدي هذا السجل عن رحلاتي المغامرة في الربع الخالي .

" إن الحريم أطيب ما عندنا "

من أقوال فالح أبي جعشة

المحتويات

الباب الثالث

تقديم

قمت بإعداد مسوَّدة الجزء الأكبر من هذا السِّفر أثناء تجوالي وسط رمال الصحراء العظيمة يوماً بيوم. ولكن الكم الهائل من المعلومات التي جلبتها معي من الربع الخالي استدعى إعادة كتابة المادة بالشكل الذي تظهر به الآن وذلك أثناء الإجازة التي قضيتها في ركن قصي من ويلز خصيصاً لإنجاز هذه المهمة، وألتمس عذر القارئ لأية أخطاء أو تكرار يشوب الكتاب بعد أن بذلت كل ما أمكن من تشذيب وتمحيص للمسوَّدة.

وأزجي عظيم شكري وامتناني إلى كل أولئك الذين ساعدوني في إعداد الكتاب عن أرض اعتبرتها من سنين طويلة هدفاً رئيساً لطموحاتي.

وبصرف النظر عن النجاح الذي كلل به هذا الإنجاز، فكرةً ومحاولةً، - وهذا مكافأة في حد ذاته- فإن المستكشف الحديث أحسن حالاً وأوفر حظّاً من الذين سبقوه؛ وذلك أنه يجد عند عودته مجموعة من الخبراء والعقول المتخصصة على أهبة الاستعداد لقراءة وتمحيص ما جلبه من مادة خام، وعزل الغثّ من السمين، من واقع تجربتهم وعلمهم، فإن مثل هذا التقدير الانتقادي من قبل علماء متلهفين لكل ما هو جديد أفضل كثيراً من تصفيق الاستحسان الذي يأتي من سواد الناس، فالجزيرة العربية ما زالت مجهولة بالنسبة للعالم؛ ولذلك تغري كل زائر فضولي لها بأن يرتاد مجاهلها.

وقد وضعت في نهاية الكتاب مجموعة من الملاحق تضم التقارير أو النتائج التي تمخضت عن دراسة المواد التي جمعتها من قبل الخبراء، كل في مجاله. إليهم جميعاً أزجي عرفاني وتقديري، ولا أريد هنا أن أثقل على القارئ بقائمة من الأسماء، ولكنني أدعوه إلى دراسة هذه الملاحق بتمعن إذا ما أراد أن يفهم الربع الخالي فهماً صحيحاً تفصيليّاً أو عامّاً..

وأزجي مكنون شكري وتقديري إلى الدكتور إل. جي. سبنسر وزملائه في المتحف البريطاني الذين زودوني بالملاحق، وإلى أولئك الذين وضعوا تحت تصرفي مواد استخدمتها في الملاحق والمتن، وإلى سي. تيت ريغان وكل المسؤولين في المتحف البريطاني. ومما يثلج الصدر أن تفضل صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -ملك المملكة العربية السعودية- بتقديم كل المعلومات التي جمعتها خلال هذه الحملة إلى المتحف البريطاني، وإليه أدين برعايته الكريمة ومساعدته السامية في كل ما حققته من إنجاز في الربع الخالي، وإلى الجمعية الجغرافية الملكية أعبر عن شكري على رسم الخريطة المرفقة مع الكتاب وحساب كل ما سجلته من بيانات بأجهزتي المتنوعة، وكذلك لكل المساعدات التي لا يستغني عنها كل مستكشف في رحلته ذهاباً وعودة، وأخص بالشكر الأميرلاي السيد وليم قود إنَفْ، والسيد ا. د. هنْكس اللذين خصاني بعطف وعناية لن أنساهما، وكذلك السيد ا. د. ريفز، والسيد هـ. ف. ملن اللذين أسديا لي معروفاً لا يمكن تجاهله.

كما أشكر الآخرين الذين وردت أسماؤهم في المتن لما أبدوه من مقترحات ومناقشات حول مواضيع شتى لم أكن أجرؤ على خوضها لولا مساعدتهم. وإذا لم ترد أسماؤهم هنا فإنني آثرت ذكرها في الأماكن المناسبة في صفحات الكتاب. ولكنني أشكرهم جميعاً في شخص رئيسي القديم السير بيرسي كوكس، الذي شرفني بقراءة مسوّدة الكتاب وأبدى ملاحظات لتحسين كتابته.

وأخيراً؛ أدين بالعرفان لزوجتي التي هيأت لي الجو لإكمال كتابة هذا السِّفر في وقت معقول، وذلك بنسخه على الآلة الكاتبة..

مكة، نوفمبر ١٩٣٢م [١٣٥١هـ]　　هـ. سانت جون. ب. فيلبي

المقدمة

عندما ينتهي كل شيء قولاً وفعلاً، فإن صحراء الربع الخالي ستظل مغايرة لتلك الألوان المتقعة التي صوَّرها بها الرحالة الأوربيون، والتي يتصورها أولئك العرب المستقرون الذين لم يشاهدوها أبداً، وذلك على الرغم من أن عبورها يعدُّ مغامرة لا يستهان بها ولا يقدر عليها إلا المتمرسون من ذوي الخبرة[1].

فقد سيطرت عليّ خلال خمسة عشر عاماً من حياتي فكرة واحدة، وطموح واحد، أو بالأحرى هاجس واحد، سعيت إلى تحقيقه دون هوادة وبكل إخلاص وعناد وتفان. وها أنذا أضع ضالتي المنشودة، وطريدتي التي سعيت لاقتناصها بالصمت والاضطراد، أمام القارئ مشرَّحة واضحة المعالم وموصوفة. وربما لم أستطع تحقيق ما كنت أصبو إليه وخططت له من البداية، ولكنني أشعر بأنني أنجزت ما فيه الكفاية لأريح ضميري، وأحرر نفسي من تلك العبودية والاسترقاق الطويل لتلك الفكرة. كما أقرر بأنني لم أكن الوحيد ولا الأول في هذا المضمار؛ فإن شرف الأولوية في اكتشاف هذه الصحراء وعبورها يذهب إلى شخص آخر تفوق عليّ في هذا السباق. . هذا الشخص هو «برترام توماس»(*) الذي يستحق بكل جدارة أن يكلل بوصف الريادة في هذا المجال. فقد اكتفيت بفضلات الحصاد حيث جنى توماس وحصد، وجمعت ما تبقى من معلومات شيئاً بعد شيء بعد

---

(١) "قلب الجزيرة العربية" الجزء الثاني، ص ٢١٧.

(*) برترام سيدني توماس: مستشرق بريطاني، تقلب في مناصب عسكرية وسياسية لحكومة بلاده في العراق، والأردن، ومسقط. يعد أول من قطع الربع الخالي ٣٠-١٩٣١م وكتب عنه، له ترجمة لعدد ست وعشرين مقامة من مقامات الحريري، توفي سنة ١٩٥٠م. العقيقي، المستشرقون ج٢، ص١٢٦. (المراجعون).

اكتشافه لها، وذلك على الرغم من أنه لم يكن من محض الصدفة أننا -أنا وتوماس- فكرنا سويّاً بالفكرة نفسها في عمّان قبل أن يغادر إلى عُمان ويعمل بقول الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم   فلما اشتدَّ ساعده رماني

أما إلهامي الشخصي فقد أتى من أحد المختصين في التراث العربي. فقد التقيت في السادس من يناير عام ١٩١٨م [١٣٣٦هـ]، ومباشرة بعد عبوري الأول لشبه الجزيرة العربية من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، بالدكتور د. هـ. هوجارث الذي كان آنذاك يتنكر كقائد في البحرية الملكية بينما كنت ارتدي زيّاً فضفاضاً لشيخ عربي. وكان لقاؤنا في غرفة الطعام الواسعة للبعثة السياسية- العسكرية البريطانية في جدة، والتي كانت تضم القنصلية والوكالة البريطانية، والتي حولت آنذاك إلى مفوضية. فقد كنت غريباً هنا إذ كنت مبعوثاً لمعكسر معادٍ، صوت وحيد يصيح في العراء، متحدٍّ جديد وغير معروف في مضمار استكشاف الجزيرة العربية الذي حَمي وطيسه آنذاك، ولم يكن هناك أحد قد سبقني إلى عبورها حينذاك إلا كابتن «ج. هـ. سادلير»(*)، وذلك قبل مئة عام.

كان الدكتور «هوجارث» من ناحية موضع ثقة الحكومة البريطانية ومساعدها الأيمن في كل ما يخص شؤون الجزيرة العربية، كما كان -كمدير للمكتب العربي في القاهرة أثناء الحرب- الحجة المعترف بها وأكبر البارزين

(*) جورج فوستر سادلير: ضابط في الجيش البريطاني، انتدبته حكومته لتهنئة إبراهيم باشا على انتصاره في الدرعية بنجد سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٩م، ولدعوته للتعاون مع بريطانيا ضد القواسم في الخليج، ولهذا قطع سادلير الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب، وطبعت رحلته، وترجمت إلى اللغة العربية. (المراجعون).

في الشؤون العربية. وكان «هوجارث» قد نشر عام ١٩٠٤م [١٣٢٢هـ] كتاباً بعنوان: «اختراق الجزيرة العربية» يضم ملخصاً شاملاً وملهماً لكل ما تم في مجال استكشاف الجزيرة العربية من أيام فرخوس وإيليوس جالوس حتى بداية القرن العشرين. وظلت الفجوات التي أشار إليها -أي الأماكن التي لم يتم استكشافها آنذاك -كما هي بعد مرور أربع عشرة سنة حين التقيته في جدة عام ١٩١٨م [١٣٣٦هـ]-.

وكانت إحدى تلك الفجوات، وربما أكبر بقعة مجهولة على خريطة العالم خارج المناطق القطبية، تقع في الجزيرة العربية. واكتفى «هوجارث» بعد ذلك بالسكوت والإغفال عن تلك الفجوة والتأمل في أسرارها حتى لا يشجع كل مغامر متهور في التفكير في ارتيادها دون أن يعد نفسه علميّاً لذلك. ولكن أهداف وغايات العلم يمكن تحقيقها بطرق أخرى، فإذا كان من مقدور الأكسجين التغلب على مشكلة تسلق قمة جبل أفرست فإن في مقدور الطائرة أو العربة أن تكشفا فراغ الربع الخالي عندما يحين الوقت لذلك. ولم يدر بخلده أن تَكْشف صحراء الربع الخالي خلال أربع عشرة سنة عن أسرارها ليس مرة واحدة، إنما مرتين، وذلك لمسافرين عاديين مجهزين بوسائل انتقال كانت متاحة لخدمة المستكشفين منذ زمن بعيد، ومع ذلك لم يكن هناك شخص يرغب من مكنون قلبه معرفة طبيعة ذلك الخلاء العظيم وحقيقته، وأن ذلك الوميض المكبوت وراء ملاحظاته الساخرة المشوبة بالحذر كان أكثر من حافز ودافع لارتياد ذلك المجهول، ويؤسفني أكثر من كل شيء بأن «هوجارث» قد رحل قبل أن يماط اللثام عن غموض دنيوي كان هو أكثر من أي شخص آخر سيكون المفسر الأفضل لدلالته العميقة.

وبعد أسابيع ممتعة من الاتصال الوثيق مع د. هوجارث في جدة ومصر، قضيت بقية تلك السنة في أعماق جنوبي الجزيرة العربية حول وادي الدواسر العظيم. وكنت قد عدت منه على مضض في السادس من يونيو عام ١٩١٨م [١٣٣٦هـ] بعد أن أقنعت نفسي بما أنجزته ومؤملاً أن أرضي يوماً تلك الرغبة المتأججة في نفسي لاختراق مجاهل الربع الخالي التي طفت على طول حدودها الشمالية ابتداء من الأحساء إلى وادي الدواسر(١)، وأكون بهذا الإنجاز قد كشفت جزءاً من الجنوب المجهول. وكان ذلك كافياً لشحذ وإثارة شهيتي لمزيد منه. فقد سمعت من رفاقي في تلك الرحلة- وخاصة من شخص يدعى جابر بن فرج من قبيلة آل مرة - بوجود خرائب تكتنفها الأسرار في الرمال البعيدة، وأيضاً كتلة حديد ضخمة في حجم الجمل. وهكذا تكونت لدي صورة ذهنية عن الربع الخالي من خلال عرضهم ورؤيتهم، وكانت هذه المعلومات تمثل كل ما لدي عن هذه المنطقة، وكنت أعلم بأنه لن تتاح لي فرصة أخرى لإجراء مزيد من التحريات حول هذه الأسرار قريباً. كتبت قائلاً: «آمل أن يتمكن في يوم ما شخص أكثر مني حظّاً في اختبار مصداقية ما رواه رفاقي ويتحقق منها»(٢). وقد تحقق ذلك الأمل جزئيّاً فيما أنجزه الرائد تشيزمان(*) ١٩٢٤م [١٣٤٣هـ] والسيد توماس ١٩٣١م [١٣٤٩هـ]، ولم أتوقع أن يكونا قد تركا لي شيئاً ذا بال أقوم به عندما يحين دوري في الوقت المناسب.

---

(١) «قلب الجزيرة العربية» الجزء الثاني ص ٢١٦.

(٢) «قلب الجزيرة العربية» الجزء الثاني ص ٢٢٢.

(*) تشيزمان: ضابط بريطاني ولد سنة ١٨٧٨م/ ١٢٩٥هـ وتوفي سنة ١٩٦٢م/ ١٣٨٢هـ، له رحلات في البلاد العربية، نشر له كتاب «بحيرة تانا والنيل الأزرق» و«في شبه الجزيرة العربية المجهولة» وغيرهما والكتاب الأخير ترجم إلى اللغة العربية ونشرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض. (المراجعون).

لم أبق عاطلاً في غضون ذلك وإن لم تكلل مجهوداتي ومحاولاتي بالنجاح. فقد حملتني تقلبات الحياة والعمل هنا وهناك حتى كدت أُنقل نهائيّاً من الجزيرة العربية التي عدت إليها في خريف عام ١٩٢٤م [١٣٤٣هـ] لأجرب حظي. وضحيت من أجل تحقيق ضالتي بكل شيء من أهمها ضمان وظيفة تقليدية مرموقة وأشياء أخرى كانت ستكفل لي حياة رغدة. وقد فعلت ذلك برضىً تام.

انتخب د. هوجارث في صيف السنة نفسها رئيساً للجمعية الجغرافية الملكية البريطانية وأصبحتُ عضواً فيها. وقد تفاءلت كثيراً بأن يكون هذا الارتباط العرضي بيننا في مهمة مشتركة فألاً حسناً بالنسبة للحلم الذي كان يراودني دائماً، وأن يمثل استكشاف الربع الخالي خلال السنة الأولى من توليه مهامه، وبواسطة أحد الذين ألهمهم بارتيادها، تذكاراً مناسباً لهوجارث بصفته أحد المختصين باستكشاف الجزيرة العربية. وقد بذلت قصارى جهدي لتحقيق هذه الغاية خلال فترة توليه رئاسة الجمعية الجغرافية. ولم أكن وحيداً في ذلك إذ إنه من الصعب أن أفعل شيئاً بمفردي في مشروع ضخم كهذا يحتاج إلى دعم مالي لم يكن في وسعي توفيره.

فقد صادف أن فكرت صديقتي السيدة/ روزيتا فوربس -بطلة الرحلة الشاقة عبر الصحراء الليبية إلى واحة كفرة(*) المجهولة آنذاك[1] والمشهورة الآن - بالربع الخالي في إطار بحثها عن عالم جديد لتكتشفه، وكان أن تحالفنا مع بعض ونسقنا خططنا، وتعهدت هي بتأمين الدعم المالي الضروري لمشروعنا المشترك.

(*) تقع كفرة في الصحراء الشرقية، جنوب شرقي الجماهيرية الليبية. (المراجعون).

(١) قام السيد جيرهارد روهلفز بزيارتها فقط في عام ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ).

كان كل شيء معداً للرحلة بحلول خريف ذلك العام ما عدا الجزيرة العربية نفسها التي كانت تشهد آنذاك تباشير الدعوة الوهابية الإصلاحية وحركة التوحيد التي قادها ابن سعود. ففي سبتمبر حدثت معركة الطائف، وفي شهر أكتوبر استسلمت مدينة مكة دون إراقة دماء بعد أن تخلى عنها حكامها، ولم تمض فترة قصيرة حتى سقطت جدة والمدينة في يد ابن سعود، وبدأ الفأل مبشراً بإنجاز مشروعنا مع تولي ابن سعود كل أمور البلاد. إلا أنه كان ينبغي أن نتخذ درجة من الحيطة والسرية في هذه الظروف خشية أن ينكشف المشروع ويحبط من قبل حتى أولئك المتعاطفين معنا من الضباط البريطانيين(*).

اخترنا البحرين لتكون الملتقى، وإليها اتجهت بمفردي في منتصف أكتوبر ١٩٢٤م [١٣٤٣هـ] والتقيت في القطار الذي حملني عبر فرنسا بالدكتور هوجارث الذي فطن بهدف رحلتي تلك ولكنه آثر الإبقاء على خططه طي الكتمان.. ولم أره بعد ذلك إلا لماماً، إذ سرعان ما أصابه المرض الذي أودى بحياته في النهاية، ولم يتسنَّ لي معرفة ما إذا كان قد فطن إلى محاولتي التي لا طائل تحتها أو كان على علم بهدفها أصلاً. وفي مارسيليا ركبت سفينة تحمل اسماً ميموناً - راجستان (أرض الرمل) - متجهة إلى بندر عباس في إيران.

قمت بإجراء تعديل في خططي في السويس عندما سمعت آخر أخبار الجزيرة العربية، واتجهت منها إلى جدة التي وصلتها بعد أيام قليلة ونزلت ضيفاً على الملك علي بن الشريف حسين الذي كان قد خلف أباه فيما تبقى من مملكته المهددة بالزوال. وبدا لوهلة أن السلام يمكن أن يسود وفق شروط

(*) يشير فيلبي هنا إلى مشروعه لاكتشاف الربع الخالي والقيام برحلات إلى عدد من مواقع الجزيرة العربية الجغرافية والتاريخية ومقارنة ما كتبه من سبقه عنها وإضافة الجديد إلى سجل الرحلات والمغامرات داخل الجزيرة العربية (المراجعون).

معينة، ولكن الأمر كان قد حسم وسبق السيف العذل نتيجة أخطاء ارتكبها المدافعون عن المدينة، وكان مجيء ابن سعود نفسه إلى مكة في بداية ديسمبر إيذاناً بتطويق جدة وحصارها، وما كان في مقدور المدينة أن تصمد لفترة أسبوعين تحت حماية جيشها المنهوك من المرتزقة.

وكان من وجهة نظري أن لا أضيع وقتي الثمين مع أنه كان بمقدوري أن أتريث بعض الوقت أنتظر أي تطورات قد تعزز أو تعجل تحقيق هدفي المباشر. ولكن كان قدري القاسي أن أصبت في جدة بداء الزحار (الدوسنطاريا)، وما إن دبت العافية في أوصالي حتى هرعت إلى عدن لمقابلة زميلتي السيدة فوربس التي وجدتها -دون أن يثبط همتها فشل خططنا- قد باشرت في رحلة استكشافية إلى الحبشة: وعدت إلى إنجلترا أجر أذيال الخيبة، وهكذا كانت محاولتي الأولى لاستكشاف الربع الخالي عبثاً لا طائل منه.

حاولت جهدي لسبع سنوات أخرى لأحقق ذلك الهدف، واتخذت موطناً لي بالقرب من مياه البحر الأحمر الخضراء بدلاً من الربع الخالي، وهناك قضيت سبع سنوات على أمل أن تتحقق رغبتي، واعتنقت أثناء ذلك الدين الإسلامي الذي أسبغ على نفسي هدوءاً وسكينة كنت في أمس الحاجة إليهما، كما أضفى على هذا البلد، الذي لم يعرف في تاريخه غير وبال الحروب ودمارها، سلاماً وأمناً واستقراراً.

أصبحت مكة موئلي وملاذي، وستبقى كذلك -إن شاء الله- إلى نهاية حياتي.. ومنحت يوميّا شرف مقابلة الملك العظيم الذي أصبح محط إعجابي منذ أيام صداقتنا الأولى.. إذ لا أعرف أحداً يستحق لقب عظيم غيره، فهو الذي حقق خلال ثلاثين سنة لهذه البلاد ما لم ينجزه أحد خلال ثلاثين قرناً من الزمن.

ولكن ليس هذا موضع الحديث عن إنجازات ابن سعود فله طاعتي وولائي شهادة تقدير وإجلال لهذا الإعجاب الذي أكنه له. والآن أعبر عن تقدير آخر وإعجاب جديد نابع من سويداء القلب. ففي شهر ديسمبر عام ١٩٣٠م [١٣٤٩هـ] اصطحبت موكبه الميمون إلى داخل الجزيرة العربية ثم إلى الرياض، وهناك وكأنه على علم بما يعتلج بداخلي، رفع آمالي إلى ذروتها بالحديث عن حملة مرتقبة إلى الربع الخالي. فقد كان ميّالاً إلى التحري عن الأماكن الداخلية والمنعزلة من مملكته المترامية الأطراف، وكان يرى في شخصي الأداة المناسبة لاستكشاف هذه الأماكن ورسمها في خرائط وإجراء التحري العلمي الضروري لإثبات وتبرير مطالبه لبسط نفوذه على كل أجزاء البلاد. وقد علمت بأن «بر ترام توماس» قد غادر مسقط وحط رحاله في ظفار توطئة للقيام بآخر محاولة لاقتحام الصحراء المقفرة العذراء، ولم يخالجني شك في أنه سينجح في مهمته، ولذلك كنت متلهفاً للرحيل والمضي في مهمتي. وبدأت الاستعدادات الأولية الضرورية للحملة بالاستشارة مع الأمير عبد الله بن جلوي–حاكم الأحساء–، ولكن تحطمت آمالي في أوائل يناير عام ١٩٣١م [١٣٤٩هـ] أثر النصيحة التي قدمها ابن جلوي إلى ابن سعود. فقد كان ابن جلوي مشغولاً بمشاريع معينة تهدف إلى مَدّ نفوذه الإداري على طول الحدود الجنوبية ولم يكن على استعداد لتحمل أعباء مسؤولية حملة ذات طابع مختلف، ولذلك فإن تأخير الحملة لسنة أخرى –كما يرى– لم يكن ليؤثر على الوضع بشيء ذي بال. وكان أن اقتنع برأيه كل من كان بالمجلس ما عدا شخصي. فقد كان توماس قد وصل إلى شنّة –آنذاك– ثم اجتاز نصف الربع الخالي في السادس عشر من يناير ونحن نتوجه من مكة إلى الرياض، وخلال شهر بعد ذلك تمكن من عبور المنطقة، مع أنني لم أعرف حقيقة ما اعتراني من إحباط مرير إلا في شهر

مارس. فقد كان توماس قد كسب السباق ولم يبق أمامي إلا أن أكمل المشوار.

أبقيت على خططي دون تغيير حتى الشتاء القادم، وبقي الملك على عهده، وعدت إلى الرياض في شهر نوفمبر. ولكن مرت أسابيع دون أن أسمع منه ما يوحي بأنه مازال يفكر في الربع الخالي، وقضيت أيامي اصطاد الغزلان والحبارى في موكب جلالته وأنا أسأل نفسي يومياً عند الأذان للصلاة: هل ستحقق أمنيتي أم لا؟

لم أعد أتحمل الصبر والانتظار على غير هدى حتى تأتيني كلمة الموافقة من الملك. وفي أمسية من أماسي شهر نوفمبر، وبينما نحن جلوس في مجلس القصر، سمعت كلاماً غامضاً يدور حول رحلة لأوربا يزمع الأمير فيصل القيام بها. اقترح عليّ بعض كبار الضباط: «أليس من الأفضل أن ترافق سموه في هذه الرحلة وربما زيارة أهلك مرة أخرى؟ حقاً فقد مضى وقت طويل منذ أن رأيت وطنك». فأجبت بأن أوربا ليست المكان الذي أفكر فيه هذه الأيام. فأجاب الملك: لا بالطبع! فاحتبست أنفاسي عند سماع هذه الإجابة، وواصل الملك حديثه قائلاً: سنبعث بفيلبي إلى الربع الخالي، فهل تذهب إلى هناك؟ لا مانع من ذهابك. فأجبت «جزاك الله خيراً». لم أسمع كلاماً أمتع ولا أوقع أثراً في نفسي من هذا منذ شهور.

وهكذا انتهت فترة التوتر والانتظار الطويلة، وتحدثنا ليوم أو يومين عن الأمور اللازمة ذات الصلة بالحملة المقترحة. ثم حَلَّ اليوم الذي انتظرته طويلاً عندما خاطبني جلالته قائلاً: «إنني أنوي الذهاب إلى الأحساء قريباً.. ربما بعد أسبوعين أو أكثر بقليل، ويمكنك أن ترافقني وتبدأ رحلتك من هناك، ولكن إذا أردت أن تسبقني إلى هناك فلا اعتراض أن تقوم غداً،

وسأذهب أنا إلى الخفس في رحلة صيد، وعليك أن تقضي معنا ليلة في المعسكر ثم تواصل رحلتك من هناك إلى الأحساء بالسيارة، وسأعطيك رسائل لابن جلوي الذي سيرتب لك كل شيء كما تريد. فهل ستذهب غداً أم تنتظر لترافقني فيما بعد؟!». فأجبت: «إذا لم يكن هناك ما يضر، سأذهب غداً». فرد جلالته: «حسناً! فليكن كذلك».

وصلت إلى الهفوف عشية عيد الميلاد، وقضيت أسبوعين بالتمام والكمال في الأحساء. وكان ابن جلوي قد بعث رسله إلى كل الجهات لاستدعاء وجمع الأعداد اللازمة من الرجال، بينما تولى ابنه سعود مسؤولية إعداد الترتيبات الخاصة بالمؤن والميرة، وقمت أثناء ذلك باستكشاف الواحة العظيمة من طرفها إلى طرفها الآخر وقمت بزيارة بستان النخيل في العيون ورسمت خريطة لكل المنطقة وتجولت في حدائقها أبحث عن الفراشات والحشرات.

مضى العام وبدأ العام الجديد وبدأ القلق يساورني من جديد مع مرور الأيام دون أية بادرة أو إشارة واضحة تنم عن أي تقدم في الإعداد للحملة. فقد خيم صمت رهيب ينذر بالسوء على إجراءات ابن جلوي، ووصل بي التوتر حداً لا يطاق مما دفعني إلى الذهاب إلى العقير على الساحل لأرفه عن نفسي قليلاً. وهكذا أنجزت في اليوم الرابع من يناير عبوري الثاني لشبه الجزيرة العربية -بعد رحلة شاقة بالسيارة عبر الكثبان الساحلية الكثيفة- . وعندما عدت إلى الهفوف في اليوم التالي وجدت نفسي على عتبة الأرض الموعودة!

الباب الأول

الجافورة ويبرين

الفصل الأول

ويرتفع الستار

كانت أعصابي مشدودة من جراء المواربة والإحباط إلى درجة أن عقلي استجاب ببطء للصدمة التي تلقيتها عند عودتي من العقير. فقد أتى رسول من ابن جلوي وقال: الأمير يحييك ويقول لك بأن الرجال والجمال جاهزون ويمكنك الرحيل أنّى شئت!! كانت أخباراً سارة للغاية، ولكن من جهتي لم أكن قد أعددت نفسي للمهمة التي سعيت لها.. أي لم أكن مستعداً لها. فقد كنت قد اعتدت على التأخير من الجانب الآخر، ولكن لم يخطر ببالي أبداً بأنني سأكون المسؤول عن تأخير الرحلة في النهاية.

والآن قلت لنفسي كفاك مضيعة للوقت، وخاصة في ظل الإشاعات التي شاعت بأن الملك قادم إلى الهفوف في أي وقت، لأن وصوله إلى الأحساء وبقاءه فيها سيحوّل الاهتمام إلى ما هو أهم من تدشين حملتي. ولكن الحقيقة هي أنني لم أكن مستعداً للرحلة آنذاك. فمازالت بعض أجهزتي الضرورية للرحلة ملقاة في سيارتي في كثبان الرمل الكثيفة الواقعة على بعد ميل من العقير. فقد ذهبت إلى هناك مع أحد إخوان القصيبي لمقابلة شخص كان يتوقع وصوله من البحرين، وعندئذ كنت قد أكملت عبوري الثاني للجزيرة العربية بالسيارة قادماً من البحر الأحمر، كما كنت سعيداً لأنني تمكنت من إجراء بعض القياسات والدراسات للخرائب التي أعتقد بأنها كانت موضع ميناء الجرهاء(*) القديم. واكتملت سعادتي بمقابلة مضيفي حاكم العقير، عبد الرحمن خير الله الذي استضافني عام ١٩١٧م [١٣٣٦هـ]، حيث بادرني قائلاً: لقد ضعفت كثيراً، ولكن الحمد لله أن

(*) الجرهاء: مدينة قديمة يرى بعض الباحثين أنها تقع على الساحل الشرقي لجزيرة العرب المطل على الخليج، أسسها الكلدانيون، كان لها حضارة وشهرة تجارية. انظر: عبدالرحمن الملا، تاريخ هجر، ج١، ص١١٠. وما بعد. (المراجعون).

أرشدك إلى الطريق القويم «الإسلام». وكان قد بدا عليه الكبر وخطاه الشيب وأصبح لين العريكة. وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث عن الأيام الخوالي ونحن نحتسي القهوة والشاي. وسألته عن سويلم(*)، أمير القطيف آنذاك، فأجاب بأنه توفي منذ سنوات، وأن محمداً ابنه قد خلفه في المنصب ولكنه نقل إلى منطقة أخرى وعُين ابن ثنيان بدلاً عنه. لكم أتمنى أن أنقل من هنا، ولكن خدمة الملك هي رغبتي، والله كريم. أثارت كلماته ذكرى غريبة لديّ. فقد لفظ الرجل قبل خمس عشرة سنة وفي هذا المجلس نفسه بهذه الكلمات نفسها. ذكّرته بهذه المصادفة فأجاب: نعم. أنا مازلت هنا بعد كل هذه السنين لم أغادر خلالها المنطقة إلا في زيارة خاطفة للأحساء، وكذلك في السنة الماضية عندما سمح لي الملك بأداء الحج في مكة، والشكر لله على ذلك. ولم أذهب إلى البحرين خلال هذه السنوات. وقارنت بين حياته الهادئة في كنف وظيفته وبين حياتي العاصفة المتقلبة التي لازمتني منذ آخر لقاء بيننا.

دفعت بسيارتي في اليوم التالي إلى صدع عميق في الرمل الناعم مما أجبرني على ترك أمتعتي فيها لاستعادتها لاحقاً. وأكملت رحلتي عبر بحر الكثبان المتموجة على سقف سيارة أخرى كانت تقل طبيب الهفوف وأسرته وخدمه وممتلكاته.

كان ذلك في الخامس من يناير، وكان لزاماً علي أن أستعيد آلة التصوير والأمتعة الأخرى من السيارة المهجورة، ولكنني لم أجد سيارات تتجه إلى ذلك المكان. ولم يبق لي إلا أن أبعث خادمي -وهو شاب من الرياض

(*) يقصد المؤلف عبدالرحمن بن عبدالله بن سويلم، وهو أول أمير يعينه الملك عبدالعزيز على القطيف سنة ١٣٣١هـ، توفي سنة ١٣٤٨هـ. (المراجعون).

يُدعى عبد اللطيف الذي يعاني من عمى جزئي- على جمل ليجلب عدتي وأجهزتي ويأتي بها إلى ملتقى مناسب في الصحراء، إذ كان ذلك أفضل من تأخير بدء الرحلة. وكان سعود -أكبر أبناء ابن جلوي- والذي أُوكلتْ إليه مهمة ترتيب وإعداد الميرة والتفاصيل العملية الأخرى الخاصة بالحملة، أكثر من مجرد مساعد في هذا المجال. وحددتُ مع خادمي الملتقى، وانطلق عبداللطيف، الذي دفعت أتعابه مقدماً، مع دليل ليجلب أمتعتي إلى بئر النابت، وهي بئر في الصحراء تقع على طريقنا. وقد حافظ الدليل على موعد ومكان اللقاء بإخلاص وجاء يحمل كل مقتنياتي في جرابه، ولكنه أتى وحيداً، لأن عبد اللطيف كان قد توجه من هناك إلى العقير ثم للبحرين ليستمتع بمباهج الحياة بالمال الذي أعطيته إياه. ولم أره مرة ثانية.

اتفقت مع سعود بأن يتحرك الرجال والجمال الذين تم اختيارهم للمغامرة الكبرى في اليوم التالي (السادس من يناير) إلى آبار الدليقية والانتظار هناك حتى ألحق بهم غداً بالسيارة. وانصرفت أنا لإعداد برنامج دقيق مُرْضٍ للرحلة، وكان من حظي - والشكر هنا يعود لإبراهيم بن معمر وهو صديق قديم منذ عام ١٩١٨م [١٣٣٧هـ]- أن عثرت على بديل ممتاز لخادمي عبداللطيف في شاب يدعى سعد بن عثمان من المجمعة في سدير، له بعض الخبرة في السفر لبلاد أجنبية. إذ زار مدينة بومباي والبصرة، ورافق إبراهيم في الحملة ضد فيصل الدويش، كما شارك في الأحداث التاريخية التي لازمت لقاء الملك عبد العزيز والملك فيصل على متن سفينة صاحب الجلالة ملك بريطانيا في الخليج العربي. فقد كان سعد نشطاً ذا عقل راجح وطموحاً، وكان ينظر إليّ كهبة إلهية يمكن أن يحقق من خلالها بعض تلك الطموحات، كما كان يعد الثروة وتعدد الزوجات بمثابة منتهى السعادة

البشرية، وكنت أبادل إطراءه المشوب بالتملق لشخصي في إطار أنه فعلاً كان رجلاً غير عادي.

سعى سعدان - تدليل لاسمه الذي عرف به في الغالب - منذ البداية إلى خلق انطباع جيد عنه. فقد نقب مستفيداً من اطلاعه مع سيده السابق، في مخازن الحكومة عن كل شيء يمكن أن يَضْمن لي وله الراحة من مال وملابس وصابون وبسكويت ومربى وماء كولونيا وما شاكل ذلك. وبحلول مساء السادس من يناير تمت تعبئة ثمانية صناديق خشبية مزودة بأقفال وأغطية ذات مفصلات بكل ممتلكاتي الضرورية منها وغير الضرورية. وقد بذل سعدان جهداً كبيراً في ذلك مما يؤكد كفاءته واستمتاعه بصخب وأهمية دوره الجديد، ومع ذلك كان صوته يهتز خوفاً وتهبط معنوياته كلما تحدث عن الربع الخالي. كان قد ترك زوجته وصغيره في مكة منذ فترة طويلة عندما رافق إبراهيم في مهمة في الأحساء.. وربما كان يتوجس خيفة بأنه لن يراهما ثانية.

اغتنمتُ فرصة انشغال الرجال بالإعداد للرحلة وتحميل الجمال وقمتُ بزيارة محطة التلغراف اللاسلكي الجديدة المتنقلة في قلعة إبراهيم باشا(*) لضبط ساعاتي نصف الكرونومترية(**) عن طريق مؤشر الوقت الصادر من مقديشو[1]، ثم اتصلت بعد ذلك بالأمير عبد الله بن جلوي للسماح لي بالمغادرة. وعندما ذهبت إليه وجدت عنده القائد المعيَّن للحملة ونائبه. وشرع الأمير في حضورنا جميعاً في كتابة مسودات خطابات معينة تفيدنا في

(*) يقصد المؤلف هنا قصر إبراهيم وهو يعود إلى إبراهيم بن عفيصان الذي قام ببنائه في المنطقة منذ أيام الدولة السعودية الأولى وليس إبراهيم باشا. (المراجعون).

(**) الكرونومتر: آلة تستعمل لقياس الوقت. (المراجعون).

(١) يبدو أنها مقديشو في الصومال الإيطالي. «الأصح أكثر هو مكسديشو في أرض الصومال الإيطالي».

الصحراء. وبينما كان السكرتير يعد نسخاً من هذه الخطابات على الآلة الكاتبة تمهيداً للتوقيع عليها، انكب الأمير على أولئك الذين كان على وشك تسليمي لهم خلال الرحلة حتى عودتنا سالمين إلى حيث المدنية. ويبدو أنه ناقش معهم كل شيء بالتفصيل قبل مجيئي، ولذلك كان حديثه الحالي مجرد شكليات لإفادتي بما دار من قبل، ولكنه كان مؤثراً على نحو مميز. قال الأمير: «انتبه يا أنت!» موجهاً حديثه إلى زايد المُنَخّس، وهو رجل من قبيلة بني هاجر عاش كثيراً في المدن وخدم الحكومة طويلاً. «انتبه جيداً. هذا الرجل -مشيراً إليّ- له مكانة عزيزة لدى الملك ولدينا جميعاً، تيقن من أن توليه كل عنايتك وأن تلبي كل احتياجاته بقدر ما تستطيع. ستأخذوه إلى الجافورة وحتى إلى سلوى والسكك ونباك حتى تصل إلى يبرين. واخدمه في كل الحالات كما لو كنت تخدمني، ومن هناك ستذهب إلى مَقينمة وما بعد ذلك لا أعرفه. فهو يتحدث عن وبار، فخذه إلى هناك، فلديك مرشدين يعرفون الصحراء هناك، ويمكنك أن تأخذه إلى حضرموت إذا ما عثرت على الأشخاص الذين خاطبتهم في رسائلي: سيف بن طنّاف وابن جالوت -لقد نسيت اسمه- وآخرين. تجنب المخاطر ولكن خذه إلى حيث يريد، حياته تفديها بحياتك، ولا تنس هذا. وعند عودتك عليك أن تأتي عبر الصحراء، وحتى عبر الربع الخالي، إلى وادي الدواسر؛ فقد سبقك رفقاؤك إلى الدليقية، وستذهب أنت مع الرجل بالسيارات، وفي حفظ الله. ولكن تيقن من تنفيذ كل أوامري وأكثر». وعندما انتهى من حديثه دخل رجلان المجلس، موفدان من قبل الملك، وإذ بهما شخصان أعرفهما حق المعرفة هما: إبراهيم بن جميعة وسعد اليميني اللذان رافقاني إلى وادي الدواسر عام ١٩١٨م [١٣٣٧هـ]. إنه لفأل حسن! تذكرت ذلك وأنا أقوم

بتوديع الأمير وأقبّل رأسه وأمسك محيياً بشدة على يده التي أطلقتنا في طريق المغامرة الكبيرة التي كنت أحلم بها.

خرجنا من المجلس وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء غداً. فقد كان كل شيء معدّاً وجاهزاً. وقبل أن أخلد إلى النوم قمت بسلخ جربوع كنت قد اصطدته في العقير، ثم أويت إلى فراشي ونمت نوماً متقطعاً أحلم أحلاماً مزعجة عن الجرابيع المسلوخة ومزواة مقاوم للصدأ. فقد كانت هذه آخر ليلة أقضيها تحت سقف.

صحوت عند الفجر، وكان الجو بارداً والكل نيام، ولم يمض وقت حتى بدأ السعاة في مضايقتي كل عشر دقائق يحثونني باسم الحاكم بأن أسرع في المغادرة، لأنهم سيحتاجون إلى السيارات التي خصصت لنقلي ورفاقي في نقل آخرين إلى حيث يعسكر ابن سعود في وادي الفروق. ولم يأخذ حزم أمتعتي وقتاً طويلاً، ثم قمت بعد الإفطار بتوزيع المكرمة على أولئك الذين خدموني أثناء إقامتي في الهفوف بينما كانت صناديقي تنقل إلى السيارات. وفي التاسعة صباحاً اجتمع لفيف من أصدقائي حول السيارة لوداعي، وكان وداعاً كئيباً مفعماً بنذير شؤم كأنه الوداع الأخير. لم يكن يهمني ذلك، فقد اختفوا عن أنظاري عندما انعطفت السيارة في شارع الكوت الرئيس.

كان صباحاً بارداً ورطباً والضباب المنخفض يكسو بساتين النخيل ونحن نمر عبر قوس «بوابة النصر» المظلم التي دخل منها ابن سعود الهفوف بعد استسلام الحامية التركية عام ١٩١٣م [١٣٣١هـ]. طفنا حول حيطان المدينة قبل أن نتوجه صوب الصحراء والضباب يلف المكان وتحدد مدى الرؤية إلى ٢٠٠ ياردة وتختفي معالم العالم من حولنا، وكانت البداية التي دخلنا من خلالها

عالماً مجهولاً. وشعرت آنذاك وكأنني طائر سجين أطلق من قفصه، وربما اعتراني شعور بالرهبة والارتباك، ولكنني كنت سعيداً للغاية. فقد زالت أخيراً القيود التي كانت تجثم على روحي وتكبلني، وها هو (البعبع) الكئيب الذي كان ينتابني زمناً يدعوني إلى الأرض الموعودة. فقد بدأت المغامرة الكبرى.

بدأت وبطريقة فنية أُدوّن مسافات بعض النقاط المميزة التي مررنا بها مثل: حصن خِزَام، وبستان الثُلَيْثية، حيث أقامت عائلة القصيبي مضخة دون إحراز نجاح يذكر، وبعض الآبار المهجورة التي تلوح مبانيها الفوقية من خلال الضباب وكأنها المشانق. وكانت صورة سوق الخميس العامرة التي حضرتها يوم الخميس الماضي ماثلة أمامي، وكنت آنذاك أتساءل كم من الوقت سأظل رهين مدينة الأحساء ومباهجها التي لم تكن تعنيني بشيء. وكان سعدان يرتعش من البرد والخوف ويتكور في مقعده بين زايد وعبدالله، بينما جلست أنا في المقعد الأمامي مع السائق. وانطلقت السيارة عبر سهل جيري قاحل به بعض التموجات ويكسوه غطاء رملي خفيف حتى مررنا بعد عبور رقعة «حدبَة الطلاعيَّة» الحصوية، بالجزء الصحراوي من «الغويبَّة»، وهي رقعة فسيحة من الرمال يكسوها غطاء رقيق من الرمل الخشن وتتناثر عليه مجموعات من نبات الشنان[1]. وأشار السائق إلى درب سيارة ينحرف من طريقنا في اتجاه تلال «جبل أرباع»، وهو معلم واضح في الطريق وإن كان لا يرى آنذاك بسبب الضباب الكثيف، ويوجد بين صخورها المعراة عدد من الكهوف التي يرتادها حاكم الأحساء ورفاقه كثيراً أثناء رحلاتهم الترويحية أو لصيد الحبارى والغزلان. وتحكي الآثار المتعرجة لعربات الصيد في الصحاري الرملية سهولة التحرك والمناورة هنا مقارنة

(١) لمزيد من المعلومات عن جميع النباتات المذكورة في هذا الكتاب انظر الملاحق.

بمنطقة السبخات[1]، التي كانت تقع أمامنا، حيث تصعب الحركة والتي سوف نعبرها بعد الظهر.

ظهر أمامنا فجأة من خلال الضباب حائط طيني يضم بعض أشجار النخيل. لقد اجتزنا عشرة الأميال إلى «الدليقية»، وسوف يمر وقت طويل قبل أن نستخدم السيارات مرة أخرى بعد هذا. توقفنا ونزلنا من السيارة، وبرز بضعة رجال من خلال الضباب لتحيتنا وبدؤوا في تفريغ الشاحنة. وكانوا جاثمين يرتعدون من البرد ويتدفؤون بنار تشتعل أمام خيمة ذات عمودين، كما كانت هناك خيمة ذات عمود واحد دائرية الشكل وفسيحة ومزدانة بالصور تقف بعيدة عرفتُ أنها مخصصة لي. وعلى موقد آخر كان يغلي مرجل به أرز مخلوط بالزبدة الصافية التي تسمى «سمن» لوجبة الفطور[2]. وإلى حين إعداده بدأ التعارف ببقية أفراد الرحلة. كان هناك سعدان الذي عرفته قبل حوالي أسبوع، كما سبق وأن تقابلنا مع زايد وابن معدّي، نائب قائد الرحلة وإمَامُها، أما البقيه فلم أرهم أو أسمع عنهم من قبل، وربما كان ذلك أفضل: أن تكون بدايتنا خالية من أي تحيز وأفكار مسبقة عن بعضنا. وقد بادر بعضهم بالسلام عن طريق اليد في حين اكتفى الآخرون بإشارة السلام، وتبدو عليهم علامات الرجولة والخشونة والشدة وقوة التحمل، وإن كانوا آنذاك يرتعشون من البرد، إذ كانت درجة الحرارة في منتصف النهار قد بلغت ٥٠ درجة فهرنهايت.

جلسنا نحن الثلاثة عشر حول صينية الأرز الكبيرة نعزز ونقوي بها زمالتنا الجديدة. وكانت المناسبة مهمة بما يكفي ليبرر هذا العدد من الرجال الذين

(١) السبخة هي منطقة منبسطة أو واد ذو أملاح.

(٢) مثل سمن الهند المسمى بـ «Ghi» ولكنه يصنع عموماً من حليب الماشية.

يثير مجرد ذكر أسمائهم في ذهني ذكريات مؤلمة وسعيدة عما يمكن أن أصفه بأعظم وأحلى تجربة في حياتي.

كان قائدنا هو زايد بن مُنَخّس، وعبد الله بن معدي نائبه وإمام الرحلة، وكان من قبيلة سبيع من بني عامر، ولكنه مثل زايد كان من أبناء المدن ويأتي من واحة رنية. أما قبيلة آل مُرة الكبيرة التابعة للصحراء الجنوبية الكبرى فقد كان يمثلها أربعة أعضاء هم:

علي بن صالح بن جهامان[1] من بطن الغفران، كمرشد رئيس، ومحمد ابن حميّد من البطن نفسه، كدليل. وسالم بن سويلم من بطن الدمنَان، كدليل. وسُوَيّد بن هادي العَزْمة أيضاً من البطن نفسه، كدليل.

أما قبيلة العجمان فكان لها ثلاثة ممثلين هم:

حسن خُر الذيب من بطن آل جمعة، وفالح أبو جَعْشَة من بطن العرجة، وفرّاج، خال فالح من البطن نفسه.

أما العناصر غير القبلية فقد كان يمثلها الآتي:

سعد بن إبراهيم الوشمي من ضرما، وكان المسؤول الخاص بناقتي والسروج وغيرها.

عبد الرحمن الخُرَيْبش من ضرما أيضاً، المسؤول عن إعداد القهوة، وزيد بن حُبَيْش، الطاهي. وعبد العزيز المسْيند، المسؤول عن حيوانات النقل. وسعدان، مرافقي الخاص، وسبق أن عرّفت به.

كانت هذه هي الفرقة التي التقيتها في الدليقية وتتكون من خمسة عشر شخصاً بما فيهم أنا، وكان اثنان منهم منهمكين في أداء بعض الأعمال عندما

(*) يرد هذا الاسم في كتاب فيلبي بصيغة Jahman أي جهمان ولكن الصحيح هو: جهامان. (المراجعون).

قدم الغداء، كما تأكدت بأن أربعة آخرين سينضمون إلى الفريق عند مرورنا بصحراء الجافورة وهم:

حميّد بن الأمحج من قبيلة المناصير (جماعة آل بو رحمة).

صالح بن عزيز من قبيلة المناصير (جماعة آل بو منذر).

علي بن صالح؟ من بطن البحيح من قبيلة آل مرّة.

محمد بن راشد، أيضاً من بحيح.

وهكذا كانت مجموعتنا الكاملة تشكل تمثيلاً مرضياً لثلاث قبائل صحراوية هامة هي: قبيلة آل مُرّة -حوالي ستة أشخاص-.

قبيلة المناصير (اثنان)

قبيلة العجمان (ثلاثة)

ولكنني كنت أغالب شعوراً بالإحباط لغياب ممثلين من القبائل الجنوبية مثل: ساعر والمناهيل وراشد وبطون أخرى من آل كثير، إذ لم يكن أحد من هؤلاء موجوداً في الأحساء آنذاك، وما كان علينا إلاّ أن نأمل في تجنيد أفراد مناسبين من بعض قبائل الرمال الجنوبية بمساعدة خطابات ابن جلوي. وكان زايد وابن معدّي يمثلان العنصر الحضري الذي مازال يحتفظ بعلاقة قبلية بينما كان الباقون من أبناء المدن قد تم اختيارهم لأداء مهام معينة.

هذا ما كان بالنسبة للعنصر البشري للرحلة. أما بالنسبة لعنصر النقل فقد كان لدينا ٣٢ جملاً كلها نوق، ما عدا جملاً مخصيّاً، من سلالة العمانيات المشهورة، وكلها من الرمليات[1] التي تربى خصيصاً للعمل في الرمال عكس

---

(١) من الرمل.

تلك التي تربى على المشي على أرض صلبة. وكانت ثلاث منها نياق حلوبة -أي نوق مسوح[1]- وكانت واحدة منها قد خصصها ابن جلوي لاستخدامي الخاص. وكانت قيمة هذه الجمال تترواح ما بين ١٥٠ و٢٠٠ إلى ٥٠٠ ريال، وهذه أسعار تعد مرتفعة بالنسبة للجزيرة العربية حاليّاً مع أنها كانت أكثر ارتفاعاً أثناء الحرب. ويمكن الحصول على أسعار أفضل لجمال الركوب من الدرجة الأولى في مصر والسودان.

بدت ميرتنا من المؤن وكأنها وفيرة؛ لأننا زودنا على افتراض أن الرحلة ستستغرق ثلاثة أشهر. وفي الحقيقة إن ما تبقى منها عند نهاية الرحلة بعد شهرين ونصف كان قليلاً جدّاً، وكان الأرز والتمر يشكلان أهم جزء من الميرة -بالإضافة إلى قلتين من تمر الخلاص لاستهلاكي الشخصي بأمر حاكم الأحساء-، ومعهما القهوة والشاي والسكر والسمن وملحقاتها من الهيل والقرفة والبصل والملح والفلفل... إلخ. ما عدا الدقيق الذي نسينا أن نتزود منه وافتقدناه كثيراً أثناء الرحلة إذ يعد الكنيز المعروف بالحنيني المصنوع من الرغيف المعجون بالسمن والتمر والسكر أفضل طعام يقيم أود الجائع في الصحراء. فقد كان أكل الأرز المطعم بالسمن كل يوم مملاً ومتخماً، وخاصة عند السحور في رمضان. وصحيح أنه كان في حوزتي حوالي درزن من علب البسكويت لاستعمالي الخاص، والفضل يعود إلى سعدان، ولكنه لا يغني عن الرغيف العادي. وكان يعز على نفسي أن اضطررت إلى التهام البسكويت بسرعة لاستخدام علبها كأوعيه لجمع الحشرات والأحافير والعينات الأخرى التي كنت أجمعها أثناء الرحلة.

حاول شخص كنت أظن أنه من أفراد الفرقة أن يبيعني صقراً بسعر مغرٍ

---

(١) مفردها مسح أي النوق الحلوب بدون صغارها، بينما «الخلفة» تعني النوق الحلوب مع صغارها.

مستخدماً شتى أنواع الحيل والخداع، ولكن سعدان اكتشف حقيقة الطير كما أن زايد شكك في قدرته على القيام بما تقوم به الصقور المدربة. وكان أن اعتذرت عن شرائه وقفل الرجل عائداً إلى الهفوف مع السيارة. ورأيت بجانب نار المخيم فخ طير بسيط في شكله ولكنه متقن الصنع كان قد تركه بعض الصيادين، ونسينا نحن أيضاً أن نأخذه معنا، وبذلك حُرمنا من وسيلة صيد الطيور الصغيرة في الصحراء. ولكنني نجحت في النهاية بتأمين عينة منه في بيشة ولكن لم نكن في حاجة إليه آنذاك مع أنني اتخذت من حادثة الدُّلَيْقية فرصة لأشرح لرفاقي لهفتي لجمع الطيور والثدييات والمخلوقات الأخرى، وأبديت استعدادي لمكافأة كل من يعاونني في تحقيق ذلك الهدف.

هيأنا جواً من الصداقة والألفة أثناء أول وجبة نتناولها سوياً وجلسة القهوة التي تلت، وشعرت بامتنان عندما لم يمتعض رفاقي من الاعتراض الذي أبديته على اقتراحهم بتأجيل بدء الرحلة إلى الصباح. فقد كانوا يفضلون قضاء بعد الظهيرة يتدفؤون وكنت أرى أن لا نضيع وقتنا دون مسوغ. وكان الملك -علاوة على ذلك- قد وصل الهفوف وكنت أرغب في أن أكون بعيداً حتى لا يتم استدعائي. ومن ثم عكفنا على تقويض الخيم وتحميل صناديقي في محاسن[1] قوية من الخيش مصنوعة في الأحساء وترتيب الأحمال وإعدادها.

وبينما كان رفاقي يقومون بتحميل الأشياء، تجولتُ قليلاً أتفحص المزرعة الصغيرة التي كانت تتكون من بيت وحيد من الطين يتوسط بستان النخيل الذي يحيط به حائط بداخله بئر. وكانت بقعة صغيرة من جذامة الدخن

(١) المحاسن أو الخصايف مصنوعة من ألياف النخيل التي يتم تركيبها على هيكل دائري من الحبال، ويعد حجم الثقل والتحمل لهذه الأشياء أمراً مذهلاً.

تحتل مساحة من الأرض المسوّرة، بينما حقول قمح صغيرة تتناثر خارج السور. ويبدو أن المزرعة التي يملكها شخص يدعى ابن وُتَيْد من الدواسر لم تكن مؤجرة آنذاك.

كانت الأحوال المناخية كئيبة، إذ كانت رياح باردة تهب من الشمال الشرقي عبر أرض كئيبة المنظر، وعلى الأفق يخيم ضباب رمادي اللون تطل الشمس باهتة من خلفه بين حين وآخر. ولم نكن نأمل أن نتقدم كثيراً في سيرنا فيما تبقى لنا من وقت بعد الظهيرة، ولكن كان علينا أن نبدأ لندخل في روتين السير اليومي ونعتاد عليه، كما كان من رأيي أن ركوب الجمال ولو لمسافة قصيرة سينشط الأعصاب التي اعتادت على الراحة طويلاً، إذ إنني لم أركب جملاً منذ الحج الماضي في أبريل، ولم أكتسب خبرة جيدة من ذلك، وقبل ذلك لم أتمكن من ركوب الجمل منذ رحلتي من رابغ إلى وادي فاطمة ذهاباً وعودة، وذلك عام ١٩٢٥م [١٣٤٣هـ].

بدأت الرحلة الساعة الواحدة والنصف ظهراً وتحركنا تاركين نخيل الدليقية تختفي خلفنا كالأشباح في الضباب، ثم مررنا مباشرة بقصر قَرادي المهجور الذي كان يقع وسط قفر رملي تتناثر فيه الحصى هنا وهناك، وبينها مجموعة كبيرة من الكوارتز الأبيض. ثم توقفنا بعض الوقت لاستعادة جمل شارد وترتيب حمله من جديد. ويبدو أن الأحمال كانت ثقيلة على الجمال مع أن النوق التي تحمل أمتعتي كانت أسرع في النهوض من تلك التي تحمل معدات المطبخ. وكانت ناقتي ذات سنام ضخم أبدو من فوقه كأنني أطل عليهم جميعاً من علوٍّ شاهق، ولهذا لم أجد (البحرانية) -وهذا اسمها- مريحة في الركوب، فقد كانت بطيئة رغم خطواتها الواسعة وتغوص بخفها على الرمل، وكان الشيخ حمد أمير البحرين قد أهداها إلى ابن جلوي.

ثم دخلنا بقعة تتكون من حيود رملية (ضلوع) منخفضة تكسوها أعشاب الشنان بغزارة والتي يصنع من رمادها نوع من الصابون الجيد يصلح لأغراض الغسيل، في حين ينتج نبات الحرمل الأكثر ليونة نوعاً رديئاً من الصابون يضر بالملابس. وصلنا إلى قصر ذُوَيْبان الذي كان يقع وسط هذه المنطقة المتموجة وتوقفنا عنده نتفحصه. وكان مبنى مهجوراً شبيهاً بالقلاع، ويوحي بأنه كان مسكوناً في الماضي البعيد عندما كانت الآبار والعيون تجري بالماء والزراعة تمارس، كما يشير نمو شجيرات الطرفا بغزارة في المكان المجاور إلى وجود مجرى ماء زحفت عليه الرمال؛ كما أكد وجود بئر جافة ذلك الانطباع. أما المبنى فكان في حالة متهدمة ويبدو أنه كان حصناً يتكون من طابقين مساحته حوالي ٤٠ خطوة مربعة، ويتصل به فناء بمساحة ٢٥ خطوة مربعة من الجهة الشرقية. ووجدنا بين الخرائب شظايا من الفخار العادي وأسورة زجاجية وما شابه ذلك، وكانت تبدو شبيهة لتلك التي وجدناها لاحقاً في يبرين، وأيضاً للمخلفات التي عثر عليها الرائد تشيزمان في سلوى عام ١٩٢١م [١٣٤٠هـ]. ويصعب تحديد أعمار هذه المخلفات، وسأتناول هذا الموضوع بتفصيل أكثر مع مخلفات يبرين. ولكن المعلم الذي أثار انتباهي أكثر هو ألواح وشظايا صخر أُحفوري هش يبدو أن الذين قاموا ببناء القصر قد استخدموه بكثرة لتقوية المبنى الطيني. ولم يعثر -حسب معلوماتي- على هذه الصخور في منطقة الأحساء مما يوحي بأنها قد جلبت من الجرف الممتد على طول الساحل الذي يبعد كثيراً من هنا. وقد توجد مواد مشابهة في حصن سلوى، وليس في يبرين، ويبدو أنه ينتمي إلى عصر الميوسين. فإذا كان قصر ذويبان يمثل بقايا استيطان قرمطي يعود إلى القرن العاشر الميلادي أو نحو ذلك فإنه الآن -وكما رأيناه- مأوى للضباع والذئاب والبوم، ويقف دليلاً على كيف يخسر الإنسان صراعه مع رمال الصحراء الزاحفة.

دخلنا -بعد بدء الرحلة مباشرة- مجرى واسعاً من السبخة، وهو عبارة عن شريط من الطين المخضب بالملح يبلغ عرضه حوالي ٥٠٠ياردة يفصل سهل الغويبَّة من تلال مطيوي الرملية المتموجة. ويمتد المجرى المالح نحو الداخل حتى آبار الخُوَيْرة، ومنها يجري في اتجاه الشمال وهو يتدرج حتى ضواحي الجشة والطَّرَف عند الحدود الشرقية لواحة الأحساء الكبيرة. وكنت قد وجدت عند مروري عبر هذه الأماكن في طريقي من وإلى العقير بحيرة كبيرة إلى الجنوب من الطريق الذي سلكته.

بدأت ألاحظ أن زايداً، الذي كان يَدَّعي بأنه يعرف هذه المنطقة تماماً، قد بدأ ينحرف من الطريق المباشر الذي يؤدي إلى آبار مطيوي التي أبديت رغبتي في رؤيتها. ويبدو أنه فعل ذلك عن قصد ليبحث عن مكان نعسكر فيه للمبيت. ورأيت أنه من المناسب أن أحتج بلطف على إجراء أي تعديل للخطط دون استشارتي. فاعتذر بأنه لم يكن على علم برغبتي لرؤية تلك الآبار «البائسة»، ومن ثم غيَّر اتجاهه نحوها دون أن ينبس ببنت شفه. وأرسل في الوقت نفسه جمال الأمتعة مباشرة إلى معسكر متفق عليه، بينما تبعنا نحن الضفة اليمنى لمجرى السبخة لنصف ساعة حتى وصلنا آبار مطيوي التي كانت مجرد حفرتي ماء صغيرتين يبلغ محيطهما قدمين وعمقهما ١٠ أقدام حتى منسوب الماء. وكانت فتحة كل بئر محمية بغطاء مصنوع من خشب الأثل، وتحيط بهما أرض عارية تناثر فيها روث الغنم. وكذلك وجدنا آبار الخويرة التي كانت تقع على بعد نصف ساعة ركوب من آبار مطيوي.

سحبنا بعد الظهر -الذي كان قد تقدم كثيراً- ماءً دافئاً وتوضأنا به واصطففنا بجوار البئر لأداء أول صلاة في الرحلة. وعادة ما تقصر الصلوات عند السفر إلى اثنتين: صلاة الظهر والعصر تقصران وتجمعان،

كل صلاة تقدم بإقامة منفصلة، وتؤدى صلاة المغرب كاملة وتتبع مباشرة بعد الأذان بصلاة العشاء قصراً، في حين تؤدى صلاة الفجر كاملة. وهذا نظام بسيط وعملي يعكس واقعية الرسول ﷺ وتقديره للصعوبات الكامنة في مجتمع يقضي معظم وقته في الحل والترحال.

تركنا الفناء المجاور للبئر المحاط بالروث ودخلنا مرتفعات رملية قوية متماسكة تقع في اتجاه الشرق تاركين على يميننا -على مساحة ميل- حيداً صخريّاً منخفضاً. ولاحظت وجود نسبة عالية من الحصى الأسود بين الحصباء التي تتناثر في هذه المنطقة وتتخللها بعض شجيرات الحرمل، ووراء كل شجيرة يمتد ذيل من الرمل لمسافة أربعة أو خمسة أقدام في اتجاه الريح التي تأتي من الجنوب الشرقي. ثم دخلنا في الساعة الرابعة والنصف منطقة كثبان متموجة قال زايد بإبهام بأنها حمارير[1] الثُّوَيْر. وكان من الواضح أنه يبذل قصارى جهده ليبدو مرحاً وودوداً ومولعاً بالحديث، ولكن صوته كان يتروح بين النباح والحدة، بينما كان تصرفه وسلوكه يشوبه التزلف والتظاهر بالتقوى والتكلف. وكم كنت أنزعج من طريقته في لفت انتباهي واحتكاره الحديث معي أيضاً، وذلك بالتدخل عارضاً المساعدة والشرح كلما شرعتُ في التحدث إلى بقية الرفاق الذين أبدوا تحفظاً واحتراساً من البداية. ولكنني تحملته على مضض آملاً في مجاملته لبعض الوقت حتى يغير تلك العادة مع أنني أبديت رأياً خاصّاً بأنه لا يرقى إلى مستوى الأدلاء الذين عرفتهم في الماضي. ولكنه كان المرشد الوحيد الذي كان موجوداً آنذاك.

(١) مفردها حمرور وقصد به الكثبان الرملية المماثلة للنفود، ويبدو أن كلمة «النفود» لا تستخدم كثيراً في هذه المنطقة الجنوبية.

جاء صوت يحيينا من جهة اليسار عبر الرمال المتموجة، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في أحضان المخيم الذي أقيم وسط كثبان في بقعة تعرف بمطرب، حيث وجدنا الخيام منصوبة والشاي جاهزاً. وكان الجو بارداً وأعصابي مشدودة مع أننا لم نركب أكثر من عشرة أميال. وكانت رؤية نار المعسكر تبعث البهجة فتوجهت إليها أتدفأ قبل زيارة خيمتي، وجلست حولها أستنشق الدخان الصاعد من حزمة حطب الشنان ذي الرائحة الحادة. ومع ذلك كنت أشعر بأن أطرافي باردة وأعصابي مشدودة، وكان من الأفضل أن أتجول قليلاً على قدمي لأجدد دورة الدم في عروقي، ولكنني آثرت البقاء بقرب النار، وأمطرني رفاقي بأكواب من الشاي المحلى بحليب الناقة. وفجأة شعرت بالتوتر وعدم الراحة، فاستلقيت برأسي على سرج لأبدد ما بدا كنوبة غبية من التشاؤم والمزاج الصفراوي أو البرد، ولكن دون جدوى، وقمت متوجهاً إلى خيمتي وأنا أترنح، وساعدني أحدهم في الدخول منحنياً، وهناك شعرت بدوار مخيف وأصبت بإغماءة استمرت حوالي أربع دقائق. وحسب إفادة سعدان فقد انقلب لون وجهي إلى الاصفرار واعتقدوا أنني انتهيت. أفقتُ من تلك الإغماءة وأدركتُ حقيقتها ثم ارتميت على سريري وأنا أتدثَّر بكل ما لديَّ من بطاطين وأغطية أخرى، ثم تناولت قرصين من الأسبرين للمساعدة على التنفس. ورغم الأغطية الصوفية والأحذية الجلدية[1] التي كنت ارتديها فقد شعرت بالبرد بشكل عجيب في قدمي، ولكن الدفء بدأ يدب في أوصالي حيث قمت بخلع الأحذية وبقيت مستخدماً البطاطين السخية بالدفء داخل الخيمة بعيداً عن

(١) تسمى بالزرابيل ومفردها زربول وتصنع في الأحساء للبدو وتشبه الأحذية الخاصة بالثلوج.

الرياح الباردة. بدأت أشعر بالتحسن وحالتي تتحسن إلى أن زالت الغمة، وجلست أتعجب من أن يحدث هذا في بداية الرحلة، وهي رحلة شاقة تتطلب اللياقة البدنية والصحية معاً. وتذكرت وأنا في هذه الحالة، تذكرت ما حدث لي قبل ١٨ شهراً، وخلال أحد أيام يوليو الحارة، في مدينة جدة، عندما انتابني فجأة مرض كاد أن يقضي عليّ. . وجلست أفكر. . هل هذا إنذار آخر من المولى بأن أسرع في إنجاز أعمالي الدنيوية، قبل أن أودع هذه الحياة. . ثم رحت في سبات عميق.

الفصل الثاني

الجافورة الشمالية

صحوت الساعة السادسة صباحاً على صوت علي بن جهامان وهو ينادي لصلاة الفجر. ولم يكن هناك أي أثر للوعكة التي ألمت بي في الليلة الماضية، وقمت من السرير وأنا بكامل قواي. فقد كان يوماً ميموناً يبشر بالنجاح، يوم الثامن من يناير، اليوم الذي أُعلنَ فيه على الملأ، ومن المسجد الحرام في مكة، تنصيب ابن سعود ملكاً على الحجاز وذلك في عام ١٩٢٦م [١٣٤٤هـ]. واعتبرته يوماً سعيداً في تقويمي الخاص إذ كان هو أول يوم كامل يمضي منذ بدء المغامرة الكبرى، كما كان يمثل آخر يوم من أيام شعبان. فإذا تمت رؤية هلال رمضان سيكون غداً هو أول يوم من أيام شهر رمضان المبارك. ولم نر أثراً للهلال في سماء الفجر الكاذب، لأن الصحراء كانت ترفل في غلالة كثيفة من الضباب جعلت الرؤية محدودة للغاية. فقد كان هذا اليوم يوماً يبشر بالخير، فتفاءلنا به خيراً.

خرجت من الخيمة مسرعاً حافي القدمين لأقف مع المصلين خلف ابن معدّي. وكان الرمل بارداً، ولاحظت أن معظم المصلين ينتعلون أحذيتهم، فالمذهب السلفي مرن ومعقول في مثل هذه الحالات، فقد رأيت المصلين يرتدون الصنادل في ساحة المسجد الكبير المليئة بالحصباء بالرياض، وكذلك في الصحراء يقومون بالشيء نفسه.

كان الجو بارداً لمواصلة السير مباشرة بعد الصلاة؛ ولذلك تجمعنا حول النار ندفئ أنفسنا بشرب الشاي والقهوة والحليب المغلي، وقررنا أن تبدأ الرحلة في سيرها بعد أن تبعث الشمس في أبداننا بعض الدفء، وإلى حين ذلك اتكأت على قربة تحتوي -على ما أظن- ملحاً أو سكراً، ولكنها كانت

قربة ماء مجمد مما استدعى جمع كل قراب الماء حول النار لتذوب. وكانت آلة قياس درجة الحرارة الموضوعة خارج الخيمة قد سجلت ٢٧ درجة فهرنهايت. أيمكن أن يحدث هذا في الجزيرة العربية المشهورة بحرها القائظ! نعم فقد شهدت في الرياض والصحراء ومدينة الهفوف فترات صقيع وثلوج في الشهر الماضي، وكان هذا الشتاء أبرد شهر يذكره الأحياء، فقد كان بالتأكيد أول تجربة لي وإن كنت أعرف أن درجات الحرارة تتدنى أحياناً إلى ما دون الصفر في منطقة نجد(*). ومن ثم لم يكن مستغرباً أن يبدو الرمل كالجليد تحت أقدامنا وكأنه يحرق أخمصها كإبر حارة متقدة!

كان المعسكر يقع في منخفض تحيط به الكثبان، وكان الضباب قد انقشع قليلاً ليتيح لنا رؤية الأشياء لبضعة أميال من حولنا. ولكن المنظر الذي بدا لنا كان خالياً من كل معلم ما عدا تلال الثوير المنخفضة التي سنمر بها بعد قليل في طريقنا. وقيل إن البحر يقع في جهة الشرق على مسيرة يوم كامل بجمل سريع.

تقدمت قافلة الأمتعة وركبنا بعدها بعشر دقائق، وتحركنا الساعة التاسعة صباحاً بعد أن تناولنا فطوراً دافئاً من الأرز المطبوخ، ووصلنا، بعد حوالي ساعة من السير عبر تلال منخفضة من الرمال ثم عبر سهل فسيح من الحصباء، إلى مجموعة الحيود المتوازية التي تكوِّن تلال الثُوَيْر، ويبرز منها تلان منفصلان فوق المستوى العام للحيود. وبعد أن تقدمت قافلة الأمتعة، تسلق فريق صغير منا أحد التلين لإلقاء نظرة على ما حولنا من قمته، إذ يمكن، حسب قول رفاقي، رؤية بساتين الأحساء منها بكل وضوح في يوم

(*) أشار عدد من المؤرخين المحليين إلى حدوث برد شديد في منطقة نجد إلى درجة أثر فيها على النخيل وقضى على عدد كبير منها بسبب تدني درجة الحرارة الشديدة. (المراجعون).

صاف، ولكننا لم نر شيئاً بسبب الضباب. وتمتد منطقة الثوير إلى ثلاثة أميال شرقاً وغرباً وتحيط بها الرمال من كل ناحية في شكل حيود صغيرة تصطف بعضها وراء البعض. ويبدو أن سطحها، الذي تغطيه الرمال وتتناثر فوقه كرات من الصخور الأصلية المفتتة، يتكون من صخر رملي أبيض تحلل تدريجيّاً إلى لون بنفسجي باهت[1]. ويبدو صعباً تحديد ما إذا كان هذا الصخر نشأ أساساً من الترسبات البحرية أو بواسطة الرياح، ولكن يلاحظ فيه أنه يخلو من الأحافير تماماً كصخور هذه المنطقة كلها بما فيها صخور الصمان ومنطقة الأحساء. أما من الناحية الجيولوجية، فيبدو أن الصحراء الشرقية تعلو النتوء الكريتاسي الذي يمتد من مرتفعات العرمة وتكوينات منخفض الجيبان التي تنتمي إلى عصري الإيوسين والميوسين.

هبت ريح باردة علينا ونحن في قمة ثوير التي ترتفع ١٠٠ قدم فوق سطح الصحراء جعلت بقاءنا عليها صعباً، ومن ثم هرعنا إلى أسفل التلة لنواصل سيرنا. ويبدو أن رفاقي كانوا يستغربون من تصرفي وسلوكي لأرى أشياء هكذا تبدو لهم سُخفاً مزعجاً. وعلى أية حال لم يكن هناك ما يستدعي رؤيته فلماذا نخرج عن طريقنا بحثاً عنه؟! لم تشهد هذه المنطقة وحتى نباك مطراً خلال هذا الفصل، ومن ثم كانت الصحراء قاحلة وجرداء في معظمها باستثناء نباتات متناثرة من العرفج والثمام وحشيش قصبي يعرف بالعندب - أراه لأول مرة-. وقد أحضر لي رفاقي -ونحن نسير أمس- قصبة مزهرة من فطر الذّنون كان ثعلب قد قضم منه جزءاً ولا يأكله البشر. وينتمي إلى هذه الفصيلة فطر آخر اسمه «الطرثوث» عاري الشكل وأكثر قذارة، وقد أحضر

(١) لمزيد من المعلومات الجيولوجية والصخرية انظر الملحق.

أحد رفاقي عينة منه بعد مغادرتنا الثوير مباشرة، وأشار بأن الإنسان يمكن أن يأكله كمسهّل صحي.

شعرت بأن تصلب الجسم الذي بدأت أشعر به في البداية قد أخذ يتفاقم مع تقدم الرحلة، وقد يكون للبرد ومشية ناقتي البطيئة دور في ذلك. واضطررت إلى تعديل وضع سرجي مرتين لأن سنام البحرانية الضخم كان يتحدى كل محاولات سعد السائس لوضع السرج بشكل مريح وفعال. وعلى الرغم من ذلك، قطعنا شوطاً كبيراً مع أن زايداً حاول جاهداً، ولكن دون جدوى، أن يختصر السير قبل أن ندخل منطقة الكثبان الكبيرة في المغمّضة والتي كانت تخلو من النبات إلى درجة تجعل البقاء فيها، أو عبورها إلى الجهة الأخرى، صعباً ومنهكاً.

بدأت أقيِّم رفاقي بأناة وبدون إثارة الريبة فيهم، كما كانوا هم يقيمونني. أبقى زايد نفسه في الضوء من البداية في حين احتفظ الباقون بنوع من الحذر والتحفظ حيالي وخاصة البدويين منهم، ومنهم علي بن جهامان الذي برز كنوع فريد بينهم، شخصية غريبة وغامضة، كثير التفكير والتأمل، وذي بنية رائعة وملامح سامية رشيقة. وكنت قد علمت بأنه سيكون دليلنا الرئيس عندما تصبح الحملة أكثر جدية وحسماً في الرمال الجنوبية، مما يستدعي التقرب إليه ومعرفته عن كثب. فقد جذبني بتحفظه الظاهري بالإضافة إلى أنه كان خالاً لحمد بن سلطان بن هادي الذي خدم برترام توماس في نفس وظيفة علي بن جهامان قبل سنة. وكان علي في شبابه قد انتسب إلى حركة الإخوان على الرغم من أنه ظل مشدوداً لحياة الصحراء إلى الحد الذي جعله

ينفر من السكن في الهجر التي أقامها الإخوان. واكتسب مع ذلك براعة وحذقًا في قراءة القرآن الكريم، وكان صوته الرخيم سيكسبه دوراً ناجحاً كمقرئ وإمام لولا نداء وإغراء الصحراء الذي نأى به عن هذه القيود. وقد عرفت لاحقاً أن الجشع والبخل ينخر في روحه وكيانه.

بدأت المنطقة بعد الثوير تتحول تدريجيّاً إلى براري رملية منبسطة ممتدة، بها بعض التموجات وتتخللها بقع حصبائية متناثرة، وظهرت إلى اليسار وعلى مسافة بعيدة أمواج رملية مرتفعة. وكان الجو بارداً جدّاً إلى الحد الذي جعل الحيوانات تأوي إلى جحورها وملاجئها، إذ لم تقع أعيننا على كائن حي طوال هذه الفترة إلا من غراب وحيد أطل علينا صباح هذا اليوم. وكانت الرمال، سواء في المنخفض أو على المنحدرات المكشوفة، تأخذ شكل الأمواج والحيود بفعل الرياح، بينما اتخذت خطوط الكثبان اتجاهاً يمتد في محور شرقي - غربي. وكانت جوانب الكثبان المدورة والناعمة تتجه نحو الشمال بينما قممها المميزة الحادة الانحدار تتجه نحو الجنوب في شكل هوة نصف دائرية أو كحدوة الحصان. وتوجد في حنايا مثل هذه الفجوات وعند قاعدة الكثبان نثرات خفيفة من الحصباء أو صخر أديم مكشوف يشكل أساس أو قاعدة كل هذه المنطقة. ثم بدأ الشكل الدائري «حدوة الحصان» يختفي تدريجيّاً مع تقدمنا تجاه الشرق والجنوب الشرقي لتحل محله حيود ذات شكل بيضاوي يحيط بها رمل يتوزع في انحدار هيِّن حولها. ويومئ موقع الرمل وخصائصه إلى سيادة الرياح الشمالية؛ وفعلاً كانت تهب علينا حينئذٍ ريح شمالية باردة وكئيبة ونحن نسرع في سيرنا.

بعد أن اجتزنا مجموعة الحافات الرملية المنخفضة، وقبل الظهر بقليل،

دخلنا منطقة تسمى «العرَيْف» تتكون من سهل رملي فسيح لا معالم فيها، ولكنه مثلم بفعل الرياح وتغطيه نباتات جافة. ولاحظنا قبيل وصولنا للموضع الذي تم اختياره للقيلولة، بأن هناك شخصين يلاحقاننا، وانهار قلبي عند فكرة أنهما رسولان من قبل الملك جاءا لاستدعائنا إلى الهفوف. ولكن اتضح أنهما فهد بن عيسى وجابر من أتباع وخلصاء ابن جلوي اللذين جاءا على أثرنا ومعهما بعض الأوراق الرسمية من وزارة المالية التي أغفلت في خضم الجلبة التي صحبت مقدم الملك إلى الهفوف، وقد أخبراني بأن الملك وصل الهفوف بعد ساعة أو ساعتين من رحيلنا وأنه قد يقضي جزءاً كبيراً من رمضان في الهفوف. ونظراً لأن الأوراق التي حملوها تحتاج إلى وقت كافٍ لدراستها فقد طلبنا من فهد ورفيقه بأن يصحبانا إلى المخيم.

يمكن اعتبار ضلوع الثوير بمثابة الحد الشمالي تجاه الأحساء لصحراء الجافورة الكبيرة التي تعد بدورها نتوءاً شماليّاً للربع الخالي. وهكذا فإن منطقة «العريف» تقع داخل حدود الجافورة. وحملنا مسارنا تجاه الجنوب الشرقي عبر برية رملية لا معالم لها إلا من ضلع منخفض عرّفه زايد لي باسم «عرق العَاذر» نسبة لكثرة نبات العاذر الأخضر الذي تعافه الإبل في شمال نجد لأنه سام. ولذلك اعترتني الدهشة عندما رأيت ناقتي تمد رقبتها لتقضم النبات برضىً تام. ويبدو أن النياق العمانية اعتادت على أكل هذا النبات دون أعراض جانبية. وبدأ نبات آخر يظهر بوضوح هنا وخلال بقية تجوالنا من الصحراء الجنوبية ألا وهو نبات العبل الذي ينمو إلى ارتفاع ٥ أو ٦ أقدام، ويتميز بجذوعه الكبيرة التي تشكل وقوداً جيداً، وبجذوره التي تمتد إلى عمق حوالي ٢٠ قدماً وكذلك أفقيّاً فوق الرمل لتستفيد من أي رطوبة تتجمع فوقه.

دخلنا بعد الظهر منطقة الكثبان الجرداء المعروفة باسم «المغمّضَة» والتي فيما يبدو تشكل جزءاً من الشريط الكبير ذي الخصائص المماثلة والتي أخذت تقترب من طريقنا من ناحية اليسار، وتمتد من ناحية الشرق إلى البحر ثم على طول الساحل. وكما يوحي الاسم فإن هذه المنطقة تفرض قيوداً على رؤية المسافر بحيث أنه لا يرى ما أمامه، ولذلك كنا نتعرج كالعمي بين ثنايا الكثبان ذات الشكل البيضاوي ونحن نبحث عن مخرج من هذه المتاهة. وأخذت التموجات تتخذ أشكالاً أكثر هيبة كلما تقدمنا، كما أصبح طريقنا محدداً بخطوط ارتفاع الروابي التي كانت أحياناً تمتد معنا في مجموعات متوازية. وكنا أحياناً نهبط منحدرات حادة وجمالنا تتمايل وتترنح نحو الأسفل مما يزيد من آلام جسمي وتصلب أعصابي. والتقطت عيون علي بن جهامان الحادة آثار أقدام فريق يتكون من خمسة جمال مرت من هنا على الأقل مساء البارحة، مؤكداً بأنهم من قبيلة آل مُرّة عائدين إلى حيواناتهم التي ترعى في الرمال البعيدة، وأنهم ساروا على الأقدام مسافة طويلة لإراحة إبلهم وكان أحدهم فتاة. قال علي: «نعم فتاة. وعذراء أيضاً وقد تكون حلوة كعادة بناتنا». وقد رأينا تلك الآثار مرات ومرات صباح اليوم التالي مع أننا لم نر أولئك الذين تركوها إلى أن انحرفت في النهاية من طريقنا، وتوقفنا عن تتبع أثر الفتاة الأنيقة والخفيفة لحسرة الجميع وكان أكثرهم حسرة علي الذي قال متفاخراً: «يا الله! نحن بنو مُرّة، إذا عرفنا ناقة يمكن وبكل تأكيد التعرف على آثار وليدها مع أننا لم نره قط».

أشار شريط عريض من كرات الروث وسط آثار أقدام الجمال المطموسة وشبه المطموسة عبر السنين إلى حيث توجد بئر النابت، والتي يحدد موقعها

الدقيق في ذلك المحيط الواسع من الكثبان المتموجة العارية، هرمان منخفضان من الرمل، أو كما بدا لنا عندما رأيناهما من جهة الغرب، على الرغم من أنهما اندمجا بشكل غامض في الفوضى العامة لأمواج الرمال المختلطة عندما اقتربنا منهما. وتعرف القمتان باسم «نقْيان البئر». ووصلنا عند البئر نفسها حوالي الساعة الرابعة مساء، وكانت تقع عند سفح منحدر رملي شديد الانحدار كان يهدد البئر بالاندثار. وكانت هنا بئر أخرى قريبة تجاه الشمال طُمست تحت كثيب كبير. وقد قام بطن النابت من قبيلة آل مُرّة بحفر هذه الآبار، ولذلك تشكل محور تحركاتهم هنا. ويبلغ عمق البئر حوالي تسعة أقدام حتى منسوب الماء. وقد حفر الجزء العلوي منه وبعمق تسعة أقدام خلال طبقة رملية مفتتة ومبطنة بخشب الأثل ليمنع انهيارها. أما باقي المهوى فقد حفر خلال حجر جيري أحمر اللون حتى مستوى الماء المرّ المذاق، أما فتحة البئر فتصل إلى ثلاثة أقدام مربعة.

انسحب زوجان محترسان من الغربان بعيداً إلى رأس كثيب عندما أحسا بمقدمنا، بينما وقعت قُبَّرَة جريئة صريعة رصاصة أطلقتُها وأصابت جناحها مما أدهش رفاقي الذين يفضلون أن تكون طريدتهم جالسة اقتصاداً للذخيرة.

لم نستطع سحب الماء من البئر نظراً لتخلف قافلة الأمتعة وراءنا، واكتفينا بأداء التيمم لنصلي صلاة العصر متأخرين. وبعدها واصلنا سيرنا عبر نفس المتاهة من الكثبان والمنخفضات ونحن نبحث عن أسهل الطرق وأنسبها في مثل هذه الظروف إلى أن وصلنا بعد لأي إلى نهاية منطقة الكثبان الرتيبة المنظر، واندفعنا بعدها بقوة ونشاط عبر سهل رملي هين التموج صوب الحافة الصخرية المكشوفة المعروفة باسم «الخَرْزَة» حيث توقفنا للمبيت.

وتقع على مسافة بعيدة في اتجاه الشمال حافةٌ مماثلةٌ تعرف باسم «منيفة»، وما عدا هذه المعالم كان كل شيء حولنا سهلاً رملياً رتيباً لا معالم فيه.

كنت جذلاً عندما ترجلت من الناقة، وتجولت قليلاً لأريح أعصابي المشدودة المجهدة، إنه أمر غير عادي أن يجعل ركوب الجمل الأعصاب والعروق نشطة ومجهدة في حين تعجز نشاطات أخرى عن ذلك! فقد كنت متألقاً جسمانيّاً وذهنيّاً مع أنني تصرفت بطريقة مثيرة للسخرية كرجل في الثمانين من عمره حينما أجلس على الأرض وأنهض منها ثانية. قلت لنفسي- إنه تدريب جيد، وخاصة أنه يهيئني للمهمة الشاقة التي تنتظرنا. وهنأت نفسي على الفكرة التي راودتني بأن أهيئ هجومي على الربع الخالي بتجول مبدئي لاستكشاف صحراء الجافورة، وعندما نصل إلى يبرين سأكون قد تعودت على تحمل المشاق وكيَّفت نفسي على المناخ. ولكن إذا تبين عكس ذلك ووجدت نفسي عاجزاً جسمانيّاً عن الاضطلاع بهذه المهمة، فهناك متسع من الوقت لأكرَّ راجعاً ونحن مازلنا غير بعيدين من المدنية. وإلى حين أن يأتي ذلك انحنيت بحذر لأجلس على الأرض وأطلب دون خجل مساعدة رفاقي لأنهض ثانية مستنداً على أكتافهم وأيديهم. أما امتطاء ناقتي البحرانية، فقد كان مستحيلاً دون مساعدة جيش من المعاونين.

يُعد حيد الخرزة، الذي يرتفع إلى ما بين ٤٠ أو ٥٠ قدماً فوق مستوى السهل المحيط به جزءاً مكشوفاً من صخر الأديم المتموج الذي يكوّن أرضية الصحراء التي تغطيها الرمال. ويبلغ طول الحيد حوالي نصف ميل، ويمتد في اتجاه شمال شرقي - جنوب غربي؛ وكما يبدو يتكون من صخر رملي ذي لونين قرمزي تتخلله شوائب ولون ضارب إلى البياض على السطح

الذي تكسوه حصوات ذات أشكال غريبة تشكلت من الصخور الهشة التي تتعرض دائماً للتحلل والتفكك بعوامل التعرية المختلفة. ويلاحظ هنا كثرة تلك الأقراص ذات اللون النحاسي التي تشبه عملة البنس الإنجليزية المتناثرة فوق الأرض. أما السهل فكان - على النقيض من منطقة المغمضة التي تركناها خلفنا- يتميز بغطاء نباتي شبه جاف تهافتت عليه الجمال وأخذت تأكله بنهم شديد، بينما زودتنا شجيرات العبل بالوقود الذي كنا نحتاج إليه.

قابلنا قبل وصولنا للكثبان التي تحيط ببئر النابت رجلاً آخر من أتباع ابن جلوي يدعى ناصر، والذي كان قد ذهب مع خادمي عبد اللطيف لاستعادة مقتنياتي من السيارة المهجورة والتي أعيدت في الوقت المناسب إلى العقير. وعندما قرر خادمي الذهاب إلى البحرين دون إذن مني توجه ناصر بمفرده إلى بئر النابت، وعندما لم يجد لنا أثراً هناك، كرّ راجعاً إلى الأحساء على أمل أن يلقانا في الطريق. وقد سررت باستعادة مقتنياتي، وكنت سعيداً برفقة عدد إضافي من الرجال في العشاء، كما وفد زوار آخرون. فقد سبقنا علي بن جهامان وتوجه إلى الخرزة يستطلع المنطقة المحيطة بحثاً عن معسكر بدوٍ يشتري منهم كبشًا نتعشى به، والتقى أسرة من بطن شيبة من قبيلة الغفران، ولكنه لم يجد ما يريده. وحل في المساء رجل عجوز يرافقه طفلان وشاركونا عشاءنا المكون من الأرز الذي التهموه بنهم وصخب.

ولما غابت الشمس كانت أعيننا تنظر في الأفق الغربي بحثاً عن هلال رمضان، ولما لم نر شيئاً جلسنا نتناول العشاء بعد أن تيقنا بأنه ما زال أمامنا يوم لشهر رمضان. ويوضح التقويم الرسمي، الذي أديت في إعداده دوراً متواضعاً بمساعدة التقويم البحري، أن شهر شعبان ٢٩ يوماً فقط. وترتبط

بداية ونهاية شهر رمضان ارتباطاً صارماً برؤية الهلال: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، وإذا تعذر رؤية الهلال فصوم ثلاثين يوماً كاملاً، ويعني عدم رؤيتنا للهلال أن شهر رمضان سيكون ثلاثين يوماً، وكنا نأمل أن يكون ٢٩ يوماً فقط.

مر اليوم بصفة عامة جميلاً، وقطعنا خلاله ٢٠ ميلاً وإن كان ذلك الجَمال قد أفسده حدوث مشادَّة كلامية بسيطة نشأت من تعديل غير مرخص لترتيب الأحمال على الجمال. فقد أصررت في البداية أن تحمل صناديقي المليئة بالمعدات والأواني الزجاجية وأدوات أخرى قابلة للكسر، في وضع رأسي، وإذا بي أجدها مكومة دون عناية، كل ثلاثة صناديق على جمل واحد بدلاً من صندوقين، وذلك بهدف إعادة توزيع أحمال جمال الميرة. وعلى الرغم من أن نيتهم كانت جديرة بالثناء فقد كان ضرورياً أن يفهم كل واحد من الرفاق بأن لا تتعرض ممتلكاتي لأي نوع من الضرر ولا يلحق بها أي أذى. وقد قوبل اعتراضي بروح متسامحة على الرغم من شعوري بأن الحادث قد ترك توتراً خفيّاً وراءه. فقد حرص فهد بأن يحاضرني حول سرعة تخفيف كل الأحمال بقدر الإمكان، واندهش من اقتراحي البسيط بأن التصرف اللائق في مثل هذه الظروف هو أن لا تُعرّض أجهزتي للخطر وأن نستأجر جمالاً إضافية من البدو لتخفيف الأحمال عن الجمال الأخرى. وتنشأ المشكلة في مثل هذه الحالات عادة من عدم قدرة البدوي من تكييف نفسه بسرعة لأي تعديل مطلوب لإجراء روتيني توارثه من جيل إلى جيل. ولم يكن هناك مجال للخنوع في هذه النقطة بالذات، وقد ارتعد رفاقي من اقتراحي بأنه إذا كان ثمة ضرورة لتخفيف الحمل فإن علينا إعادة الخيام مع الرجال العائدين إلى الهفوف غداً!

وصلت أعلى درجة حرارة سجلت ذلك اليوم ٥٩° ف، وكانت أدنى درجة حرارة سجلت اليوم التالي هي درجة واحدة تحت الصفر مما أدى إلى تجمد المياه في القرب. كان البرد لاسعاً، واجتمعنا حول النار نتدفأ حتى أشرقت الشمس ومعها بدأ الدفء يسري حولنا، وكان الرجال الثلاثة أول من غادر المخيم عائدين إلى الأحساء، ثم تبعهم في الساعة ٩ صباحاً ضيفُنا من قبيلة آل مُرة وطفلاه، وتحركنا نحن عبر حقل الرمل مروراً بحيد الخرزة، وظهر على البعد وعلى يمين مسارنا تلة لحافة صخرية أخرى يقال لها «الخرطم». وما عدا ذلك كان مظهر الأرض على العموم عبارة عن صحراء لا معالم لها وتتخللها بقع من صخور الأديم المكشوفة ذات لون قرمزي حتى وصلنا في الوقت المناسب صفّاً من الكثبان الرملية الناعمة المرتفعة نسبيّاً.

مررنا في طريقنا بمجموعات متناثرة من جمال تنتمي إلى بطن آل بُحَيح وهي ترعى حشائش جافة[1] وشجيرات العبل التي تنمو في السهل. وتبادلنا التحية مع فتاة من بطن آل زقيمة[*] وهي ترعى قطيعها وحيدة، مع أن خيمة والدها قد تكون في موضع منخفض ليس بالبعيد. إنها حياة متوحدة تلك التي يعيشها الرعاة البدو وإن اختلفت كثيراً في ظل حكومة ابن سعود؛ إذ لم يعد البدوي يعيش حياة الخدم كما كان يفعل من قبل. ومع ذلك فإن الجوع مازال يسود في الصحاري النائية، وليس هناك غير الأرز والسمن يطرد غائلة الجوع ويسكن أود البدوي، وخاصة في أيام الشتاء الباردة، وكانت الفتاة ترتعد من البرد تحت أسمال عباءتها القديمة، وهي تسرد لنا تنظيم عوائل وبطون مجموعتها القبلية.

---

(١) الثمام والسبط.

(*) كتبها المؤلف خطأ «آل زقيبة» والصحيح أنها آل زقيمة من بطن آل جابر (المراجعون).

تسربت أشعة شمس الصباح من وراء غلالة رقيقة من الضباب، وهَبَّ معها نسيم من الجنوب ليدفأ الجو بدلاً من الرياح الشمالية الباردة، وبدأنا نحس لأول مرة منذ مغادرتنا الأحساء بطعم الحياة ونحن نتهادى عبر ذلك المنظر الرتيب. وكان علي بن جهامان يمتطي ناقة يميل لونها إلى البياض يعدّها أفضل ما في قطيعنا، ويسبقنا على مسافة مع زايد الذي كان يركب ناقته الدراعية الفاقعة اللون[1]، وهو يستمع إلى حديث عن خبرته خلال حملة قادها لجمع الزكاة في المقاطعات الجنوبية الشرقية عند حدود عمان والتي عاد منها مع بداية شعبان. وقال زايد بأنه كان يصطاد في تلك الأنحاء الوضيحي الذي كان يرتاد أودية منطقة شعب الغاف أسفل جبلي حفيت. وبدأ يعدد مناقب نساء المناصير الجميلات، وأردف قائلاً: إذا شاء الله، سأذهب إلى هناك مرة أخرى العام القادم وربما نأخذ الشيخ عبدالله معنا ليرى تلك المنطقة.. وهي أفضل من هذه الصحراء دون شك، وسنرى بساتين النخيل والقرى والمراعي في كل مكان. إنها بلاد جميلة وأناسها كرماء، وهناك فتاة أريد الزواج منها. وكنت أرغب في أن أسمع عن نفوذ ابن سعود ومدى انتشاره في أرض الظاهرة، كما يسمون المنطقة الممتدة إلى الغرب من مرتفعات عمان بما فيها البريمي، وهي مركز نفوذ سعودي منذ زمن بعيد، وربما كان مثل هذه الحملات لا تجمع من الزكاة ما يكفي لتسديد تكاليف إعدادها وتجهيزها، ولكنها تنشر كلمة التوحيد في ربوعها، وهكذا تنتشر بكل تأكيد ويتوسع أسلوب الحكم المستقر من المركز إلى الأطراف وتتوحد البلاد تحت راية الإسلام وحكم مركزي مستقر تحت رعاية ابن

(١) نسبة إلى قبيلته الدروع الواقعة على حدود عُمَان.

سعود. وتعد قبيلة المناصير اليوم من رعايا ابن سعود الذي لا يطلب منهم إلا قبول سيادته عليهم والحفاظ على الأمن والسلام في ربوعها.

كان زايد يفتقر إلى بعض خصائص ومتطلبات الدليل الجيد، كثير التبجح بطريقة مميزة في الكلام المشوب بالتكلف الطريف والمزعج أحياناً، ولكنه كان قصاصاً بالسليقة ذا أسلوب متقطع وصريح ولا يكف عن التحرش بأعضاء الفرقة في أية لحظة، وكان مخزونه من الكلام لا ينضب ويُبدي امتعاضه من كل محاولة أقوم بها لإشراك الآخرين في الحديث.

كان زايد وعلي يمتطيان ناقتيهما على الطريقة العمانية، أحياناً يجلسان القرفصاء وأحياناً ينحنيان على السرج الخفيف الأنيق المعروف بالحولاني، والذي يوضع على المؤخرة باتجاه الردف ويشد بملزمة خشبية صغيرة على السنام من الخلف والأمام. وكان الركوب عليه يتطلب توازناً. ويبدو لي أن السرج العماني هو نوع محسن من سرج نجد الذي تعوزه الرشاقة والأناقة، فهو أكثر خفة وتماسكاً مع أنه يقلل من السعة التخزينية لعدل الخرج والذي يصنع في عمان بأحجام صغيرة ليتطابق مع شكل السنام الضيق، كما يسمح للراكب بمقعد على المصراع وبينه، وتحمل البندقية عند المصراع في غمد بدلاً من أن يكون متدلّياً من العمود الخلفي للسرج كما في نجد. أما بالنسبة لي، فقد وجدت عدل الخرج النجدي رحباً ومناسباً لتلبية احتياجاتي، مع أنني كنت قد بدأت أعاني كثيراً من خطوات البحرانية ومشيتها البطيئة المرهقة. فقد عادت مفاصلي تؤلمني وغدا جسمي متصلباً. فقد كان ابن جلوي شخصيّاً هو الذي اختارها لي لأركبها، وهو الضليع والخبير والمتمكن في كل ما يتعلق بالجمال وركوبها. وكانت المشكلة تكمن في أن الناقة قد

أطلقت في المرعى لفترة طويلة لتتغذى وتربي سناماً ضخماً جميل المنظر ولكنه لا يناسب الركوب. ورأى بعض الرفاق بأن أنتقل ولو مؤقتاً إلى ناقة أخرى، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد خمسة أيام حين بادلت سعدان ركوبه وشعرت بعدها بنتائج مرضية على أعصابي، إذ زال الألم الذي ربما كان سيزول أصلاً بعد فترة كما يحدث أحياناً. وعندما عدت إلى ركوب البحرانية لاحقاً لم يعترينى ألم مع أن مشيتها كانت كما هي بطيئة تحتاج إلى وكز وحث على السير دائماً، ولم أفارقها بعد ذلك إلا لساعات قليلة عندما استلزم الوضع الحث في السير في نهاية الرحلة حين كنا نعبر الصحراء. وعندئذٍ ركبها زايد وأخذتُ أنا الناعرية، الناقة البيضاء الوحيدة التي كانت تنهب الأرض في المقدمة تحت قيادة علي بن جهامان. وكانت البحرانية تظهر جدارتها عند الخبب حين يكون وقع أقدامها وخطواتها جيدة، مع أن الخبب صعب في رحلة صحراوية مثل رحلتنا هذه. فقد ركبت البحرانية أيام الحج بعد العودة من الرحلة فوجدتها بالحق مريحة وممتعة تماماً.

سألت زايداً وعلي بن جهامان وأنا ألحق بهما: «فيم تتحدثان وأنتما بعيدان في المقدمة؟ هل هي أسرار لا تريدانا أن نسمعها؟». فأجاب علي ضاحكاً: «لا. إنها مجرد ثرثرة. نتحدث عن الرحلات والغزوات والنساء. فهذه طريقتنا نحن البدو لتمضية الوقت ودحر المسافات والتغلب على ملالتها.. أن نتجاذب أطراف الحديث». ولاحظت بعض الجراد أثناء سيرنا وسألتهما ما إذا كانا قد أبصرا أسراباً منها. فقال علي إنه رأى عدداً كبيراً من الجراد في منطقة الحبل حول عُرَيْرة في بداية شعبان وذلك عندما خرج يصطاد الحبارى في رفقة حاكم الأحساء. كما رأيت أنا سرباً طائراً من الجراد في مرتفعات

العرمة حوالي نفس الوقت بينما كنت أصطاد مع ابن سعود والسيارات تخترق السرب بحثاً عن الحبارى وتدهس الآلاف منها. وكانت أجسادها المشوهة تزين مقدمة السيارة والراديتور بينما الطائر منه يندفع على رؤوسنا ووجوهنا كالرصاص. وقد رأى زايد أيضاً أسراباً من الجراد في السكك في نفس الوقت أيضاً وذلك أثناء عودته عبر ذلك الطريق من حملة صيد لعمان. أما السرب الذي رأيته فقد كان يتجه صوب الجنوب ولكنها تفادت الأحساء بعون الله ولا يبدو أنه ألحق أي ضرر بالمحاصيل داخل حدود الجزيرة العربية.

توقفنا لساعة عند الظهر في سهل «مَرْبَخ[1] الصعقة» لاحتساء القهوة واستغليت ما سطع من ضوء الشمس من خلال الضباب في التجول بحثاً عن الحشرات وسط الحصباء المتناثرة في الرمال، وكان جرابي يحتوي على صعرور صحراوي واحد. وما عدا ذلك لم يكن هناك أثر للحياة في أي مكان مع أنني لاحظت آثار قُبَّرات بين الشجيرات وهي تبحث عن طعام. وثمة أكوام صغيرة من الرمل كانت تنتشر إلى جنوب شرقي الشجيرات بينما كان السطح في العراء -وفي نفس الاتجاه- يتخذ شكلاً مجعداً كقمم الأمواج المتكسرة على الشاطئ. وكانت هناك كثبان أكثر ارتفاعاً تقع بعيداً في ناحية الشمال الشرقي في بقعة يقال لها «عطشان»، بينما إلى الجنوب وعلى بعد ميل تقع مجموعة أخرى تعرف باسم «الهداب»، حيث توجد آبار «بحاث» التي تقع في بقعة حصبائية تنقطع عندها رمال الجافورة. وتعرف بقعة الحصباء هذه بالغَفَا وتمتد في اتجاه الجنوب نحو صف الحيود

(١) يطلق هذا الاسم على المنطقة المنبسطة أو الأراضي الصحراوية المتموجة ذات المراعي الكثيرة نسبيّاً.

الرملية حيث شاهدنا من على البعد فريقاً من الرعاة مع جمالهم. وفجأة ارتفع صوت ينادي: انظروا! هناك الكثير من حطب الوقود والشجيرات في كل مكان وكذلك المراعي. وكان ذلك إشارة إلى أن موعد التوقف للمبيت قد حان. وفعلاً نزلنا قريباً من رابية رمل بارزة تعرف باسم «زُبارة محميد» حيث نصبت الخيم، وكانت الحيود الرملية المجاورة تعيِّن بداية الجافورة بعد أن قطعتها البقعة الحصبائية. وكانت المنطقة تبدو أفضل حظّاً من ناحية ما ينمو بها من نبات مقارنة مع كل المناطق التي عبرناها، ولكن لم نكن موفقين في الحصول على اللحم. فقد أتى رعاة من آل بحيح إلى معسكرنا بزوجين ضعيفين من الغنم وطلبوا مقابلهما عشرة دولارات، ولدهشتي صمم زايد، الذي قال بأنهما لا يساويان أكثر من خمسة دولارات، على أنه لن يدفع أكثر من سبعة دولارات، ونجحت المساومة. ورأى أحدنا أثناء ذلك الهلال مرتفعاً فوق الأفق مما يشير إلى أنه هلال ليلتين، وكان أن هللنا بقدوم شهر رمضان واتفقنا جميعنا على الصوم خلال الرحلة كما يفعل البدو أثناء تجوالهم العادي، مع أن الصوم ليس لزاماً على المسافر. وبعد أن انتهينا من تناول العشاء العادي الذي يتكون من الأرز، واصل الطهاة عملهم طوال الليل للتكيف للوضع الجديد الذي يستدعي وجبة كبيرة عند السحور بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة صباحاً قبل النداء لصلاة الفجر وما يلي ذلك من إمساك عن الأكل حتى وقت الإفطار، كما يحرم التدخين والجماع أثناء الصوم. ولكن هذا لم يكن يعنينا بشيء إذ لم يكن هناك من مدخن إلا فراج العرجاني، وكنت أنا قد تركت التدخين مؤقتاً عند مغادرتي مكة قبل شهرين وحتى عودتي إليها في أبريل، كما أعلن سعدان عن نيته للتخلي عن التدخين عندما ترك كل أدوات التدخين في الهفوف.

نهض زايد وابن مسيند بوقار وهمة تناسب جلال وعظمة هذه المناسبة الكريمة، ولم تكن الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً عندما أيقظني صوت النداء للسحور الذي يتكون من صحن كبير من الأرز المطبوخ، ولم تكن شهيتي مفتوحة له ذلك الصباح. وجلب تغير القمر معه تغيراً ملحوظاً في الطقس، وبدلاً من صقيع الأيام السابقة، بزغ فجر ذلك اليوم كئيباً ومغيماً يشوب هواءه مسحة من الحرارة والرطوبة، ليتحول عند الظهر إلى برودة مصحوبة بريح جنوبية غربية عاصفة مثيرة للرمال من حولنا. وبعد أن تناولنا طعام السحور عاد الفريق إلى النوم لنستيقظ ثانية على نداء صلاة الفجر ثم نخلد إلى النوم بعدها حتى الساعة السابعة صباحاً حين دبت الحركة في المخيم إيذاناً بالتحرك. ولكنني تسببت في تأخيرهم قليلاً حتى أنتهي من تعبئة عينات الصخور والحشرات التي جمعتها خلال اليوم السابق. وشعرت بأنه لابد من الالتزام بروتين يناسب الظروف الجديدة، ولكنني ارتكبت خطأ فادحاً عندما نسيت أن أملأ ساعاتي بعد أن توقفت ذلك المساء.

كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحاً عندما بدأنا المسير في يوم كان -كما اتضح فيما بعد- من أمتع أيام الرحلة. وكنت أعزي نفسي للتأخير الذي تسببت فيه بأنه لن يكون هناك في رمضان ما يستدعي التوقف الكثير أثناء السير، ولكن لم نكد نسير لساعتين حتى بدأ رفاقي يرتعشون من البرد ويطالبون بالتوقف قليلاً لتدفئة أنفسهم بالنار. وأخبرتهم بأن يفعلوا ما بدا لهم، ولكنني في الوقت نفسه أوعزت لهم بأنني لن أشاركهم في ذلك في حالة أي توقف، وكان أن واصلوا السير لساعة أخرى قبل التوقف حتى نسمح لقافلة الأمتعة بالتقدم سيراً.

عندما تحركنا ثانية، كانت سلسلة كثبان المشورة الطويلة العالية -والتي كانت تمثل نتوءاً من الجافورة من جهة الشرق - تُرى من بعيد عبر طريقنا خلف البراري المتموجة حيث استقرت مجموعات عديدة من البدو الرعاة وهم يرعون قطعانهم في المراعي المنتشرة هنا. وكنا معظم أوقات الصباح نسمع أصوات الرجال والحيوانات، وهنا أخيراً افترقنا عن آثار أقدام البنت الجميلة ومجموعتها الصغيرة التي قابلناها لأول مرة بالقرب من بئر النابت، إذ اتجهوا نحو اليسار للبحث عن مضاربهم. وكان هناك مضرب صغير تابع للمناصير إلى يسارنا. ورأينا في نفس الاتجاه وعلى مسافة منا خيام الجماعة الذين قاموا بزيارتنا أثناء الليل، كما كانت هناك مجموعة من سبع خيام ومجموعة أخرى من أربع خيام توجد على مسافات قريبة من بعضها. ودنا منا بعد قليل فريق صغير من بطن راشد -من آل بُحَيْح- وبادرنا بالحديث، وكانوا قد قدموا مستعجلين عبر الرمال يرافقهم كلب سلوقي جميل، وقالوا بأن قبائل آل مُرّة والمناصير -دون جميع العرب- يربون أفضل كلاب الصيد. وكنا قد اتفقنا فيما بيننا أن نلحق واحداً من هذه الكلاب بركبنا ليزود قدورنا، وبمعاونة بندقيتي وبنادق رفاقي، بالأرانب.

كم هي جميلة تلك اللقاءات التي تتم بين العرب في الصحراء.. كيف يحيون بعضهم البعض بطريقة رسمية مطولة ومكررة. إذ يبدأ كل عضو من أعضاء الفريق بتبادل نفس السؤال والتحية والسلام مع كل أعضاء الفريق الآخر فرداً فرداً ثم يباشرون أعمالهم. السلام عليكم! وعليكم السلام. كيف حالك يا صالح؟ بخير. وكيف أنت يا علي؟ بخير. ربنا يعطيك الصحة! ربنا يحسن حالك! كيف أنت؟ بخير. ثم ينتقلون فجأة إلى

الرسميات: ما هي أخبارك؟ ويحدث في معظم الحالات أن يكون الأشخاص الذين يلتقون مصادفة في الصحراء على معرفة شخصية ببعضهم بينما شخص كعلي بن جهامان قد يكون معروفاً بالشهرة لدى كل شخص. فهو يدّعي بأنه يعرف رؤساء كل عائلة من عوائل آل مُرّة، وأنه على معرفة بالآخرين وخاصة وسط بطن الغفران. كما يبدو أن زايداً كان معروفاً إلى حد كبير لدى المجموعات التي قابلناها. واكتشفت أنه بدأ يتودد إليّ كثيراً بعد كل مقابلة ويشعرني بنواياه الطيبة نحوي. ولكن لم تطاوعني نفسي في أن أتملقه أو أجامله في ما يخطط له ليكون له حظوة عندي ويكون محط اهتمامي، كما لاحظت أنه بدأ يغار من علي الذي بدأت علاقتي معه تتحسن مع زوال الاحتراس الغريزي البدوي إثر تبادل الحديث والأخذ والعطاء اليومي معي.

توصل الرائد تشيزمان[١] إلى أن قبيلة آل مُرّة تتحادث بلهجة لا يفهمها العرب الآخرون، ولا أجد ما يبرر هذا الاستنتاج من وحي تجربتي، إذ إن لغتهم عربية دون شك، بل عربية جميلة وأقرب إلى اللغة التقليدية، وتذكرني في نواحٍ كثيرة بلغة مناطق الحجاز الجبلية المتداولة حول الطائف، أي لغة قريش وبني سفيان والذين يشتركون مع قبائل آل مُرّة في تليين أو تخفيف صوت حرف «الجيم» إلى «الياء»، ونطق حرف الضاد شفاها. وقد سمعت بني سفيان يشيرون إلى عاصمة نجد «ريال» بينما ينطق بنو مرّة «حرل» لـ «حرض». وسأعود إلى هذا الموضوع فيما يتعلق بالمناصير لاحقاً. وحسب ما يقول علي بن جهامان، وكما هو متوقع، فإن لكل قبيلة «الغوة» أو طريقة مميزة في الكلام، ولكن اللغة التي يتحدث بها الجميع -آل مُرّة

(١) في كتابه «في الجزيرة العربية المجهولة» ص ٢٢٥.

والمناصير والعَوامر وبنو كثير، والصيعر . . . إلخ- هي اللغة العربية، ويبدو أنهم لا يتكلمون لَغة أخرى بلهجة أخرى أو ما يسمى بالرطنة. وقال علي بأن الحراسيس(*) أيضاً يتحدثون ويفهمون اللغة العربية العادية ما عدا الـمَهْرَة التي تتحدث بلهجة لا يفهمها العرب الآخرون.

وسأتحدث أنا عن تجربتي الخاصة بالقبائل العربية الأصيلة ودون أن أتعدى على الجوانب الجدلية للمسألة، وسأجازف بالوصول إلى الاستنتاج بأن لهجات الجنوب -والتي تعرضت دون شك إلى تشوهات بالاختلاط مع لغات أجنبية وافدة وحضارات اليمن وحضرموت القديمة- تمثل مزيجاً لغوياً ذا خصائص سامية أكثر من بقايا اللهجات الأصلية النقية ذات الأصول غير السامية. ولكن الموضوع يستحق دراسة متأنية ودقيقة، ويكفينا الآن ما يقوم به السيد برترام توماس من دراسات عن اللغة ومواضيع أخرى اختلفت آراؤه فيها مع الاستنتاج الذي توصلت إليه وعرضته بإيجاز أعلاه. ويبدو لي بأن رأي تشيزمان فيما يتعلق بقبيلة آل مُرّة يجب أن يرفض كرأي يصعب الدفاع عنه، فهو لم يدَّع أنه خبير في اللغة العربية أو أحد الضليعين فيها وأن مشكلته في فهم كلام من تعرف عليهم من قبيلة آل مُرّة يمكن عزوها إلى حقيقة أن بدو الجزيرة العربية لم يساوقوا أفكار الحديث الخاص بهم إلى المستوى النثري الحديث، فهم ما زالوا يفكرون ويتحدثون بمصطلحات شعرية. ولأبرهن على ذلك فإنني أقتبس جملة من حديث لمريّ هو محمد بن حُمَيّد، جرى في نفس هذه الرحلة التي أسجل أحداثها: دبت الحياة -يقصد المطر- في الخريف ولكن البَرَد أحرقه وأتى عليه -أي النبات- . ففي عالم الفكر فإن البدوي العربي -وإلى حد ما رجل الحضر العربي- يختلف تماماً عن أولئك الذين

(*) الحراسيس: قبيلة عمانية، امتدت في عمان من حضرموت، وهي فرع من أسرة مهرا، أهلها سنيّون، من غافر، انظر: ويلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص٢٩٠. (المراجعون).

تلقوا تعليمهم المطور في الغرب، وإن تأثير الدين في الحديث واضح في الجزيرة العربية كما كان في إنجلترا إبان عصر البيوريتان(*).

انضم إلى رحلتنا مجندان آخران من معسكر بطن راشد وهما: محمد بن راشد، وعلي البحيحي مما زاد عدد فرقتنا من آل مرّة إلى ستة أعضاء، وكانت مهمتهما العناية بالإبل عند الرعي، ولم يكن ذلك مكلفاً مادياً بالنسبة لي، إذ كانا يركبان أي جمل دون مقابل مالي إلا ما ينالانه من مكرمة أنفحها لهما وللآخرين، ومع ذلك كانا يعملان بهمة ونشاط وخاصة الشاب محمد الذي برهن على فائدته للحملة فيما بعد.

كان طريقنا يقع عبر منطقة مربخ نموذجية الشكل: أرض رملية منبسطة تكسوها أعشاب جافة وبعض الشجيرات المتناثرة. وأحدث ظهور نَسرَيْن في الجو تحولاً في اهتمامنا حاول خلاله ابن حميد اصطيادهما متبعاً مناورات معقدة ولكن دون جدوى، بينما رفض علي بن جهامان إبراز براعته في التصويب على مثل هذه (المخلوقات التافهة) قائلاً: إن صائد الظباء لا يجري وراء جيفة كهذه! ولكن حدث لاحقاً أن اعترف أن أستاذه في الدين أثناه -عندما كان يتلقى دروساً في الدين- عن صيد الطيور المحظورة (المحرمة). وكان علي قد قطع شوطاً في دراسته مكنته من القراءة وإن لم يصل إلى مرحلة الكتابة، ويبدو أنه الآن قد نسي القراءة أيضاً بعد أن انقطع عن الدراسة. وكان يتملكه فضول ذهني غريب لمعرفة ما يدور، وكان

(*) البيوريتانية: حركة إصلاحية لتطهير الكنيسة الإنجليزية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، هدفت إلى الامتداد بالإصلاحات داخل الكنيسة إلى مستوى أكبر مما وصلت إليه في بداية عهد الملكة إليزابيث الأولى. وأطلق اسم البيوريتان على أولئك الذين رأوا أنه من الضرورة تطهير الكنيسة الإنجليزية وتخليصها من بقايا الكاثوليكية الرومانية. (المراجعون).

مأسوراً ببحثي الدؤوب عما كان يعتقد بأنه علم، وكان يشعر غريزيّاً بأن ما أقوم بجمعه من حشرات وحصى لم يكن مضيعة للوقت بل إن هناك هدفاً وراءه، وكان يتساءل دائماً عنه وتواقاً لمعرفة ذلك الهدف.

بدأت الرمال تفسح المجال لرقعة واسعة من الحصباء الخفيف تناثرت عليها شجيرات الرمث والعراد، وبدت على بعد ميل أو ميلين أمامنا، ومحيطاً بنا من جهة اليمين، سلسلة كثبان الجافورة والتي سنعبرها مرة ثانية عند نتوء الماشورة. وكانت بقع عريضة من الرمل الخفيف تتناثر هنا وهناك في السهل الحصبائي، ثم مررنا بمضرب خيام بدو، واندهشت لرؤية فراشة «السيدة الملونة» وهي تطيرمن روث جمال مكومة في معسكر مهجور، وكانت أول فراشة يقع عليها نظري منذ أن غادرنا الأحساء، وإحدى القليلات التي رأيتها أثناء تجوالي. كما لاحظت آثار الحبارى بصورة مكررة وإن لم نر الطير نفسه إلا مرة واحدة لأنها هجرت أماكنها المألوفة إلى أخرى معزولة هرباً من الغزو البشري لهذه الأماكن، وبعيدة عن منال حملات الصيد بالسيارات. فقد كان ابن جلوي، مثل الملك نفسه يصطاد الحبارى بمعدل ٥٠ إلى ٦٠ طيراً في اليوم أثناء رحلاتهم للصيد. ولا أدري كم من الوقت سيمضي قبل أن يتولد لدى هذا الطير- الذي ربما يأتي مهاجراً إلى الجزيرة العربية لتتوالد فيها- مقت وكراهية لتلك الأماكن المفتوحة التي تلاحقها السيارات السريعة فيها وتلجأ إلى أماكن أكثر وعورة حتى تستطيع أن تتكاثر. وطائر مهاجر وموسمي آخر لونه أبيض باهت[1] كان يُرى كثيراً من قبل، ولكنه لم يعد يوجد بالكثرة التي كان يوجد بها في أماكن أخرى

(١) الدراجة أو الدرجلان. (الملحق).

من البلاد. أما الغزال فلم نره أبداً في رمال الصحراء العظيمة الممتدة بين الهفوف والسليل، كما أثار انتباهنا هنا ذلك الغياب الكلي للطيهوج الذي يكثر في الأحساء والذي لم نر له أثراً إلا بعد وصولنا السليل.

وبينما نحن نغذُّ السير عبر سهل يتناوب فيه الرمل والحصباء، أشار بعضهم إلى حيث تقع آبار القراين على مسافة حوالي ساعتين من الركوب وسط كثبان الجافورة، وكانت عبارة عن بئرين جافتين مطمورتين بالرمال وبئر واحدة توفر ماء مالحاً على عمق ثماني قامات[1]. وطار زوجان من طير الدرجلان من أجمة من الشجيرات كنا قد اخترناها للتوقف عندها قليلاً. وتجولت أبحث عن كائنات أخرى بينما جلس الباقون حول النار يتدفؤون. وقد بدا لي أن كل بقعة صغيرة من هذه البقع الحصبائية لها مستوطنتها الخاصة من الكائنات الغريبة وتساءلت: هل هناك اتصال بين هذه المستوطنات عبر هذه الحواجز الرملية التي تفصل بينها؟ نادراً ما تجد هذه الكائنات على الرمال حيث تبدو ظاهرة للعيان و يمكن رؤيتها بوضوح؛ ولكن ما أوحشني هو أنها كثيراً ما تكشف عن نفسها بتحركها بدلاً أن تبقى ثابتة دون حراك حتى لا ينتبه أحد لوجودها؛ وكثيراً ما لفتت انتباهي وأنا على ظهر ناقتي بحركتها وسط الحصباء ثم خلودها للسكون فترة تتيح لي إخراج العلبة ثم اقتناصها وإيداعها فيها. ولا أدري على ماذا تتغذى هذه الحشرات ولكنها دون شك تشكل طعاماً جيداً للقُبَّرة والطيور الأخرى التي ترى آثار أقدامها واضحة في كل مكان على الرمال.

---

(١) يبدو أن متوسط القامة البدوية هو حوالي خمسة أقدام وست بوصات حسب ما توصلت إليه خلال الاختبارات المتكررة.

كانت سرعة الرياح قد بدأت تشتد عندما عاودنا المسير، مثيرة سحابة من الرمل حولنا، ولكن لحسن حظنا لم تدم هذه الظروف طويلاً إذ سرعان ما هدأت الرياح بعد الظهر وأصبح الجو محتملاً. ومررنا وسط هذه المنطقة المقفره برجل عجوز يرتاح على الرمل بجانب خيّال يقيمه البدو عادة حتى لا يضل القطيع طريقه في الصحراء، ولكننا لم نر أثراً لقطيعه وإن بدا لنا على مسافة بعيدة أشباح سوداء لم نعرف كنهها: هل هي شجيرات أم أغنام؟ وكان الشيخ فيما مضى رجلاً ذا مكانة مرموقة ويدعى محمد بن لهيم، اشتهر بين قومه -قبيلة آل مُرّة المحاربة- ببراعته في المعارك وشدته فيها، ولكن لم يعد الآن في شيخوخته صالحاً إلا لرعي الغنم ليكسب قوته، وقد يلقى حتفه هنا وتحتضن رمال الصحراء التي يكسب معيشته منها رفاته في النهاية. عرفنا من الشيخ أماكن تواجد بعض عناصر المناصير التي نأمل أن يلتحق بعض شيوخها بقافلتنا، وقال الشيخ: «ستجدونهم في مكان ما وسط حيود الخيالة الرملية». وبعثنا فراج وابن حميد للبحث عنهم والالتحاق بنا غداً عند مخيم المساء.

دخلنا بعد مسيرة قصيرة كثبان الماشورة التي قطعناها عبر ممر متعرج لكنه متصل من الحصباء تحيط به على الجانبين أمواج من تكوينات النفود. وبدأت خصل طويلة من الرمل تتدفق، مثل الرايات في مهب الريح، من قمم وأعالي الكثبان، وتخفي ما بها من شجيرات أسراباً من الجراد ذات لون وردي مشوب بالصفرة. وكان لافتًا ومثيراً أن نجد مستوطنة معزولة كهذه في صحراء لم تَجُد علينا حتى الآن إلا بعينتين أو ثلاث وفي فترات متقطعة. ولم تأت هذه المستوطنة -حسب علمي- إلى هنا لتتوالد، وكان علي بن

جهامان يشاركني الرأي ويقول بأن وقت التوالد يكون بعد أن يسمن الجراد على نبات الربيع الذي لم يحن موعده بعد. ويملك البدو معرفة تقليدية متوارثة عن الجراد الذي يعتقد بعض منهم بأنه يأتي من خياشيم الأسماك، ويطلقون على الجراد اسم «التهامي» نسبة إلى سهل تهامة المطل على ساحل البحر الأحمر، حيث يأتي إليه قادماً عبر البحر وتتوالد هناك لتنتج الجنادب التي تلحق أضراراً بالغة بالمحاصيل التي تقع في طريقها. وبعد أن تكبر تبدأ الطيران في الجو في شكل أسراب وتعيث في الأرض خراباً حيثما حلت وتقضي على كل ما هو أخضر على الأرض، كما تزود العرب بإضافة محببة إلى غذائهم، ثم يختفي ما تبقى منه لا يدري أحد كيف وأين؟ ولكن بعض العرب يعتقدون بأنها تكف عن التوالد. وعلى الرغم من أن كثيراً من هذه المعلومات يشوبها الخيال وتفتقر إلى الدقة العلمية، ولكنها مفيدة جداً في تسجيل مواسم زيارات الجراد إلى الجزيرة العربية والاحتفاظ بسجلات عنها.

لم تعترضنا صعوبات تذكر في عبور رمال الماشورة التي خرجنا منها إلى سهل حصبائي آخر يفضي إلى ممر بين مجموعتين أخريين من الكثبان تعرفان باسم «طيبة اسم» و «قلاليت»، وبدت وكأن سلسلة المشورة الخارجية تمتد في اتجاه الجنوب إلى مدى البصر، كما تأخذ الكثبان الفردية نفس الاتجاه. ويقال إنه بعيداً من جهة اليسار يقع مورد مياه «خريقات العشائر»، كما يلاحظ أن خطوط الرمال في هذه المنطقة تتراكم شمال وجنوب الشجيرات الصغيرة التي تتناثر فوق السهل، ولا أستطيع أن أقرر فيما إذا كان هذا يشير إلى وجود توازن دائم بين الرياح السائدة، أو كما في الأرجح يمثل انتقالاً من الرياح

الشمالية التي كانت تهب مبكراً إلى الرياح الجنوبية التي تهب الآن. ومررنا بين هذه الكثبان إلى سهل حصبائي فسيح ذكّرني كثيراً بسهل ركبة العظيم الذي يمتد على طول الطرف الشرقي لجبال الحجاز.

كان كلام زايد وعلي يشوبه الغموض حول أسماء هذه الأجزاء، ولكنني ومن خلال سيل الأسئلة التي كنت أطرحها عليهما وتمحيص إجاباتهم المقتضبة والمتناقضة أحياناً، استطعت في النهاية أن أفهم طبوغرافية المنطقة. ويبدو أن رمال هذه الكثبان البعيدة تشكل حدود صحراء الجافورة من هذه الجهة بينما يمثل السهل الحصبائي انتقالاً من هذه الصحراء إلى المنطقة الساحلية التي يبدو أنها غير بعيدة، مع أنه لم يظهر في الأفق البعيد ما يشير إلى حدوث تغيير مفاجئ في منظر الأرض أو إلى ما يدل على قرب آبار الباعج التي اقترحها البعض كموضع مناسب للمبيت. وهنا لم نعد في حاجة إلى دليل يقودنا إلى حيث هذه الآبار؛ لأن الأرض كانت مثلمة بمسارات الجمال العديدة التي تمضي في اتجاه جنوبي شرقي إلى حيث توجد الآبار في أكثر الاحتمالات. وقادنا زايد على الرغم من قلة معرفته بطبوغرافية المنطقة في الاتجاه الصحيح عبر صحراء شاسعة تفتقر إلى معالم واضحة، وشعرت بأن عليّ أن أكافئه على هذا الإنجاز الكبير. فقد قمت تحت قيادته وإرشاده باستكشاف حوالي سبعين ميلاً من برارٍ لم تكن معروفة من قبل؛ ولم يكن لزايد خطأ في أن تخرج الخريطة التي أعددتها عارية من التفاصيل نتيجة هذه الرحلة، فقد كانت الجافورة امتداداً قاحلاً، وصحراء كئيبة تبعث على الملل. وقد طاف حول أطرافها الغربية الرائد تشيزمان وهو في طريقه من الهفوف إلى يبرين عام ١٩٢٤م [١٣٤٢هـ]، بينما عبرتُها أنا

قطرياً من عند ذراعها الشمالي حتى تخومها الشرقية، وسأعبر لاحقاً الجزء الجنوبي منها في اتجاه جنوبي - غربي حتى يبرين، وعند ذاك سأكوّن فكرة جيدة عن خصائصها العامة.

وبدا السهل الحصبائي ينحني ثم ينحدر نحو منخفضات صخرية تحيط بها جروف ورؤوس. فقد تركنا الجافورة وراءنا، وها نحن الآن نقف عند حافة الجيبان، وبعدها تقع -وإن لم تكن ظاهرة للعيان- مياه الخليج العربي الزرقاء.

الفصل الثالث

مصبات الجيبان الخليجية

ينتهي السهل الصحراوي المنبسط عند أطراف هاوية شكّل البحر معالمها المعقدة من الجروف المنخفضة منذ زمن قديم. وتوقفنا برهة عند حافة الهاوية لنلقي نظرة على المنظر البادي أمامنا والذي كان عبارة عن وادٍ عريض أو خليج يتجه نحو الشرق بين منحدرات صخرية تهبط هبوطاً هيناً متدرجاً نحو المنخفض، ويبدو المنظر وكأن الصحراء قد مدت ذراعيها لتحضن المنخفض. بينما رفع كل ذراع كتلاً كبيرة من الصخر إلى ارتفاع ٢٠٠ قدم أو أكثر. ومن الواضح أن مصب المنخفض ينتهي عند ساحل خليج البحرين ولكن لم يكن في مقدورنا أن نرى البحر الذي كان يتوراى خلف الرؤوس الموجودة في الطرف البعيد. ويعرف أكبر وأهم هذه الرؤوس باسم - ريع الحمدة[1] - والذي يقال بأنه يعيّن المنطقة التي يقطع عندها طريق الأحساء - قطر الرئيس، أو درب الساعي كما يعرف، الوادي ويتابع الساحل بعد ذلك.

سألت عليّاً: «ما اسم هذا الوادي؟». فأجاب بقوله: «لا اسم له. إنه أحد الجيبان ولكن لا اسم له، والله أعلم» كان هذا النوع من الإجابة مستساغاً في الصحراء الخالية من المعالم التي تركناها خلفنا، ولكنني لم أستطع أن أقنع نفسي بأن معلماً بارزاً مثل هذا الخليج الذي تحف به الجروف يفتقر إلى اسم. وقد يكون علي جاهلاً به فعلاً، ولكنني عبّرتُ عن استيائي وبقوة من إهمال زايد في الحصول على دليل كفء من وسط البدو الكثيرين الذين التقيناهم

(١) أو محدر حمدة.

في الجـافـورة، وكـان من الصـعب أن أكـتم غـضـبي وأحـتـمل مـثل هذا الاستفزاز، وكان أن تبادلنا كلمات حادة فيما بيننا ثم واصلنا السير في اتجاه الجنوب وعلى طول حواف الجروف في صمت كئيب.

وأثناء سيرنا دنا مني وفد صغير ومختار من بعض رفاقي لتهدئة خاطري وعقد صلح بيننا. بادرني الوفد: اسمع يا صاح! ، لا تلقي اللوم على عليّ، فقد كان يستحي من نطق اسم هذا المكان في حضورك احتراماً لك. فنحن كلنا نعرف اسمه.. إنه اسم بذيء يقال له «جوب الحِرّ[1]». إنه عادة البدو، إطلاق أسماء بذيئة على كل شيء دون خجل. وجدت أنه من الصعب أن أبدو مندهشاً أو مصدوماً بذلك، فضحكت بصوت مرتفع على كياستهم؛ إنها بالتأكيد خصلة جميلة في مكان غير متوقع.

وعندما طفنا حول جروف الطرف الغربي من الوادي واندفعنا عبر نتوء الصحراء الحصبائية التي تفصل الوادي من منخفض «جوب بعَيْج» المجاور أصبحت الحادثة المؤلمة في طيِّ النسيان. كان حديث رفاقي إلى ذلك الحين خالياً وبشكل غريب من الغش والبذاءة، ربما احتراماً لي ومراعاة لشعوري، ولكن بدا لي أن هذه القيود ستلغى قريباً -في الوقت المناسب- وستذهب أدراج الرياح، ويزول الإحراج ويصبح الحديث شاملاً لكل شيء جميل وقبيح.

وعادة ما يكون حديث العرب غير محتشم وصريحاً فيما يخص الجنس أكثر من كونه بذيئاً، بينما يكون أكثر الكلام شيوعاً -على الأقل وسط البدو وحسب خبرتي- حول الطعام وليس الجنس. وقد يكون ذلك طبيعيّاً في بلاد مقفرة حيث تتخذ الاستجابة للجنس شكلاً بسيطاً لا تعقيد فيه وإن اتسم بالشره والنهم.

(١) الحِرّ: فرج المرأة.

وصلنا -بعد توقف قصير في السهل الحصبائي لأداء صلاة العصر- مباشرة إلى حافة الجرف الذي يلف الجانب الشمالي لمنخفض «جوب بعيج». وهنا طلبت التوقف حتى أتمكن من دراسة المنظر على راحتي، ولكن الجزء الرئيس من القافلة واصل السير لاختيار موضع لإقامة المعسكر ونصب الخيام وإعداد طعام العشاء. كانت الجروف التي نطل منها والتي ترتفع إلى ما بين ٣٠ أو ٤٠ قدماً، تنحدر فجأة إلى قاع الوادي حيث تقع بئران على بعد نصف ميل من حيث نقف؛ وهاتان البئران تعرفان معاً باسم «بعيج». ثم يبدأ الوادي في الارتفاع تدريجيّاً صوب الجنوب إلى حيث توجد تلال رملية تمتد حتى الجرف البعيد الذي يحد رأس «خشم بعيج» من طرفه الشمالي الشرقي. وكان هذا المعلم يقع إلى الجنوب الشرقي من حيث نقف، وبين هاتين النقطتين تجري الجروف صوب الجنوب الغربي لتتحد على مسافة قريبة مع خليج ضيق، مشكّلاً رأس المنخفض من ناحية اليابسة، ويتفلطح المصب من هذا الرأس -وهو المصطلح المناسب لمنخفضات الجيبان- في شكل دلتا في اتجاه شمالي شرقي نحو البحر. ويكوّن رأس «ريع الحمدة» البارز حد الجرف الشمالي من جهة البحر وكذلك الطرف الجنوبي لـ «جوب[1] الحرّ». أما المجرى الحقيقي للمصب فإنه يجري صوب الشمال الشرقي وعلى طول الجرف الشمالي حتى السبخات التي تمتد إلى مياه خليج البحرين، بينما تنحدر في الجانب الجنوبي من الوادي -ومن رأس بعيج في اتجاه السبخات- مجموعة من المدرجات الصخرية الواسعة التي تتناثر فيها الكثبان والحافات الرملية. أما سلوى فتقع إلى شمال الشمال الشرقي من موضعنا مع أن نخيلها وكذلك البحر كانا محجوبين عنا بسبب

---

(١) كلمة جوب وجمعها جيبان تدل على الانحدار.

الضـبـاب . وكـانت تتناثر هنا وهناك على طرفي الوادي وبشكل غـريب مجموعة صخور متعرية ومتفرقة بارزة كدليل على عمليات التعرية والتجوية المتواصلة التي تعرضت لها هذه الجروف التي كانت بدون شك فيما مضى تكوّن شكلاً واحداً [١] . وتحتفظ إحدى هذه النصلات، وهي (نصلة الطرد)، بذكرى إحدى المعارك القبلية التي حدثت قبل ٣٠ أو ٣٥ سنة، عندما كان علي بن جهامان صبيّاً، بين قبيلة آل مُرّة التي كانت تسيطر على الآبار، والعجمان التي دخلت المنخفض عند هذه الصخرة وشنت الهجوم على آل مُرّة، واستمرت المعركة يوماً كاملاً كان النصر في النهاية حليف آل مُرّة. التي فقدت ٥٠ من أعضائها بينما كانت خسائر العجمان أفدح بكثير. وقد دارت المعركة في زمن كان المشاة يؤدون دوراً بارزاً في الحروب؛ أما الآن فإن البندقية الحديثة قد حلت محل الحصان في مثل هذه المعارك، كما ساد السلام والأمن والاستقرار خلال الثلاثين سنة التي حكم فيها ابن سعود هذه البلاد [*]، ملغياً بذلك الحروب والصراعات القبلية من برامج حياتها، ولم تعد لتربية الجياد أهمية تذكر بين قبيلة آل مُرّة المحاربة، وأخذ كل مهر وجواد يجد طريقه إلى إسطبلات ابن جلوي الذي يعد أفضل من يعرف أصول الجياد وأنسابها وخير من يتذوق لحم الجمال. فقد أصبح حاكم الأحساء أسطورة أثناء حياته، وما يروى عنه من قصص وروايات سواء كانت صحيحة أو غير ذلك لم ترو إلا عن خلفاء بغداد العظام.

---

(١) هذه الصخور المنعزلة تسمى نصلة.

(*) يشير المؤلف هنا وفي أكثر من موضوع من خلال المعاينة المباشرة إلى نتائج سياسة الملك عبد العزيز، مؤسس المملكة العربية السعودية، وجهوده التي أدت إلى الأمن والاستقرار وتوطين البادية وتطوير المجتمع البدوي والحضري على حد سواء وإلغاء النهب والسلب والحروب المعتادة بين القبائل والبلدان. (المراجعون).

سرنا أنا وعليّ على أقدامنا إلى حيث توجد مجموعة الآبار التي لم تبق منها إلا بئر واحدة، «بئر الطويلة»، استطاعت التغلب على تقلبات الزمن. كان الماء على عمق قامتين في الحجر الرملي، وجانب المهوى مبطن بإطار من الأثل لمنع انهيار التربة الغرينية اللينة التي حفرت من خلالها، وكان الماء يعبق برائحة بول الجمال التي كانت تملأ الهواء بنتانة كريهة الرائحة. وتوجد آبار أخرى أشار عليّ إلى مواضعها، ولكن لم تكن منتجة، أي جافة لا ماء فيها.

وكانت المجموعة الأخرى من الآبار تقع حيث تنتظرنا القافلة على بعد نصف ميل، وتختلف عن الأولى في كونها أكثر ضحالة ومن ثم تعرف «بالآبار القصيرة». كانت المياه توجد في بئرين منها على منسوب قامة واحدة من السطح، ولكنهما طمرتا كلية بالرمل حتى اختفى كل ما يشير إلى كونها آباراً إلا من روث الإبل التي كانت تتناثر حولها. وبينما كنا نَغُذُّ السير متجهين نحو مخيمنا رأيت كرواناً وسط الشجيرات التي تنمو في الرمال، وذهب علي وراءه لاقتناصه ولكن دون جدوى.

عندما وصلنا المخيم كانت الشمس على وشك المغيب، وأدركت أنني خلال أول يوم من الصيام والذي قطعنا خلاله ٢٤ ميلاً لم أشعر بالضيق ولا الجوع ولا حتى العطش مع أن عليّاً كان يعاني من صداع خفيف جراء الامتناع عن شرب القهوة، بينما كان آخرون يبدون كل مظاهر الضيق. وتجمعنا مع أذان صلاة المغرب حول النار وأفطرنا على تمر ثم تناولنا القهوة وبعدها قمنا لأداء الصلاة ثم قدمت لنا بعد ساعة وجبة مقتصدة من الأرز. ووعيت أثناء ذلك بما حل بساعتي من مأساة. ولحسن الحظ كنا على مقربة من سلوى التي حدد موقعها الفلكي الرائد تشيزمان عام ١٩٢١م [١٣٤٠هـ]، وفي الوقت المناسب سنزور يبرين حيث يمكن الاستفادة من دراسة تشيزمان عام ١٩٢٤م

[١٣٤٣هـ] هناك. وكنا نعتزم حسب خططنا التحرك من مخيمنا مباشرة إلى نباك ولكن أصبح من الضروري الآن أن أزور سلوى لأصلح تلك الهفوة، ولم يبدِ رفاقي امتعاضاً بقضاء يوم مريح أثناء غيابي في سلوى. واتفقنا على أن تتجه القافلة الرئيسة إلى أبو عرزيلة، وهو المصب التالي من جهة الجنوب، بينما نذهب أنا وبعض رفاقي إلى سلوى قبل المغيب لأضبط ساعتي، ومن هناك يمكننا التوجه إلى أبو عرزيلة عن طريق خرائب السكك المزعومة، وكانت الحادثة بركة؛ لأنه بدونها كنت سأفتقد استكشاف منطقة مثيرة للاهتمام، كما زودتني أيضاً بدليل مهم لحل مشكلة مصبات الجيبان

بدأت -بعد ركوب الناقة لمدة أربعة أيام- أشعر بتصلب في عضلاتي وإرهاق جسماني، وما عدا ذلك كنت أشعر بلياقة تامة رغم الصيام وقلة النوم الناتج عن انشغالي التام بمهام عديدة: كتابة مذكراتي أثناء الليل، وتعبئة ولصق بطاقات تعريفية على العينات التي جمعتها وما شاكل ذلك. فقد كان مهيناً ويبعث على الضيق أن أكون بهذا العجز وأعتمد على مساعدة الرفاق في النهوض، ومن ثم تم الاتفاق على أن أبتعد عن البحرانية. وكان نتيجة هذا القرار أن ركبت جمل سعدان في اليوم التالي. ووجدت -عندما رجعت إلى المخيم بعد نزهة طويلة لمسافة ٢٦ ميلاً- أن التصلب الذي كنت أعاني منه قد ذهب إلى غير رجعة. وهكذا قضيت خمسة أيام لكي أتكيف وأتهيأ جسمانيّاً لركوب الجمل الذي أصبح بعد الآن متعة خالصة. وربما قد حصلت على نفس النتيجة بركوب جمل آخر غير البحرانية نظراً لأن ركوبي الجديد الذي كان أخف وزناً وأقل حجماً وأكثر تماسكاً لم يصبني بأي ضيق مع أن ضميري كان يؤنبني تماماً عندما التف الجميع حولي ذلك الصباح ليساعدوني في امتطاء الجمل.

كانت جروف المصب تتسامق بشكل عظيم فوق الضباب المنخفض، في ضوء الفجر المبكر وحينئذ كانت الجمال تساق للآبار لتشرب لأول مرة منذ مغادرتنا للدليقية قبل أربعة أيام اتسم الجو فيها بالبرودة وعافت معظم الجمال الجرعات التي قدمت لها. فالإبل يمكن أن تبقى دون ماء سبعة أو ثمانية أيام دون معاناة في مثل هذه الظروف، كما يمكنها أن تصبر لعشرة أيام من السير المتواصل إذا ما وجدت مرعى مناسباً في الطريق. فقد كانت المراعي فقيرة في حالتنا هذه وكانت شجيرات الغضا التي تنتشر هنا وحول مخيمنا جافة بسبب الجفاف الذي ساد المنطقة مؤخراً. وكانت الأمطار التي هطلت في أواخر الصيف خفيفة ولم تكن كافية ليزدهر النبات في الصحراء من جديد. ولم نجد أثراً لنبات أخضر إلا بعد يومين وذلك في مرتفعات «جُدَيْرات» حيث وجدنا أول بشائر الاخضرار الذي يسبق أمطار الربيع حين تخضر الأرض ويزهر النبات.

انطلقتُ في الساعة الثامنة والنصف صباحاً مع فرقة صغيرة في اتجاه شمال - شرق نتتبع تضاريس الأرض حتى نتجنب الحافات الرملية المرتفعة. ومن قمة إحدى هذه الحافات ظهر البحر أمامنا، وبدأنا نهبط بالتدرج من الأرض المرتفعة التي تطل على الضفة الجنوبية للمصب. وكان سطح الأرض يتكون من صخر رملي هش تعرض في بعض الأماكن إلى عوامل التعرية التي أنتجت أشكالاً كنبات الفطر وتكوينات غريبة تشبه أضرحة ما قبل التاريخ الحجرية.

وظهرت أمامنا على البعد نخيل سلوى تحفها من جانب مياه الخليج الزرقاء ومن جانب آخر تل «قرن أبو وايل» ذو السطح المنبسط خلف

«السكك» على الجانب الآخر. وكان المنظر مهيباً ومثيراً للاهتمام بعد رتابة الجافورة الكئيبة، ولكنني كنت محتاراً إلى حدٍّ ما لأنني لم أكن قادراً بعد على استيعاب الدلالة الحقيقية لتكوينات الجيبان. وبدأت أعي تدريجيّاً وببطء الوضع وأنا أقلب النظر بعناية بين جروف الوادي والسبخات الواسعة التي كانت تمتد تحتنا وأمامنا. ولم أستطع مقاومة الاستنتاج بأن سلسلة الجروف المتقطعة والملتوية كانت تحيط بمصب قديم، بينما السبخات لا يمكن أن تكون غير قاع قديم للبحر انحسرت عنه المياه إلى خطوطها الحالية على جانبي نتوء قَطَر، والذي كان فيما مضى جزيرة كما هي البحرين حاليّاً لأن السهل السبخي - الذي ينخفض في بعض أجزائه دون مستوى البحر - يجري عبر النتوء من البحر إلى البحر. ثم هبطنا من المدرج الصخري الثالث إلى شريط ملحي يرتفع قليلاً من السبخات كاشفاً بذلك عن جزء من قاع المصب القديم. ومن هناك مررنا خلال حاجز صخري آخر ونحن نهبط إلى السبخة الرئيسة التي كانت عبارة عن سهل كبير بدا هشّاً وليناً تحت أقدام الإبل. وهنا سجّل جهاز الضغط الجوي نفس القراءة التي سجلت لاحقاً، عند طرف البحر في سلوى الواقعة على بعد خمسة أميال منا، مشيراً بأن كل هذا السهل الكبير المتسع يقع عند مستوى سطح البحر تقريباً، إما كجزء من القاع الأصلي للبحر نفسه أو كبحيرة ساحلية مفصولة بحاجز رملي شبيه بخيسات سلوى التي وصلناها بعد حين.

تنحسر حواف المصب هنا بعيداً من ناحية الشمال واليمين، ولم يبق إلا أماكن رملية تقطع امتداد السهل المنبسط. وكان الرمل ناصع البياض يحمل غطاء كثيفاً من نبات الشنان الأخضر والسُوّاد الذي كان يعطي إلى حدٍّ ما انطباعاً بالنتانة. وفي وسط الرمل تقع خيسات سلوى التي تحتوي على حفر

مائية ذات مظهر غير صحي بها ماء قليل الملوحة على عمق قامتين، وإن كان صالحاً للشرب. ويمكن حفر مثل هذه الآبار بسهولة في أي مكان داخل المنخفض. ورأيت ثلاثة آبار مبطّنة بالأثل بينما الآبار الأخرى عبارة عن حفر مفتوحة تكاد تختنق من فتات الصخور التي تنهار من جوانبها. وعلى الرغم مما يوحي به اسم المنطقة فإننا لم نر هنا أشجار نخيل قزمية[1] إذ تختلف تماماً عن سلوى الحقيقة. ويتضح من خط سير تشيزمان[2] بأنه لم يزر هذا الموضع، وأن القلعة الخربة التي تحرى عنها هي قلعة سلوى نفسها.

دخلنا بعد التلال الرملية سهلاً منبسطاً متماسك السطح وتغطيه حبيبات رملية خشنة، وتتناثر في أرجائها شجيرات الشنان. وأسرعنا في السير عبره ودخلنا بعد قليل السبخة مرة أخرى، وتتبعنا عبر سطحها المتماسك والناعم طريقاً سلكناه في صف واحد صوب نخيل واحة سلوى.

لفت البعض نظري أثناء سيرنا إلى آثار سيارة فورد وحيدة كانت قد قامت، بعد حج ١٩٣١م [١٣٤٩هـ]، برحلة مذهلة من مكة إلى أبو ظبي على ساحل الخليج العربي تحت إرشاد رجل من قبيلة المناصير. وكانت السيارة قد شقت طريقاً عبر شبه الجزيرة إلى العُقير ومنها تابعت الساحل إلى وجهتها الأخيرة. فقد كانت الرحلة بالحق إنجازاً عظيماً وأداءً باهراً تستحق إبقاءها حية في الذاكرة، وإن كنت لم أتأكد من المدة التي استغرقتها الرحلة. وبمثل هذه الأعمال الارتيادية البطولية بدأت شبكة من طرق السيارات العملية تشق طريقها ببطء ولكن بثبات عبر صحراء شبه الجزيرة العربية التي لم تكن تعرف قبل عقد من الزمان أية وسيلة من وسائل النقل غير الجمال.

---

(١) خيس، خييسة.
(٢) في كتابه «في شبه الجزيرة العربية المجهولة» ص ٣٣.

كانت هناك مسالك مماثلة، كتلك التي تتبعناها، قد بدأت تتجمع من اتجاهات عديدة نحو ميناء سلوى الذي لم يكن أكثر من مجرد شريط من طرح المد والجزر على ساحل لسان البحر الطويل الذي ينتأ أو يبرز في اتجاه الجنوب من خليج البحرين داخل قاعدة شبه جزيرة قطر. كان الميناء الذي يرسو فيه عدد من المراكب (الدهو) يقع قبالة مجموعة من نخيل مهجورة تطل على ساحل سلوى عبر المجرى الذي يبلغ عرضه حوالي ميل تقريباً. وكانت وجهة سيرنا تتجه مباشرة نحو أشجار النخيل الواقعة عبر السبخة التي تتحول عندما تقترب من البحر إلى بياض ملحي لامع مليء بالقواقع الحلزونية[1] التي تكثر في منطقة الأحساء، وعثرنا عليها في أماكن عديدة في الربع الخالي لاحقاً (انظر الملحق). وكانت القواقع تتهشم تحت أقدام إبلنا التي جفلت عندما اقتربنا من المجرى الذي ضاق إلى حوالي ٥٠ قدماً، وأصبح يعترض طريقنا لمسافة طويلة بعد ذلك. وكان الماء في المجرى عميقاً في بعض الأحيان مما يستدعي القيام بدورة واسعة تجاه الجنوب، ولكننا وجدنا أن عمقها لا يتعدى الركبة، ومع ذلك كان علينا أن نلاطف الجمال ونجبرها أو نقودها لخوض الماء، والتي بمجرد وصولها إلى منتصف المجرى حاولت الاستحمام بينما أخذ بعضها، الذي رفض شرب الماء العذب في (بعيج)، في مد رقابها الطويلة لأخذ جرعة من الماء المالح أثناء مرورها. ومع أن شرب الماء المالح في غير صالحها فإن العرب لم يظهروا أي تعاطف تجاه هذا السلوك الغريب منها. مررنا بعد عشر دقائق بأول مجموعة من نخيل ساحلية، ثم توقفنا عند المجموعة الثانية والتي كانت عبارة عن جذوع مهملة وبائسة يفصل بينها وبين الساحل حزام من صفصاف بائس المنظر،

(١) للمزيد من المعلومات عن هذه القواقع انظر الملحق.

وصف من حطام السفن الطافية على سطح الماء. وخرج علي خلسة يطارد كرواناً ببندقيتي بينما أسرعت أنا بتجهيز آلة الثيودولايت، في حين خلد الباقون الذين لم يكن هناك ما يشغلهم إلى النوم حتى أفرغ من مهمتي. وكانت هناك مجموعة كبيرة من الجراد تلتهم بنهم شديد جريد الشتول، وأخذت بعضاً منها وأضفتها إلى مجموعتي قبل مواصلة سيرنا عند الظهر.

تقع واحة سلوى الرئيسة -والتي تتكون من مجموعة متناثرة وغير منتجة من النخيل- على بعد حوالي الميل من الساحل، ومن أهم معالمها الرئيسة ذلك الحصن الخرب الذي يقع وسط مجموعة كثيفة من النخيل والتي تعتمد في نموها على عدد من العيون ذات المياه المالحة القريبة من السطح. وصادف أن التقينا بعدد كبير من جمال المناصير ترتوي من إحدى هذه العيون الموجودة في صحن الحصن عند وصولنا إليها. وقد أخذ بعض رجالنا يتجاذبون أطراف الحديث مع «راشد العبد بن مانع» وهو شيخ صغير جذّاب وسيم الطلعة كان في طريقه من الدوحة إلى الأحساء. وقضيت أثناء ذلك حوالي نصف الساعة أدرس الخرائب والواحة.

كان الحصن -وهو سياج مربع طوله ٧٣ خطوة ويتخذ اتجاهاً شرق الشمال الشرقي، وغرب الجنوب الغربي- يتكون من صحن أو غرفة سكنية في الركن الجنوبي الغربي، وفناء مفتوح يحتل ما تبقى من الحظيرة، وربما كانت مخصصة لإيواء إبل صاحبه في أوقات الخطر. وكانت الحيطان المنهارة تتكون من نفس الصخور الأحفورية التي رأيناها في «ذويبان»، كما أن التخطيط العام للمكانين يوحي بأنهما ينتميان إلى نفس العصر. لم أشغل نفسي بجمع الفخار والمخلفات لأن تشيزمان كان قد سبق وتحرى بدقة عن

هذه الخرائب عام ١٩٢١م [١٣٤٠هـ]. كما لم أقم بزيارة خرابة أخرى صغيرة تقع عند الساحل أو بالقرب منه، وخلفه كانت مياه الخليج المتألقة بظلال من اللون الأخضر والأزرق. ونخيل سلوى لا مالك لها ولا أحد يعتني بها، ويحصد إنتاجها السنوي من التمر كل عابر سبيل. إنها فرصة سانحة لمجموعة من البدو أن تستقر هنا بصفة دائمة، تحسّن وتستفيد مما تجود به البيئة. ويوجد من الأدلة ما يشير إلى وجود استقرار دائم هناك منذ زمن مضى، كما لا بد من تفسير لما حل بهذه الواحة من خراب في الوقت الحالي. «إنها الحُمَّى» كما قال زايد، التي تمنع الاستقرار في مثل هذه الأماكن، وقد حاول الإخوان الاستقرار في مناطق عديدة مثل: السكك ونباك وحتى يبرين ولكن الحُمَّى قهرتهم ودفعتهم إلى الصحراء. فالعرب لا يستطيعون مواجهة هذه الحُمَّى والموت بسببها، ولذلك تترك الأشجار دون رعاية لتتعهدها الطبيعة بالرعاية والتلقيح حتى تثمر.

قد تشكل هذه الحُمَّى الغريبة التي تصيب واحات الصحراء موضوعاً شيقاً للدراسة على يد الخبراء. فالعرب لم يتعلموا من تجربتهم بأن العلم الحديث يمكنه أن يعالج أو يخفف حدة هذه الحُمَّى على مستوى الأفراد، كما أن في مقدوره اجتثاثها من بيئتها الطبيعية، فإنني لم أر أثراً للبعوض هنا أو في أي مكان آخر، وحتى في الأحساء لم تعد الحشرة تشكل ذلك البلاء الذي تعاني منه مكة وجدة، في حين أن المدينة تكاد تخلو منها؛ أما الرياض فإنها تخلو من البعوض تماماً. وقد يشير هذا إلى أن الحُمَّى التي تجتاح واحات المنطقة الشرقية تأتي من مصدر آخر غير البعوض، وربما يأتي يوم يتم فيه القضاء على هذه الحُمَّى هنا مما قد يزيد من الرقعة الزراعية في الجزيرة العربية.

واصلنا رحلة التفتيش مهرولين تجاه ذلك المعلم البارز الذي يمثله «قرن أبو وايل»، وهو عبارة عن تل صغير عند مستوى السطح يقع في الجنوب الشرقي مفصولاً من حافة قلايل الطويلة التي تشكل الواجهة الغربية لهضبة قطر. سرنا عبر الأرض السبخة المنبسطة التي تتناثر فوق سطحها المستوي قواقع حلزونية صغيرة ومجموعات من نباتات السوّاد والقطف التي أفسحت المجال بعد مسافة -وفي أرض خشنة- لنبات الشنان والثليث. ثم عبرنا مسالك الإبل المؤدية إلى آبار السكك، ثم واصلنا سيرنا في طريق مستقيم عبر شقة فسيحة ومضطربة من التموجات الناصعة البياض التي يتخللها نبات داكن اللون حتى وصلنا إلى سطح التل الصغير الذي يبعد بحوالي خمسة أميال من خرائب سلوى.

بعد أن تركنا الجمال عند قاعدة التل في حراسة علي وابن مَعدّي بدأنا أنا وزايد في الصعود إلى قمة التل الذي يرتفع إلى حوالي ٢٠٠ قدم فوق مستوى السهل. وكان أبو وايل، الذي سُمِّي التل باسمه -كما رواه لي زايد-، أحد عظماء رجال الجزيرة العربية القديمة، فقد كان يقود فرسه الحرون ويجبره على الثبات في هذه القمة التي يتعذّر بلوغها، وما زالت الرزّة الحديدية التي كان يستخدمها لربط الفرس، والتي رآها زايد بأم عينيه قبل سنوات خلت، موجودة مغروزة في الصخر إلى هذا اليوم. وتخيلت من هذا الوصف أن الحديد الذي أشار إليه زايد في حديثه قد يكون مرساة سفينة[1] التقطها أحدهم من حطام سفينة أو أي أثر آخر من سفينة استولى عليها قرصان فيما مضى. لم يكن الصعود إلى القمة سهلاً بل كان محفوفاً بالمخاطر إذ لم نجد في الجروف الشديدة الانحدار موطأ قدم مريح أثناء

(١) الكلمة التي قالها لي هي «ذهل».

التسلق لنقف عليها، كما أنها كانت تتكسر أحياناً في أيدينا بحيث تتركنا معلقين بشكل خطر عند أطراف هاوية من الهاويات الصغيرة التي تكثر بها. أما المنحدرات السفلى من التل فقد كانت تعج بأشياء مثيرة. وقد ثبت أن الأحافير القليلة التي التقطتها عند القاعدة قد انزلقت من طبقة أحفورية سميكة -ربما ١٠٠ قدم- تقع تحت طبقة من الحجر الرملي الخالي من الأحافير يبلغ سمكها حوالي ٥٠ قدمًا. وملأت جرابين اثنين من مخلفات مهاد المحار، الذي ثبت أنه ينتمي إلى عصر الميوسين[1]، وشعرت بامتنان إثر عثوري على أداة من الصوان محكمة الصنع. أما بحثي عن مؤشرات أخرى لحياة بشرية قديمة فقد باءت بالفشل، وقد تكون أداة الصوان قد ألقيت هنا من قبل زائر جاء إلى المنطقة حديثاً؛ لأن البدوي ما زال يستخدم حجر الصوان في إشعال النار ولن يتوانى عن التقاط عينة جيدة من منتجات أجداده اليدوية هذه واستخدامها لذات الغرض متى ما عثر على واحدة منها. وكان زايد يتفقد في نفس الوقت غار ضبع كانت آثار أقدامه تدل على أنه ما زال داخله ولم يغادره، وكان قد استدعى رفيقيه النائمين لمساعدته في الإمساك بالضبع قبل أن يكتشف أن الحيوان قد غادر جحره من منفذ خلفي لم يكتشفه زايد.

ومن ثم واصل الجميع سيرهم إلى القمة وهم يجمعون الأحافير أثناء ذلك. ولم نجد عند القمة، التي تمتد إلى ١٨٠ خطوة طولية وبعرض ٥٠ خطوة، شيئاً إلا ركاماً من الحجارة -نصبت لذكرى أو كمنصب-، وحفرة في الصخر تمتد إلى عمق حوالي قدم لكنها تتسع بما يكفي لاستيعاب قاعدة سارية سميكة. -أشار زايد-: هنا رأيت قطعة الحديد المفقودة الآن.

(١) انظر الملحق.

وتركني أحزر كنهها وما حاق بها. وقد وجدنا في أداة الصوان والأحافير التي جمعناها -بالإضافة إلى المنظر المؤثر الذي بدا لنا من القمة- عوضاً عن المشقة التي عانيناها للوصول إلى هناك. وكان في الحقيقة منظراً رائعاً لمنطقة واسعة ومقفرة ذلك الذي رأيناه من تلك القمة الباردة التي تذروها الرياح.

وسرت تاركاً رفاقي عند حفرة الحديد الفارغة إلى الطرف البعيد من التل الذي يطل على واحة السكك لأسجل سلسلة من الاتجاهات، عندما وجدت نفسي فجأة وبدون مقدمات وجهاً لوجه مع رجل مسلح. قلت بوجل من المشهد الذي أخذني على حين غرة: «السلام عليكم» جاء رد الرجل: «عليكم السلام». شرحتُ من غير تركيز وأنا أحاول إخفاء بوصلتي المنشورية التي لاحظها من دون شك: «إنني لم أرك. كيف صعدت من تلك الجهة؟ فقد كانت هناك هوة سحيقة خلفه. ومن أين؟ مَرّي أم منصوري؟». جازفت معتمداً على معرفتي بأن أي بدوي من المنطقة المجاورة لابد أن يكون من إحدى هاتين القبيلتين، ولكن إجابته أثارت دهشتي: «أنا من الإخوان». فقد تذكرت ما قيل لي بوجود مجموعة من هؤلاء المتعصبين في السكك، وإن هذا المعسكر يقع في السهل الذي يمتد تحتنا ويُرى من حيث كنا، وإن لم أكن قد لاحظته حتى الآن. وذهب خيالي بعيداً يصور رفاقه المحاربين وقد حاصروا التل حصاراً لا منفذ منه، وربما قد استولوا مسبقاً على إبلنا. ومع ذلك كان الرجل ودوداً للغاية؛ واصل الرجل حديثه: «ماذا تفعل هنا؟ ربما جئت تصطاد. ومن هؤلاء الذين يرافقونك؟ هل معكم من آل مُرّة أحد؟». قلت مستخدماً اللقب الذي يطلقه الإخوان على ابن سعود: «نحن من طرف الإمام، ومعنا علي بن جهامان». ويبدو أن سماع ذلك قد طيب خاطره وأرضاه. ثم بدأنا في السير ببطء نحو رفاقي

حيث تركت الرجل بصحبتهم لأواصل مهمتي. فقد أثار -كما قيل لي فيما بعد- وجودي الشاذ في مثل هذه المناطق فضول الرجل، وقد أرضى فضوله ادعاء أصحابي بأنني مهندس مكلف من قِبل الملك بالقيام بمعاينة المنطقة ودراسة مشكلة المياه فيها. وفي وقت لاحق وبعد أسابيع من هذه الحادثة، وفي ظروف مماثلة في منطقة البقوم البركانية، قُدمت منتحلاً صفة دكتور. ففي الجزيرة العربية يعد الرجل الأبيض مستودعاً لكل العلوم وملمّاً بها، وقبل سنوات مضت قُدمت للناس كخبير في سلاح المدفعية(*).

سلكنا طريقاً آخر للهبوط من قمة التل، وكان هبوطاً لا يقل صعوبة عن الصعود، ولكننا وصلنا في الوقت المناسب، محملين بالأحافير، إلى حيث تركنا جمالنا. ثم اتجهنا لزيارة السكك التي رأينا منظراً أخاذاً لنخيلها المبعثرة وسط محيط من التلال الرملية المتدرجة البيضاء من فوق قرن أبو وايل.

وصلنا هناك في أقل من نصف ساعة حيث توقفنا عند أول عين من عيون الواحة العديدة، وكانت بركة متوسطة الحجم عند مستوى سطح الأرض وتمتلئ إلى نصفها بنبات طويل وذي أزهار[1]، وعند حافتها تنمو بعض أشجار نخيل بائسة الشكل. وكان كل ما حولنا منظر مكرر من مجموعات مماثلة من النخيل والغاف. وعلى أرض مرتفعة وغير مستنقعية وعلى بعد من الطريق، كانت تقبع قرية[2] هي صغيرة تتكون من حوالي عشرين بيتاً من الطين وسكان لا يتجاوز عددهم المئة، وكان قد أسسها حمد بن برجس

(*) كان هذا في الماضي حيث كان التعليم ضعيفاً، بينما تغير الوضع بشكل جذري في عهد الملك عبد العزيز وأبنائه من بعده حيث تطور التعليم وتخرج عدد كبير من أبناء البلاد في شتى التخصصات والعلوم وأصبحوا يتمتعون بمكانة علمية مرموقة. (المراجعون).

(١) نبات الغاف.

(٢) يطلق على هذه المستوطنات الإخوانية عامة اسم الهجرة.

بن حَنْزب، شيخ بطن العذبة من قبيلة آل مُرّة وذلك ضمن مشروع إنشاء هجر الإخوان المبكر. وعلى غير ما عهدنا في قرى هذه المنطقة، فقد كانت القرية عامرة يدب فيها النشاط بالرغم من أن السكان كانوا يقضون معظم أوقاتهم في مراعي الصحراء. وهنا أيضاً كانت عملية التلقيح تتم طبيعيّاً دون تدخل من قِبل الإنسان الذي يأتي لجني ثمار عمل لم يقم به، ودون أن يشغل نفسه بمجرد التفكير بأن مقابل مجهود بسيط منه، كان سيحصل على نتائج أفضل تحقق له حياة أكثر أمناً ودعة.

كانت الواحة -التي تقع على ارتفاع ٢٥ قدماً تحت مستوى سطح البحر- تحتوي بالإضافة إلى نبات الغاف وأشجار النخيل عدداً كبيراً من أشجار الطرفاء، وما عدا ذلك لم يكن هناك ما يغرينا بالبقاء أكثر مما قضينا من وقت، ومن ثم واصلنا سيرنا بعد أداء صلاة العصر. وهكذا ثبت أن ما يشاع عن وجود خرائب قديمة هنا سيظل مجرد نسج خيال ما لم تكن الرمال قد زحفت عليها وطمرتها كما تفعل الآن بالواحة. ولما كانت تربة الأرض السبخة المالحة لزجة نظراً للرطوبة التي تحتها اندفعنا عبر الرمال ملتفين حول جرف صخري منخفض يقع على الجانب البعيد من السبخة الكبيرة. وبعد عبورنا للمرة الثانية لآثار السيارة التي أشرنا إليها سابقاً، اندفعنا بقوة ونشاط عبر السبخة الواسعة في اتجاه الجنوب الغربي صوب فم مصب «أبو عرزيلة» الخليجي. وظهرت بعيداً في اتجاه الجنوب الشرقي تلال «المشاخيل» المعزولة التي تفصلها مجموعة طويلة من مخاريط شبيهة بالخيام من الأرض الرئيسة أو اليابسة. كان لا يزال أمامنا طريق طويل، وكانت الشمس تأذن بالمغيب عندما دخلنا الحيود الرملية التي كانت قد طمست بالفعل قاع المصب الخليجي.

لم يكن أمامنا إلا أن نعود إلى سيرنا العادي عبر الطريق المتعرج؛ وحل الظلام ونحن ما زلنا نتحسس طريقنا للأمام تجاه مخيمنا الذي كنا نجهل

موضعه تماماً كما لم يكن لدينا طعام نفطر به. وأخيراً رأينا نار معسكرنا تلمع من بعيد، وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء حين وصلنا المخيم لنجد عشاءنا معداً. ومع أننا سرنا على نحو متقطع، ولمدة إحدى عشرة ساعة فلم أكن مرهقاً، ولذلك قضيت جزءاً من الليل ألقّن سعدان بعضاً من أسرار التحنيط على جسم الكروان الذي أحضرناه معنا من سلوى.

أصبح الروتين اليومي للرحلة واضحاً ومألوفاً، وبدأت أشعر أن ما يتوفر لي من وقت لا يكفي لإنجاز مصالحي المتعددة التي أخذتها على عاتقي منذ البداية. فقد آليت على نفسي بأن أقوم بكل شيء، وكانت النتيجة أنني وجدت نفسي عاجزاً عن الوفاء بذلك الالتزام، وبدأت أعمالي تتراكم دون إنجاز، حتى يومياتي لم تكن كما ينبغي على مستواها اليومي. وكنت واعياً من تجربتي السابقة أن ما يتأخر من عمل -وبعد نقطة معينة- لا يمكن إدراكه. وهذا ينطبق إلى حد موجع على مجموعة الطيور والثدييات التي كان عليّ إما سلخها وهي لا تزال طازجة أو التخلص منها قبل أن تفسد. ولم أجد حتى الآن ما يكفي لاصطياده إلا عدداً قليلاً من الطيور التي اضطررت للتخلص من معظمها لأنها بدأت تتعفن، وكان أن توصلت بكل أسف إلى النتيجة التالية: ليكون لدي متسع من الوقت لأقوم بأشياء أخرى فلا بد من طرح أي نشاطات تتعلق بجمع أي كائن يستدعي السلخ. وقبل أن أفعل ذلك قررت أن أعلّم سعدان القليل الذي أعرفه عن فن السلخ، وكان أن قضينا تلك الليلة نكافح سويّاً مع الكروان، وبعد يوم أو يومين من العمل المشترك تحمّل سعدان مسؤولية تجهيز وإعداد العينات أثناء تجوالنا.

وقد جلبت معي إلى بريطانيا عند نهاية رحلتي حوالي سبعين أو ثمانين عينة من طيور أو ثدييات الربع الخالي، ولا أخال أنني أبالغ عندما أدعي بأن

هذه المجموعة كانت ذات فائدة، ربما ليس للعرض، ولكن في تسهيل عملية التعرف على حيوانات الصحراء[1]. أما الحشرات والأحافير والصخور وأشياء أخرى فقد توليت أنا أمرها، ولكنني كنت أشعر ببعض الراحة لأن عملية جمع الطيور والحيوانات يمكن أن تستمر دون توقف.

سمعت لاحقاً في المساء وبنوع من الصدمة بأن رفاقي قد التهموا صيدهم الكروان بعد شيِّها على النار، وقضيت الليل على أمل أن ما التصق من صابون الزرنيخ[*] -الذي استخدمناه في السلخ- بلحم الطير لن يحدث ضرراً للإنسان. ولكنني أفهمتهم بأن أي لحم -بصرف النظر عن كيفية الحصول عليه- لابد وأن يكون في عهدة المطبخ. ولم أستطع إقناع نفسي بالمشاركة في وجبات تعد بهذه الطريقة، على الرغم من أن غائلة الجوع التي ألّمت بي لاحقاً بعد أسابيع من السفر كانت أقوى من أن تمنعني من مشاركة زملائي في التهام كل ما كان يعد من طعام.

كان مصب جوب «أبو عرزيلة» الخليجي يختلف عن منخفضات «الحرّ» و«بعيج» في كونه مليئاً بركام الكثبان الرملية التي يكسوها غطاء جاف من الغضا ونباتات أخرى، وأن كل ما يشير إلى كونه وادياً أو منخفضاً في الأصل كان يتمثل في تلك الجروف الصخرية المنخفضة التي تحف به من الجانبين، والتي تنتهي عند أطرافها الشرقية في رأس «خشم أبو عرزيلة» و«خشم نباك» شمالي وجنوبي المصب على التوالي. وتظهر الشخصية الحقيقية للمصب فقط عند فم المصب الذي يقع بين هذين الرأسين، متمثلة في اللسان الضيق من السهل الملحي الذي يمتد غرباً لمسافة داخل الرمال التي

---

(١) انظر الملحق.

(*) الزرنيخ: حجر من المعادن، وهو عنصر شبيه بالفلزات، له ألوان كثيرة، ومركباته سامة، يستخدم في الطب وفي قتل الحشرات. (المراجعون).

من نواحٍ أخرى تملأ الوادي حيث نصبنا خيامنا وسطه على ارتفاع ٢٠٠ قدم فوق سطح السبخة، أي على نفس مستوى آبار بعيج.

كانت الظروف المناخية قد تغيرت تماماً، وبدا وكأن أيام الصقيع والبرودة القاسية التي عانينا منها في بداية رحلتنا قد ولت دون رجعة، ووجدت أنني لم أعد في حاجة إلى «أحذية الجليد» إلا في الليل وعند الصباح الباكر عندما يكون الرمل بارداً تحت أقدامنا. وكنت أشعر بالسعادة ورغبة في الحياة وقد عادت إليّ عافيتي ولياقتي الجسمية، وزال ما كنت أعاني من تصلب في الأعصاب. فقد كان هواء الصحراء عليلاً، ودافئاً بالنهار تتخلله نسائم جنوبية خفيفة تأتي بخصل من السحاب تخفف من حدة أشعة الشمس، ومعتدلاً أثناء الليل مصحوباً بضباب كثيف وندى كثير في الصباح الباكر. وقد وصلت كثافة الضباب في اليوم الثاني في مرتفعات «أبو عرزيلة» حدّاً أدى إلى توقف العبادات الرمضانية. فقد دعينا كالعادة إلى تناول طعام السحور، وبينما نحن نأكل تسرب ضوء غريب من خلال الضباب ليعلمنا بأن وقت الإمساك وصلاة الفجر قد حل، وقطع سويّد أكله فجأة وبدأ يؤذن للصلاة معلناً بداية صيام اليوم ومعه بدأت تظهر إشارات عدم الحماس له وسط الرفاق الذين لم يتناولوا القهوة بعد، ولم يكونوا على استعداد لتحمل مشاق الصوم الطويل دون تناول شرابهم المفضل. ومع ذلك قال بعضهم: «سبق وجرحنا صومنا دون أن نعي وأصبح صومنا فاسداً ومن ثم سنعد أنفسنا اليوم كمسافرين أليس كذلك؟» رد الأتقياء منهم: «دع أولئك الذين يريدون اعتبار اليوم سفراً كما يريدون فإن الله رحيم بعباده». أما الذين عقدوا العزم على مواصلة الصوم –والمقصود بذلك كل الفرقة–: «فما زال هناك وقت لذلك.

فإن الأعمال بالنيات. دعنا نؤدي الصلاة ونحتسي القهوة ونضع ثقتنا بالله». ولكن الأتقياء كانوا قلة وهم: علي بن جهامان وأبو جعشة وابن معدّي وسويد وأنا، ضد أغلبية من المعترضين الذين تجمعوا حول موقد القهوة وهم يشجبون أولئك الذين يدّعون الورع والتقوى. وأتى سعدان بإيعاز منهم إلى خيمتي، التي كنت قد أويت إليها يحمل إبريق الشاي، فأمرت بأن يذهب به إلى الشيطان وألجمت بذلك لسانه؛ لأنه كان على معرفة كافية بالقرآن الكريم ليستغل رخصه عندما يروق له، وكان قد عرض علمه في هذه الناحية لأصحابه «المفطرين» قبل ذلك. قال لي سعدان معلقاً على بعض رفاقنا بعد أيام من بدء رحلة طويلة دون أمل في الحصول على صيد في الصحراء: «كم هم أغبياء»، باعتبار أنفسهم مسافرين وهم فعلاً صائمون، فالأفضل لهم أن يفطروا في يوم راحة ووجود لحم وفير. ومن حسن الحظ أن كان الإمام معنا ولم يفشل من الأشخاص الخمسة الورعين إلا علي بن جهامان الذي لم يكمل الصيام ثلاثين يوماً. بينما صام سويد ستة أيام من شوال تطوعاً بعد يوم العيد. وهكذا أصبح «يوم الضباب» معلماً من معالم جولاتنا الصحراوية وذكرى لذلك اليوم المشهود.

عندما وصلنا إلى المخيم وجدنا أن فريقنا قد زاد عدداً بوصول صالح بن عزيز شيخ آل بو منذر، إحدى المجموعات الثلاث الرئيسة التي تتكون منها قبيلة المناصير. فقد رأينا إبله ترتوي من مياه سلوى أثناء عودتها عن طريق الدوحة من مضاربها الصيفية في واحات مقاطعة الظفرة تجاه عمان، فقد ظهر مقر استقرارهم الرئيس في خرائطنا حتى الآن يحمل اسم «ليوه» حسب ما ينطقه المناصير أنفسهم، والذين يميلون إلى تغيير حرف «الجيم» إلى

«ياء» ويلفظون حرف «الضاد» وحروف الأبجدية الأخرى شفاهياً، فالاسم الحقيقي للمكان كما اتفقنا بعد المناقشة هو «الجيوة Al jiwa»(١).

وغادر أخو صالح الذي كان قد حضر لوداعه في الصباح متوجهاً إلى مضارب أهله، في حين اتجهنا نحن - بعد تجهيز قافلة الأمتعة ووضعها في الطريق الصحيح- إلى «نباك» لزيارة آبار «أبو عرزيلة»، وهما بئران على عمق قامتين وتقعان في منخفض وسط المرتفعات الرملية، ووجدنا عندها مئة من الإبل تنتمي إلى مجموعة (آل بو رحمة)(٢) من المناصير ترتوي، وشيخها يدعى سعيد بن صُويط. وقبل الوصول إلى الآبار وعلى بعد ميلين من المخيم لحق بنا رجلان ثبت فيما بعد أنهما الشابان اللذان التقيناهما في اليوم السابق في سلوى، ويبدو أنهما أصابا صيداً وفيراً بالصقور بعد مغادرة المنطقة. وجاء الشيخ الصغير ليبحث عنا في الصحراء ليقدم لنا كيساً به ثلاث حبارى. وكان يبدو وسيماً ورائعاً في عباءته ذات اللون الأحمر الداكن والذي أبرز سحنته الداكنة اللون وأنفه المعقوف الذي ورثه عن والد أُنجِبَ من أَمَة أورثه لقب «العبد»، وكان راشد يبلغ من العمر حوالي سبعةَ عشر عاماً ولكنه كان يتصرف كالكبار ويتحدث بثقة وشجاعة تنم عن تربية صحراوية كريمة. وقد يمضي وقت طويل قبل أن يرث قيادة القبيلة لأن والده كان لا يزال على قيد الحياة، ويأمل أن يصبح في يوم من الأيام في مصاف جده «راشد بن مانع» الذي يعد عموماً أشهر وأكثر أفراد المناصير احتراماً.

---

(١) أو الجوّة AlJua الداخل، ويمكن مقارنة هذا بـ(الباطنة) للأجزاء الداخلية و (الظاهرة) للأجزاء الخارجية الذي يطلق على سلسلة من جبال عمان الرئيسة الشرقية والغربية. وكذلك الخارجة والداخلة على الواحات الخارجية والداخلية في الصحراء الليبية.

(٢) المجموعة الثالثة التي لم نقابلها على الإطلاق هي «آل بلشعر» وزعيمها هو غنيم بن جريب.

أصررت على الشاب راشد أن يرافقنا إلى «نباك» حيث أمضى ليلة في المخيم وكان لطيفاً أن ترى مدى الاحترام الذي أبداه صالح وحميد - واللذان يكبرانه كثيراً في العمر- تجاه راشد مما يعكس الأهمية التي يوليها الساميون لأصل الشخص ومنبته. وكنت أتمنى أن يرافقنا راشد في رحلتنا هذه، ولكنه اعتذر عن قبول دعوتي بابتسامة رزينة ثم استأذن بالمغادرة راضياً بالقليل من قطع الفضة التي منحتها إياه لأرد له بعضاً من جمائله.

اندفعنا من الآبار في اتجاه جنوب شرق عبر الوادي متجهين صوب الأرض المرتفعة عند حافته الجنوبية التي كانت ترتفع في شكل أرفف عريضة إلى الهضبة الضيقة المليئة بالحصى والتي تفصل منخفض «أبو عرزيلة» عن مصب «نباك» الأخاذ. وأثناء سيرنا أقبل علينا من جهة اليسار رجلان أحدهما يمشي والآخر راكب، وكان الأخير فرّاج الذي أقبل نحونا مهرولاً، تاركاً رفيقه يعول نفسه، ليخبرنا بأن المهمة التي كلفه بها زايد أمس قد أنجزت بنجاح. فقد عثر على الرجل الذي كان يبحث عنه وكان بدويّاً رثّاً جاء يترنح من بين الشجيرات التي تغطي الرمال ويبدو عليه الإرهاق على الرغم من بنيته الرياضية الممتازة، إنه حُمَيّد بن عمَّاج، شيخ صغير من شيوخ «آل بو رحمة». وبوصوله اكتملت الفرقة التي سترافقني في جولاتي. كان له سنَّان يبرزان من فمه أفقيّاً بشكل ظاهر نتيجة إصابته برصاصة عدو، وما عَدا ذلك كان وجهه وسيماً وطويلاً وغائر الوجنتين وعقلانيّاً. وقد اشتهر بأنه شاعر مع أنني وجدت إنتاجه الشعري مخيباً للآمال، فقد برهن أنه رجل الفريق الشجاع الصامت، وكان هو وحسن خرُ الذيب أقل الرجال ذَرباً وأكثرهم جدارة بالثقة، فقد كانا يتحملان إفراطاتي بصمت ويسعيان دائماً لحفظ السلام في أوقات الخلاف. وكان صالح مغايراً تماماً عن أقربائه

وسيبرز أكثر في قصتي لاحقاً. وبعد تحية المجاملات تخلى زايد باحترام عن جمله لحميد الذي أرسل ركوبه ضمن قافلة الأمتعة، وركب في سرج خلفي وراء صالح. كان رفيقنا الجديد يركب على الطريقة العمانية جالساً على ركبتيه ويسند مؤخرته على باطن قدميه: وهي جلسة غريبة على سرج مفلطح، ولكنها تبدو مريحة وتعتمد كثيراً على توازن الجسم أثناء الركوب. فقد ولد هؤلاء الناس على ظهور جمالهم وفي مقدورهم الركوب برشاقة على سنام جمل مسرع الخطى، وأحياناً يتركون رجلاً متدلية على جانب بينما الأخرى مثنية تحتهم على السرج. كما يركبون منفرجي الساقين وهم يجلسون بعيداً خلف السنام، وهذه الطريقة يفضلها كلٌ من زايد وعلي. وقد ادعى عليّ بأنه يملك قطيعين من الحيوانات كل قطيع به حوالي ثمانين حيواناً والتي قد تجلب له- على أساس متوسط ٢٠٠ دولار -حوالي ١٥٠٠ جنيه إسترليني. وهذا المبلغ كبير بمقاييس الجزيرة العربية. فهناك على الأقل ثلاث نوق حلوب في مجموعتنا قد أُخذت من قطعانه، وقد أفضى لي علي بما في نفسه: «لو كانت لي ثروة ضخمة. كنت سأتزوج كثيراً. ولكن لي زوجة واحدة الآن وهي ثاني زوجة لي. فقد أنجبت لي الأولى ابناً وهو الآن في السابعة عشر من عمره، وعندما طلقتها تزوجها أخي». لم يكن علي شيخاً إنما كان يمت بصلة قرابة إلى أحد رؤساء الغفران وهو صالح بن علي أبو ليلة، من نفس البطن الذي ينتمي إليه زايد.

قابلنا قطيعاً كبيراً من الإبل تنتمي إلى بطن الغفران قادمة من آبار نباك ونحن في طريقنا إليها، وكانت معهم امرأة ترتدي ثوباً خارجيّاً فضفاضاً أحمر اللون وذات عيون بيضاء تبرق من خلال القناع البدوي الجذّاب الذي تتحجب به النساء البدويات وحملقت في وجهي، ولم تبد استياء عندما

بادلتها النظر، أما علي وابن حميّد فكانا يتلكآن في الخلف ليجمعا القيل والقال من أقربائهم القادمين عبر الرمال الشاسعة، في حين تابع الباقون سيرهم حتى وصلنا إلى طرف الوادي المطوّق بحزام من منحدر صخري شاهق، وطارد فرّاج أثناء ذلك عقابين وفشل في اصطيادهما إذ هربا ليستقرا في مكان بارز ليس بالبعيد.

كانت معالم المصب الخليجي محددة في ثلاثة جوانب بمنحدرات صخرية شاهقة على مراحل مختلفة من التعرية، ومنفصلة تماماً في بعض أجزائها، لتشكل هضاباً صغيرة مدوّرة أو حافات في منتصف الوادي. وتعرف إحدى هذه الهضاب التي تقع في الجنوب الشرقي باسم «مقر الصقور» (العُقاب)[1]، وهو مكان تناسل معروف لصقور الصيد التي يسعى البدو للحصول على صغارها من حيود الجروف الصعبة المنال لبيعها لابن جلوي وكل من يهوى هذا النوع من الرياضة. وكانت على مقربة منا، وفي أسفل الجرف الذي نقف عليه ثمة مجموعة كبيرة من صخور منخفضة ذات أشكال غريبة نتجت من عوامل التعرية وتشبه بقايا «صودم» أو «قمورة» المدمّرة، وقد تكون هذه هي أصل أو مصدر القصة البدوية الغامضة عن خرائب نباك غير الموجودة أصلاً.

وبعيداً في قاع المصب -حيث تتناوب بقع من التُّرَب الملحية البيضاء مع روابي وجروف رملية- تقع واحة نباك قليلة الشأن، وبالقرب منها من جهة الجنوب الشرقي قرية الإخوان المهجورة، وبعيداً إلى الشرق تلمع السبخة الكبيرة التي يتدفق عليها مصب نباك ومصب الجديرات الذي يفصل بينهما

(١) لاحظ تشيزمان بالقرب من سلوى رأس أرض يسمى (خشم سخول) ولم تكن لدى رفاقي أية معرفة به. ويبدو أنه من الممكن أن أدلاءه الذين سمعوا عن هذا الموضع المشهور القريب من نباك قد أطلقوا الاسم عشوائيّاً على بعض معالم الساحل في خليج سلوى. (من الواضح أن سخول ليس إلا تحريف لاسم صقور).

شريط واسع من الرمال المتموجة، مع أنهما في الأصل كانا يكوّنان خليجاً واحداً داخل نفس خط التلال الذي يحيط به، وينتهي بعيداً في اتجاه الجنوب والضفة الأخرى للمصب المزدوج من تل «العبد» الأسود اللون والذي يحدد الجانب البعيد لمصب خليجي آخر يعرف بـ «خور العبد».

والآن وقد رأيت عدداً كافياً من هذه المصبات الخليجية فقد توصلت إلى استنتاج حولها مؤداه أن الخط المتعرج للحيطان التي تحتويها، والتي تمتد من منخفض «جوب العويض» في أقصى الشمال إلى «الجوب» العظيم رقم واحد في الجنوب الذي دخله برترام توماس بعد مغادرة بئر البُنيَّان الواقعة عند الحد الشمالي لرمال الرمال، يمثل الحد الجرفي لبحر قديم. وتوجد ترسبات أُحفورية تنتمي إلى عصر الميوسين[1] مكشوفة في الطبقات السفلى لجروف نباك والجديرات، وربما في مناطق أخرى، أسفل طبقة كثيفة من الصخر الرملي غير الأحفوري والتي تبدو أنها تمتد بعيداً داخل الصحراء الشرقية. ولكن من الصعب تحديد عمرها وخصائصها الجيولوجية بصورة نهائية في ضوء ما يتوافر حالياً من معلومات علمية. أما السبخة الكبيرة التي تمتد من شمالي سلوى حتى الطرف البعيد من سبخة «مَطِّي» فإنها تمثل دون شك قاع البحر المفتوح عندما كان البحر يمتد نحو الداخل مخترقاً هذه المصبات. وسأقترح في فصل قادم أن هذا البحر نفسه قد امتد في شكل خليج كبير حتى منطقة الخيران تجاه شنّة وغمر حواف جبال الأيوسين في جهة الجنوب والشرق. وفي تلك الأيام الخوالي كانت واحة يبرين البعيدة ربما تشكل الجزء الأعلى من مصب خليجي سأناقش هيأتها ومعالمها بعد قليل.

(١) انظر الملحق.

لم يكن هناك ما هو أكثر إثارة من محاولة إماطة اللثام الذي وضعته مئات أو عشرات الألوف من السنين على ظهر الأرض كما عرفها أجدادنا القدامى لأول وهلة. وهذه مهمة جسورة لا يقدر عليها إنسان عادي ولكن لا بأس عليه إذا ما أحضر معه من المواد الضرورية اللازمة ما يدعم ما تخيله من آراء ليدرسها ويتفحصها المختصون من العلماء.

وفي هذه الحالة بالذات وعند هذه المرحلة من رحلتي، فإن مثل هذه المواد متوافرة -إذا جاز التعبير- تحت أقدامي لأنني سرت أثناء هبوطنا المنحدر المدرج متجهين نحو نباك فوق سطح مفروش بأحافير المحار كتلك التي وجدناها من قبل في جروف مثل: «قرن أبو وايل». وغضب رفاقي عندما أبديت رغبتي في التوقف لأن ذلك سيعطلهم عن تناول القهوة في ميعادها. ولكن كان علي أن أتوقف، وتوسلت إليهم أن يتركوني لأداء مهمتي وأن يواصلوا هم رحلتهم لينصبوا الخيام؛ ولذا تقرر أن يبقى الصائمون معي بينما يمضي الباقون لتناول المرطبات. وأخذنا أربع ساعات متواصلة نجمع ونفرز الأحافير من حولنا وندرس طبقات الحجر الجيري التي انبثقت منها ونرسم الخرائط والأشكال ونخطط وما شاكل ذلك. وانضم إلينا علي وابن معدّي طوعاً في العملية، ودفعنا أرنباً بريّاً مذعوراً يهرول عبر المنحدرات طلباً للسلامة، وهبطنا أخيراً إلى بطن الوادي واتجهنا سيراً إلى الواحة حيث مخيمنا. سأل علي الذي كان على قدر من الذكاء أتاح له التعرف على أصول القواقع البحرية: «ما هي فائدة هذه القواقع؟ وماذا سنفعل بها؟» قلت: «إن طوفان نوح يعطينا تفسيراً معقولاً لوجود هذه القواقع البحرية بعيداً في الداخل». هتف علي: «نعم والله، إنها الحقيقة لأن الأرض كلها

قد غمرتها الماء وتخلفت هذه الأشياء «القواقع» عندما انحسرت المياه عنها، أي والله إن ذلك صحيح تماماً». فأجبت: «لافائدة ترجى من هذه القواقع نفسها ولكن المعرفة التي أسعى وراءها أفضل من الثروة. سأحمل هذه القواقع إلى بلادي حيث ستودع في متاحف ليراها الناس ويقومون بدراستها. وكما ترى فإنني أقتفي الأثر كما تفعل أنت. فأنت عندما تركب جملك فإنك تقرأ الرمال وتعرف الرجال والنساء الذين مروا عليها منذ شهر أو أكثر أو أقل، ولكنني عندما أرى مثل هذه القواقع فإنني أفهم ما حدث قبل آلاف السنين أو أكثر -إذا كان غير ذات قيمة أن أتحدث عن ملايين السنين هنا- فإنك ترى وعلى الفور آثار الحيوانات وتعرف أن ثعلباً أو ضبعاً قد مر بالأمس أو قبله من هنا، ولكني أرى أدق الحشرات وأنا أسير فوق الحصباء أو الرمل والتي لا تستطيع أنت تمييزها حتى ولو حددتها لك، لأن عيونك قد دُربت بطريقة معينة وعيوني بطريقة أخرى. فإن ما يثير انتباهك لا يثيرني. ففي مناسبات عديدة سابقة تجمع حولي عدد من المعجبين عندما كنت أتوقف فجأة عند رؤية صعرور صغير بين الحصباء، وبينما هم ينظرون إليّ مشدوهين فاغرين أفواههم على ما يبدو مني كنت أبرك جملي وعيوني مثبتة على الحشرة الساكنة وأسير خلسة نحو طريدتي وأقبضها وأريها لهم وهي مودعة في قاع زجاجة الدواء. وهكذا سرعان ما تعودوا على استخدام عيونهم والإمساك ببعض السحالي والخنافس وحشرات أخرى ويأتونني بها».

وهكذا وصلنا إلى المخيم في نباك وقت العصر، وابتهج الجميع بسماع مطاردتنا الناجحة في الشمس بينما هم يحتسون القهوة ويزدردون طيراً من

طيور الحبارى التي أهداها لنا راشد. وكانت مجموعة النخيل الصغيرة «حوالي نصف دستة» تستمد قوتها من ينابيع عديدة تنبعث مياهها وتتدفق من برك على مستوى الأرض ومليئة بالقصب بالإضافة إلى بئرين ضحلتين تعلوهما معدات سحب المياه. وكان نبات القصب ينمو بوفرة و كثافة إلى ارتفاع ١٢ أو ١٥ قدماً حيث لم تطأها أقدام الجمال الظامئة، وكانت تيجانها المزهرة الرشيقة ترسم مشهداً رائعاً مغايراً للخلفية الداكنه لأشجار النخيل. وكانت أشجار الطرفاء تتصارع مع القصب والنخيل على البقاء، وكان زوجان من الشبوط يتمتعان باصطياد طيور مغرّدة ومخلوقات صغيرة أخرى عندما وقع أحدهما فريسة لرصاصة أطلقها صالح عليه عن قرب من بندقيتي.

انتهزت فرصة توفر مياه ذات نوعية جيدة وأخذت أول حمام جيد منذ بداية الرحلة وبجانب أكبر البرك حيث كانت الإبل ترتوي وتُملأ القرب وترص في صف لتحميلها على الجمال استعداداً لرحلة الغد.

كان الماء فاتراً عند المغيب بينما وجده رفاقي أول اليوم بارداً منعشاً. وحين انتهيت من حمامي كان العشاء جاهزاً، وكان بالحق لذيذاً وخاصة مع لحم الحبارى الذي أضاف جديداً على وجبات الأرز الروتينية. وقد لاحظت وجود عدد غير قليل من الأغنام التي تنتمي إلى أهل «بن نقادان» الذين نصبوا خيامهم متناثرة في الرمال التي تحيط بالواحة، واقترحت على القوم شراء بعض من هذه الأغنام حتى يتوفر لدينا لحم يزودنا ببعض الطاقة في الأيام المقبلة. . . واعترض زايد على أساس أن الأغنام حالتها غير مرضية ولا تساوي إنفاق قروش عليها، بينما أشار البعض إلى وجود قعود جيد عند

العرب يمكن شراؤها. فأجبت بأن مثل هذه الوفرة من اللحوم ستخمد حماسهم للقنص إذ لم أجد أثراً لما كانوا يتبجحون به سابقاً ويعدونني به بقولهم: آه! انتظر حتى تأتي إلى الرمال حيث تكثر الأرانب كالجراد. ستأكل من لحم الوضيحى حتى تشبع! فقد رأينا آثار أقدام الثعالب والأرانب البرية والذئاب والضباع والحبارى وكائنات أخرى ولكن دون أن نراها، إذ لم نحصل حتى الآن إلا على أرنبين وكروانين. وكان طبيعيّاً أن يصيبني شيء من الإحباط عندما لم أعثر على خرائب أو أي أثر لوجود الإنسان القديم في نباك[1] التي كانوا دائماً يتحدثون، ولو بشيء من الغموض، عن أهميتها التاريخية، ولكنني وجدت بعض التعويض عن هذا الفشل بتلك الأحافير التي جمعتها من هناك، كما وجدنا كثيراً من القواقع الحلزونية في المزرعة وما حولها. وما عدا ذلك لم يكن في الواحة ما يثير الانتباه إلا من وقوعها تحت مستوى سطح البحر ببضعة أقدام. ومن المستبعد أن يكون مثل هذا الموضع خالياً من أي استيطان قديم، ولكن لم يكن هناك أي أثر لذلك قبل تأسيس هذه القرية الصغيرة للإخوان على يد «سالم بن نقادان» قبل أكثر من اثنتي عشرة سنة، وكانت مبانيها الطينية المهجورة تتجمع حول مبنى مماثل أكبر حجماً وله فناء واسع مفتوح مما يوحي بأنه كان يستخدم كمسجد محلي.

وجدنا في اليوم التالي ندى خفيفاً يغطي الأرض وغطاء من السحب يتجمع في السماء، بينما يلف ضباب أبيض كثيف منخفض الوادي، وينتشر بطيئاً إلى أسفل في اتجاه البحر. وبرزت الرؤوس والحروف فوق الضباب وكأنها معلقة في الهواء، وكان الجو لطيفاً كما تمنينا. كانت قافلة الأمتعة قد بدأت المسير مبكراً. وبينما كنت أستعد لركوب جملي، اندهشت

(١) أشارت خريطتنا بشكل خاطئ إلى الاسم على أنه «مباق».

لقدوم وفد من نساء آل مُرّة من الخيام المجاورة. زوجة وإحدى قريبات شيخ أحد البطون يدعى «ابن عفير». ترافقهما مجموعة من الأطفال الحزانى وهم يتشبثون بأطراف أُزرهم المتدلية. بدأت السيدة الكبيرة، وتؤيدها البنت الصغيرة ومن ورائها الأطفال: «يا شيخ عبدالله، لقد أخذوا كلبنا وليس لنا شيء إلا هو، يأتينا باللحم من الصحراء، فرجالنا كما تعرف قد ذهبوا إلى الصحراء تاركين النساء والأطفال وراءهم».

قد كنا دائماً نتوق إلى اقتناء كلب سلوقي ليصطاد لحماً لقدورنا (وللمتحف) ورأينا في مناسبتين أو أكثر كلاباً رُفضت لعدم لياقتها ومناسبتها لمهمة الصيد، وقد عرض علينا ليلة أمس كلب ورفضناه شاكرين. وكنا قد اكتشفنا كلباً آخر ذا لون باهت وجيد المنظر لكنه ضعيف البنية اشتهينا امتلاكه. ظننت في البداية أن شكوى السيدة هي مقدمة للحصول على الهدية التي تقدم عادة في مثل هذه المناسبات. ولكن زايداً أكد أن الحدس وكلام السيدتين تومئان بأن الكلب قد غادر مع قافلة الأمتعة. وعدت سريعاً إلى النساء وأنا أحسب الكم المناسب من الدولارات التي يجب أن أقدمها كهدية مناسبة مقابل ذلك، ولكنهن أصررن على استرداد كلبهن وأنهن لا يطلبن مالاً [1]، لأن الكلب قد أخذ دون موافقتهن. والحقيقة أن زايداً الذي كان عالماً بأنني لن أوافق على عمل عدواني كهذا في مثل هذه الظروف، واجهني بالأمر الواقع. ومع ذلك فقد أصررت على إعادة الحيوان فوراً لأسياده ورفضت ركوب الجمل حتى إحضار الكلب. وأثناء جلوسي هناك غمرتني النساء بشكرهن وامتنانهن بينما بدأ الأطفال يعبرون عن سعادتهم

(١) العرب لا يبيعون ويشترون في الكلاب وأثمانها تعد بالنسبة لهم حرامًا.

من خلال دموعهم الجارية، صاحت السيدة: «بارك الله فيك يا شيخ عبد الله! . مبروك عليك الكلب وانسى كل ما قلته، ولكن هؤلاء الأطفال - حفظهم الله- قد انفطرت قلوبهم حينما رأوا الكلب يذهب، ولم أشأ السكوت وهم ينتحبون وكان علينا أن نفعل شيئاً . . وربنا يطول عمرك ويحسن إليك». وهكذا تمت تسوية الأمر برضاها . . وكانت الحادثة في حد ذاتها مثيرة ومفيدة كما كنت مسروراً بلغتهم، فقد كانت لغة عربية نقية وتامة وجميلة الوقع على الأذن، وغادرت المكان مرتاحاً قانعاً بما حدث ولم يساورني أدنى شك بأن اللغة العربية هي لغة آل مُرّة . . وتذمر زايد من مخاطر مثل هذا الاحتشام المفرط في تعاملي مع هذه العائلة، ولكن عليّاً كان يؤيد مناصرتي لقضية عادلة سراً؛ إذ لابد من يد صارمة لضبط وكبح البدوي العنيد ولكن دون استبداد وتسلط .

سرنا في الوادي تجاه الجنوب الغربي عبر منطقة يتناوب فيها الرمل وصلصال محلي متشقق حتى وصلنا إلى «عش النسور»، واكتشفنا بجانبه ترسبات غنية من الأحافير في صخرة معزولة تدعى «مليحة». وأصبح الوادي رمليّاً أكثر فأكثر مع تقدمنا تجاه الجروف وعلى أطرافها، حيث تتعرج لتشكل نتوءاً من الصخور المتآكلة عند التقاء «جوب نباك» مع مصب «جوب جديرات». وهنا توقفنا للمرة الثانية لجمع الأحافير من طبقة كثيفة من الحجر الجيري الناصع البياض محشورة بين شريط سفلي من صلصال بني مائل للاحمرار وإرساب علوي من حجر رملي أرجواني اللون خال من الأحافير، ويكون أرضية الصحراء إلى الشرق من خط هذه المصبات الخليجية. ووجدنا زوجين من الغربان كانا يحتلان هذه الصخرة ولكنهما طارا قبل أن يتمكن فراج من الوصول إليهما .

ثم اتجهنا نحو الشمال الغربي صوب رأس «مصب جديرات» المنقط بأعمدة متآكلة ومعزولة من الصخر على طول الجرف الواقع على يميننا؛ وبينها وبين الحافة المقابلة يجري الوادي -الذي يبلغ اتساعه ميلاً واحداً- تجاه أرض السبخة الكبيرة. وكنا نهدف إلى الوصول إلى بئريّ جديرات اللتين كان علي يحتفظ بذكرى غامضة عن موضعهما منذ زيارته لهما قبل عشر أو خمس عشرة سنة. وكان غطاء ضعيف من الاخضرار يكسو الأرض إثر أمطار الصيف الخفيفة(١) التي هطلت مؤخراً، كما أن أمطار الخريف لم تأت أبداً. وتم اصطياد أرنب بري للاحتفال بمقدم الربيع، وتجولنا حولنا نتساءل عن موضع البئرين. ورأينا في البعد -ونحن نصعد الحافة- قافلة الأمتعة وهي تزحف صوب الهضبة. وهكذا سنترك مصبات الجيبان خلفنا عائدين إلى داخل الصحراء والجافورة بعد قليل.

قال علي فجأة: «انظروا! أنا تائه. كنت أظن أن البئرين هنا بجانب هذه الصخور ولكني لا أراهما، وربما كان علينا أن نبحث عنهما عند تلك الشجيرات التي مررنا بها الآن. هل تسمح لنا بالعودة للبحث عنهما؟!» وفجأة تحول علي إلى اليمين وأشار منتصراً إلى منخفض هين في الرمال. ولكن كان الشك يساورني بأنه يخدعني إذ إنه من الصعب أن يكون ذلك التقوس في الأرض كان بئراً أبداً. ومع ذلك كان روث الجمال يتناثر حول البئر مع أن فتحتها كانت مخفية تماماً تحت الرمال المتراكمة. وواصل علي حديثه: «نعم، إنها هناك، أنا متأكد ولكنها مردومة بالرمل، والبئر الثانية وراء تلك الصخرة». وهناك فعلاً وجدنا حفرة البئر في الرمال وبها ماء على

(١) يسمى هذا المطر بالصفري أو الصفاري أو صفاري. وأمطار الخريف تسمى الوسمي والتي نشأت منها كلمتنا الإنجليزية monsoon.

عمق خمسة أقدام. قال علي: «إن ماء البحر مالح، إنه غير صالح للإنسان، ولكن في مقدور الإبل أن تتحمله». وفي نفس اللحظة شاهدنا قافلة من الجمال تمر على طول الصورة الظلية للحافة عند رأس الوادي على بعد ميل من حيث نقف، كان فريقاً من آل مُرّة يتجه نحو المراعي. وكان ذلك آخر اتصال لنا مع البشر قبل الدخول في الصحراء.

اتجهنا من الآبار صوب الجنوب الغربي لنعبر الوادي. وبينما نحن نصعد الحافة البعيدة، وقع نظرنا على منظر رائع للسبخة البيضاء عند نهاية المصب. قال صالح: «إنها كذلك، حتى نهاية سبخة مَطّي وهي واسعة يستغرق قطعها من جهة لأخرى ثلاثة أيام في طريقنا لبلادنا؛ إنها خالية تماماً من الشجيرات والأحجار، وعلى كل من يود السفر إلى هناك عليه أن يحمل ما يكفيه من وقود وحجارة (للاستجمار). وإذا أخطأ الطريق فهناك مستنقعات يمكن أن تبتلع الجمل وراكبه دون أن تترك أثراً، كما حدث لشخص يدعى مَطّي الذي اختفى في هذه البقعة؛ لهذا نطلق اسمه على السبخة. وتوجد بالقرب منها خرائب قديمة في مقاطعة المجنّ التي سأريك إياها يوماً ما إن شاء الله».

بدأ ساحل المنحدر الحصوي يرتفع أمامنا من قمة الحافة تجاه هضبة حصبائية صحراوية كبيرة شبيهة بتلك التي تقع بين كثبان الماشورة والجيبان الشمالية، وبرزت في كل هذه المنطقة القاحلة التي تعرف بـ «حدبة الحفاير» حافتان منخفضتان بشكل مغاير للأرض المنبسطة المحيطة، بينما ظهرت إلى يسارنا بعض المؤشرات الطفيفة لطرف الحافة التي تحيط بمنخفض «خور العبد»[1] غير المرئي آنئذ. وأكدت شجيرات نادرة من المرخ وتجمعات قليلة

(١) يوجد بئر ماء مالح في المنحدر.

لنبات الشنان كم العري الفادح لهذه الأرض البغيضة. ثم سرنا بعناد وإصرار حتى الساعة الرابعة مساء عندما نصبنا المخيم للمبيت بين حزام من شجيرات الشنان الفقيرة التي تنمو حيث تتناثر الرمال على السهل الحصبائي. وتركنا إبلنا ترعى في النباتات المتناثرة وحلق فوق الجمال زوج من الغربان ثم حطت على ظهورها بحثاً عن القراد. وحاولنا بمساعدة علي اصطياد واحد منها بطرق متنوعة ولكن يبدو أن طيور الصحراء لا تثق بالبشر. واكتفيت في النهاية بإطلاق رصاصة من بعيد لم تصب هدفها ولكنها أبعدته، ولم نعد نراه بعد ذلك.

تركنا الإبل في العراء ترعى حتى غاب القمر، وعندما عادت وجد علي أن رسن ناقته مفقودة، ودون اهتمام أخذ فانوساً وخرج يتعقب آثار أقدامها في الظلام إلى حيث كانت تتجول وهي ترعى مع بقية الإبل، وعاد حاملاً الرسن. قد يبدو هذا بسيطاً لأول وهلة ولكن وراء تلك البساطة تكمن أجيال من التجربة.

الفصل الرابع

الجافورة الجنوبية

على الرغم من أننا أصبحنا على ارتفاع يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ قدم فوق سطح البحر، كنا لا نزال نحس بالرطوبة الساحلية، وعندما صحوت الساعة الخامسة مساءً لتناول طعام العشاء كان الظلام دامساً والسماء صافية بينما كانت الأرض مبللة بالندى وضباب كثيف بارد ودبق يلف كل المنطقة. وكان الهواء مع ذلك معتدلاً لطيفاً وأدنى درجة حرارة بالليل حوالي ٥٠ْ فهرنهايت. لقد تركنا من خلفنا المشاهد المتباينة والمثيرة لمصبات الجيبان الخليجية، ولأيام قليلة قادمة ستحد كثبان الجافورة المتموجة آفاقنا قبل أن ندخلها للمرة الثانية، وكنت أرغب في رؤية بئر حفائر ابن الأدهم التي حدثنا عنها علي. وعلى ذلك بعثنا أمامنا قافلة الأمتعة في اتجاه جنوب الجنوب الشرقي بينما اندفع أربعة منّا -علي وابن حميد وزايد وأنا- في اتجاه أكثر إلى اليمين عبر بقعة ذات ارتفاع هين من السهل الحصبائي وتنتشر به شجيرات الحمض هنا وهناك.

جعل الصباح البارد سيرنا ممتعاً عبر أرض لا معالم لها، وكنا نتحدث أثناء ذلك عن «وبار» و«الربع الخالي» التي كنا نتقدم نحو أطرافها حثيثاً، ولكن عليّاً كان غامضاً بلا تردد حول موضوع البئر التي نبحث عنها. وبدا لي أن النجاح في الوصول إلى مآربنا في هذه الظروف صعب المرام، فعليّ لم يزر هذه البئر إلا مرة واحدة في حياته، وكان ذلك في «يوم الصريف»(*) قبل حوالي ثلاثين سنة مضت، عندما جاء هنا مع والده ليسقي ماشيته. وبصرف

(*) يشير إلى معركة الصريف، سنة ١٣١٨هـ بين الشيخ مبارك الصباح وابن رشيد ومشاركة الإمام عبد الرحمن بن فيصل إلى جانب الشيخ مبارك. (المراجعون).

النظر عن حد الجافورة الباهت، والذي ظهر عن يسارنا ممتداً في شكل قوس واسع ضحل يتجه إلى الشمال والحافة التي لاحظناها سابقاً، والتي بدأت تتجه نحو نهايتها عند طرف الرمال، لم يكن هناك معلم واحد يهدي المسافر إلى حيث يوجد الماء. قال علي مقتبساً من شعر ينسب إلى ملك وبار الأسطوري: «ها هو الدليل يتردد، ولا لوم عليه». ومع ذلك وجدنا أنفسنا – ونحن نغذ السير– وسط مؤشرات لا تخطئها العين عن قرب مكان ماء: دروب الجمال القديمة التي كادت تُطمس نهائيّاً بالرمال وهي تتعرج كأنما دون هدف عبر السهل. وفجأة التقطت عينا علي السريعة روث الجمال المتناثر التي كشفت فناء البئر المباشر، وما هي إلا لحظات حتى كنا على أرجلنا قرب الموضع الذي كنا نبحث عنه. وكانت البئر «ميتة» أي جافة ومطمورة كلية بالرمال بطريقة يصعب الإحساس بوجودها إلا من ذلك الميلان الطفيف في سطح الأرض المنبسطة. وقد ظلت البئر مهملة ومهجورة ومنسية لفترة طويلة، وبقي الموضع وحده كذكرى بائسة لمغامرة وكدّ ومثابرة صانعها ابن الأدهم من آل بُحَيحْ من آل مُرّة التي تحمل اسمه، وكان قد حفر البئر إلى عمق ثماني قامات وكانت إبل قبيلة آل مرة ترتوي منها لسنوات عديدة حتى حلت فترة إهمال –وبدون شك فترة جفاف أبعدت القطعان من الورود إليها– أدت في النهاية إلى دمارها. ومنذ تلك الفترة لم يقم أحد بإعادة فتحها من جديد.

بدأ الرمل يطغى أكثر فأكثر على السهل تدريجيّاً أثناء توجهنا نحو سلسلة كثبان الجافورة البنية الماثلة أمامنا، إذ بدأت ذيول منه تظهر في الجهة الجنوبية الشرقية من أعشاب العراد القليلة، ودخلنا الجافورة عند النقطة التي يغوص عندها الحيد المنخفض –الذي سبق ذكره– في الرمال. وبينما نحن نقف على قمة أول كثيب نمسح المنظر الذي أمامنا، بدا لنا أن الصحراء الحصبائية تجري

لمسافات على جانبينا داخل وأسفل الرمال في شكل مجموعة من السدود المتوازية الشبيهة بالأربية، وقد ظهرت هذه الضلوع مكشوفة هنا وهناك وسط الرمال وتحت غطاء كثيف من الحصى كما لو كان شاطئاً قديماً. وما عدا ذلك كانت الرمال تغطي كل شيء في شكل أمواج طويلة رتيبة أو كثبان متراكمة أو سهول ضحلة متموجة، وكانت كلها عارية من النبات بشكل يثير الدهشة، وما هو موجود منه في المنخفضات أو على بقع الحصباء المكشوفة أو عند الصخور الكائنة عند قاعدة الكثبان كان إما ميتاً أو يحتضر. كما كانت الحياة الحيوانية غائبة أيضاً بشكل ملحوظ، إلاّ من مجموعات من القُبرة ترى بين حين وآخر؛ ورأينا مرة واحدة صقراً يطير في علو شاهق بحثاً عن فريسة، ويعسوباً واحداً وبضعة صعارير تزحف بين الحصباء. وكنا نرى بين حين وآخر آثار أقدام الأرانب البرية والثعالب وحيوانات أخرى؛ ولم تتعد معرفتنا بهذه الحيوانات أكثر من ذلك، ولذلك كنت أتساءل ما إذا عثر الصقر على شيء يعوض به تحليقاته الصبورة في الجو!

وهكذا كان المنظر خلال الأيام الثلاثة التالية من تجوالنا، وبعد أن قطعنا ثمانية أميال من الطرف الشرقي للرمال وصلنا إلى «بئر قدحة» التي منحتنا تغييراً كنا نتوق إليه في حيثيات برامجنا الرتيبة.

وهنا أقرر بأنني لا أستطيع -أو أدّعي القدرة على- أن أفسر كيف وجد عليٌّ هذه البئر دون خريطة أو بوصلة وبمجرد ذكرى غامضة لزيارة واحدة لها منذ عدة سنوات، ولكنه قادنا إليها في خط مستقيم. عندما وصلنا البئر لم نجد ما يثير أو يلفت النظر إلا نثاراً مبعثرة من روث الجمال مغطى جزئيّاً بالرمل ومعالم حدود حفرة البئر التي نشرت الصحراء عليها حجاباً من الرمل لا يمكن اختراقه. وكان مهوى البئر الموجود في فجوة الكثيب مستخدماً

من قبل خمس سنوات مضت ثم أُهملت وتُركت لتختفي تحت أكداس الرمال. وكان الماء يوجد آنذاك على عمق خمس قامات، وتوجد آبار مماثلة في هذا الجزء من الجافورة وما زالت مستخدمة مثل: زبدة -على مسيرة يوم إلى جنوبي قدحة- وشَعْلة -على مسيرة يومين في اتجاه غرب الجنوب الغربي وإلى الشمال قليلاً من خط وادي السهباء- بينما إذا سرنا في اتجاه غربي ليومين سنلتقي طريق القافلة بين الأحساء ويبرين. وإذا واصلنا السير لنصف يوم في نفس الاتجاه سنصل -حسب قول علي- آبار حرض التي كان الرائد تشيزمان قد ارتاب في وجودها لسبب من الأسباب حتى إنه أزالها من الخريطة التي أحملها معي الآن. وقد أعدتُ الاسم إلى مكانه بصفة مؤقتة، وذلك حسب المعلومات السماعية التي استقيتها نتيجة رحلاتي التي قمت بها بين عامي ١٩١٧-١٩١٨م [١٣٣٦-١٣٣٧هـ]. والحقيقة أنني كنت مخطئاً في الافتراض أن هذه البئر وأيضاً الخن ستكونان في باطن مجرى -السهباء- وعلى طريق الأحساء- يبرين الرئيس أو بالقرب منه، ولكن لم يعد هناك شك حول وجود حَرضَ تقريباً في الموضع المشار إليه هنا -ربما ١٠-١٥ ميلاً إلى شمال غربي الموضع الذي اقترحته أصلاً- لأنها بالفعل تقع على طريق العربة المناسب الوحيد بين الأحساء ويبرين، كما تقع على طريق قافلة بديل -وإن كان أطول بعض الشيء- يتميز بتوافر الماء عند منتصف الطريق بين المكانين. وسبق أن قام بزيارتها عدد من رفاقي بالسيارة أو بالجمال؛ وبالإضافة إلى ذلك فقد استخدم ابن سعود هذه البئر عام ١٩٠٠م كقاعدة لعملياته التي قادت إلى استعادة الرياض من حكم آل الرشيد في الربيع الذي تلا(*).

(*) الصحيح أن الملك عبدالعزيز مر بآبار حرض في آخر سنة ١٩٠١م عندما كان يريد دخول الرياض، أما دخوله الفعلي فكان في شهر يناير عام ١٩٠٢م. لمزيد من التفصيل انظر: الطريق إلى الرياض، دارة الملك عبد العزيز (الرياض ١٤١٩هـ) (المراجعون).

لم تكن هناك سيارة قد زارت يبرين بعد قيام الرائد تشيزمان برحلته، وما وصل حرض من سيارات منذ ذلك الوقت كانت من خلال رحلات الصيد التي كانت ترتادها من حين لآخر، وعلى هذا يبدو أن الرحلة المباشرة ليبرين نفسها قد عُملت مرة واحدة كتجربة ريادية.

ويقال إن حالة الطريق ممتازة بين حرض[1] ويبرين، ولكن وجود مساحات كبيرة من الرمل الكثيف يجعل الجزء الشمالي من الطريق صعباً إلى حد ما.

وهكذا اضطررنا للتنكب عن خط السير المباشر لمجرد إشباع رغبة عقيمة لوضع بئري الحفاير وقدحة على الخريطة، وهما بئران مهجورتان منذ فترة بعيدة وتركتا تحت رحمة الرمال الزاحفة. وكان هدفنا الثاني هو الانضمام مرة ثانية إلى القافلة الرئيسة، ولذلك اتجهنا جنوباً حتى لمحنا القافلة على قمة سلسلة من الكثبان وهي تزحف في البعد كخيط أسود طويل في تلك البرية المتموجة الشاسعة الصفراء. ثم عبرنا آثار أقدام ذئب ورأينا آثاراً عرضية لحبارى، ولكن أهم تجربة مثيرة في أول يوم لنا في منطقة الرمال كانت درساً عمليّاً في فن اقتفاء آثار الأقدام -أو اقتفاء الأثر- الذي أثارته رؤية آثار أقدام جمال متباعدة تنتشر في جبهة واسعة ومتجهة نحو الشمال. قال علي لابن حميد: «انظر إنها مجموعة صالح بن علي -وهو رئيس صغير لبطن آل عُوَيْر من الغفران- قادمة من الجنوب». وكانا يتحدثان بأنه سيأتي قريباً، وظننت أننا ربما سنلتقي مجموعته الآن في الرمال. «ما هو إلا يوم أو ربما

---

(١) تقع على مسافة رحلة يوم ونصف من حرض، بئر لا أهمية لها اسمها الوقر، بينما تقع مجموعة من الصخور والكهوف المعروفة باسم «قصور ابن عجلان» على مسافة ليست بعيدة من حرض ومسافة رحلة يوم إلى جنوبي طريق الأحساء - الرياض، وقد أخطأ تشيزمان عندما ذكر بأنه لا ماء «أو آبار» تقع بين الزرنوقة -والأحساء- ويبرين، انظر «في الجزيرة العربية المجهولة» ص ١٦.

يومين منذ أن مروا من هنا، ولا بد أنهم ارتووا من بئر زبدة. انظر! هذا هو فلان الفلاني وذاك هو فلان وعلاّن. لقد كانت هناك آثار أقدام بشرية أيضاً، وهؤلاء الناس هم أقرباؤه، وها هو أثر أقدام صالح نفسه، حفظه الله». وهكذا سارا معاً ضد اتجاه الأثر يتحدثان بصورة حميمة مع بعضهما بصوت عالٍ ويتبادلان الملاحظات حول تلك البصمات الفصيحة في رمال الصحراء. لقد مضت شهور منذ أن رأى عليّ أحداً من أهله وكان يحدق ويتأمل بعطف وشوق على العلامات التي خلفوها أثناء مرورهم. تساءل علي: «ماذا عندهم من أخبار عن تلك الرمال البعيدة التي نتجه نحوها؟».. إنهم سيقضون الشتاء في الشمال ولن يتمكن من رؤيتهم إلا بعد عودته من الربع الخالي.

تنهد علي حسرة على ذاك الاحتمال، لأنه ما من أحد في الفرقة لم يكن يتمنى آنذاك غير العودة إلى أحضان رفاقه يصطلي بنار المخيم في المراعي. وكان أعضاء الفرقة قد بدؤوا يلمون بالخطوط العريضة للأهداف الرئيسة لحملتنا، بدؤوا يتأوهون ويهمهمون مستنكرين -بعضهم بصوت مسموع وبعضهم في صمت- هذه الفكرة المجنونة. فقد أدى الحنين والشوق للعودة إلى موطنهم والأسرة دوراً في شعورهم بالحزن والضيق خلال تلك الأيام، كما كان خوفٌ مقبضٌ يسيطر عليهم عند ذكر اسم حضرموت[1] والربع الخالي. وعندما طرحتُ على عليّ مرة خلال المراحل الأولى، وعلى مسمع من الآخرين، بعض الأسئلة البسيطة عن المواقع النسبية لبعض الأماكن مثل

(١) الاعتقاد الشائع ولكن دون سبب، أن الكلمة تعني «أرض الموت» والكلمة هي «حزر موث» في سفر التكوين، وشعب حضرموت (مفردها حضرمي وجمعها حضارم) هم على ما يبدو «الهادورام» المشار إليهم في الإنجيل.

«قعاميات والشويكلة»، حملق في وجهي بفضول ساخر واستنكار ولسان حاله يقول: إن به مسّاً من الجنون؟! هل سيغامر بحياتنا حيث لا يغامر أحد إلا لصيد الوضيحي؟ ومع ذلك كيف له بمعرفة هذه الأشياء؟ ولأثير فضوله أريته خريطة «المسيحي»[1] الذي جاء، كما يعرف جيداً، عبر الصحراء السنة الماضية تحت إرشاد خاله حمد بن سلطان. أضفت لأزيد من حماسته، «من المؤكد أن الخريطة التي سنقوم أنا وأنت برسمها- يا علي-، ستكون بنفس الجودة. فأجاب: «إنني لن أحذف شيئاً مما تكتبه على لوحتك، وسأبحث عن حمد نفسه وأستعين به ليعوض أو يسد أي نقص من جانبي».

ولم يحدث مرة أن كشف علي عن أدنى شعور بالغيرة نحو منافسة الكفؤ والمشهور الذي حرّضتُه ضده بذلك التحدي. وفيما يخص موضوع اقتفاء الأثر، الذي كان ضليعاً وخبيراً فيه، اعترف عليّ بأن أعظم الخبراء في ذلك المجال يوجدون بين مجموعة الدمنان التي أغارت حديثاً على بعض قطعان قبيلة الدواسر داخل حدود الأحساء؛ ويقال إنهم ارتووا في يبرين. وهذه حقيقة جعلت من السير بحذر واحتراس شيئاً مرغوباً فيه. فقد أتى اللصوص وقطاع الطرق من تلك المجموعة التي بقيت في نجران[2] أو تتخذها قاعدة لها، وذلك عندما انسحب سويد ومجموعته قبل سنوات إلى الأحساء حيث أقاموا فيها مؤقتاً.

فالصحراء القاحلة كلها من مقينمة وغرباً تابعة لقبيلة الدمنان، بينما تنتشر

---

(١) هكذا كان رفاقي في هذه الرحلة يطلقون على السيد برترام توماس. وكانوا يطلقون على تشيزمان «رفيق صالح» نسبة إلى دليله الذي كان معه. وجلوب على حدود العراق كان يطلق عليه «أبو حنيك»، بينما الكولونيل ديكسون في الكويت كان يطلق عليه فقط ديكسون.

(٢) في هذا الوقت تقريباً كانت هناك قوة حكومية تحت قيادة خالد بن لؤي من الخرمة، ورئيس قحطان ابن شفلوت تتجه نحو نجران لإخضاع هذه القبائل المتمردة.

الغفران في الجنوب في حين الجابر في يبرين كانت تتوزع بانقطاع في أطراف الصحراء. وهكذا، وفي الوقت المناسب، لحقنا بالقافلة الرئيسة، ووجدنا بعد ساعة منخفضاً ضحلاً لإقامة المخيم فيه، به نبات متناثر من الحمض والعبل ترعى فيه الجمال ويصلح لإقامة المخيم فيه. وكانت توجد في وسط هذا المنخفض وقريباً من حيث نصبنا خيامنا رقعة من الحصباء تبرز منه قرون مخروطية منخفضة تتكون من صخر المهاد[1]. كان الوقت مبكراً عندما أقمنا المخيم، ولذلك قضيت بعض الوقت أبحث دون جدوى عن الحشرات، وعندما عدت إلى المخيم وجدت أحد أعضاء الفرقة -سعد الوشمي السايس- منبطحاً تماماً من نوبة حمى أصابته، وكنت أدخر بعض الأدوية لمثل هذه الحالات الطارئة وأعطيته بعض حبات الأسبرين تعافى بعدها تدريجيّاً. ولكنه خلال تلك الفترة استطاع أن يقنع نفسه - إن لم يقنعه أحد- بأنه لن ير أسرته مرة ثانية إذا ما توغل بعيداً في هذه الصحراء المقفرة. ولذلك كان سعد أكثر أفراد الفرقة حزناً وكآبة، ويبدو دائماً محبطاً ينظر إلى الحياة بروح انهزامية. وحتى عندما تعافى تماماً من مرضه، كان يباشر أعماله وهو يتأوه ويتذمر بأسى وحزن متضرعاً إلى المولى أن يعيده سالماً إلى أسرته من ويلات المجهول. وكان «أبو جعشة» قد بدأ الرحلة بعيون ملتهبة ويعاني من آلام كان يتحملها بشجاعة وصمت مع أنه كان كثيراً ما يتجنب رفقة أصحابه وينأى بنفسه عنهم. وقد جاء يطلب مني مساعدته في معالجة مرضه، وما كان لديّ من علاج له إلا مغسول البوريك ليغسل به عينيه، ومع التغيير الذي طرأ على الظروف المناخية بدأ أبو جعشة يشعر بتحسن سريع في عينيه ولكنه كان يحتاج إلى عناية طبية أكثر تخصصاً

(١) يعرف هذا النوع من الصخور بقويد أو قرن.

لاستعادة نظره كاملاً، إذ كان واضحاً أنه يعاني من نوع خطر من مرض العيون، وقد تفاقم مرضه من جراء البرد القارص وطريقته في حماية نفسه منه إما بالجلوس مقترباً من وهج النار ودخانها أو بتدثره بأغطية ثقيلة من البطاطين عند النوم. فالنوم والرأس مغطى تماماً باللحاف عادة شائعة في الجزيرة العربية، وكان رفاقي يتعجبون من نومي ورأسي مكشوف معرض للهواء. كنت أقول لهم: «إن النوم هكذا نومٌ صحي»، ويرد أبو جعشة: «لا والله. في ليلة باردة ليس هناك أفضل من أن تتدثر مع أهلك ببطانية». سألته: «هل يمكن أن تنام وأنت في ذلك الوضع؟» فكان جوابه الصحيح: «نعم والله أستطيع، إنني أفعل ذلك دائماً».

كان لدى علي بن جهامان بعض من الشغف لبعض الأدوية الخفيفة مثل «ملح إينو الفوار، وملح إيبسوم» ومستحلبات الحلق وشراب الكينا والأسبرين وما شابه ذلك، وكان يستخدم مالدي من مخزون من هذه الأدوية دون تكلف. فقد بدأ يشتكي من ألم وبثور في لثته لم أجد ما أقدمه له إلا محلول اليود المخفف بالماء ومرهم الزنك كعلاج لمرضه، وأخذ بعضاً من الدوائين وجربهما، ولأنه لم يعد إليّ يطلب المزيد منه رغم شكواه المستمر من ألم اللثة فقد لمته على عدم ثقته في تطبيبي. أجاب علي: «لا، ليس ذلك. فنحن البدو لدينا علاجنا لمثل هذه الأمراض. وقد تمضمضت هذا الصباح ببول البعير لتخفيف الألم، ومع ذلك ما زلت أعاني». وظل علي يعاني من مرض اللثة لبضعة أيام قبل أن يُشفى منه، ولا أدّعي بأن لي دوراً في شفائه منه في النهاية، فقد كان ذلك مجرد وقت.

أصبح روتين رمضان ثابتاً بعد أن مضى منه حوالي ثمانية أيام، وظل الطقس معتدلاً بما يكفي لتلطيف وطأة العطش كما أن وجبة السحور، رغم

رتابتها، كانت تقينا من غائلة الجـوع. أما عدم شـرب القهـوة فكان أكثـر مـا يعـانون منه، وكـان غـريبـاً كيف كـانوا يتلهـفـون بنهـم لتلك الجـرعـات البائسـة من ذلك الشراب وتخور قواهم تدريجيّاً عندما ترتفع الشـمـس وتلعب بأشـعتها الدافئة على أعصابهم المهتاجة، بينما عانى اثنان منهم من عقوبات أقل حدة، فقد كـان فـراج مدخنـاً نهمـاً كمـا كـان صالح، القادم الجديد. قال فراج متحسراً عندما كنا نتحدث عن خراج اللثة الذي يعـاني منه علي وعن مـزايا كل من اليـود والبـول في عـلاج ذلك. «يا ليتك أخبرتني عن عـلاج لذلك، فسأكـون لك من الشـاكـرين». ولكنهـمـا وجدا الحل الوحيد مفروضاً عليهم بعد حين عندما نفد ما لديهم من تبغ ولم يكن هناك أثناء ذلك أحـد يتـوق بشـغف إلى مـغـيب الشـمس أكـثـر من هـذين الشخصين اللذين كانا يفطران بطقوس مؤثرة، ولـم يكن لديهما غير غليون طين واحد كـانا يتبادلانه فيما بينهما عند التدخين. وتفتقت عبقريتهما عندما ثقبا علبة خرطوش فارغة وأخذا يستخدمانها عوضاً عن الوعاء، يستنشق كل منهمـا الدخـان، خلال الفتـحة الصـغيرة التي يمسكانهـا بين شفتيهما. وعند الفجر وقبل حوالي ساعة من صلاة الفجر أو الإمساك كانوا يوقظوننا لتناول طعام السحور، وبعده كـان رفـاقي يجلسـون لاحتسـاء أكبر كمية من القهوة بينما كنت أنسحب إلى خيمتي ومعي إبريق شاي بجانبي وأبدأ في كتابة مذكراتي وأحفظ الحشرات والعينات الأخرى التي تتطلب اهتمـامي المباشر. ثم يُنادى للصلاة إيذاناً بحلول موعد الإمسـاك، وبعد الصلاة يعود الرفاق إلى النوم بينما أواصل أنا ما بدأته من أشغال حتى تتم مراجعتهـا مع طلوع الشمس أو قبل ذلك بقليل، وبدأنا بعـد ذلك نتـهـيـأ استعداداً لمسيرة اليوم.

وكان نادراً ما أنام خلال أيام رمضان أكثر من ٥ أو ٦ ساعات في اليوم لانشغالي دائماً بتدوين مذكراتي وبأشياء أخرى حتى منتصف الليل. ولكننا كنا نقتنص إغفاءات صغيرة خلال تلك الظروف الصحية الجيدة في العراء، وكنت أشعر بلياقة جسمانية جيدة وقناعة روحية وأنا أسير عبر هذه الصحراء وأفكر باعتزاز وولع في أعظم الصحاري على الوجود، تلك التي كانت تقع وراءها الأرض الموعودة التي سأقتحمها بعد قليل.

خرجت فجر اليوم التالي (١٥ يناير) من خيمتي لتناول طعام السحور، وكانت السماء صافية؛ فقد كانت كوكبة صليب الجنوب تتوسط السماء، وبرج السنبلة يضيء وحيداً من خط الزوال، بينما نير العقرب يلمع في الجنوب الشرقي من خلال غلالة رقيقة من الغيم من رأس العقرب المرفوع. وكان ضباب خفيف يلف المخيم وندى يبلل الأرض. بدأنا المسير في الساعة الثامنة صباحاً، وكنت أنا وصالح وعلي نسير معاً عندما سألتهما: كم تبعد يبرين من هنا؟! أجاب علي: «مسيرة ثلاثة أيام. نعم ثلاثة أيام أو يومين، الله أعلم» وسعى صالح بتسليتي والترويح عني بسرد معلومات قيمة عن قبيلته وبلاده: «يقال إن أصلنا –والله عليم بكل شيء– من قحطان لأننا نعد غوينْم الزهري سليل المناصير، وكان من قحطان، ولكننا من النصارى القدامى ومنها اشتق اسمنا. بالتأكيد سنجد شيئاً من ذلك مدوناً في كتب الفرنكين». ووافقته بأن تشابه الأسماء يؤكد ما ذهب إليه. «فقد رأيت القناصل في مسقط عدة مرات حيث كنا نذهب سابقاً لاستلام إعانة قطعها لنا السلطان من خزانته. أما الآن فنحن نلجأ إلى ابن سعود فقط، وواحة البريمي تابعة للمناصير، وهي مليئة بقصور شيوخنا الذين استقروا بها تحت حماية

حكم آل سعود، ولكننا لا نتبع المذهب الحنبلي، بل نحن على مذهب مالك، ومع ذلك هناك اختلاف بسيط بيننا، والله أعلم. مع أننا نقصر صلاتنا فقط عند السفر ولا نجمعها كما يفعل الحنبليون، فنحن نصلي خمس مرات يوميّاً، كل صلاة على حدة، ونقف في الصلاة مسدولي الأيدي وليست مقبوضة أو مضمومة إلى الصدر، وهذا كل ما بيننا من اختلاف». ولكنني لاحظت أن حميداً كان يتبع كلتا الطريقتين، إذ لم يكن يعير اهتماماً لمثل هذه الاختلافات الطفيفة. فقد كان فيلسوفاً، وكان هو وصالح يرفعان حفنة من الرمل وهما يتوضآن ويقبلانها ويتبركان بها(*).

واصل صالح حديثه: «عليك أن ترى قُرانا في الظَّفْرَة، حيث يمكنك المسير فيها لثلاثة أيام وسط القرى وبساتين النخيل، وأمامها يمتد سهل حصبائي دون انقطاع حتى البحر، وخلفها من جهة الداخل تمتد الرمال. . أمواج منها مثل رمال الجافورة هذه ولكن ذات مراع أفضل. فقد عبرتها وأنا في طريقي إلى مغشن حيث قمنا بالغارة على العوامر، إنها تقع على مسيرة عشرة أيام عبر الرمال بالجمال. وينحدر أفضل جمَال المناصير من سلالة «العُصيفر»، وهي سلالة عربية باهتة اللون، لا تقلَ جودة عن أي نوع آخر، أما سلالة العمانية فإن أفضل أنواعها يأتي من قبائل الدروع وآل بوشمس(**)؛ وجمل

(*) يقصد المؤلف هنا التيمم.

(**) الدروع: من بني غافر، من عدنان، يقيم الجزء الأكبر منهم في ثنيان بالظاهرة في عُمَان، جزء منهم إباضيون، وجزء آخر سنيون، أكثرهم بادية اشتهروا كرعاة للإبل. انظر: ما يلز، الخليج بلدانه وقبائله، ص٢٨٧. آل بو شمس: ويقال لهم الشموس من الهناوية -من قبائل عمان- يقيمون في الباطنة. ومن قبائل الهناوية أيضاً الشوامس. انظر: لوريمر، دليل الخليج -القسم الجغرافي- ج٥، ص١٧٨٢. (المراجعون).

علي، الناعرية، وأفضل جمالنا هذه من نوع الدراعية، ويتبع جماعة آل بوشمس المذهب الإباضي ويؤدون الصلاة بطريقة غريبة».

عثرنا بعد خمس ساعات من بدء الرحلة على شجيرات الحاذ [١] التي تكثر بالذات في المناطق الجنوبية، وكانت هذه أول مرة أرى فيها هذا النبات خلال تجوالي في الصحراء. ومن الواضح أنه ينتمي إلى عائلة الحمض [٢] وله مذاق ملحي ويعد الأكل المفضل لجمال الصحراء. وكنا نمر بين حين وآخر بجانب أو عبر مساحات من الحصباء كانت تتسع أحياناً كما سطح بحيرة وسط الرمال. وعلى الرغم من أننا رأينا أرنبين بريين، فقد كانت الحيوانات نادرة هناك. قال صالح: «إنها تختلف عن بلادنا، حيث يكثر الصيد: الوضيحي، والغزلان، والحمار الوحشي، والثعالب -التي نأكلها نحن المناصير لكن آل مُرة يعافون أكلها لأن لحمها حرام- ويوجد لدينا الهر البري، والذي يعرف عند المرّي بالعطفة، وكذلك الضَرِمْبان أو الغُرير».

هب نسيم عليل من الجنوب الشرقي لطّف من جو الظهيرة، ولكن بعد ست ساعات من السير المتواصل على ظهور الجمال بدأ الرفاق يطالبون بالتوقف، ولكنني رفضت ذلك قبل الوصول إلى وادي السهباء الذي كان ما زال بعيداً أمامنا، والذي كنت حريصاً على المبيت فيه لإجراء بعض الملاحظات الفلكية لتحديد موقعه المطلق. ولم يكن هناك أحد يعرف موقع الوادي بالتحديد ولا المسافة التي تفصلنا منه. وخفت أن أي توقف قبل الوادي قد يحبط ما أهدف إليه. وثبت أنه لم يكن هناك أي داعٍ لقلقي ولا

(١) قمت بجمع عينات منه في عام ١٩١٨م (١٣٣٧هـ) وكانت تسمى صلصولة، ج. روهلفز يصنفه باسم Cornulaca Nonocantha. انظر الملحق.

(٢) كلاهما ينتميان إلى فئة الأعشاب.

لتوتر أصحابي إذ لم نكد نسير ساعة من الزمن إلا وظهرت نباتات أكثر طراوة ونداوة، ووجدنا أنفسنا دون أن نحس في منتصف المجرى. صاح علي: «ها هنا السهباء. انظروا، هناك نبات البركان الذي يفترض وجوده دائماً في المجرى، وهو لا ينمو شمالي هذه المنطقة ويشكل أفضل عشب في مراعينا الجنوبية».

ابتهج القوم لوصولنا المكان الذي سنخيم فيه الليلة بينما انطلقت الإبل ترعى نبات البركان بنهم، وكنت بدوري أشعر بالرضا والارتياح لما لدي من وقت كافٍ لدراسة مشكلة وادي السهباء، مع أن ذلك يتطلب بعض البحث لاكتشاف تخطيط ضفتي المجرى أو خطوطهما والتي انطمست معالمها هنا تماماً بتراكم الرمال. فالسهباء يمثل أحد أعظم وأطول أنهار الجزيرة العربية القديمة التي اندثرت، إذ يبلغ طوله أكثر من ٥٠٠ ميل من منابعه عند أطراف العلم في مرتفعات نجد الوسطى (خط طول ٤٤ شرقاً وخط عرض ٢٥ شمالاً) إلى مصبه في الخليج العربي وكنت قد عبرت مجاريه العليا التي تعرف بوادي السِّرّ أثناء رحلتي عام ١٩١٧م [١٣٣٦هـ]، بينما رأيت في السنة التالية بعضاً من جزأين بعيدين منه إلى الشرق يعرفان بـ «وادي برك ووادي العقيمي». ويجري الأخير تجاه اليمامة في مدينة الخرج حيث رأينا منبع المجرى الأخير المختنق بالرمال، والذي يحمل وحده اسم «السهباء». وقد عبر الرائد تشيزمان هذا الجزء في منتصف الطريق بين اليمامة والبحر في رحلته من يبرين[1]، ووجد مجرى محدد المعالم بين ضفتين منخفضتين، ولكنه لم يتمكن من التأكد من نهايته. وهكذا لم يكن معروفاً ما إذا كان

(١) انظر «في الجزيرة العربية المجهولة» ص ٢٣٧ وما بعدها.

الوادي ينتهي في رمال الجافورة أو يدفع طريقه إلى البحر . ولم يلاحظ برترام توماس أو يذكر أثناء رحلته السنة الماضية مجرى الوادي الذي يفترض أنه عبره قبل وصوله إلى نخيل نَخَالة ، وربما كان المجرى من الضحالة هناك بحيث أنه لم يشعر به لأن أحداً من أدلائه لم يكن على علم به . وقد كنت محظوظاً بأنني وجدت في صالح وعلي الجهامان نفراً من أهل تلك المناطق اللذين يعرفان مجرى السهباء في أجزائه الدنيا حيث يجري خلال سهل المجن الحصبائي في طريقه إلى البحر بين لساني سيلة والبعجة . وقد قالا لي بأن بئراً باسم بطحاء تقع في قاعه على مسافة قريبة من جنوبي نخالة . وبهذا تكونت لدينا فكرة عامة جيدة عن مجرى «الوادي» كله من المنبع إلى مصبه في البحر .

كان هناك رمل كثير -حيث نصبنا خيامنا- يغطي قاع الوادي والضفاف الذي تحتويه ، ولكن كان هناك ما يكفي من الضفة مكشوفاً ليوضح أن عرض المجرى كان يبلغ حوالي ميلاً ، وارتفاع الضفة على الجانبين حوالي عشرين قدماً ، كما كان جزء كبير من قاع المجرى مكشوفاً على طول الجانب الشمالي حيث كانت برازخ رملية ضيقه وكثبان منعزلة تشق سلسلة من الرقع الحصبائية والحصوية . ويأخذ الوادي هنا اتجاهاً من الغرب إلى الشرق ، ولكننا في اليوم التالي وبعد مسيرة خمسة أميال في اتجاه جنوب شرق التقينا بالمجرى مرة ثانية في بقعة حصبائية محددة المعالم على يميننا حيث يأخذ اتجاهاً يجري من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي . ويحتمل أن مجرى «الوادي» كان فيما مضى يتعرج وينثني في أوج جريانه عبر منطقة شديدة الانبساط .

وهنا أيضاً وجدنا الأرض مبللة بقليل من الندى في الصباح ، وظهر زوج من الغربان جاءا يحلقان فوق المخيم على أمل العثور على فتات طعام يقيمان

به أودهما، ثم انبسطت الأرض أمامنا مكونة سهلاً رمليّاً واسع الامتداد ذا تموجات هينة وتتخلله أحياناً مساحات واسعة من الحصباء.

وبدت الجافورة وكأنها بالفعل تتلاشى تدريجيّاً، وتخيلت بأننا قد بدأنا نلج سهل «سراميد» الحصبائي العظيم الذي ورد ذكره في كتابات الرائد تشيزمان. ويبدو أن زملائي لم يكونوا على علم بوجود هذا السهل على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا على إلمام تام بكل الطرق المعروفة بين الأحساء ويبرين. وتعجبت بيني وبين نفسي كيف يكون هذا، ولكنني طردت الفكرة من رأسي عندما أبصرت كثباناً رملية مرتفعة كنا نعبرها تمتد وراء الرقع الحصبائية ذات المساحات الكبيرة بشكل استثنائي، موحية بأن الجافورة ما زالت معنا ولم تنته بعد.

وهكذا واصلنا السير عبر الحصباء والرمال ونحن نتجاذب الحديث حول أشياء كثيرة لتمضية الوقت. وسألتهم عن «الأحجار السيارة Walking Stones»[1]، التي سمعت عنها الكثير من قبل في الجافورة، والتي بدت غير موجودة في أرض تعد مركزاً لنشاطاتها. ورفض حميد الفكرة بازدراء وبدا واضحاً أنه لا يثق كثيراً بتلك القصص التي رواها شهود عيان، ولكن صالحاً جاء يؤكد أنه هو نفسه قد رآها في تلك الرمال البعيدة حول مسقط رأسه حيث توجد -حسب روايته- خرائب قديمة يمكن أن أرى فيها، إذا ما ذهبت معه إلى هناك البنادق التي كانت تستخدم أيام الجاهلية! ودون شك، فإنه قد رأى قطعاً من المدافع التي يعود تاريخها إلى أيام البرتغاليين، ولكنني بدأت أدرك أنه يفضل الجعجعة بدلاً من الحقيقة، ولذا تحفظت على الحكم على موضوع هذه الحجارة إلى حين أن أراها بعيني وهي تؤدي نشاطها. أما

(١) انظر الملحق.

العيتنان، فقد كانتا عبارة عن قطعتين من الخبث البازلتي «بركاني» جاءت من المنطقة البركانية في حرة كشب في نجد الغربية، واللتين تمت دراستهما من قبل المسؤولين في المتحف البريطاني وجردتا من كل تلك الادعاءات حول خصائصهما السحرية التي ينسبها إليها العرب.

وأخذ أبو جعشة -الذي كان قد بدأ يتماثل للشفاء من مرض العيون- يؤدي دوراً بارزاً بالمشاركة في الحديث العابر الذي كنا نتجاذبه أثناء السير، وكانت لديه بوصلة جيدة يعتز بها ويتفاخر بما يشعر به من تميز علمي بامتلاكه لها، وكان جذلاً كالطفل عندما وجد يوماً أن إبرة بوصلته تشير إلى نفس اتجاه بوصلتي المنشورية. أما ما كان يستهويه تماماً فهو الحديث عن الجنس.

بدأنا نسير الآن في سهل واسع من الحصباء يعتريه بعض التموج الهين، وخلفه تمتد كثبان أشاروا بأنها «القسام»، وقبلها بدأت أرض الصحراء في الانحدار تجاه منخفض ضحل ذي جوانب محددة وأقرب في شكله إلى واد مقارنة بوادي السهباء عندما عبرناه، مع أن أدنى نقطة فيه كانت تصل إلى أكثر من ٢٠ قدمًا أسفل الضفتين على الجانبين، وعرضه حوالي نصف الميل. تطوع سويد شارحاً: «هل ترى هذا المنخفض؟، إنه أحد فروع وادي السهباء الذي يتفرع منه في الصّمان تقريباً عند أو بعد حرض بقليل، ونعرفه باسم «سُر المعيد» أو منخفض بئر الجمل ويقال بأنه في غابر الأزمان كان فريق من الرجال يعبرون الصحراء ومعهم بعض الماشية ونفق أحد الحيوانات في هذا المجرى بالقرب من حيث يتفرع من السهباء، ولذلك أطلق عليه اسم «سُر المعيد»(*)، وقفز ذهني إلى استنتاج واضح، لأن الاسم قد أوجد حلاً

(*) أطلق بنو مرة هذا الاسم على المكان لأن «المعيد» هو اسم يطلق على الناقة الحائل التي تستخدم في سحب المياه في السواني وبعد ضعفها تعاد إلى المراعي ويتم تلقيحها وحدث أن ماتت إحدى هذه النوق في هذا المكان وسمى باسمها. (المراجعون).

للغموض الذي شاب اسم «سراميد» الذي ذكره تشيزمان. وبدا المجرى مسدوداً تماماً بالرمال من ناحيةالغرب على مسافة ميل تقريباً، بينما من جهة الشرق بدا وكأنه يجري لمسافة ثلاثة أميال نحو الرمال الممتدة هناك. أما سطح قاع المجرى فكان يتكون من حصباء باهتة اللون يكسوه غطاء خفيف من الرمل ويرتفع بانحدار هين تجاه الجنوب.

ثم دخلنا نطاقاً واسعاً من الكثبان المرتفعة كتلك التي شاهدناها في عرض الجافورة، وأكدت سرعة العرب في اكتشاف وتجنب الأماكن التي يكون الرمل فيها عميقاً وليناً. وأحياناً لا مفر من عبور مثل هذه المواضع، وعندها تبدأ الجمال بالاصطفاف خلف بعضهم تلقائيّاً وتسير في صف واحد، كل جمل يطأ موضع أقدام الذي أمامه، كأنه طريق مطروق، ويعرف هذا النطاق من الكثبان الموشاة أحياناً ببقع صغيرة من الحصباء وأحزمة من النبات الجيد، باسم القسّام، أي الذي يقسم بين الجافورة الأصلية وامتدادها تجاه الغرب الذي يعرف «بالحمل «AL Haml»، وهي منطقة مماثلة ولكنها أكثر فقراً من الجافورة التي تنتهي من بعض النواحي هنا عند مجرى «سُر المعيد» وذلك على الرغم من أن المجرى يعبر المنخفض إلى الجنوب من حيث نسير ثم يواصل طريقه كما يبدو إلى طرف الجوب.

دخلنا بعد القسام، الذي يبلغ عرضه حوالي عشرة أميال وتخترقه عند طرفه البعيد بقع حصبائية واسعة، سهل «حدبة البدوع» الحصبائي. وكان طريقنا يقع إلى الجنوب الغربي بين خط الجافورة المتجه جنوباً إلى اليسار وامتداده الغربي، الحمل، على اليمين. وقد عزز تشعب هذين الخطين من الرمال التوسع التدريجي للسهل الذي سرنا عبره محبطين على أمل أن نصل

إما إلى حوض يبرين قبل المغيب أو نعثر بين ثنايا تموجاته على بعض الأعشاب حيث يمكن أن نقيم مخيمنا للمبيت. ولم يتحقق أي من الهدفين. وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساءً عندما تخلينا عن المحاولة وبدأنا ننصب خيامنا في مجرى ضحل تكثر فيه نباتات جافة تصلح كوقود لا كعلف للجمال. ونشبت مشاحنة عنيفة بين رفاقي - لم أشارك فيها- حول مواصلة السير للنهاية المحتومة أو التوقف، وكان أن رأت الأغلبية أن نتوقف ربما لاحتساء القهوة. فقد كان أمامنا الكثير من الأميال يتعين علينا اجتيازها في الغد، والصحراء كما هي لم يطرأ عليها أي تحسن يشجع على مواصلة السير.

كنا قد قطعنا ٢٥ ميلاً دون توقف وعانينا في المراحل الأخيرة منه من هبوب رياح معتدلة لكنها مزعجة. ولم أجمع شيئاً يذكر بخلاف بعض السحالي التي وجدتها في الحصباء، كما لم نر أرانباً أو أي صيد طوال اليوم، ولكن لا حظت جرادة واحدة في رمال الجافورة، ورأينا أخرى في اليوم التالي في السهل الحصبائي كما حصلت على بعض الجعارين بالقرب من مخيمنا السابق في وادي السهباء.

فقد كانت صحراء قاحلة لا حياة فيها، وهذا السهل الفسيح الذي يبلغ عرضه عشرة أميال من الرمال لم يكن بأحسن حال منها. وقيل: إن طريق الأحساء- يبرين يقع على بعد مسيرة يوم تجاه الغرب، بينما ثبت أن أول بئر في حوض يبرين توجد على بعد ٢٥ ميلاً من هنا، وأن بئر عزيز في الجوب يقع على مسيرة يومين إلى الجنوب الشرقي من حيث نحن، وهنا وهناك يتناثر كثيب منفرد فوق الحصباء التي تجري عبرها طرق الجمال التي تشير إلى الطريق المؤدي من مراعي الجافورة إلى بدع بركان التي سنبحث عنها غداً.

واصلنا السير في وقت مبكر حتى نتمكن من الوصول إلى الماء في أقرب وقت ممكن، آملين أيضاً أن نصل يبرين نفسها قبل المغيب. وأشرقت الشمس بعد نصف ساعة من بدء السير، ومع بزوغها ظهر ضباب فوق الرمال البعيدة على يسارنا، وظل الجو جافّاً وصافياً فوق السهل. وكنا أحياناً نلمح الرمال البعيدة في الشمال الغربي وأمامنا حيث تنحني خطوطها حول نتوء يعرف بـ «سُلاع الحمْل»، ولكننا كنا نسير معظم الوقت عبر قفار متواصلة انحسرت منها الرمال كليّاً من على الجانبين.

وهب نسيم نشط ومنعش من جهة الجنوب الغربي، وعاد صالح يمجد جمال وجاذبية منطقته. «إذا رأيتها، ستفرح وتبتهج كثيراً. وقديماً كان يسكنها بنو هلال وكنت قد تحدثت بالأمس عن البنادق الخاصة بهم، ويسمى المكان «السر»، وسأرافقك إلى هناك السنة القادمة إن شاء الله. ولكن عليك أن تأتي بمهندس معك لتراها، ربما هناك ذهب لأن تلالها حمراء اللون وتوجد في الظفرة عظام وبقايا أخرى يقال إنها من مخلفات حرب قديمة دارت بين الفرس وبني هلال، ويمكنك البقاء مع أهلي أي وقت تشاء، نعم، سأجد لك بنتاً تتزوجها وأخرى أيضاً لزايد».

ثم بدأ الحديث يفتر قليلاً، فقد بلغ الإعياء بنا حداً فقدنا معه الحماس لأي حديث.

بعد منتصف النهار بقليل، بدأت المنطقة تتجزأ إلى منخفضات ضحلة واسعة تنمو بها بعض النباتات ومن بينها نبات «الضُمران»؛ وكلما سرنا قدماً، أخذت التموجات تظهر بوضوح، كما بدأت الأرض بعد مساحة

قصيرة، تنحدر بسرعة وبسهولة إلى حوض ضحل فسيح تحمي طرفه البعيد سلسلة من الحافات الرملية التي تغطيها الشجيرات بكثافة. وتوقفنا على هضبة صغيرة في السهل الحصبائي لنستطلع المنظر الذي كان عبارة عن منخفض لا معالم له وتحيط به حافات تنتهي على شكل رؤوس بالقرب من بدع بركان. وظهرت إلى اليمين وفوق حافة رملية مجموعة صغيرة من أشجار النخيل الباسقة، وخلف المنخفض كانت تمتد صحراء خالية المعالم صوب الجنوب في اتجاه مقينمة.

وأسرعنا في السير لنصل إلى بدع بركان التي وصلناها الساعة الخامسة مساء، وكانت تقع عند أطراف «جوب البدوع». وهكذا وجدنا أنفسنا، بعد مسيرة ثلاثة أيام فوق رمال الصحراء، مرة ثانية وسط المصبات الخليجية للبحر القديم.

الفصل الخامس

يبرين

«يبدو أنها بقعة متسعة من النخيل ولكنها الآن موبوءة بالملاريا مما يجعل الاستقرار الدائم فيها صعباً، ويزورها أيام جني ثمار النخيل بدو بني مُرّة الذين يقولون بأنهم رأوا خرائب مساكن و- بعد الأمطار - عملات ملقاة على سطح تربتها» (د. هوجارث: الجزيرة العربية صفحة ٢٣٣)(١).

تقع مناطق واحات الأحساء ويبرين على بعد حوالي ١١٠ أميال من بعضها وعند قاعدة حزام عريض من الاستبس الذي يمكن اعتبار أقسامها الصغيرة - والتي تعرف بأسماء محلية عديدة- كوحدة جغرافية متجانسة تحت اسم عام وهي «الصُّمَّان». ويحتمل أن هذا السهب «الاستبس» يعلو ترسبات تنتمي إلى العصور الكريتاسي والأيوسيني والمايوسيني بهذا الترتيب من الغرب إلى الشرق(٢)، ويفصله -أي السهب- بالتوالي من هضبة طويق الوسطى والبحر ذراعان طويلان من الرمل يمتدان شمالاً من الصحراء الجنوبية «الربع الخالي». فالذراع الأيمن هو الدهناء الذي يمكن تتبعه جنوباً عبر حزام الرميلة إلى كتل الرمال المختلطة التابعة للربع الخالي التي تبدأ ببني معارض والتي ينتهي عند تخومها الشمالية سهب الصمان عند حوالي خط عرض ١٩° شمالاً حاملاً اسم «أبو بحر»(*). أما الحزام الرملي من الشرق فهو الجافورة

(١) «اختراق الجزيرة العربية» ١٩٠٥م، ص ٢٣٣.

(٢) لمزيد من المعلومات الجيولوجية انظر الملحق.

(*) يقع «أبو بحر» عند خط عرض ١٦َ ٢١ْ وخط طول ٥٠َ ٤٧ْ. (المراجعون).

والتي قمنا باستكشافها الآن، والتي يفصلها عن البحر مجموعة من الفجوات العميقة الشبيهة بالمصبات الخليجية، ويفصل أطرافها الجنوبية عن الجسم الرئيس للرمال الجنوبية مصب خليجي طويل وهام يمتد غرباً من البحر إلى حوض يبرين عند سفح الصمَّان. هذا المصب الخليجي هو «الجوب الكبير» الذي ينقسم إلى أقسام عديدة يحمل كل قسم منه اسماً، والقسم الذي يقع في أقصى الغرب هو حوض يبرين الأصلي الذي يعرف عامة بـ «جوبة». وإذا تابعنا السير شرقاً نأتي إلى قسم «جوب البدوع» الذي يقع حده الشمالي في مجاورة البركان الذي وصلنا إليه الآن، ومن هنا يمتد المنخفض في اتجاه الجنوب الشرقي تحت اسم جوب «دُون منازع»، والذي يضم مجموعة كاملة من الآبار بما فيها بئر عزيز، حتى خط طول بُنَيّان أو نحو ذلك، ومن هناك يتفلطح المصب الخليجي إلى خليج غير منتظم المعالم. ويطلق على مجموعة الفجوات الموجودة في هذا الخليج والممتدة ناحية الشمال الشرقي اسم «الجيبان» وإن كانت كل فجوة منها تحمل اسماً مميزاً. فقد سبق وأن قمنا بزيارة هذه المصبات الصغيرة الشمالية بينما قطع برترام توماس هذه الأودية أو مرَّ بمصبات تلك الخلجان في الجنوب، وذلك أثناء سيره من بُنيان صوب شبه جزيرة قطر. وبناءً على ما تتمخض عنه استكشافات لاحقة وبمسح تفصيلي لتخطيط منخفضات الجيبان، يبدو أن ما لدينا من حجج الآن يكفي لإيجاد ثمة علاقة بين حوض يبرين والنظام العام للمصبات الخليجية مما يتيح لنا أن نفسر إلى حد ما لماذا يوجد الحوض حيث هو ولماذا يتسم بهذه الخصائص المميزة؟

وفيما يخص «الجوب الأصلي» فليس لدي ما أقوله عنه الآن لأنني لم أر أي جزء منه أثناء رحلتي. وعلى قدر ما أستنتج فإن مجراه يجري في البداية

في اتجاه جنوبي شرقي ويتحول لاحقاً إلى اتجاه شمالي شرقي ماراً ببنيان في طريقه إلى الجيبان الصغرى. وتوجد في قاعه آبار كثيرة منتشرة على مسافات كبيرة بدءاً من مسقى القصب المهم، والذي يصل عمقه إلى ٥٠ قدماً ويقع على مسيرة يوم إلى الجوب الشرقي من قليبة التي سنقوم بزيارتها في الوقت المناسب. وتوجد بين القصب وبئر عزيز -وربما بعد مسيرة يومين أو أقل في اتجاه الجنوب الشرقي من بنيان- ما لا يقل عن ثمانية آبار[1] . ولهذا الجزء من المصب الخليجي أهمية كبيرة لرعاة قبيلة آل مُرّة التي ترعى إبلها في الرمال على جانبيه، ولكونه يمثل نقطة تمركز وتجمع القبائل خلال مواسم الأمطار الجيدة. ويبدو أن أعماق الآبار تقل باستمرار كلما اتجهنا شرقاً وأن أعمق هذه الآبار هو القصب نفسها.

ظهر منخفض «جوب البدوع» -كما رأيناه من السهل الحصبائي المرتفع الواقع إلى شماله- كمسطح ملحي (سبخة) طويل وعريض يمتد صوب الغرب بين حيود (ضلوع) رملية ثابتة والتي تكون حاجزاً بين الأرض المنخفضة والحافة التي تحيط بها. وتقع عند طرفها الشرقي ومخفية داخل تثنية حادة لطرف الرمل، بدع بركان، وهي بئر واحدة، وبقربها منخفض تكثر فيه الأشجار نُصبت فيه خيامنا للمبيت. وكانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً حين انهمك أولئك المهتمون بإعداد الشاي وطعام الإفطار في عملهم لإنجازه قبل المغيب، وذهبت لأراقب الإبل وهي ترتوي عند البئر. وكانت المياه وفيرة وذات نوعية ممتازة وتتوافر على عمق أربعة أقدام فقط، وكانت البئر أقرب إلى عين منه إلى بئر حقيقية. وبعد أن انتهيت من ذلك

(١) هي من الشرق إلى الغرب: ضميدان (٧ قامات)، المليحة القبلية والمليحة الحضرية، ولطيط، والعصل، وهقشة، وهدبة، وعطسة «على مسيرة يوم في اتجاه الجنوب الغربي من بئر عزيز».

تجولت وسط مجموعة حقيقية من شجيرات الطرفا والغضا، وقابلت سويداً عائداً من رحلة تفتيشية وسألته: «هلا، ماذا رأيت؟ هل رأيت أي أعرابي هناك؟». فأجاب سويد بقوله: «لا. لقد تجولت في كل المنطقة التي حولنا ولم أر أثراً لعربي أو لإبل، ولكنني رأيت الحجر السيار - ستراه إذا ذهبت إلى الشجيرة هناك، فقد رأيت أثره على الرمل وتبعته إلى هناك».

وتوجهت إلى حيث أشار سويد ورأيت على منحدر رملي شديد الانحدار نمط آثار تركته على ما يبدو عُقَيدة صوان خشن، ولكن لم تكن الظاهرة في حد ذاتها ومن نواح أخرى مثيرة للاهتمام، إذ كان من الواضح أن حركة الحجر كانت ناتجة من انزلاق الرمل تحت الحجر في ذلك المنحدر الحاد.

ورأيت من على البعد رأس «فردة الخنْ» حيث موضع قرية الخن التي يقطنها الإخوان والذي يحدد الاتجاه العام للطريق الذي سنتبعه غداً.

ولكنني كنت محبطاً لأنني لم أر كثيراً من واحة يبرين الكبيرة والتي، حسب خريطة الرائد تشيزمان، كان من المفروض أن يكون موقعها إلى شمالي قرية الخن. وقلت في نفسي بأن مرشدينا ربما قد أتوا بنا إلى أقصى جنوبي الحوض. وكنت في حيرة من أمري عندما سمعت بأن علينا أن نسير غرباً بدلاً من الشمال لنصل إلى حيث نريد. وقد أخبر سويد- الخبير بهذه المنطقة- بأن هذا الاتجاه صحيح، وسخر من آرائي حول موقع الأرض ومعالمه بقوله: «من الذي يعرف يبرين غيري؟ فقد عشت هنا مع حمد بن مرضَّف وأتباعه من الإخوان لعدة سنوات وتجولت في أنحائها بحثاً عن عيون ماء جديدة لزراعة النخيل عندها.. وقد تخليت عن هذه الحياة عند وفاة حمد، وشردت الحمَّى أتباعه من منازلهم، وقد مات منهم الكثير أما الباقي فقد لجؤوا إلى الصحراء ولم يعد أحد يعيش هناك الآن».

كان نسيم خفيف يداعبنا ونحن نغذ السير صباح اليوم التالي عبر المسطح الملحي -الذي يبلغ عرضه ميلاً-، وكان طين المنخفض المالح خشناً وقذراً تتخلله مجموعات هزيلة من أشجار الطرفاء والنخيل القزمية. ووصلنا بعد مسيرة نصف ساعة مرهقة أشجار النخيل التي رأيناها مساء أمس، وكانت فقط أربعة أشجار باسقة منخفضة ترتوي من عين عمقها أربعة أقدام، وكنا قد بعثنا بقافلة الأمتعة في طريق مباشر عبر المنخفض إلى ملتقى محدد في واحة يبرين نفسها، وذلك لكي يكون لدينا متسع من الوقت لنرى كل ما نريد أن نراه في «جوب البدوع». وكان طريق قافلة الأمتعة يقع إلى جهة الغرب ويمر بآبار وشجيرات طرفا «أم أثلة»[1]، بينما اتجهنا نحن شمالاً من أشجار النخيل التي وصلناها عبر مسطح الملح لندخل مرة أخرى الضلوع الرملية المتاخمة التي سلكنا منها طريقاً متعرجاً بين التلال والمنخفضات، مما أتاح لنا فرصة لرؤية الأماكن المجاورة من على ذرى التلال الكثيرة.

فلت أرنب من بين أرجلنا أثناء سيرنا خلال دغل من شجيرات الشنان والغضا وظهر المسطح الملحي قريباً وموازياً لخط سيرنا من جهة اليسار وخلجان صغيرة منه تتغلغل بعيداً في الرمال. وكنا نعبر بعض هذه الخلجان أو نلتف حولها أحياناً حسب طبيعتها، ووجدنا في بعض منها حطام أجمات من أشجار النخيل الميتة التي كانت فيما مضى تعيش على المياه المالحة التي كانت تنساب قريباً من السطح. وصادفنا في منخفض الرمل وقريباً من هذه الأشجار جذع نخلة واحدة تنمو بالقرب من بئر

(١) هذا هو الاسم الصحيح لهذه البلدة وليس «أم مثيلا» كما ورد في خريطة السيد توماس.

ضحلة عمقها قدمان. ثم مررنا بجانب خليج آخر أكثر اتساعاً من السبخة تكثر به مجموعات من نبات الحلفا والذي تستمد البئر ومجموعة النخيل الميتة اسمها منه«بدع الحلفا».

بدأت الضلوع الرملية تفسح المجال لسهل رملي يمتد بين السطح الملحي الفسيح على يسارنا وطرف السهب الصحراوي والذي كان يجري هنا في اتجاه حافة المنخفض في شكل مجموعة من حيود واضحة المعالم مرصعة بدعامات شبيهة بالرؤوس الأرضية التي تمتد داخل البحر. وتوقفنا عند أحد هذه الألسنة التي يشار إليها بـ «خشم الخن» لبرهة من الزمن حتى أتمكن من إجراء مسح للمنطقة من قمة ترتفع إلى ٣٠ قدماً فوق سطح السهل، وتمكنا هنا من رؤية طرف السهب ممثلاً في روابي مثل (الأصبع)، وهي مسلّة صغيرة من الصخر تقبع عند نهاية حيد يقع عند الجانب الشمالي من حوض جوبة- الذي يقع في الاتجاه الغربي ومجموعة من الصخور المتآكلة في الشمال الشرقي تعرف بـ «غار الجول»، وإلى الشمال الشرقي كان الرأسان الأرضيان اللذان يعرفان بـ«فردة الخن». وترتفع هنا وهناك في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي صخور منعزلة بين سطح المسطح الملحي بينما ظهرت نخيل بركان في اتجاه الجنوب الشرقي. وأشار رفاقي إلى جذوع نخيل يابسة تعيّن مكان «بدع نخلة» الواقعة باتجاه الجنوب الغربي ونخيل الخن الواقعة إلى الغرب. ثم بدأنا نسير تجاه نخيل الخن عبر سهل من الرمل والحصباء تتخلله بقع مكشوفة من صخر رملي يتفاوت لونه بين الأبيض إلى القرنفلي. وأمسك القوم في جلبة وصخب جربوعاً صغيراً في جحره بينما وجدت على فرع قضا أول وآخر عينة من فراشة الفهد الذي اكتشفه الرائد تشيزمان وأطلق اسمه عليها. وبقي رفاقي

يتفرجون عليّ وهم مشدوهين من تصرفي وأنا أترجل من على ناقتي لأمسك بالفريسة التي لم يروها إلا بعد ما أودعتها في قاع الزجاجة وأريتها لهم.

وهكذا وصلنا إلى الخن؛ وكانت قرية [illegible] يره بائسة تتكون من ستة بيوت من الطين، أحدهما [illegible] والآخر الأكبر حجماً هو مقر رئيس جماعة الإخوان، وكانت تقع على طول القاعدة الغربية لضلع رملي منخفض. وكانت البيوت مرتبة في شكل شبه دائري، مع أربعة آبار محفورة في المكان المفتوح الواقع بينهما وبين الضلع؛ وكانت إحدى هذه الآبار مطمورة كلية بالرمال بينما الأخرى -والمحاطة بحائط- تكاد تختنق بجذع نخلة حية؛ أما البئران الأخريان واللتان حفرتا في الصخر الرملي فقد كانتا ممتلئتين بماء عذب على عمق أربعة أقدام. ووجدنا في المنزل الكبير - الذي ينتمي إليه «راشد بن نديلة»[1] من فرع الحسانا من قبيلة البحيح، والذي أنشأ الهجرة بعد ميلاد حركة الإخوان مباشرة في يبرين- إطاراً خشبيّاً لسرج جمل، كان الأثر الوحيد الذي يوحي بوجود سكان هنا فيما مضى. أما المسجد فقد كان يجسد ما حل بالقرية من خراب، إذ كان مطموراً لنصفه بالرمال الزاحفة، وكان محرابه يتجه في زاوية ٢٥٣° مما يشير إلى دقة بَنَّاء كان يعمل دون بوصلة وعلى بعد ٦٠٠ ميل من وجهته[2]. ومثل هذا الإحساس الصحيح بالاتجاهات شيء عظيم يكاد لا يصدق في أناس لم تقع أعينهم على خريطة أبدا.

---

(١) كان تشيزمان قد قابله عام ١٩٢٤م، وكان قد أهداه كلباً سلوقيّاً نال جائزة فيما بعد في معرض لندن، وقد أسماه تشيزمان بـ «راشد بن دالة» ولكن اسمه الصحيح هو الذي قلته، وربما يكون نديلة.

(٢) أي مكة المكرمة

ووجدت نفسي رغم ذلك متورطاً في نقاش جاد مع أدلائي «المحترفين» حول اتجاه مكان قريب. فقد وضع تشيزمان في خريطته البئر ويبرين إلى شمال شرقي قرية الخن، بينما كان سويد يصر على أنها تقع في الاتجاه الجنوبي الغربي. ولذلك صعدت إلى موقع بارز مع الضلع الرملي لننهي النقاش وسألت سويد: «ما هي تلك النخيل التي تقع على مسافة قليلة من المنازل؟». أجابني بأن لا اسم لها وأنها فقط نخيل الخن: «إنني أرى ثلاث مجموعات منها ولكنها تُعرف فقط بنخيل الخن ولا اسم آخر لها»، قالها بإصرار. فقلت: «بكل تأكيد إن المجموعات الثلاث لها أسماء مختلفة.. فالمجموعة التي على اليسار هي -أم النصي- وتلك التي إلى اليمين هي -أم العدوة- والمجموعة الثالثة هي الخن». وهنا بدأ بصيص من الشك يشع من عينيه، وسأل سويد: «من الذي أخبرك بذلك؟» قلت: «إن كتابي وخريطتي أخبراني بذلك، كتاب الرجل الإنجليزي الذي هبط يبرين مع صالح سنة مرض ابن سعود، وصالح من أبناء يبرين، ومن المؤكد أنه يعرف هذه الأماكن». فأجاب سويد: يحتمل أنه كان يعرف، ولكنه ربما قد كذب، إنني أشهد الله بأنه قد كذب على الإنجليزي إذا ما أخبره بأن تلك «أم النصي» وذاك «أم العدوة». فإنني أعرف هذين المكانين معرفة جيدة لأنهما ليسا بعيدين من بستاني في «غباية»، وهي نخيل قمت بزراعتها بيدي هاتين، وإذا شاء الله سأريك إياها حتى تتأكد بأن صالحاً قد كذب، إنها هناك -مشيراً إلى جهة الجنوب الغربي-، وبعيدة، إنك لا تستطيع رؤيتها من هنا، وتلك النخيل هناك تابعة كلها للخن. فهل أنا كاذب لأنك لا تصدق ما أقول؟ أما بالنسبة لصالح - فالله يخرب بيته-. ولكن قد يكون في عداد الموتى الآن لأنني عندما غادرت الأحساء كان مريضاً

جداً في خيمته. . فقد قالوا: «إنه لن يعيش طويلاً، فقد كان مريضاً بالسل، فالله أكبر من كل شيء». وكان واضحاً أن سويداً قد تضايق من شكوكي في مصداقيته وحاولتُ قصارى جهدي لأخفف من شعوره الجريح، لأن الحقيقة ستنكشف أو تتضح لي تماماً بعد أيام قليلة.

ولأرضي غروره ولأنصفه أعلنت فوراً بأنه على حق فيما قال، ولكن كان عليّ أن لا أغمط حق صالح، وما كان عليّ إلا أن أقتبس الكلمات التي وردت على لسان صالح في تقرير الرائد تشيزمان، وكانت كالآتي: «الخن هي بئر قريبة من يبرين وتقع على بعد مسيرة نصف يوم إلى الشرق من أرض النخيل، إنها أعداد قليلة من النخيل»[1]. وهذه بمثابة وصف دقيق للغاية، وقد اتضح لي فيما بعد أن الخطأ الذي بخريطة تشيزمان يعود إليه وليس إلى دليله صالح. وبعد سرد الاقتباس الذي ورد على لسان صالح أضاف تشيزمان: «لقد تمكنت من رؤية الخن لاحقاً وأؤكد ما قاله -أي صالح». ثم يضيف بعد صفحتين تاليتين[2]: «وصلنا نهاية أرض النخيل الكبيرة التي تقع بحوالي ستة أميال جنوبي الطرف الشمالي، وبعدها كانت النخيل عبارة عن مجموعات متناثرة ومتفرقة تتوزع على بعد ميل أو ميلين. وكانت إحداهما هي الخن التي ذكرت أعلاه، وفي الحقيقة فإن هذه البقع المتناثرة كانت تتضمن كلاً من «أم النصي» و «أم العدوة» كما تظهر في خريطته، وليس الخن التي -كما أخبره صالح ورأيت بأم عيني- كانت تقع على مسيرة نصف يوم شرق يبرين الأصلية وليس فقط على مسافة سبعة أو ثمانية أميال إلى الجنوب من يبرين. ومن ثم فإن تشيزمان لم يكن في إمكانه رؤية الخن، وإن ملاحظته عنها مبنية فيما يبدو على سوء فهم.

---

(١) «في الجزيرة العربية المجهولة»، ص ٢٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٥ وص ٢٦١.

رأيت من ضلع الخن مزرعة «أم أثلة» على مسافة بعيدة في اتجاه الجنوب الشرقي على المسطح الملحي (السبخة)، ولم يكن هناك باستثناء هذه المزرعة اختلاف في المنظر الطبيعي الذي رأيناه من الحافة ما عدا المنظر البعيد لمرتفعات «برق السمر» التي تقع إلى الجنوب من حوض يبرين. وإلى حين أن نَبتّ في صحة ما قاله تشيزمان وسويد، سرنا في اتجاه غرب الجنوب الغربي ثم في اتجاه الجنوب الغربي كما أشار إليه سويد. ولم يخف رفاقي استهجانهم على ما بدر مني من انتقاد حاد لإسهاماتهم الجغرافية في الرحلة، ولكن ظهور جربوع ثانٍ صرفهم عن ذلك التفكير إذ انهمكوا في مطاردة الطريدة وهم يتصايحون حتى قبضوا عليه.

سرنا في البداية عبر بقعة خشنة وقذرة من المسطح الملحي (السبخة) ثم دخلنا في منطقة سهلة هينة التموج من الرمل والحصباء إلى حيث تنتهي الصحراء السهبية في شكل مجموعات من ألسنة منخفضة ومصفوفه. وتوجهنا، ونحن نواصل سيرنا عبر رمال وحصباء أكثر تموجاً من ذي قبل، نحو سهل تتناثر فيه أجزاء مكسورة من الصوان لم أجد بينها أدوات بشرية قديمة، وذلك بعد مرورنا عند نهاية حيد الأصبع الذي يتكون من الحجر الرملي الطباشيري ثم تلة الثنية الواقعة بعيدة في جهة اليمين ثم رأس خشم التعيّم.

ومن على رابية منخفضة أشار الرفاق إلى حيدي الجوامر اللذين يجري بينهما طريق الأحساء صوب حوض يبرين الذي بدت ملامح أشجارها تظهر لنا خلال غلالة من الضباب. قال علي: «هناك تقع المبرزات –وهي سلسلة من الروابي الصخرية المنخفضة– حيث تتجه إليها عرب يبرين ليعسكروا هرباً من الحمى. إنهم لا يستطيعون البقاء وسط النخيل حيث

تتفشى الحمَّى التي تقضي عليهم، وهكذا الحال دائماً. ولكن حمد بن مرضَّف[1] أقام هجرته عند طرف النخيل خلال انتشار الدعوة الجديدة، ولكنه مات الآن -عليه رحمة الله- ومعه العديد من أتباعه. أما الباقون فقد لاذوا بالفرار تاركين منازلهم واتخذوا من الصحراء مقراً لهم، ويأتون إلى الواحة فقط في موسم حصاد التمور، التي لا يعتنون بها أبداً ولا بتلقيحها».

تركت المجموعة تتقدم، بينما نحن نقوم بمسح المكان، ثم هبطت أنا وعليّ إلى المسطح الملحي (السبخة) الذي يحدد بداية منخفض جوبة، وكان علي يقود وأنا أتبعه، وفجأة بدأت ناقته تتعثر وتترنح وقد غطست رجلاها في مستنقع حقيقي. وأخذت حذري من سلوك الحيوان وترجلت من دابتي بسرعة ورشاقة نالت إعجاب زملائي، وشرعت بسحب الدابة -وعليٌّ فوقها- من لجامها إلى حيث السلامة دون أن يُضطر إلى الهبوط في ذلك الوحل. وقلت: «انظر! ها هي الشمس تغرب، دعنا نصلي لأنه قد يمضي وقت طويل قبل أن نفطر». وهكذا أدينا الصلاة معاً عند طرف المستنقع وأفطرنا على حبتين من الأقراص المطهرة للحنجرة كنت قد أعطيتها له، ثم واصلنا السير مشياً على الأقدام باحتراس عبر المستنقع الملحي (السبخة) حتى وصلنا التلال الرملية التي تقع وراءه. وهناك امتطينا الجمال وهرعنا حتى ظهرت نار الفريق من بعيد ترشدنا في الظلام نحو المخيم الذي وصلناه بعد الساعة السابعة مساء بقليل. وقد أقيم المخيم حول آبار المُشَمّرة العذبة التي تعد ضمن أفضل آبار الحوض. وكانت إحدى الآبار

(١) كان مضيف الرائد تشيزمان عام ١٩٢٤م. وجاء رد تشيزمان لتلك الضيافة بإعلانه لذريته بإضافة اسم المرضف إلى اسم العائلة. انظر: «في الجزيرة العربية المجهولة»، ص ٢٤٧.

مطمورة بينما الأخرى تفيض ماء على عمق ستة أقدام. وعلى مسافة قريبة من ناحية الشمال الغربي والشمال كانت روابي الـمُبَرّز تمتد في شكل شبه دائري على أرض مرتفعة وعارية، بينما قريباً منها ومن جهة الشرق والجنوب توجد مجموعات نخيل. «غُرّابة» و«الـمَعْجَبة» وكانت قليلة ومبعثرة. وكانت مزرعة نخل «علي بن نجران» تقع على بعد ميل صوب الجنوب الغربي؛ وبعيداً صوب الشمال والجنوب تمتد منطقة نخيل شبيهة بغابة منخفضة من الأشجار الطويلة والصغيرة. ومع ذلك لم يكن هناك ما يشير إلى واحة يبرين عندما رأيتها في ضوء الصباح الباكر إلا من روابي ضَرْبون ومُتْرب البعيدة التي برزت كأبراج المراقبة من ناحية الجنوب الشرقي. بينما كان تلاّ الجوامرة يحرسان المدخل المؤدي إلى الأحساء، ويسد ركام مرتفع الصمّان الأفق الغربي كحائط منيع.

وتسلل خلال الليل ذئب وثعلب إلى داخل المخيم، ولما لم يجدا ما يأكلانه خرجا تاركين آثار أقدامهم. وهب عند الفجر نسيم بارد وجاء اليوم بعده مشمساً وجميلاً، وقضينا وقتاً نحتفل بإنهاء أول مرحلة من رحلتنا: استكشاف الجافورة وأطرافها. وكرّسنا الأيام الثلاثة (من ١٩ يناير إلى ٢١ يناير) لدراسة دقيقة لآخر مخفر أمامي للحضارة في اتجاه الصحراء الجنوبية العظيمة من الربع الخالي التي سنقتحمها قريباً. وإلى حين ذلك جلسنا نعيد ذكرى أيام الراحة الجميلة، ورعي الإبل في المراعي الطيبة ونغدق الماء والطعام على أنفسنا وعلى الآخرين وإن لم نر أحداً حتى الآن. ومع ذلك كان هنا قبل عدة قرون ما يشبه حضارة ما ومجتمعاً منظماً. فقد تغنى الشاعر الفرزدق -الذي ولد وعاش في يبرين- بشهامة وفروسية أبطال أصبحوا الآن في طي النسيان، ولكن ما زالت أعمالهم تعيش متمثلة

في بقايا القصور الخربة التي شيدت بالطين والأحجار الخشنة، لغرض الحماية أكثر من غرض جمالي، وتتناثر في أرجاء الواحة لتذكرنا بماضٍ أكثر إثارة من الحاضر البائس. ولكن متى كان ذلك؟ في القرن العاشر أم كما اقترح تشيزمان قبل ٦٠٠ سنة مضت؟ أم كانت في أيام الجاهلية؟ لا نعرف الإجابة عنها. مع أنه من المذكور أن تاريخ يبرين كمركز لنشاط بشري يعود إلى فترة مبكرة من تاريخ الإنسان.. فقط تعوزنا المواد الضرورية لإعادة بناء ذلك التاريخ وقد نجد حينئذ توثيقاً لتلك الأسطورة المحلية الغامضة التي تقول بأن سكان يبرين الأصليين دُفعوا إلى داخل الصحراء بواسطة «عاد بن شداد» شخصيّاً -ملك وبار العظيم-. فإن ما يقال بأن أحد القصور القديمة -وربما أفخمها- قد دمرتها النيران بشكل ما يؤكده الرماد الذي أعطى اسمه للقصر، «أم الرماد»[1] (*)؛ ولكننا لا نستطيع أن نشايع الرواة فيما ذهبوا إليه، وهو أن «عاداً» قد استخدم البارود لتدمير معاقل أعدائهم.

قضينا أيام إقامتنا في يبرين في استكشاف الواحة كلها استكشافاً كاملاً ابتداء من خرائب أم الرماد وسط تلال الرمل المتموجة من الناحية الشمالية من الواحة حيث أقمنا قاعدة لهذه العمليات. وكان رفاقي يفضلون البقاء بجانب مياه المشمرة ولكن كنت حريصاً على اختيار موضع لأجرى ملاحظاتي الفلكية قريباً بقدر الإمكان من موضع مخيم الرائد تشيزمان عام ١٩٢٤م [١٣٤٣هـ]. ولم أستطع تحديد موضع عمله بكل دقة إذ باءت كل محاولاتي بالفشل في كشف البئر التي تحدث عنها و«عمقها ٤٠ قدماً»[2]،

---

(١) كتبها الرائد تشيزمان Jam Ramad.

(*) وتسمى أيضاً «أم الرماديات» (المراجعون).

(٢) «في الجزيرة العربية المجهولة»، ص ٢٦٠.

مع أن منزل الطين الوحيد آنذاك كان قد توسّع إلى قرية صغيرة تتكون من ستة بيوت كان أكبرها يخص «حمد بن مرضف» وآخر هو مسجد القرية.

وتقع القرية -التي هجرها أهلها بعد نضال بطولي خاسر مع الحمّى- على مسافة سير ربع ساعة إلى الجنوب الشرقي من «أم الرماد» وفي كنف التلال الرملية التي تقع على مسافة تقل عن الميل، شمالي أول نخيل الواحة، وهي بستان يملكه صالح بن منية وتحتوي على بئر مليء بماء لا يقل عذوبة عن مياه المشمرة وعلى عمق عشرة أقدام.

قضينا أول يوم من استكشاف الواحة إلى الجنوب من المشمرة، ولكننا لم نعثر على خرائب أم الرماد إلا بعد مغيب الشمس. وفي صباح اليوم التالي وجدت الأرض والنبات مبللاً بالندى، بينما غطى ضباب كثيف الواحة بعد شروق الشمس، حجبت كل معالمها. وأمضيت النصف الأول من النهار أستكشف وأعمل مخططاً للأطلال الواسعة، ووجدت فيها كل مخلفات الماضي: أساور مكسورة وخرز مبعثر وشظايا فخارية وجرّة طين كبيرة تفتت عندما حاولنا إخراجها من بين الرمال والرماد. ويبدو أن الرائد تشيزمان لم يقم بزيارة هذه الأطلال، ولكن المواد التي جمعتها منها انتزعت من العالمة «جير ترود كاتون طومبسون» -وهي مرجع مشهور في هذه الأمور- اقتراحاً حذراً بأن تاريخها قد يعود إلى القرن الثاني عشر أو قبله. وقد يشير هذا التاريخ إلى وجود علاقة أو صلة مع احتلال القرامطة للأحساء وساحل الخليج العربي، ولكن هذه المخلفات ربما تكون مفتتة وغير مميزة إلى الحد الذي يجعل تبرير أي تحديد لتاريخها -لا يعتمد على بينة أو دليل- صعباً للغاية.

ويقع على بعد ميلين جنوب شرقي هذه الأطلال قصر «الطُّوَيْرف»[1]، وهو قصر مربع الشكل وفي حالة أفضل ومبني من الطين (اللبن) المحلي المخضب بالملح، ولم يكن يحتوي شيئاً مثيراً للانتباه غير كونه معلماً بارزاً خارج الطرف الشمالي الشرقي من الواحة.

ويمتد من نخيل صالح بن منية جنوباً حتى عين ابن مرشد -وبعرض حوالي ثلاثة أميال من الشرق إلى الغرب- أغنى أجزاء الواحة وأغزرها نخيلاً حيث تغذي العيون الضحلة مئات الأشجار التي لا يعتني بها أحد، لأن عملية التلقيح الاصطناعي التي أدخلت -حسب قول تشيزمان عام ١٩٢٤م- قد أوقفت مع نزوح الناس عنها. وقد وجدنا بعض الأشجار ميتة، وبعضها مختنقة بنبات القصب بينما الباقي حي ونشط، ولكن معظمها كان متفسخاً بصفة عامة، وإن كانت هنا وهناك مجموعات جيدة ومزدهرة من النخيل. أما أجمل بقعة فيها فقد وجدتها في أجمة من أشجار العاقول (نوع من الأكاسيا) ذات الأوراق الخمرية اللون وعُقصاتها البنية اللون التي أضفت تغايراً جميلاً مع لون أشجار النخيل الأخضر الداكن والأخضر الخفيف لنبات القصب الطويل. يوجد قصران خَرِبان في المنطقة المجاورة، أحدهما يخص صالح، دليل تشيزمان، ويقع وسط بستان جميل ولكن لم يكن به ما يثير الاهتمام. أما الآخر فهو قصر[2] «عويضة ابن عظيمان؟» الذي يحتل موقعاً عند ملتقى حزامي نخيل في الجزء الشمالي من الواحة. القُبَّة في الشرق وتنتمي إلى شخصين مرموقين من قبيلة آل مرّة هما: «حمد بن نوطان» و«مسعود بن قُريع» وأمّهات القصام

(١) يوجد لدى الرائد تشيزمان رسمان لهذا القصر، انظر «في الجزيرة العربية المجهولة» ص ٢٧١.

(٢) أطلق عليه تشيزمان اسم «قصر الخربة» انظر «في الجزيرة العربية المجهولة» ص ٢٥٦.

إلى الغرب ويملكها فيصل المرضّف وعايض بن عُزرة من فخذ آل جابر.

ويبدو أنه كان يشكل جزءاً من سياج أكبر يظهر أساسه واضحاً مع أنه مستو مع الأرض، ويتكون ما تبقى من هذا السياج المحاط من فناء مفتوح تتوسطه بركة جافة مليئة بالقصب، بينما يحتل ربع المساحة حصن مربع الشكل ما زال على حالة جيدة.

كانت بساتين الجزء الجنوبي من الواحة -والذي يبلغ طوله الإجمالي من قصر أم الرماد في الشمال إلى بئر الحفاير في أقصى الجنوب حوالي ١٢ ميلاً- أكثر تخلخلاً وإن كان بعض منها- مثل ذلك الذي يملكه «ابن جهيم من آل جابر» - غنية ومزدهرة كتلك التي شاهدناها في الجزء الشمالي. وتكثر في هذه المنطقة ذات التُّرَب الملحية ظاهرة السروت (جمعها سواريت) (هبوط أو أغوار في السطح) التي رأيت عينتين منها لا يتعدى محيطهما بضعة أقدام، وعمق لا يقل ضحالة من البرك التي تتواجد في كل أنحاء الواحة على عمق قدم، أو ثلاثة أقدام. وفي الحقيقة يبدو أن هذه الفجوات الصغيرة نشأت من انهيار الغطاء السطحي من جراء تبخر المياه الداخلية وما ينتج عن ذلك من جفاف التربة المخضبة بالملح.

صادفت على طول الطرف الغربي للواحة ثلاث مجموعات واسعة من ركامات ملحية جافة غريبة تعرف بـ«الجفدارة» جمعها جفادر والتي تخيلتها آنذاك بأنها نتيجة عمليات مشابهة لتلك التي تحدث للهبوط الأرضي (السروت).

والذي يهمني في حالة هذه الجفادر هو كونها تمثل بقايا تجمعات النخيل القديمة التي ماتت من جراء جفاف البرك السطحية وبالتالي تحولت إلى

تراب بفعل الأملاح. فقد أخبرتني الآنسة كاتون- طومبسون عند عودتي إلى إنجلترا عن اكتشافها المثير لعيون أحفورية في الواحات التي توجد على طول أطراف الصحراء الليبية[1]. وعند ذاك رجع ذهني فوراً إلى ركامات الجفادر في يبرينو وأقترح- بما هو جدير به وعلى أمل أن يأتي زائر أكثر تأهيلاً مني ويتحرى عن الأمر بعناية- بأن هذه الظاهرة قد تكون مثالاً آخر لنفس ظاهرة التحفير أو التحجير.

وثمة نقطة أخرى مثيرة عن هذه الركامات تتمثل- على الأقل في اثنتين من المجموعات الثلاثة- في وجود آثار واضحة لقنوات جوفية من نوع الحزز مع فتحات الدخول موزعة على مسافات من مجرى القناة كالتي توجد في باقي أجزاء الجزيرة العربية مرتبطة بالعيون المائية، مع أنه لا توجد في هذا الجزء من يبرين عيون فعلية تبرر وجود القنوات. ويبدو لي أن هذا الجزء العادي والمهجور من السريحة الغربية من الواحة كان فيما مضى منطقة زراعة هامة في الواحة، إذ يوجد فيه أطلال قصر آخر يعرف الآن بقصر «سالم بن جابر»، ويتكون من حصن مربع الشكل «٣٠ قدماً» ينتأ عند الركن الشمالي الغربي لفناء فسيح مستطيل الشكل، ويمكن تتبع جدران هذا القصر بكل وضوح إلى ارتفاع حوالي ١٠ أقدام، مع أن الرمل يغطي بعض أجزائه. وصادفت بعد القصر بقليل في اتجاه الجنوب الشرقي تلة منخفضة توجد على قمتها بعض الكتل الكبيرة من الحجر المحلي وتحمل

(١) لمزيد من المعلومات عن هذه العيون المائية انظر مقالة الآنسة إ. جاردنر في المجلة الجيولوجية Geological Magazine العدد رقم ٨١٩ سبتمبر ١٩٣٢م.

كل مظاهر مبنى منهار شبيه بأحجار أضرحة ما قبل التاريخ «الدولمن»، وبالقرب منها كانت ركامة مماثلة أو حيد، تكونت طبيعيّاً وإن بدت لي كأنها من صنع الإنسان.

ورأيت في الجزء الجنوبي من الواحة عند الحَرَّبقة، حيث يتناثر النخل مع القصب المزهر وأشجار الطرفاء وحيث صادفت فراشة السيدة الملونة[١]، رأيت أطلال قلعة أخرى صغيرة المساحة «٢٥ قدماً مربعاً» تتوسطها كتلة من الأنقاض التي قد تكون برجاً أو غرفة سكنية، ووجدت بالقرب منها أطلال مماثلة على أرض مرتفعة. وعلى بعد ميل في اتجاه الشرق كانت مجموعة من المزارع الكبيرة، كلها في حالة تداعٍ متقدمة وتشمل أم العدوة وأم النصي يفصل بينهما ركام قناة جوفية. كانت المجموعة الأولى فيما مضى تغطي مساحة تقرب من ميل مربع كما تشير جذوع النخيل التي بقيت حية وعدد من الينابيع التي جفت كلها ما عدا واحدة، وقد زحفت الرمال على معظم هذه المساحة. واستطعت من رابية فيها أن ألقي نظرة على المنطقة المجاورة الواقعة بين جروف الجوامر وتل الضربون ذي القمة الحادة والجوانب المنحدرة الذي يقبع في السهب صوب الجنوب، وإلى الجنوب الشرقي كانت رابية مترب التي تُرى من نقاط كثيرة من الواحة، بينما تحتل منحدرات الصمان - والذي يطلق عليها المحادير[٢]- الأفق الغربي كله، وتبدو من البعد كجرف يبرز منه راوب يعرف إحداها باسم «العثَيثيات»، التي يشبهها العرب بالحجارة التي يضعون عليها قدور الطبخ. وينثني المرتفع حول نتوء «برق السمر» لتفصل حوض يبرين

(١) رأيت ثلاثًا من هذا النوع خلال رحلتنا في يبرين ولم أصادف أي نوع آخر من الفراشات.

(٢) أطلق عليها تشيزمان «أم هدية».

من جهة الجنوب ليشكل الضفة الجنوبية لجوب البدوع. ويتناثر بعض أشجار الأكاسيا[1] في طيات هذا النتوء وتقتات عليها الجمال عندما تشح المراعي العادية، كما ينحدر واديان واضحا المعالم من الهضبة إلى منطقة جوبة. ويعرف الوادي الجنوبي باسم «العفجة» وهو مجرى سيل تغطي الرمال قاعه وتكثر فيه شجيرات مثل «السوّاد» و«الشنان»، وفي قاعه يوجد أقصى عيون يبرين من جهة الجنوب، عين «النفْل» التي تختنق حفرتها بالقصب والنخيل، وإلى القرب منها يوجد آبار «الحفائر» عند طرف السهب الذي تتناثر فيه أحجار الصوان، وبئر واحدة من هذه الآبار هي التي ما زالت تضخ ماء مالحاً على عمق قامتين، ويتخذها البدو مخيماً عند وصولهم ومغادرتهم ليبرين، ولرعي حيواناتهم في مراعي الأفجا الغنية.

وهنا أيضاً نصبنا مخيمنا ليلة الحادي والعشرين من يناير، استعداداً للمغادرة صبيحة اليوم التالي نحو الأرض المجهولة. وجُلت في السهل بحثاً عن أدوات من صنع الإنسان ولكن دون جدوى على الرغم من وجود مواد كثيرة في متناول الإنسان القديم كان في مقدوره الاستفادة منها لأغراض شتى. ويبدو أن الشظايا هي بقايا مكسورة من طبقة صوانية تعلو الحجر الرملي والتي رأيناها لاحقاً في موضعها على قمة «الضربون».

يبدو أن الوادي الشمالي لا اسم له، ويجري نحو مجموعة من آبار أربعة تقع في منخفض يبلغ عرضه نصف ميل ويعرف بـ «الخروق» ويقع إلى شمالي خرائب قصر سالم بن جابر. وإلى الشرق منه تقع سلسلة من العيون- ثلاث منها في خط مستقيم على مسافة مئة خطوة وأخرى قريبة-

---

(١) على الرغم من أن هذه المنطقة تحمل اسم السمر وهو نوع من أشجار السنط، إلا أن أشجارها من نوع آخر هو السلم.

تدعى القباليات ويملكها هادي بن شدوق. وآبار الخروق -مثل تلك التي في الحفاير- ملجأ مفضل للبدو الذين يزورون يبرين حيث تجد جمالهم مرعى طيباً من أشجار الشنان التي تنمو بكثرة في الوادي الرملي. ويقع في أعلا الوادي مبنيان خربان يشبهان الحصن على مسافة ربع ميل من بعضهما ويطلق عليها اسم «قصر علي بن دحباش»، ويمثل المركز الأمامي ليبرين القديمة في أقصى الغرب. وينتمي صاحب هذه القصور -التي قمنا بزيارتها- إلى فخذ آل جابر من قبيلة آل مُرة، والتي مركزها يبرين. ووجدنا وسط الخرائب شظايا الفخار وأساور مكسورة شبيهة بتلك التي وجدناها بكثرة في قصر «أم الرماد»، ووجدنا البئر الوحيدة مطمورة بالرمال التي تنتفخ هنا إلى أمواج كبيرة تمتد على جانبي الوادي. وأثار المبنى الأول اهتمامنا إذ يمكن تتبع آثار ترتيب الغرف الداخلية بكل وضوح، ويبدو أنه كان أكثر تفصيلاً وتعقيداً من النوع الذي عادة ما يتكون من فناء وسجن. وكان جزء من الحائط الخارجي، والذي يقع مقابل المدخل، متصدعاً تماماً. أما الحائط الشمالي فكان به صف من عيون برج الحمام على ارتفاع قامة- ربما لدعم أعمدة أسقف الغرف السفلية، في حالة وجود طابقين- مع فجوتين كبيرتين عند مستوى الأرض تقريباً. ووجدنا آثار حائط لخمس غرف صغيرة على طول الجانبين الشمالي والشرقي. ويبدو أن هذه المباني كانت مجرد مراكز مراقبة أمامية. أما المنزل الثاني فكان أكبر حجماً ويتكون من فناء يشغل كل السياج مع سجن أو سكن من طابقين يحتل وسط الحائط الغربي.

وجدنا على بعد ميل من أم العدوة من جهة الغرب أكثر معالم يبرين جاذبية: قصر أم النصي الخرب ومزرعته. وكانت تقع في وسط المزرعة،

وبين مستنقع جاف تقريباً تنمو فيه غابة كثيفة من القصب ومجموعة نخيل مهجورة مع أشجار الطرفاء، بركة ماء ضحلة في فرجة مفتوحة مليئة بنثار من القصب المسحوق والحشائش. وخارج هذا المنظر البشع من النبات المتعفن، تقع أطلال -وإن لم تكن في اتساع أطلال أم الرماد- كانت أكثر تعقيداً من أي مسكن في يبرين، كما كانت تزدان بأجزاء ناتئة من (حصن)، تتحكم على كل امتداد الحيطان العديدة، وعلى حصن داخلي ورابية يتوسطان الفناء، وكان في الفناء بئر لم يبق منها شيء إلا موضعها الذي تغطيه الرمال.

ويكوّن قصر أم الرماد من جهة الشمال وقصر ابن دحباش وقصر سالم ابن جابر على طول الجانب الغربي وأم النصي من جهة الجنوب، حصوناً شبه دائرية تواجه السهب الداخلي دون شيء يماثلها من جهة البحر. وليس شططاً من الفكر إذا استنتجنا بأن سكان يبرين القدماء -أيّاً كانوا- لم يكن لديهم ما يخشونه من ناحية البحر والتي ربما قد أمنوها ضد أعدائهم بحصون مثل تلك التي في سلوى وذويبان، وربما المجَنّ الذي تحدث عنه صالح بن عزيّز بإعجاب بأنه يقع عند مصب وادي السهباء.

وبهذا فقد كان أهل يبرين يتحرزون من قبائل أواسط الجزيرة العربية، كما كان في العهد التركي لاحقاً. وكنت أعتقد -خطأً- بأن موقع أم النصي الجنوبي يوحي بأن مصدر الخطورة يأتي من جهة الصحراء الجنوبية العظيمة، وأن وبار كانت عاصمة مملكة جنوبية منافسة، ومقينمة مركزها الأمامي من الشمال. وكنا على أهبة التحرك في ذلك الاتجاه لندحض هذه النظرية.

كفى حديثاً عن طبوغرافية يبرين. وكما ذكرت آنفاً فإنني لم أعد إلى المخيم إلا بعد أن حل الظلام في اليوم التالي من وصولنا إلى جوبة،

واندهشت عندما سمعت بوجود زائر كنت قد تعرفت عليه : جابر بن فسل وهو ابن لسالم من فخذ الجرابعة ، الذي قدم من الجنوب حيث كان يقضي الصيف مع فصائل من آل غفران عندما سمع بأن منطقة الأحساء قد حباها الله بأمطار جيدة واكتشف بأننا لسنا رعاة أو زواراً عاديين : فجمالنا كلها من النوع الذي يمشي في الرمال وإن ما نحمله من عتاد يوحي بأننا قوة حكومية تتجه نحو الجنوب لمهمة خاصة ، ربما جمع الضرائب أو الجهاد . وكان قد سمع بقدومنا من سيف بن طناف .

جاء سيف بن طناف ، رئيس قبيلة المناهيل في ديسمبر من حدود حضرموت إلى الأحساء لعقد سلام مع ابن جلوي ، الذي كان قد أساء إليه وذلك بالتهرب من بعثة أرسلت بقيادة زايد لتجمع العوائد من القبائل التي توجد حول شَنَّة . وحاول سيف مصالحة ابن جلوي بهدية قيمة من الهجن الأصيلة ولكنه ردَّ هديته ، ورفض كل مداهنته وتملقه للتقرب منه والتودد إليه . ومع ذلك ظل بالأحساء على أمل أن يتحسن الوضع ، وبقي هناك إلى حين وصولي إلى الهفوف وأنا أحمل أوراقاً من الملك تحث بالإعداد للحملة لاستكشاف الربع الخالي . وكان سيف قد شهد الاستعدادات الجارية لهذه الرحلة ؛ ولذلك كان يتوجس خيفة بأن الحملة التي أقودها جاءت خصيصاً للانتقام وجمع الضرائب .

جلس جابر يحتسي القهوة ، وشعر ببعض الراحة عندما تحدثنا عن احتمالات وجود الصيد في المناطق التي أتى منها ، وقال بأنه لم ير غزالاً أو «وضيحي» بل عدداً قليلاً من الأرانب نظراً للجفاف الذي أطبق على تلك الجهات مؤخراً .

وفي اليوم التالي -وعندما عدت من رحلة التفتيش- وجدت جابراً جالساً مع عائلته في خيمة وضيعة على مرمى حجر من موقعنا. وجاء يحمل أرنباً بريّاً ويقود قعوداً ويرافقه طفلان وكلب سلوقي. وبعد أن حيّانا قدم لنا الأرنب وهو يعتذر عن عدم تمكنه من القيام بالضيافة اللازمة، ثم أشار إلى القعود الذي قام عليٌّ بذبحه، كما أهدانا الكلب (العقفا) ليصطاد لنا الأرانب في طريقنا عبر الربع الخالي.

تعشينا متأخرين تلك الليلة، وكان اللحم طريّاً وطيباً. وفي الصباح قمت بتصوير الخيمة التي يقيم فيها جابر وعائلته، ولكن الجو لم يكن مناسباً بسبب الضباب الذي لف المكان. ودفعت ببعض النقود إلى الطفل، وأعطيت جابر صندوقاً به بعض الأحجار والأحافير ليسلمه إلى ابن جلوي في الأحساء. وبعد التحيات افترقنا، بعد أن وعدني بذلك وكان ذلك آخر عهدنا بالحضارة والبشر لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً عبرنا خلالها الربع الخالي وحطينا الرحال في السليل.

الباب الثاني

الرمال

الفصل الأول

مُقَيْنمة

«إن أرض جوبة كلها ماء، ولكن هناك وراءها يقبع الربع الخالي».

هكذا قال سويد. تركنا يبرين خلفنا ونحن نسير جنوباً عبر سهب يتناثر فيه الصوان، وكان صباحاً مشرقاً ومنعشاً وبارداً، وسحب خفيفة تغطي السماء، وهكذا عبرنا (الروبيكون)(*) واتخذنا قراراً خطيراً لا سبيل إلى الرجوع عنه: أن لا تراجع بعد الآن ولا اتصال مع العالم.

وابتهجت بالفكرة التي أخذت تراودني وهي أنني أخيراً وبعد لأي ولجت أبواب الربع الخالي، ولكن كان لنفس الفكرة أثر واقعي ومحبط على رفاقي الذين بدأ الحنين إلى عوائلهم يطغى عليهم بعد رؤية جابر يكرّ عائداً إلى الأحساء. ويبدو لي أن ما يعاني كانت بطونهم وليست قلوبهم، فقد أتوا على مخزوننا من اللحوم أثناء بقائنا في يبرين، وبدأ عدد منهم يتخلون عن الصوم بحكم السفر، وبقيت أنا وقليل منهم مواظبين على الصوم الذي كان قد انقضى منه ثلاثة عشر يوماً.

كانت وجهتنا مقينمة. وسرنا عبر منطقة سهبية أشار إليها سالم -الذي تولى القيادة من سويد- بخشوم الصمّان. وكان الاسم مناسباً لأن السهب انحدر عبر مسارنا من مرتفع الصمان الرئيس في اتجاه شرقي في شكل مقاطع طويلة وعريضة تفصل بينها أودية رملية تنصرف من خلالها مياه المنطقة كلها إلى مصبات «جوب البدوع» و«الجوب الكبير»، الذي كان يظهر

(*) الروبيكون: نهر قديم، عبرت من خلاله قوات يوليوس قيصر في عام ٤٩ ق.م، وكان عبوره بمثابة إعلان بدء الحرب الأهلية الرومانية. وقد أصبح مصطلح «عبور الروبيكون» يستخدم فيما بعد للدلالة على التزام ما يتخذه شخص أو طرف ولا يمكن الرجوع عنه. انظر: موسوعة السياسة، ج٢، ص٨٣٦. (المراجعون).

على بُعد أميال من بعض المواضع البارزة كقمة «الضربون»، كنهر غامق من النبات يندفع بخفة عبر الصحراء. أرسل سالم -لسبب لا أعرفه- قافلة الأمتعة أمامنا بوقت قليل. وتظاهر عليّ وسويد بعدم معرفة أسماء نقاط مهمة مررنا بها، وأبديت احتجاجي الشديد على ذلك. ولأعزز كلامي معهم أبركت جملي على تل رملي وأعلنت عن إصراري بالمكوث هناك إلى أن يأتيني دليل، وأُحضر سالم مباشرة وصدرت إليه الأوامر بأن يبقى إلى جانبي دائماً. وواصلنا السير بعد ذلك ووجدت في روحه البدائية الفظة رفيقاً جذاباً لتلبية فضولي. لقد كان أكبر الرفاق سنّاً وله خبرة طويلة في الصحراء، عرك حياتها وعرف مسالكها، كما لم يكن ولعاً بالنساء ولكن كان أكولاً نهماً كرفاقه.

«نعم والله!» قال فالح العرجاني الذي ركب معنا وبعض الآخرين ونحن نتناقش في هذه الأمور المهمة، «إنه ما نسميه من نوع الطرابيل[1]» الذي ليس لديه قدرة جنسية. سألته: هل هذا صحيح يا سالم؟ وأجاب بكل وقار: «أبو جعشة يتحدث في الهواء وعقله في بطنه أو ما تحته. ولكنني لست كما كنت ولكن الله كريم». فقد كان مثل الآخرين في تطفله وأكله الكثير وهذا عزاء وسلوى لمن في سنه الكبير.

وصلنا بعد مرورنا من خلال فجوتين في حيدين كانا يشكلان قنطرة بين «منحدرات الصمّان» و«برق السمر» الناتىء، إلى سطح الضربون حيث توقفنا لنستكشف قمته على أقدامنا. وكان ارتفاع الحيد حوالي ١٠٠ قدم، وكان بروزه على الأرض يؤكد الطبيعة السهلية للمنطقة المحيطة به. وكان

(١) أعتقد أن الكلمة جاءت من كلمتنا «الطوربيد» وهي كلمة كانت معروفة أثناء الحرب العالمية الأولى.

الحيد يرتفع بحدة من السهل في شكل جرف مانع من الحجر الرملي الضارب إلى الحمرة الذي صقل بواسطة الرياح الصحراوية إلى كهوف عميقة يحمي مقدمتها أو واجهتها صف غير منتظم من الدماليك. وفوق الحجر الرملي تستلقي طبقة كثيفة من الحجر الجيري الضارب إلى البياض تتوجها ألواح من شظايا مكسورة من الشيرت أو الصوان كان من الواضح أنها جزء من قاع واسع تتناثر بقاياه عبر هذا الجزء من السهب؛ ولم نجد فيها أثراً لأدوات الصوان، مع أن العديد من الشظايا الصغيرة كانت لها أطراف مسننة ناتجة عن استخدامها في قدح النار بواسطة الإنسان الحديث.

كان المنظر من القمة ممتداً وواسعاً ولكن كان رتيباً للغاية. فقد انصهرت كل تلك الحيود والتموجات التي ترى على السطح في أثر فني مسطح بني اللون ولا معالم له، وبدت قافلة الأمتعة من على البعد كأنها ترشاش أسود وهي تزحف أمامنا، حيث بدت أيضاً بعض الروابي الصغيرة محدّدة موضع «بئر قليبة»، هدفنا التالي. ورأينا بعيداً من ناحية الشمال حوض يبرين لآخر مرة؛ وأشار سالم نحو الجنوب الشرقي إلى صف من التلال المنخفضة التي تعيّن موضع «القصب»، آخر آبار الجوب من ناحية الشرق، وبجوارها حيد يعرف بالغزالة.

لم يعد هناك ما يحتجزنا فوق تلك القمة وكان أن بدأنا ننزل إلى الأسفل عبر منحدر صخري لنمتطي جمالنا التي تركناها ترعى أنواعاً من النباتات التي تنمو على بقع الرمال وسط السهب. ولم يشهد هذا الجزء من الصحراء أمطاراً منذ أبريل عام ١٩٣١م [١٣٤٩هـ]، ومع ذلك بدأت شجيرات الغضا تكتسي بحلة من الأوراق الخضراء الندية كما يكثر بها الضمران. وصلنا

القليبة عند منتصف النهار بعد مسيرة ١٢ ميلاً من الحفاير. والقليبة بئر واحدة عمقها عشرة أقدام تقبع في منخفض وسط تلال رملية. ورأينا في طريقنا إليها سطح الصحراء مخططاً بمسالك الجمال المتعرجة التي تلتقي عند البئر، بينما كان يوجد على جانب من الحوض حجر جيري تشوب لونه الزرقة وتحمل مجموعة من الحفر الداكنة، وكانت أجزاء من الصخر المتآكل تتناثر حول المنخفض. وقد حفرت البئر خلال تكوين مماثل، وكان منظراً مغايراً للمنظر الكلسي الذي يتسم به السهب الذي يجري عبره وادٍ محدد المعالم تجاه الرمال.

كانت السماء صافية تنتشر فيها غلالة من السحب عندما واصلنا السير عبر سهل صواني وحصبائي هين التموج، وكان نسيم دافئ يهب في وجوهنا من جهة الجنوب. وقد أحدثت الشمس الساخنة أمامنا خدراً كان سيجبرنا على التوقف قليلاً لولا قافلة الأمتعة التي كانت قد تقدمت كثيراً مبتعدة عن طريقنا قليلاً. وعندما لحقنا بها كان الوقت قد قارب المغيب وقرر الرفاق التوقف في الطريق عند منحدر رملي يغطيه نبات الغضا بكثرة.

وعبرنا قبل ذلك بقليل آثار جمل يحمل شخصين، واختلف خبراؤنا فيما بينهم حول تاريخ مروره الذي كان بدون شك بعيداً. أما صيادونا الذين تقدموا مع قافلة الأمتعة فقد جابوا الصحراء على جانبي الطريق وعادوا محملين بثلاثة أرانب، أحدها صغير ومازال حيّاً، ولكنه كان من نصيب الكلب (العقفا) الذي قضى عليه ليلاً. وكنا قد قبضنا على غراب جريح في الغبيّا، وهي مزرعة صغيرة في واحة يبرين كان سويد قد تعهدها برعايته وغرس فيها نخيلاً في بركة يملكها خاله، ثم حدث صراع بينهما حول

حقوق كل منهما من إنتاج النخيل. وكان الغراب هو الساكن الوحيد في المزرعة عندما وصلنا إليها وأمسك به علي. ولكنه مات بعد يومين من ذلك.

كانت الحياة الحيوانية فقيرة بشكل محبط في يبرين، فقد أضفت إلى تلك الفراشة التي ذكرتها آنفاً بعض العثة التي أمسكت بها ليلاً وبعض الجراد.

لم أعثر على القطا في مكان يبدو مناسباً له وإن كنا قد رأينا بعضاً منه في طريقنا إلى السليل، ورأينا بعض الطيور والغربان وأرنبين أو ثلاثة ويرابيع قليلة. وما عدا ذلك لم نر إلا آثار الأقدام التي بدأت تظهر بكثرة منذ مغادرتنا يبرين، كما أن الحصول على ثلاثة أرانب في يوم واحد كان كافياً في هذه الصحراء المقفرة، وكان الثعلب والضبع والنسر من بعض الكائنات الحية التي تركت آثار أقدامها وإن لم نرها أبداً. وأقرب نقطة عثرنا فيها على هذه الآثار كان في اليوم التالي عند بئر ابن جهيِّم حيث وجدنا آثار أقدام ضبع حديثة على الرمال ربما جاء مؤملاً في الحصول على بعض الماء حول البئر، ولكنه عاد خائباً بعدما وجد فتحة البئر مطمورة بالرمل.

جاء حميد بأول مفاجأة سارة في يومنا الأول، إذ عثر على شظايا بيض نعام على الرمال، واتفق الجميع أن البيضة وضعت وفقست في موضعها الطبيعي، ولكن كان ذلك بالتأكيد من فترة طويلة لأنه يُعتقد بأن النعام قد انقرض نهائيّاً من هذا المكان. قال علي: «لم أر نعاماً أبداً: لكن والدي - وهو طاعن في السن- كان يصطادها في هذه الصحراء، وقد يكون ذلك منذ أربعين سنة». وقد عثرنا في أماكن عديدة في الصحراء على شظايا من قشرة تفقيس حديث وأخرى صقلتها الرياح والرمال، ربما تمثل بقايا من عصور ما

قبل التاريخ؛ لأن الدكتور «لو»، من المتحف البريطاني، قد اكتشف بين المجموعة التي أحضرتها معي شظية يعزوها ليس للنعام العادي إنما إلى سليل قديم يقال له «السامورنيس»[1] أو طائر الرخ نفسه الذي يرد ذكره في الملاحم العربية. ووجدنا في وسط الصحراء لاحقاً قشرة أخرى مهشمة ولكنها مكتملة. فمن الذي يستطيع أن يجزم بأن النعام لا يزال يعيش في معازل بعيدة في هذه الصحراء؟ قد لا يوجد دليل على ذلك، إذ لا يوجد النعام الآن إلا في شمالي شبه الجزيرة العربية فقط حيث ما زال يصارع من أجل الحياة ضد تفوق البيئة والإنسان معاً.

كانت الأرانب إضافة لذيذة لقائمة طعام الإفطار، وقُدِّمت كحساء كان رفاقي يغمسون التمر فيه ويلتهمونه، وكان الجلد من نصيبي. ولكن رفاقي لم يكونوا راضين عن حساسيتي الشديدة تجاه ما قدموه من أكل إذ رفضت أكل لحم الأرانب وأحشائها. وقال أحدهم: «ربما يرى أكل الأرنب حراماً كبعض العرب»، وقال آخر: «لا ربما ترك لنا اللحم لنشبع». ولكن كان عليَّ أن أشاركهم في أكل الأرانب تحت وطأة الجوع بعد أسابيع قليلة لاحقة.

لم أتمكن ذلك المساء من إجراء ملاحظتي الفلكية لأن السماء كانت ملبدة بالغيوم. وبدأنا السير الساعة السابعة صباحاً وكان الهواء بارداً منعشاً وريح شمالية تهب من خلفنا فتضفي على الرحلة متعة. كان هواء الصحراء النقي يجعل المرء يحس بالنشاط والصحة، فقد يكون ذلك مرتبطاً بالأوزون الذي كتب عنه الرحالة الألماني جيرهارد روهلفز[2]، في السبعينيات قائلاً: «في

(١) انظر الملحق.

(٢) «ثلاثة أشهر في الصحراء الليبية» (بالألمانية) ص ١٧٧ كما ترجم من قبل إي. سي. ويهلر.

الصحارى المفتوحة وخلال شهري يناير وفبراير يكون محتوى الهواء من الأوزون في المتوسط ٣,٧، بينما وصل محتواه في الواحات في نفس الوقت إلى ٤,٩ كأعلى متوسط. وهكذا فإن الصحراء تختلف عن الواحات ووادي النيل، ليس في غنى هوائها من الأوزون فحسب، بل في أنها تتوازى -على الأقل في الشتاء-، مع أكثر المحطات مناسبة للأوزون في أوربا». وربما يفسر هذا ما يعرف (بإغواء الصحارى)، الذي لا يستطيع من خضع له وتذوقه أن يقاومه أبداً.

بدأت الأرضية الرملية تفسح المجال للحصباء، وأرسلنا قافلة الأمتعة أمامنا بينما انحرفت أنا ورفاقي عن الطريق لزيارة بئر «العوج»[1] التي وجدناها على بعد خمسة أميال من مخيمنا في أحد الأودية التي تنحدر من مرتفعات الصمان. وهناك وجدنا أنفسنا فجأة أمام حوض من الجبس المخلوط بلغ عرضه حوالي نصف ميل والذي ذكّرنا بجفادر يبرين، وكان يشبه بقايا لعمران قديم أبيضّ لونه مع أننا لم نجد بقايا مبان فعلية. وقد تعزز هذا الانطباع باكتشاف مخلفات بشرية كتلك التي وجدناها في يبرين، شظايا أوانٍ فخارية منزلية وأساور وأحجار صوان خشنة تستخدم في إشعال النار. ويبدو أن أمراء يبرين كانوا يرتادون هذه الأماكن مع أسرهم من أجل الصيد الوفير آنذاك، وينصبون خيامهم حول البئر الوحيدة التي طمرتها الرمال حاليّاً. لم يسمع سالم بأن هذه البئر كانت مستخدمة من قبل البدو هذه السنوات الطويلة، ولكن يظهر أنه شخصيّاً عسكر عندها في الأيام الخوالي عندما كان الماء يتواجد فيها على عمق ١٥ أو ١٦ قامة -حسبما تسعفه ذاكرته-، فقد كان المخزون متقطعاً ويعتمد على الأمطار الفصلية،

(١) انظر أيضاً: بورتون. «الليالي العربية» حيث أشار إلى بلدة باسم «عج» في قصة عبدالله بن فاضل.

ولم يعد لدى البدو الآن القدرة والطاقة لحفر بئر إلى ذلك العمق قد يعثرون على الماء بعدها أم لا . فالجفاف الذي أطبق على المنطقة حديثاً قد استنزف حيويتهم وأصابهم بالإحباط أيضاً .

كان حوض الجبس محاطاً بكل الجوانب بسهل حصبائي فسيح رتيب لا معالم فيه أفضى بعد فترة إلى منطقة لطيفة ومبهجة من التلال الرملية التي يكسوها غطاء غني من شجيرات الغضا اصطاد عليّ أرنباً فيها . وقد أثار انتباهي لون جلده الكستنائي الخفيف كشيء مغاير للعينات التي جمعتها من قبل وأصررت على حمله في قربة ماء حتى لا يطول كما يحدث عادة عندما تحمله معلقاً برجليه الخلفيتين ورأسه إلى أسفل . وللأسف فإن عنايتي المفرطة وقلقي أفسد عليّ العينة إذ وجدته عند وصولي إلى المخيم غارقاً في دمائه مما جعل الجلد غير صالح للحفظ .

تلا هذا النطاق الرملي سهل حصوي عار تتناثر فيه شجيرات جافة ، وتخترقه طرق الجمال المتجهة نحو الماء ، بينما بدأت بعيداً من جهة اليسار سلسلة طويلة من الكثبان الرملية البرتقالية اللون في الظهور : إنها طلائع رمال الصحراء العظيمة الفسيحة التي وصلناها حوالي منتصف النهار أو بالأحرى إلى سهل رملي متموج ثابت يبرز من الكثبان باتجاه الصمان . ومن هنا بدأنا سيرنا تجاه مقينمة ، أحياناً فوق الكثبان في طريق يجري على طول الحدود المتعرجة بين الرمال والسهب . وكنا نمر بين الحين والآخر بالقرب من إرسابات جصية مما يوحي بأن قاعدة الصحراء- التي كانت تشكل فيما مضى قاع بحر كانت تقع قريبة من سطح هذه الرمال . وأطلق سالم رصاصة تجاه غراب دون أن يصيبه بينما قضيت أنا وقتاً بين بعض خنافس الجعران الزاهية

الألوان وهي تطير وسط الشجيرات أو جاثمة عليها . ولاحظت عند قاعدة إحدى هذه الشجيرات بقعة سائل قرمزي اللون . قال سالم : «إنه ماء الندى يغسل لحاء الشجيرة» . فقد بدا لي السائل كنزّ راتنجي شبيه بالمادة التي - حسب رأي دكتور يهودا- ، أطلق الإسرائيليون المهاجرون عليها اسم «المن»[1] . إننا نقول عنه منّه ، ولكن صالحاً نطقه معان بمعنى ماء .

بعد أن أنجزنا ما اعتبرناه عمل يوم جاد ، بدأنا نفكر جديّاً في التوقف للراحة عندما صادفنا فجأة أربع أو خمس بقع من الجص المكشوف وفي وسطها وجدنا بئر ابن جهيِّم التي كان كل ما لفت نظري منها عبارة عن وتد خشبي صغير يبرز من الحوض الرملي الضحل . وما إن ترجلنا وشرع الطهاة في إعداد طعام الإفطار حتى بدأ عليّ وبعض رفاقه يلقنونني مبادئ العادات الشائعة في الرمال العظيمة . فالبئر لم تكن مطمورة بل محمية بغطاء من الأثل والجلود وُضع بعناية على فتحتها ، ثم تراكمت عليه رمال كثيفة ، وكان عمقها يصل إلى ٨٠ قدماً ، ١٦أو ١٧ قامة حسب القياس العربي . ولرغبة فضولية قمت بقياس المسافة بين أطراف الأصابع لذراعي أبو جعشة الممدوتين باعتباره أنموذجاً للشخص العادي من بين رفاقنا . لقد كانت ٥ أقدام و٦ بوصات بالتمام مما يدل على أن القامة العربية[2] ربما تعني حوالي خمسة أقدام . وقد أدهشني كثيراً أن الجمال ، التي أطلقت لترعى ، توجهت مباشرة نحو البئر وأخذت تتجمع حولها وهي تنتظر الرجال وهم يرفعون الغطاء لتهجم على الإناء الذي صُبت فيه أول كمية من الماء أخذوا يشربونه بنهم ، مع أنهم شربوا ما يكفيهم قبل ٣٦ ساعة في الحفاير . فقد نتج هذا العطش من

---

(١) فسّر الدكتور يهودا معنى هذه الكلمة بأنها مصرية وتعنى «لا نعرف» ، وهي تستخدم حاليّاً في حديث العبرية .

(٢) قامة أو باع . مقاس حميّد كان ٦ أقدام ، وعبد الرحمن كان ٥ أقدام و ٥ ,٨ بوصة .

ملوحة المراعي الحامضة التي التهموها أثناء الطريق[1]. وعلقت على هذه الظاهرة قائلاً بأن صورة الرحلات اليومية الطويلة بدون ماء، والتي تنتظرنا، تنذر بالقلق مع هذه الإبل فأجاب علي: «مهلك يا صاح حتى تأتي إلى العبل والحاذ في الرمال، سيكون أفضل هناك، إذ يمكن للجمال أن تسير أياماً دون الماء، ولكن هذه الأعشاب المرَّة تصيبهم بالعطش».

كان رفاقي يودون التوقف قبل الوصول إلى البئر. وسرت همهمة عندما أصررت على التوقف فوق البئر وإقامة المخيم هناك لإجراء ملاحظاتي الفلكية عند مكان البئر. وفي الواقع لم يكن المرعى هنا بنفس الجودة التي عليها قبل البئر، ولكن الإبل كانت تقضم نبات الضرمان وغيره أثناء المسير طوال اليوم بينما رحلة الغد إلى مقينمة ستكون قصيرة وقد نتوقف للراحة أيضاً في اليوم التالي، ولكنني كنت في حاجة ماسة إلى وقت كاف لدراسة جيولوجية المنطقة وآثارها القديمة. بيد أن رفاقي بدو متبرمين مع معاناة الصوم والتوغل بعيداً داخل الأرض المجهولة التي كانت تثير مخاوفهم.

تقع البئر قريباً من الوادي وكانت نصف محجوبة وراء منعطف من الرمال يمتد مقابل أطراف الصمَّان الأصلية التي أصبحت على مقربة منا. وعندما واصلنا السير صباح اليوم التالي، بدأت الرمال تتراجع حول كتف من سهب كانت تتناثر فوقه تلال منخفضة وجروف من الحجر الرملي الطباشيري تنساب من المرتفعات. وبدأنا سيرنا وعبرنا هذا السهب قبل الساعة الثامنة صباحاً إلى أن وصلنا تلة تقع عند أطرافه الجنوبية، ومنها أطللنا على سهل حصبائي يشبه الأسفين تحيط به الرمال من جهة اليسار والمرتفع الصخري من اليمين، أخذ

(١) وتعرف هذه النباتات بالحموض وتشمل الغضا والضّرمان والعرّاد والشنان والسّواد.

يتقارب عند رأس بعيد حيث بدأ الرمل والسهب يلتقيان، كل يحاول أن يفرض وجوده حول بئر مقينمة نفسها، وكان الدهليز الحصبائي أطول مما يبدو ومثلّماً بطرق الجمال التي كانت تقود إلى البئر. وما عدا ذلك كان الدهليز شبيهاً في شكله ببقع الحصباء التي رأيناها في الجافورة وغيرها من الأماكن. وبدأ خيالي يعمل بسرعة ونحن نتقدم نحو ضالتي المنشودة، كما دبّ ذعر سريع في أوصال رفاقي عندما رأوا بعض الشجيرات تتراقص في السراب البعيد، وتبدو كرجال يركضون في اتجاهنا. ثم أخذ السهل الحصبائي يضيق إلى خصر ضيق قبل أن ينفتح ثانية بعد ذلك إلى شقة بيضاوية تختلط فيها الرمال والحصباء مع كثبان تتناثر هنا وهناك على الجوانب، وكانت تلك الكثبان التي على اليمين والأمام تتعدى جزئيّاً على أطراف حدود الصمان وتدفنها جزئيّاً. وفي داخل هذه الدائرة كان يرتفع حيد منخفض مسطح القمة يرتفع إلى حوالي ١٠ أو ٢٠ قدماً فوق السهل. وهرع علي وصالح بعيداً من جانبي وترجلوا عند سفح أسفل الرابية وهم يصيحون: لقد وصلنا مقينمة!

لكن ما الذي أتيت لتراه هنا؟ بئر مطمورة في الرمال! مرحى.. مرحى! فكرت وأنا أتذكر دون وعي أحبولة لغز سخيف. فقد كنت مأسوراً باسم ومشكلة لثماني سنوات.. وهل هذا الذي أراه كل ما هناك عنه! قال عليّ وكأنه يتوقع أن أنفحه فوراً بجائزة سخية: «هيا فقد وصلنا». سألته: «هل هذا كل شيء؟»، فأجاب: «ليس هناك شيء آخر غير الذي تراه أمامك، وها هي البئر أمامك».

وكان أن اختلط الحصباء والرمل مع روث الجمال حول البئر مشكلاً طبقة من تربة جدباء خالية من أي نبات ما عدا شجيرات الشنان البائسة، وأطبقت

الرمال الجرداء والسهب الأجدب علينا وكأننا نخيم في صحراء مقيتة تتناثر فيها نواة التمر المجلوب من يبرين.

لم يتحدث رفاقي عن مقينمة إلا بتروٍّ وواقعية ولذلك لم أحمّلهم مسؤولية شعوري بالخيبة والإحباط. لم تكن البئر معروفة خارج منطقة قبيلة بني مُرّة قبل ثماني سنوات، وقد أعاد تشيزمان إشاعة وجودها إلى الذاكرة من خلال إقامته في يبرين. فقد كانت الشكوك تساورني عن حقيقة الاسم الذي بدا غريباً على الأذن في هذه البلاد. ولكني كنت مخطئاً في ذلك إذ إن الاسم نقل صحيحاً بواسطة تشيزمان كما أنني اكتشفت بئراً أخرى تحمل نفس الاسم في الصمان في جنوب شرقي الأحساء. ولكن تشيزمان[1] نسج أسطورة حول بئر ماء غامضة في الصحراء ومحبوكة إلى درجة لا يمكن تكذيبها مما رفع آمالي في إجراء تحقيق دقيق عنها. فقد وجد تشيزمان عند بئر جاف أو بالقرب منها -يحتمل أنها بئر أم الرماد نفسها- وإلى الجنوب من الجوامر، قطعة من حجر الجرانيت، وسمع من صالح -دليله- عن وجود مقينمة على بعد مسيرة ستة أيام من جنوبي يبرين، وأن بها آباراً عميقة جداً ترتادها قبيلة بني مرّة خلال سنوات الأمطار الغزيرة. ويقال بأن الذي قام بحفر هذه الآبار هم بنو هلال. أما حجر الجرانيت فقد وجد تشيزمان أن أقرب مثيل له يوجد منتشراً حتى أسوان. ووفقاً لذلك تم الربط بين الاثنين بالإشارة إلى تقليد سومري أنتج اسم «ماجان» يوحي بتفسير معقول لاسم «مقينمة» (أو مقينما كما كتبه Magainma)، وإن «ماجان» هي مصدر حجر الديورايت الذي استخدمه السومريون في صنع التماثيل. وهذا سبب كاف

(١) «في الجزيرة العربية المجهولة» ص. ٢٦٦ - ٢٦٧، ٢٩٧، ٣٠٨، ٣٤٢، ٣٤٥.

للافتراض بأن المنطقة أنتجت أيضاً الجرانيت الذي وجد تشيزمان فيها القطعة التي ربما كانت شظية من كتلة كبيرة كانت تنقل عن طريق يبرين إلى لاجاش Lagash عاصمة جوديا Gudia . تتمثل نقطة الضعف في هذا التسلسل في الحقيقة أن ماجان Magan «أو ماجانّا Maganna» فُسرت بأنها تعني «المكان الذي تقصده القوارب» . وقد هز هذا ثقة تشيزمان في مدى مطابقة هذا الاسم بهذه البقعة المتوغلة مطابقته ببقعة بهذا في أواسط الصحراء . ولكن نظراً لأن تشيزمان وتوماس لم يتحققا من الصفة الخليجية ليبرين والجيبان، فقد كان عليّ أن أكتشف بأن مقينمة نفسها كانت بالفعل تقع على البحر أو بالقرب منه في فترة ماضية .

كانت هذه هي المشكلة التي طرحها تشيزمان باختصار لموضوع يستحق التحري عنه مستقبلاً . وبقي عليّ أيضاً أن أقوم باكتشاف خرائب ومحاجر ماجان القديمة ، وها أنذا أقف الآن في الموضع الذي كنت آمل أن أجد فيه هذه الأشياء . وقمت في طريقي إلى هناك باكتشاف أن هناك مقاطعة تسمى المجن -أو مجانو وتنطق أيضاً مجّان أو ميّان وتظهر في خريطة تشيزمان- كانت تقع في مكان ما بالقرب من ساحل البحر عند مصب وادي السهباء ، والتي أثبت صالح وحميد وجود خرائب قسم كبير فيها (أي ماجانّ) . وفعلاً اقترح تشيزمان بأن القدماء ربما استخدموا الاسم نفسه لكل من الميناء والعاصمة الداخلية التي كانت تعتمد عليه ، ولكنه لم يحاول الربط بين المجان ومقينمة كما كان يتوقع منه . ولكن نظريته صمدت أمام اختبار الضوء الجديد الذي كنت أنوي إلقاءه على هذه المسألة ، فقد كنت بالفعل أتصور وجود ذراع مائي أو خليج يربط بين المكانين .

وثمة اكتشاف آخر عن هذه النقطة قمت به أثناء سيرنا عبر الجافورة ويبرين، كان أكثر تشوشاً وقلقاً. فإن شظايا الجرانيت لم تكن بالندرة التي افترضت؛ فقد كانت البقع الحصبائية المتكررة الحدوث في الصحراء مليئة بأنواع منها، متآكلة ومصقولة بفعل الرياح أو الماء، مما يدحض ذلك الرأي الذي يفترض أن هذه الشظايا قد سقطت من كتل استخرجت من المحاجر أثناء نقلها.

وما إذا كان وجودها يعزى إلى فعل الأنهار أو السيول التي تنساب عبر الجزيرة العربية أو إلى إطلاقها بواسطة التعرية من طبقة كونقلو مريت تحتي كما اقترح السيد كامبل سميث[1] من المتحف البريطاني، فقد كنت مدركاً أن الجزء الأكبر من غربي الجزيرة العربية يمثل كتلة مركزية من الجرانيت والأحجار النارية التي كانت المصدر النهائي لهذه الشظايا التي نحن بصددها[2].

وهكذا فقدت شظية الجرانيت التي جلبها تشيزمان دلالتها الخاصة. ولكن لم يكن هناك سبب لنفترض بأن وجود محاجر للجرانيت والديورايت لم تكن موجودة في مقينمة وذلك في حالة مساواتها بماجان أو مجنّة القديمة. ولهذا فقد كان محبطاً ومخيباً للأمل أن لا نجد -لأول وهلة- شيئاً يوحي بوجود أي مصدر للصخور الذي قد يجذب اهتمام النحاتين، مع أنني قضيت -غير عابئ لشيء عكس ذلك- فترة من الوقت أطوف بالمكان مسرعاً أبحث في طول وعرض مرتفعات الصمان عن شيء ينير لي الطريق. فإن مرتفعات الصمان تتكون في هذه الناحية -كما هي في أماكن عديدة -وعلى مدى البصر- من حجر جيري رملي أبيض اللون يعلو الحجر الرملي، مما يفرض علينا أن نصرف نهائيّاً من أذهاننا إمكانية احتواء هذه التكوينات على أي شيء يقرب إلى طبيعة الجرانيت.

(١) «في الجزيرة العربية المجهولة» ص ص. ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) انظر الملحق.

وجدت في منخفض كثيف الأشجار في مرتفعات الصمان وعلى مسافة من طريق الجمال، رأس رمح من البرونز، وما عدا ذلك لم أجد أثراً -في أي مكان- يشير إلى أدوات يدوية قديمة، ولا ما يشبه الكسر الأثرية وأساور يبرين وعُج ليدعم الافتراض بأن مقينمة كانت سابقاً موضع بلدة أو مدينة أو حتى قرية. واستنتجت في النهاية بأنها لم تكن أبداً ولا كان في إمكانها أن تكون أكثر مما هي عليه حالياً: بئراً صحراوية.

كان عمق البئر كبيراً -١٧١ قدماً من الفتحة إلى مستوى الماء- مما يجعل من فكرة أنها قد تكون من عمل البدو الحاليين في عداد المستحيلات، إذ يبدو من الواضح بأنها حفرت من قبل ممثلين لحضارة جادة. ويبرهن رأس الرمح -الذي ربما انطلق من قوس قديم صوب غزال- وبشكل حاسم أن الإنسان القديم كان يتردد إلى هذه الأماكن، وأن مسارات القوافل إلى الأفلاج كانت تشير بوضوح إلى أنها كانت جزءاً من طريق قديم يلتقي لاحقاً ببئر فاضل في الشرق مما يوحي إلى وجود طريق تجاري يمتد شرقاً وغرباً رابطاً الجرهاء أو المجنّ على الخليج العربي مع سوق مكة.

وهكذا استطعت أن أضع مشكلة مقينمة في منظور صحيح يرضيني. فقد أخبر صالح الرائد تشيزمان بأن كمية المياه في البئر متقطعة وتعتمد على الأمطار الفصلية، ولكن هذا غير صحيح. فإن مياه هذه البئر الوحيدة -إذ ليس هناك آبار متعددة- لا تنضب، واتخاذ البدو مخيماتهم حولها لا يعتمد على مياه البئر نفسها بل على حالة المراعي المجاورة، لأن البدو يتجمعون فقط حيث توجد المراعي ولا يعنيهم كثيراً وجود الماء أو عدمه لأنه متى ما توافرت المراعي الخضراء الجيدة ففي مقدورهم أن يقضوا وجمالهم شهوراً

دون ماء. وقد عانت منطقة مقينمة حديثاً من جفاف مستديم، ولم يرد البئر خلالها إلا عابرو السبيل أمثالنا أو قطاع الطرق أو البدو الذين ينتقلون مع أسرهم وإبلهم بين المراعي الجنوبية والشمالية. وأبدى رفاقي اتفاقهم التام حول نقطة معينة مع راوي الرائد تشيزمان وهو أن ماء بئر مقينمة مثل ماء بئر فاضل، يعد من نوعية ممتازة ولا يقل جودة عن مياه الآبار الصحراوية الأخرى، إذ إنه حلو المذاق ومفيد للأمعاء ولا يسبب الإسهال. فأنا لم أتذوقه شخصيّاً إلا مع الشاي أو القهوة أو في الطبخ، ولكن شهرة الماء كانت قوية لدرجة حفزتني لإحضار عينة منه إلى إنجلترا للتحليل.

لم يمض وقت على استقرارنا في المخيم حتى تجمع رفاقي حول فتحة البئر وعملوا بهمة ونشاط حتى أزاحوا خلال ١٥-٢٠ دقيقة- أولاً الرمال المتراكمة ثم الغطاء الجلدي[1] أو المطبقة والعوارض الخشبية التي تحمي الحفرة من الاختناق بالرمل، ورُبط الدلو إلى حبل طويل يحمله البدو دائماً في رحلاتهم، وشُدّ إلى جمل ثم أنزل في البئر. ويُجر الدلو بعد أن يمتلئ بالماء إلى أعلى ويفرغ في إناء كبير لتشرب منه الجمال، ثم يُعاد الغطاء إلى فتحة البئر بعناية بعد ملء القرب. ويحدث أحياناً أن يترك المغيرون البئر مفتوحاً أو يردمونها بالرمل نكاية بالقبيلة التي تعيش بالقرب منها، ولكن قانون الصحراء يتطلب إعادة الغطاء إلى فتحة البئر لأجل الصالح العام، فالماء ملك للجميع.

ولتجنب إمكانية سحب المياه السطحية الراكدة أجّلت أخذ عينة منه حتى صباح يوم الرحيل، فقد كانت المياه تسحب باستمرار أثناء إقامتنا لتلبية

(١) هذه الآبار المغطاة تعرف باسم «مطبق».

احتياجاتنا من طبخ وشرب واغتسال. فقد كان الماء فاتراً وملأتُ زجاجة منه وأغلقتها بعناية، وقد تم تحليل العينة في معمل الأبحاث التابع لشركة الزيت الإنجليزية- الفارسية المحدودة في صَنْبري في إنجلترا وكان التقرير الرسمي كالآتي:

العينة: ماء مقينمة:

العينة ملوثة جداً بالبواليع

سلفايد الهايدروجين ٩ أجزاء من ١٠٠,٠٠٠

أمونيا حرّة ومالحة ١٤ جزءاً من ١٠٠,٠٠٠

أمونيا البومينويد ٥ أجزاء من ١٠٠,٠٠٠

إجمالي المواد الصلبة «جففت في درجة ١٠٠ْ مئوية» ٢٦ جزءاً من ١٠٠,٠٠٠

إجمالي المواد غير العضوية «جففت على نار حامية» ١٠ أجزاء من ١٠٠,٠٠٠

ويدين وانكين تعاطي ماء يحتوي على أكثر من ٠,٠٠٨٢ جزءاً من ١٠٠,٠٠٠ من أمونيا الأليومیندية Aluminoid.

لقد علق صديقي دكتور ج.م. ليز على هذا التقرير الشيق قائلاً: «إن وجود أمونيا الأليومينويد والأمونيا الحرة والمالحة يوضح أن الماء مشعشع أو مخلوط ببول الجمل بلا شك، فهل أنت متأكد أن العينة - التي أحضرتها- كانت نظيفة من البئر مباشرة أم أخذت من إناء شرب أو مرت بمرحلة وسيطة بين البئر والزجاجة؟» فقد شرحت قبلاً تحرزي الدقيق في أخذ عينة الماء

الذي يعد ممتازاً. وقد أصابتني الدهشة عندما علمت بأن محتوى الأمونيا الاليوميندية في ماء مقينمة أكثر بست مئة مرة من النسبة المسموح بها في ماء الشرب.

أحدث توقفنا في مقينمة ارتداداً أكثر في الصيام وخاصة أن ذلك تطابق مع اكتشافنا بأن أحد الجمال قد بلغ به الإنهاك مبلغه، ولم أعرف أبداً ما ألمّ به وطلبوا مني الموافقة على ذبحه، فأجبت بأن هذا يقرره الأمير -أي زايد- وكان زايد قد أخذ يتبرم من الصوم. وفي الرابع والعشرين من يناير ذُبحت الناقة وكانت أول ضحايا هذه الحملة، وهكذا توفرت لدينا كمية من اللحم للأيام القادمة إذ قام زيد الطاهي بتمليح ما تبقى من لحم وكان يأخذ لنا منه يوميّاً حتى قضينا عليه بعد ثلاثة أسابيع. واستفدنا من فرصة إقامتنا في مقينمة وبعثنا بجمالنا إلى الصمان لترعى، وذهبت أنا وبعض رفاقي إلى هناك للتحري عن المنطقة الواقعة على طول طريق الأفلاج. أما غير الصائمين فقد تخلفوا ليحرسوا المخيم. وكانت المنطقة عبارة عن مرتفع متآكل ومجدب يمتد من موضع مقينمة صوب الجنوب إلى طول ٣٠ ميلاً أو أكثر حتى أطراف سهل أبي بحر الحصبائي الكبير الذي -كما سأوضح لاحقاً- يصرف السهب الأوسط إلى رمال الجنوب البعيدة. كانت تتناثر هنا وهناك منخفضات تحمل نباتات صحراوية[١] مما يخفف من رتابة الصمان المجدبة، ووجدنا في إحدى الشجيرات عشّاً قديماً لغراب، وأمسكنا يربوعاً من جحره كما رأينا بعض الطيور. وخلاف ذلك، وباستثناء رأس الرمح[٢]

(١) انظر الملحق.

(٢) أطلقت على المنطقة التي وجدت فيها هذه القطعة «روضة الرمح».

الذي وجدته في منخفض «روضة الرمح» كما سميته، وبعض السحالي، لم يكن هناك ما يثير الانتباه.

تستغرق الرحلة من مقينمة إلى الأفلاج أربعة أيام، ليلتان في الصمان والثالثة في الدهناء، وبعدها نعبر سهل هريسان الحصبائي حيث توجد البئر الوحيدة على هذا الطريق، وهي بئر جبليّة حيث يوجد الماء، في حالة وجوده على عمق أربع قامات، لأنه مشاشِ أي يعتمد منسوب الماء فيها على ما يسقط من أمطار، وقد كانت لسنواَت عديدة تُحسب في عداد الآبار الميتة «الجافة». وتستغرق الرحلة من مقينمة إلى الأفلاج اثنا عشر يوماً عبر الطريق الصحراوي المباشر الذي يتجنب الأفلاج، والجمال السريعة يمكنها أن تقطع هذه المسافة خلال ثمانية أيام. وهذا الطريق خال من الماء تماماً ويمر في معظم أجزائه خلال الرمال حتى مشارف السليّل، وأحياناً يتوفر الماء في برك الماكينيّة الصخرية، و لا تبعد واحة حُمَام الواقعة عند نهاية الرحلة كثيراً من الطريق المباشر. وقد ادّعى صالح بأنه أنجز الرحلة بين أبو ظبي والأحساء (حوالي ٤٠٠ ميل) في ستة أيام. ولا يخلو هذا الكلام من مبالغة تعزز من إنجازاته. فالطريق المباشر من يبرين إلى الأفلاج يعرف بدرب الأفلاج ويعبر الصمان والدهناء في يومين إلى مسقى «أبو حُمَيْض» الواقع بعد الدهناء، ومنه يصل المسافر إلى طريق مقينمة عند جبَليّة خلال يوم واحد.

أخذ سالم ينزف من أنفه بشدة في طريق العودة من نزهتنا في الصمان ولكنه لم يصب بسوء في النهاية. وكانت الجمال قد بدأت تعود من المرعى؛ واندهشت عندما استدعيت إلى الإفطار لرؤية كل رفاقي مدججين بالسلاح. فقد كان منظراً جميلاً أن أرى في ضوء القمر هذا العدد من

مخضرمي الصحراء يتجمعون حول صينية الأرز واللحم يلتهمون ما بها والبنادق في أيديهم وأحزمة الذخيرة تزين خصورهم. فقد كانوا يلتهمون الطعام وحواسهم مشدودة: «ما هي الأخبار؟ هل رأيتم آثار أقدام؟!» فأجابوا: «لا لم نر آثاراً». وكان عليٌّ قد شم رائحة دخان منبعثة من نار معسكر ما في الصحراء، وذلك عندما توقفنا لأداء الصلاة أثناء عودتنا إلى المخيم عند المغيب، وأثار ذلك شكوكهم في مصدر ذلك الدخان: قال علي متسائلاً: «هل هم رعاة أم قطاع طرق يبحثون عن الماء، فإذا لم يكن عددهم كبيراً فلا خوف منهم، ولكن الحذر أفضل».

لم أكن أدري حتى ذلك الحين بأن حاسة الشم المتطورة كانت من مناقب ومزايا الصحراء، وكان علي هو الوحيد الذي أحس بالدخان، وقد اتضح لنا فيما بعد بأننا لم نكن الوحيدين في الصحراء تلك الليلة. فقد لاحظ الزوار أننا نحتل موضع الماء وآثروا الابتعاد وعدم المطالبة بحقهم في السقي لقلة عددهم، ولهذا تجنبوا لقاءنا وتركونا نواصل سيرنا. ولكن القدر وضع جمال صديقنا جابر بن فسل تحت رحمتهم، فقد كانوا فرقة من المارقين من نجران يبحثون عن فريسة ليصطادوها أو إبلاً يغنموها.

وكان أعضاء الفريق ما زالوا قلقين ويقظين عندما تجمعنا لتناول طعام السحور عند الفجر، وهي الساعة التي تبدأ عندها العمليات العسكرية أو الغارات كما في تقاليد الجزيرة العربية. وفرح القوم عندما بزغت الشمس بأشعتها الدافئة، وحينئذ حمّلنا الجمال وبدأنا السير بعيداً من مقينمة غير آسفين لفراقها إلاّ من الشعور بأن أول بند في برامجنا قد أنجز على ما يرام، وكان مقصدنا التالي هو وبار.

الفصل الثاني

الأنهار المنسية

«من مقينمة فصاعداً ليس هناك شيء إلا الربع الخالي حتى نصل إلى العمران. فالماء يوجد إلى يمينها ويسارها، فهذه طبيعة الربع الخالي».

كنا قد دخلنا الصحراء الجنوبية العظيمة -كما حسبت- حين غادرنا حوض جوبة عند الحفاير، وها نحن الآن قد باشرنا السير في الرمال متجهين شرقاً من مقينمة صوب بئر فاضل، وعندئذ لوّح سويد بذراعه تجاه الجنوب والغرب وهو ينقل لي المعلومات التي صدّرت بها هذا الفصل.

لم يساورني شك في أن العرب يستخدمون بصفة لّماحة مصطلح «الربع الخالي» للإشارة إلى تلك البراري الفسيحة والغامضة والمجهولة التي تمتد بين يبرين وحضرموت من جهة وبين عمان ونجران من جهة أخرى، وإن سكان المنطقة الأساسيين -القبائل البدوية- يألفون تماماً ذلك المصطلح ويستخدمونه بمعنيين، كل معنى أكثر شمولاً وغموضاً من الثاني، وكل واحد منهما له معنى يحمل مضموناً جغرافيّاً واحداً وبمعنى يتناقض مع مفهوم مصطلحات وصفية مثل المظمأ «أرض العطش»[1] ومَحْمَل «إقليم مجدب».

وإذا استثنينا حقيقة أن للبدو تطبيقاً محدوداً للمصطلح ولدلالاته العامة

---

(١) تستخدم هذه المصطلحات التي تطلق على الربع الخالي وما شابهه غالباً في صفة الجمع مثل مظامي ومحامل، ولكن الاستثناءات عديدة والمصطلح الأخير يستخدم جغرافيّاً وهو المحمل (منطقة الوسط بنجد)، وحمل (جزء من الجافورة) والمحاميل (صحراء بين وادي الدواسر وبيشة).

والأوسع، فإنني أرى أن ما أسطره هنا متفق مع القبول التقليدي لاسم «الربع الخالي» داخل الجزيرة العربية وخارجها، وكذلك مع ما كان سائداً منذ أقل من عقد من الزمن. وربما كانت الدهشة ستصيب د. هوجارث - أحد أعظم أعلام استكشاف جغرافية الجزيرة العربية- تجاه أي اقتراح مغاير للتفسير الذي ذكرته. كما أخبرني دكتور بيرسي كوكس -الذي قضى أكثر من ثلاثين سنة من الخدمة المميزة في مسقط وأماكن أخرى في الخليج العربي ودرس مشروع اختراق الربع الخالي شخصيّاً- بأنه يرى أن العرب يفهمون تماماً معنى المصطلح وأنه ينطبق على كل الصحراء الجنوبية العظيمة.

وبهذا الدعم الذي يسنده تقليد ضارب في التاريخ والمؤيَّد أيضاً بما تداوله الأدباء والكتاب الكلاسيكيون لقرون طويلة، لا أرى ثمة داع لمواصلة الحديث حول هذا الموضوع. ولكن كان كل من الرائد تشيزمان وبرترام توماس قد اقترحا على التوالي -خلال السنوات القليلة الماضية- بأن المصطلح المشرّف «الربع الخالي» والذي اتخذته عنواناً لكتابي، ليس أكثر من خرافة نسجها الكتاب القدماء والكتب الدراسية الجغرافية. وهذان رأيان جديران بالحسبان والدراسة، وقد جعلت من مهامي أثناء تجوالي هنا منذ شهور تأكيد ما يمارس في الصحراء ويسود فيها من أعراف وعادات، وذلك بدراسة ومقارنة وموازنة أحاديث رفاقي وآخرين ومرجعيتهم حول مسرح نشاطنا.

يتناول تشيزمان[1] هذا الموضوع بإيجاز وبشكل جازم، ويشير في فقرة من كتابه «العربية السعيدة» إلى «صحراء الجزيرة العربية الجنوبية العظيمة»، والتي يشار إليها في الخرائط باسم «الربع الخالي» أو بالأصح الجزء الجنوبي

(١) «في الجزيرة العربية المجهولة» ص ٢٢٨، ص ٣١٠.

منه باسم «الأحقاف» والجزء الشمالي باسم «الرمال». ويذكر في مكان آخر أن «الصحراء الجنوبية العظيمة، الرمال أوالربع الخالي كما أشار إليه الكتّاب القدماء». ثم يرد من الهامش قوله: «في الأحساء يشار إلى الجزء الشمالي من الصحراء الجنوبية العظيمة باسم -الرمال- وإلى الجزء الجنوبي باسم -الأحقاف- أما اسم الربع الخالي فلا أحد يفهمه هناك».

أما السيد توماس[1] فيقول في فصل كامل خصص لموضوع «مذكرة جغرافية حول الربع الخالي» ما يأتي: «إن كل منطقة جنوب شرقي الجزيرة العربية يشار إليها في خرائطنا باسم (الربع الخالي). فالمعنى حرفي إلى الحد الذي يسلبه من أي معنى تطبيقي، وإن المصطلح تقتصر معرفته فقط على المتعلمين الذي درسوا الجغرافيا من الكتب الدراسية. أما القبائل التي تعيش هنا فلا تستخدم هذا المصطلح ولا تفهمه بمعناه الجغرافي». وهو لا يذكر اسم «الأحقاف» ولا يناقش مفهوم مصطلح «الرمال»، مع أنه يستخدمه مشيراً بذلك إلى كل الرمال العظيمة التي مر بها في طريقه إلى بنيّان وتلك الصحراء القاحلة التي تقع إلى الغرب من طريقه. وكما فعل الرائد تشيزمان فإن توماس يستخدمه بجرأة وإصرار كبديل لمصطلح «الربع الخالي» والذي شُطب أو حُذف من خريطة الجزيرة العربية بطريقة غير مقنعة. ومع ذلك تراه يستخدم المصطلح الأخير بدون قيود وبما يناسبه كما يستخدمه كعنوان لخريطته.

وهكذا تقف أدلة الادعاء. فلا أحد يتوقع أن يكون البدوي دقيقاً فيما يستخدمه من مصطلحات جغرافية، ولكنهم يعرفون تماماً عن ماذا

(١) «العربية السعيدة» ص ١٨٠ وما بعدها، وأيضاً ص ٢٠٢ وما بعدها.

يتحدثون، ولا يعنيهم كثيراً ما إذا كان مصطلح ما يتخطى أو يتطابق جزئيّاً مع مصطلح آخر عند الكتابة، وخاصة عندما يُخضعان سويّاً لاستخدامات غير ضرورية، كما يعرفون أن المعالم التي تمثلها مثل هذه المصطلحات تتداخل وتمتزج في الواقع. فإن مصطلح سواحب، على سبيل المثال، وكذلك سلاسل الكثبان المتوازية الطويلة التي يطلق عليها هذا الاسم، تتغول بالضرورة ليس على الربع الخالي -بمعناه الضيق- فحسب، بل على الجزء الجنوبي من الرمال وتبتلع كل منطقة الخيران. وبطريقة مماثلة فإن مصطلح «الطوال»، أو منطقة الآبار العميقة الواقعة إلى الشمال، يتخطى جزءاً من الرمال وجزءاً من الصمّان، بينما يشكل الصُمّان نفسه جزءاً من الربع الخالي ولا ينتمي إليه في بعض أجزائه.

عندما ذهبت إلى وادي الدواسر عام ١٩١٨م [١٣٣٧هـ] ملتفّاً حول الطرف الشمالي من الربع الخالي كنت كثيراً ما أناقش محتواه وخصائصه، وكان رفاقي، وبينهم ممثل معروف من بني مرّة[١] يستخدمون مصطلح «الربع الخالي» دون قيود وبطريقة تدل على الذكاء؛ وقد استخدم الملك ووزراؤه نفس المصطلح أثناء الإعداد لحملتي هذه، كما استخدمه ابن جلوي، وارتعش سعدان لمجرد سماعه باسم «الربع الخالي». وقد ظن القصيبي وبعض أصدقائي بأن بي مس من الجنون عندما علموا بنيتي في اختراق منطقة ذات اسم بغيض ومنفّر. وحتى الآن -على كل حال- فإن اسم «الربع الخالي» كان أكثر الأسماء شيوعاً بين الناس، بينما كان أهل الأحساء المتعلمون يفهمون تماماً مصطلح «الرمال» كما يستخدمه البدو

(١) جابر بن فرج من البحيح، وقد توفي.

الذين يتجولون في ربوع الصحراء العظيمة بماشيتهم. وكان انطباعي في البداية بأن عامة الناس في الأحساء كانوا يستخدمون مصطلح «الرمال» و«الربع الخالي» مترادفين، بينما في الأماكن الأخرى كان مصطلح «الربع الخالي» هو الذي يطلق على كل المنطقة.

ومع ذلك فقد أخذتُ الموضوع بذهن منفتح، وكنت شغوفاً ومتلهفاً إلى معرفة كيف يسمي البدو أنفسهم المسرحَ الذي كنت أعد نفسي لدراسته. كما أن رفاقي كانوا مجموعة من الرجال يمثلون معظم قبائل المنطقة وفي وضع يتيح لهم إلقاء الكثير من الضوء على الموضوع: ستة من بني مرّة من ثلاثة بطون مختلفة منها، وشخصان يمثلان بطون قبيلة المناصير المختلفة، وثلاثة من بطنين مختلفين من قبيلة العجمان، فضلاً عن زايد وابن معدّي اللذين لديهما خبرة كافية عن الصحراء العظيمة.

وتفاديت بقدر الإمكان -وإلى أن أكوّن فكرة عادلة عن استخدامهم الفعلي للمصطلحات المختلفة لتضاريس الصحراء ومعالمها- طرح الأسئلة الإيحائية، واكتفيت بتسجيل كل ما تفوّه به رفاقي أثناء محادثاتهم من جمل مثيرة للاهتمام في أي موضوع كان. ولأنني كنت أستخدم مذكرتي بصورة متواصلة أثناء ركوبي وخلال فترات التوقف فإنهم لم يعيروا انتباهاً إلى أن ما أسجله هو ملاحظاتهم العابرة. فقد كانوا يتحدثون على سجيتهم.

وكانت المصطلحات مثل: «الرَمل» و«الرَمْلة» و«الرمال» كثيرة الورود في محادثاتهم، ولاحظت أن أشخاصاً مثل علي بن جهامان وسالم وصالح وآخرين كانوا يستخدمون هذه المصطلحات كأقليم ألفوه ولا يثير فيهم خوفاً ورهبة. ومع ذلك فقد كان شائعاً منذ بداية مسيرنا أن برنامجنا يشمل رحلة

تبدأ من شنَّة أو حضرموت إلى السليّل. وكان مصطلح «الربع الخالي» يتردد على شفاههم تماماً كما يتردد مصطلح «الرملة» الذي كان يستخدم أكثر من مصطلح «الرمال»، إما بعمومية تشمل كل منطقة «الرمل» كما يفهمونها أو بإضافة اسم محلي لتحديد منطقة رملية معينة مثل: رملة مقينمة، رملة شنَّة . . . إلخ.

إذاً ما هو الشيء الذي يميّز بين «الرمل» و«الربع الخالي» في نظرهم مع الأخذ في الحسبان بأن كل المنطقة المعنية عبارة عن بحر من الرمال؟! لقد كان التمييز بين مظهرين محددين: المراعي من ناحية والماء من ناحية أخرى. وسرعان ما اتضحت حقيقة أن المناطق الرعوية المختلفة تحمل أسماء الآبار التي كان البدو يخيمون عندها، وتحمل أسماء مثل: رملة كذا ورملة كذا، باستثناء سَنام مع أنها منطقة رعوية وبها آبار. وثمة استثناءات أخرى موجودة، ولكن القاعدة العامة السائدة هي أن لكل بئر حزام الحاذ أو حزام الخلّة أو أي حزام من نوع آخر، إلا القعاميات التي ظلت محتفظة باسم القعاميات وكذلك الحوايا والشويكلة -وكل منهما ينقسم إلى نطاقات نباتية- وكانت هذه البقع وكذلك الأماكن الأخرى يشار إليها دائماً كأجزاء من الربع الخالي أو مقاطعاتها.

وكان يحدث أحياناً أن يأخذ البدو قطعانهم خلال مواسم الأمطار الجيدة إلى الأماكن المجدبة، ولكنهم عادة ما يترددون على الأماكن التي يوجد بها ماء حيث يمكنهم الاستقرار حول الآبار بينما جمالهم تتجول في الأرض المجاورة بحثاً عن الأعشاب. ومثل هذه الأماكن- التي يتجمعون عندها عادة- تعرف بالرملة أو الرمال، أما البقعة المجدبة «دون ماء» فهي «الربع الخالي» الحقيقية. ولذا لجأت إلى وضع العبارات العابرة التي ترد على لسان

سويد والآخرين عند افتتاحية هذا الفصل والفصول الأخرى لأؤكد ذلك التمييز الذي يقلقهم كثيراً.

لم يخفِ علي بن جهامان صدمته عندما سألته عن الشويكلة: «لقد ذهبت إلى القَعاميات والحوايا لاصطياد الوضيحي، ولكن كل هذه المناطق وكذلك الشويكلة وما بعدها تتبع الربع الخالي». أجاب علي: «اسأل سويداً عنها واسأل سالماً لأنهما من قبيلة الدمنان. أما نحن الآخرون فنذهب إلى هناك فقط لصيد الوضيحي». وقال فرّاج في وقت لاحق، وبعد مغادرتنا شنَّة بثلاثة أو أربعةأيام في الصحراء المجدبة: «هذه هي التي يطلق عليها اسم الربع الخالي -أرض الوضيحي-». وأردف سالم قائلاً، وهو يركب معي في آخر مرحلة من رحلتنا: «هذه هي الربع الخالي، إنها أرض لا تطؤها أقدام البشر»، ولكن أكثر هذه التعبيرات إحكاماً حول هذا الموضوع كانت كلمات سويد الذي افتتحت به الفصل الذي يحمل عنوان: «الصحراء المجدبة».

ليس هناك أدنى شك في أنّ بدو الصحراء العظيمة - المناصير وبني مُرّة الذين يعيشون في المنطقة الممتدة من حدود عمان إلى نجران- يعرفون ويستخدمون مصطلح «الربع الخالي». وقد لا يستخدم بعض قبائل الحدود التي ذكرها السيد توماس هذا المصطلح بتلك الشمولية لأنهم ربما على معرفة فعلية فقط بذلك الجزء الذي يطلق عليه «الرملة». ومع ذلك فلا مناص أمامي إلا أن أشك في جهلهم التام بهذا الاسم ودلالته الخاصة، فالله عليم بكل شيء، كما يقول العرب في مثل هذه الحالات، وأنا لا أتردد البتة في أن أعيد إلى الصحراء الجنوبية العظيمة الاسم الذي عرفها به العرب منذ أن روت شهرزاد إلى الملك شهريار قصة معروف الإسكافي الذي نُقِلَ

بواسطة الجن إلى وسط «الربع الخراب»[1] واستبق بذلك اكتشافي لوبار.

وهنا أضع بعض النتائج النهائية لأبحاثي في هذا الموضوع في المعادلة التالية: إن كل الصحراء الجنوبية العظيمة هي بالفعل الربع الخالي المغايرة للعالم المسكون. وإن جزءاً كبيراً منها- والتي عادة ما يرتادها البدو الرحّل وتحتوي على آلاف الآبار- معروف لدى هؤلاء الرعاة وجيرانهم باسم «الرملة» أو «الرمال»، بينما يندرج جزء من الأخير، والذي يحتوي فقط على آبار مالحة، تحت اسم الخيران، وجزء آخر يحتوي على مياه قابلة للشرب هو السنام، وآخر هو الطويل وهكذا، وما يتبقى بعد طرح مناطق المياه هذه هو الربع الخالي الأصلي -الصحراء المجدبة- الخالي حتى بحساب وتقدير البدو. أما الاسم «الأحقاف» الذي يرد كثيراً في الأدبيات، فلم أسمعه أبداً إلاّ على لسان المتحذلقين والمعلمين، وقد يكون هذا الاسم معروفاً لدي، ومستخدماً من قِبَل، عرب حضرموت الذين لا خبرة لي بهم.

وبعد أن تناولنا بإسهاب لجانب مهم من مشكلة كبيرة أعود إلى مسيرتنا خلال تلال «رملة مقينمة» الرملية. كانت ريح جنوبية معتدلة تداعب وجوهنا. وبدأت المسافة تتسع تدريجيّاً بيننا وبين سلسلة تلال الصمان الطويلة الداكنة حتى اختفت عن أنظارنا، ووجدنا أنفسنا محاطين ببحر من الرمال، وكانت منطقة لينة ولطيفة أقرب إلى الجافورة، أحياناً عارية من النبات وأحياناً مغطاة بنبات كثيف، غالباً من الغضا الذي تتخلله بقع من الحاذ وأعشاب أخرى. وبدا رفاقي منهكين تعوزهم الحيوية بعد تلك الوليمة الدسمة. وكانت قافلة الأمتعة تتبعنا ببطء، وبعد مسيرة ما يقرب من الساعتين وجدنا مرعى جيداً توقفنا عنده حوالي الساعة حتى تلحق بنا.

---

(١) يعد بورتون هذا الاسم مماثلاً لاسم الربع الخالي وذلك هو الصحيح.

وجدت هنا ما يثير انتباهي من نباتات وحشرات وأمثالها، ولكن البطء الذي يتسم به سيرنا كان يقلقني، ولذلك أصررت على السير على أقدامي عندما واصلوا السير بعد ذلك. ولم أجد صعوبة في ملاحقة جمال الأمتعة وشغلت نفسي بملاحظة الوقت الذي أوضح بأننا نسير بمعدل ٥٠ بوصة في الثانية -أي أقل من ثلاثة أميال في الساعة. وكان السير على الرمال رائعاً، ولكننا وصلنا سهلاً حصبائيّاً يصل عرضه إلى حوالي ميلين يجري كشريط عريض من الجنوب إلى الشمال، وهناك شعرت بالفرق بين الرمل والحصباء، وحتى الجمال بدأت تسير بحذر شديد. ولم ينل سيري مترجلاً رضى رفاقي، فقد كان ذلك تأنيباً صامتاً لهم، ولكني رضخت لتوسلاتهم ونداء قدمي التي بدأت تؤلمني، وامتطيت ناقتي، ولفترة بقيت ملازماً سرعة قافلة الأمتعة البطيئة ولكنني أصبحت في المقدمة عندما بدأ رفاقي يسرعون الخطى ويغذون في السير. وأشار رفاقي من بعيد إلى أجمة تتكون تقريباً من دستة من شجيرات الغضا، وقالوا: إنها غُضُوات ابن حُقَي، وسميت بذلك باسم شخص من قبيلة بني مرّة صادف وأن نام تحتها أو حارب أو فقد جملاً عندها. وتوقفنا الساعة الثالثة مساء لأداء الصلاة، وفي حوالي الساعة الخامسة خيمنا للمبيت بالقرب من الطرف الشرقي من رملة مقينمة التي تطل على شريط آخر من الحصباء يعرف باسم «حدبة بُريكة».

وكان الحدث الوحيد خلال هذه الرحلة هو رؤية حبارى أُطلق عليها الرصاص ولكن لم يصبها، كما جمعت بعض الصعرور، وحلقت بعض الفراشات حول الضوء في المساء(١). ثم هبت ريح شمالية محمّلة بالأتربة خلال

---

(١) من ٢٤ عينة جمعتها في الربع الخالي اعتبرت ست عشرة فراشة منها جديدة من الناحية العلمية انظر الملحق.

الساعات الأولى من المساء، تركت على أثرها كل شيء مغطى بدثار من الرمل، وجاء أبو جعشة ليثبّت خيمتي بالأوتاد، وعلى ذلك نمت جيداً أحلم بوادي الدواسر وهو يجتاز سطحاً حصبائيّاً فسيحاً تتناثر فيه مخلفات حضارة قديمة.

في صباح اليوم التالي وجدنا السماء ملبدة بالغيوم والهواء بارداً ودبقاً وسطح كل شيء يعلوه الرمل، وبدت الشمس ضعيفة في الأفق. وكنا قد قطعنا حوالي ٢٥ ميلاً في أول يوم، ونفس هذه المسافة خلال هذا اليوم الذي اجتزنا أثناءه البُريكة «عبر الحصباء إلى الرمل» والحوية «عبر رمل كثير الغضا إلى منطقة حصبائية» وأخيراً دخلنا مراعي مَدارة حيث نصبنا الخيم قبل الرابعة مساء بعد أن تسبب الجو الدافئ والساكن في شعور عام بالنعاس لم نستطيع التغلب عليه. وطارد سالم أرنباً بريّاً ولكن دون جدوى، وعثرت في شجيرات الغضا على كمية كبيرة من الخنافس السوداء ذات الطوق الذهبي الذي يعلو أكتافها، وطارد الكلب السلوقي دون جدوى ثعلباً عبر البقعة الحصبائية التي بدت كمكان مثالي لهبوط الطائرات، ورأينا روث وضيحي صغير ولكن لم نر أثراً له.

أشار الرفاق إلى طرق الجمال التي تجري من الجنوب إلى الشمال عبر حصباء البُريكة وهي تتجه إلى آبار القصب، ولكن عليّاً أعلن بأن هذه المنطقة لم تشهد مطراً خلال الأعوام السبعة أو الثمانية الماضية. ومع ذلك كان هناك الكثير من النبات لتقتات عليه الإبل، وإن بدت جافة بعض الشيء. وظهرت بعيداً في اتجاه الجنوب الشرقي سلسلة كثبان عرق الغنم وبعدها -كما قيل لي- تقع سلسلة أخرى[1] على مسيرة يوم أو أكثر. وقبل وصولنا إلى المخيم مررنا بعش غراب قديم مهجور بين أغصان شجيرة غضا.

---

(١) عروق العبل وعروق الخلة.

وصلنا في اليوم الثالث من مغادرتنا لمقينمة -٢٨ يناير- إلى بئر فاضل بعد مسيرة قصيرة، إذ كانت المسافة لا تتعدى ٥٥ ميلاً، ودخلنا على مسافة ميلين من البئر منطقة كثبان حقيقية. . بحر من الأمواج العالية المتلاطمة هنا وهناك دون ترتيب وإن كانت بصفة عامة تواجه الشمال بقممها المتموجة أو المنخفضات التي تشبه حدوة الحصان، واضطررنا مرة إلى هبوط منحدر حاد من الرمل الناعم أثناء هبوب رياح جنوبية عاصفة استمرت حتى الساعة الخامسة مساء حين سكنت تاركة بعدها ليلة صافية ودافئة نعمنا بها.

وكانت هذه الرحلة -ورغم قصرها- كئيبة وموحشة. وكنا نسير في صف طويل يتقدمنا زايد ومعه حميد وصالح، وهو يتحدث في مرح وحيوية كعادته لجمهور يكن له الاحترام. وكان ابن معدي وحيداً ليس بعيداً في المؤخرة يسير وهو يتلو آيات من القرآن الكريم التي يحفظها. وخَتْمُ القرآن عدة مرات خلال شهر رمضان يعد من فضائل العمل خلال هذا الشهر. وكنت أنا وسعدان نسير في الخلف ونحن نتجاذب أطراف الحديث بينما كان الآخرون يسيرون في مؤخرة الصف ككتيبة متراصة وهم يترنمون بأناشيد رتيبة.

وجدنا عند بئر فاضل -التي حفرها شيخ سابق لفخذ آل عذبة، أكبر فخوذ قبيلة بني مُرّة-، أربعة آبار موزعة عبر مسافة تقارب الميل داخل منخفض عريض من الرمل، وتُعد البئر ملكاً لبقيع الغفران. كانت البئر الأساس[1] جافة ومليئة بالرمل حتى منتصفها نتيجة زيارة قامت بها فرقة

(١) تسمى هذه البئر بالأم بينما تسمى الآبار الأخرى «جاهليات» والتي من الواضح أنها تعني «الصغار»، على الرغم من أن الكلمة ربما تعني أن تلك الآبار كانت قديمةً وتم اكتشافها وإعادة حفرها.

مغيرة من الصيعر الذين غفلوا عن وضع الغطاءالجلدي في مكانه بعد الانتهاء من سقي بهائمهم وملء قرابهم. وألقيت حجراً في البئر ولم أسمع صوت ماء، وكنت أرى أنه من الأفضل حالياً أن يزال ما بها من رملٍ بدلاً من حفر بئر جديدة. ولكن لم يكن الأمر كذلك، فقد قام أهل الغفران في الصيف الماضي بحفر المهوى الذي خيمنا بجانبه في بقعة حصبائية كادت الآن أن تختفي تحت الرمال الزاحفة. أما كيف عرف عليٌ موضع البئر، مع أنه لم يرها أبداً، فقد بقي سرّاً، ولكنه سار مباشرة نحوها وترجل من دابته عند شيء كان يبدو ككومة من الرمال، وشرع علي والآخرون في إزالة الركامة الرملية وأزاحوا غطاء العمدان والجلد من على فتحة البئر، ووجد أن جزءاً من الغطاء قد انهار متيحاً لكمية كبيرة من الرمل الانزلاق إلى داخل المهوى، ومن ثم لم نجد ماء حتى هبط زايد وقام بتنظيف البئر مما بها من نفايات متراكمة من قطع الحجر الرملي والخشب والرمل. وبعد التنظيف بدأ القوم في سحب الماء بدلو من عمق ١٢٦ قدماً. أما البئر الأم التي يصل عمقها إلى حوالي ١٤٣ قدماً، فقد كانت فتحته تقع في مرتفع عن الأرض يبلغ ١٠ أقدام نتيجة تراكم خليط من الرمل والرطوبة وروث الإبل عبر السنين، بينما كانت فتحة البئر التي نستخدمها مستوية مع الأرض. أما البئران الأخريان -حُفرت إحداهما عام ١٩٣٠م ثم هجرت- فقد كانتا مطمورتان تماماً بالرمل. وقد بدا لي غريباً أن يتمكن البدو من القيام بمثل هذه الأعمال.

وأسفرت تحرياتي عن استنباط حقيقة أن المهاوي الأصلية كانت موجودة فعلاً منذ زمن بعيد، أما حفر البئر التي كنا نستقي من مائها بواسطة الغفران

فقد كان بالفعل إعادة اكتشاف وتنظيف لا غير، ويبدو أن المهاوي حفرت في حجر جيري أحمر اللون.

وجدت في هذه المنطقة مقبرة صغيرة مصادفة، وكانت أول مقبرة أراها في منطقة بني مُرّة، وتحتوي على عشرة قبور تحيط بقبر كبير ربما يخص شيخ القبيلة، وكان على رأس كل قبر حجر أبيض. وكان غريباً أن لا نرى في هذه الأماكن الصحراوية ما يذكرنا كثيراً بتفاهة هذه الحياة، ولكن تفسير ذلك يبدو بسيطاً. ففي يبرين -حيث التربة المالحة- فإن رفات الموتى تتحلل بسرعة بينما تطمس الرمال في الصحراء موت الإنسان تحت أمواجها الزاحفة دائماً. والتقطت شظية صغيرة من خبث بازلتي -بركاني- حيث أكد حسن بأنها من نوع «الحجر السيّار» Walkig Stone، كما اقترح أيضاً بأنها ربما أحضرت هنا لتُطحن إلى مسحوق يستخدم في علاج العيون، بينما اقترح آخرون بأنها كانت تستخدم كحجر المدق أو يد الهاون[1].

وكان بطن المنخفض، كما في مقينمة، مكسواً بنوى البلح وقطع الجلود وأشياء أخرى توحي بقدم الاستيطان البشري فيه. وأخبرني علي بأنه على مسيرة يومين تجاه الشمال توجد بئر جُوَيفَة وبئر أخرى يقال لها عُوَيّة إلى الشرق منها وعلى مسافة مماثلة من بئر فاضل؛ وعلى مسيرة يومين إلى الشرق من بئر فاضل كانت بئر فضيلة، وهي من الآبار العميقة. وهكذا فإن هذا الجزء الشمالي من الرمال كان مليئاً إلى حد كبير بالآبار. وتوضح خريطة توماس، التي اقتنيت نسخة منها قبل سفري، مجموعة متصلة من الآبار على طول الطريق الذي سلكه أثناء رحلته. وقد استنتجت من هذه

(١) تسمى حيد الرواح. لا أحد يعرف عن المصدر الذي جاءت منه هذه القطع. انظر الملحق.

الخريطة أن المنطقة التي تقع إلى الغرب من خط سيره كانت مجدبة خالية من الماء، ويبدو أنه أكد هذا الانطباع في كتابه[١]. وكان من الطبيعي أن أكون بعيداً بقدر الإمكان من الطريق الذي سلكه توماس، بينما كان عليٌّ يرغب في السير باتجاه جنوبي شرقي من بئر فاضل ليصل إلى بئر أخرى اسمها أم الحديد التي لم تظهر في خريطة توماس والتي اشتبهت من كلام علي أنها قد تكون موضع وبار المشهورة أو موضعاً قريباً منه. وكانت المؤشرات تدل على أنها ليست بعيدة من فَرَجَة الواقعة على طريق توماس. ولكنني كنت حريصاً على أن لا تفوتني أية آبار قديمة أو موجودة إلى الغرب منها وخاصة وأنني تأكدت من خلال محادثات الأسابيع الماضية بأن عليّاً على علم بوجود آبار قديمة على طول حافة الصحراء المجدبة الحقيقية، وكان مهمّاً أن توضع هذه الآبار على الخريطة، ولذلك أصررت على السير قدماً في اتجاه الجنوب بدلاً من الاتجاه الذي اقترحه دليلي . .

وكان ذاك هو الاتجاه الذي اتخذناه صباح اليوم التالي بعد سقي الإبل وملء ٣٢ قربة بالماء العذب الذي سنفقده لبعض الوقت -لأن ماء بئر فاضل يعده البدو جيداً مع أنه مساوٍ في نوعيته لماء مقينمة- ثم أعدنا الغطاء على فتحة البئر. وهبت ريح جنوبية منعشة حوالي الساعة العاشرة صباحاً ونحن نسير على طول سلسلة من التلال الرملية التي تأخذ تجاويفها نصف حدوة متجهة نحو الشمال الغربي[٢] تحت قممها المنحوتة والحادة والتي تشبه الجدران. قال علي مشجعاً: «إن الجفاف يطبق على هذه الأرض»؛ ولكن المكان كان يعج بشجيرات الغضا شبه الجافة في الأجزاء السفلية من

(١) «العربية السعودية» ص ٢٦٦ والملحق رقم ٣.
(٢) عرق الغضا.

الرمال، بينما امتد أمامنا على مدى واسع سهل حصبائي يحمل شجيرات عديدة وخلفه على البعد تراءت لنا سلسلة كثبان «النُّمَيْلة». وتلكأت في السير مع سالم، الذي أصبح دليلي مرة أخرى، أراقب أفعال قبرة ذات الوجهين، بينما طارد صالح نسراً من على قمة كثيب ولكن دون جدوى.

وعند عودته هبطنا منحدراً هيناً في طريقنا إلى سهل «شُقّة الخَلْفات» الحصبائي بينما تلكأ رفاقنا كالعادة في الخلف، وفجأة أبصرت شيئاً أبيض على الأرض، وقبل أن أدرك كنهه، كنا نسير فوق كتل منه. قلت لصالح: «انظر قواقع بحرية، عليّ أن أترجل». ترجل صالح في لمح البصر وحملق على مجموعة من القواقع ذات الصدفتين وهو يؤدي حركات مفعمة بالحيوية. ولساعتين بقينا أنا ورفاقي وأعيننا مثبتة على البقع بينما واصلت قافلة الأمتعة سيرها، وكان ذلك - وباستثناء وبار نفسها- أهم وأكثر اكتشافات الرحلة إثارة. وبكل بساطة كان المكان يعج بالقواقع ومن بينها جمعنا مجموعة متنوعة من الأدوات الصوانية القديمة الرائعة الشكل، وكان فرّاج هو الذي أتى إليّ بأول أداة بينما أحضر زايد من بين الحصى كتلة من شيء تخيله بقايا حائط طيني منهار، فقد كانت بالفعل تربة غرينية من نهر قديم أو بحيرة قديمة وتبدو عليها خطوط جعلت زايداً يعتقد بأنها بقايا أساس حائط قديم.

عبرت قبل سنوات مضت، وأنا في طريقي إلى وادي الدواسر، عدداً من مسايل السيول التي قيل بأنها تجري -وتفقد مياهها- في الصحراء الممتدة شرقاً تجاه حاجز الدهناء الرملي. وقد افترضت بأن مدينة وبار القديمة كانت تقع على ضفاف إحدى هذه المسايل حين كانت تجري بالمياه. وكنت دائماً

أؤمل أن استكشاف الصحراء العظيمة قد يكشف آثار حضارة عظيمة في أرض كانت خصبة فيما مضى كتلك التي اكتشفها سير أوريل شتاين في قيعان أنهار صحارى آسيا الوسطى الجافة. ويبدو أن السيد توماس لم يجد أثراً لمثل هذه المجاري أو لهذه الحضارة، ولكنه وجد رمالاً سائدة تغطي كل مكان يجعل اكتشافات كهذه بعيدة الاحتمال.

عندما عثرنا على أحفورة في قرن أبو وايل، ونباك، أخبرني عليٌ بوجود ترسبات وقواقع أخرى يعرفها في الصحراء، ولكن كان ذلك إلى الغرب من شنَّة؛ وكانت بحق مفاجأة سارة العثور على ترسبات أخرى في هذه البقعة. كانت الرمال بين مقينمة وبئر فاضل مخططة بفرجات عريضة من الحصباء والحجر الصغير (المجروش)، ولكننا لم نجد أشياء مثيرة وذات قيمة خاصة، وبدت لي وكأنها آخر آثار الصمَّان والسهب يتلاشى تحت الرمال. كنت أفترض أن تتحول كل المنطقة الممتدة من بئر فاضل فصاعداً إلى رمال ولا شيء غيرها، ولكن لم يكن الحال كما توقعت إذ تكرر وجود بقع حصبائية وصخور الأديم المتفاوتة المساحة بين بئر فاضل والطويرفة، بينما بعيداً إلى الغرب جاء ما يفيد عن وجود سهل حصبائي أكبر يسمى رَعْلة وبعده السَحْمَاء ثم أبو بَحْر إلى الغرب والجنوب على التوالي. وهكذا اتضح أن الجزء الغربي المجدب من الربع الخالي كان أقل رملية من الجهة الشرقية. وها هنا في شقة الخلفات سهل حصبائي آخر يبلغ طوله حوالي عشرة أميال وعرضه ثلاثة أميال. وأضفى غطاء كثيف من الشجيرات سيماء خصوبة غير متوقعة عليها، بينما أكد وجود القواقع أن هذا السهل كان فيما مضى يجري بالماء. وأوحى غياب أي أثر لعملية الأحافير أن هذه الظواهر تكونت في

فترات حديثة نسبياً. وأطلق العثور على الأدوات الصوانية بين القواقع لخيالي العنان وأنا أتصور الإنسان القديم وهو يقيم على ضفاف نهر قديم أو بحيرة قديمة أو يأتي لزيارتها ليصطاد بالرمح والسهام الحيوانات التي كانت ترد لترتوي بالماء.

بدا الحد الشمالي من السهل وكأنه ينحدر أو يختفي تجاه أسفل السلسلة الكثبانية التي عبرناها في طريقنا إليه، وبدأت فكرة تتكون لدي بأنني قد عثرت على جزء من قاع نهر قديم وأن مجاريه يمكن البحث عنها في بطون أودية منطقة الأفلاج وجنوبها كما ذكرت آنفاً.

وبقي عامل واحد وهام كان لابد من تحديده: هل القواقع من أصل بحري أو ماء عذب؟! لم تكن لي وسيلة لتحديد ذلك والوصول إلى قرار بشأنه، وكان عليّ الانتظار إلى حين العودة إلى إنجلترا قبل الإجابة عن ذلك السؤال. وفي غضون ذلك سجلت فكرتي ويحدوني الأمل في أن تكون صائبة، وعلى قوة ذلك الأمل قمت برسم خطوط منقطة على أوراق رسم الخرائط لأربط قواقع شقة الخلفات مع نظام النهر العظيم الذي كان يعبر الصحراء من الأفلاج. وقد بدا لي أن وادي المُقْرن، وهو أكبر المجاري الغربية حسب معرفتي، هو أقرب وأنسب الأسماء التي يمكن تبنيها لهذا النظام النهري.

وقد هلل رفاقي وصفقوا للخيال الجامح الذي ربط ٢٥٠ ميلاً من الصحراء العظيمة مع نظام نهري، وجمعنا أكبر عدد ممكن من القواقع ذات الصدفتين. وفي الوقت المناسب شخّص الخبراء في المتحف البريطاني بأنها قواقع مياه عذبة[١]. ولسوء الحظ فقد ثبت أن هذه القواقع تنتمي إلى ذلك

(١) انظر الملحق.

النوع الذي ظل موجوداً باستمرار لفترة طويلة وما زال، ومن ثم لم يكن ممكناً تحديد أعمارها أو التاريخ التقريبي لبداية الجفاف الذي حل بالجزيرة العربية كما تم تصنيف[1] الأدوات الصوانية التي عُثر عليها بين القواقع بأنها من الأنواع التي تنتمي إلى العصرين الحجري الحديث والبرونزي؛ ولكن من الصعب استنتاج تاريخ نشوء هذه الأنواع في أي منطقة إلا من خلال التكوينات الجيولوجية التي ترتبط بها. ويبدو أن أنهار الصحراء العظيمة كانت على أية حال تنساب حتى فجر التاريخ، إن لم تكن خلال العصور التاريخية. وإذا اعتبرنا ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد تاريخاً مناسباً لحدوث العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية -على قياس ما حدث في الصحراء الليبية، كما اقترحت الآنسة كاتون طومبسون - فإن بداية الظروف الصحراوية «الجفاف» في الربع الخالي لابد وأن تكون قد نشأت متعاصرة مع البدايات المبكرة لحضارة مدنية قوية في أماكن مثل مصر وبلاد الرافدين. ويحتمل أن حضارة كتلك قد بدأت بالظهور في هذه الأجزاء فقط لتختنق وتندثر من فعل هذه البيئة الطاردة، كما لم يكن هناك في طبيعة هذه الحالة شيء يحول دون إمكانية اكتشاف أطلال قديمة في الربع الخالي. وفي كل الأحوال فإن معرفتنا الحالية محدودة للغاية ولكنها مشجعة: فقد وجدنا بالفعل أدلة على نشاط بشري في العصور القديمة بين ما يبدو كمخلفات نهر قديم. وواصلنا المسير ويحدونا أمل في أن نضيف إلى قائمة اكتشافاتنا تلك المدينة التي تقول الأساطير بأنها كانت تمثل أهم إنجازات الجزيرة العربية القديمة. وقد يبدو غريباً أنه - مع افتراض تاريخ حديث لبداية الجفاف في

(١) قام بذلك السيد ريجنالد سميث من المتحف البريطاني والآنسة ج. كاتون - طومبسون.

الجزيرة العربية- أن لا وجود لأي أثر لحضارات العصر الحجري القديم أو حتى الوسيط وسط الأدوات الصوانية التي تم العثور عليها أثناء حملتنا.

ويمكن أن نفترض أن مخلفات هذه الحضارات المبكرة -والتي بكل تأكيد قد تطورت تحت ظروف مناخية أفضل- يمكن العثور عليها إذا ما تم التنقيب عنها في المستويات السفلى من الغرين الذي اكتشفنا على سطحه القواقع والصوان.

تَركنا عليٌّ -ونحن نجمع القواقع- والتحق بقافلة الأمتعة، ولكن أرنباً بريّاً حاد به عن الطريق حتى التقانا ثانية وقد تجاوزنا الحصباء ودخلنا رمال عرق النميلة المتموجة و وهو يحمل محصلة ماجمعه: أرنباً وقُبُّرة[1]، وعائلة كاملة من الغربان قتل منها الأب وجَرح الأم. ولم تنجح محاولاتنا لإبقاء الأم وأطفالها أحياء إذ ماتوا تباعاً خلال أيام قليلة. أما بخصوص الصغار فقد عمل لي زايد مخللاً من الملح أودعت فيه الصغار في علبة تبغ مقفلة بإحكام، وعندما فتحت العلبة بعد أيام لأرى ما حل بهم، انفجرت المجموعة في وجهي بصوت مدوي وبرائحة في غاية النتانة. وهربت مندفعاً عن الطعام تاركاً الغنيمة في الرمل وتحت رحمة غربان كانت قد بدأت تتجمع حول المخيم لتقتات على ما نتركه من مخلفات بعد مغادرتنا.

سرنا عبر رمال النُّميلة التي تتخللها بين حين وآخر بقع من الحصباء والتي عثرنا في بعض منها على قواقع وأحجار الصوان، وكنا قد بدأنا السير متأخرين كما تأخرنا طويلاً عند إرسابات القواقع، ثم موقع بئر النميلة القريب. كل هذا دفعنا لنخيم حوالي الساعة الثانية مساء وبعد مسيرة عشرة أميال فقط بجانب ما بدا لنا كبئر. سألت: «أين البئر؟». أجاب علي: «إنها

(١) انظر الملحق.

هناك»، وهو يشير إلى تل رملي لا يمكن تمييزه من تلك الرمال التي تحيط به من كل الجوانب إلا بنثار من روث الجمال القديم هنا وهناك. أما بخصوص البئر نفسها، التي كانت مدفونة تحت ركام أملس من الرمال، فلم يكن هناك أي أثر لها. وتعجبت كيف تمكن رفاقي من العثور على موضعها. . وربما كنت سأشك في وجود البئر لولا وقوع حادث جدير بالملاحظة. فقد أخبروني بأن البئر كانت تحتوي على ماء على عمق ٢٣ قامة، ولكن أحداً من الرعاة لم يرد البئر منذ حلول الجفاف العظيم قبل ثماني أو عشر سنوات. فقد قام علي وسالم بزيارة البئر قبل ذلك، وتذكر ابن حميد -الذي كان طفلاً حين جاء هنا- بأنه أخفى بعض لعبه في موضع معين، ثم اتجه نحوه وأخرج من الأرض أقراصاً طينية مسطحة ومثقوبة في وسطها يستخدمها أولاد البدو في لعبة الدراج، وهي لعبة تجمع ما بين لعبة الداما والحملا ولعبة الأقراص والكأس في أوربا. أضفت الأقراص التي عثرنا على بعض منها في أماكن قليلة على طول طريقنا إلى مجموعتي وأخذت صورة لرفاقي وهم وقوف عند البئر.

يتحتم على القائد في صحارى الجزيرة العربية أن يلاحظ بحذر ويستنتج بدقة ويتذكر بإخلاص وأمانة، وعلى رجل الصحراء أن يعرف كل كثيب وحَيْد وثنية كما يعرف الراعي أفراد قطيعه. كما على الدليل أن يقودك دون خطأ من ظاهرة إلى أخرى حتى تصل إلى ما تهدف إليه، ولكنه قد يخدعك ويخدع نفسه إذا ما طلبت منه تحديد الاتجاه من بعيد. فهو يتبع الطريق الذي تمليه عليه ذاكرته وخبرته بينما في مقدور الدليل الجيد أن يفعل ذلك لمجرد وصف يقدمه له دليل آخر ذو خبرة، لأنهم عادة ما يستخدمون فيما بينهم نفس المصطلحات والرموز كالتي يستخدمها العلماء في علومهم في جميع أنحاء العالم.

هبت الرياح الشمالية العاصفة من جديد بعد هدوء أثناء النهار لتزعجنا خلال الليل وتخرب خيمتي وتنشر الرمال على كل شيء. وكانت أدنى درجات الحرارة التي سجلت في الليالي السابقة هي ٥٠ْ فهرنهايت، وانخفضت في مقينمة إلى ٤١ْ ف. وكأن الرياح هبت لترحب بمقدمنا إلى بئر فاضل فقد سكنت الرياح عند الفجر، وبدا الجو بعدها بارداً وصحواً.

استيقظنا عند الساعة الثامنة صباحاً لنواصل سيرنا عبر أرض صحراوية نموذجية تتكون من أمواج منخفضة من الرمال تتغير هنا وهناك بظهور سلاسل متناثرة من كثبان مرتفعة تبدو كالأمواج المتكسرة في صدر المحيط. وأضْفَتْ بقع من النبات الجاف تنوعاً إلى رتابة لون الرمال الأصفر، وبين الفينة والأخرى كنا نلتقي مصادفة خطاً رفيعاً من عشب العنذب الندي الذي كانت إبلنا تلتهمه بنهم. ويوحي وجود هذه الأعشاب وبعض شجيرات الحاذ بهطول أمطار خفيفة هنا حديثاً. ولكن كان الجفاف بصفة عامة يطبق على المنطقة التي كانت تخلو من أي أثر للحياة.

توجد بين هذه العروق الرملية المتوازية[1] أودية رملية ضحلة تتخللها بقع من صخر الأديم تتناثر فيها الحصباء. وقد شجعتني الخبرة التي اكتسبتها في اليوم السابق على زيارة أكبر عدد من هذه البقع، وقد بدا لي غريباً أن لا تكون لهذه المعالم الواضحة أسماء، وقد يعود ذلك إلى أنها عرضة للطمس بزحف الرمل وتغوله عليها، كما لم يكن بها ما يثير اهتمام الرعاة. ويبدو أن رفاقي كانوا يمتعضون من انعطافاتي المتكررة لزيارة هذه المعالم، مع أنهم كانوا يظهرون كل علامات الرضا عندما نجد في مثل هذه البقع كمية من

(١) عرق السبات وعرق أبو عفنة وعروق أخرى.

الصوان في الحصباء التي تعلو تربة ذات خاصية غرينية. واحتفلنا بإطلاق اسم «رَقّة الشّلفَا» على الوادي.

هبت الرياح بعد منتصف اليوم من جديد ولكن من خلفنا هذه المرة مما جعل الجمال تسرع الخطى حتى لا تلحق بها. وفي مرح سرنا معاً عبر التلال الرملية المتموجة الواقعة بعد «رقّة الشّلفا» حتى ظهر وسط هذا العالم الميت فجأة أمامنا طائر الخطاف وهو يصارع الريح العاصفة متجهاً نحو الشمال، ثم أخذ يرفرف بجناحيه حول الجمال وبينها قبل أن يختفي عن الأنظار. وكان عليّ -لحسن الحظ- قد أخذ بندقيتي وخرج يبحث عن الأرانب، ونجا الطير. وتخيلته يصل إلى إنجلترا قبلي. وعثرنا بعد ذلك مباشرة على سحلية وأمسكنا بها كما أضفت إلى مجموعتي جرادتين وبعض الخنافس.

كانت الجمال تكره السير فوق البقع الحصبائية لما تسببه من جروح وآلام لأخفافها، وكان يحدث كثيراً أن يقوم الرفاق بتقديم العلاج والرعاية في المعسكر لحيوان أو أكثر. وكان العلاج الذي يقوم به العرب في مثل هذه الحالات يتكون من الترقيع حيث تُقطع شريحة أو رقعة مستديرة من الجلد حسب الحجم المطلوب وتغمس في السمن الذي يلطخ به الخف المصاب أيضاً. ويشد رجال أقوياء الجمل إلى الأرض بينما يقوم الإسكافي -غالباً أبو جعشة- بخياطة الرقعة مع أخمص القدم بمخرز به خيط من الجلد حتى تصبح جزءاً من الخف، ثم تزال الأطراف الخشنة أو تُنعم وينهض الجمل بعد العملية ويشق طريقه في الحصباء باطمئنان. ويستخدم حاليّاً جلد الإطارات الداخلية لعجلات السيارات، وكان لدينا مخزون منها. وقد تعاطفت مع محنة الجمال المصابة لأنني عانيت من ذلك كثيراً، مع أن العرب قد اعتادوا

على ذلك بشكل مذهل. كنا دائماً نشاهد -ونحن نمشي بتثاقل عبر بحر الرمال- سلاسل الكثبان من حولنا، إما قريبة أو على مد البصر. ودخلنا بعد فترة سهلاً عرضه ثلاثة أميال ويتكون من خطوط متناوبة من رمال منخفضة وحصباء تتناثر عليه أعشاب قليلة أطلقنا عليه اسم «شقة أبو نهار» لأنه كان يشكل عتبة بقعة فسيحة كانت فيما مضى أراض رعوية يرتادها البدو كثيراً وتُعرف باسم «مربخ أبي ليلى»- من الليل. فقد كانت بالحق تشكل شريطاً أسود عند الأفق. قال سالم: «في الأيام الخوالي عندما كانت الحياة تدب وسط هذه الصحراء، كانت الأرض تبدو سوداء من كثرة الشجيرات ولذلك أطلقوا عليها هذا الاسم». وكان ذلك مجرد سبب مرتجل ساقه سالم لأنني لا أشك في أن الاسم مشتق من أبو ليلة، وهو كنية شيوخ الغفران التي ينتمي إليها زايد.

كان سهلاً رمليّاً هين التموج يقرب لونه إلى الأبيض أو الرمادي أكثر من الأسود إذ لم يبق شيء من المراعي القديمة فيه إلا من جذوع الشجيرات الميتة التي طمرتها الرمال جزئيّاً. كان الوقت قد بلغ منتصف النهار وقافلة الأمتعة أمامنا تتلاشى تقريباً من أمام عيوننا، وعلى الرغم من أن التوقف المعتاد لأداء صلاة العصر كان سيعطلنا كثيراً، فقد وقفنا لأدائها، ثم ركبنا بعدها الجمال لنواصل سيرنا، ولكننا اضطررنا إلى صرف النظر عن مواصلة السير لأننا كنا مرهقين. وبدا الوصول إلى الطويرفة قبل مغيب الشمس، ونحن بهذه السرعة البطيئة، في عداد المستحيل إذ كنا ننوي قضاء الليل هناك حتى يكون لدينا متسع من الوقت في الصباح لأداء بعض الأعمال. وتتسم مسيرات ما بعد الظهر في هذه الصحارى بأنها منهكة وموحشة وكئيبة تبعث إلى النعاس

وخاصة عندما تكون الرياح جنوبية، والقوم صائمون. فقد انقضت ثلاثة أسابيع من شهر رمضان، وكان الشعور بالكبت والتقيد أكثر من أي شيء آخر هو الذي بدأ يضايقنا، وكانت كؤوس الشاي الثلاثة وكأس من لبن الإبل التي كنت أتناولها تجعلني لا أشعر بغصة العطش وإن كنت أجد أحياناً بأن جرعة من الماء البارد هي كل ما أتمناه في هذه الدنيا. أما بالنسبة للآخرين فقد كانت القهوة هي التي تهمهم، ولذلك كانوا يجدون سلوى وعزاء في الوقت الذي يقضونه في إعدادها إلى حين موعد الإفطار وهم يراقبون الشمس تنحدر نحو المغيب. وكان من المعقول أن نغطي أكبر مساحة ممكنة من هذه الصحراء خلال هذه الفترة التي أصبحت المرطبات فيها محرمة، ولكن لم يكن هناك منطق في رجال يسيرون وهم كارهون لكل خطوة يخطونها بعيداً من منازلهم، كما لم يكن هناك صيد يلهيهم عن التفكير في ذلك.

نصبنا المخيم بجانب صف من الكثبان المخفضة في بقعة جرداء إلا من بعض النباتات الميتة، وكان الليل بارداً بعد سكون الرياح عند المغيب ووصلت أدنى درجة حرارة إلى ٣٧ْ ف، وكنت أرتجف من البرد وأنا أخرج من الخيمة لتناول طعام الإفطار في العراء كالعادة، وكان مازال لدينا لحم من الجمل الذي ذبحناه في مقينمة. قال صالح وهو يمد يده بقطعة من الكرش: «كل بعضاً من هذا إنه جيد».

وفي اليوم التالي رأينا بقعاً كثيرة من الحصباء وسط الرمال الضحلة كما صادفنا أربيتين منخفضتين من حجر الأديم المغطى بالحصى الذي يوحي بقوة وجود مجرى وادي. وترجل زايد وسالم معي لاستكشاف الأرض بحثاً عن الصوان وعندما التقط سالم رأس سهم جيد الشكل صاح: «انظر! فقد

كشفت الرمال عن بئر». «صاح زايد. هل تعرف بئراً هنا، يا سالم؟». «لا. لا آبار معروفة في هذه المنطقة إلا آبار الطويرفة». أجاب زايد: «ولكنها بئر، ربما جاهلية، إذ لم يسمع بوجود بئر هنا أبداً». وتمت استشارة عليّ وابن حميد اللذين أكدا بأنهما لا يعلمان بوجود بئر هنا. إذ لم يأت أحد لهذا المكان منذ سنوات، وقامت الرياح بشكل غير مرئي بعملها في اكتشاف مهوى بئر قديمة، وكانت كل الأدلة هناك: الحلقة المرتفعة التي تهبط لمنخفض يختنق بالرمل. واتفقنا على إطلاق اسم «بئر مقرن» عليها لإحياء ذكرى نظريتي الخاصة بمصدر هذه المؤشرات أو الدلائل المناقضة للأنهار المنسية. ووصلنا بعد حوالي ميلين، ونحن لا نزال داخل ما يبدو كضفاف واد، إلى نتوء منه يحتوي على آبار الطويرفة الخمسة.

وهنا صادفنا أجزاء من تكوينات واد قديم على مسافات متفاوتة تمتد على طول ٤٠ ميلاً تقريباً من الشمال إلى الجنوب. اشتهرت آبار الطويرفة ومثلها آبار النميلة وبئر فاضل بأن أعماقها تصل إلى ٢٢ قامة، وبدا واضحاً أن كل المنطقة تعلو طبقة عميقة من المياه الجوفية العذبة. وفي الوقت نفسه هناك أيضاً أودية منطقة الأفلاج -من شعيب العَرْس إلى وادي المقرن- الواقعة على مسافة ٢٠٠ ميل إلى الغرب وتحتاج إلى تحديد. وفي ضوء الطبيعة المجزئة للأدلة المتوافرة، لم يكن من الممكن أن نقرر ما إذا كانت هذه الأودية اتحدت في الصحراء لتكوّن نهراً واحداً يجري تجاه الطويرفة ثم يتجه شمالاً إلى النميلة وبئر فاضل ليصب في البحر، أو بالأحرى كانت تجري منفردة لتصب في سهل دلتاوي كبير يقع في منطقة الآبار العميقة. وعلى أية حال فإن البحر لم يكن في تلك الأيام بعيداً جداً في جهة الشرق من هذا الإقليم

لأنه يبدو أن آبار المياه المالحة الضحلة الموجودة على طول الطريق الذي سلكه السيد توماس تشير إلى هذا الاستنتاج. واقتراحي إذاً هو أن علينا أن نتعامل على أساس أن هناك نهراً قديماً منسيّاً، أو أنهاراً أو دلتا، كان يجري إلى بحر أو خليج في هذا الجوار. فإن ما لدينا من الأدلة التي تتمثل في آبار عميقة وقواقع مياه عذبة وبقايا عديدة تشير إلى وجود بشري، تؤيد هذه النظرية. أما وجود خليج فسيح في الجزء الشرقي من الربع الخالي قد يؤيده وجود طبقة الماء المالح الضحلة تحت المنطقة التي تعرف بالخيران، والتي سنصلها في الوقت المناسب.

لا توحي الأدلة المستمدة من الارتفاعات فوق منسوب البحر بأن وادياً منفرداً كان يتجه شمالاً من الطويرفة، لأن النميلة وبئر فاضل[1] كليهما يقعان على مستوى أكثر ارتفاعاً. وينخفض سطح الأرض تجاه الشرق من مقيمنة إلى منطقة النميلة وبئر فاضل التي تبدو كأنها مسطحة عند ذلك الموقع وتحوي إرساب قواقع «شقة الخلفات»، بينما تنحدر الأرض تجاه الجنوب حتى منطقة الوادي في الطويرفة. ويتطابق هذا الانخفاض في الارتفاع مع انخفاض مماثل من الجزء الشمالي من الأفلاج تجاه المنطقة التي حول المقرن. وقد يتطلب الوضع هنا التعامل مع نظامين للأودية بدلاً من نظام واحد: أودية الأفلاج الأصلية المتجهة شرقاً إلى بئر فاضل والنميلة، ونظام مقرن الذي ينساب إلى الطويرفة موازياً لها ولكن من جهة الجنوب. ويبدو لي أن هذا هو أكثر استنتاج مؤقت معقول يمكن أن نصل إليه حاليّاً من واقع الأدلة المذكورة آنفاً.

(١) تقع بئر فاضل على ارتفاع ٧٧٥ قدماً فوق مستوى سطح البحر، والنميلة عند ٨٠٠ قدم والطويرفة عند ٦٠٠ قدم فقط، بينما تقع مقينمة عند ٨٥٠ قدماً، وهذه الارتفاعات أخذتها من قراءات جهاز قياس الارتفاع وجهاز قياس الحرارة.

رأينا ونحن نقترب من الطويرفة من أسفل الوادي البقع الحصبائية مثلّمةً بمسارات الجمال التي تشع من أي بئر في الصحراء، ولكنني لاحظت بينها ثلاثة خطوط متوازية من طرق متعرجة أكثر عمقاً وتجري قريبة من بعضها البعض. ثم اختفت فترة تحت الرمال لتظهر مرة ثانية في الحصباء التي وراءها. وقد اتفق رفاقي على أن هذه الخطوط لافتة للنظر فعلاً، ولكنهم عجزوا عن تقديم أي تفسير لها مما دفعني إلى أن أحزر بأنها قد تكون أجزاء من طريق قافلة قديم كان يمر بهذه البئر، وكانت الخطوط التي رأيتها تقع في اتجاه جنوب غربي إلى شمالي شرقي، وربما كانت تقود إلى مقينمة أو إلى الأفلاج مباشرة.

تقع آبار الطويرفة الخمسة في منخفض رملي تحيط به سلسة من كثبان رملية ترتفع إلى ٤٠ أو ٥٠ قدماً وتجري على طول الجانب الشمالي من الوادي. ونظراً إلى أن البدو الرعاة كانوا قد هجروها منذ ثماني سنوات حين حل الجفاف، فقد كانت الآبار مختنقة بالرمال، ويمكن تتبع آثار البئر الرئيسة بكل وضوح، ولم يكن صعباً تحديد مواقع الآبار الأخرى من الأجزاء المكشوفة من أطرافها، ونثار الأنقاض التي تستخرج من مهاوي البئر عند تنظيفها. وفي قاع إحدى هذه الآبار كانت تقبع جثة رجل قُبر قبل سنوات عندما انهار المهوى عليه وهو يقوم بتنظيفه. ويوجد الماء في طبقة صخرية – ربما من الحجر الرملي– ولكن الآبار قد حفرت في تربة غرينية سميكة يمكن أن تهوى وتنهار كما حدث من قبل. وشملت الغنائم التي جمعتها من أكوام النفايات أحجار الرحى وشظايا قواقع بحرية جلبها الإنسان، وشرائح من الصوان وأقراص الدّراج وحدوة حصان عربية.

ذهب علي وفراج بعيداً عن طريقنا في الصباح ومعهم بندقيتي وذخيرة على أمل أن يجدوا شيئاً يصطادونه، وأخبرتهم بأن لا يطؤوا الطيور الصغيرة التي يلتقيان بها مصادفة، وها هم قد رجعوا محملين بأربعة أرانب برية وقبرتين واثنين من طائر الأبلق[1]. وقبل مغيب الشمس رافقني علي إلى قمة كثيب يطل على المنطقة المجاورة، وكان يبدو قلقاً كعادته عندما نحل بقرب ماء توجساً من قدوم قطاع الطرق إلى هذه الآبار البعيدة يحدوهم الأمل في إعادة فتحها من قبل الآخرين. ولكنني طمأنته بأننا وحيدين هنا ولا أحد يراقبنا، كان تعليقي: «يا له من خلاء فارغ. الآبار ميتة -جافة- وكل ما حولنا مجدب وقاحل . . لاشيء غير الرمال المتموجة! كم كان بلداً جميلاً في تلك الأيام الخوالي». فأجاب علي: «قبل عشر أو اثنتي عشرة سنة رأيت الوضيحي هنا -نعم العديد منها- في هذه الرمال. إنها قمة الرياضة صيد ذلك الحيوان، وإذا شاء الله ستكون أول أجنبي يراها في بيئتها الخاصة، وبمشيئة الله سنصطادها قريباً حين نصل إلى مراع أفضل، وستمسك أطفالها وتأخذها إلى بلادك كما فعل النصراني العام الماضي». - وكنت قد أخبرته بأن السيد توماس قد أمّن عينات حية لإحضارها إلى إنجلترا، وعن الهدية التي تتكون من زوجين من المها التي بعثها ابن سعود إلى الملك جورج قبل سنوات- . «وسأرشدك عبر الكثبان لتصطادهم بنفسك. فلا تخف! سترى الكثير منها إن شاء الله، إنها تتبع المراعي حيث توجد، على الرمال أو السهب، وإن كانت تفضّل الأخير إذا كانت المراعي جيدة. ولكن الرمال هي الملجأ أو الملاذ من الرجال والخطر، وهذه السنوات الثماني العجاف قد جعلت المكان مقفراً من الحيوانات».

(١) أدين بالعرفان للسيد ن. ب. كينير من المتحف البريطاني لمساعدتي في تعريف كافة العينات التي حصلت عليها. انظر الملحق.

هبطنا المنحدر والشمس آيلة للمغيب والتحقنا برفاقنا وجلسنا نتناول طعام الإفطار. فقد قضينا ثلاثة أيام بلا ماء وأمامنا على الأقل ثلاثة أيام أخرى مماثلة، وكان أن دار حديث طويل بين رفاقنا حول مسيرة طويلة في الغد، وكان ذلك دأبهم عندما نقرر القيام مبكراً أو السير أثناء الظهر، ولذلك لم أعر اهتماماً لما يدور، ولكنهم كانوا جادين هذه المرة، فقد كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً عندما صحوت على صوت صياح ينادي إلى طعام السحور. وبعد ذلك مباشرة شرعت كعادتي في هذا الوقت بتدوين مذكراتي وأعنى بالأشياء التي جمعتها، فإذا بهم يطلبون إخلاء خيمتي، وبعد موافقتي أخذوها وتركوني في العراء أكمل ما بدأته من عمل. وبحلول الساعة الرابعة والنصف صباحاً كانت قافلة الأمتعة قد تحركت فعلاً تحت إرشاد سالم الذي كان هو وعلّي يحتكران أسرار هذه الرمال فيما بينهما. كان الجو ما زال مظلماً والهواء بارداً ومنعشاً وكانت الظروف أقرب إلى الشتاء إذ وصلت أدنى درجة حرارة إلى ٣٤ْ ف. وواصلت عملي مستعيناً بإبريق شاي أتدفأ به بينما تجمع رفاقي الذين تخلفوا معي حول النار يحتسون القهوة حتى حان وقت الصلاة، وبعد أدائها تلفعوا بأغطيتهم وراحوا في سبات عميق حتى طلوع الشمس. وكانت الساعة قد قاربت الثامنة صباحاً عندما بدأنا السير، وبقي الجو بارداً منعشاً طوال اليوم، ومع بزوغ الشمس هبت ريح شمالية ظلت تشتد تدريجيّاً ثم سكنت تماماً عند المغيب.

وأمامنا كان يقع امتداد بني مكسِّر الفسيح الذي يتكون من سلاسل كثبانية متوازية طويلة، وبدا لنا وكأننا وسط الصحراء الجنوبية العظيمة؛ فقد أخذت الكثبان القصيرة الامتداد، والتي رأيناها كثيراً تنتشر وسط الرمال حتى

اليوم، تفسح المجال فجأة لحواجز رملية مرتفعة جداً. وبين السلسلتين الأوليتين كان يقع واد عريض من الرمال المتموجة تتخلل أرضيتها بقع كبيرة من الحصباء أو الصخر المكشوف التي تتناثر عليها الحصى. وعندما وصلنا سلسلة الكثبان الأولى درنا على طول طرفها مقتفين آثار قافلة الأمتعة حتى قاربنا قمة بجانب كثيب مرتفع، وهناك طلبت من الفريق التوقف لنلقي نظرة عامة على المنطقة من هذه القمة. ومن هناك اطلعنا على وادي حصبائي تحتنا، وبعيداً خلف الوادي رأينا سلسلة وراء سلسة من الكثبان شبيهة بتلك التي كنا نقف عليها وهي تمتد إلى ما لا نهاية.

هبطت ومعي زايد وعلي منحدر الرمل الحاد واللين، والذي يرتفع إلى ما بين ٢٠٠ أو ٢٥٠ قدماً، من الجانب البعيد للتنقيب في الأراضي الصخرية بحثاً عن الصوان أو القواقع. وكانت جمالنا تخور بصوت عال وكأنها تحتج ونحن ندفعهم تارة ونسحبهم تارة أخرى إلى أسفل المنحدر وأقدامها تغوص في الرمل إلى نصفها. وبدت السلسلة وكأنها تمتد إلى حوالي خمسة أميال على طول خاصرة الوادي في اتجاه شمال شرق - جنوب غرب. وبمجرد وصولنا إلى السطح السفلي وجدنا الصوان وعلى مسافة قصيرة صادفنا الآثار البيّنة الدالة على وجود بئر أخرى مجهولة. فقد اتفق سالم لاحقاً بأنه لم يعرف بوجود بئر في هذا الموضع وكان أن أطلقت عليها اسم بئر مكسِّر، وتقع على مسافة حوالي خمسة أميال إلى شرق الجنوب الشرقي من الطويرفة، وثبت أنها آخر أثر لنشاط بشري في منطقة الفيضانات القديمة هذه.

وخلف هذه السلسلة، كانت الرمال الصحراوية تمتد دون انقطاع. وواصل بقية الرفاق سيرهم متتبعين آثار أقدام قافلة الأمتعة ورأيناهم وهم

يعبرون سلسلة رملية بعيداً في المقدمة، أما نحن فقد سرنا عبر الوادي متخذين طريقاً أقصر لنلحق بهم. وعبر منحدر حاد وصلنا السلسلة الثانية ثم من خلال طريق سهل وجدنا أنفسنا فوق السلسلة الثالثة، وبعدها اجتزنا منطقة تلال رملية متموجة تمتد نحو الطرف البعيد من بئر مكسَّر. وكان عرضها من طرف إلى الآخر حوالي خمسة أميال وبعدها منطقة سعافيج حيث قضينا بقية اليوم وجزءاً أكبر من اليوم التالي.

كانت هذه المنطقة تختلف عن المنطقة السابقة في أن هذه كانت عبارة عن محيط من أمواج الرمل مقلّم بسلاسل قصيرة من كثبان أكثر ارتفاعاً كأمواج تتكسر على شاطئ صخري، وكانت السلاسل الكثبانية طويلة ولكنها مجزأه إلى أجزاء ذات أطوال متوازية على عكس الأولى التي كانت طويلة ومتصلة. أما طريقنا الذي ولج المنطقة من خلال ثغرة بين سلسلتين من هذه السلاسل -وخلفها من جهة اليمين وادي شقة بركان العميق المدغل الطويل- فكان يجري من ثغرة إلى ثغرة عبر ما لا يقل عن عشرة من هذه السلاسل المتقطعة، حتى خرجنا منها إلى منطقة مرتفعة تتكون من تلال رملية خالية من معالم كثبانية مما غيَّر كثيراً من التناسق الشبيه بالمحيط الذي اتسمت به المنطقة السابقة. ولم نجد في هذه المنطقة كلها ما يثير الانتباه باستثناء شجيرات العبل التي ظهرت ثانية على التلال الرملية العارية بعد غياب طويل، وكان ظهورها في الوقت المناسب إذ كانت علامات العطش قد بدأت تظهر على الجمال التي قضت الأيام السابقة تقتات على شجيرات الحاذ شبه الجافة، ووجدنا بين أغصان إحدى هذه الشجيرات عش غراب مهجور ورأينا زوجين منه في اليوم التالي يبنون عشهم، وطيور صغيرة

أخرى عديدة منها نوعان من القُبَّرة وطائر أبو بُليق، بينما حظي صيادونا بصيد جيد من الأرانب البرية.

كان رفاقي عند كلمتهم، إذ لحقنا بقافلة الأمتعة في الساعة الخامسة مساء وقد اختاروا موضعاً لقضاء الليل فيه وذلك بعد اثنتي عشرة ساعة من السير المتواصل تقريباً، وقطعنا أثناءها حوالي ثلاثين ميلاً، وكان هذا أفضل أداء منذ أن بدأت الحملة. وبينما كان الرجال ينصبون الخيام اتجهت نحو رابية رملية منخفضة لأمسح المكان الذي حولنا، ووجدت هناك الغلام محمد الذي كان يراقب الجمال وهي ترعى في الوادي. وسرعان ما لحق بنا علي، وبينما نحن جلوس نتجاذب أطراف الحديث، لم أستطع أن أكف عن التفكير في مسألة كيف ولماذا نشأت مدينة كبيرة وازدهرت في مثل هذا المكان الموحش؟! قد أجد الإجابة صباح اليوم التالي. ثم تحدّث علي طويلاً عن هذا الموضوع مع أنه كان يتحفظ بعض الشيء حتى لا يرفع من أملي كثيراً، كما كان ثمة شيء آخر يقلقه، ولهذا وجه حديثه إلى موضوع آخر: الحديث عن الغارات وما شابه ذلك، وبدأ يشرح لي نظام تقسيم الغنيمة التي تُسلب خلال هذه الغارات وكيف أن نصيب شيخ أو قائد الفرقة يزيد على الآخرين، أي ينال شيئاً إضافيّاً فوق نصيبه كفرد ونصيب جمله وأي حيوان زُوّد به أولئك الذين لا جمل لهم، ويترك خمس الغنيمة كنصيب القبيلة أو الحكومة حسب الحالة، وإن لكل شخص مهم أو رئيس نصيباً إضافيّاً بتلك الصفة بينما ينال الرئيس الأعلى نصيبه أيضاً.

وهناك الدليل- وهو شخصية مهمة في مثل هذه الظروف- الذي ينال نصيبه بالإضافة إلى ما يكسبه من صلاحياته الأخرى. قال علي بإصرار:

«وكثيراً ما كنت أشارك في هذه الحملات كدليل وأنال نصيبي على ذلك».
ثم واصل حديثه وهو يحدقني بنظرة مفعمة بالتلهف والتوسل والاستعطاف: «قل لي: هل أوضح ابن جلوي بأنني سأكون دليل هذه الحملة؟». وأجبته بكل صدق بأنني وُعدت بتوفير عدد من المرشدين لكل جزء من تجوالي. «ولكن لا تخف، سأَكون طيباً معك طالما خدمتني بإخلاص فيما أكلفك به». ثم أضفت قائلاً: «هل ترى هذا المنظار؟ سأهديك إياه بالإضافة إلى هدايا أخرى سأمنحك إياها عندما نصل إلى حضرموت». واضطرمت عيناه بالجشع. أجاب: «حاشا أن أطلب منك هدايا. لا رغبة لي في هذه الحملة إلا خدمتك أنت والذي أرسلني معك، وقد غضبت عندما سمعتك يوماً توعد سالماً وسويداً بالهدايا عندما عثرا على قطعة الحديد. فلا تنس أنني دليلك -وليس هم- في هذه الأنحاء».
بعد مضي ثلاثة أسابيع على هذا الحديث كان علي لا يزال متلهفاً بالغيرة والقلق. وفي صباح اليوم التالي أُعدَّت قافلة الأمتعة للرحيل عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً تحت قيادةَ سالم، وفي الساعة الثامنة بدأ الباقون يبحثون عن موضع وبار، وكان عليٌّ في غاية الانتباه؛ وبطريقة عادية وطبيعية انفصلت عنه وتركته يسير وحيداً إلى يمين القافلة وهو يقود جمله.
وانخرطت أنا في حديث مع سعدان وابن معدِّي ونسيت كل ما يتعلق بعلي.
وكان المنظر أمامنا يفتقر إلى كل معالم.. محيط هادئ من الرمال المتموجة.
بدأ ابن معدي حديثه قائلاً: «إنها شبيهة بالمنطقة التي حول فرجة التي توجهت إليها العام الماضي بتكليف من ابن جلوي. وسقينا إبلنا عند بئر الحلفاء، ثم توجهنا إلى بئر فاضل عن طريق القصب(*)، ثم توقفنا للسقي

(*) القصب: مورد مياه تابع للمنطقة الشرقية وهو غير القصب المدينة المعروفة في منطقة الوشم بنجد. (المراجعون).

عند بئر فضيلة التي تقع بين بئر فاضل وفرجة . وقد تكون البئر قد طمرت بالرمال الآن لأننا تركناها مكشوفة دون غطاء وقد خرجنا أساساً لنعاقب بعضاً من رجال الغفران ، ولذلك تركنا بئرهم تنتهي» .

وبعثنا إبلنا لترتوي عند بئر البريهيمة حيث الماء طيب وإن كانت بعيدة إلى حد ما . وأعرف أن توماس ورفاقه قد توقفوا عند بئر فرجة للسقي، وبعد مروره -أي بحوالي شهر- أرسلت الحملة الانتقامية جنوباً إلى بئر هادي وشنَّة . وتعد منطقة سعافيج، التي يبلغ عرضها حوالي ٤٠ ميلاً، وتقع على طول خط طريقنا الشرقي، جزءاً من منطقة السنام، وبعدها من جهة الشرق كانت تقع منطقة مماثلة تُعرف بالطراعيز ، وهي منطقة مرتفعة تتناثر فوقها تلال رملية منعزلة . وكان علي حريصاً على وصف هذه الغرابة والخصوصية لي، ومنه عرفت النقطة التي حددت اجتيازنا منطقة لمنطقة أخرى، أي الحد الفاصل بينهما .

وبرز مخروط منعزل يصل ارتفاعه حوالي ٥٠ قدماً من مستوى تجويف الكثيب العام . صحتُ وأنا أنظر لعلي ليؤكد ما أقوله : «هذه هي بداية طراعيز»، ولكنني لم أجده . . فقد أدركت أنني لم أره منذ خمس ساعات وكان السبب واضحاً لي، فقد تغيب لأنه كان قد عزم على الاستحواذ على كل الجوائز لنفسه، فقد امتعضت من تصرفه إذ تركني دون دليل في البراري حيث لا يمكن لأي دليل آخر غيره أن يضيف كثيراً للمعرفة الجغرافية التي كنت أبتغيها، وشعرت بامتعاض أكثر لهذه النظرة التجارية للموضوع برمته من قبل علي .

واصلنا السير وأنا أشعر بنوع من الإحباط لأننا لن نتمكن من الوصول إلى هدفنا خلال ذلك اليوم، ولم توح رتابة الصحراء التي لا تضارى

بحدوث شيء يقلق ذلك الهدوء الساكن الذي يحيط بنا. وفي حوالي الساعة السابعة والنصف أبصرنا على بعد أميال أمامنا قافلة الأمتعة وهي تسير دون انتظام، ومتى ما نلحق بها يعني بأن الوقت قد آن للمبيت، ولذلك طلبت التوقف لأداء الصلاة حوالي الساعة الرابعة، ولم يبد رفاقي رغبة في التوقف كثيراً، ولذلك لم أتمكن من إطالة التوقف أكثر من عشر دقائق لأداء الصلاة، ثم واصلنا السير بعدها مباشرة.

وفجأة ظهر من على يميننا راكب وحيد وهو يلوح بيديه من بعيد، قال زايد «انظر! إنه علي يدعونا إلى التوجه إليه»، فقلت له: «انظر هنا! هناك قافلة الأمتعة مع سالم بعيدة أمامنا، وسأقتفي أثر سالم، فهو مرشدنا ودليلنا لأن عليّاً قد هجرنا منذ مدة طويلة». «الله يعطيك القوة والعافية!» صاح بعض الرفاق عندما اقترب مني علي وهو يقول: «لدي أخبار سارة إن شاء الله» وبقيت صامتاً وأنا أواصل سيري كأنني لم أسمع شيئاً: «تعالوا إلى هذا الطريق! فقد أخطأ سالم في اختيار الطريق الصحيح! إنها هناك في الخلف!». فنبهني زايد بقوله: «إنه يقول بأن علينا أن ننحرف يميناً تجاه الجنوب إلى الجهة التي أتى منها، إنها هناك!». أجبت: «أنا أعرف ذلك، ومع ذلك فإنني لاحق بسالم».

واصلت السير ونحن نتجادل إلى أن وضع سالم حداً لذلك. وكنت في الحقيقة أرغب في المبيت حيث نحن ونترك استكشاف الخرائب إلى صباح اليوم التالي، ولكني أذعنت تحت ضغط المجموعة، وسرنا في الاتجاه الذي أشار إليه دليلنا الرئيس الساخط. ولبرهة من الزمن سار علي بجانبي صامتاً بعد أن تأكد من السبب وراء عدم الرضا والغضب الذي ألم بي. قال علي

وهو يختلس النظر إليّ: «لم أكن أعلم أين الموقع ولم أرد أن أقودك هنا وهناك عبر هذه الرمال». أجبت: «لكنك تركتنا دون دليل بالمرة لتتجول كما تريد وكما تمليه عليك رغبتك». قال علي: «لقد أخبرتُ زايداً بالاتجاه الذي يجب أن نتبعه، ولم تكن هناك تلال أو أودية في طريقنا لأسميها لك، وكل ما هناك هي سعافيج وطراعيز». قلت: «ومع هذا ما كان عليك أن تذهب دون أن تبلّغني». أصررتُ وفي ذهني الكثير عن ما سيأتي وما ستتمخض عنه الأيام أكثر من ما بدر منه من تصرف. واصل علي كلامه مؤملاً أن ألين بعض الشيء: «انظر يا شيخ عبد الله! لقد وجدت القلاع، إنها هناك، سنراها قريباً، وإليك خبراً ساراً: إنني لم أرها مكشوفة أكثر على السطح كما هي الآن.. وكثيراً ما تدفنها الرمال كلياً، ولم أكن أعرف عنها حتى رأيتها، انظر! لقد أحضرت معي حجراً من أحد المباني لأريك إياه». وأخرج من جلبابه طوباً مربعاً من خَبَث زجاجي ذي لون أزرق، وداكن كأنه أُخرج من فرن.

الفصل الثالث

وبّار

ومن قريّة ترسل الشمس أشعتها الحارقة على المدينة

فلا تلم الدليل الذي يبحث عنها دون جدوى

فالقوة المدمرة قد أحالتها أرضا يباباً .

ولم تستثن حتى ما بها من ثياب قطنية وحريرية

أسمع عاداً وابنه كنعاد، يرويان:

كم هي جميلة مدينتي المحصنة وبار

وما تحتوي إسطبلاتها من الجياد التسعين

والتي بها أطارد الطرائد من هنا وهناك

تسعدن مخصياّ تضمها حيطان المدينة

يخدمونني وهم يرفلون في ثياب متألقة جلبت من الشرق والغرب

وتسعون عشيقة ذوات صدور ممتلئة وأرداف مدورة

يروحون عني في صالات القصر

كلها اندثرت الآن وذهبت إلى غير رجعة

ولا أحد يستطيع إصلاح ذاك الدمار

لا أمل في ذلك أبدا

أدرج ابن جلوي طلبي الخاص بزيارة وبَار ضمن برامج هذه الحملة الاستكشافية، فقد كانت لديه فكرة مبهمة بأن وبَار تقع في منطقة ما في الربع الخالي. أما رفاقي فلم يكن أحد منهم قد سمع بالأسطورة إلا القليل، ومن هؤلاء كان اثنان هما فقط الذين استطاعا ربطها حسب إدراكهما ومعرفتهما، وهما علي بن جهامان وسالم بن سويلم، بينما كان لدى سويد وابن حميّد معرفة ثانوية مبهمة عن موضع وبَار، وكان لابد أن تكون وبَار مدار حديثنا خلال الأسابيع السابقة. وقد وضعت في افتتاحية هذا الفصل ترجمة تلقائية لنص محرّف من قصيدة شعبية انتزعتها من فم علي، ولا أدري أنا ولا هو شيئاً عن مصدرها، ولكن حدث أن روى لي البيت الثاني عندما كنا نبحث عن بئر حفاير بن الأدهم المطمورة بالقرب من طرف الجافورة، وبدأت ألاطفه وأتملقه حتى انتزعت بقية الأبيات منه وجعلته يكررها مراراً وتكراراً حتى اكتملت الأغنية بأفضل شكل ممكن. وتبيّن لي أنه لا يعرف أشعاراً أخرى تتعلق بهذه المدينة الأسطورية، وأسرني بصفة خاصة الشكل الذي ظهر به الاسم أوبار Aubar، وهو جمع وبر[1]، وقد نطق عليٌّ المقطع اللفظي الأول بواو عميق غير معهود به في الأبجدية العربية.

يعطي ياقوت الحموي، والذي يُعد المرجع التقليدي لهذه الأسطورة (مصادره من الهمداني وآخرين) الاسم «وبار Wabar»(*). وبهذا الشكل

(١) يعني شعر الجمل وكذلك كلمة «أهل الوبر» أي أهل خيام الشعر.

(*) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ص٤١٠-٤١٣. (المراجعون).

سمعت أول ما سمعت أخبار المدينة من الرجال الذين رافقوني في رحلتي لوادي الدواسر عام ١٩١٨م [١٣٣٧هـ]، وفي هذه المناسبة أخبرني جابر بن فرج عن كتلة الحديد الرائعة ، والتي تشبه الجمل، الموجودة في وسط الرمال الجنوبية. فقد أعلن بأنه رآها بأم عينيه وأشار إلى موضعها مبيّناً الاتجاه والمسافة من الأفلاج حيث كنا آنذاك. وعند حديثه عن هذه الكتلة الحديدية، استخدم جابر مصطلح «الحديدة» بمعنى «قطعة من الحديد»، كما ذكر أيضاً أنها موجودة وسط خرائب تدعى الجافورة. وسمعت من مصدر آخر، خلال هذه الرحلة، عن وجود مجموعة من الخرائب في نفس هذه الرمال والتي يقال إن البدو يلتقطون منها مخلفات بشرية قديمة. وأخذت لهذا الموقع قياسات لتحديد الاتجاه والمسافة من الأفلاج مع اسم وبار، كما استثنيت تفاصيل الأسطورة التي نسجت حولها، والتي تفترض وجود علاقة بين مدينة عاد بن شدّاد «كنعان؟»(*) القديمة مع خرائب أحدث تعرف باسم «قصيرات عاد» الموجودة عند تخوم منطقة الأفلاج.

ويصعب في مثل هذه الظروف استنباط المعلومات كاملة لغموضها وقلتها، وكان عليّ أن أجمع ما لديّ من مواد وأنشر نتائج ما توصلت إليه من تحرياتي في مقال شمل أيضاً وصفاً لجولاتي الأولى في الجزيرة العربية[1]. كما حاولت أن أضع على الخريطة مواقع الموضعين تحت أسماء: الجافورة ووبار.

وقد تسبب اسم الجافورة لتشيزمان صعوبات جمه أصابته ببعض الإحباط لأنه طاف وهو في طريقه إلى يبرين، حول كل الطرف الغربي للجافورة التي

(*) يرد في الكتاب بشكل كينعاد Kin'ad، أو كنعاد. (المراجعون).

(١) «قلب الجزيرة العربية» المجلد الثاني ص ص ٢٢١ - ٢٢٢.

وجدها تقع كثيراً إلى شمالي الخرائب التي أشرت إليها . لا أنكر أن استخدام الاسم كان خاطئاً، ولكنه كان خطأ جابر ولا دخل لي به، مع أنني أتحمل بعض المسؤولية فيه، وذلك لأنني دفعته إلى تسمية المكان دون أن أدرك بأنه كان قد سبق وأعطاني الاسم المحلي ألا وهو «الحديدة» . فالفخذ الذي ينتمي إليه البُحيح، يتمركز فعلاً في رمال الجافورة، وفي مثل هذه الظروف ربما فكّر في حالة من اليأس بأن هذا الاسم سيكون له وقع أثير عندي .

وعلى أية حال فقد تركت تلك المناسبة انطباعاً مؤداه وجود موضعين قديمين متمايزين في الصحراء الجنوبية العظيمة، تفصل بينهما مسافة كبيرة . وعبّرت آنذاك عن أملي ونيتي في استكشاف المدينتين وأجزاء أخرى من الربع الخالي يوماً ما، إذا كان ذلك ممكناً . وبقدر ما يهمني فقد ظل المشروع يراوح مكانه لسنين عديدة ولم أعد أسمع شيئاً عن الخرائب الغامضة التي أصبحت شاغلي . وخلال الفترة نفسها كان السيد توماس يسمع بدوره وبطريقة مبهمة عن هذه الخرائب نفسها خلال بقائه في عمان . وأثناء مرحلة مبكرة من رحلته التي قام بها العام الماضي عبر الربع الخالي، أشار مرشده إلى شريط عريض من مسارات القوافل تقود في اتجاه الشمال الغربي من السهب المحيط بالصحراء إلى رمال «رملة الشُّعيت» . وكما قيل له، كان ذلك هو الطريق المؤدي إلى أوبار Ubar .

وهذه التهجية للكلمة مثيرة لأنها توضح ما يُزعم بأنها النطق المحلي للمرشدين، وهم رجال من قبائل كرْب والعَوامر وآل كثير، التي تعيش في التخوم، مما عرضهم لفساد لغوي أجنبي . فالكلمة نفسها شكل صعب من العربية، ويبدو أن توماس يدرك صلتها الواضحة بالشكل التقليدي لـ وبار

حتى أوضحت الحقيقة هنا[1] . ومع ذلك ليس ثمة شك بأن مدينة الرمل الأسطورية والتي يشار إليها في الكتب الكلاسيكية كـ وبر Wabar أو أوبار Au-bar و كـ يوبار Ubar وبار وأوبر Obar في الاستخدام العامي، هي مدينة واحدة وليست عدة مدن، وهذه النقطة تقفل باب النقاش والجدل، مع أنها مفتوحة لأولئك الذين سيسعون في البحث عن الخرائب في مكان آخر بدلاً من الموضع الذي وصلت إليه الآن بهدف العثور عليها وبصحبة مرشدين يدّعون بأن في مقدورهم تحديد موقعها.

وقد اقترح توماس في خريطته -معتمداً على قوة المعلومات التي جمعها- موضعاً محتملاً لمدينة أوبار Ubar القديمة عند خط الطول ٣٠ ٥٠ْ شرقاً، وخط عرض ١٩ْ شمالاً، وهو موضع يبعد بحوالي ٢٠٠ ميل جنوب شرقي الموضع الذي حددته، قد توجد به خرائب، لكن قائمة المخلفات التي وجدها مرشده معيوف الرشيدي، الذي كان قد نسي موقعها الدقيق «بين متّان وفَسد Fasad»، لم تكن بذات أهمية. ولم تغوني تجربتي الشخصية من أن أحوّل رحلتي إلى ذلك الاتجاه، وكان في إمكاني عمل ذلك من شنَّة. وعلى الرغم من ذلك فإن مسارات القوافل، إذا كانت فعلاً آثار أقدام جمال تقود من مراعي السهوب إلى آبار في الرمال، كانت مثيرة بما يكفي لتصبح جديرة بالدراسة. . وإذا حكمنا على هذه المسارات من حيث اتجاهاتها، فإنها ستقود بالطبع إلى منطقة الأفلاج التي كانت مهمة ومزدهرة فيما مضى، وكانت تشكل سوقاً رائجة لمنتجات غابات قارا من البخور. وفي هذه الحالة لا نستبق الاحتمال بأن هذه الطرق كانت تمر بآبار الطويرفة، حيث، كما أشرت من

(١) «الجزيرة العربية السعيدة» ص ص ١٦١ - ١٦٣ .

قبل، رأيت مسارات مماثلة تشير في نفس الاتجاه وإن كانت ضيقة العرض، ولا يستبعد أنها كانت تمر بالموضع الذي افترضته لوبار أو قريباً منه.

وعلى أية حال خرج توماس -كدأبي- عام ١٩١٨م [١٣٣٧هـ] بانطباع أن هناك موضعاً خربًا ما في مكان ما في الجنوب، وفي وقت لاحق أخبره دليله المرّي -من بني مرّة- عن نفس الخرائب التي تقع أمامي الآن وعن كتلة الحديد الكبيرة التي أخبرني جابر عنها.

وفي فرجة جمع أحد رجاله بعض الكسر الأثرية والزجاج المكسور من أرضية صخرية مكشوفة من الصحراء في بقعة مجاورة كتلك التي وجدناها في أماكن مماثلة أثناء رحلتنا، كما أُخبر عن وجود بئر تُعرف بأم الحديد، تكثر بها المخلفات، -إذ وجد بها كتلتان من الحجر الحديدي- اشتق منها اسمها. وقد قمت بزيارة هذه الآبار لاحقاً، وهي مجموعة من ثلاثة آبار تبعد من فرجة بنحو ميلين، ولم أجد أثراً لأي حديد، وأُخبرت بأن اسم البئر قد اشتق من كتلة الحديد الموجودة في الحديدة. وهي موضع وبار، وهي في الحقيقة الخرائب نفسها التي أشار إليها حمد بن سلطان في حديثه للسيد توماس عندما تحدّث عن أساسات قلعة كانت ترى في وقت مضى ولكنها الآن مطمورة تحت الرمال. وتقع الحديدة على بعد عشرة أميال فقط إلى جنوب غربي فرجة وأم الحديد.

يكفي هذا عن التاريخ السابق للتحريات التي تمت بشأن مشكلة وبار. وبدأت في مرحلة مبكرة من رحلتي هذه أكوّن فكرة عن ما يمكن أن أجده هناك، ولكن الانطباع الذي نقل إليّ -كما في عام ١٩١٨م [١٣٣٧هـ]، وكما استنتج توماس عام ١٩٣١م [١٣٤٩هـ] كان عن وجود موضع أو

موضعين متباعدين؛ وشد سمعي ما ذكره علي عن آبار أم الحديد وهو يتحدث عن المنطقة المجاورة لفَرَجة. ونودي على سالم، كأحد الذين حفروا إحدى هذه الآبار الثلاثة، ليشبع فضولي. قال سالم: «نعم، قبل عدة سنوات مضت كنت أتجول في هذه الأنحاء أرعى الجمال عندما حفرنا بئراً، لأن البئرين كانتا مطمورتين بالرمال، ولكن قطعة الحديد لا توجد هناك. إن موضعها على مسيرة نصف يوم أو أقل في اتجاه الشرق -والله أعلم-. لقد مضت فترة طويلة منذ رؤيتي لها ولكنني رأيتها بأم عيني، ويمكنني أن أجدها مرة ثانية، فقد كنا نرعى بهائمنا هناك، ولكن -والله أعلم- ربما قد دفنت في الرمال، ومع ذلك يمكنني أن آخذك إلى المكان وربما تجدها هناك، ولكن ماذا ستفعل بها؟؟ إنها كبيرة جداً ولا يمكنك أن تحملها بعيداً» فسألت سالماً: «كبيرة إلى أي حد؟» فأجاب بقوله: «حسناً إنها فترة طويلة منذ أن رأيتها، ولكن حسب ما تسعفني الذاكرة إنها كبيرة جداً، كتلة كبيرة من الحديد ربما في حجم الجمل أو أقل بقليل أو أكبر». وقلت مقترحاً: «ربما نقطع منها قطعة نأخذها معنا ونترك الباقي». قال سالم: «نعم قد نفعل ذلك، فقد أخذ فلان ابن فلان قطعة صنع منها سكيناً في الأحساء». قلت: «هل يمكن أن تجد لي ذلك السكين؟ إنني على استعداد لشرائها إذا رغب فلان في ذلك». فأجاب سالم: «الله يعلم، لقد مضى على ذلك فترة طويلة، ولا أدري ما إذا كانت الأداة مازالت في حوزة فلان أم لا». فقد أخذت تلك الآبار اسمها من قطعة الحديد تلك، وإن سعيداً والد[1] جابر الذي رأيناه في يبرين، هو الذي قام بحفر الآبار الأصلية.

(١) من المحتمل جداً أنه جد جابر كما اعتقد.

كان هذا هو مجمل الحديث الذي دار بيننا خلال أيام عديدة. وعندما سألته عن الخرائب التي أخبرني عنها جابر، أجاب: «لا. لم أر أية خرائب، لاشيء إلا الحديد». سألته: «لكن هل يمكنك أن تعثر على المكان وتتعرف عليه حتى ولو كان مطموراً في الرمال؟» فأجاب بقوله: «بمشيئة الله، سأريك الموضع نفسه، ويمكن أن تزيح الرمال من عليها إذا لم تكن كثيفة». فطمأنته قائلاً: «أنا بدوري سأجزل لك العطاء إذا ما أريتني الحديد نفسه!». وقد أثار ذكر الجوائز حفيظة سويد وأبى جعشة اللذين كانا برفقتنا.

وتطوع سويد قائلاً: «هناك خرائب أيضاً، لقد سمعت الناس يتحدثون عنها، ولكن لم تطأ قدماي هذه الأنحاء». ورددت عليه بقولي: «حسناً! سأكافئكم مقابل أية خرائب تجدونها لي هنا أو في أي مكان آخر». وواصل سويّد حديثه: «إنهم يتحدثون عن مدينة -مدينة عاد بن كنعاد- أوبار Obar» سألت سويد: «هل تعرف أين هي؟» فأجاب: «لا. أنا لا أعرف بل عليّ هو الذي يعرف ذلك، إنه يقول بأنها مدينة عظيمة مليئة بالقصور»[1]. وهكذا أُستدرج علي للمشاركة في الحديث، ولكنني آثرت الاحتراس، فقد يتمخض هذا عن عرض جائزة قيمة مقابل العثور على مدينة وبار، والإفشاء عن مكان بيت معزول والتقاعس عن بحث الأماكن الأخرى وإخفاء أسرارها ولذلك رأيت أنه من الأفضل عرض جائزة صغيرة مقابل كل مبنى يعثرون عليه وكان أن عرضت عليهم خمسة دولارات على ذلك. وقد ابتهج كلهم على ذلك ما عدا عليّاً الذي آثر السكوت والاحتفاظ بكل ما لديه من معلومات حول هذا الموضوع في سره حتى ينفرد بي. فقد سمعت

(١) قصر جمعها قصور وتستخدم لأي نوع من البيوت.

من سعدان بأنه وزايدًا أبديا امتعاضاً على هذا العرض السخي للجوائز لكل من هب ودب.

سألت علياً: «هل تدري أين توجد هذا الخرائب؟» فأجاب: «نعم أعرف، فقد رأيتها قبل سنوات مضت، لها حيطان كالقلاع أو القصور ولكنها حيطان من نوع غريب، سوداء كأنها احترقت بالنار، والله يعلم إذا كانت قلاعاً فعلاً، ومع ذلك يقولون بأنها مدينة عاد. . وقد تكون الخرائب مطمورة كلية بالرمال أحياناً، وأحياناً تظهر على السطح، فقد رأيت: أربعاً أو خمساً منها وقد تكون هناك خرائب أكثر». فسألته: «وهل تعرف شيئاً عن الحديد أيضاً؟»: فأجاب: «لا، إلاّ ما وصفه لي الآخرون، فهو غير موجود بين الخرائب إنما بعيد عنها، ربما على مسيرة ساعة أو أكثر، أقول لك فقط ما رأيت -والله أعلم-». وسألت علياً: «هل هي بالقرب من أم الحديد؟» قال علي بنوع من الاحتراس: «نعم إنها قريبة منها. ليست ببعيدة، إذا أديت صلاة الظهر عند القلاع ففي إمكانك الوصول إلى الآبار مع صلاة العصر - هذا كما أتذكره- ولكنني أعرف المكان بدقة وسآخذك إلى هناك». وسألته في مناسبة أخرى: «هل سمعت أو رأيت خرائب أخرى في أي مكان آخر في الرمال؟». فأجاب علي: «لا خرائب أخرى غير هذه، فأنا أعرف الصحراء كما يعرفها الآخرون، خذ مني: لا توجد خرائب غير التي تحدثت عنها».

كانت هذه هي إسهامات رفاقي في مسألة وبار. وكان يسري في يبرين حديث متوارث يكتنفه الغموض عن هجوم شنّه عاد وعن طوق من الحصون ينتشر عند الحدود مما يوحي بوجود استحكامات دفاعية ضد عدو قادم من

الجنوب، وذلك على الرغم من أن الخرائب المرئية هناك وجدت تنتمي إلى تاريخ حديث لا يسهم كثيراً في حل مشكلة وبار. ولكن هناك من الأدلة ما ينم عن مدخل جديد لهذه المشكلة وحلها، ففي مقينمة توجد بئر عميقة من الواضح أن البدو الحاليين لم يقوموا بحفرها، ثم رأس السهم البرونزي، ومسارات طريق القوافل المحفورة في الأرض. ولم تُسهم بئر فاضل بشيء في هذا المضمار، إلا تلك الآبار العميقة، ولكن اكتشاف مجاري أنهار قديمة بين بئر فاضل والطويرفة كان أكثر مساعدة في هذا الاتجاه إذا حظيت نظرية الجفاف الحديثة نسبيّاً قبولاً لدى العلماء. وعلاوة على ذلك هناك أدلة عديدة على وجود الإنسان ممثلة في تلك الأدوات الصوانية التي تم العثور عليها مرتبطة بقواقع المياه العذبة وعند المواضع المدفونة للآبار القديمة، بينما لم يكن هناك من سبب يجعلنا نفترض أن الذين كانوا يستخدمون هذه الأدوات، لم يكونوا مواطنين حديثين نسبيّاً يعيشون في منطقة كانت تزدهر في وقت مضى. ووجدنا في الطويرفة مجرى نهر قديم آخر به آبار عميقة وما ينم عن مسارات قوافل قديمة.

وخلف هذا المكان أطبقت الرمال بشكل قاس على كل دليل يمكن أن يعوّل عليه، كما لم تعد هناك شماعات نعلق عليها النظريات غير القصص الخرافية التي رواها «ياقوت الحموي» في كتابه عن عجائب العالم، وثمرات خيال قصة ألف ليلة وليلة عن زيارة معروف الإسكافي إلى «الربع الخراب» «الخالي؟»[١]، وما يتردد بين الناس عن العوج[٢] وكنعاد ممثلة في أسماء مثل «عوج و«جاليعاد»[٣].

---

(١) طبعة بورتون، الليلة ٩٩٨ والليلة ٩٩٩.

(٢) المرجع السابق، الليلة ٩٨٩.

(٣) المرجع السابق الليلة ٨٩٩.

ومع ذلك، فقد كان هناك واديان وثمة واد ثالث -أهمها وادي الدواسر العظيم- ينتظر الاستكشاف والدراسة والتحري. وقيّض الله لنا أن لا نعبر خطوط وادي الدواسر حينذاك لمصلحة لنا: أليس من الطبيعي أن تقوم أعظم عواصم ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية على ضفاف أعظم أوديتها آنذاك؟ ومع أنني لم أشجّع نفسي في التفكير على مستوى البتراء أو توت عنخ آمون، فقد تقمص ذهني مزاج تلك الرمال المتنقلة الدائمة الحركة، وأصبحت أحلامي كوابيس من مشاهد عن مباني ثكنات طويلة ومنخفضة تدور وهي تشع بشعاع من الحصباء في صحراء رملية. وها أنذا على وشك إزاحة النقاب عن الأسرار التي استحوذت على أفكاري لفترة طويلة، وصادف أن أكون على بعد ميل أو ميلين من نفس الموضع الذي علّمته على الخريطة قبل أربع عشرة سنة اعتماداً على الاتجاهات والمسافات التي أخبرني بها جابر؛ وكنت قد أسميته خطأ بالجافورة؛ وأطلقت اسم «وبار» بناء على معلومات أقل دقة، على الموضع الآخر الذي يقع على مسافة ما تجاه الجنوب الغربي. ولو كنت مع ذلك قد حصرت نفسي على الاسم الأخير وعلى المكان الذي أشار إليه جابر بأنه موضع الخرائب وكتلة الحديد، لكنت الآن جديراً بالشرف الذي تستحقه ذاكرة رفيقي الجذاب. فإنه من النادر الحصول على مثل هذه الدقة المتناهية من دليل عربي، ومن مسافة بعيدة عن المكان المعني.

سرنا متثاقلين لنصف ساعة عبر رمال مقفرة، وكان الإعياء بادياً على وجوهنا وخاصة بعد أن بدأت الرياح تهب من الجنوب ومعها ارتفعت الحرارة والرطوبة في الجو فجأة صاح علي: «انظر!» وكان أن ألقيت أول نظرة على وبار- خط خفيف ومنخفض من الخرائب يبرز فوق موج من الرمال الصفراء،

وتوقفت لألتقط صورة لذلك المنظر المشهود الخالي من الإلهام والذي اختفى ثانية عندما هبطنا إلى منخفض ضحل. ثم ترجّلنا سريعاً في منخفض عند طرف الخرائب التي كانت تقع مخفية خلف حيد منخفض من الرمال المتموجة. وبعد أن تركت رفاقي منهمكين في نصب الخيام وإعداد طعام الإفطار توجهت نحو قمة ركامة منخفضة من الحيد لإلقاء نظرة على المشهد العام للخرائب قبل حلول الظلام، وكنا قد قررنا أن نخصص أربعة أيام لفحص الخرائب، ومن ثم تركت الفحص المفصّل لها إلى الصباح.

وصلت إلى قمة الحيد وفي تلك اللحظة فهمت جيداً أسطورة «وبار». فقد كنت أنظر من تحتي ليس إلى خرائب مدينة قديمة بل إلى فوهة بركان، وكانت هناك فوهتان امتلأتا إلى نصفيهما بالرمال الزاحفة وتقعان جنباً إلى جنب تحيط بهما الخبث واللابة. كان ذلك هو الانطباع السريع الذي تصورته في تلك اللحظة، ولم أدر ماذا أفعل: هل أبكي أم أضحك، مع أن المنظر نفسه كان قد شدني وأسرني تماماً. . المنظر الذي بدد أحلام السنين! إذاً هذه هي وبار! مجرد بركان في الصحراء! الذي نُسجت حوله قصة مدينة دمرتها نيران السماء عقاباً لما ارتكبه ملكها من خطايا وفسوق وتحدّ واضح لتحذيرات النبي هود [عليه السلام].

لم يدر بخلدي أن يكون حل لغز الرمال العظيمة بهذه الإثارة، وعلي أن أقرّ بأن الفوهتين الممتلئتين بالرمال وما يحيط بهما من حيطان الخبث المرتفعة، تشبهان إلى حد كبير بقايا قلاع محطمة. وكان عدد من رفاقي قد وصلوا إلى الموضع وشرعوا ينقبون الأنقاض بحثاً عن الكنوز. وبينما كنت أهبط المنحدر متجهاً نحو الفوهة الأولى، أتى رفاقي مسرعين نحوي

يحملون كتلة من الحديد وشظايا صغيرة من الحديد الصدئ وقذائف صغيرة سوداء لامعة، والتي اعتقدوا بأنها لآلئ زوجات الملك عاد التي اسودت تحت لهب النيران التي أتت على الملك وقصوره. وكان علي يراقبني باهتمام يشوبه القلق وأنا ألتقط بعض الشظايا من الخبث وأتفحصها. كانت الشمس تدنو نحو المغيب، وكان هناك من الوقت ما أتاح لي جولة سريعة حول حافات الفوهة قبل العودة إلى المخيم لتناول طعام الإفطار.

كان ذلك إنجازاً كافياً لليوم الأول؛ ولكن رفاقي أحبطوا عندما أصدرت حكمي. قلت لهم: «قد تكون هذه فعلاً وبار التي تحدث عنها البدو، لكن ما نشاهده الآن هو من صنع الله لا الإنسان. هذه ليست بقلاع القدماء ولكنها تشبه الحمم البركانية في منطقةالحرات التي قد رأيتموها دون شك في الطريق إلى مكة، على الجهة اليمنى وأنتم صاعدون إليها. وهذه الفتحات - مثل فتحات الحرات- تأتي بالحمم واللهب من باطن الأرض. صاح علي: «لا إنها قلاع عاد بن كنعان. إنها قصوره بكل تأكيد، وانظر كيف احترق الطوب بالنار كما ترون؟ وما هذه إلاّ لآلئ!». وكان رفاقي قد جمعوا كميات من الكرات الحجرية السوداء لبيعها لاحقاً. فقلت مطيباً خاطره: «لا تخف! فهذا بالتأكيد هو المكان الذي تحدثت عنه وقدتني إليه وكما وعدتني يا علي، وهذه هي قلاع وبار كما تقول، وأنا قانع بذلك، ولكن خذها مني: إنها ليست من صنع الإنسان. وماذا عن سالم؟ هل وجد الحديد الذي حدثني عنه: في حجم الجمل؟». أجاب سالم بحزن: «لقد ذهبت إلى الموضع بالذات، ولكن الحديد مدفون تحت الرمال، وبمشيئة الله، سنعثر عليه بالحفر عندما يأتي الصباح. ولكنني سأذهب غداً مع الإبل إلى بئر البريهيمة، نترك نصف عددنا هنا ليقوموا بعملية الحفر، وسندع الجمال

تتقدم مبكراً للبئر، وسألحق بها لاحقاً بعد أن أرى القلاع وأجمع عينات من الأحجار وما شابه ذلك».

قمت صباح اليوم التالي مبكراً وتجولت إلى مسافة ميل من الفوهتين. وبعد أن تأكدت من عدم وجود فوهات أخرى أو علامات لها بعد المنطقة الرئيسة عدت عبر التلال الرملية المتموجة وأنا أفحص بدقة كل ركن وجهة حتى وصلت لبقعة من صخر الأديم، شديدة البياض ولا يبدو عليها أثر الحريق مع أنها كانت محطمة بتأثير الحرارة المنبعثة من جوارها.

ثم صعدت حيداً رملياً كان يفصل هذه البقعة عن بدايات منطقة الفوهة. ومن هناك رأيت بقعة أخرى ذات حجم معتدل من شظايا شبيهة بالخبث مخلوطة بأحجار الأديم المحطمة على مسافة حوالي ٢٠٠ خطوة جنوبي الطرف الشمالي الغربي المرتفع من الفتحة الكبيرة. وإلى الجنوب الغربي والغرب من المنطقة نفسها كانت بقعة أخرى مماثلة بينما بلغت قياسات قطر الفوهة نفسها إلى ١٢٠ قدماً ومحيطها ٤١٢ خطوة. وكانت حافة الفوهة أكثر ارتفاعاً من ناحية الشمال الغربي والجنوب. وكان جزء من الحد الدائري من ناحية الشمال مفقوداً تاركاً فجوة عرضها ٣٢ خطوة، بينما توجد بقع صغيرة من حطام الأحجار على مسافة ٦٥ خطوة إلى الشمال الغربي والشمال الشرقي على التوالي من هذه الفجوة وتفصل بينهما مسافة ١٠ خطوات. وتنحدر فتحة هذه الفوهة من كل الجوانب إلى منخفض مركزي مع أن كثافة الرمل الذي زحف إلى داخله يجعل التأكد من خصائص أرضية الفوهة الفعلية صعباً.

أما وسط الفوهة الثانية والأصغر حجماً فكانت تقع على اتجاه ٣١٣ْ -في

خط مستقيم مع خيامنا- من الركن الشمالي الغربي من الفوهة الأولى، وقست وأنا قادم نحوها ١٤٠ خطوة حتى طرف حافتها الخارجية التي يبلغ عرضها حوالي ٥٠ خطوة. وعندما اتجهت إلى اليمين قليلاً وفي زاوية ٣٤٥° لآخذ قطاعاً عبر الخط المركزي لهذه الفوهة، وجدت حافة داخلية من الخبث عرضها ١٠ خطوات، ومنها كانت المسافة عبر الفتحة إلى الحافة الأخرى ٥٥ خطوة، وخلفها كانت توجد مساحة من الخبث عرضها ٤٣ خطوة. وكانت حافة هذه الفوهة تكوّن حائطاً دائريّاً مكتملاً ذا ارتفاع متناسق؛ وقريباً منها وعلى مسافة تتراوح من ١٠ إلى ٥٠ خطوة من جهة الجنوب الغربي والغرب كانت توجد بقع من الخبث وشظايا من صخر الأديم، بينما على مسافة ١٩٠ خطوة إلى جهة الشمال الغربي كانت بقعة مشابهة ولكنها أكبر حجماً، وبدت وكأنها انبعثت من فوهة ثالثة طُمست كلية -إذا كانت موجودة فعلاً- بحيد رملي يرتفع إلى ٢٠ قدماً؛ فظهر ما يبدو كفوهة رابعة تحت النقطة التي وقفت عليها في البداية، إذ بدت بقع صغيرة من شظايا الخبث البركاني بارزة من تحت أطرافها في أماكن عديدة، وأخيراً كان هناك ما يوحي بوجود فوهة خامسة مدفونة كالرابعة تحت ركامة ضخمة من الرمال.

وهكذا وفي خلال ساعتين وصلت إلى انطباع مكتمل تقريباً عن كل ما يمكن أن يُرى في وبار، مع أنني تركت رسم المنطقة كلها في خريطة إلى وقت آخر، كما جمعت أيضاً عينات متنوعة من الخبث البركاني وأنواعاً من الحطام تتراوح في أحجامها من قطع في حجم رأس الإنسان إلى قنابل صغيرة من المواد المصهورة ولآلئ صغيرة. وهكذا أصبح لديَّ متسع من الوقت يسمح لي بمرافقة الحملة المتجهة إلى البريهيمة حتى يتسنى لي أن

أحقق ما كنت أتوق إليه ألا وهو أن أصل وأعبر الطريق الذي سلكه السيد توماس العام الماضي.

غادرنا المخيم قاصدين البريهيمة يرافقني زايد وعلي وصالح وابن مسيند، والكلب السلوقي الذي أقام علاقة وثيقة مع الأخير الذي كان يزوده بالطعام. وسرنا في البداية باتجاه الشمال الشرقي على طول الحد غير المحدد الذي يفصل تلال الطراعيز المتموجة العارية من النبات في الغرب عن تلال السنام الأصلية المتموجة بالشرق. وبعد مسيرة نصف ساعة مررنا بتل رملي بارز مخروطي الشكل يعرف بـ «قوز الإشارة Ishara» الذي يهتدي به البدو في الوصول إلى وبار أو الحديدة كما يسمونها، لأنهم لا يستخدمون الاسم القديم في حديثهم العام. وتمتد السنام من هذا المعلم فصاعداً، وهي صحراء رملية كثيبة تتناثر فيها شجيرات قليلة. ووصلنا فرجة بعد حوالي ثلاث ساعات من مغادرتنا للخرائب، واتخذنا طريقاً ينحني أكثر تجاه الشرق لأن علياً وجد الأدلة الضرورية التي توضح اتجاه موقع البئر في ظروف لا تتيح بذلك في هذه الصحراء الكئيبة، حيث يُعد تحديد الاتجاه والمواقع من أصعب المهام. وكانت العلامة الوحيدة للحياة التي قابلتنا أثناء فترة المسيرة هي قُبَّرة ذات لون ثنائي، سمعت سقسقتها تنساب من بعيد قبل أن تهرب بخطى سريعة مبتعدة عنا. ففي هذه الصحراء المقفرة نادراً ما تطير الطيور، بل تفضل الجري على أقدامها فوق الأرض التي تمنحهم أفضل حماية من الطيور الجارحة؛ فالطير في السماء يكشف عن وجوده بالظل الذي يلقيه على الأرض.

وجدنا بئر فرجة الوحيدة، والتي عادة ما تتوافر بها المياه على عمق ١٠ قامات، قد امتلأت تماماً بالرمل ولم تعد صالحة للاستخدام، ولم يبق لها

أثر إلا من ذلك الانخفاض بين حواف البئر وما يحيط بها من منخفض تتناثر فوقه مخلفات الجمال. وتعزى هذه البئر إلى رجل من العُوَيْر من الغفران يدعى فرج وينتمي إلى فخذ ابن جلاّب، ورئيس مجموعة الغفران الذي كثيراً ما يتخذ من نتوء قطر مقرّاً له، ويحل ضيفاً تحت حماية حاكمها الشيخ عبد الله بن ثاني. وقد نصب توماس مخيمه بالقرب من البئر وارتوى من مائه هو ورجاله، كما استخدمها زايد ورفاقه بعد ذلك. ومنذ ذلك الوقت توقف البدو الرعاة عن التردد على البئر نظراً للجفاف الذي أطبق على المحل وأُهمل البئر وتركت تحت رحمة الرمال الزاحفة لتطمسها نهائيّاً. لم نجد هنا ما يثير اهتمامنا إلا من نواة تمر وقطع من الجلد وقطع حجرية قليلة أخرجت من مهوى البئر في عمليات التنظيف الدوري لها.

ولم يكن هنا ما يبقينا طويلاً عند البئر، ولذلك واصلنا سيرنا عبر تلال عارية حتى وصلنا أم الحديد على مسافة ميلين إلى جهة الشمال والشمال الغربي. وفي منخفض فسيح من الرمل تتناثر في بعض أجزائه الحصباء، وجدنا الآبار الثلاثة التي تتوزع في شكل مثلث متساوي الأضلاع. وكما أشرت من قبل كان سالم قد قام بحفر إحدى هذه الآبار قبل عدة سنوات، أما البئران الأخريان فقد حفرهما سعيد بن فسل قبل أكثر من ثلاثين سنة.

كانت الآبار الثلاثة «ميتة»، أي جافة وإن لم يطمرها الرمل كلية إذ إن فتحتها كانت تقف بارزة فوق الرمال، وكان ماؤها على عمق عشر قامات كآبار فرجة أو فُريجه كما ينطقها البدو. وطارد سالم بعض الطيور الصغيرة التي تجمعت حول فتحة البئر بينما ذهب الآخرون يتعقبون ثعلباً حتى جحره وحاولوا دون جدوى الإمساك به. أما أنا فقد انشغلت أثناء ذلك بجمع

صعارير وعينات من الصخر والحصباء، كما وجدت بقايا وجبة بدوية قديمة: قرن ريم وعظام الوضيحي[1].

واصلنا سيرنا في اتجاه شرق الشمال الشرقي حتى وصلنا بعد مسافة قصيرة إلى بقعة مكشوفة من صخر الأديم غريب الشكل، إذ كان يشبه شظايا متآكلة من الحجر الجيري ذات أحجام متنوعة ومجوفة، ربما نتيجة ذوبان بعض مكوناتها إلى ما يشبه القواقع. أصبح الجو حاراً بعد الظهيرة وأسرعنا الخطى والكلب السلوقي (العقفا)، يمشي وثباً بجانب جمل ابن مسيند ليلحقنا. ومع اقترابنا للبئر بدأت أجزاء من التلال تكتسي بشجيرات كانت كافية في بعض الأجزاء ليقتات منها الإبل بعد أن ترتوي بالماء، وكان ذلك في صالحنا إذ كان عليّ يعد نفسه لاجتياز منطقة جدباء لانبات ولاماء فيها بعد مغادرتنا لوبار في اتجاه الجنوب.

في الوقت المناسب كنا أمام بقعة فسيحة وجذابة من الحصباء بيضاوية الشكل، وكأنها بحيرة تحيط بها تلال الرمل المتموجة، وتغطيها الشجيرات، حيث تقع آبار البريهيمة. وتجمعنا كلنا، رجالنا وجمالنا حول البئر الجنوبية التي فتحها سويد بمعاونة راعيين، وكانوا قد أنهوا مهمتهم تواً عندما وصلنا. وشرع سويد بسحب الماء من البئر وإفراغه في أوعية لترتوي منها الإبل. فقد كانت عطشى بعد أن قضت ستة أيام دون ماء ومرورها عبر منطقة اتسمت بجفاف نباتها وندرته. وبعد أن ارتوت تماماً سيقت الجمال إلى المراعي الجيدة التي تكسو المكان لترعى فيها.

---

(١) هناك اسمان لاتينيان للمها العربية: ليوكرويكس وبياتركس، ويطلق عليه العرب اسم «البقر الوحشي» ولكنني لا أعرف اسم «بقر بنسولة» الذي نبهني إليه السير بيرسي كوكس الذي سمع بالاسم في عمان. أما اسم «الريم» فإنه يطلق في الجزيرة العربية على الغزال الأبيض وليس على الوضيحي، أما الأسماء المحلية للغزلان ذات الألوان الداكنة فهي: الأدمي والعفري، والاسم الأصلي العام للغزال هو «الظبي».

أما نحن فقد جلسنا نستمتع بنزهة خالية من هموم حياة الخيام والمعدات. وأتى سالم، الذي كان يبحث وسط المرعى، بعسلوج أخضر من نبات العبل الذي يطبخ أحياناً مع الأرز لصنع نوع من الطعام يقال له «مكيكة»[1] يفضله المناصير، وكان عديم المذاق ولكنه كان مستساغاً. وغريب أن لا تعرف قبيلة بني مُرّة شيئاً عن هذا الاستخدام لنبات العبل.

كان عمق الماء في البئر التي استخدمناها يصل إلى عشر قامات، وكان من نوعية شبيهة بماء بئر بركان، ولم أتذوق الماء لأنني كنت ما زلت أتبع حمية عدم تعاطي الماء، لكنني اغتسلت به وكانت تفوح منه رائحة بول الجمال.

وكنت قد أحضرت معي جهاز الثيودولايت وقمت بإجراء ملاحظاتي الضرورية للنجوم قبل الإفطار، وغير ذلك فقد اعتبرت هذه الرحلة بمثابة نزهة للمتعة والترويح. ولأول مرة نمت ملء جفوني تلك الليلة ولفترة طويلة منذ مغادرتي الهفوف، وفشلت في إمساك فراشة من نوع الصقر جاءت ترفرف حول نار المخيم، ولكني نجحت في إضافة أنواع أخرى إلى مجموعتي وأنا أطّلع على بعض الجرائد اللندنية التي استلمتها في الهفوف وتركتها دون قراءة لانشغالي آنذاك بإعداد هذه الحملة؛ وكانت آخر جريدة تحمل تاريخ ٢٩ نوفمبر. وتعجبت وأنا أطفئ القنديل استعداداً للنوم، ما ستؤول إليه أخبار العالم عندما أعود إليها مرة أخرى، وقد بدا لي في تلك اللحظة أن ذلك بعيد.. بعيد جداً. وكنت في الحقيقة مرهقاً من جهد شهر من التجول دون أن أحظى بفترة راحة من أعباء الاعتناء اليومي بشؤون السفر، وخاصة أثناء الليل عندما كنت أعتكف، بعد عناء سفر اليوم، لكتابة مذكراتي وتعبئة وتصنيف ما أجمعه من عينات.

---

(١) تنطق «مشيشة».

ونمت ملتحفاً السماء الصافية من الساعة التاسعة والنصف إلى الساعة الرابعة والنصف صباحاً حين أوقظت لتناول طعام السحور، وكانت ليلة خالية من الندى. وجاء الصباح معتدلاً وساكناً من الرياح، وشعرت بانتعاش شديد وأنا أقبل على العمل اليومي بحماس غير معهود. وبدأت بحصر عدد من الصعرور المنتشرة على الحصباء الصحراوية، وكانت كثيرة، والتقطت قوقعة بحرية متآكلة كانت مطمورة في شظية حصوية، كما قمت بفحص المواضع المدفونة لمهاوي الآبار العديدة. ولم يكن عليٌّ يدري كم عدد هذه الآبار المدفونة، ولكنني أحصيت ستّاً منها وبدت ثلاث منها وكأنها حديثة نسبيّاً. ربما كانت هناك آبار أخرى لم أرها ولكن البئر التي استخدمناها كانت الوحيدة التي بها ماء.

وأثناء ذلك أحضر رفاقي الجمال لترتوي مرة ثانية، وكانت تبدو في حالة ممتازة. وحوالي الساعة الثامنة صباحاً تركنا آسفين أجمل موضع توقفنا فيه حتى الآن، وقد أثنى سويد كثيراً على جودة مراعيها ونحن نتجه جنوباً من الحوض. وبعد مسيرة ثلاث ساعات في ذلك الاتجاه اتجهنا نحو الغرب صوب وبار، وكان رفاقي يتسلّون بقدرتي في تحديد مواقع الأماكن، ولكنني اجتزت هذه المحنة بنجاح عندما هلل رفاقي معجبين حينما ظهر «قوز الإشارة» أمامنا مباشرة وبدأ صالح يمتدح مزايا البوصلة وبدا الآخرون متأثرين بذلك وإن كان البعض متضايقاً إلى حد ما لأنهم يفضلون اتخاذ أقرب المسالك إلى حيث نقصد: الخرائب.

عندما اتخذت هذه الوجهة الجنوبية وضعت عليّاً أمام مشكلة، إذ بادرته بالسؤال: «هل تعرف بأنني إذا سرت في هذا الاتجاه سنعبر الطريق الذي سلكه حمد بن سلطان والمسيحي العام الماضي؟ هل يمكنك العثور عليه؟

فأنت تعرف كلاً من طُريفة وفرجة وبمقدورك أن تخبرني متى سنعبر ذلك الطريق». وظهر في الوقت المناسب حيد رملي قبابي الشكل عرّفه باسم «القاسمة» أي خط تقسيم المراعي بين البئرين. وبعد مسيرة قصيرة توقف علي وقال: «نحن الآن نقف على الخط الفاصل بين البئرين ولكن الرمال قد طمرت الدروب». ثم أخذ يبحث، وفجأة أشار إلى شيء على يميننا وقال: «هل ترى روث الجمال؟!» وقفنا جانباً لنفحص ما أشار إليه ووجدنا بعض الروث شبه مدفون بالرمال: سألت علياً: «ولكن كيف يمكنك التعرف على هذه المادة؟ قد تكون لجمل آخر؟» وأجاب: «لا، ليس ذلك. نحن نعرف الروث كما نعرف الطرق وأشياء أخرى. انظر إلى حبوب الروث هذه» وترجل علي ليتفحصها وناولني كمية منها قائلاً: «إنها صغيرة وقاسية عكس الروث الحديث الذي يبدو كبيراً وغنيّاً وهشّاً؛ فالجمال التي رمت هذه الحبوب قد أتت عبر مسافة طويلة وكانت عطشى، وعمرها سنة . والله أعلم».

كان الدليل مقنعاً. وقمت بإضافة بعض هذا الروث إلى مجموعتي من تحف الصحراء، ووجدنا آثار أقدام هرٌ بريٌ[1] مَرَّ من هنا الليلة الماضية، كما صادفنا هدهداً مهاجراً أطلق عليه عليٌ رصاصة لم تصبه، ووجدنا أيضاً عشّاً لغراب، وعشّاً آخر صغيراً. أصبح السير مرهقاً إلى حد ما مع ارتفاع الحرارة والابتعاد عن منطقة المراعي إلى الأرض الجرداء التي أخذت تعكس أشعة الشمس بلمعان شديد، والتقيت مصادفة، والرحلة توشك على نهايتها،

(١) عرّفه الكابتن ج. دوللان من المتحف البريطاني على أنه (هر بري) من جمجمة عثرت عليها شمالي الشنّة. يطلق عليه بدو المرّة اسم الهرةُ، وبدو المناصير اسم العطفة، بينما يطلق على ثعلب الصحراء اسم ثعل، ثعلب أو حصني (أبو الحصين).

بآثار أقدام حبارى حديثة طارده علي ببندقيتي وجاء حاملاً العينة الوحيدة لطير الحبارى التي عثرت عليها أثناء تجوالي في الصحراء. وصادفنا بعد ذلك العديد من هذا الطير وآثار أقدامه، ويبدو أنه طير صعب المراس، ويتطلب اقتناصه وقتاً حتى يتمكن الصائد من تطويق المكان الذي يختفي فيه حتى لا يهرب.

أسرعت الخطى بعد المعلم المخروطي ووصلت إلى خيمتي في الوقت المناسب لإغفاءة بعد الظهيرة، فقد بعث النسيم الجنوبي والهواء الحار الرطب خدراً في جسمي وكنت أشعر بالنعاس. وسألت رفاقي الذين قدموا للترحاب بنا: «هل وجدتم الحديد؟ الحديد الذي في حجم الجمل؟» فأجابوا بحزن: «لا، لم نعثر عليه مع أننا بحثنا عنه في كل مكان منذ مغادرتكم؛ ولكن زيداً -الطاهي- قد عثر على قطعة صغيرة من الحديد هناك تحت شجيرة رمث، ويقول سالم بأنه ليس الحديد الذي تحدث عنه، ولذلك تركناه حيث هو. إنها ثقيلة». كان ردي عليهم: «حسناً! علينا أن نجد القطعة الكبيرة حتى لو اقتضى ذلك أن نمكث أربعة أيام هنا، والآن يمكنكم إحضار القطعة الصغيرة أيضاً».

وبعد برهة وجيزة جاء القوم بالقطعة، وكانت عبارة عن كتلة حديد في حجم أرنب، وكانت ثقيلة بالمقارنة لحجمها[1]، بها بعض الصدأ وهشة السطح، وافترضت بأنها نيزك. ولم يكن أمامي إلا أن أتخيل بأنها قد تكون تلك القطعة المشهورة التي تصورها الناس كبيرة في حجم الجمل. كما لا أستطيع استبعاد وجود كتلة أكبر حجماً مدفونة في مكان ما تحت هذه الرمال، وفي هذه الحالة يمكن أن نقول بأننا فشلنا في العثور عليها بعد أن

(١) وزنها ٢٥ رطلاً وأبعادها ١٠ × ٦ × ٥ بوصة.

خرج كل الرفاق صباح اليوم التالي إلى المكان الذي أشار إليه سالم -وهو منحدر هين جنوبي الفوهة الكبيرة- يسبرون أعماق الرمل بالعصى ويضربون الأرض بأقدامهم؛ ولم نستطع أن نكشف أية علامة لجسم غريب مدفون في أي مكان هنا. وقد يستدعي ذلك استخدام أدوات مغناطيسية. وقررت أن لا نضيع وقتاً أكثر من هذا في البحث، واتفقنا على أن نواصل السير صباح اليوم التالي.

ومن غرائب الصدف أن وجدت أن نسخة المجلة الجغرافية الوحيدة التي كانت في حوزتي والتي تضم المحاضرة الكاملة التي ألقاها السيد توماس وخريطته، كانت أيضاً تحتوي على مقالة عن وجود فرضي لفوهة نيزك في بلدة بوسومتوي في أشانتي «غانا». دفعني ذلك إلى أن أسجل في مذكرتي بأن فوهات وبار -البركانية- ربما كانت «منخفضات نتجت عن سقوط النيازك»، ولم أكن أدري حينئذ بأن عدد الفوهات النيزكية المعروفة في العالم آنذاك كانت قليلة، وربما أربع أو خمس على الأكثر، ولم أعط اهتماماً لما يمكن أن يثيره اكتشاف فوهة مماثلة أخرى في الصحراء العربية وسط تلك الدائرة الصغيرة من الخبراء الأكفاء الذين يتعاملون مع مثل هذه الأمور، كما لم أفكر كثيراً في أن نفس عدد المجلة الجغرافية كان يتضمن أيضاً ملاحظة من السيد و. كامبل سميث يذكر فيها وجود ما يمكن أن تكون قطعة شقيقة لنيزك وبار أو ربما «الجمل» الأصلي في المتحف البريطاني منذ خمسين سنة!!

أما بالنسبة لي شخصيّاً فقد انتهى البحث عن وبار والحديد العملاق، ويمكنني الآن راضياً وبكل شرف أن أورث المهمة إلى من يخلفونني من الشبان والشابات الذين لن يثنيهم بحثي غير المثمر للخرائب الأسطورية من

القيام بأعمال مماثلة في رمال الجزيرة العربية العظيمة؛ فقد أرضيت نفسي وأشبعت رغبتي واقتنعت بأنه ليس هناك أي أثر لآثار بشرية قديمة وسط «القلاع» التي قادني إليها علي بكل إخلاص ونجاح. وإذا كان المكان الوحيد المعروف لدى رفاقي قد جاء محبطاً لآمالي، فإنني قد توصلت في ضوء أبحاثي التي أجريتها حتى اليوم وما تمخضت عنه تجاربي في هذه الصحارى، إلى أن احتمال وجود خرائب قديمة في أي مكان من الربع الخالي ضئيل جداً. وأظن أن هناك مبرراً لاستنتاج آخر مفاده بأن الربع الخالي بمعناه الواسع لم يكن بأي احتمال مناسباً للاستيطان البشري - باستثناء الرعاة- منذ وقت طويل سابق للحضارة الإنسانية، ولابد أن عملية الجفاف كانت قد بدأت وتوقفت الأنهار الكبيرة عن الجريان قبل فجر التاريخ الجاد، ربما عندما أحدثت قلنسوات جليد البلايستوسين المتراجعة تغيراً في مناخ النطاق الأوسط من العالم الذي يمتد من الصحراء الكبرى والصحراء الليبية وعبر الجزيرة العربية إلى صحارى آسيا الوسطى، وتتضمن أدوات حجر الصوان[1] والقواقع ذكرى رجال كانوا يقطنون أرضاً مواتاً جُعلت مناسبة «للحياة» بواسطة أنهار جارية، ولكنهم كانوا يمثلون سلالة قديمة انحدر منها أولئك الذين شيدوا أولى المنازل التي نعلم عنها وعلى معرفة بها.

(١) اقتنعت الآنسة جير ترود كاتون - طومبسون، التي قامت مشكورة بفحص الأدوات الصوانية التي جمعتها من مواضع مختلفة من الربع الخالي، بأنها كلها تنتمي إلى العصر الحجري الحديث وليس للعصرين الحجريين الوسيط والقديم. . وتقول بأن العصر الحجري الحديث انتهى في الصحراء الليبية حوالي ٥٠٠٠ ق.م، وإذا افترضنا ظروفاً مماثلة كانت تسود الجزيرة العربية، فإنه يبدو أن الأنهار الجارية في الربع الخالي استمرت حتى بدايات الحضارات الأولى المعروفة (المصرية وبلاد الرافدين).

ثم، ماذا عن الأسطورة؟ فيما يخص الربع الخالي فإنها مجرد خرافة ليس إلا، وعلينا أن نبحث في مكان آخر عن الموضع الذي سبّب أو أحدث تلك الأسطورة، وقد يكمن الدليلُ على ذلك في البيت الأول من القصيدة الشعبية التي افتتحت به هذا الفصل. أما أن الملك عاداً عاش في وقت مضى فلا يشك في ذلك أحد، فإن ما حل به من عذاب قد ورد أكثر من مرة في القرآن الكريم. وربما كانت ذكرى تلك الحادثة ما زالت حية نسبيّاً في القرن السابع الميلادي. أما الكارثة المماثلة التي حلت بثمود في مدائن صالح فلها أساس تاريخي يتمثل في انهيار السلطة النبطية، وليس من سبب معقول يجعلنا نفترض بأن قوم عاد كانوا من نسج خيال. ويبدو أن أحداً لم يكن يعرف بكل تأكيد هوية هؤلاء القوم وأين كانوا يعيشون مع أننا نفترض عموماً بأنهم كانوا ينتمون إلى جزء ما من الجزيرة العربية -اليمن أو حضرموت- الذي لم تدرس آثاره بعد تماماً [1]. وربما تكشف الدراسات عن ما هية تاريخ عاد[2]. ومن الطبيعي أن يُبحث عن الدليل المطلوب في المنطقة بين الشحر (حضرموت) وصنعاء، عاصمة اليمن. ويضع ياقوت وبار في ذلك الجوار[*]، وأن مصادره دون شك اشتقت معلوماتها من الذكريات القديمة والتي دون شك تعود في أصولها إلى حقائق تاريخية.

---

(١) يعمل الدكتور كارل راثيانز من همبورج ومنذ وقت في أعمال التنقيب عن آثار اليمن، وسوف يكون لنتائجه اهتمام كبير.

(٢) تنبغي الإشارة هنا إلى العمل الذي أنجزه كل من فان ديرميولن وهـ. فون فيسمان، بعنوان «حضرموت» (ليدن، ١٩٣٢م) وفي الصفحات ٥٦ وما يليها يوجد رصد للآثار المعروفة بدار عاد التي تعود ربما إلى العهد السبئي.

(*) نقل ياقوت هذا الرأي عن أهل السير وعن الهمداني أيضاً، كما نقل عن الليث أن وبار كانت من محالّ عاد بين رمال يبرين واليمن. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤١٠. (المراجعون).

وقـد يكشف التنقـيب هوية وتـاريخ عـاد، ومن الطبـيـعي أن يبـحث عن الدليل المطلوب في المقام الأول في مكان ما بين الشحر -أي حضرموت- وصنعاء، عاصمة اليمن.

وإذا كان الشعر الذي اقتبسته هو دليلنا واليمن مسرح أبحاثنا، فما علينا إلا أن نبحث عن مكان يدعى قَرِّية وحقلٌ من الخرائب يقع إلى الغرب منها. وما أقترحـه هنا هو أن مثل هذا المكان في متناول أيدينا ويقع في موضع لم يقم أحد بزيارته بعد، وعلى الطريق بين السليل ونجران والتي كانت أنهارها -حبونا ونجران- تروي أطراف الصحراء الواقعة إلى الشرق من الحدود الحالية لواحاتها خلال العصور التاريخية. ويوحي اسم المكان بدلالات كافية فهي «قرية الجاهليين» أو قرية القدماء. ويوحي الاسم، كالقصيدة، بأن قَرِّية وخرائب وبار متلامستين أو بالقرب من بعضهما البعض. وحالياً فالأولى عبارة عن بئر صحراوية تقع على الطريق المؤدي إلى نجران، ولكنني لم أستطع الحصول على معلومات فيما يتعلق بالخرائب. ويمكن أن نقترح آبار «عويفرة» المجاورة كموضع محتمل لوبار نفسها، والتي قد لا تكون أكثر من خطأ تقليدي أو كتابي، كما اقترح توماس[1]، لاسم أُفير Ophir أرض الذهب والقرود والطاووس!، وسيكون الاسم بالشكل العربي الصحيح «عَفَار» وإن عُوَيفَرة تصغير له. وكان الإغريق ينسخون كما ننطقها نحن: أوفار أو أوفير Of.r or Ophir. وأخيراً فإن هذا المكان يكون أقرب إلى المنطقة التي ما زالت تنتج كلاً من الذهب والقرود ودجاج الغابة، إذا لم يكن طاووساً، وهي جبال الحجاز الواقعة داخل نطاق الأمطار الموسمية.

---

(١) «الجزيرة العربية السعيدة» ص ١٦٣.

وإذا حدث ولـم تكن اليمن هي مسرح عظمة عاد، فهناك بعد مكان آخر يمكن التحقق عنه ويفيدنا بنتائج مثيرة. فقد كان شرقي الجزيرة العربية -وإن كانت أقل شهرة من الأجزاء الجنوبية- فيما يبدو مسرحاً لحضارة قديمة، فالركامات الترابية فوق القبور في البحرين معروفة تماماً كما تم الكشف عن آثار قديمة في جزيرة دارين المجاورة بينما توجد خرائب عديدة- مثل العيون القديمة وفنون الري القديمة- في الأرض الرئيسة بين الأحساء والكويت، والتي تشكل الآن صحراء قاحلة بها بعض الآبار المتناثرة التي يقصدها الرعاة فقط. وتحمل بئران من هذه الآبار أسماء تثير الدهشة: قريَّة مع وَبْرَة إلى الغرب منها! من الذي يستطيع القول بأنها لم تؤد دوراً ما في تاريخ قوم عاد؟!

تبلورت هذه التخمينات في ذهني رويداً بعد الإحباط الذي أصابني في الربع الخالي. وعليّ أن أعود الآن إلى كتلة الحديد التي سلّمتها بعد فترة ومعها المواد التي جمعتها من وبار، إلى ابن سعود والذي بدوره أهداها إلى المتحف البريطاني(*). ولم يجد دكتور إل. جي سبنسر، القيِّم على قسم المعادن، صعوبة في تحديد خصائص هذه المواد.

فالمعدن -كما افترضتُ- شظية من حديد نيزكي، أما المادة الشبيهة بالخبث فهي عبارة عن زجاج السيليكا أو رمل مصهور بحرارة النيزك المتهاوي الذي تبخر معظمه من الحرارة الهائلة التي تولدت عن ارتطامه

(*) يبدو أن الملك عبد العزيز قام بإهداء هذه المواد للمتحف البريطاني لإجراء الدراسات اللازمة عليها حيث يوجد الخبراء والمختصون مما يدل على اهتمامه - يرحمه الله - بالجوانب العلمية المتعلقة بآثار المنطقة وتاريخها إلى أن أمر جلالته بإنشاء متحف متخصص في المملكة في نهاية عهده (المراجعون).

بالأرض، ولم يبق فيه إلا شظايا مفردة بردت سريعاً لتبقى كدليل للطريقة التي تكونت بها الفوهات، وقد برهنت مادتي على قيمتها كإسهام قيم في دراسة مثل هذه الظواهر، ولكن يجب ترك الجانب الفني منها إلى د. سبنسر ليعالجه بنفسه[1]. فقد توصل د. سبنسر عن طريق دراسته لقطعة الحديد تلك -والتي كانت في حوزة المتحف البريطاني منذ شرائها من تاجر عام ١٨٨٥م- إلى استنتاج مبدئي مفاده بأن الشظيتين متقاربتان في تركيبهما ومكوناتهما إلى درجة أنهما فعلاً تكوّنان جزءاً من نفس الكتلة النيزكية، وأن احتمال أن تكون العينة الأقدم قد أتت من المكان الذي يزعم بأنها وبار في الربع الخالي يعززها تاريخها الغريب المشوب بالشكوك.

تم عرض «نيزك نجد» وشراؤها من قِبل المتحف البريطاني عام ١٨٨٥م[١٣٠٣هـ]، وكان البائع تاجراً يقطنَ بُعر شَاير، وقد أتى بمعلومات مفادها بأنه في ربيع عام ١٨٦٣م [١٢٧٩هـ] شاهد بعض العرب الذين كانوا يخيمون في «نقرة بني خالد» النيزك يسقط فعلاً أثناء عاصفة رعدية وأنهم قاموا بالتقاطه من الأرض. وقد استلمه البائع فعلاً من رجل يدعى الشيخ خلف بن عيسى[2] الذي يبدو أنه شاهد النيزك يسقط. وقد أعطى البائع هذه المعلومات وهو لا يزال على قيد الحياة في الحديدة التي كان يقطنها عام ١٨٨٤م [١٣٠٢هـ].

وبصرف النظر عن العاصفة الرعدية، التي قد تكون ملازمة عرضية لسقوط النيزك وارتطامه بالأرض، لم يكن هناك شيء مثير للشك حول هذه

(١) انظر الملحق.

(٢) من المحتمل أن يكون أحد أعضاء الأسرة الحاكمة في البحرين.

القصة، ولكنها فعلاً أثارت الشكوك في ظروف غريبة بعد ست أو سبع سنوات. ففي عام ١٨٩٢م [١٣٠٩هـ] عُرضت شظية أخرى من الحديد النيزكي بذات الوزن «١٣١ و ١٣٧ رطلاً» للبيع للمتحف البريطاني مصحوبة بتفاصيل أكثر عن كيفية اكتشافها. وللأسف لا توجد إلا الترجمة الإنجليزية لخطاب الشرح المرافق لها، ولابد أن نأخذ في الحسبان بعض التنقيح الذي حدث لنص الخطاب الأصلي عند دراسة الموضوع. وقيل أيضاً بأن هذه الشظية قد لوحظت وهي تسقط خلال عاصفة رعدية في السنة الماضية ١٨٩٠ - ١٨٩١م [١٣٠٨هـ]»، في «وادي بني خالد». وعندئذ أُخرجتْ من الأرض وتم إرسالها بواسطة ابن نخَّاد ابن شيخ الهرَّة إلى الشيخ ناصر بن راشد والذي بدوره أرسلها عن طريق القطيف إلى الحاج أحمد خان الذي أعطاها إلى البائع. وقد رفض المتحف قبول العينة بسبب مصدرها المشكوك فيه، وفي النهاية وجدت طريقها إلى أمريكا[1]. ويوجد الآن سبب وجيه للشك في تفاصيل قصة عام ١٨٦٣م [١٢٧٩هـ]، ولكن لم تكن هناك طريقة أو وسيلة للتحقق فيها ومعرفة أصولها. وهكذا ظل الموضوع كما هو حتى وصول شظية النيزك التي أتيت بها من الربع الخالي.

لقد قمت بدراسة متأنية للمكاتبة، وأجد نفسي عاجزاً عن اقتراح أي تعريف لمكان وموقع وادي بني خالد[*] وربما لم يكن يعني أكثر من: «في منطقة قبيلة بني خالد» ومن الواضح أنه يُقصد به شرقي الجزيرة العربية،

(١) متحف فيلد للتاريخ الطبيعي في شيكاغو.

(*) المقصود هنا هو «نقرة بني خالد» والمعروفة الآن بوادي المياه وهي المنطقة الممتدة على ساحل الخليج العربي من العقير حتى الخفجي. انظر حمد الجاسر. المنطقة الشرقية، الرياض ١٣٩٩هـ ج٤، ص١٧٥٥. (المراجعون).

الذي ربما استخدم عموماً ليشمل منطقة الأحساء بمعناها الواسع[1] - والتي كانت عام ١٨٦٣م تحت حكم آل سعود قبل أن تؤول إلى حكم الأتراك عام ١٨٩١م [١٣٠٨هـ]، وخطر ببالي في الحال بأن اسم بائع عينة عام ١٨٩١م [١٣٠٨هـ] عرض إمكانيات مثيرة، إذ أعطى لقب أو اسم عائلة الرجل مع معلومات إضافية بأنه ابن -أو ابن أخ أو حفيد- شيخ إحدى القبائل أو مكان يقال له «هرّة»[*]؟! وأنا أرى أن الاسم هو «مُرَّة» إذ من السهل لأجنبي لا يعرف الكثير عن قبائل الجزيرة العربية، أن يقرأ خطأ حرف M «ميم» العربية كـ H «هـ». وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكننا التعرف على أحد لقبيه، ابن نخّاد أو نحّاب من بين شيوخ قبيلة بني مُرّة؟! أعتقد ذلك إذا كنا سنفترض ثانية إمكانية قراءة خاطئة لخطاب مكتوب باللغة العربية من قِبل أعجمي.

وأجد في قائمتي الشاملة تقريباً لكل المجموعات والأفخاذ ورؤساء «آل مُرّة» أن الشيخ الكبير لمجموعة الجرابعة -والذي ينتمي إليها حافر بئري أم الحديد الأصليين!- هو حمد بن نحّاب[**]، وهكذا فإن اللقبين[2] قريبان جداً.

والظروف مثيرة للشكوك مما يجعلني أرى بأن الرجل الذي حصل على نيزك عام ١٨٩١م [١٣٠٨هـ] في نفس المكان الذي أعطى سابقته، قد حصل عليه من فوهات الحديدة والتي منها اشتقت آبار أم الحديد أسماءها. كما قام بحفرها عضو في نفس العائلة.

---

(١) بما في ذلك الربع الخالي.

(*) يوجد مكان باسم «آبار هرّة» في منطقة الجوب جنوبي الجافورة. (المراجعون).

(**) الصحيح أن الاسم هو حمد بن نهاب، وجاء في هامش المؤلف أعلاه أن ابن نحاب هو شيخ المرة والصحيح هو ابن نهاب.

(٢) فإن الاسمين هما:

ابن نخاد ابن شيخ الهرة.

ابن نحاب ابن شيخ المرة.

كانت الصفقة مربحة دون شك لقبيلة «المرِّي»، وليس غريباً أن رفاقه قد غالوا في تمجيد أبعاد مثل هذا المعدن الذهبي، وأن أجزاء منها قد وجدت طريقها إلى إنجلترا وأمريكا قبل أن أكشف مصدرها وأسرار وبار بوقت طويل.



الفصل الرابع

المياه المرّة

«هذه هي الرملة. أما الربع الخالي، فإنها بعيدة هناك عند الجبال . . الجبال السوداء».

كان لا يزال أمامنا أيام علينا أن نقضيها بين آبار ومراعي الرمال الجافة. ولكن ما افتتحت به هذا الفصل كان ما قاله علي بن جهامان في وصف الوضع ونحن نسير بعيداً من وبار صباح السادس من شهر فبراير. فقد استطعنا تحقيق هدفين من أهداف الحملة، وتركزت أفكارنا على الهدف الثالث ألا وهو عبور الصحراء القاحلة التي لا ماء فيها. ولكن كان علينا أولاً أن نذهب إلى شنَّة لنزور آبار التخوم التي تقع في أرض المراعي.

وجدت في وبار صباح أمس -ولأول مرة منذ أيام- أرضاً مبللة بندى كثيف، ولكن هذا الصباح كان خالياً منه تماماً، كما كان الجو جميلاً رغم الرياح الشمالية الباردة التي كانت تهب آنذاك ونحن نبدأ مرحلة طويلة من الرحلة عبر أرض قاحلة صوب «عنسلة».

كان غريباً أن لا يكون لدى رفاقي رأي أو فكرة عن القيمة المالية لقطعة الحديد الكبيرة التي لم نعثر عليها. ويبدو لي أن قبيلة الجرابعة قد احتفظت دون شك بما تعرفه عن الحديدة الكبيرة لنفسها خوفاً من أن يكتشف آخرون موضعها مما يحرمهم من إمكانية جني مكاسب مفاجئة مستقبلاً. وقد ظلت القطعة التي وجدناها مخفية تحت الرمال حتى كشفتها الرياح وبقيت حيث هي بسبب الجفاف الطويل الذي أبقى الرعاة بعيداً عن المنطقة. أما الجوائز

التي وعدت بها رفاقي، فلم يتقدم أحد منهم ليطلبها، وكنت راضياً بذلك، إذ كنت أرى أن الوفاء بذلك الوعد في ذلك الوقت لم يكن قراراً صائباً، وإن وقتاً مناسباً سيأتي لاحقاً للوفاء بذلك العهد.

وهكذا بدا رفاقي محبطين إلى حد ما بفشل أدلائي في تحقيق ما كانوا يتباهون به. ولأرفع من معنوياتهم اقترحت على حُمَيْد بأن يؤلف أو ينظم شعراً قصصيّاً عن وبار وأكياس اللآلئ السوداء التي كوفئوا بها. وقد وصلت هذه اللآلئ بعد أسابيع عديدة إلى مكة، وأخذت تنتقل من يد تاجر إلى آخر جالبة الإحباط وراءها. ولم يكن أمام رفاقي من أمر، وقد تبددت آمالهم من جني ثروة طائلة منها، إلا أن يرضوا بما يكسبونه من أجر بالعمل معي. وكان متوسط ما يكسبونه خلال أسابيع من العمل المضني هو ٨ إلى ١٠ جنيهات إسترلينية لكل فرد منهم، وكان هذا كافياً في ظروف حياتهم البسيطة للحصول على زوجة وإن لم يكن كافياً لشراء جمل أصيل المنبت.

لم يكن ثمة شيء أمامنا نفعله في تلك اللحظة إلا أن نعد أنفسنا للمهمة التي كانت قيد الإعداد، وأن ننجز ما يمكن إنجازه تحت تلك الظروف الرتيبة والكئيبة والمملّة. واحتل زوجان من الغربان مخيمنا المهجور حيث كنا تركنا بقايا العينات التي قمنا بتخليلها، بينما كانت غلالة من الرمل تجرف دون انقطاع عبر الأرض من حولنا محولة الصحراء المتموجة إلى سديم من البخار كالذي ينبعث من مرجل يغلي. وعندما سكنت الرياح، بدأ اللمعان الناعم الهادي للرمال يخترق عيوننا من جديد.

كانت الأرض عارية تماماً باستثناء القدر القليل من شجيرات العبل التي كانت تتناثر هنا وهناك، وبعض الروابي العرضية التي كانت تحدث تغييراً في

ملامح الصحراء المنبسطة. ووجدت وأنا أقف فوق إحدى هذه الروابي لأرى ما حولنا، أنه من المستحيل أن أحافظ على موضعي أمام صفائح الرمال المتحركة التي احتوتني في دواماتها المنهكة. وسرنا حتى منتصف النهار داخل السنام ولم نتوقف خلال ذلك إلا ساعة واحدة لنأخذ قسطاً من الراحة.

وفجأة طرأ على المنظر تغيير ونحن ندخل منطقة «مجاري تَسْرات» التي اشتق اسمها من بئر تسرات[1]، التي تقع على مسيرة يوم في اتجاه الشرق وبها ماء عذب على عمق ثماني قامات. وتقع في موازاة طريقنا على اليمين ووراءه إلى مد البصر سلسلة كثبان «الحباكة» وخلفها أودية «شُقّان برُكان» - وكنا قد لاحظناها من قبل من سعافيج-، ثم رمال «بني زينان» إلى الجنوب منها. وتتكون منطقة تسرات من شريط عريض من الحيود والأودية المتناوبة ويمتد في اتجاه شرقي غربي. ونصبنا خيامنا في أحد هذه الأودية للمبيت، ثم بدأنا السير في الساعة السابعة صباحاً تحت ظروف جوية كئيبة. وهب نسيم شمالي بارد ودبق يذري بلطف ضباباً كثيفاً، وخرجت من خلاله الشمس شاحبة وهي تصعد ببطء إلى كبد السماء. وكانت الرؤية محدودة تماماً حتى منتصف النهار. ولم يهمنا ذلك كثيراً إذ لم يكن هناك شيء مختلف يسترعي الانتباه من ذلك الذي كنا نراه أمام أنوفنا: ازدياد تدريجي لأودية تزداد عمقاً، وهي تتناوب مع حيود مرتفعة، كلما تقدمنا نحو الجنوب. وكانت قافلة الأمتعة قد تقدمت ركبنا بحوالي ساعتين أو أكثر ولكن آثار أقدامها كانت قد طمست قليلاً بالرمال الزاحفة. وكانت شجيرات العبل

(١) يوجد وراء بئر تسرات باتجاه الشرق بئر أم القرائن.

تظهر هنا وهناك في أماكن مرتفعة كأنها سياج. بينما أحدث شريط رقيق من العندب الأخضر عند سفح أحد الحيود إثارة حقيقية في نفوسنا وجعلت عليّاً يقول معلقاً: «قبل سنتين جاء ما يفيد بأن الأمطار قد هطلت هنا. وها هي أولى ثمراتها!». ولكن آماله تبددت إلى حد ما -وإن لم تكن كلية- من واقع تجربتنا خلال الأماكن التي مررنا بها بعد ذلك، مع أن بعض الأودية كانت أفضل قليلاً من هذه الناحية.

توقفنا في أحد الأودية عند منتصف النهار لفترة قصيرة لترعى الجمال على نبات العبل الذي بدت مزدانة بشرابته ذات اللون القرنفلي التي تضفي للشجيرة مظهراً أنيقاً في الربيع. وكان هذا الوادي يمثل أول مجموعة من الأودية المماثلة لتلك التي رأيناها في تسرات، ولكن سُميَ بـ «مجاري المعْشيّة» على اسم بئر تحمل ذلك الاسم وتقع على مسيرة يوم أو أقل تجاه الشرق وتحتوي على ماء مالح على عمق إحدى عشرة قامة. ووراء البئر الأولى من ناحية الشرق كانت «بئر مَنْجورَة[1] الهادي» التي كانت تقع بالقرب من الطريق الذي سلكه توماس وسميت باسم جد أو أحد أنساب دليله المرّي. وعاد نبات العلقا للظهور لأول مرة بعد مغادرتنا للجافورة، وهو نبات أخضر بدا لتوه يزدان بزهوره الصغيرة الملونة، كما رأينا بعض طيور الصحراء المغرده وعدداً قليلاً من الجراد. ولكن لم يدر بخلدي بأنني سأرى فراشة هنا. وظننت في البداية أن ذلك الوهج البني المفاجئ كان خدعة بصرية. ولكنني سرعان ما اكتشفت حقيقته، وربما قد رأيت عدداً منها بعد ذلك أثناء تجوالي في هذا الجزء من الرمال ولكنني لم أمسك إلا بآخر

(١) أصل الكلمة نجار. الاسم «مينور» الذي استخدمه توماس لمنطقة أخرى يبدو أنه يعني «منجور» لأن الجيم تخفف في النطق لتصبح ياء.

واحدة قابلتها عند أطراف صحراء «بني زينان» القاحلة. وكان يحدوني أمل بأن فراشة في مثل هذا المكان والتي بدت وكأنها الوحيدة[١] في الربع الخالي ستمثل عينة جديدة من نوعها للعلماء مع أنني كنت أعتقد بأنني في حالات عديدة رأيت عينة من العائلة نفسها، ولذلك بذلت مجهوداً كبيراً لتأمين عينة منها، ولكن ثبت بعد كل ذلك أنها من الأنواع المألوفة[٢] والمعروفة علميّاً.

كان هذا هو اليوم التاسع والعشرين من رمضان، وقضينا الليلة في «خلّة جُدَيْر» وكلنا أمل في أن نصحو صباح اليوم التالي وقد عادت حياتنا لطبيعتها. وكانت الرياح الشمالية الشرقية العاصفة، التي صحبتنا طوال اليوم، قد سكنت عند المغيب. وحينئذ اشرأبت أعناقنا تحدق في الأفق الغربي بحثاً عن الهلال، ولكننا لم نتمكن من رؤيته بسبب الغمام، وإن كان سعد الوشمي قد ادعى بأنه رآه بينما ظن آخرون بأنهم لمحوا الهلال، ولكن أحداً لم يأخذ كلامهم بجدية. فقد كان سعد لا يرغب الصوم مما شكك في مصداقية ما يقول؛ ومع ذلك فقد ثار جدل مثير ومشاحنة بين الرفاق حول ما إذا كان علينا أن نكمل الشهر ثلاثين يوماً أو نعد الغد عيداً. وأعلنت عن نيتي في مواصلة الصوم، واتفق معي في ذلك ابن معدّي، الإمام، وسويد وأبو جعشة وهم الذين لم يفطروا يوماً[٣]. وسرعان ما حذا الباقون حذونا بينما قرر عدد قليل بأن يفطروا غداً على أساس السفر حين أصر المتذمرون الثلاثة على الإفطار.

(١) رأيت أيضا فراشة واحدة من نوع السيدة الملونة بعد أيام قليلة في نيفة. (نايفه).

(٢) عرفها السيد ن. د. رايلي من المتحف البريطاني على أنها من نوع Apharitis gillehi – وهو نوع يوجد في الصومال ولكنه لم يعرف من قبل في الجزيرة العربية – وذلك لأن النوع الوحيد الذي يمثل هذا الجنس من الفراشات في أجزاء الجزيرة العربية التي تمتد من عدن إلى سوريا والعراق كان حتى الآن هو النوع المعروف باسم: A.acamas.

(٣) سالم وابن حميد فات عليهما فقط يوم الغمة، بينما حسن فاته أيضا ذلك اليوم وعالجه بالسفر في اليوم الثلاثين.

في بهيم الليل وبينما كنت أجلس وحيداً في خيمتي، سمعت نتفاً من المشاحنة المتواصلة بين الرفاق، حديث أجش وصاخب موسوم بالسوء وممزوج باتهامات متبادلة بالكفر والزندقة[١]. وكان الذين تؤنبهم ضمائرهم هم أعلاهم صوتاً وصخباً واحتجاجاً. وعلى كلٍّ لم يكن سلوك أفراد الفرقة مميزاً خلال رمضان، وبخلاف الأربعة المشار إليهم آنفاً وبعض القلة الذين أفطروا «يوم الغمة»، كان على الباقين أيام ليقضوها، وخاصة زايداً وسعدان اللذين كانا أسوأ الجميع. فالإسلام في كثير من الأمور وخاصة العبادات متسامح ودين يسر، ويترك الكثير لنية الشخص بعد تبيان كل شيء يتعلق بذلك.

كانت قدير بئراً مالحاً ماؤها وذات عمق يصل إلى ما بين قدمين إلى ثلاثة أقدام، وتقع على مسيرة يوم من مخيمنا، ويُعد ماؤها غير صالح لشرب الإنسان وإن كان مستساغاً للجمال التي طفقت تشربه بنهم عند امتلاء الحوض المخصص لهم. وتسمى المنطقة بالخلاء أو الخلّة(*) لأنها تخلو من شجيرات الحاذ التي تشكل نبات المراعي المميز هنا. وكانت تموجات منطقة الحيود والأودية هناك أكثر انحداراً من تلك التي مررنا بها من قبل، كما أن منحدرات سلاسل الكثبان الطويلة ترتفع تدريجيّاً من الشمال تجاه القمم ثم تنحدر بحدة إلى بطن الوادي الذي يتكون عادة من رمل لين يستدعي السير عليه نوعاً من الحذر والاحتراس من الراكب، إذ إن الجمال -رغم خبرتها الطويلة في الرمال- تجد صعوبة في الهبوط من على جرف رملي حاد الانحدار، وتفضل الهبوط ورأسها إلى المقدمة نحو الهوة بقفزات قصيرة

---

(١) يعد الصوم للاحتياط في يوم العيد أكبر إثما من الصوم في أي يوم آخر.

(*) تعرف المنطقة بخلة بني مشرّع، وتقع عند دائرة عرض ٤٩ َ ٢٠ ْ وخط طول ٢١ َ ٤٩ ْ. (المراجعون).

مترنحة . وحدث أن طار زايد من سرجه وشدّ فراج ظهره في حادث مماثل عندما كانا يهبطان كثيباً . واستطعت أن أتجنب هذه المخاطر بممارسة نوع من الاحتراس النابع من حرصي الشديد على أدواتي التي كنت أحملها ، والتي ظلت سالمة إلى حد كبير خلال الشهور الثلاثة التي قضيتها في الرحلة .

بدأت الأرض ترتفع تدريجيّاً من وبار (٧٦٧ قدماً) في اتجاه الجنوب ، ثم بدأنا الهبوط في المنطقة التالية – حاذ فارس التي أخذت اسمها من بئر باتجاه الشرق في منتصف طريقنا نحو بواح – ، إلى نفس مستوى وبار ، وذلك بالقرب من «بني جلاّب» (٧٣٠ قدماً) ، ومنها هبطنا إلى «عنسلة» (٥٢٧ قدماً) . وظل مستوى الارتفاع على هذا المنوال إلى «نيفة» و«الزقرت» لتبدأ وترتفع تدريجيّاً في اتجاه شنَّة .

زودتنا حَاذْ فارس بأنواع من النبات وحياة زاخرة أكثر من أية منطقة مررنا بها منذ مغادرتنا وبار . وبالإضافة إلى شجيرات العبل المزهرة ، كان هناك كثير من شجيرات الحاذ والعلقا ، كما وجدنا زوجين من الغربان كان أحدهما قريباً من عش جديد خال من البيض ، ثم طار بعيداً ليعود إليه ويلقى نحبه برصاصة أطلقها صالح من بندقيتي ، وجاء الآخر مهتاجاً ليحمي رفيقه الجريح ، ولكننا تحركنا تاركين الزوجين تحت رحمة صالح ، الذي جاء حاملاً الأنثى وقد فارقت الحياة ، وترك الذكر حيّاً ليسعى في البحث عن رفيقة أخرى ، هذا إذا وجد واحدة في هذه المنطقة المجدبة . وبدأت أتعرف على أنواع الطيور الشائعة في هذه المنطقة من غربان وقبرة وطيور الصحراء المغردة ، وكانت المفاجأة أنني وجدت يعسوباً واحداً [1] ، بل ثلاثة منه أثناء اليوم ، وذلك بخلاف عينات أخرى احتفظت ببعض منها

---

(١) يعسوب . من نوع هيرميانكس افيبقر (بورم) .

في الكيس، وكانت كلها تنتمي إلى النوع نفسه وهو نوع كبير ذو لون أزرق باهت رأيته من قبل في يبرين وفي الأحساء. وتساءلت ما إذا كان هذا النوع من حشرات الرمال الحقيقية أم لا، وإذا كان الأمر كذلك فهل تستغني عن الماء في مرحلة اليرقة أم أنها تكتفي بما تجود به برك خيران الضحلة المالحة؟

أصبحت أمواج الكثبان تزداد ارتفاعاً وكثافة وضخامة كلما توغلنا تجاه الجنوب بينما بدأت الأودية العميقة، التي تتخلل هذه الكثبان، تكتسي بنبات أغزر. وبعد مسيرة خمس ساعات من حاذ فارس دخلنا منطقة بني جلاّب التي عسكرنا في منتصفها للمبيت، وكانت تمتد بعرض ١٥ ميلاً من الشمال إلى الجنوب. وكانت تضاريس المنطقة وما بها من مرتفعات ووهاد وحيود صعبة العبور تعيق السير، بينما أوجد نسيم جنوبي -يهب أحياناً ويسكن مرات- ظروفاً معقدة للسفر، كما أثارت حدة وانفعالاً في مزاج الرفاق الذين كانوا أصلاً متوترين من مشاحنات الليلة السابقة. وكان زايد قد أصر على الإفطار في اليوم الأخير، وعلى أمل أن يثبت ذلك أصدر أوامره للطاهي بأن يستغرق في نومه إلى ما بعد آذان السحور. ونجح فعلاً فيما أراده ولم يبق لنا إلا الشاي والقهوة لنتسحر به، وهكذا بدأنا آخر يوم من رمضان صائمين عن الطعام باستثناء السوائل.

بدأت أحداث النهار كئيبة إلى حد ما بسبب هذه العوامل مجتمعة، وكان عزاؤنا في ذلك أن الجمال استفادت كثيراً من المراعي الجيدة التي بدأت تظهر بكثرة على طول الطريق. والتقط أحدهم قرنين من قرون الريم من الرمل الذي كان يحمل أيضاً آثار أقدام الوضيحي، وكان روثه الجاف القديم هنا والأحدث عمراً في بعض المناطق، يعبق برائحة المسك الزكي. وضل

صيادونا طريقهم وهم يبحثون عن صيد ثمين يحتفلون به يوم حلول عيد الفطر، ولكنهم رجعوا خالي الوفاض إلا من زوجين من الأرانب، وكان الفريق قد تجمع حول نار المخيم لتناول آخر إفطار برمضان وهم يجأرون بالشكوى.

كان حسن خر الذيب هو الذي أبصر الهلال عالياً في الأفق قبل دقائق من مغيب الشمس، ورأيته أنا بعد عشر دقائق كاملة، كما رآه بعض رفاق حسن قبلي، وكان لابد من أن يعاد فتح ما دار بالأمس من نقاش حول هذا الموضوع. ولكن انتقادي لمعدل السرعة الذي سرنا عليه ظهر اليوم -إذ كنت مصراً على البقاء مع قافلة الأمتعة لإبداء احتجاجي على أولئك الذي ضلوا طريقهم، والسير على الأقدام طوال اليوم التالي- كان مثار اهتمام الجميع قبل أن يتحول الحديث إلى مواضيع أكثر إثارة.

كنا قد ملأنا القرب بالماء في البريهيمة في الرابع من فبراير ليستمر معنا لمدة ستة أيام، ولكننا لم نكن مقتصدين في استهلاكنا له، وكان أن أوشك ما لدينا منه على النفاد بعد أربعة أيام فقط. وحث زايد على إرسال فريق إلى نيفة ليأتينا بمؤونة منه إلى مخيمنا القادم. وبدا واضحاً أنهم ينوون بذل مجهود أكبر للوصول إلى عنسلة على بعد أربعين ميلاً صباح اليوم التالي، ولكنني عارضت الفكرة بشدة، فكان رد زايد: «ولكن لا ماء لدينا» وظننت أنه يبالغ في حديثه أو يكذب، وقلت له: «حسناً، يمكن أن نستغني عن الماء ليوم واحد. . بكل تأكيد. فقد قضينا شهراً كاملاً بدونه، وعلاوة على ذلك يمكنك أن تتناول ما تبقى منه حتى ولو كان قليلاً. فأنا لا أريد شيئاً منه ولا حتى لصنع إبريق الشاي المعتاد، كما يمكنك تناول لبن ناقتي. لا يمكننا

الوصول إلى أي مكان بهذه الطريقة، فليس هذا بالسير الذي أنشده! فقد كنا نسير بأقل من ٢٥ ميلاً في اليوم منذ أن غادرنا وبار».

جاء زايد بمفرده إلى خيمتي ليلاً ليدافع عن القضية المشتركة، ولكنني لم أنصع له وسألته: «لماذا لا تستطيع الاستغناء عن الماء؟» فأجاب زايد دون خجل: «نعم أستطيع. ولكن ذلك سيضرنا كثيراً، وقرب الماء خالية الآن». ورحل وهو مكتئب من عنادي وإصراري على موقفي، وبعد مشاركة رفاقه تسلل تحت جنح الليل ومعه علي بن جهامان وحميد ليأتوا بالماء رغم أنفي ويعودوا، إذا ما واتاهم الحظ، والوضيحي معهم.

«فالإنسان يقرر والرب يُقدِّر». أويت إلى فراشي دون أن أعلم عن مكيدتهم، وتركتُ سعدان يسلخ طيرين وأرنباً في ضوء القنديل. وكنت على وشك أن أستسلم للنوم حينما سمعت صخباً وشداً وجذباً على حبال خيمتي، وانهارت الخيمة فجأة فوق رأسي، وغاب سعدان بين ثناياها وانقلب القنديل الذي أسرعت في إنقاذه لأتجنب حدوث ضرر من جراء ذلك. وكنت لحسن الحظ قد حزمت أغراضي من قبل تحسباً لتحرك مبكر صباح اليوم التالي، وهبت العاصفة بقسوة وهي تجرف سحباً من الرمل اللاسع، واستلقيت بجانب أحد الصناديق لأحمي نفسي بينما تجمع أبو جعشة ورفاقه ضاربين حاجزاً حولي. وواصلت العاصفة هبوبها طوال الليلة تقريباً وكان نومي خلالها متقطعاً.

كانت الشمس على وشك الشروق عندما صحوت لأداء صلاة الفجر، وكانت العاصفة قد هدأت تماماً، ولكن المخيم كان في حالة يرثى لها من الدمار الذي لحق به. وتحول الحاجز الذي أقيم حولي إلى رابية في حين

اختفت خيمتي واضطررنا إلى انتشالها من تحت الرمال. وكان صباحاً بارداً ورطباً وكئيباً. وفرحت عندما سمعت أن فطور اليوم لم يُعَد لعدم وجود ماء كاف لإعداد القهوة، وعزفت بدوري عن تناول ما اعتدت عليه من شاي. وهكذا أفطرنا يوم العيد بتمر مخلوط بالرمل مصحوباً برشفات القهوة. ولاحظت غياب زايد وبعض الرفاق ولكنني التزمت الصمت.

بدأنا السير بعد الساعة السابعة بقليل، وكنت أمشي ومعي بعض الرفاق كما نفعل عادة عند بداية الرحلة. ولحق بي صالح، ومضينا سويّاً في طريق مستقيم تاركين الجمال وهي تحاول التغلب على السلاسل الكثبانية بطريقتها المتعرجة المعهودة وهي تبحث عن ممرات أو فجوات خلالها تمكنها من اجتيازها بسهولة. وتحدثنا أنا وصالح عن الوضيحي والغزلان ومنطقة المناصير الجميلة، ولكن صالحاً كان مشغولاً يفكر في شيء ما بينما سعدان الذي كان يقود ناقتي وراءه، ومعه فراج الذي كان بدوره يقود ناقة صالح، كانا يسيران على مسافة منا، ولكن ضمن مدى الصوت. وقد استمتعت كثيراً وأنا أجتاز الكثبان هبوطاً وصعوداً مشياً على الأقدام وأنزلق إلى أسفل المنحدرات الحادة لأصعد ثانية إلى قمة الكثيب. وبعد مسيرة ساعتين وصلنا إلى قمة حيد مرتفع حيث توقفت لألقي نظرة على ما حولنا. وفجأة لفت نظري شيء داكن فوق كثيب، فهتفت لصالح، الذي كان يرنو بشوق إلى الجهة الأخرى ناحية الجمال. «ماذا هناك؟» وظننت أنه غراب أو شجيرة ولكن كان يبدو غريب الشكل، وقبل أن يلتفت صالح إلى حيث أشرت كان الشيء قد اختفى وراء القمة. وعندما شرحت له ما رأيته، ظهرت عليه سيماء التوتر والتهيج. اقترح صالح – وكان قراراً حكيماً في تلك الظروف:

«قد يكون جاسوساً لقطاع طرق، دعنا نسرع لنلحق برفاقنا». فقد كان رفاقنا على بعد نصف ميل منا، وحثني صالح بأن أفصح له بكل ما أعرف عن ذلك الشيء، ولوّح بيديه ليحذّر الآخرين بأن ثمة شيء غريب يحدث.

عُقد مجلس حرب سريع بعد التحاقنا ببقية الركب، وأسرع فراج وصالح والآخرون بجمالهم ليراقبوا المكان ويستطلعوا أركانه بحثاً عن غرباء، بينما وقفنا نحن بجانب جمالنا نتأهب لأي هجوم متوقع. واستعد القوم لمواجهة أي هجوم يأتي بتسليح أنفسهم: فأخذ سعدان بندقيتي، ووعد عليٌّ بالدفاع عني وبقيت أنا وهو مع محمد بجانب الجمال: هما مسلحان بالبندقية، واحتفظت أنا بمسدس صغير عيار ٢٢.

عاد الباقون بعد دقيقتين، بعد أن تركوا بعضاً منهم في الميمنة، يطلبون منا أن نركب بسرعة ونسرع في السير تجاه اليسار. وبينما نحن نهم بالسير، عاد الكشافة والتحقوا بنا ومعهم ما اعتقدنا بأنهم الأعداء: زايد والآخرون الذين تهربوا من أداء الواجب! فقد أدركتهم العاصفة قبل أن يبعدوا كثيراً من المخيم، ولذلك لم يتمكنوا من تحقيق ما خرجوا من أجله، كما طمست الرمال آثارهم مما أحبط أي أمل للبحث عن وضيحي بتتبع آثار أقدامه على الرمال. وهكذا اضطروا على ترويض أنفسهم على البقاء دون ماء ليوم آخر. ويبدو أنهم كانوا يعتقدون بأنني لا أعرف ما قاموا به.

وبالرغم من ذلك ظلوا بعيدين مني، بينما واصلت أنا وصالح سيرنا على الأقدام ونسيم شمالي شرقي يهب من خلفنا. وعثرنا هنا وهناك على بعر الوضيحي، وكان صالح يتوق إلى أن يُخلي سبيله ليطارد الفريسة ولكن آثر البقاء بجانبي ونحن نسير في مقدمة قافلة الأمتعة. أما زايد ورفاقه فقد كانوا

بعيدين في المقدمة، ولكنهم توقفوا فجأة بعد ساعة على مسافة منا. وعندما لحقنا بهم وجدناهم وقد أسندوا جثة وضيحي ذكر على شجيرة عبل كان قد وجدوها ميتةً وشبه مدفونة في الرمل. ولم ندر إن كان موته بسبب جروح أصيب بها أم بالعطش. فقدكانت الجثة كاملة الهيئة، وأخذت صورة لها ثم قطعنا الرأس وحملناه معنا. فقد كان أول بقر وحشي أراه في بيئته.

دخلنا منطقة حاذ عنسلة بعد ساعة من هذه الفترة العاصفة، وكانت تتكون من سلسلة وراء سلسلة من كثبان ذات لون ضارب إلى البياض. ولم يعد صالح راغباً في السير على قدميه ولكنه تحامل وواصل بشجاعة بينما كنت مستمتعاً بذلك. وتساءلت في نفسي هل هو مرهق فعلاً، إذ لم يظهر عليه ما يشير إلى ذلك، فطلبت منه أن يركب ناقته وأن لا يتحرج من ذلك أبداً. وبعد طول انتظار اعترف صالح، والدموع في عينيه، بأنه لم يعد قادراً على المشي ويطلب مني السماح له بالركوب. فقد سرنا مدة ثماني ساعات، وما كان أمامي إلا الإذعان ولكنني أصررت على الركوب على قافلة الأمتعة. ثم لاحظت بعد أقل من ساعة حالة من الاهتياج تسري وسط فرقة المقدمة، فقد كان بعضهم يركض نحو أعلى المنحدر وهم يجرجرون البنادق وراءهم. وظننت أنهم قد رأوا عدواً أو آثار أقدامه، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد وجدوا مصادفة موضعاً خلد فيه زوجان بالغان من الوضيحي إلى الراحة تحت شجيرة عبل ظليلة ظهر ذلك اليوم، ونسي الرجال كل شيء في تلك اللحظة المثيرة: نسوا كل ما كانوا يعانون منه من جوع وعطش وإرهاق. وبهذا المشهد المثير انتهت مسيرة اليوم، وخيمنا في منخفض مجاور، ونصبت خيمتي في تجويف كثيب مرتفع.

كان الليل قد أرخى سدوله عندما عاد الصيادون أخيراً خالي الوفاض ولكن يحدوهم أمل قوي بصيد أوفر في اليوم التالي. ولم نتناول العشاء تلك الليلة لعدم وجود الماء، وكان أن وافقت على ذهاب فرقة إلى نيفة لإحضار الماء والالتقاء بنا غداً في عنسلة. ولدهشتي كان صالح أول من التحق بفرقة الصيد وآخر من وصل إلى المخيم، وجاء إلى خيمتي تغمره الفرحة والسعادة، وسألته: «حسناً! هل اصطدتم الوضيحي؟»، فأجاب: «لا. لكنني رأيت واحداً منه، ثور كبير وقريباً منا، فأطلقت عليه خرطوشة ولكنها أخفقت وهرب الحيوان إثر سماع الصوت! ولم أعد أراه ثانية، وها هي الخرطوشة اللعينة! هل ترى الانبعاج الذي في غطائها؟». وكان يكذب ويدري أنني أعرف ذلك، ولهذا ابتسم ابتسامة باهتة على ما بدر مني من شكوك ولاذ بالصمت.

جاء زايد بعد ذلك وطلب بطريقة مبهمة أن أعطيه مصباحي الإعصاري، وكان لدي مصباح ضغط آخر أستخدمه لاجتذاب الحشرات، ولكنني كنت أرفض إعارته لأحد لشح غاز البرافين. فسألته: ماذا تريد أن تفعل به؟ فأجاب: «فقط أريده». ولكن عندما أصررت على معرفة السبب قال: «حسناً! إذا كنت مصراً على ذلك. لقد سمعنا كلنا، ونحن جلوس أمام النار، صوت صفير منخفض، ونظن أنه ربما ثمة قطّاع طرق بالقرب منا، وأن الصفير هو إشارة الكشّاف». فناولته المصباح وصرفت النظر عن الموضوع حتى صباح اليوم التالي. قال زايد: «لم نجد شيئاً فقد بحثنا كل المنطقة ولم نجد أثراً لهم». قال حسن بجدية وإصرار واقتناع أدهشني وأثار فضولي: «إنه الجن!». فقد كان جاداً فيما يقوله وبدا لي بأن البقية يوافقونه

الرأي. ولم يدر بخلدهم أن هذا الصوت قد يصدر من أي شيء إلا مصدراً خارقاً للطبيعة. وكنتُ من قبل أسمع كثيراً بأن الربع الخالي موبوءة بالجن، وكانت هذه أول مقابلة مع سكانها من الأشباح.

بدأ الصباح بارداً وغائماً يبعث الكآبة في النفس، وكان نسيم هادئ يهب من الشمال عندما استأنفنا السير، وكنا نمر بين حين وآخر بآثار الوضيحي، كما أصبحت الكثبان -التي تمتد في اتجاه شمالي شرقي- جنوبي غربي أكثر ارتفاعاً وانحداراً ونعومة وهي تنحدر تجاه الجنوب كأمواج المحيط المتلاشية. وكانت منطقة من الأودية الرملية المقفرة تمتد بين أمواج الكثبان وتتناثر فيها شجيرات جافة من العندب والعلقا والعبل والحاذ وباقات من البركان كلما اقتربنا من عنسلة. وكانت مسيرة قصيرة طولها ١٥ ميلاً تخللتها فترة راحة امتدت لساعة واحدة. وكنا قد استخدمنا آخر كمية من الماء المتبقي معنا في إعداد القهوة، وأخرجنا آخر ما تبقى من لحم الجمل -الذي ذبح في مقينمة- وشويناه لنحتفل بعيد الفطر متأخراً بعد أن قضينا يومه دون فطور وعشاء. ثم أخذت الأرض تنبسط تجاه الجنوب، وبدت السلاسل أقل ارتفاعاً مع أن الانحدار العام أصبح أكثر. واقتربنا ببطء إلى قمة سلسلة طويلة ومتعرجة، وصاح سالم وهو يشير إلى أسفل: «انظروا! ها هي عنسلة». ونظرت إلى حيث أشار ووجدتها حفرة كبيرة تقع على مسافة ٢٠٠ قدم إلى أسفل وتتوسطها بقعة من الصخر.

لم نر خلال أربعة أيام كاملة شيئاً غير الرمال وهي في حالة تدفق دائم، وأحدث منظر تلك الصخرة تغييراً مرضياً في نفسي. فترجلت من الجمل لألقي نظرة على ما حولنا، بينما سلكت الجمال طريقاً ملتوياً للوصول إلى مدخل تلك الفجوة التي كانت محاطة من جميع الجهات بمنحدرات حادة

من الرمل الذي يتخذ شكل حدوة الحصان إلا من جهة الجنوب الغربي. وبلغ ارتفاع أعلى نقطة تطل على الحفرة مباشرة حوالي ٣٠٠ قدم من قاع الحفرة، ولكن بصفة عامة كان ارتفاع الحيد أقل بما بين ٣٠ إلى ١٠٠ قدم. ودار زوجان من الغربان حولنا عند مقدمنا وظلا معنا فترة إقامتنا في عنسلة من العاشر إلى الخامس عشر من فبراير. وكانا أحياناً يتجرآن بالدخول إلى المخيم أثناء خلودنا إلى الراحة. وكانت بندقيتي قد أصابها العطب ولم تعد صالحة للاستخدام، وكان ذلك بمثابة كارثة لأننا لم نعد قادرين على اصطياد الطيور الصغيرة التي بدأت توجد بكثرة تجبرني أحياناً على استخدام مسدسي الصغير لاصطيادها.

بينما كنت أجلس على كثيب يطل على المنخفض، سمعت صوت إطلاق بندقية تردد صداه بين الكثبان، ورأيت ثعلباً يقف دون حراك على الصخرة التي بالأسفل قبل أن يلوذ بالفرار بين الرمال الخلفية، وتابعته بنظارتي المكبرة ورأيت فرّاجاً والكلب (العقفا) يطاردانه، وكان واضحاً أن الرصاصة قد أصابته في بطنه، ولكنه تحامل قبل أن ينهار تماماً تحت الشجيرات، وجاء فراج جذلاً وهو يحمل غنيمته التي ثبت أنها ثعلب صحراوي من النوع الذي جمعه[1] توماس في العام الماضي.

بعد أن قمت بمسح كافٍ للمنطقة توجهت مباشرة نحو الحفرة عبر منحدر حاد ولين، وأخذت أدرس تكوينه الجيولوجي بينما كان الرجال ينصبون الخيام والجمال تدفع إلى حيث توجد المراعي. وظَهرتْ من تحت الرمال

(١) «الجزيرة العربية السعيدة» ص ٣٤٠ جلبت معي ثلاث عينات تم تصنيفها مبدئيا بواسطة الكابتن ج. دولمان من المتحف البريطاني على أنها من نوع .Cynalopex sp.

المتكومة وفوق ٥٠ قدماً فوق أرضية المنخفض، طبقة متقطعة من الحجر الرملي الهش ذي لون رمادي خفيف وهي تنحدر إلى أرضية صخرية مماثلة كبيرة المساحة، وتنحني حول منطقة البئر في شكل جرف مهيب يرتفع إلى ما بين ١٠ إلى ١٢ قدماً مخترقاً المنحدرات الرملية بقرونها لتختفي فيها نهائيّاً. وهنا وجدت بعض شظايا قواقع مياه عذبة[١]. وما عدا ذلك، لم يكن هناك ما يثير الاهتمام غير بقايا المخيمات البدوية القديمة مثل: قرون غزال الريم، وعلب الخراطيش الفارغة، وقطع الجلد وما شابه ذلك. وثبت أن شظايا الحجر التي التقطتها من هذا الموقع كانت أجزاء من نيزك صخري صغير[٢].

صادفت وراء منطقة الحجر الرملي -ومعزولة منها بالرمال- بقعة كبيرة من الكتل الجيرية المتحجرة التي أعيتني الحيل في فهم حقيقتها، فقد كانت تتكون من أنابيب أسطوانية تتفاوت في أحجامها ما بين صغيرة وكبيرة، مزدوجة ومفردة، وحتى ثلاثية أحياناً، وذات أسطح جيرية خشنة وناعمة ومصقولة من الداخل. وقد اقترح كامبل سميث[٣]، من المتحف البريطاني، أنها قد تكون كتلاً متحجرة تكونت حول فروع وغصينات نبات ماتت أجزاؤه الداخلية منذ فترة طويلة.. ولكن ظل الموضوع معلقاً دون بت حتى وصلت عينة مماثلة من الكتل الجيرية المتحجرة إلى المتحف البريطاني من موضع في الأردن. وفي هذه الحالة كان القصب المتحجر الذي تكونت حوله المادة الجيرية لا يزال سليماً. ولم يعد هناك شكٌّ بأن كتل عنسلة

(١) من نوع الأبراص الداكنة (انظر الملحق).

(٢) انظر الملحق.

(٣) انظر الملحق.

المتحجرة تنتمي إلى أصل مماثل. ويمكن أن نفترض أن حقلاً من القصب كان ينمو فيما مضى في البقعة التي وجدت فيها الكتل أو بالقرب منها، وهكذا يمكن اعتبار منطقة عنسلة كبقايا لوادي الدواسر القديم الذي لم نصادف أثراً له حتى الآن. وفي هذه الحالة يمكن أن يكون وادي شنَّة -الذي يقع بعيداً في الجنوب- يشكل الجزء الأدنى من نظام وادي نجران الذي يمكن أن نجد له مصبّاً نهائيّاً يوماً ما. ويبدو أن عنسلة والطويرفة -اللتين تفصل بينهما مسافة ١٠٠ ميل- تقعان تقريباً على نفس المنسوب فوق مستوى البحر وتفصل بينهما أرض مرتفعة. وإذاً لابد أنهما يمثلان بقايا أودية مختلفة. ويمكن أن نقترح مؤقتاً أن المنطقة التي تضم عدرج وعنسلة ونيفة والزكرت تكوِّن إما دلتا لوادي الدواسر أو مصب بحر خليجي. وفي غياب ما يشير إلى وجود ماء جوفي عذب في المنطقة فإنني أميل إلى تفضيل البديل الأخير، مع أن البديل الأول لا يمكن تجاهله بتاتاً.

يصل عمق البئر الوحيدة هنا إلى سبع أو ثماني قامات -كما يقال-، وقد حفرت في طبقة من الرمل الجيري، وفتحتها- التي يصل محيطها إلى قدمين- مقوية بإطار من الأثل. ويحتمل أن يعود تاريخ حفر البئر إلى زمن قديم، ولكن تاريخها الحديث - وكم هي قصيرة ذاكرة الصحراء- يبدأ مع آل نفل من شيوخ بني مُرّة، الذي حضر هنا وهو يهلوس من العطش أثناء إحدى حملات قطع الطريق، وحلم برؤيا في منامه تناجيه: لا تخف الماء تحت أقدامك! وفي صباح اليوم التالي تبع آل نفل الحيد إلى أن وصل الصحراء المكشوفة حيث بدأ هو ورجاله يحفرون حتى انبثق الماء، وهكذا نجا هو ورفاقه وحيواناته من الهلاك. وقد حدث هذا قبل ٥٠ سنة. ثم دفن

الجفاف مهوى البئر حتى سنة البَرَد عام ١٩٢١م [١٣٣٩هـ] عندما أعاد علي ابن جهامان اكتشاف البئر، وفتحها من جديد. وظلت بعد ذلك مستخدمة بانتظام لمدة فصلين متتالين إلى أن بدأت ثماني السنوات العجاف وهجرها الناس من جديد تاركين البئر تحت رحمة الرمال. ولذلك وجدناها مدفونة، ويقال إن ماءها مالح ولكنه مستساغ.

المدهش حقّاً أن تظل بقعة من صخر الأديم مكشوفة على السطح دائماً رغم ما يحيط بها من رمل. ويمكن تفسير ذلك بالقول بأنه في مثل هذه المنخفضات العميقة تثير الرياح دوامة من الرمل تساعد في كنس الأرضية وتنظيفها من الرمل. وكان من الصعوبة بمكان العثور على موضع مناسب لنصب خيامنا التي كانت تُقتلع بين حين وآخر بدوامات هوائية مفاجئة كانت تهبط علينا دون إنذار. وحدث أن سقطت خيمتي على الأرض ثلاث مرات أثناء إقامتنا هنا.

استخدمنا فور وصولنا كل ما تبقى من مخزوننا من الماء في إعداد آخر إبريق من القهوة، وما كان أمامنا إلا انتظار قدوم الفرقة التي بعثناها إلى نيفة، وكان أن وصلت الساعة الخامسة مساءً وهي تحمل ماء نيفة ذات السمعة السيئة. ومنذ اللحظة التي تناولنا الماء أصابنا إسهال لم يفارقنا حتى نهاية الرحلة. وقد بدأت الأعراض معي بعد وصولنا عنسلة مباشرة وإن لم أستطع أن أعزو بدايتها إلى ماء نيفة، مع أنه ثبت أنه يحتفظ بفعاليته حتى عندما يستخدم مع الشاي والقهوة. ولكنني أعزو ظهور الإسهال أيضاً إلى التوقف عن الصوم. لأنني -وبتحريض من صالح وحميد- تناولت زهور العبل البيضاء وعسلوجه بكثرة أثناء مسيرتنا وتوقفنا، كما أن طعام المكيكة

بدأ يظهر مراراً في قائمة الطعام، ويمكن أن أضمن أو أكفل الخصائص الطبية التي كثيراً ما سمعناها عن هذا النبات.

اتفقنا أن نتخذ من عنسلة قاعدة لعملياتنا على أن يتوجه زايد وعلي بن جهامان إلى شنّة لتجنيد الأدلاء والكفلاء «الضامنين» من العرب لرحلتنا المقترحة إلى الجنوب، وكان أمامهما ستة أيام لينجزا خلالها مهمتهما ثم يلتقيا بنا في الزكرت– وهي مرحلة أخرى من رحلتنا تجاه الجنوب–. وكان جابر بن فسل قد نبهنا إلى أننا قد لا نجد أحداً في المراعي الجنوبية لأن الرعاة كانوا يعدون أنفسهم لمغادرة المكان ليلجؤوا إلى حماية الجبال الجنوبية قبل وصول الحملة الانتقامية التي تخيلها ضمير الشيخ المنهلي سيف بن طنّاف المريض عندما رأى الاستعدادات جارية لإعداد حملتنا في الأحساء. وبالإضافة إلى سيف شخصيّاً، كان على فريقنا أن يبحث عن حمد بن سلطان، الذي كان دليلاً لتوماس ويعيش الآن مع زوجته بين أقربائه من آل راشد الكثيري ربما ليكون بعيداً عن متناول جامعي زكاة الحكومة؛ كما أن الحصول على حسن بن جالوت من قبيلة راشد أو أحد أقربائه مرغوب فيه، وسنحتاج أيضاً إلى ممثلين لقبيلتي الصيعر وكرب. وقد أبدى زايد وعلي استعدادهما التام لخدمة أهدافنا بكل إخلاص وتفان. ولكن اتضح أن جابراً كان صادقاً فيما قاله، إذ لم يريا أي عربي في الطريق. ويمكن أن نعزو ذلك إلى الرهبة التي يثيرها اسم ابن سعود وسط شعبه، لأن فرقة تتكون من تسعة عشر رجلاً لا يمكن أن تشكل خطورة لقبائل الجنوب المحاربة المتمردة والتي يمكن أن تضع ٢٠٠ أو ٣٠٠ محارباً مسلحاً في الميدان دون أدنى صعوبة؛ ولكن أن تتحدى ممثلاً للملك العظيم سيكون أمراً له عواقبه الوخيمة، ولذلك آثروا تجنب تلك المسألة بالانسحاب بعيداً بقدر الإمكان.

بعد استشارات طويلة أثناء الليل مع مبعوثين مختارين، عرضت عليهم الاختيار بين ثلاثة أهداف. فقد أظهرت ملاحظة النجم القطبي أن موضعنا يقع جنوب خط عرض ٢٠ْ شمالاً بقليل، وخط طول حوالي ٥١ْ شرقاً، وفي هذه الظروف فإن قبر هود[1] سيبدو أفضل هدف نبتغيه على خط طول ٥٠ْ شرقاً وخط عرض ١٦ْ شمالاً بقدر ما أستطيع أن أؤكده من الخرائط المتوافرة، وكانت تلك هي المهمة التي أوكلتها لهم، مع شبام -بعيداً جهة الغرب- وساحل البحر -بعيداً إلى الجنوب- كبدائل معقولة يمكن أن نتوجه إليها. كما كان عليهم أن يستأجروا عدداً قليلاً من الجمال -إذا أمكن ذلك- ويؤكدوا إمكانية استكمال الميرة التي سنحتاج إليها في رحلتنا النهائية عبر الصحراء المقفرة إلى السليل.

قال علي: «انظر يا صاح، أنت تعرف حقيقة البدو، إنهم سيطلبون مالاً كثيراً. عليك أن تخبرنا كم سندفع» فأجبته: «ذاك أتركه لكم لتقرروا. سأوافق على ما ترونه معقولاً، فإن المال الذي جلبته معي هو لتلبية احتياجات الحملة كلها. فلا تبددوه حتى لا يقل نصيبكم». ولكن علياً ألح عليّ بأن أحدد المبلغ الذي أريد دفعه، فأجبته متملصاً: «بكم تنصح؟» وبقي علي وقتاً ليس بالقصير دون أن يلزم نفسه بشيء محدد، ولذلك طلبت منهم أن يتشاوروا فيما بينهم ويأتوني بالنتيجة. وبعد فترة قَدم علي ورفاقه قائلين: «نحن نرى بأنهم لن يقبلوا أقل من ١٠٠ دولار لكل واحد

(١) زار هذا المكان فان ديرميولن والدكتور فون فيسمان في عام ١٩٣١م. وتم نشر قصة هذه الرحلة في كتاب بعنوان «حضرموت». انظر أيضا مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد رقم ٣ (١٩٣١م). لمعرفة الرحلة الجوية التي قام بها قائد الحملة ر. كوشرين بطائرته فوق هذا الموضع، والذي بموجبها حدد الموقع الفعلي للمكان بحوالي خط الطول ٤٩ْ ٣٠َ شرقاً ودائرة العرض ١٦ْ شمالاً.

منهم. إن البدو طماعون، وقد كان المسيحي توماس كريماً وسخيّاً معهم العام الماضي». سألت زايد: ماذا ترى؟ وأجاب: «إنني أتفق مع علي، إنه أجر رخيص، إنهم شيوخ، ومتى ما كنت سخيّاً معهم، فإنهم سيخدمونك جيداً». فأجبت: «حسناً. إنني موافق على ذلك». وفي الحقيقة إن إمكانية إنفاق ٤٠٠ إلى ٥٠٠ دولار -حوالي ٢٠ أو ٢٥ جنيهاً- لم يكن يبدو باهظاً في مثل هذه الأحوال.

جلسنا صباح اليوم التالي حول نار المخيم ونحن نحتسي القهوة ونأكل التمر بينما كانت الاستعدادات جارية لإرسال الجمال لترتوي في نيفة، ولأننا سنزور المكان لاحقاً آثرت أن أبقى وأرتاح قليلاً. وكان على زايد وعليّ بن جهامان أن يرافقا الفرقة إلى نيفة ومن هناك يتجهان إلى شنَّة. وبينما نحن جلوس، مرت مجموعة من الإوز أو البجع[1] متجهة نحو الشمال، وكان منظراً رائعاً في هذه الصحراء الموحشة. قال علي: «إنها تتجه نحو قطر، فقد رأيناها كثيراً هناك حول الساحل». وكان زايد الطاهي قد ذكر بأنه رأى كرواناً عند طرف المخيم، وكان يرتاد المخيم ليلاً، ولكننا لم نره. وكانت هذه المثابرة توحي بأن وجود الماء أو الرطوبة كان عاملاً جاذباً للطيور، بينما كان وجود مخلفات الثعالب بجوار البئر هنا وفي أم الحديد وحول مواضع الآبار التي قمنا بزيارتها لاحقاً ينم عن أن الثعالب لا تتحاشى المياه بل تتردد على الأماكن القريبة منها. واقترحت على عليّ بأن يختار، متى ما أراد العثور على الماء في هذه الرمال، مواضع مناسبة للحفر في الأرض الصلبة التي حفرت فيها الثعالب. ورأينا أعداداً كبيرة من طيور

(١) يسميها رفاقي في الرحلة «اللاو».

الصحراء الصغيرة هنا وفي أماكن مجاورة، كما رأيت فراشة واحدة من نوع الطير الطنان مرة واحدة أثناء النهار.

بعد أن استكشفنا عنسلة وما يجاورها مباشرة، اتخذت قراراً بالقيام بنزهة إلى بئر عدرج التي تبعد بحوالي عشرة أميال في اتجاه الشمال الشرقي. وعلى ذلك توجهنا إلى هناك في الثاني عشر من فبراير في فرقة تتكون من سبعة أشخاص لقضاء ليلة هناك والعودة صباحاً. أما المنطقة التي اجتزناها تحت إرشاد سالم فقد كانت مماثلة لتلك التي رأيناها من قبل في طريقنا إلى عنسلة باستثناء المراعي التي كانت تبدو أفضل كثيراً، بينما شكّلت سلسلة كثبان «حَمْران عدرج» العالية الطويلة -والتي تمتد في اتجاه شمال شرق- جنوب غرب- أهم معلم بارز شاهدناه في طريقنا؛ وخلفها عبرنا سهلاً متموجاً تحده عند طرفه البعيد سلسلة كثبان عدرج نفسها.

لم يكن سالم واثقاً من اتجاهاته هنا، ولذلك انحرف بنا تجاه اليمين على طول سفح الحيد على أمل أن يجد ممراً نعبر منه. وهاجت الجمال أثناء سيرنا -وأنا معها- عند رؤية أجمل شجيرات الصحراء لأول مرة. فقد أضفت زهرة نبات الزهرة الصفراء الشبيهة بالكأس، وأوراقها المثلجة، صورة جذابة لتلك البيئة القاحلة. ومع أنني رأيت النبات كثيراً بعد ذلك، فإنني لن أنسى أول انطباع عن جماله الغريب، وقد تعجبت عندما سمعت بأن البدو لا يقدرون هذا النبات كعلف للجمال، كما أن الروث الناتج من استهلاكه ذو قيمة سعرية أقل من روث نبات الحاذ. ولكن جمالنا قضت على ما كان هناك من نبات الزهر. وقد لاحظت وجود طيور الصحراء المغردة بأعداد غير مألوفة وهي تطير في مجموعات بدلاً من أن تتوارى وسط الشجيرات فرادى أو زوجين كما عهدناها.

وبعد ذلك مباشرة وجدنا أنفسنا فجأة أمام حافة منحدرة - تجويف عدرج نفسها- وخلفها الكثيب المرتفع الذي يضفي سمة السلسلة المتواصلة على المنطقة. وجدنا الآبار الثلاثة «الميتة» في بقعة ممتدة من الصخر الرملي المكشوف. وكانت الآبار مطمورة بالرمال، ويقال: إن عمقها آنذاك كان يصل إلى تسع قامات، وكانت فتحات مهاوي البئر واضحة رغم الرمال التي كانت قد زحفت عليها في الجزء الأكثر انخفاضاً حيث تقع الآبار بين منحدر الكثيب الحاد ورابية من الصخر المنتصب المقسوم أو المتجزء إلى أربعة أجزاء غير متساوية، وترتفع إلى ما بين ١٠ إلى ١٢ قدماً فوق مستوى البئر. وكان سطح الرابية يكتسي بمظهر جيري خشن وصلب، ولكننا لم نجد أثراً لأنابيب القصب المتحجرة التي وجدناها في عنسلة، كما التقطت بعض القطع الصغيرة من النيازك الحجرية. ووجدنا أيضاً بعض العينات من المومضات[1] أو أحجار البرق أو أنابيب البرق -التي تتكون من الرمل المصهور من تأثير البرق- تتناثر في هذا المكان. ويقول العرب بأن هذه الأنابيب مؤشر إلى وجود الماء. وكنا قد عثرنا على مثل هذه العينات في الصحارى الرملية. ولم يكن هنا ما يوحي بوجود الماء، كما لم يكن هناك ما يشير إلى وجود علاقة قوية بين الاثنين، ولكن بدا لي أن ثمة علاقة بين صخور الأديم المكشوفة ووجود المياه الجوفية. وقد توجد هذه الصخور المكشوفة في مستويات الأودية القديمة المنخفضة حيث غالباً ما يوجد الماء على عمق ضحل أو كبير. وقد لاحظ ولْفرد والليدي آن بلَنْت[2] شيئاً من هذا القبيل في صخور مكشوفة مماثلة في النفود الشمالية.

---

(١) انظر الملحق.

(٢) «رحلة إلى نجد» الفصل الثامن.

وعلى الرغم من أن زيارتنا لعدرج كانت ممتعة من كل جوانبها فقد حدث ما يعكر صفو تلك المتعة. كنت قد توجهت إلى قمة كثيب ومعي سالم الذي توجه إلى الصحراء بحثاً عن بعض اللحم ثم عاد بعد فترة وهو يحمل أرنباً ذا لون بني فاتح، فناولته لسعدان ليقوم بسلخه ونحن نجلس حول نار المخيم، محذراً إياه بأن يتخذ كل الحذر في العملية لما لهذه العينة من أهمية بالنسبة لي. ولكن سعدان كان غير عابئ بما أقول، ولذلك كررت تحذيري له، ثم انصرفت عنه إلى أمور أخرى حتى أعد الطعام الذي كان يتكون من الأرز ولحم الأرنب المشوي. وبينما نحن جلوس حول النار بعد العشاء نستمتع بليلتنا الجميلة تلك في عدرج، سحب فراج شيئاً من الرماد، فإذا به رأس الأرنب وقد شوّه تماماً، فلم أعد أتمالك نفسي وصرخت في وجه سعدان غاضباً، والذي بدا غير مكترث بذلك بل أخرج لسانه ولوح به بوقاحة لم أستطع الصبر عليها. وطلبت من الرجال أن لا يفوت ذلك دون توبيخ وإدانة أو عقوبة، ولما أحس القوم بحدة غضبي، طلب ابن معدّي بأن يقيَّد سعدان ويجلد، فوافقت على ذلك دون تردد، وقام الرجال بتنفيذ العقوبة بطريقة تؤلم النفس وتهين الذات أكثر من الجسم. وكانت النتيجة أنه بدا أكثر تمرداً كما أصبح عابساً مقطب الجبين، وأجبر على معاونتي -كما كان يفعل عادة- في عمليات الثيودولايت التي تمت بكل نجاح رغم التوتر الذي ساد بيننا. وظل الحدث كامناً في صدره إلى أن أعلن بأنه لن يعمل معي بعد ذلك. وبعد تفكير ملي، جاء سعدان صباح اليوم التالي معلناً استقالته الرسمية من خدمتي والتي قبلتها فوراً واقترحت بأن أدفع له كل استحقاقاته كاملة حتى تاريخ ذلك اليوم. واستفسرت عن متطوع يحل محل سعدان ووجدت عروضاً عدة؛ ولكن سعدان أحضر لي براد الشاي بنفسه في بادرة أدت إلى

عقد صلح بيننا. فقد عرف مقداري وقوة عزيمتي، ولم نعد نتشاجر مرة أخرى. فقد كان سعدان في الحقيقة شخصاً لا يمكنني الاستغناء عنه إذ كان يخدمني جيداً، ولذلك كانت مكافأته أكثر من نصيب كل أفراد الفرقة.

أما رحلة العودة من عنسلة فقد قمت أنا شخصيّاً بتحديد اتجاهاتها عن طريق البوصلة، وحددت أن نسير تجاه الجنوب لمدة ساعتين ثم تجاه الشرق بقدر ما تسمح به الحيود المتداخلة. وصادفنا أثناء سيرنا جنوباً -وإلى الجنوب من الحيد الذي يلي حمران عدرج- تلة صخرية داكنة اللون في منخفض صحراوي تحيط به الرمال مما يومئ بوجود بئر قديمة منسية. وقضينا هنا ساعة نبحث دون جدوى عن قواقع أو حفريات، وأجمعنا على وجود مهوى بئر مدفون في مكان ما داخل المنخفض، وأطلقنا اسم «البئر المخفية» على الموضع. ويستدعي الوضع إجراء تحريات أكثر حوله عندما يعود البدو إلى هذه المنطقة تحت ظروف رعوية أفضل.

تعرف المنطقة الواقعة بين عنسلة وعدرج باسم حَاذ عنسلة، بينما تبدأ بعد وإلى الغرب من سلسلة كثبان عدرج، منطقة أخرى تعرف باسم خلّة عدرج التي اجتزناها بعد أيام قليلة. ولم تكن مراعي هذه المنطقة - رغم أنها كانت تبدو أفضل من مناطق كثيرة رأيناها من قبل- بالجودة التي تجذب قطعاناً كبيرة للبدو الرعاة.

عندما وصلنا عنسلة، وجدنا كل شيء منظماً كما تركناه. وكان ابن حميد قد عاد من رحلته التي رافق فيها علياً وزايداً في أول مرحلة من الطريق بغرض استكشاف مداخل الزكرت وتحديد موقعها في خريطته الذهنية ليرشدنا إليها في الوقت المناسب. وقضينا اليوم التالي، الذي بدا دافئاً

ومعتدلاً وخالياً من الرياح ما عدا نسائم شمالية خفيفة، في راحة بدون عمل. وطفت بالمنطقة المجاورة سريعاً أملاً في العثور على فراشه اسبنداسيز ولكن دون جدوى، ولكنني عدت وفي حوزتي زوج من ذبابة التنين أو اليعسوب. ولكن باستثناء الراحة التي وجدناها وسط مراع معقولة لجمالنا، كانت الميزة الرئيسة الناتجة من بقائنا المطول في عنسلة تتمثل في الفرصة التي أتيحت لنا لإجراء مجموعة من الملاحظات على النجوم والشمس بهدف تحديد خط عرضها وخط طولها إن أمكن ذلك.

توجهنا إلى نيفة صباح اليوم التالي، وسلكت قافلة الأمتعة الطريق المباشر، بينما أخذت أنا وبرفقتي ابن معدّي وفراج طريقاً أكثر ميلاً للجنوب بهدف التحري عن صخرتين مكشوفتين كانا قد لاحظاها في اليوم السابق عندما خرجا يبحثان عن الصيد. فقد كانت مثل هذه البقع الصخرية الموجودة في وسط الصحراء تثير اهتمامي كما تثير الجزر غير الموقعة على خريطة بحار مجهولة انتباه البحّار المتجول. ووجدت لدى العرب قبولاً واستعداداً لدراسة أي موضع يشتبه فيه وجود ماء.

وصلنا بعد نصف ساعة إلى حيث الصخرة الأولى. . وكانت بقعة صخر كائنة في منخفض رملي بدا كحدوة حصان ابتدائي. وهنا أيضاً عثرنا على عدد من مخلفات الثعالب كما كانت مومضات تتناثر في أرجائها. ولكننا لم نعثر على الفتحة المعهودة لبئر مطمورة، وأطلقنا على المكان اسم «السلاّن» إشارة إلى قربها من عنسلة، ثم واصلنا السير بعد ذلك حتى وصلنا بعد عشرين دقيقة تلة متناسقة ترتفع إلى حوالي ثلاثين قدماً وتقبع في حفرة داخل فجوة كثيب للجرف الرملي المجاور. وكانت هناك بضع طبقات

صخرية مكشوفة أخرى أقل حجماً تنتظم المنحدرات الرملية المجاورة. وهنا أيضاً عثرنا على مخلفات الثعالب على قمة التلة وعند أطرافها، كما لم نجد فيها بئراً، وقنعنا بإضافة اسم جديد في الخريطة المحلية اقترحه فراج وهو اسم «المنيفة» بحكم ارتفاعها الكبير نسبيّاً.

مررنا بعد لحظات من حاذ عنسلة إلى خلّة نيفة، وهي منطقة تتكون من ست سلاسل رملية عارية تقريباً، وتمتد في اتجاه شمال شرق - جنوب غرب، وتتجمع تحت اسم «بني ريمَان»، وذلك بسبب بياضها اللافت للنظر على النقيض من الرمال البنية أو المائلة للاحمرار التي تركناها خلفنا. وهنا وجدت آثار أقدام الحبارى والأرانب والثعالب، ولكن لم يكن لدينا وقت لنضيعه في البحث عن الصيد لأن رفاقي كانوا قد بدؤوا ينزعجون من ابتعادنا المتزايد عن المجموعة التي كانت تظهر في الأفق البعيد. أعلن فراج -وهو شخص متقلب المزاج وعصبي- بأنه سمع صباح ذلك اليوم صوت بندقية بعيد وهو يراقب على حيد عنسلة، وهذا يوحي بوجود أناس آخرين في الصحراء غيرنا، ولكن يحتمل أيضاً بأن الطلقة قد انطلقت من بندقية سالم أو حسن اللذين انطلقا بإذن منيّ للبحث عن الوضيحي على شريطة أن يلتقيا بنا بعد ثلاثة أيام في الزكرت، أو -كما اقترح صالح- أنه الجن يصطاد بنفسه أيضاً.

بدت المنطقة كبحر متلاطم الأمواج وأكثر تقطعاً ووعورة كلما اتجهنا شرقاً. وكانت الأطراف الشمالية من سلاسل بني ريمَان منخفضة ومستديرة مع أن منحدراتها الجنوبية كانت لا تزال عميقة وحادة. وضمت بقعة منبتة على الطريق قُبَّرتين وطيراً مغرداً إلى جانب يعسوب وفراشة السيدة الملونة،

وكانت أول فراشة أراها منذ كنا في يبرين والوحيدة التي رؤيت في كل الربع الخالي.

كانت بئر نيفة تقع عند أسفل الجانب الجنوبي من السلسلة الثالثة داخل تجويفة كثيب طويل يشكل رأسها جزءاً من السلسلة الرئيسة، بينما كان الجزء الآخر يمتد ككتف بارز من هناك إلى مسافة نصف ميل أو أكثر. وكانت التجويفة تمتد في اتجاه شمال شرق - جنوب غرب في نفس اتجاه محور السلاسل الرملية، وتحيط بها الرمال عند المنحنى الداخلي كقرون الكثيب البارزة. وكان نبات العبل يغطي الرواق الطويل الذي يفضي إلى البئر والذي بدأ يتوسع كالمروحة عند طرفه الجنوبي الغربي إلى وادٍ واسع متموج.

وجدنا هناك بئراً واحدة -ذات ماء مالح- حفرت في حجر رملي عند الطرف الداخلي لبقعة صغيرة من صخر الأديم ترتفع منها منحدرات الرمل إلى حوالي ٢٠٠ قدم متخذة شكل مسرح. وكنا نراوح الخطى هنا لنتيح لزايد وعليّ وقتاً أكثر لإنجاز مهمتهم، وكنت في حالة نفسية طيبة جعلتني أستمتع بكل الراحة الممكنة خلال هذه الأيام الخامدة. وكانت الساعة قد بلغت الثانية مساء عندما وصلنا إلى المخيم، وبمجرد أن نصبت خيمتي أويت إلى فراشي لأغفو قليلاً حتى الساعة الثالثة والنصف مساءً عندما أيقظني القوم لأداء صلاة العصر. وبعدها بقيت في العراء أستمتع بدفء يوم هادئ خالٍ من الرياح بينما ظل رفاقي بقرب البئر وهم يعملون أو يغتسلون في حين جلس سعدان القرفصاء على قمة طرف حاد من الفوهة كان قد تسلق إليها ليراقب.

وفجأة بدأت الأرض المنحدرة، والتي تكتنفها الكثبان من جميع جهاتها

تئـز وتئن وتدندن بصـوت أقـرب إلى صـوت صـفـارة الإنذار أو ربما أزيز الطائرة، صوت ذو جرس موسيقي جميل وإيقاع منتظم عميق. وكنت قد سمعت بظاهرة «الرمال المغردة» هذه مرة واحدة من قبل، وذلك بالقرب من كثبان بدر المتراكمة بين ينبع والمدينة في يوليو ١٩٢٨م [١٣٤٧هـ]، ولكنني سمعتها من بعيد. أما هنا في نيفة، فقد كانت الظروف مثالية لدراسة «حفلة الرمال الموسيقية». وكان أول مقطع منها طويلاً، إذ امتد لأربع دقائق، لينتشلني من المفاجأة لأستوعب كل تفاصيله، وبدأ الرجال الذين كانوا يعملون عند البئر حفلة موسيقية أخرى ولكن ببذاءة موجهة إلى الجن الذين يعتقد بأنهم المسؤولون عن حدوث ذلك الصوت. ولما رأى أبو جعشة امتعاضي على ما بدر منهم قال: «تمهل قليلاً عليك أن تنتظر حتى المساء وستسمعهم حينذاك وهم يطلقون بنادقهم. إنها أسوأ من ذلك بكثير». ولكن ذلك لم يحدث لسوء الحظ، فقد كنت راضياً في تلك اللحظة بما سمعت، وأدركت أن المفتاح لهذا اللغز هو سعدان الذي كان مازال يجلس هناك في أعلى المنحدر. وكان واضحاً أن الموسيقى كانت تتولد من انزلاق الرمل إلى أسفل عبر المنحدر الحاد الذي كان يجلس عليه.

بالإضافة إلى ذلك، بدت الموسيقى وكأنها تسكت عندما نهض سعدان ومشى على طول الحيد لمسافة ٥٠ يارده.. لتبدأ من جديد عندما جلس ثانية، مع أن الصوت هذه المرة كان أضعف عما كان عليه سابقاً، واستمر فقط لدقيقة واحدة. وعاد سعدان يمشي ثانية متتبعاً حافة قمة الدائرة، ولم يحدث صوت أثناء سير سعدان، ولكن عندما جلس على الأرض بدأت الموسيقى تنشأ مع تحركات سعدان من نطاق غير مشوش «مستقر» إلى آخر.

وعندما رجع سعدان بعد أن أشبع نفسه من تلك الملاهي، توجهت إلى حيث كان يقف ومعي زجاجة -لجمع عينة من الرمل- ومذكرة وساعة.

وجدت ريحاً شمالية تهب من خلف سلسلة الكثيب التي تحيط بالمنخفض، وكانت القمة ترتفع إلى ٢٠٠ قدم فوق مستوى البئر، وكان انحدار الرمل حاداً جداً وناعماً مع أن حدة المنحدر لم تكن متطابقة في كل الجهات. وكان الانحدار يتجمع عند المنخفض في شكل قوس كامل يمثل حوالي ثلثي دائرة، وبدا لي أن الموسيقى تبدأ فقط عندما يكون الرمل في حالة انزلاق تجاه أسفل الأجزاء ذات الميلان الأكثر حدة. ولذلك لم أستطع إحداث الظاهرة حسب رغبتي إلا إذا وقفت عند حافة جزء مناسب لأداء العملية. ونبعت الموسيقى في حالات ثلاثة منفصلة إثر تشويشي أو إقلاقي للرمل السائب عند القمة. وكان الصوت كأزيز الأورج عالياً ومتناغماً.

وقفت عند حافة المدرج ودفعت رمل القمة الناعم الكثيف إلى الأسفل بقدمي. وعلى ذلك بدأ شريطان عريضان كالشلال يتحركان بثبات إلى أسفل المنحدر محدثاً صوت احتكاك واضح. تماماً كالصوت الذي نتوقعه في مثل هذه الحالات، صوت مرتفع كصوت احتكاك جسم خشن ينزلق فوق أرضية رملية. وبدأ الصوت خافتاً وخالياً من أية مسحة موسيقية، ثم بدأ يتصاعد حتى تقدمت الكتلة المتحركة إلى مسافة ٥٠ قدماً من المنحدر، وعندئذٍ تغيرت نوعية الصوت فجأة من صوت الاحتكاك إلى دوي وأزيز.

يبدو أن ارتفاع الصوت كان يعتمد على كمية الرمل المتحركة. ولكن كان هناك في كل الحالات تصعيد للصوت الذي يبدأ يخف قليلاً فقط قبل أن يتوقف فجأة -تماماً كما تتوقف ماكينة السيارة- ومتزامن، كما بدا لي، مع

التوقف المفاجئ لكل حركة تحدث على المنحدر. واستمر كل مقطع من الأزيز الفعلي ما بين دقيقتين أو ثلاث دقائق في المتوسط، بينما بلغت المسافة التي يقطعها الرمل وهو يئز ما بين ٥٠ إلى ٧٠ قدماً.

بعد أن عالجت العرض بنجاح تام، شرعت في أداء الفقرة الأخيرة من الحفلة الموسيقية. وسرعان ما بدأ الجرف الرملي يئز ويطن بشكل مؤثر للغاية، واندفعت وبيدي الزجاجة إلى أسفل الـ ٥٠ و ٧٠ قدماً الأولى من المنحدر واتخذت وضعاً منحنياً على كتلة الرمل المغردة التي غمرت ركبتي إلى عمق ١٢ بوصة، ثم دفعت بالزجاجة عميقاً داخل الرمل الناعم المتحرك وهو يغني أو يئز. وعندما سحبتها، لاحظت صوتاً ما كالذي تحدثه آلة الترومبوني أو المترددة الموسيقية، كما حدث صوت مماثل عندما سحبت ركبتي من المنحدر، وأيضاً عندما دفعت بيدي إلى داخل الرمل المتحرك وسحبتها ثانية. وبدا لي أيضاً أن هناك فراغاً في العمق تحت السطح، وإن كان من الصعب التأكد من ذلك. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أحسست وأنا أقف منحنياً على الرمل المتحرك بإحساس غريب وواضح كأن ما تحت السطح ينبض ويخفق مثلما يحدث في زلزال خفيف.

لم يعد مهمّاً أن يكون الرمل قد تحرك في جهة ظليلة أو مشمسة، لأنني حصلت على نتائج جيدة من الجهتين. فقد كانت الساعة تشير إلى ما بعد الرابعة مساءً وكان التجويف الشمالي ظليلاً. ولكن كل محاولاتي للحصول على موسيقى من أدنى ٦٠ أو ٧٠ قدماً من المنحدر لم تأت بنتيجة. ثم بدأ الأزيز من جديد في الساعة السابعة مساء دون أية مساعدة من عنصر خارجي، مع أنه حدث أثناء ذلك أن كانت جمالنا عائدة من المرعى

إلى المخيم عبر الممر الواقع مقابل مركز الجرف المغرد، ولكن الأزيز لم يكن مرتفعاً كما كان بعد الظهيرة واستمر لنصف ساعة فقط. وتوقفت الحفلة بعد ذلك نهائيّاً متيحة لي بأن أنصرف إلى ملاحظة أجمل نيزك رأيته في حياتي.

في الساعة الثامنة مساءً، كان الهلال يحتل موقعاً وسطاً بين الزهرة في الشرق والمشتري في الغرب، وهما أكثر الكواكب الكبيرة لمعاناً. وكان الليل مضيئاً والرمل يبدو كاللجين تحت أضواء السماء. وفجأة شقت كرة من اللهب كبد السماء بدَويٍّ شديد، بدءاً من جوار سهيل في اتجاه شمالي شرقي وهي تسير ببطء، ولكن محتفظة بلمعانها، حتى اختفت بوهج كما بدأت بوهج. وكانت تلك الليلة في نيفة هي أحلى ليالينا، وكان الشهاب تتويجاً لا ينسى لتجارب اليوم المثيرة.

وفي الساعة السابعة صباحاً -وقبل بداية الرحلة إلى الزكرت- توجهت إلى قمة الجرف لأجد أن الرمال لم تعد تعزف كما كانت بالأمس، وباءت كل محاولاتي لإحداث صوت من هذه الرمال بالفشل الذريع إلا من تلك الإثارة المبدئية التي تشبه الصرير. ولكن انزلاقها كان بطيئاً، ويبدو أنها تقف قبل النطاق الذي تبدأ عنده الموسيقى. وحدث في اليوم نفسه عند الظهر في الزكرت - حيث توجد دائرة كبيرة مماثلة ذات حافة حادة وحول منخفض ذي أرضية صخرية- أزيز الرمال عندما صعد فراج المنحدر الحاد ليراقب رفاقنا العائدين، ولكنه كان أزيزاً ضعيفاً وقصير الأمد، ربما نصف دقيقة، وكان عويلاً أكثر من أزيز. وباءت كل محاولاتنا لإحداث نتائج أفضل بالفشل كسابقتها في نيفة.

كانت هذه كل تجاربي عن «الرمال المغردة» في الربع الخالي، وهي ظاهرة مألوفة لدى البدو، وقد سمعها السيد توماس في كثبان جديلة أثناء اختراقه للمنطقة العام الماضي. ويبدو غريباً أن الظاهرة لا تسمع كثيراً[1]. أما أنا فقد سجلت كل حقائق ملاحظاتي كاملة لأنني كتبتها في وقتها. ويحدوني أمل في أن يتناول هذا الموضوع من هو أكثر مني كفاءة ويتحرى عن كيف ولماذا يحدث الغناء «أو الأزيز أو العزف»؟ كما أن هذه الدعوة لا تغمط حق الرجل العادي في أن يفسر هذه الظاهرة على أساس الأفكار التي تراوده أثناء ملاحظته للظاهرة وهي تحدث.

وجدت فرصة، عند عودتي لإنجلترا لأتعرف عن كثب على ما يعرف بـ «الرمال الصافرة» في بورت أوير في ساحل مقاطعة كارنا فرون في ويلز، التي أصفها أنا بصرير الرمال أو الرمال التي تحدث صريراً «وليس» صفيراً. ومن المؤكد أن هذه الرمال لا «تغني» أو «تئز» أو «تدندن»، كما أن الرمال يجب أن تضرب أو تركل لكل «صرير» تحدثه. ولذلك أجد صعوبة في مضاهاة المشكلة التي تعرضها هذه الرمال الصافرة بتلك التي تتعلق بالأزيز الصحراوي. ومع ذلك فقد فشل د. س. كاروس ولسون، وهو خبير في هذه الأمور، في الحصول على أية استجابة من العينة[2] التي جلبتها معي من نيفة باستخدام الطرق التي جعلت أنواعاً من رمال بورت أوير وجزيرة آيق تحدث ذلك الصرير. وأنا بدوري لا أستطيع أن أبت فيما إذا كانت رمال ساحل ويلز ستحدث أزيزاً أبداً إذا ما وضعت في جروف رملية حادة

---

(١) يمكن الرجوع إلى الفصل الذي كتبه اللورد كورزون عن الرمال المغردة في كتابه T.les of Tr.vel.

(٢) ربما ينبغي أن نشير هنا إلى أن حجم الرمل المتوفر لهذه التجارب كان صغيراً بالنسبة لتحقيق المطلوب.

الانحدار كتلك التي وجدناها في نيفة أم لا. فإن رمال نيفة لا تئز أو تصر عندما تطؤها الأقدام أو تركلها. ويمكن أن نقول أيضاً بأن رمال ويلز قد لا تحدث أزيزاً أو صريراً إذا ما دفعت عبر منحدر حاد. وقد يكون الأمر أنه بينما أنواع معينة من الرمال تصر عند لمسها، فإن كل الرمال قد تئز تحت ظروف مناسبة[1].

علينا أن نترك هذه التساؤلات للخبراء للإجابة عنها. ولكن هناك نقاطاً تتعلق برمال الربع الخالي تحتاج إلى دراسة. كانت رمال بورت أوير تصر حتى عندما تكون طبقاتها السفلى رطبة شريطة أن تكون رمال السطح جافة، ولكن رمال نيفة لا تصدر موسيقى عند الساعة السابعة صباحاً ولا -كما اكتشفت لاحقاً- بعد انصباب مطر خفيف. ومع ذلك، فقد أصدرت أزيزاً خفيفاً الساعة السابعة مساءً بعد أن عزفت لحناً كاملاً في ظهر نفس اليوم. ويبدو أن الظروف المناخية، مثل الرطوبة والحرارة والرياح... إلخ. لها بعض الصلة أو العلاقة بالموضوع.

كما كان سلوك رمال نيفة مختلفاً في النطاقات المختلفة للجرف الرملي الموسيقي. فقد بدأت كتلة الرمال المتحركة باحتكاك في الجزء الأعلى واستمرت بالأزيز في النطاق الأوسط ثم سكنت كلية عند توقف الحركة على المنحدر. وهكذا يبدو أن الحركة تمثل سبباً ضرورياً لكل من صوت الاحتكاك والغناء، ومن الصعب أن نقول فيما إذا كان حجم الكتلة المنزلقة من الرمل أكبر عند البداية أو عندما يبدأ الغناء. وصحيح أن الرمال -عندما تتحرك أو تنزلق- تدفع تلك التي أمامها إلى الحركة، ولكن من المؤكد أن

(١) انظر الملحوظة الخاصة بالدكتور فوقان كورنيش في الملحق.

الاحتكاك يوقف جزءاً من الكتلة الأصلية في الطريق، بينما يحدث وقوف الحركة نهائيّاً عند انحناءة أو ميلان حاد. ويمكن أن نفترض أنه بينما تزداد الكتلة حجماً أثناء انزلاقها فإنها أيضاً تفقد بعضاً منه في نفس العملية حتى يصبح الحجم -عند نقطة معينة- غير كاف للحفاظ على الحركة الأمامية. ومع ذلك فإن الرمل يئز -وإن كان بصوت خافت- في اللحظة نفسها التي يتوقف فيها الصوت أو الحركة.

وإذا كان الشكل والتركيب المعدني لذرات الرمل هما العاملان السائدان، فلماذا يبدأ الصوت كالصرير ثم يتطور إلى أزيز؟ تتميز رمال بورت أوير -على سبيل المثال- بنوتة واحدة فقط لا بديل لها إلا السكون. وهكذا - وبكل تأكيد- لابد من وجود عوامل أخرى تعمل وسط رمال الصحراء. فهل الأزيز الذي سمعته هو صدى تحوّل للصرير عندما تصل الرمال الزاوية المطلوبة للمنحدرات أو الدائرة المحيطة بها، أم أن التحول يحدث نتيجة تكوين فراغ أو حيز مجوف بين الكتلة المتحركة والسطح الثابت الذي تتحرك أو تنزلق فوقه؟ وسيعمل مثل هذا التجويف بكل تأكيد كموجّه صوت، بينما يُفترض أن تكون نشأة التجويف تدريجيّاً أثناء تحرك الكتلة إلى أسفل ربما بسبب درجة حرارة الجو الزائدة من احتكاك الرمل المتحرك. لا يمكن لأحد الإجابة عن هذه التساؤلات إلا الخبراء. وأكتفي هنا فقط بتسجيل انطباعي بأن تغيير الصوت من الصرير إلى الأزيز يبدو وكأنه ينشأ من تدخل شيء في طبيعة موجِّه الصوت.

حدد رفاقي -الذين كانوا يتشوقون إلى الفرار من نيفة[1] والوصول بدون

---

(١) من ضمن الأشياء التي جمعت هنا قطعة صغيرة من حديد نيزكي تشبه في تركيبها تلك التي عثرنا عليها في وبار (الملحق). وربما أتى بها بدوي كان يزور هذه الأماكن.

تأخير إلى حيث الملتقى مع زايد وعلي- المسافة إلى الزكرت على أنها مسيرة يوم كامل، وعلى أساس ذلك اتفقنا على أن نبدأ مبكراً. وفعلاً غادرت القافلة منخفض نيفة الساعة السابعة والنصف صباحاً. ونظراً لأننا لم نبعث بقافلة الأمتعة قبلنا، فقد كان السير بطيئاً ومملاً كدأب الرحلات السابقة. وبعد أن تغلبنا على سلسلتي بني ريمان المتبقيتين، مررنا عبر حيود أخرى -لا أسماء لها- إلى منطقة حمران الزكرت التي تتكون من أربعة سلاسل متوازية، وخلف آخر سلسلة فيها ينتهي سهل متموج بانحدار حاد إلى وادٍ حيث تقع آبار الزكرت التي تقبع في التجويف الأمامي لكثيب يقابل أحدَ جوانب كثيب مرتفع آخر.

أجفل الكلب (العقفا) في بداية الرحلة أرنباً وأخرجه من مخبأه، وكادت الرحلة أن تتوقف عندما طفق كل أفراد الفرقة يشاركون في المطاردة، والأرنب يخترق الحصار الذي ضربه الصيادون حوله بكفاءة. وأدى فشل الجماعة في الإمساك بالأرنب إلى أن تفقد قافلة الأمتعة الحماس لمواصلة السير. ولأعلن اشمئزازي على هذا التباطؤ أمرتهم بالتوقف وتوجهت وبيدي شبكة الفراشة بحثاً عن بعض الحشرات في وادٍ فسيح مليء بنباتات الزهر وأنواع أخرى من النباتات. وقلت لهم: «إذا كانت الجمال مرهقة فيمكننا البقاء هنا لأطول فترة ممكنة؛ فالأمر لا يهمني كثيراً».

وكان لكلامي هذا وقع على نفوسهم، إذ تقدمت قافلة المقدمة ومعها ركوبي وبقيت أنا أتسكع في الوادي إلى أن تلحق بي قافلة الأمتعة، وعندئذٍ واصلت سيري مشياً على الأقدام. وكانت الظروف مهيأة لمثل هذه النزهات. فقد كان الجو معتدلاً وجميلاً. وما هي إلا دقائق حتى لحق بي

سعدان بعد أن ترجل عن جمله الذي ظهرت عليه علامات العرج، وأردف قائلاً: «انظر ياصاح، لقد كان رفاقي يتحدثون قبل هنيهة، إنهم يقولون بأن ما حول الزكرت تخلو من نبات العبل وحطب الوقود. ولذلك سيخيمون قبل الوصول إلى البئر ليتجنبوا ما قد يطرأ من مشاكل، ولهذا كانوا يبطئون في السير». فقلت له: «هناك فراج ومعه جملي، فهو يريدني أن أركبها ولكني سأواصل سيري على الأقدام ما لم يجدّوا في سيرهم. وعليك أن تركب جملي عندما تلحق به». وفعلاً وجدنا فراجاً قد توقف لينتظرنا، وعندما لحقنا به، صاح: «لقد أحضرت جملك، فاركبه الآن. لقد تقدم الباقون، فهيا بنا» قلت له: «سعدان سيركب جملي لأن جمله يعرج وهو مرهق وأنا أفضل البحث عن الأشياء الزاحفة. انظر، فما زالت قافلة الأمتعة تتبعنا من الخلف، ولذا لا يهمني شيء». ولكنه لم يصدق بأنني أفضل المشي إذا كانت ظروف السير تتيح ذلك، ولهذا بدأ يحدثني بصراحة عن عدم رضائي التام بالسرعة التي تتم بها الرحلة، ولكن اعتراضاته التافهة انقلبت عليه عندما أطللنا من قمة حيد على منخفض كانت قافلة المقدمة قد توقفت وأوقدت ناراً لعمل القهوة. وتركتهم على حالهم وذهبت أبحث عن الحشرات على طول الطريق الذي سنسلكه حتى يلحقوا بي عند الانتهاء من تناول القهوة.

ومن الواضح أنهم ناقشوا وجهة نظري فيما بينهم وتوصلوا إلى أنه من الأفضل لهم أن يسيروا كما ينبغي وتستدعي برامج الرحلة بدلاً من أن يتركوني أمشي على قدمي كلما بدر منهم تلكؤ أو إبطاء غير مبرر. وكان ذلك أكثر من أن يتحمله أكثرهم قسوة، ولذلك ركبت جملي عندما التحقوا بي لاحقاً، وركب فراج معي، وكان من الواضح أنه يريد أن يصل إلى

حقيقة الأمر، وطمأنته عندما قلت له: «إنني أحب المشي ولكنني أكره هذه السرعة البطيئة التي نسير بها، وبكل تأكيد من الأفضل لنا جميعاً أن نصل إلى البئر بسرعة ونصب خيامنا. وهناك يمكن أن تتناولوا قهوتكم بينما أنا أتجول كما أريد، وأبحث عن الحشرات وقطع الأحجار». بادرني فراج قائلاً: «أخبرني. لقد لاحظنا فيك شيئين: أولاً إنك حاد الطباع وسريع الغضب إذا لم نفعل ما تريده، وثانياً: إن لك استعداداً دائماً للشك فيما يقوله الدليل». وواصل فراج حديثه بصراحة أكثر وبصورة تنم عن الثقة. «قل لي هل كنت كذلك منذ ولادتك، أم ما هو السبب لذلك؟ فمن المؤكد أنك تعرف أن المرشدين لا يتعمدون الكذب، وهذا هو موطنهم ويعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة، كل شجيرة وكل تلة فيه؟ فلماذا تتهمهم بالكذب؟» فأجبته بكل صراحة: «أما بالنسبة للمرشدين فأنا أعرف بأنهم يعرفون هذه المنطقة، وتقول أنت بأنهم لا يتعمدون الكذب، فهل تذكر ذلك اليوم عندما كنا نسير تجاه عنسلة وأردت زيارة عدرج في طريقنا وقال علي بأنها تبعد مسيرة يوم كامل؟ ولكننا ذهبنا إلى عدرج بعد ذلك، كما تعرف وعندما رسمتها في خريطتي وجدت أنها على بُعد مسيرة ساعة واحدة من طريقنا. قل لي: هل كان علي لا يعرف ذلك، أم غير ذلك؟». فأجاب فراج: «إنك تقول الصدق، فقد كذب علي ولكنه كان مشغولاً بما يحتاج إليه من ماء». فقلت له: «حسناً! فقد أخبرنا ابن حميد، دليلنا حالياً والذي ذهب مع علي وزايد ليتفقدوا الطرق إلى الزقرت(*)، هذا الصباح، بأن نسرع في سيرنا، كما تعرف، قائلاً بأننا ما لم نغذ في السير فلن نصل إلى الزقرت قبل المغيب، وطبعاً رأيت كيف كان سيرنا هذا الصباح، فقد توقفتم كلكم

(١) وتسمى أيضا «الزكرت». (المراجعون).

لتصطادوا ذلك الأرنب، كما توقفتم مرة ثانية لاحتساء القهوة، ومضيت أنا في طريقي ماشياً. فقد كان سيرنا بطيئاً. وها قد حل وقت الظهر، فأخبرني الآن: كم تبعد الزترت من هنا؟ هتف فراج قائلاً: «آه الزقرت! إنها ما زالت بعيدة، بعيدة جداً. ويعلم الله إذا كنا سنصلها هذا المساء، يقول ابن حميّد بأنها ما زالت بعيدة». فأجبت: «انظر يا صاح! هل ترى ذلك الكثيب الضخم الذي أمامنا، بعيداً قليلاً بحوالي ركوب ساعة تقريباً؟ تلك هي الزقرت! ماذا تقول الآن؟» فصاح فراج ساخطاً: «تلك الزقرت؟ من الذي أخبرك بذلك؟ هل أنت تعرف أكثر من الأدلاء؟» أجبته بلطف: «لا؛ ولكن ابن حميد أخبرنا جميعاً بأن بني ريمان تتكون من خمسة سلاسل: اثنتان في الأمام واثنتان ما بعد السلسلة الوسطى حيث تقع نيفة. وأخبرنا بأنه توجد سلسلتان أخريان بعدها لا اسم لهما وبعدها تقع حمران الزقرت التي تتكون من خمس سلاسل وفي آخرها توجد البئر. وها قد عبرنا أربعة منها وبقيت السلسة الخامسة أمامنا. فقد أحصيتها، أما أنت فلا. وهذا هو الفرق بيننا، فقط إنها تفتقر إلى نبات العبل، وحطب الوقود، ولكن الله كريم. ولكن قل لي، هل ابن حميد، الذي جاء هنا بالأمس، أخطأ أم هناك شيء آخر؟ وفيما يختص بحدة طباعي فإن الله قد وضعها في قلبي حين خلقني، ولكن رفاقك هم الذين يذكونها بمشاكستهم».

وهكذا حاولنا أن نتدارك اختلافاتنا المتبادلة ونحن نتجه نحو رفاقنا الذين سبقونا، والذين وجدناهم قد توقفوا عند طريق سهل متموج يقع عند الجانب البعيد من السلسلة الرابعة. وصاح ابن حميد يخاطبني: «يا شيخ عبد الله، انظر هنا، فما زالت البئر بعيدة وهذه آخر المراعي الطيبة التي توجد على طريقنا هذا، ونريد قضاء الليل هنا، ونواصل سيرنا صباح الغد

وقد شبعت الجمال». فأجبته قائلاً: «حسناً، ولكن الوقت ما زال مبكراً للمبيت، ودعونا نواصل السير لمدة ساعة إلى ذلك الحيد وننصب خيامنا بعده». وهكذا أخفقت الخطة، وكان أن واصلنا سيرنا ببطء لأقل من ساعة عبر منحدر سهل من رمال ذات لون أحمر ضارب إلى البني التي أخذت تتدرج على نحو غير ملحوظ إلى الكتل الأكثر بياضاً عند قمم الكثيب، ومن فوق السلسلة وقفنا نطل على منخفض صخري حيث بئر الزقرت، فقط على بعد ١٥ ميلاً من نيفة، وعلى مسيرة يوم من الزقرت في اتجاه الشرق تقع بئر باينة ومعها بئر دَحْبوبه على مسافة ميل منها في اتجاه الغرب.

رأينا أثناء سيرنا نسراً وزوجين من الغربان وبعض القبرات والطيور المغردة ولكنني لم أصطد أحداً منهم لأن بندقيتي كانت معطوبة. وترجلت من جملي فوق الحيد وقمت بزيارة القمة المخروطية البارزة التي أشرت إليها سابقاً، ثم هبطت المنحدر الرملي الحاد إلى حيث يوجد المنخفض الذي وصلت إليه قافلتنا في الوقت نفسه بعد أن دارت قليلاً لتصل إلى المدخل الضيق الذي يؤدي إلى المنخفض حيث توجد البئر. ويتمثل أهم معلم رئيس في المكان في ذلك العرض المهيب لصخر الأديم الذي يبرز غالباً في شكل جرف متناسق يرتفع إلى ٤٠ قدماً من بطن المنخفض وبطول يصل إلى ٦٥٠ قدماً. ويمتد الجرف في اتجاه شرق الشمال الشرقي إلى غرب الجنوب الغربي، مع التواء قليل نحو الجنوب الغربي في منتصفه. وحسبما أرى فإن هذه الصخرة -ربما من حجر جيري يعلو الحجر الرملي الذي تتكون منه الأرضية وجدران مهاوي الآبار- تنخفض أو تميل بحوالي ٥ درجات من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي كما لها ميلان مماثل على طول محورها

الممتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. ووجدت في مستوى أعلى من المنطقة الصخرية وإلى الجنوب منها كما عند طرفها الغربي ألواحاً من الجص غريبة الشكل. وعلى طول واجهة الحيد حيث يهبط إلى مستوى الآبار يوجد منحدر رملي خفيف يكسوه حطام وكتل كبيرة من الصخور الجيرية ذات اللون الأزرق- الرمادي. وعثرت فيها على شظية حيوانية واحدة وعدد لا يحصى من شظايا عظام الوضيحي، وطبعاً بقايا ولائم عديدة سابقة. ولكن من ناحية أخرى، لم أجد ما يكفي ليثير اهتمامي خلال الفترة التي قضيناها هنا مجبرين ونحن ننتظر عودة مبعوثينا.

يعود تاريخ هذا المكان -على الأقل ما يعرفه ويتذكره الناس- إلى أيام مالكها عبد الله بن فيصل، وهو عم ابن سعود، الذي حكم هذه المنطقة من عام ١٨٦٧م [١٢٨٣هـ] إلى ١٨٩٠م [١٣٠٨هـ][*]، تخللتها فترة عدة سنوات خلفه من بعده أخوه الأصغر منه على العرش. وخلال تلك الأيام، ربما حوالي عام ١٨٧٠م [١٢٨٧هـ] سجل أحد شيوخ الغفران يدعى محمد بن صويلح، من فخذ آل بنّا نفسه أيام كان شاباً في جيش عبدالله وأصبح من حاشيته الدائمين في الرياض. وكان يرافقه عدد من أفراد قبيلته مع عوائلهم، كما كانت ترافقه عائلته التي كانت تتكون أساساً من والدته. وحسب ما جرت العادة العربية كانت خزانة الدولة هي التي تتولى مهمة الإنفاق على كل المرافقين. وحدث ذات يوم أن بعث الموظف المالي المسؤول عن توزيع المؤن والدة الشيخ الشاب خالية الوفاض دون عطية وأخبرت هي بدورها ابنها الذي

(*) من الثابت أن الإمام عبدالله بن فيصل قد حكم خلال الدولة السعودية الثانية على فترتين: الأولى بدأت من عام ١٨٦٥م -١٢٨٢هـ إلى ١٨٧١م - ١٢٨٨هـ، والفترة الثانية كانت من ١٨٧٦م - ١٢٩٣هـ إلى ١٨٨٧م - ١٣٠٥هـ، وليس كما ذكر المؤلف هنا. (المراجعون).

توجه مباشرة إلى الحضرة الملكية وهو يشتكي مرّ الشكوى من الموظف المالي المسؤول عن توزيع المكرمة المالية. أجاب الأمير بنبرة تذمر: «اسع أنت لمعيشة والدتك»، فأجاب محمد: «على رأسي أمرك أمر الملك!» وبذلك انسحب محمد مع أتباعه إلى مراعي الربع الخالي حيث ارتحل إلى هناك مع سبعة من أقربائه ليعلن الحرب على العالم باسم «الزقرت»[1] أو الجندرمة -الدركي- لأنها كانت مكونة من قوة عسكرية ناشطة وفاعلة.. أي بدون نساء أو أطفال تحد من نشاطهم وتحركهم. وانخرطت معه شخصيات متمردة أخرى من المنطقة من قبائل الرشيد والمناهيل وغيرها، في حملات إغارة على الطرق والسطو التي سبق وأن بدأت بها العصابة نشاطها، كما سعت أيضاً منذ البداية إلى إقامة قاعدة لعملياتها في بقعة مجهولة ونائية لا تطالها سلطات الحكومة.

وبعد أن وقع الاختيار على موضع مناسب، شرعت الجماعة في حفر هذه الآبار التي كنا نخيم حولها، وتجسدت ذكرى هؤلاء المتمردين ومآثرهم في الاسم الذي تعرف به هذه الآبار. واكتسبت مقاطعة أخرى تقع بعيداً إلى الشمال وإلى شمالي شرقي حَرَض، من هذه الأعمال الجريئة اسم «حوائر الزقرت» وهي كما تبدو منطقة رعوية بها منخفض تتجمع فيه المياه لأسابيع قليلة أو شهور بعد الأمطار.

بدت واحدة من آبار الزقرت الثلاثة «ميتة» تماماً وإن كانت علامات حبل السحب ما زالت ترى بوضوح مثلمة في الصخر حول فتحة البئر. أما الثانية فكانت أيضاً «ميتة» ومطمورة بالرمال، بينما وجدنا الثالثة مغطاة بالطريقة

(١) ربما اشتق هذا المصطلح من خلال اللغة التركية من الكلمة الإيطالية «سكورتا S.curt.» بعد أن تأثرت باللغة التركية أو من الكلمة الفرنسية Securite مثلما اشتقت الكلمة التركية والعربية المعروفة للدلالة على «الشرطة» من Surete.

المعتادة. ومن ثم شرع الرجال بفتحها لسقي الجمال من الماء الذي كان على عمق ٢٠ قدماً. وكان الماء مالحاً وإن كان مستساغاً. ونظراً لأنه كان أكثر ملوحة من ماء نيفة فقد تحاشاه رفاقي لأن القرب كانت مليئة بمياه نيفة بكمية تكفينا حتى وصولنا إلى شنَّة.

ولتهدئة التوتر الذي نشأ إثر الخلاف الذي دبّ بيننا، ولتشجيع المراقبة الجيدة للأمور، عرضتُ عند وصولنا إلى الزقرت جائزة بعشرة دولارات لأول رجل يستطلع مبعوثينا العائدين، ولكن حل الليل دون أن نرى لهم أثراً. وكان الحادث الوحيد الذي ظهر ذلك اليوم هو وصول سالم وحسن، وهما يتضوران جوعاً وعطشاً وناقمين على فشلهما في الحصول على الوضيحي. وفي اليوم التالي وهو آخر موعد للقاء مع مبعوثينا، تبوأ الجمع أعالي الكثبان يبحثون عنهم، بينما استعار فراج نظاراتي المكبرة خلسة من أصحابه وذهب بها بعيداً ليستطلع بها وينال الجائزة. ولكن مضى اليوم دون نتيجة. وكنت قد بدأت أستسلم لاحتمال يوم آخر ضائع عندما عاد فراج يجري قبل المغيب نحو المخيم وهو يصيح: «أخبار سارة: إنني قادم إليكم بأخبار عودة عليّ وزايد. فقد رأيتهما بعيداً هناك، وعدت سريعاً لأخبركم». وسألت: «هل هما عائدان لوحدهما أم معهم آخرون؟». فأجاب فراج: «لقد رأيت راكبين فقط». وبعد دقائق قليلة رأيت زايداً وعليّاً وهم يُقبلان من خلال المدخل الضيق إلى حيث نقف.

فقد ذهبا إلى بئر هادي وشنَّة وطُريوة وطافا سريعاً بكل أنحائها ولم يعثرا على أحد في تلك النواحي، ولهذا عادا خاليا الوفاض. قلت لهما: «كان في مقدوركما أن تذهبا أبعد من ذلك، إلى كثبان القعاميات، ربما وجدتم

القبائل هناك تصطاد الوضيحي!». وكان ذلك رمية طائشة، ولكن ما بدر منهما من نظرة مذعورة مذنبة أكد لي أن سهمي قد أصابهما في مقتل. فقد زارا البئر فعلاً ولم يجدا أحداً، ولكنهما قضيا أياماً يبحثون عن الوضيحي وليس عن العرب. وكنت أخشى أن يزيد تقريرهم هذا من رغبة الرفاق في العودة إلى بيوتهم في أقرب فرصة ممكنة من هذه الصحراء المهجورة. ولكنني كنت عازماً على مقاومة أية نزعة كهذه بكل شدة، فقد تحملت بما فيه الكفاية -ولأيام متواصلة- ذلك التوتر والاحتكاك الناشئ من الصراع بين الهدف الذي خرجت من أجله -والذي لن أحيد عنه البتة- ومن ثقل القصور الذاتي المتأصل في نفوس هؤلاء الرفاق والذي وضع في ميزان ضدي من قبل رفاقي. فكان لابد أن أقاوم بشدة مقاومتهم السلبية تلك. فإن أي بادرة استسلام تعني الفشل بالنسبة لي، وآليت على نفسي أن أنتصر ولكن بعملية إنهاك متأنية. وكنت أواسي نفسي بأنهم خلال شهر من الآن سينسون كل هذه المعاناة عندما ينال كل منهم ما ادخرته لهم من مكافآت بعد نهاية الرحلة. ولكن كلما ابتعدنا خطوة من مواطنهم، وبمجرد أن يبدأ القوم في تناسي تلك الرغبة، حتى تعود تطل برأسها من جديد عند ظهور هدف شاق أو صعوبة تتعرض لها الرحلة. وقد وعدتُ فراجاً بعد العشاء بأن يأتي وينال جائزته مشجعاً روحه الوضيعة للتفكير فيما يمكن أن يناله من مكافآت نظير خدماته. وبعد ذلك تفرغت لزايد وعلي اللذين قدما إلى خيمتي لمناقشة خططنا القادمة. وبدأت بمنح كل منهما ٣٠ قطعة من الفضة لما قاما به من عمل، وبادرتهم قائلاً: «انظرا! إننا لم نسر كثيراً خلال الأيام السابقة، وقد ارتاحت الجمال الآن، والوقت قصير وأنا أريد الوصول إلى الجنوب دون أي تأخير، وأعود منه عبر أرض الوضيحي إلى وادي الدواسر، ومن

هناك إلى مكة لأداء فريضة الحج الذي سيأتي بعد شهرين. ولهذا، دعونا نسير حثيثاً إلى شنَّة -فالمنطقة التي أمامنا خالية من الناس وليس هناك ما يخيفنا- ومن هناك نقرر إلى أين نتجه. وقد نترك خيامنا هناك، ونتجه جنوباً برفقة فريق صغير، ولكن دعنا نبدأ مبكراً صباح الغد». ويبدو أنهم كانوا قد اتفقوا فيما بينهم أن لا يتجاوزوا شنَّة مهما كان الأمر، ولكنهما آثرا عدم إثارة الموضوع حينذاك، وكان الهدف المباشر كافياً لنتفق عليه. وهكذا سوي الأمر بطريقة ودية للغاية.

وتمت إزاحة ذلك القلق الذي كان يجثم على صدري، وبقيت بعد ذلك أتمتع بسلام سحر ليلة أخرى جذابة، وكان ضوء القمر والمشتري والزهرة، وقد تعزز بلمعان سهيل والشعرى اليمانية الضعيف، يتسرب إلى الأرض من خلال غلالة غيم، وبدت على أثرها الجروف الرملية حولنا وكأنها مكتسية بستارة رقيقة تتدلى من أمام مسرح خيالي.

تحركت قافلة الأمتعة في الساعة السادسة والنصف صباحاً يوم الثامن عشر من فبراير وهي تحمل معها إفطارنا الذي يتكون من الأرز المطبوخ. وبعد ساعة أخذنا نتحرك خارج المنخفض وعبر السهل صوب منطقة بني خُويْران التي تتكون من حيود قصيرة مضطربة ومجموعات من الكثبان التي تنتشر بغير نظام مما مزق ذلك التساوق العادي الذي اتسمت به الحيود الطويلة المتوازية لمنطقة السواحب. ومشينا بتثاقل لمدة خمس ساعات خلال هذه المتاهة، وعاد نبات العبل للظهور بعد أن كان قد اختفى في منطقة الزقرت، بينما ظهر نبات الزهر بوفرة غير عادية. سارت الأمور على ما يرام حتى وصلنا إلى المجموعة الأولى من السلاسل الكثبانية المتوازية والتي

تكوّن المقاطعة التي تعرف باسم بني ناصر، والتي تمتد في اتجاه شمال شرق-جنوب غرب من التلة المخروطية البارزة «حُقنة ناصرة» التي تقبع في وسطها. وهنا لحقنا قافلة الأمتعة، واقترحت بأن نتوقف لتناول طعامنا.

وكان منظر زهور نبات الزهر الصفراء يضفي على المكان جمالاً وسحراً، وأشاروا عليّ بأن أبحث عن الحشرات حتى ينتهي القوم من تناول القهوة. ولسوء الحظ لم ألاحظ عدم وجود نبات العبل في هذا الموضع بالذات، وفزعت عندما أخطرني الرفاق بأنهم سيتوقفون مرة ثانية لتناول القهوة حيث يتوفر حطب الوقود. فقلت في نفسي: «وداعاً لأي تقدم معقول في سيرنا». وليطابق فعلي مع ما كنت أفكر به واصلت سيري مشياً على الأقدام مع قافلة الأمتعة بينما أسرع رفاقي ليجدوا موقداً مناسباً لإعداد قهوتهم. وجاء عليّ يركض في أثري، وربما مدفوعاً بالنقود التي منحتها له الليلة الماضية، حتى لحق بي عند تلة حُقنة أم المشاعيب المخروطية التي كنت أقف عندها أتمتع بالمنظر البادي أمامي، وحاول جاهداً أن يصرف نظري تجاه الآخرين، وعندما فشل في ذلك أسرع نحوهم ليتناول نصيبه من القهوة. وكان يبدو أنه يتمزق فعلاً بين رغبته الداخلية في القهوة ورغبته الحقيقية في مرافقتي.

واصلت سيري على أقدامي. فقد كان المشي فوق تلك الرمال الناعمة الجميلة وحيودها الحادة الانحدار ممتعاً للغاية بالمقارنة مع سير الجمال المترنح. ولكن بعد ثلاث ساعات من السير، وعندما جاء سعدان يلح عليّ، ركبت جملي دون إبداء أي احتجاج، وواصلنا السير عبر الحيود المتكررة حتى وقت متأخر بعد الظهر، عندما توقفنا لأداء الصلاة في بقعة بيضاء من الجص مكشوفة وسط الرمال، والتي مررنا فيها بآثار أقدام واضحة لجمال

ترعى يعود عمرها إلى حوالي شهر. وافترض القوم بأنها قد تكون لجمال جابر بن فسل وآخرين كانوا في رفقته قبل رحيله إلى الشمال.

وبعد ساعة دخلنا منطقة «بني جَفْنَان» وبها تل مخروطي بارز يحمل، أيضاً اسم «حُقنة جفنان» ويقع بعيداً صوب الجنوب الغربي. وهنا بدأ تكوين سلاسل السواحب المتوازية يظهر من جديد، وكان لها ما يميزها من معالم تتمثل في تكرار حدوث تجويفات حدوة الحصان التي تحيط بها قنوات كالإسفين ذات الانحدار الحاد. ووجدنا داخل إحدى هذه الحفر الواقعة عند بداية المنطقة أرضية صخرية صغيرة مكشوفة تحت الرمال حيث أشار ما وجدنا فيه من بقايا ثعالب ومؤشرات أخرى إلى وجود بئر مطمور. وأطلقت عليها اسم «بئر جفنان». وواصلنا السير نحو المخيم وسط أنواع من النباتات الجميلة[1] كانت تنتشر فوق سهل عريض ومتموج تكتنفه سلاسل كثبانية منخفضة عارية من النبات.

قطعنا خلال اليوم مسافة ٢٥ ميلاً فقط، ومع ذلك فقد تخللت الجزء الأخير من الرحلة أصوات احتجاج صاخبة من الذين في المؤخرة. وكان فراج الذي يرافقني وعليّ في المقدمة، يسهب في نقل ذلك ويشرح لي في كيفية العناية الصحيحة بالجمال. وأشرت إليه بأننا قضينا أسبوعين في اجتياز ١٠٠ ميل، واقترحت عليه بأن يَدَعُوا الجمال ترعى في ضوء القمر. وأعلن فراج أن ذلك مستحيل، ولكنه سكت عندما عادت الجمال إلى المخيم بعد ساعتين من الرعي تحت ضوء القمر. وكان الليل مضيئاً والطقس رائعاً حيث أغراني علي بالنوم في العراء تحت السماء.

(١) زهر وعبل وعندب وعلقا وبركان.

ومع ذلك كان ثمة تيار خفي من التوتر يسري بيننا طوال اليوم ولسبب غريب. ففي مراحل الاستعداد الأولى للرحلة كنت قد سألت أبا جعشة عن صحته، واندهشت لإجابته الفظه التي عبرت بطريقة ما عن الشعور السائد بين الرفاق: «رديئة! ألم نعان كلنا وتعبنا من أجلك؟ ومع ذلك تنتقي اثنين من رفاقنا وتغدق عليهم بالهدايا وتبسطهم بها. نحن لا ننكر على علي وزايد ما حصلا عليه ولكننا أيضاً نستحق هدايا، ولماذا هم ونحن لا. إننا نعترض على ذلك!». أجبت: «مهلاً، مهلاً تلك الهدايا كانت لخدمة خاصة، وسأوفيكم حقكم عندما يحين الوقت لذلك، عندما نصل إلى حضرموت. ولهذا أريد أن أسرع في المراحل القادمة حتى أتمكن من مكافأتكم في أقرب وقت».

لم يكن ذلك كافياً ليهدئ روحهم الشريرة الغيورة. وكان فراج هو الذي وصل ما قطع من حديث، فراج الذي لم يبح بالهدية التي أخذها مني ولم أشأ أنا الإفصاح عنها والبوح بها لأصدقائه. وتفاقمت الحالة عندما حضر زايد أمامي ورمى نقوده الثلاثين فوق فراشي معلناً بأنه أهان نفسه بقبوله هدية مني وأخبرته بصراحة أنني أعدّ هذا السلوك مهيناً لي وحذرته بأن يعيد النظر فيما فعله ولكنه أصر على فعله. وبعثت لأبي جعشة ليأتي إليّ وقلت له: «هذه ثلاثون دولاراً لك فخذها». وكان أبو جعشة قد سبق وأعلن أنه لن يقبل هدية في مثل هذه الظروف. ولكنه عندما وضع المبلغ في جيبه، لم أرحمه، وبادرته بقولي: «أنت الذي أثرت هذه الضجة والفتنة حول مسألة تافهة. حول منحي النقود لزايد وعلي. انظر كيف كافأك الله!» ودون أن ينطق ببنت شفه ألقى العملات ثانية على سريري، وأخذتها أنا ورميتها جانباً في الرمل قائلاً: «افعلوا ما يروق لكم، خذوها أو اتركوها، إنها لا تهمني،

ولكن دعوني وشأني في سلام، فلدي عمل لأنجزه». فالتقط المبلغ من الأرض وتوجه إلى رفاقه، واستدعيته في الصباح ليأخذ عملة أغفل عنها. وعرفت فيما بعد أن المبلغ أعيد إلى زايد الذي باء مجهوده لإجباري على توزيع المال عليهم جميعاً -وفي لحظة غير موائمة- بالفشل.

وبذل الرفاق رغم ذلك الحادث، أو ربما بسببه، جهداً خاصّاً في اليوم التالي لتسجيل تقدم مرض في السير. وبينما أنا أغط في نومي، أحسست بنشاط يدب في المخيم في وقت غير مألوف، ووجدت أن قافلة الأمتعة بدأت تتحرك قبل أن يوقظني الأذان لصلاة الفجر، وقد كان الوقت مبكراً على غير العادة. وتقدمت قافلة الأمتعة بحوالي ساعتين عنا. وتجولت أنا في المكان بعد الصلاة أطارد نسراً كان قد اتخذ موضعاً في قمة سلسلة الكثيب المجاورة. ونجحت في الوصول إلى مسافة معقولة، ولكن الرصاصة التي انطلقت من مسدسي الصغير أقلقت الرمل قريباً من النسر الذي طار ولم أره مرة أخرى. وكانت آثار أقدام الحبارى كثيرة هنا، ولكن تحركنا السريع لم يمنح فرصة مطاردتها. وهربت في إحدى المناسبات ثلاثة منها من تحت قدمي، وكانت طيور الأبلق وتلك المغردة تكثر هنا أيضاً.

علمت بحدوث كارثة صغيرة وأنا أحزم متاعي للرحيل. فقد كان سعدان قد اصطاد أرنباً يوم أمس، وبعد أن سلخه وضع الجلد والرأس بعد أن لطخهما بصابون الزرنيخ بقرب سريري، وعندما صحوت من النوم لم أجد لهما أثراً، وسرعان ما اكتشفنا السارق من آثار أقدامه على الرمل، وكان الكلب السلوقي الذي يبدو أنه بلع الجلد والرأس، وبدت عليه وهو يسير بجانبنا آثار عشائه المسموم. فقد كان يستلقي تحت كل شجيرة يبحث عن

مأوى من الشمس ويخمش الرمل ليرطب جسده، ولكنه بحلول المساء كان قد استعاد صحته من الوعكة التي ألمت به.

أثناء ذلك، حققنا تقدماً جيداً في سيرنا عبر الحيود وأودية بني جفنان، وهي منطقة رملية واسعة تتكون من أغوار طولية ضيقة -كما بين الأمواج-، كل غور يبدأ كموج مستدير مرتفع ينكسر في اتجاه الجنوب. وكان اللون العام للمنطقة هو الأحمر الفاتح الذي يشوبه البني، وتحمل غطاء غزيراً من نباتات الصحراء، وتتناثر في وسطها هنا وهناك كميات من روث الجمال التي كانت ترعى هنا في السنة الماضية. ومررنا في مناسبتين بصخور أديم مكشوفة بين التجاويف الأمامية للكثبان.

وعندما لحقنا بقافلة الأمتعة عند الظهر، وبعد مسيرة أربع ساعات، أثار فراج انتباهنا إلى وجود نبات الحاذ معلناً خروجنا من منطقة بني جفنان ودخولنا منطقة حاذة أبو خشبة الفسيحة التي سميت بذلك على قمة تل مخروطي يحمل الاسم نفسه ويقع على بعد ميل إلى شمال شرقي الحيد الذي توقفنا في قمته لتناول طعام الغداء. وكان رفاقي حينئذ قد بلغوا حدَّ الإغماء من الجوع أو لجرعة من القهوة، وكانت شهيتنا مفتوحةً وأكلت كثيراً بعد عمل يوم شاق ومرض. وبدت علينا آثار الإرهاق في ذلك اليوم الذي كان على غير العادة حاراً ورطباً مما دفعنا في النهاية إلى التخلي عن فكرة الوصول إلى شنَّة في ذلك اليوم. ولا أدري تماماً إذا كان ذلك الإرهاق ناتجاً عن الأكل الكثير، أم كما أكد البعض، من ارتفاع نسبة الملوحة في ماء نيفة بعد بقائه طويلاً في القرب.

قبل أن نتوقف لتناول الغداء بقليل كنا قد عبرنا الآثار التي تركها زايد وعلي وهما يتجهان نحو شنَّة. ودَبّ ذعر ورعب بين رفاقنا عندما اكتشفنا

بعد ذلك مباشرة طريق سير حديث لفرقة كبيرة من قطاع الطرق. وكان هذا الاكتشاف هو الذي استدعى التوقف في تلك اللحظة لأن الأمر كان يستدعي التحري عنه بدقة. أعلن علي «إنهم ينتمون إلى صيعر أو ربما الدواسر وذلك لأن جمالهم تنتمي إلى السهوب وليس للرمال. وكما نرى، فإن وطأة أقدامهم على الرمل ثقيلة. فقد مضى على مرورهم عشرة أيام أو أقل، ربما ستة أو سبعة أيام، وربما قبل ذهاب زايد وعلي إلى شنَّة ربما؛ فنحن لم نر هذه الآثار حينئذ لأننا اجتزنا هذه المنطقة أثناء الليل».

حدث هرج ومرج لفترة قصيرة أثناء سيرنا عندما هجم ثعبان مخترقاً صفوفنا واحتمى بين الجذور المتشابكة لشجيرة عبل. وعندما فشلنا في العثور عليه أشعلنا النار في الشجيرة ولكننا لم نستطع انتزاعه من مخبئه إلى العراء. كما توقفنا مرة أخرى عند صخرة مكشوفة في تجويف كثيب، وجرى بحث سريع فيها نجم عن اكتشاف قواقع حلزونية متناثرة. وفي حوالي الساعة الثالثة والنصف مساءً وصلنا إلى حيث المخيم الذي نصب عند حافة بقعة متسعة من الجبس، تقع مقابل جرف كثيب أمامي ترتفع قمته إلى حوالي ٤٠ قدماً فوق مستوى أرضية الحفرة الرملية. وكانت البقعة كبيرة المسافة إلى الحد الذي حدا بنا إلى إطلاق اسم «أم القرون» عليها، كما اقترح علي، وهو اسم توسعنا فيه صباح اليوم التالي ليشمل نتوءاً صغيراً مماثلاً، ولكن أصغر حجماً، ويقع في منخفض مجاور يبعد بحوالي ٥٠٠ ياردة.

كان الإعياء قد بلغ بي حده عندما توقفنا للمبيت بعد مسيرة حوالي ٢٠ ميلاً. فقد أنهكت ملوحة الماء أو حرارة الجو -أيهما كان- كل قواي، واستلقيت على الأرض ورحت في سبات عميق مدة ساعة في ظل أحد

الصناديق. وهنا أيضاً نمت في العراء دون خيمة؛ فقد كان الليل جميلاً، وكانت بقعة الجبس البيضاء تلمع في ضوء القمر، والرمال التي تحف بنا من كل جانب، تضفي على المنظر من حولنا غلالة من الغموض.

وفي صباح الغد، واصلنا سيرنا في حاذة أبو خَشْبة لأكثر من ساعة، وكانت تتخللها بقع كثيرة من الصخور المكشوفة، وأطلقنا على واحدة منها اسم «أم الصحنين»، وكانت ذات شكل دائري وعريضة ومنبسطة وتتكون من صخر أغبر اللون ضارب إلى الأزرق، وتوجد بالقرب منها بقعتان صغيرتان من الجبس الأبيض. وهنا تدهورت المنطقة إلى نطاق متقطع ذي لون ضارب إلى الاحمرار تتخللها خطوط قصيرة من الكثبان حتى وصلنا زوجين من العروق وبعدهما دخلنا مقاطعة رملة أو خلة دَوقة الخالية من نبات الحاذ. وكانت التلة المخروطية التي تحمل نفس الاسم تقع على مسافة قصيرة منهما وإن كانت لا ترى من هناك. وتُخلِّد هذه الرملة ذكرى الجهود المضنية التي بذلها رجال من الغفران، دون نتيجة للحصول على الماء من بئر قاموا بحفرها في صخرة تقع بجانب التلة. توقفنا بعد هذه المنطقة بقليل عند الجهة اليمنى من جبل يطل على تلال وأودية منطقة شنَّة المتموجة، لنعطي زايداً وشخصاً آخر وقتاً كافياً ليستكشفا مداخل البئر قبل قدومنا.

بعد فترة قصيرة، أثار خلالها عليّ انتباهي إلى كل المعالم الأرضية المألوفة من أرض يعدها موطن قبيلته، واصلنا سيرنا ببطء. وحلقت ثلاثة حبارى من فوقنا، وأقلقنا راحة مجموعة صغيرة من الطيور المغردة في طريقنا. وكانت بقع صخور الجص تتناثر من حولنا في كل مكان. واتجهنا إلى بقعة منها عند رؤية ثعلب يهرب عبر أرضيتها التي تتناثر عليها بعض الأحجار

الحصبائية . وهنا وجدنا عدداً من الأدوات الصوانية وبعض قطع الأحجار التي ثبت أنها شظايا من نيزك حجري[1] . وكانت مناسبة تستحق الاحتفاء بها ولذلك أطلقنا على هذه البقعة اسم «أم الطينة» لأن أرضيتها كانت تتكون من الصلصال والطَّفَل . وبعد ساعة من السير بمحاذاة وادٍ متصل من بقع الجص المكشوفة ، وصلنا إلى أقصى نقطة في جولتنا نحو الجنوب - إلى شنَّة .

(١) انظر الملحق .

الفصل الخامس

شَـــــنة

«إنها أرض الأعداء، أرض الرعب»

زايد

يعود تاريخ آبار شنَّة -الكائنة عند التقاء كل الطرق الجنوبية- إلى موسم عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠م [١٣٤٨هـ] عندما وجد عدد كبير من الغفران آل مرّة أنفسهم مجتمعين بجوارها مع خيمهم وقطعانهم وذلك لسببين: فقد أصبحت مراعي الأحساء الشمالية -التي اعتادت هذه القبيلة اللجوء إليها خلال شهور الشتاء بعد تجوالهم المألوف في الرمال الجنوبية خلال الصيف- غير مريحة بسبب انحرافات ومضايقات فيصل الدويش الذي أثار أكثر عناصر الإخوان تطرفاً في عصيان ضد مولاه المطاع ابن سعود. وهكذا أصبحت القبائل الموالية والمسالمة عرضة للهجوم من قبل هؤلاء المتعصبين، كما اقتضى الولاء للحكومة أن يقف هؤلاء معها ويحملون السلاح في وجه المنحرفين من إخوانهم في الله.. ومن ثم أصبح الابتعاد عن مسرح هذه الأحداث هاجساً يقلق بال سكانه خلال خريف عام ١٩٢٩م [١٣٤٨هـ]. وكانت لقبيلة آل مرّة منطقة واسعة في الربع الخالي لتختار فيها مأوى آمناً حتى تهدأ العاصفة أو تنتهي، ولكن هذه الميزة كانت مقيَّدة ومحدَّدة بظروف المراعي في هذه المنطقة القاحلة، وحدث أن هطلت أمطار جيدة في منطقة شنَّة حديثاً ونمت على إثرها النباتات التي يمكن أن تقتات عليها بهائم الغفران.

ولكن ثمة عائق آخر في هذه المنطقة كان يتمثل في ملوحة مياه آبارها

المتناثرة في أنحائها والتي اشتق جزء كبير من المنطقة اسم «خيران»[1] منها لكثرة آبارها . وكان هذا العائق هو الأكثر أهمية بالنسبة لرجال ونساء القبيلة من الجمال التي كانت تستمد ماءها من أعشاب الصحراء الريانة ، والذي دفع بالعديد من أعضاء الغفران إلى البحث هنا وهناك عن مصادر أخرى للمياه العذبة أثناء إقامتهم المطوّلة في أرض كانوا يرتادونها عادة خلال الصيف .

كان علي بن صالح بن جهامان -دليلنا الرئيس- هو الذي ترجّل في شنَّة ، التي تتكون من منخفض نموذجي وسط رمال الصحراء تتخلله هنا وهناك بقع مكشوفة من الصخر الجصي الأساسي . وفي مثل هذه المواضع علَّمت التجارب قبائل الصحراء بأن يبحثوا عن الماء وإن كانوا يفتقرون إلى وسائل تساعدهم في التنبؤ بخاصية السائل الذي قد يحددون وجوده أو اكتشافه بالحدس . فهم يتوكلون على الله ويبدؤون الحفر والتدبير الإلهي وحكمته هي التي تحدد عمق الماء إذا ما وجد . فهم يحمدون الله كثيراً إذا ما وجدوا الماء في أعماق ضحلة دون بذل مجهود مضن وشاق . فإذا حفروا عميقاً دون اكتشاف ما يشير إلى وجود ماء ، فهم أمام أمرين : إما عدم وجود ماء بتاتاً ، أو إذا ما وجد فإنه يكون مالحاً بالمقارنة مع مياه الآبار الضحلة . ومن ثم يواصلون الحفر حتى يعثروا على الماء إذ ليس هناك أفضل من ذلك . وهكذا فعل علي عندما حفر البئر الضيق في طبقه الجص الرخوة إلى عمق ٥٥ قدماً قبل أن يعثر على الماء الذي أطلق عليه اسم «شنَّة» ، أي الماء العذب الذي تشوبه بعض المرارة (الملوحة) ، وكان أفضل ماء في المنطقة المجاورة . وأصبحت «شنَّة» منذ ذلك الوقت وحتى الآن قبلة أنظار القبائل الرعوية وحملات المغيرين ، وينبوع

(١) جمع كلمة «خور» والتي تعني «مصب بحري» مثل خور عبدالله بالقرب من البصرة - أو تعنى بكل بساطة «الماء المالح» .

الحياة في الرمال الجنوبية، ولنفس السبب ربما مصدر موت وخطورة. ولا يأتي أحد إلى شنَّة أو يقصدها إلا وهو محترس، كما لا أحد يبقى هناك، وخاصة بجانب البئر، أطول مما يكفي من وقت لسقي البهائم وملء قراب الماء، ولذلك كنا ننتهك شريعة الصحراء باحتلالنا البئر لمدة ٤٨ ساعة. ولكن ألم نكن رسل ابن سعود ومعنا جمال ابن سعود؟ ومع ذلك كانت أعصابنا مشدودة ومزاجنا معكراً لسببين: عدم وضوح خططنا المستقبلية بالإضافة إلى الخوف من قدوم زوار أو مغيرين يعكرون صفو بقائنا.

كان زايد وعلي بن جهامان قد زارا شنَّة قبل أيام بحثاً عن الرعاة وسجلوا العلامة الملكية في الرمل الرطب بجانب فتحة البئر لإعلان هويتنا. وهذا احتراس مقصود به تحذير كل الناس إلا أولئك الذين لديهم القوة والإرادة لإثارة غضب ابن سعود. وكما أخبرنا جابر بن فسل في يبرين فإنه لم يعد هناك أحد من هؤلاء الرجال في الصحراء آنذاك. فقد لجأت القبائل الجنوبية إلى حماية الجبال بعد أن تلقوا خبر قدوم حملتنا من سيف بن طنّاف- شيخ قبيلة المناهيل- الذي كان قد اتصل سريعاً من الأحساء قبل أيام من بدء رحلتنا إثر رفض ابن جلوي هداياه وعروضه. وقد آثرت عناصر من قبيلة بني مُرّة التي بقيت في الجنوب مع أنسباء حمد بن سلطان بن هادي من قبيلة آل راشد -وهو الدليل الذي أرشد السيد برترام توماس العام الماضي وخال علي بن جهامان- البقاء بعيداً من طريقنا خشية أننا قادمون إلى هناك لجمع الزكاة التي كانوا قد توقفوا مؤقتاً عن دفعها لخزينة الدولة. ولهذا كانت الصحراء خالية من القبائل، وكان الكشافون الذين يسبقوننا بنصف ساعة قد رفعوا إشارة زوال الخطر أو عدم وجوده عندما اقتربنا من البئر من خلف سلسلة الكثبان التي تحيط بالحد الشمالي للمنخفض الشبيه بالوادي حيث

توجد. ولم نجد هناك أحداً، كما لم يكن هناك ما يدل على أن أحداً زار البئر منذ مغادرة زايد وعلي لها قبل ستة أيام.

ومررنا عند سفح المنحدر الرملي الذي يقود إلى المنخفض، بجانب قبر رجل من أعيان الصحراء كان قد قُتل في مناوشة قبلية خلال سنة أو سنتين مضت. وكان شكله البيضاوي مكدّساً بكتل من الجص التي تراكمت من جروف صخر الأديم المكشوف، التي تمتد في جزأين عبر منخفض شنَّة ويفصل بينهما ممر، وترتفع إلى ٤٠ قدماً. وكانت البئر تحتل أدنى أجزاء المنخفض، وعلى مسافة منها في اتجاه الجنوب الغربي توجد كتلة صخرية شبه دائرية تتجه نحو الشمالي الغربي، وتشير إلى اتجاه مكة، وقد اختير هذا الموضع خصيصاً لأداء الصلاة فقط. وكانت شجيرات العبل أو الحاذ تتناثر هنا وهناك، ونصبت خيمنا فوراً وسيقت الجمال بعد أن ارتوت من الماء إلى الوادي لترعى تحت إشراف علي البُحَيْحي والغلام محمد. وبينما أوقد نفر النار لعمل القهوة، بدأ زايد ومساعده يباشران عملهما في إعداد طعام العشاء في حين هرع بعضهم إلى قمم الرمال المحيطة، ومعهم البندقية، ليراقبوا كعادتهم القادمين من الأعداء أو الزوار. أما أنا فقد قمت بنزهة لدراسة الأماكن المحيطة لجمع عينات يمكن أن تمنحها شنَّة للمتحف البريطاني من صخور وحشرات وما شابه ذلك.

صعدت جرفاً يقع إلى شرقي المخيم، ووجدت نفسي فوق بقعة فسيحة من الجص ذات شكل دائري وتنحدر من أطرافها الخارجية إلى منخفض صغير دائري الشكل يغطيه رمل وحصباء. وكان مظهره الشبيه بالفوهة بالإضافة إلى سطحه الجصي الخشن يوحي بأن هذا المنخفض قد يكون

موضع بركة أو بحيرة قديمة جفت، ولكنني لم أجد ما يؤكد أو يدحض ذلك الانطباع. ثم صادفت قريباً من المنخفض حفرة صغيرة ضحلة دائرية الشكل، يبلغ محيطها ثلاثة أقدام وعمقها أربع بوصات فقط، والتي حسبتها فتحة بئر قديم مدفونة إلى أن خيب أملي أحد رفاقي بقوله بأن مثل هذه الحفر تقوم نساء البدو بعملها واستخدامها لاستخراج الصبغة من عصارة براعم شجيرة العبل، التي تدق فوق قطع الجلد الموضوعة في الحفرة حتى تخرج مادة التانين التي تستخدم في دبغ الجلود.

كان صف طويل من بقع متناثرة ومتقطعة من صخور جصية مكشوفة يمتد من هنا تجاه الجنوب الغربي إلى أعلى الوادي الذي تحف به على الجانبين - وعلى مسافة نصف ميل من بعضها- سلاسل من الكثبان الرملية. وكان الوادي نفسه مغطى بشجيرات صحراوية متنوعة منها: شجيرة الزهر الساحرة بزهورها الصفراء التي لا تجود في الأجزاء الشمالية من الربع الخالي. وفي شنَّة نفسها تقطع سلسلة الكثبان الشمالية عبر بطن الوادي الجصي والذي يواصل امتداده بعد ذلك في اتجاه شمالي شرقي لمسافة ميل أو نحو ذلك. ويوحي هذا الصف من بقع صخور الأديم المكشوفة إلى أنها ربما كانت فيما مضى تكوّن قاع مجرى نهر قديم. ويؤكد وقوع بئر شنَّة ذات المياه العذبة نسبيّاً داخل خط الوادي المفترض، ذلك الانطباع، ولكني مكثت حتى صباح اليوم التالي لأجد ما كنت أبحث عنه من دليل يؤكد أو يثبت ما ذهبت إليه. فقد اكتشفت كمية كبيرة من قواقع مياه عذبة[1] صغيرة حلزونية الشكل في قاع المنخفض نفسه عند سفح الجرف. وتشير كل الأدلة المتوافرة

(١) فئة «الأبراص الداكنة»، انظر الملحق.

إلى استنتاج مفاده أن منخفض شنَّة وواديه يمثلان موضع نهر قديم أو بحيرة عذبة. وكنت جذلاً باعتقادي بأنني قد اكتشفت ما يعزز نظريتي التي لم تعد مجرد خيال، وخاصة بعد دراستي قبل أشهر[1] لمستويات الأرض التي قام توماس بقياسها، والتي أظهرت بأن المنخفض الضحل الذي أوضحت أرقامه في جوار شَنَّة قد تكون بالفعل الامتداد الشرقي لمجرى وادي الدواسر الكبير، والذي رأيت مجاريه العليا ذات الاتجاه الجنوبي الشرقي، عند السليل عام ١٩١٨م [١٣٣٧هـ]. وكان عليّ أن أؤكد هذه النظرية بما أجده في الصحراء الواقعة إلى الغرب من شَنَّة لاحقاً -ولكن علينا مؤقتاً أن نكتفي بترك الحقائق التي أكدناها حتى إقامتنا الحالية في شَنَّة- تتحدث عن نفسها. ولكن يمكن أن نقترح بأن السطح الجصي التحتي لمنطقة خيران، الذي أثبت وجوده حدوث أجزاء مكشوفة منه بين الرمال وآبار المياه المالحة الضحلة، يمكن أن يسهم بأدلة قوية تعزز وجود خليج بحري كبير نشأ من رفع جبال عمان وقاره خلال أو بعد عصر الأيوسيين. وقد يكون هذا الخليج بدأ يمتلئ تدريجيّاً بالترسبات التي تأتي بها الأنهار التي كانت تصب فيه من كل الجهات أو أن يكون الخليج قد ارتفع فوق سطح الماء إما نتيجة هذه الترسبات التي تراكمت في قاعه أو بحركة رفع تكتونية لسطح الأرض، حتى تعرضت المنطقة كلها للتأثير المدمر للرمال التي تجرفها الرياح من وجه الصحراء المترب لتصبح في النهاية كما هي الآن: بحر من الكثبان الرملية.

ويبدو محتملاً أن شنَّة نفسها تقع على مسافة ليست بالبعيدة من نقطة كان وادي الدواسر في زمن غابر يصب عنده في بحر كان خط ساحله -الذي

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (ديسمبر ١٩٣١م) ص ص ٥٧٤ - ٥٧٥.

يظهر بوضوح في جروف الميوسين في منطقة الجيبان- يجري صوب الجنوب على طول مرتفعات الصمّان، وإلى الغرب من يبرين ليكوّن خليجاً بالقرب من مقينمة، ومنها كان يجري نحو الشرق حول نطاق الآبار العميقة في بئر فاضل والطويريفة «عند مصب وادي المقرن»، ثم يواصل من هناك في اتجاه جنوبي على طول الجانب الغربي لمنطقة عنسلة من الزقرت حتى شنَّة. ويحتمل أن خط الساحل كان يجري من هنا صوب الشرق إلى مُقْشن ومنه شمالاً على طول السفح الغربي لجبال عمان لتتصل مرة ثانية بالخليج العربي الحالي في جوار مسندم. وخط الساحل هذا هو مجرد حدس، ولكن بكل تأكيد يمكن أن نعده مؤقتاً على اتساق مع الحقائق المعروفة لدينا حتى الآن، وحتى يتم عبور هذه المنطقة الكبيرة المجهولة ودراستها من قبل مستكشفين آخرين مستقبلاً.

كان نسيم خفيف ودافئ يهب في وجهي من الشمال الشرقي وأنا أتجول نحو صعيد الوادي في اتجاه الجمال التي كانت ترعى هناك، أبحث عن محمد الذي كان يساعدني كثيراً في الإمساك بسحالي وطيور الصحراء المراوغة. ولأن بندقيتي لم تعد صالحة للاستخدام، اضطررت لاستخدام مسدس صغير على أهداف مثل الطيور الصغيرة، وكنت لتوي أخطأت مرمى طائر الدغناس، والوحيد من نوعه الذي رأيته أثناء الرحلة، عندما انطلق صوت رصاص بعيد في جهة الشمال الشرقي؛ وتخيلته صادراً من بندقية أحد رفاقي الذي خرج يصطاد الأرانب، ولكن سرعان ما تبين لنا حقيقة الأمر. فقد كنا على بعد ميل من مخيمنا، ولم يعد هناك شك في أن رفاقنا الذين ابتعدوا عنه قد أطلقوا طلقة تحذير، وتبع ذلك تحرك نحو الحيد

الذي يقع خلف المخيم. وفسر محمد الأصوات الخشنة التي أتت من جهتنا بأنها صادرة من الذين يسوقون الجمال إلى المخيم. وبعد لحظة دبّ نشاط كبير في الوادي الذي كان هادئاً قبل حين، وقمت بمساعدة محمد في جمع الجمال القريبة منا، بينما فعل عليّ مثله مع الجمال البعيدة. وتحركنا نحو المخيم ببطء ونحن نحاول أن نجد تفسيراً لمغزى وجود بعض رفاقنا فوق أماكن بارزة وهم يتحركون هنا وهناك تحت ستار الحيود الرملية. تاركاً محمد ليقود الجمال إلى المخيم، اتجهت عبر الوادي لأتحرى عن سبب تلك الحركة والاضطراب الذي صدر من مجموعة من الرجال الذين قبعوا فوق قمة كثيب كبير. ويبدو أن فراجاً هو الذي أطلق إشارة التحذير عندما أبصر ثلاثة رجال يتجهون نحو شنَّة من جهة الشرق. ولو ظلّ فراج مختبئاً وساكناً في مكانه، لأمسكنا الرجال الثلاثة وكنا سنكون في وضع أقوى لنساوم على أصدقائهم، مهما كان عددهم، الذين كانوا يتبعونهم في المؤخرة، وعندما رأوا فراجاً هربوا بعيداً وبأقصى سرعة[1]. وقد قام بعض رجالنا باقتفاء آثار أقدامهم لمسافة قبل أن يتوقفوا عن المطاردة. وقضى القوم تلك الليلة ساهرين متيقظين بينما كنت أغط في النوم؛ وكان الليل بارداً على أولئك الذين بقوا فوق الكثبان يراقبون، وكان الجمع الذي تجمع حول نار المخيم قبل صلاة الفجر لعمل القهوة يقشعرون من البرد فعلاً.

وأثناء ذلك قضى زايد وآخرون معظم الليل يتجادلون ويتشاجرون معي حول خطط المستقبل، وتركنا الأمر دون حسم. فقد بتُّ مقتنعاً تماماً بأن كل الأمر كان مدبراً ومبيتاً بطريقة ماكرة: صوت إنذار كاذب يُعد عمداً ويُنفذ في وقت غير ملائم بهدف إنهاء الرحلة. وكلما أمعنت التفكير فيما جرى

---

(١) «شافوه وطقّوا».

أصبحتُ أكثر اقتناعاً بأن الموضوع برمته كان مدبراً. سأل زايد بعد أن أتى إلى خيمتي مع صالح، واتخذا مجلساً على الأرض بجانب سريري: «فيما تفكر؟» فأجبت باقتضاب: «فراج حمار لتصرفه ذاك؛ فقد أخاف وأرعب الرجال الثلاثة الذين كانوا سيرشدوننا إلى آبار الجنوب، وهيا نتبع آثارهم لعلها تقودنا إلى حيث يتجهون». أجاب زايد بلهجته اللثغة وهو يتظاهر بالتقوى: «لا يمكن أن نفعل ذلك. انظر: إن أرض المسلمين أصبحت بعيدة خلفنا من هنا إلى يبرين، وأمامنا تقع أرض الأعداء، أرض الخوف والرعب. لا نستطيع أن نغامر في تلك الأراضي دون رسل سلام.[1] نحن خائفون وفي خطر وعلينا أن نعود أدراجنا، فماذا تقول أيها الشيخ؟» فأجبت: «أرى أن نسير قدماً اتجاه الجنوب كما وعدتموني بذلك. بكل تأكيد، يا زايد، لم تكن خائفاً من رؤية أولئك الرجال الثلاثة؟». في الحقيقة لم يكن أحد من رفاقنا يعرف الطرق إلى تلمود أو قبر هود، الآبار الجنوبية التي اعتبرتها هدفاً لنا، وإنه لم يكن هناك أحد مؤهلاً يقودنا ويقدمنا إلى قبائل المناهيل والصيعر التي نتوقع مقابلتها في تلك الأنحاء. قال زايد: «أن ندخل مخيمهم دون تعريف سيكون مساوياً لتسليمهم رزقهم وأهلهم عند أعتاب خيامهم». فقد كنا في الحقيقة في وضع حرج، ولكنها كانت مخاطرة يجب علينا أن نخوضها. لم يكن زايد مفيداً هنا ولا فائدة ترجى من صالح الذي بدا خنوعاً. ولذلك أرجأنا النقاش حول الموضوع إلى الصباح، ويكون علي بن جهامان قد عاد حينئذ من المراقبة في العراء البارد. وهكذا تركتهم ليتأملوا فيما اقترحت عليهم بأن لا فائدة من التخوف المبالغ فيه في مواصلة الرحلة جنوباً.

---

(١) سلم وجمعها سلوم، وتستخدم للمصطلح الشمالي الشائع «رفيق» أو المصطلح الجنوبي «ربيّة» وتعني الضامن أو الوسيط.

مرت الليلة بسلام . وبعد صلاة الفجر واصلنا اجتماعنا ، وكان زايد ورفاقه قد عقدوا العزم على أن لا يغامروا بعيداً إلى الجنوب بالطريقة التي شرحتها لهم . ووجدت نفسي مجبراً على الاعتراف -دون أن أعلن ذلك- بأن هناك ما يسوّغ وجهة نظرهم . فقد اقترحوا بديلاً لرحلة الجنوب وهو السير في اتجاه الجنوب الشرقي حيث ظفار كآخر محطة وصول ، وهناك على أي حال ستجدون من التموينات والمؤن ما يكفي لتعويض ما استنفد من مخزوننا . فقد كانت ظفار مكاناً جميلاً ، كما يمكن أن تتم رحلة العودة عن طريق البحر إذا ما أصبح الجو حاراً يحول دون إطالة جولاتنا الصحراوية .
أما بالنسبة لي فإن هذه الخطة لم تلق هوى في نفسي ، إلا ما تتيحه من إمكانية العثور مصادفة على قبيلة راشد وحمد بن سلطان بالقرب من بئر شسار وترتيب اتجاهنا بمساعدتهم إلى الشرق صوب حدود حضرموت .
ومن هناك يمكننا أن نندفع عبر الصحراء القاحلة التي تشكل هدفاً أساسيّاً لحملتنا هذه . باستثناء ذلك ، فإن ما اقترحه الرفاق سيكون مجرد السير في منطقة سبق أن استكشفها السيد توماس من قبل . أما البديل الثاني فكان أن نتجه صوب الشمال الشرقي نحو المنطقة الشرقية من خيران على أمل أن نعثر على قبائل رعوية مستقرة عند الآبار ، ولكن ذلك سيأخذنا بعيداً من المنطقة القاحلة ، وخفت أن أجد صعوبة عندئذ في إغراء رفاقي بالعودة إلى شنَّة - وخاصة إذا لم نجد عرباً- لمواصلة مغامرتنا الكبرى ، مع أنني كنت مشدوداً لاحتمال دراسة المنطقة الواقعة حول رملة الشُعَيْت ، حيث اقترح توماس موضعاً بديلاً لوبار «أوبار» . ولكنني كنت أشعر بأن فرصة العثور على خرائب هناك كانت ضئيلة . ولذلك رفضت هذا البديل وأكدت على

مواصلة السير جنوباً بينما اقترح رفاقي بأن لا نضيع وقتاً أكثر في المحاولة لاختراق الصحراء الجنوبية نفسها، خاصة بأن فصل الشتاء كاد ينتهي.

احتفظت بهذا الاقتراح في ذهني، ولكني ألححت على قبول خطتي الأصلية وحذرت رفاقي بأن ما يمكن أن يتمخض عن إصرارهم وعنادهم قد يشكل خسارة لهم على المدى الطويل. وعند ذلك توقفنا عن المناقشة مؤقتاً، وواصلت عملية استكشافي لشنّة وتركتهم ليعيدوا النظر فيما قيل وطُرح من آراء، وتركت سعدان خلفي ليراقب ما يدور بينهم نيابة عني. خرج صالح من المخيم يتمشى ليبحث عني، فقد كنت أتجول في قاع النهر القديم أبحث عن القواقع. وقد كان أكثر رفاقي لطفاً وسحراً، يكذب بعفوية وبغير تكلف، لكنه كان دائماً على استعداد بأن يواجه نفسه عند اكتشاف أكاذيبه برباطة جأش وهو يبتسم، وهو أكثر الرفاق صراحة وبدون مواربة، كما كان أكثرهم تفاؤلاً رغم ما يصيبنا من إحباطات. فقد كان شخص نصير كل قضية، صديق الكل لا أعداء له بسبب بساطة وسذاجة خداعه وعدم أمانته. ولم يكن هناك أحد غيره يركب الجمل برشاقة على الطريقة العمانية. فقد أكسبته عيونه البنية الداكنة الواسعة وخصلات شعره المتموجه الطويلة، بالإضافة إلى جسم رشيق ومرن وصوت ناعم عميق، سحراً ورشاقة، رغم صفات الرجل القح التي يتصف بها. وكان هاجسه الرئيس هو حب كل شيء: حب النساء، حب المال والطعام والراحة وكل ما هو طيب، حتى عندما يتجشأ، كان يفعل ذلك بتلذذ ويطلقه طويلاً وبصوت يأتي من أعماق بطنه.

فقد أتى إليّ الآن مفوّضاً نفسه دون إذن من أحد، ليفشي لي مداولات أصدقائه وأكد سعدان لاحقاً تفاصيل تقريره. فقد فعلت تحذيراتي من إثارة

غضب ابن سعود وإلحاحي بأن نواصل سيرنا إلى الجنوب فعلها في نفوسهم وجعلهم يفكرون في الأمر جديّاً. وقد كان جميعهم قد عقدوا العزم على عدم الذهاب جنوباً، فقد حسموا الأمر من هذه الناحية. ولذا لم يعد لغضبي على هذا القرار أهمية إلا من الأصداء التي يمكن أن تحدثها عند جهات نافذة. فقد يغضب ابن سعود من أجلي، وقد يكون فظّاً في معاملته مع الذين خانوا الثقة والمهمة التي أوكلت إليهم. فقد كلّف ابن جلوي زايداً بأن يتجنب ما يمكن تجنبه من مخاطر، وكان ذلك ما شرعوا يفعلونه الآن، مع أن لديّ تفسيراً آخر لتصرفهم بهذه الطريقة. فقد يغضب ابن جلوي منهم إذا ما رأى أن الطريقة التي حررهم بها من تحمل عبء المهمة التي كلفوا بها قد تثير حفيظة ابن سعود. فأين المخرج من هذه المعضلة. وأين طريق الخلاص؟ فقد عرضوا توصيلي إلى ظفار وعرضوا أيضاً بأن يتجولوا في خيران كما أريد، كما اقترحوا السير عبر الصحراء القاحلة من حيث كنا، ولكن لم يكن هناك ما يثنيني عن هدفي ويرضيني أكثر من البحث عن الموت والمخاطر وسط جبال حضرموت السوداء. وهذا لا يستطيع رفاقي مواجهته دون مرشدين أو الأجاويد الذين يصلحون ذات البين. ولذلك كان أمامهم خياران: مواجهة غضب ابن سعود وغضب سيدهم ابن جلوي، فقد سبق أن نال زايد ورفاقه عقابهم على يد ابن جلوي وهو السجن لفترة مع طعام كافٍ، فقد يتحملون عقاباً مثل ذلك مرة أخرى، ويحمل جسم سويد آثار طعنات ثلاث من خنجر رجل من قبيلة صيعر كادت تقضي على حياته، وذلك أثناء مهمة في الصحراء. فالحادثة بكل بشاعتها ووحشيتها ما زالت ماثلة أمامه حتى اليوم. ولم يكن على استعداد لمواجهة مثل ذلك مرة أخرى. ولكن ماذا عن غضب ابن سعود؟ وماذا سيفعل إزاء ذلك؟ تلك هي المسألة.

وقد اتفق رفاقي على أن أسلم الطرق هو العودة إلى الأحساء، ويجازفون بغضب ابن جلوي، معتمدين على قدرتهم في إقناعه بأنني تجاوزت حدودي في الطلب على إنجاز مهام قد يعرّض حياتهم للخطر فوق ما يتحملون. وهكذا واجهني شبح الفشل التام في ظروف لم أكن أتوقعها في أي مرحلة من مراحل المشاحنة التي دبَّت بيني وبين رفاقي مؤخراً. وكان لابد من إحداث تغيير في وسائلي. عدت إلى خيمتي واستدعيت زايداً وعليّاً للاستشارة، وما هي إلا دقائق قليلة حتى تجمع نصف أفراد الفرقة حول سريري، وبدأت المناقشة والمشاحنة. وأوضحت لهم بأنني لن أعود إلى الأحساء تحت أي ظرف، ولهم أن يتخلوا عني إذا أرادوا ذلك مع تحمل ما سيترتب على ذلك من عواقب وخيمة لهم، وإنني لن أكافئهم وعليهم أن يواجهوا غضب أولئك الذين بعثوني هنا. ومن ناحية ثانية أخبرتهم بأنني لن ألحّ بعد هذا على السفر جنوباً إذا كان في ذلك ما يعرّض حياتهم للخطر وبأنني سألتمس عفو ابن سعود باسترضائه بأنني وتحت رغبتي باشرت عبور الصحراء القاحلة من شنَّة بدلاً من نقطة أكثر جنوباً، وأن عبور الصحراء القاحلة جزء مهم من حملتنا. وقد نبههم ابن جلوي بذلك قبل رحيلنا وإن أي تقاعس في إنجاز ذلك سيقابل بأشد العقاب.

بدأ شعور المجتمعين يتحول تدريجيّاً ولكن بثبات إلى الاتفاق مع ما اقترحته. وبدأت فكرة صيد الوضيحي تروق لأولئك المهتمين بالصيد، كما أن خلو الصحراء من العرب قد طمأن أكثر أفراد الفرقة تخوفاً من السفر جنوباً. وهناك أيضاً فكرة التخلي عن الرحلة والتحرك شمالاً إلى أقرب بئر في حالة ما تثبت أن الرحلة غير عملية أو مزعجة تماماً. ومن ثم اتفقنا مبدئيّاً على حل وسط مؤداه أن نتحرك غداً في اتجاه غربي. وبهذا عاد جو من الود

والصداقة يخيم علينا من جديد. وانفض الاجتماع على أن نجتمع بعد نصف ساعة حول الغداء. وبعد ذلك وفي حضور الجميع، أبرمنا المعاهدة بعد توزيع هبة سخية، وأخبرتهم بأنني كنت أنوي توزيع الجوائز لهم عند الوصول إلى حدود حضرموت، ولكننا تخلينا عن فكرة الذهاب جنوباً إلى ذلك الحد. وهكذا أصبحت شنَّة هي آخر نقطة جنوبية نصل إليها، وسنعود الآن إلى مكة عبر الربع الخالي. ولذلك أردت أن أعبّر عن امتناني لما قدمتموه من جهود أوصلتنا إلى حيث نقيم الآن، وسأعبر لكم عن امتناني مرة أخرى في مكة في الوقت المناسب. والآن خذوا هذا الكيس من النقود وتقاسموه فيما بينكم كما ترون. أما سعدان فلا نصيب له في ذلك لأنه خادمي الخاص.

هلل الجميع: «جزاك الله خيراً، يا شيخ عبد الله» وسأل ابن معدي: «كم من النقود داخل الكيس» أجبت: «خمس مئة دولار»، وتبع ذلك تحليل للذات والعد على الأصابع. «ثلاثون دولاراً لكل شخص. . ولكن ذلك أقل بعشرة دولارات»، قال ابن المعدي: «حسناً فقد قبض علي وزايد نقوداً بالأمس من الشيخ عبد الله. وبهذا سيكون نصيبهما أقل». فأجاب زايد: «بكل سرور، ويمكنكم أن تخصموا المبلغ كله مني فقط». قلت لهم: «دعكما من ذلك. . أنا سأدفع الباقي، هيا يا أبا جعشة، ابدأ في توزيع المبلغ». وبدأ أبو جعشة في توزيع النقود، ثلاثون دولاراً لكل شخص جالس حول النار من اليمين حتى وصل إلى زايد الذي قال: «أعطني عشرين دولاراً وخذ الباقي». فتدخلت قائلاً: «لا، أعطه نصيبه كاملاً»، إذ لم أشأ أن أرى قائدنا يبقى معتمداً على ما أهبه له. وهكذا نال كل شخص نصيبه من المنحة، إلا أبا جعشة الذي بدا مكتئباً ومرتبكاً مع ما أظهره من

عدم أنانية أو تفاؤل لم يجد تقديراً أو استجابة طيبة عند الرفاق. وتوجهت بعد ذلك إلى خيمتي وخبأت عشرين دولاراً تحت وسادتي، واستدعيت أبا جعشة لاحقاً وطلبت منه أن يعاونني في تحريك بعض أمتعتي استعداداً لرحلة الغد. فقد كان يجيد ضروباً مختلفة من العمل. وسأله الآخرون بعد أن انتهى من عمله: «هل أخذت عشرة الدولارات» ولم تشف إجابته المراوغة غليلهم كما لم تكن كافية لتثير جشعهم لمزيد من النقود.

بعد أن تم الاتفاق العام حول الطريق الذي سنتبعه، تركت التفاصيل لزايد ورفاقه مع اقتراح مفاده بأنني لا اعتراض لي في محاولة اختراق الربع الخالي كما اقترحوا دون خيام أو عوائق أخرى والتي يمكن أن نعيدها مع أولئك الرجال والجمال التي قد لا تتحمل مشقة السفر عبر الصحراء. وكان ذلك ما يجب عليهم عمله في مثل هذه الظروف. وأعلن علي بن جهامان ومرشدي الدمناني بأنهم لم يسمعوا عن أحد من قبل قد عبر الصحراء من شنَّة، أو من أي مكان في منطقة خيران، إلى السليل أو ما يجاورها. فقد كان عليّ يعرف المنطقة حتى مناطق القعاميات والحوايا، ومن هناك عادةً ما تتحول قبيلة الغفران آل مرّة في الفصول الموائمة، إلى مسافة ٤ إلى ٥ أيام من شنَّة والزقرت ونيفة، بحثاً عن الحشائش لبهائمهم وعن الوضيحي وغزال الريم لاصطيادها. ولكنهم دائماً يعودون في مثل هذه الأحوال إلى قاعدتهم، ولا يجدون مناسبة لاقتحام أو اختراق الصحراء القاحلة. وكما يعرفون فإن حملات الصيد تأتي إلى قلب الصحراء مراراً من منطقة الأفلاج ووادي الدواسر لصيد الوضيحي وبيعها في الأسواق المحلية، حيث يعد لحمها شهياً ومقوياً، وقد يباع لحم حيوان كامل وهو مجفف بحوالي ١٠

دولارات، وأحياناً بحوالي ٢٠ دولاراً، في مواسم الشح. ويحدث أحياناً أن لا تعود مثل هذه الحملات من أماكن الصيد إلى قواعدهم الدائمة حول آبارهم، ولا يزورون شنَّة أو آباراً أخرى في الصحراء حتى ولو كانوا يعرفون مواقعها. فقد اخترق سويد الصحراء مع فرق من الصيادين من السليل إلى مناطق الجلدة (الجليدا) وريدا في أكثر من مناسبة، كما يعرف سالم أماكن الوضيحي إلى الجنوب من وادي الدواسر وفي اتجاه نجران. وقد عبر الأطراف الشمالية للصحراء القاحلة الواقعة ما بين مقينمة ومنطقة الأفلاج ومن بئر فاضل مباشرة إلى السليل. وفي الحقيقة. . لا يتردد إلى هذه الأماكن القاحلة من أجل الصيد إلا المغامرين من عرب بني مُرّة مثل: علي بن جهامان، وحمد بن سلطان، وابن فسل وآخرون، في حين أن قطّاع الطرق الذين يرتادون هذه الأماكن لا يجرؤون على اختراقهما في أي اتجاه إنما يطوفون حول أطراف الصحراء وقريباً من الآبار التي تنتشر هناك.

وهكذا لم يكن هناك من هدف معين يمكن تحقيقه -تحت ظروف الحياة العادية التي يعيشها العربي- من العبور المباشر لهذه الصحراء القاحلة الطاردة من طرف لآخر، وإنني أسجل هنا حقيقة أنني لم أعلم لا من رفاقي ولا من أي أحد قابلته في السليّل أن محاولة جرت لعبور هذه الصحراء القاحلة أو أنجز ذلك العبور. ويحتمل أننا كنا أول فرقة تغامر في اختراقها بهدف الوصول إلى الجانب الآخر منها؛ ولكن من المؤكد أننا كنا الأول في مباشرة عمل كهذا بصحبة خيامنا وأمتعتنا الثقيلة. وقد بدا لي قبل الرحيل بأن رفاقي كانوا يفتقرون إلى فن اختراق الصحراء وهم محمّلون بعوائق مثل ما نحمل. وفعلاً عانينا كثيراً من هذا الخطأ الفادح لاحقاً. فقد وجدنا أنفسنا

على حافة الفشل التام، ولكننا تعلمنا من التجربة درساً كان له أثر كبير في نجاح مهمتنا في النهاية، ولكن في تلك اللحظة فقد أنساني مرح رفاقي وحماسهم الظاهر ما أُثير من مخاطر يمكن أن تواجهنا في الطريق، ولم أتبين حقيقة دوافعهم التي بدت تتضح في ضوء التجارب التي مررنا بها لاحقاً. فقد كانت هناك إمكانية لصيد الوضيحي، إذ كان ذلك حافزاً لإشباع رغبتهم في الصيد وأكل اللحم. وكان إغراء مطاردة الوضيحي، ونتائجها التي تثير اللعاب تروق لرفاقي؛ ولكن من ناحية أخرى فقد كانت تخامرهم فكرة، في حالة فشلهم في الحصول على الوضيحي أو إذا ثبت أن الرحلة شاقة ومرهقة، التملص من إكمال الرحلة قبل فوات الأوان ويعودوا أدراجهم إلى الآبار الشمالية التي ما تزال قريبة ويسهل الوصول إليها. وهذا هو السبب الذي حدا بهم للاحتفاظ بما يحملون من مؤن ثقيلة معوقة للسير عبر الصحراء إذ يضمن ذلك لهم طعاماً كافياً يساعدهم في طريق العودة مروراً بالآبار.

قضى الرفاق يومهم يستعدون للرحلة؛ وتم إصلاح وترقيع ودهن بعض قرب الماء، التي يبلغ عددها ٣٢ قربة، قبل ملئها بالماء، ثم وضعها في صفوف بعد الملء لتحميلها على الجمال غداً. وقُسِّمت المؤن في عبوات مناسبة وأعيد ترتيب كل شيء استعداداً لرحلة مبكرة. وكانت الجمال ما زالت ترعى في الوادي، وبقي بعض الرفاق فوق الكثبان يراقبون ما حولنا بحثاً عن أعداء أو زائرين، مع أن قرارنا للعودة عبر الصحراء الخالية يبدو وكأنه خفف من التوتر العصبي الذي ساد بيننا عصر اليوم السابق. فقد كان الكل مبتهجين؛ فقد نعود إلى العالم المتحضر خلال أسبوعين، إذا ساعدنا

الحظ، حيث ينتهي وننسى كل ما عانيناه من مشقة ومخاطر، بالإضافة إلى ما جنوه من نقود وما سينالونه عند وصولنا إلى نهاية المطاف. وكان الجميع فرحين سعداء بعد أن تناولوا وجبة جيدة من الأرز والسمن والتمر. وتحدث سالم -قائدنا- بتفاؤل عن احتمال عشرة أيام من السير وبعدها تنتهي معاناتنا، ولكنني رأيت أن أحذرهم من الإفراط في التفاؤل. فحسب حساباتي، المسافة التي سنقطعها تصل إلى حوالي ٣٦٠ ميلاً. وراهنت بأننا سنقطع ذلك في أقل من ١٥ يوماً بمعدل السير الذي كنا عليه خلال الأسابيع السابقة. ويتعين علينا إذاً أن نحرص على ما لدينا من ماء وأن لا نفكر في طعام يحتاج إعداده إلى ماء. وبعد وجبة الغداء تلك، وافق الرفاق على ما قلته، وكانوا فرحين برؤيتهم لي مبتهجاً رغم ما أحرزوه من انتصار عليَّ في مشاحنة الأمس. ولم يكن هناك في الحقيقة مكان للقنوط من ناحيتي لأننا كنا على عتبة مغامرة عظيمة كنت أعدها الهدف الأسمى لطموحي.

اتخذ الحراس في تلك الليلة أماكنهم في التلال القريبة، ولم يعد ما تخبئه الأيام لنا من مخاوف في الجنوب يشغل بالنا بعد أن اتخذنا قراراً بتجنبه. ولماذا التلهف إلى الغد؟ غداً سنتوجه إلى ديارنا عبر صحراء قاحلة لا ماء فيها، وهناك على الأقل سنكون في مأمن من الأعداء. ولذلك نمنا ملء جفوننا وذلك الشعور الطاغي بالأمن والطمأنينة يداعب جوانبنا. وعندما وقفنا لأداء صلاة الفجر جماعة، ودرجة الحرارة آنذاك ٤٠ْ فهرنهايت، عاد كشافونا من حيث كانوا وهم يرتجفون من البرد، وجلسوا يتدفؤون بشرب القهوة، وأُحضرت الجمال لترتوي من البئر وتستعد لمواجهة الصعاب التي تنتظرها، بينما انشغل الطاهي ومساعده في إعداد آخر وجبة من الأرز

المطبوخ الذي التهمناه بنهم شديد. أما الجمال فلم تشرب كثيراً من الماء لأنها كانت قد شربت كميات منه عندما قدمنا قدمنا إلى شنَّة قبل يومين. وقد عانينا من ذلك بعد أيام من سفرنا، وإن كنا لم نهتم بذلك في حينه. ومضت استعداداتنا لبدء الرحلة قدماً دون جلبة وتسرع. وأخليت خيمتي لتحزم؛ وقضينا ما بقي لنا من وقت بجانب البئر أتوسل إليهم وللمرة الأخيرة بأن يغيروا طريق سيرهم إلى الجنوب، ولكنني كما توقعت، فشلت في إثنائهم عن ذلك تماماً. وبعيداً خلف تلال الرمل المتموجة التي تتناثر عليها شجيرات صحراوية، كان يقع الأفق الجنوبي لأرض الموت التي لم يرها أحد ولم يُكتب لنا أن نراها، والتي يثير مجرد ذكرها إحساساً من الخوف والكآبة لدى رفاقي.

وفي الساعة الثامنة والنصف صباحاً من يوم ٢٢ فبراير كنا على أهبة الاستعداد للتحرك. وهكذا غادرنا المنخفض ودخلنا الوادي في اتجاه الجنوب في فرقة تتكون من تسعة عشر رجلاً وكلب وثلاثين جملاً من إجمالي ٣٢ جملاً تركت الدليقيه قبل ٤٧ يوماً. فقد كانت الحيوانات تحمل الآن صناديق مليئة بعينات من الصحراء فضلاً عن ٣٢ قربة ماء وبرميلين من ماء شنَّة. أخذت أمازح أصدقائي، ونحن نسير، بالسجع بطريقتهم المعهودة:

يوم جينا إلى شنَّة شفنا أهل ثلاثة

وشردنا منهم خايفين من الخباثة

رايدين الوادي فيها خير وكراثة

ابتسموا ابتسامات باهتة وهم يحدقون إليّ بارتياب ويتساءلون فيما إذا كنت سأخونهم بعد كل هذا. وقليل من كان يفهم ما يعتمل في صدري من فرح ونحن نواجه الصحراء العظيمة أخيراً! تماماً كما كنت أجهل الكثير عما يدور في أذهانهم الغادرة وما يخططون له ويدبرونه لي وهم يرافقوني نحو المجهول.

الباب الثالث

الربع الخالي

الفصل الأول

الصحراء الحقيقية

«هذه هي – التي قالوا لك بأنها الربع الخالي»

«علي بن جهامان»

على الرغم من الرحلة الطويلة الشاقة التي تنتظرنا، فقد اتفقنا جميعاً أن نجعل مسيرة اليوم الأول قصيرة حتى نتمكن من زيارة وتفتيش كل الآبار الواقعة إلى الغرب من شنَّة. وكان على القافلة الرئيسة أن تواصل سيرها مباشرة إلى ملتقى متفق عليه تحت قيادة سالم، بينما كان على فريقنا الصغير ومعنا زايد وعلي بن جهامان أن يقوم بإجراء الانعطاف اللازم للوصول إلى الآبار ثم نلتقي ثانية بباقي الجماعة في وقت مناسب بعد الظهر. وتقدمت قافلة الأمتعة بحوالي عشر دقائق ودخلت الصحراء في الاتجاه الشمالي الغربي عبر الضفة اليسرى لوادي شنَّة، في حين سرنا نحن نحو أعلى الوادي في اتجاه جنوب غرب صوب آبار عرفجة التي تقع على بعد ميل في منخفض عميق يحف به جرف رملي شبه دائري. وكان تل بارز من الحجر الجصي المكشوف يحتل جزءاً من المنخفض، وبين جروفه التي تنحدر أربعين قدماً إلى سطح المنخفض ومنحدرات الرمال التي تحيط بالتل، كانت تقع البئران. وكانت إحداهما عبارة عن حفرة تجريبية تخلى عنها من قام بحفرها يائساً من العثور على ماء فيها، بينما كانت الثانية تحمل ماء على عمق سبع قامات، ولكن إنتاجها من الماء كان شحيحاً دائماً مما أدى إلى هجرها لتمتلئ بالرمال الزاحفة التي قد تطمس في يوم من الأيام معالمها نهائيّاً ومعها ذكرى الجهد البشري الذي أدى في نفس ذلك الموسم إلى اكتشاف واستغلال آبار

شنَّة. وبعد مسيرة عشر دقائق من عرفجة صادفنا حاجزاً رملياً كبيراً يتمدد في شكل حدوتي حصان عبر مجرى الوادي حيث ينحني مجراه تجاه الجنوب. وقد صنعت الرياح حفرة عميقة أعلى الحاجز الرملي، وفي قاعها الرملي وجدنا «بئر ابن سويلم»؛ وهما في الواقع بئران حفرهما دليلنا الدمناني سالم بن سويلم قبل ٢٥ سنة عندما شهدت الرمال الجنوبية آخر دورة من الأمطار والمراعي الجيدة. وأعقبت ذلك فترة جفاف دفعت بالعرب وقطعانهم إلى النزوح بعيداً عن هذه المقاطعة، وتركت آبار ابن سويلم تواجه مصيرها المحتوم في الصحراء التي ابتلعتها في جوف رمالها الزاحفة أبداً حتى أعيد اكتشافها وتنظيفها على يد علي بن جهامان في موسم ١٩٢٩-١٩٣٠م [١٣٤٨هـ]. فقد كان علي رائداً من رواد الصحراء الحقيقيين. وكانت مياهها كمياه آبار عرفجة شبيهة بماء شنَّة من حيث النوعية، وإن كانت موجودة على عمق تسع قامات. وتوحي هذه الحقيقة بأن الحفارين في عرفجة لو واصلوا حفرهم إلى عشر قامات لوجدوا ماء. ولكن العرب غادروا آبار ابن سويلم بعد استخدامها لفصل واحد وعادت الرمال تزحف عليها من جديد.

بدأ مجرى الوادي يتخذ اتجاهاً جنوبياً عبر متاهة من الرمال التي ترتفع من أرضية الصحراء إلى ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم، وتنتشر حول المنخفض وعبره في مجموعات تتكون من اثنين وثلاثة؛ وكانت تتناثر هنا وهناك بقع صغيرة من صخر الأديم المكشوف. وبعد مسيرة مضنية فوق التلال وأسفل الوديان لمسافة ثلاثة أميال تقريباً، وجدنا أنفسنا نطل من على قمة منحدر رملي شديد الانحدار، يصل ارتفاعها إلى ٣٠٠ قدم، على حفرة المعمورة وبذل علي مجهوداً لإقناعي بأن نواصل السير من بئر ابن سويلم إلى زُوَيْرة

مباشرة لكي نتجنب هذا الجزء الوعر من المنطقة، ولكنني شرحت له ضرورة وأهمية رؤية هذا المكان بأم عيني إذا ما أردت وضعه في الخريطة.

انطلق أرنب هارباً من أمامنا ونحن نهبط المنحدر متجهين صوب المنخفض، وكان أحد مجموعة كبيرة من الأرانب التي رأيناها أثناء سيرنا ترتع في المراعي الجيدة، كما وجدنا سحالي عديدة تمرح في بطن المنخفض جمعنا منها عدداً لمجموعتي من الحيوانات. وكان فريق من قبيلة بني مُرّة قد قطن هذا المكان أثناء موسم ١٩٢٩-١٩٣٠م [١٣٤٧هـ]، وهو الموسم الذي عرف بيوم السبلة في تاريخ حوادث المنطقة بعد المعركة الكبيرة بالقرب من الزلفي التي انتصر فيها ابن سعود على الإخوان وقضى على حركتهم. ووجد عليّ الماء في البئر على عمق ثلاث قامات فقط، وكان ماءً جيد النوع كماء شنَّة، ولكن لم يكن وفيراً ولذلك هُجرتْ، وكان علينا أن نعتمد على عليّ في تحديد موقعها وسط الرمال التي قد طمست معالمها نهائيّاً. ووجدنا بالقرب من البئر بقعة كبيرة من الصخر الجصي المكشوف ذي سطح وكأنه خفق إلى أمواج صغيرة مما يوحي بأنه ربما كان يشكل فيما مضى قاع بحيرة أو هور متصل بالبحر.

وخلف المنخفض وفي اتجاه الغرب بدا قاع الوادي الذي بدا مجراه ينثني حول حيود مرتفعة من الرمل، ويكتسي ببقع عديدة من صخور الأديم المكشوفة حتى هبطنا إلى بطن منخفض زُوَيْرة بعد عبور حيد رملي مستعرض في طريقنا. وصادفنا قريباً من المنحدر الرملي -وعلى يميننا- البئر الوحيدة في هذه المنطقة، وكانت عبارة عن مهوى يصل عمقه إلى خمس قامات وقام بحفرها علي بن جهامان في موسم ١٩٢٨-١٩٢٩م [١٣٤٦هـ]

قبل السبلة. وتبدو -على الرغم من كونها مطمورة بالرمال- أنها استخدمت قبل أسابيع قليلة من قدومنا؛ حيث ما زالت التربة الرملية حول فتحة البئر تحمل بصمات الرطوبة، وقام رفاقي بإحصاء آثار أقدام ١٥ جملاً تنتمي على ما يبدو لفرقة من قطاع الطرق. كما كانت جذوة النار الميتة التي عملوا بها القهوة والبقعة التي أدوا صلاتهم فيها ما زالت واضحة، كذلك آثار أقدام شخصين وهي تتجه نحو أعلى التل للمراقبة، بينما انهمك رفاقهم في عملية سحب الماء وإرواء رواحلهم. وكان مجرد رؤية مثل هذه الآثار على الأرض -حتى ولو كانت قديمة- تثير أعصاب فرقة صغيرة كفرقتنا التي بدأت تظهر تبرماً أثناء قيامي بالبحث عن أشياء ذات أهمية علمية. فقد يعود أولئك الرجال إلى هنا في أية لحظة، أو ربما التقوا بقافلة الأمتعة وقد يتعرضون لنا أيضاً. وكان أدعى لنا في هذه الحالة أن نجتمع مع بعضنا ولا نفترق لكي نواجه القوم سويّاً. ولكن لم يذهب بحثنا خلال فترة التوقف القصيرة هباء، إذ التقط زايد من الأرض أداة من الصوان أضفتها إلى مجموعة عيناتي. ثم واصلنا سيرنا بعد ذلك دون تلكؤ عبر أرض متموجة واسعة من التلال ذات لون قرمزي ووردي تقع بين حيود مرتفعة تبعد عن بعضها حوالي ميل، وتكتسي بشجيرات الزهر الجميلة. ثم سلكنا طريقاً يتجه نحو الشمال لمسافة ثلاثة أميال وعلى يميننا ظهر بطن الوادي الذي يكتسي ببقع مكشوفة من صخر الأديم. وواصلنا السير حتى قدمنا إلى حيد رملي متداخل اطّلعنا من فوقه على بحيرة حقيقية من الجص يلمع بياضه تحت وهج ضوء الشمس.

كانت طريوة تقع هنا، وهي آخر الآبار الصحراوية الموجودة غربي شنَّة. وقد قام عليٌّ بحفرها في موسم ١٩٢٩-١٩٣٠م [١٣٤٧هـ]. وكانت بئراً

واحدة تهبط ١٣ قامة إلى طبقة من المياه المالحة مثل مياه الزقرت وآبار خيران الأخرى. ويبدو أن بحيرة الجص كانت تشكل ربما بقايا ذراع بحري أكثر من كونه قاع نهر قديم، وكان بلا شك يتفلطح بشكل دلتا وهو يقترب من الخليج. وكما حدث في زُوَيْرة، زار جمع من العرب هذه البئر وإن لم يتفق رفاقي في تحديد موعد تلك الزيارة. وكانت فتحة البئر مغطاة بعناية كما جرت العادة، وكان محراب الصلاة المحاط بالحجر وحفرة الدباغة الكائنة في بقعة جصية تقع على ارتفاع قليل من فتحة البئر، يُشير إلى أن طريوة كانت تمثل ملتقى للعرب الرعاة وعوائلهم، كما كان مكاناً يرتاده المسافرون العابرون باستمرار.

والآن وقد أكملنا برنامجنا فيما يخص آبار منطقة شنَّة، أصبح هدفنا الآتي أن ننضم إلى قافلة الأمتعة في أقرب فرصة ممكنة. وكانت المنطقة التي عبرناها تشكل جزءاً من المنطقة التي يشار إليها بغموض برملة شنَّة أو رمال شنَّة، وهي منطقة بها صفات السواحب النموذجية التي تتكون من حيود رملية متوازية على مسافة ميل من كل حيد، وأودية أو منخفضات متموجة تتناثر فيها شجيرات خفيفة من مكان لآخر. وكانت الصخور الأساسية الصحراوية المكشوفة ذات اللون الأبيض أو الأغبر، تظهر على السطح هنا وهناك بين الرمال.

بدأت الملامح العامة للصحراء تتغير على بعد عشرة أميال إلى الغرب من شنَّة. فلم تعد الحيود الرملية تجري متوزاية بل أخذت تتناثر حول المنحدر متخذة منحنيات واسعة كالقوس تتجه بصفة عامة جهة الجنوب وتحتضن فيما بينها أماكن وتلال رملية وقيعان أودية صخرية أو رملية باهتة اللون.

وتعرف هذه المنطقة باسم القطارات. توقفنا بعد خمسة أميال من طريوة في أحد هذه المنخفضات لنستريح قليلاً ونتناول بعض المرطبات بينما ترعى جمالنا في الشجيرات المتناثرة حولنا. وبدت الصخور الصحراوية الزرقاء مكشوفة هنا وهي تنحدر من الشمال إلى الجنوب في شكل رَقّين بعرض ٢٠ قدماً تماماً كشاطئ مائل أو في أكثر الاحتمالات كضفة نهر خالية من الحصباء. وظل المنظر على حاله طيلة فترة الظهر وطوال مسافة تسعة الأميال التي قطعناها. وكان طريقنا يخترق منطقة تلال وأودية تمتد على طول مجموعة متصلة من بقع مليئة بالصخور. ورأينا من قمم التلال التي نعبرها بانوراما واسعة من التلال الرملية والحيود المتموجة وكثبان رملية معزولة. وأطلق علي رصاصة على أرنب كان مختبئاً تحت شجيرة عبل من مدى قريب ومزقه إرباً، ولم نمسك إلا اثنين من الأرانب الكثيرة التي رأيناها إذ لم يكن الكلب السلوقي حريصاً على مطاردتها بعد أن شبع من الأكل في شنَّة. وتحولت أنظارنا قليلاً إلى سحلية[1] كانت تختبئ تحت شجيرة وتفرق رفاقي عندما اندفعت كالسهم من مخبئها إلى مخبأ آخر. وبضربة رقيقه من عصاي على ظهرها استلقت على الأرض وهي تطبق فكيها وتنظر إلينا عاجزة. وفشل كل مجهودنا لحفظها نظراً لنفاد ما كنت أحمله من مادة الميثَيل. ورأينا يعسوباً وثلاث فراشات خلال اليوم، ولكن لم نتمكن من القبض عليها، فقد كانت أكثر حشرات الصحراء مراوغة، ولم أتمكن من إمساك إلا واحدة خلال تجوالنا في الصحراء.

لمحنا من بعيد وقبل المغيب بفترة رجلين وهما يقفان على حيد رملي، وكانا كما افترضنا من أعضاء فريق قافلة الأمتعة يراقبان وصولنا. ووصلنا

(١) ورل أو رويلي.

المخيم خلال دقائق بعد أن قطعنا مسافة ما يقرب من ٢٠ ميلاً أثناء النهار. وكانت شنَّة تقع على مسافة ١٥ ميلاً وحوالي ١٥٠ قدماً إلى أسفلنا. أما منطقة رملة أبو ضلوع فقد كانت تقع على مسافة مسيرة يوم في اتجاه الجنوب، وهي منطقة تتكون من صفوف رملية عالية تتخللها حيود منخفضة وتمتد غرباً تجاه كتل الكثبان الرملية التي تعرف بالقعاميات. وهكذا انتهى يومنا الأول دون أن نحرز تقدماً كبيراً في سيرنا، ولكن الظروف كانت مواتية تماماً وتعد بأشياء أفضل خلال الأيام القادمة.

بدأت قافلة الأمتعة سيرها الساعة الثانية صباحاً لتستفيد من برد الليل بينما واصلنا أنا وبعض رفاقي النوم حتى الفجر. وكنت أقضي الوقت متوانياً وأنا أحزم أمتعتي في الصباح، عندما صاح صالح فجأة من مرتفع يشرف على السهل الذي يقع خلفنا يطلب منظاري معلناً وجود أشياء مريبة تتحرك في الأفق البعيد. وعلى الرغم من أنه فشل من أن يثبت ما ادّعاه ويؤكد ما رآه، كان يتحتم علينا أن نأخذ أي تحذير في الصحراء بكل جدية. ولذلك أسرعنا في التحميل والتحرك فوراً.

كان علي قد أسرّ إليّ قبل أسابيع بأنه يعرف موضعاً تعج بالقواقع في هذه الأجزاء الجنوبية، وشعرت بأن الوقت قد حان لأذكره بوعده الذي قطعه على نفسه بأن يقودني إليه. ويبدو أنه لم ينس وعده ولكن لم يكن متأكداً تماماً من موقع الموضع وإن تخيل أنه لم يكن بعيداً. وكان علي قد انحرف جانباً مرتين خلال اليوم السابق ليفحص بقع الصخور المكشوفة التي مررنا بها لعلها تكون الموضع الذي كان يبحث عنه. ووجدنا في أماكن متباينة مجموعات صغيرة متناثرة من القواقع الحلزونية الصغيرة التي رأيناها في

شنّة. وقد بدا واضحاً بأننا نتبع مجرى نهر أو نجتاز دلتا. ولكننا صادفنا على بعد ميل من مخيمنا -على ما بدا من بعيد- كبقع أخرى عديدة من الصخور المكشوفة التي رأيناها كثيراً من قبل. صاح علي: «إنها هناك!». وسألته: «عن ماذا تتحدث؟»، فأجاب قائلاً: «القواقع التي حدثتك عنها. فقد مضت سنوات على مروري هنا، وعندما رأيت القواقع كنت عائداً من حملة صيد للوضيحي في القعاميات، ولم أعر انتباهاً لمثل هذه الأشياء آنذاك. ولكن عندما رأيتك مهتمّاً بها حينما كنّا في الجيبان تذكرت ما رأيته هنا». وواصلنا سيرنا حتى وصلنا طرف البقعة المكشوفة وشهدت أشياء حلزونية صغيرة متناثرة على سطحها. وعثرنا على بعض ذات الصدفتين[1] بعد مسافة، وهنا ترجلنا وقضينا ما يقرب الساعة ونحن نجمع قواقع المياه العذبة بالمئات والآلاف بينما كان رفاقنا قد انتشروا على قمم الحيود المجاورة يراقبون ويحرسون. ولم أجد أثراً لأي أداة صوانية هنا، ولكن ما وجدته كان امتداداً كبيراً لمجرى نهر قديم. ووجدنا على بعد ميل من هنا بقعة أخرى مماثلة، بها ترسبات متواضعة من القواقع. وهكذا وجدنا وعلى امتداد عشرين ميلاً أدلة متفرقة على وجود مياه عذبة في الأزمنة القديمة. وما من شيء غير النهر يمكنه أن يفسر تماماً وجود مثل ظاهرة قواقع المياه العذبة. ولا أتردد كثيراً في تبني نظرية عملية مفادها أننا كنا نستكشف المجاري الأدنى لوادي الدواسر، أعظم الأنهار القديمة في الجزيرة العربية الذي كان يبدأ من مرتفعات اليمن وعسير ويمر باللدام والسليل لينتهي في الصحراء العظيمة، وفي هذه الحالة يمكن أن نعترف بأن النظرية لا تتضارب مع الحقائق المعروفة لدينا حتى الآن.

(١) انظر الملحق.

سألت علياً: «ما اسم هذا المكان؟» فأجاب: «لا اسم له». فقلت له: «إذن دعنا نطلق عليه اسم «أبو مُحَيْرات» ولا تنس أن تخطر أولئك الذين يأتون من بعدي أن هذه المحار (القواقع) هي قواقع نهرية وليست بحرية، وأن النهر الذي أرسب هذه القواقع هو نهر «وادي الدواسر». كان علي يتوق لامتلاك عباءة سعدان الذي أحضر معه اثنتين لبيع واحدة منهما ليكسب منها، وعرفت بأنهما كانا يتساومان في سعر العباءة حيث رفض علي أن يدفع أكثر من عشرين ريالاً. قلت لسعدان: «سأعطيك عشرين ريالاً، ولكن لا تقل ذلك لأحد». وغادرت المكان ومعي سعدان، واقترب علي منا ليعرف ما إذا كنت مسروراً من إرشاده لي إلى هذا المكان. فما كان مني إلا أن سحبت العباءة من سرج سعدان ودفعتها له قائلاً بأنها له، وطلبت منه أن يعثر لنا على قواقع أو أدوات صوانية أكثر. فأجاب بأنه لا يعرف، وطلب مني أن لا يبوح شيئاً عن هذه العباءة لأحد من أصدقائه لكي لا يحسدونه عليها، فطمأنته على أنني سأحتفظ بها عندي إلى وقت آخر مناسب.

واصلنا السير عبر الصحراء؛ وكانت قبرة تغرد حولنا ثم مشت جانباً تطلب الحماية بعيداً منا، كما ظهرت فراشة مرة أخرى ونحن نمر من المسارح الرملية المتكتلة للقطّارات إلى منطقة حاذ القعاميات المتموجة والتي تشكل فيها كتل كثبان القعاميات الأصلية حائطاً جبليّاً عبر الأفق الجنوبي. وكانت قممها الكبيرة وكأنها ترتفع إلى حوالي ٥٠٠ قدم فوق سطح الصحراء العام. ووسط هذه القمم تقع -حسب ما قاله علي- الملاجئ الخفية للوضيحي، وهو حيوان حذر وجبان، يسافر بعيداً وسريعاً عبر السهوب والصحراء بحثاً عن طعامه ولكنه يتراجع دائماً إلى حماية الرمال المرتفعة التي يصعب الوصول إليها ليكون في مأمن من المطاردة والمفاجآت.

وعبرنا في طريقنا آثار أقدام حديثة لفرقة تتكون من ثمانية أو عشرة رجال من قبيلة الصيعر كانت تتجه نحو شنَّة، ربما الفرقة التي أرعبنا كشافوها قبل أربعة أيام. ثم صادفنا شطأ أعشاب العندب يكسو الأرض مما يوحي بهطول أمطار حديثة في هذه المنطقة، وكان من المحتم أن نقف لنسمح لجمالنا بأن ترعى النبات وتأتي عليها تماماً. فنبات العندب هو أول نبات ينمو عقب نزول الأمطار ويتبعه العبل، بينما تحتاج نباتات العلقا وبرْكان والزهر وقتاً أكثر لتنمو، ولكن العبل والحاذ أطول عمراً وأكثر مقاومة للجفاف، ويستطيع البدو من واقع تجاربهم الطويلة تحديد تاريخ سقوط الأمطار بدقة تقريبية وذلك بدراسة حالة هذه الشجيرات في أجزاء مختلفة من الصحراء.

سرنا عبر سلسلة متوالية طويلة من منخفضات تشبه صحوناً ذات حواف مرتفعة وانحدار هين تنتهي إلى بقع مكشوفة متنوعة المساحات من صخور جيرية أو جصية ذات ألوان متنوعة تتراوح من أزرق غامق تشوبه الغبرة إلى الأبيض والرّصاصي. وتبدو بعض هذه البقع من بعيد وكأنها بحيرات، وكانت الصخور في بعض هذه المنحدرات تنحدر في شكل مجموعة من الدرجات وتنتهي داخل الرمال أو تحتها، في حين أن بعضها كان ذو سطح منبسط يتناثر عليه حصباء وحصى هنا وهناك وتتخللها شظايا كبيرة من الصخور. ومررنا من منطقة الأحواض هذه إلى «حبَاكة القعاميات»، وهي منطقة تتكون من حواف مرتفعة تجري متوازية من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وتحتضن فيما بينها أودية ضيقة وسهلة الاجتياز. أما «سنام الحوار» فكانت تقع على مسافة مسيرة يوم صوب الشمال، وهي منطقة تختلف عن الحبَاكة في أنها تتكون أساساً من كثبان منخفضة ذات منظر

رائع، ومن ثم أطلق عليها اسم «سنام المهور». وإلى يسارنا على مسافة بعيدة كانت سلاسل القعاميات العالية ما زالت تجري موازية لطريقنا. فقد كانت حقّاً منطقة ذات منظر أخّاذ، ولكن للأسف خالية من أي أثر للحياة. وبعيداً وعلى ارتفاع شاهق كان نسر يحلق منفرداً يبحث عن شيء يقتات به، وعلى مقربة منا ربض غراب يراقب مرورنا عبر الصحراء من موقع ممتاز على قمة كثيب، بينما كانت قبرات صحراوية تظهر من حين لآخر. وهجم ثعبان أبيض على فرقة المقدمة رافعاً رأسه، وترجل علي من جمله في لمح البصر وأخذ يطارده حتى اختبأ تحت شجيرة، وبذل علي مجهوداً للقبض عليه من ذنبه، وبطريقة مثيرة للضحك، ولكنه فشل، والحمدلله على ذلك!

أخذت السلاسل المتوازية تندمج تدريجيّاً في بحر متلاطم من الكثبان الرملية والحيود التي كانت تختلط بشكل يفتقر إلى التناسق إلا من منخفضات حدوة الحصان التي كانت تواجه بانتظام جهة الجنوب الغربي. وترجّل علي الذي كان يقودنا آنذاك فوق منحدر شديد الميلان ليزيل الكثبان الرملية من على سطح القمة كي نتمكن من العبور. فقد كانت قمم الكثبان ترتفع إلى حوالي ٢٠٠ قدم فوق المنخفضات بينما كان المستوى العام للتلال والحيود الرملية يصل إلى ارتفاع وسط بين الاثنين. وتوقفنا لأداء صلاة العصر وتناول القهوة في العراء بين التلال حيث عثرنا على قرون أنثى الوضيحي ملقاة على الأرض وهي كما يبدو قد ماتت جوعاً، وكان طول القرن يصل إلى ٢٩ بوصة؛ ثم ظهر غراب آخر كأنه جاء يتفقد سبب توقفنا. وبعد أن سرنا مسافة قصيرة رأينا قافلة الأمتعة وهي تسير متئدة أمامنا.

اخترنا للمبيت موضعاً بجانب حيد من حيود الحباكة حيث وجد فراج بالقرب منه جحر ثعلب أفريقي صغير من نوع الفنك، وتمكن من الإمساك

بذكر وأنثى أحياء، كما تم القبض على ثعبان صغير. وأشعلنا تلك الليلة قنديل الضغط الذي جذب عدداً كبيراً من الفراشات والحشرات الأخرى بما فيها أول جندب أراه في الربع الخالي(١). وقد شد انتباهي شيء غير عادي وهو أنه بينما كانت الفراشات وحتى اليعسوب ترد بكثرة نسبية من حين لآخر فإننا لم نر جندباً واحداً في منطقة كانت تبدو مناسبة لنشاطاتها.

ورأينا ونحن في طريقنا إلى المخيم آثار أقدام كروان ولم نرَ الطير نفسه. وكنا قد قطعنا حوالي ٢٥ ميلاً خلال ذلك اليوم، وإذا طرحنا يومين، فإن ما قطعناه منذ قيامنا من شنَّة هو ٤٦ ميلاً من إجمالي ٣٦٠ ميلاً علينا أن نجتازها لنصل إلى نهاية مطافنا. وكانت الظروف المناخية مرضية وتراوحت درجات الحرارة من ٤٦° فهرنهايت كأدنى درجة بالليل إلى حوالي ٨٥° ف في الظل نهاراً، وكانت الشمس قائظة خلال فترات ما بعد الظهر. ولكن لك أن تتخيل تلك الليالي المقمرة الساحرة في العراء، وضوء القمر المكتمل يغلف الصحراء بثوب من لجين، أما السير في ساعات الصباح الباكر فكان بهجة بحق وحقيقة، وإن كان انتصاف الشمس في كبد السماء يصحبه شعور بالإحباط لما يجلبه من ملل كان رفاقي يبددونه بحدائهم الرتيب.

قطعنا ٢٦ ميلاً خلال اليوم الثالث، وهو متوسط لا بأس به لقافلة من الجمال المحملة بالأمتعة عبر ما بقي لنا من منطقة الحباكة التي كانت تتكون من مرتفع متموج من الرمال العادية، ومنها دخلنا تلال الحمرا الأكثر عرياً، إذ كانت تفتقر إلى أي نوع من النباتات، ثم في النهاية إلى منطقة عبل الخادم

(١) يبدو من المدهش أن مجموعة كبيرة من الفراشات التي تم جمعها من الربع الخالي تنتمي إلى أنواع جديدة. انظر الملحق.

ذات النبات المتناثر والتي تتكون من جزء أوسط منتفخ من الحيود والأودية العريضة. وبعد بدء الرحلة بفترة قصيرة صادفنا بقعة مكشوفة من الجص وحجر ذي لون أزرق يميل إلى الاغبرار حيث عثرنا على عدد كثير من القواقع الحلزونية؛ وأطلقنا عليها اسم «أبو صَبَّان». واصطاد علي أرنباً أفطرنا عليه عندما توقفنا لتناول طعام الإفطار. وكانت ريح جنوبية غربية حارة قد بدأت تهب وتشتد تدريجيّاً، ومضينا نسير متثاقلين عبر منطقة كانت تذكرني كثيراً بالجافورة، ويبدو أن قافلة الأمتعة كانت أيضاً تعاني في سيرها من هذه الرياح الحارة، إذ كنا بالكاد قد قطعنا مسافة ثمانية أميال عندما صادفنا الموضع الذي أدت فيه فرقة المقدمة صلاة الفجر وشربوا القهوة. ولم يمض وقت طويل حتى لمحناهم عن بعد، ولكن تَوَقُّفُنا لوقت طويل لتناول طعام الإفطار أتاح لهم أن يتقدمونا بمسافة طويلة إذ لم نرهم بعد ذلك برغم أننا بدأنا نغذ في السير بعد المغيب. وكنا في الحقيقة قد بدأنا نتساءل ما إذا كانت الرمال قد طمست آثارهم وأننا فقدناهم حينما رأينا من بعيد نار المخيم تتقد. فسرنا نحوها ووصلنا إلى المخيم حوالي الساعة السابعة والنصف. كان يوماً مرهقاً بالنسبة لنا جميعاً، وجرى حديث غاضب وطائش بين الرفاق لا يصدر إلا من رجال أصابهم الإعياء والجوع وعدم الرضا، ولكن الحديث لم يتجاوز حد ذلك. وربما كانوا سيكونون أكثر رضىً لو وافقت على السير ليلاً كما اقترحوا من قبل؛ ولكن كان ذلك مستحيلاً بالنسبة لي، فقد جئنا هنا لنرى المنطقة لا لمجرد اجتيازها أو عبورها، وكان من بين الرفاق الذين يؤيدونني في قراري هذا أولئك الذين كانوا يأملون في رؤية صيد الوضيحي. وكنا قد صادفنا أثناء النهار روث وآثار أقدام ذلك الحيوان كما مررنا بعد العصر بمنطقة تنتشر فيها شجيرات

العبل حيث ارتاح زوجان منه من قيظ النهار، ربما أمس أو قبل يوم أو يومين. وقدّم لي علي بعض الروث لأشمه عندما توقفت لأشاهد الموضع وفعلاً وجدته يعبق برائحة المسك. ووجدنا في موضع آخر آثار أقدام لزوجين بالغين وصغيرهم؛ وكان من نتائج ذلك أن ارتفعت معنوياتنا يحدونا أمل الالتقاء بشيء أفضل صباح الغد، مما عزز صحة وسلامة خطتنا. وعلى ذلك بدأت قافلة الأمتعة سيرها الساعة الثالثة صباحاً.

كنا قد جمعنا بعض السحالي خلال اليوم، كما شاهدنا عدداً قليلاً من الغربان والقُبُّرة وبعض الطيور الصغيرة المغردة التي شرعت تلعب معنا لعبة الاستغماية بين فروع شجيرة عبل لتتركها ملتجئة إلى شجيرة أخرى عندما حاولت الإمساك بها.. ورأيت أيضاً فراشة ويعسوبين كما وجدنا قرون غزال الريم في موضع آخر. وما إن بدأت الريح تغير اتجاهها إلى الجنوب حتى أخذت درجة الحرارة في الارتفاع، ولكن عندما سكنت الرياح بعد الظهر أصبحنا تحت رحمة الشمس القائظة. وقال علي: «الربع الخالي التي حدثوك عنها؛ هذه هي! لقد مضت ثلاث سنوات منذ آخر مطر شهدته المنطقة، ولن تر نبات الزهر بعد هذا حتى نصل إلى الحَرْمَلِيّة[1] على مسيرة ٥ أو ٦ أيام من هنا». فقد كانت المنطقة فعلاً صحراء قاحلة مقفرة لا تحمل إلا نباتات متناثرة تماماً. وقبل ساعتين من المغيب كنا نسير والشمس أمامنا وكان الجو وكأننا نتقدم صوب فرن حار.

بدأنا مسيرة اليوم الرابع ويغمرنا شعور مزيج من التوتر والتوقع. فقد قضينا الليل نناقش بجدية فكرة التخلي عن مشروعنا، وحدا عدم اهتمامي وتعاطفي مع جمالنا المرهقة بفراج أن يلقي عليّ محاضرة بدأها قائلاً: «إذا

(١) لم نصل في الحقيقة إلى هذه المنطقة ولم أتمكن من تحديد موقعها بشكل دقيق.

كانت جمالك بحالة مرضية، فأنت كذلك، وإذا ذبلت، تذبل أنت»، قلت له: «صحيح ما تقول ولكنكم أنتم الذي تزيدون من إرهاقهم. فإن علينا أن نعبر الربع الخالي هذا وذلك بأن أسلك خطاً مستقيماً دون أن أفكر قط في الرجوع أو في التحول عنه. ولكن انظر على سبيل المثال، فيما يفعله زايد وصالح، اللذان انطلقا لتوهما على أثر الوضيحي، فقد يقضيان اليوم كاملاً وهما على ظهور دوابهم يطاردان طريدتهما ويعودان عند المغيب خاليي الوفاض ومرهقين، ثم يبدآن في توبيخي لتمسكي في المضي فيما خططناه والإصرار على العودة إلى حيث يتوفر الماء. هذه هي طريقتكم وأسلوبكم».

بعد تحركنا مباشرة وقبل مغادرتنا لمنطقة «عبل الخادم» لندخل منطقة «حاذ القطا» المتموجة الجرداء الشبيهة بالأولى، -وإن اختلفت فقط في ظهور بعض نبات الحاذ وسط شجيرات الزهر والعلقا- صادفنا آثار أقدام أربعة من الوضيحي. ورأيت الرجال يتحرقون إلى مطاردتهم. وجاء زايد نحوي وطلب بتذلل بأن أسمح له باقتفاء أثر الحيوانات، وشعرت بسعادة تغمرني وأنا أفكر في التخلص منه لساعات. أما صالح فقد أخبرته بأن يفعل ما يراه مناسباً. وفعلاً انطلق الاثنان بخطوات ثابتة واختفيا عن الأنظار، وتوسل عليّ بأن يرافقهما لكني رفضت طلبه، فقال: «انظر يا صاح! فقد أتيت إلى نهاية المنطقة التي أعرفها، ولا أستطيع أن أدلك بعد هذا؛ ولكن ابن حميد يعرف المنطقة ويمكن أن يتولى مهمة الإرشاد. أما أنا فسأذهب وأبحث لك عن وضيحي». فأجبته بأنني يمكن أن أستغني عن الوضيحي وإنني في حاجة إلى رفقته. ولذلك تقدم بعيداً منا وهو مقطب الجبين بينما جاء فراج يلازمني ويخدمني بعناية مفرطة.

مررنا بعد ساعة بالموضع الذي توقفت فيه فرقة المقدمة لأداء الصلاة وتناول القهوة، وكانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، وكانوا قد غادروا المكان قبل ساعة ونصف من وصولنا. ومع ذلك كانت آثارهم الحديثة تطؤها آثار أقدام أحدث لذكر وضيحي، وكان ذلك أقوى من أن نتحمله جميعنا. وبدأ الرجال يحللون آثار الحيوان وكيف جاء يتهادى من الشمال وقضم شجيرة هنا وهناك أثناء مروره وكيف وقف دون حراك للحظة عندما صادف مكان إناخة جمال الأمتعة وكيف في النهاية بدأ يهرول بعيداً طلباً للنجاة عندما أحس بخطر ما. وجاء علي يتوسل بعيون دامعة، فوافقت له بالذهاب، وتبعه زايد بطلب مماثل، فقبلت، وأنا أوبخهم بأني سأجد نفسي وحيداً بعد حين. فانطلقا سوياً، ومضينا نحن في طريقنا.

عاد فراج سريعاً وهو يحتج على أنه لا يتحمل أن يتركني لوحدي دون أحد يعتني بي، وخاطبني قائلاً: «انظر يا صاح! ما كنا تركنا عوائلنا العزيزة وخرجنا وراء هذا المشروع إلا لسببين: أمل الحصول على مال والخوف من العقاب ولا رغبة لي إلا خدمتك. ولكن كل اللوم يقع على زايد وعليّ فيما نعانيه من مشاكل، ولكنك لن تأخذنا بجريرة الغير. قل ماذا تريد وسأفعله فوراً». فقد كان علي يمثل مجنون فرقتنا، دائم المقاومة وكثير الندم والتوبة، وكان أوضح الجميع في إبداء أنانيته ببساطة متناهية. وقد أغريت جشعه ليلة أمس بتعويض مالي مقابل إمساكه بالثعلبين، وفعل الكثير للحصول على مال إضافي مقابل أصبع جريح، دون إبداء أي خجل من تصرفه.

واصلنا سيرنا عبر النجود والوهاد دون شيء يثير الانتباه إلا من بعض بقع صغيرة من الصخور المكشوفة ذات اللون الأزرق التي تتناثر في بطن الوادي؛ وبدأت النباتات تقل كلما توغلنا في السير، وكانت معظمها ميتة.

وسرعان ما تحولت التلال المندمجة إلى أرض جرداء، وبدأت الشمس المتوهجة ترسل أشعتها القائظة حتى بدأت الرمال تتوهج بدورها في وجوهنا دون رحمة، ونشاهد بين حين وآخر سراباً فوق التلال المرتفعة يلمع كلوح من زجاج. ولم نعد نرى طيوراً وإن تناءى إلى سمعي صوت قبرة تغني، كما شاهدت يعسوباً وفراشة ثلاث مرات كشبح يتراقص أمامي قبل أن تختفي في وهج الضوء المنعكس من سطح الرمل. ووجدت سحليتين جاثمتين فوق الرمال الساخنة وتمكنت من الإمساك بهما وإيداعهما في القارورة المعدة لذلك.

انتقلنا من حاذ القطا إلى خلّة الحوايا حوالي منتصف النهار، وكانت تتكون من منطقة منخفضة فسيحة من عروق مستديرة من الرمل الناعم وتمتد في اتجاه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي كالعادة، وتتخللها إرسابات من الكثبان العالية التي أضفت تنوعاً على المنظر الرتيب. وكان السير ممهداً وسهلاً إلا من الحر القائظ الذي كان يلسعنا. وفي الساعة الثانية مساءً توقفنا قليلاً عند بقعة مكشوفة من صخر الأديم لنرتاح قليلاً، ونشرت بطانية فوق أغصان شجيرة عبل ميتة وجلست تحتها بعد أن أزلت الطبقة العليا من سطح الرمل الساخن، ورحت في سبات عميق إلى أن استدعيت لتناول القهوة؛ ثم أدينا صلاة العصر قبل أن نواصل سيرنا.

كان صف تلال الحباكة الطويلة -التي اجتزنا أطرافها الشمالية في اليوم السابق- يقع بعيداً في جهة الجنوب، وخلفها كانت مرتفعات القعاميات، بينما امتدت حيود الحوايا إلى شمالنا لمسافة يوم ونصف حتى منطقة بني جلاب التي تقع إلى غربها «الجلادة»[1]، وهي كما تبدو سهل حصبائي.

(١) من المحتمل أنها «سحمة» أو «رعلة». انظر الفصل الرابع القادم.

وإلى جانبها الشمالي كانت الحباكة الشمالية (حباكة فرجة). أخذت التلال تتغير في خصائصها لتشكل تقريباً مجموعة من الحيود المتوازية تمتد في نفس الاتجاه، والتي عبرناها في تتابع ممل ومرهق على مسافة نصف ميل أو أكثر. وأخذت الحرارة تشتد والنهار يمضي متثاقلاً ومعنوياتنا في الحضيض وإن كان ينعشنا بين حين وآخر هبوب نسيم عليل من ناحية الشرق (الدبور) معلناً قرب حلول الليل. وقد بلغت درجة حرارة الظل في أحر أوقات اليوم إلى ٩٣ْ ف لتنخفض في الساعة الحادية عشر مساءً إلى ٦٥ ف، بينما بلغت أدنى درجة في الليل ٥٠ْ ف في المخيم الذي نصبناه عند الطرف الغربي لخلة الحوايا. وبدأ صيادونا يتقاطرون إلينا عند المغيب من رحلة صيدهم الفاشلة، وكانت حرارة اليوم قد بدأت تترك آثارها على الجمال التي بدت مرهقة، ولكن أحداً لم يثر موضوع العودة. وكنا الآن على بعد ١٠٠ ميل من شنَّة ومن أي مصدر ماء، ويبدو وكأن زايداً وعليّاً قد خططوا للقيام بشيء يروق لهم دون مشورة أحد. وبعد إعداد قافلة الأمتعة للرحيل ومغادرتها المكان في الساعة الثانية صباحاً، نمنا ملء جفوننا تحت سماء صافية مقمرة وجو بارد حتى الفجر.

وعندما صحونا كعادتنا قبل الفجر -وأثناء تناولنا للقهوة والتمر بعد أداء صلاة الفجر- أعلن بعض الرفاق بأن جملي زايد وعلي مفقودان. فقد قضيا الليل يتفرسان في ضوء القمر بعد أن وصلنا متأخرين إلى المخيم، ويخشى أن يكون جمليهما قد ضلا طريقهما، ولذلك قضينا قرابة الساعة نبحث عنهما، وكيلا نضيع وقتاً أكثر من ساعات الصباح الباردة، اقترح البعض بأن يبدأ المسير وترك محيميد مع جمل يحمل الماء والمؤن ليلازم زايداً وعليّاً اللذين خرجا في أثر جمليهما، ويلحقوا بنا جميعاً عندما يلتم شملهم.

وربما كان هذا التصرف من قبل علي وزايد اعترافاً بما يخططان له : قضاء هذا اليوم أيضاً في مطاردة الوضيحي، ثم في حالة فشلهما، أن نعيد النظر في خططنا المستقبلية. فما زالت مصادر المياه قريبة بالنسبة لنا ويمكن العودة إليها قبل أن نتوغل في الصحراء المقفرة، وإذا ما قسنا ذلك في ضوء اتفاق كهذا فإن ما حدث اليوم من قبل علي وزايد يأخذ منظوراً واضحاً وإن كان ينذر بالشؤم. ولم يكن أمامنا في هذه الحالة من شيء نفعله إلا أن نستفيد بقدر الإمكان من هذا الوضع السخيف ونأمل حدوث ما هو أفضل. وكنت بيني وبين نفسي أتعشم كثيراً أن يخفق علي وزايد في مهمتهما. وهكذا بدأنا يومنا الخامس وفراج يمتطي الجمل الذي يحمل صناديقي وابن حميد يقودنا، وصالح كمرافق. واتسم السير بالبهجة والمرح ومضينا ونحن نمزح ونضحك، ورشحنا فراجاً لمنصب أمير الرحلة بعد مغادرة زايد لنا، وصالحاً نائباً له. وعرضت بأن أراهن مبلغاً كبيراً من المال إذا ما عاد الصيادان خاليا الوفاض. وكنا ما زلنا سعداء عندما اندفعنا بهمة ونشاط عبر التلال المتموجة العادية ذات الانحدار الهين، تتخللها على مسافات بعيدة حيود رملية منخفضة جداً.

وجلس فراج على صناديقي وكان يحاول كل مرة أن يوضح لي أنه على استعداد لتحمل كل شيء في سبيل خدمتي وراحتي؛ وكنت أمازحه بأنه يسود علينا جميعاً وكأنه يجلس على العرش. قلت وله : «كم هو جميل أن نسافر دائماً هكذا دون زايد وعلي وتتناوب أنت وصالح قيادة القافلة من العرش، كما كانت العذارى تركب الهودج وهن يقدن رجال القبيلة إلى الحرب». تدخل صالح وقال : «أنا قانع بترك ذلك المنصب لفراج، ويمكنني أن أخدمك بطريقة أفضل في الإمساك بالسحالي وجمع الصخور والقواقع

من الأماكن الجانبية، وربما أحجار الصوان، في بطون الأودية التي تعترض طريقنا». وعندما يفتر الحديث كانا يبدآن الحداء بطريقتهم الرتيبة لتمضية الوقت.

وعندما دخلنا قصبة الحوايا بعد ساعة، أشاروا إلى حيث كانت الجزامات الجافة لعشب القصب والتي تميز المنطقة من تلك التي مررنا بها. قال حميد: «بعد نزول الأمطار تتحول هذه المنطقة إلى مراع جيدة، ويأتي إليها العرب بالنوق ولصيد الوضيحي، ويبقون هنا حتى تعطش جمالهم، ويعيشون أثناء ذلك على اللبن ولحوم الطرائد. ولكن هذا دأب الكبار من العرب أمثال ابن فسل وابن جهامان وابن سويلم. إنها فعلاً حياة شاقة، وقد انقطعت الأمطار من هذه المنطقة لسبع أو ثماني سنوات. ولا أحد يأتي إلى هذه المنطقة هذه الأيام». وبدأ السطح يستحيل تدريجيّاً إلى منطقة أكثر تموجاً مع تكاثر عدد الكثبان والحيود المنخفضة، ولكنها كانت عارية من النبات بطريقة تثير الدهشة.

سكنت نسائم الصباح الباردة، ولكن الظروف الجوية ظلت مريحة بما يكفي وإن كان الهواء خامداً. وكان الصمت يلف المكان يقطعه بين حين وآخر تغريد قبرة مجهولة المكان. وبدأت الكثبان والحيود تنصهر وتندمج مع بعضها لتكون ما يشبه بحراً متلاطم الأمواج تشكلها الرياح المتصارعة. وبعيداً إلى جهة الجنوب بدت مجموعة من الكثبان الرملية المرتفعة ذات اللون البنفسجي وكأنها تحلق فوق كل المنطقة، وعبرها سرنا نقتفي أثر روث وضيحي وحيد اجتاز هذه المنطقة الجرداء قبل يومين وهو يبحث عن مراعٍ في النواحي الشمالية.

وفجأة ظهر أمامنا منخفض لبطن واد كبير يشق طريقه بين التلال المتموجة من جهة الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ورأينا في قاعه مجموعة طويلة من بقع مكشوفة من صخور الأديم التي توجهنا نحوها لنبحث عن القواقع التي لم نجد لها أثراً. وصعدنا المنحدر المرهق الطويل عند الطرف البعيد لندخل منطقة «حاذ الحوايا»، وهي منطقة تتكون من أودية عميقة بين حيود مرتفعة تمتد في خطوط متوازية منتظمة إلى أكثر من ٤٠ أو ٥٠ ميلاً إلى الغرب من منطقة شويكلة. وهنا بدأت شجيرات الحاذ تظهر من جديد بعد غياب طويل، ولكنها كانت جافة ككل شيء آخر، وإن كان ظهور باقات من الأوراق الخضراء قد أثارت فينا أملاً سرعان ما خاب.

ومع تقدم النهار إلى منتصفه، بدأت الحرارة القائظة تلفح أجسامنا لدرجة أن بدأت أصدّق أن هذه المنطقة لم تشهد مطراً منذ عشرين عاماً. وتجمعت ذرات الرمال حول بقايا شجيرات الحاذ الجافة التي بدت مدفونة إلى منتصفها. ولم تتمكن شجيرة العبل -أكثر نباتات الصحراء مقاومة للجفاف- من الصمود أمام حدة الجفاف الذي أطبق على المنطقة. وكانت جذورها المسودة تستلقي منتشرة على الأرضية الرملية حول البقايا الهالكة لما كانت فيما مضى أجمة كبيرة، والتي تعكس فروعها المعقدة الملتوية تلك الآلام التي قضت عليها في النهاية بعد صراع مرير مع الجفاف. فقد كان الجفاف والمجاعات ما زالت تطارد هذه الأرض وتلاحقها عندما ولجنا فيها؛ وكنا نحس بآثارها متمثلة في أشعة الشمس اللافحة وقحل المنطقة وخلوِّها من أشكال الحياة. فقد كان المنظر الذي أمامنا مؤثراً ومثيراً للخوف والرهبة، وكما كان يبعث على الحزن والكآبة أيضاً. ولهذا اعتراني شعور بالغم ربما

هاجس داخلي، ينبئ بالفشل. وهكذا سرنا متجهمين صامتين عبر تتابع لا نهاية له من الأودية والحيود، ونحن نأمل أن نطل من قمة حيد على منظر مراع يكحل عيوننا المرهقة، ولكن دون جدوى. ومع ذلك فقد كان مظهر الأرض مثيراً للإعجاب: هذه التلال المتموجة وأودية الحوايا العميقة حيث يسود التبدد والضياع والموت الذي يلف المكان في شكل غراب يحلق لينقض على أنواع صغيرة من المخلوقات مثل القبرة والسحالي والطيور المغردة الصغيرة والتي بدورها تصارع الحياة هنا بكل معاناتها لتعيش أيضاً.

وخطر ببالي -ونحن نمر خلال نطاقات هذه الصحراء العظيمة- أن الحدود الواضحة للحاذ والقصب والحمرة[1] وما شابه ذلك لابد وأن تعكس الخاصية الكيميائية للرمال نفسها أو للتربات والمياه التي تتواجد تحتها، وإن كل نبات له دورة حياة محددة تقريباً تعتمد على تكرارية حدوث المطر، حين تنمو أكثر النباتات قدرة على الاحتمال من حالة الهجوع مع أول مطر، وتواصل حياتها تحت ظروف قاهرة، بينما تذبل ثم تهلك النباتات الغضة الطرية بعد ظهورها مباشرة إن لم تسعفها أمطار كثيرة تضمن بقاءها لمدة أطول. وقد تتمخض الدراسة المنتظمة للنباتات نفسها وللرمال وصخور الأديم التي تشكل بيئة هذه النباتات، عن نتائج هامة وجديرة بالاهتمام، وخاصة إذا ما رُبطت بدراسة مماثلة أو مقارنة بنطاقات النبات في الصحراء الكبرى وصحاري العالم الكبرى الأخرى. فالإنسان العادي قد لا يجد تفسيراً واضحاً لظاهرة التوزيع التي نراها، لأنه يلاحظ فقط مجرد بدايات ونهايات نطاقات الحاذ، وما يوجد خارجها هي عبارة عن خلّة تتناثر فيها

(١) حمرا، حرور، (وجمعها حمارير) يبدو أنها تستخدم فقط للطرق الرملية الخالية تمامًا من أي حياة نباتية.

شجيرات العبل أو الحَمْرة العارية التي تتخللها نطاقات محدودة من القصب والبركان.

عبرنا خلال أربع ساعات عدداً من أودية محددة المعالم تجري بين حدود عريضة ذات انحدار هين. ويبدو أن الرياح قد جرفت قاع هذه الأودية لتكشف بقعاً من الصخور الجيرية السفلية التي أخذنا منها بعض العينات ونحن نبحث دون جدوى عن القواقع والأحافير. ووجدنا في أجزاء متناثرة من المنخفضات الرملية أنابيب رفيعة من الرمل المتجلط التي عدّها رفاقي دليلاً على وجود مياه جوفية في الجوار؛ وكثيراً ما وجدوها متناثرة حول الآبار المعروفة. وتبين فيما بعد بأنها كانت عصوات برق تكونت من انصهار الرمل الرطب من حرارة البرق والتصاق الرمل بالكتلة المصهورة بطريقة أدت إلى تكوين الأنابيب الرفيعة[(١)]. وعلى الرغم من ضآلة العينات التي أخذناها بالمقارنة مع العينات العديدة الموجودة في المتحف البريطاني، فإن تكرارية وجودها في هذه الصحراء الجرداء شيء غير عادي جدير بالملاحظة.

بدأت قمم بعض الحيود تتسطح لتكون هضاباً عريضة متعرجة ذات تموجات ضحلة تتناثر فيها ركامات من كثبان منخفضة مستديرة الشكل في مجموعات كبيرة. وأينما اتجهت الأنظار كانت تنتهي عند صحراء جرداء قاحلة؛ وكانت أعصابنا مشدودة عندما أدركنا بأن أمامنا ساعات وساعات من السير عبر هذا المكان المهجور المقفر ونحن نكابد حرارة الظهر المتزايدة في اقتفاء آثار أقدام قافلة الأمتعة. ولم نكن قد توقفنا بعد منذ بداية السير،

(١) انظر الملحق.

وكان الوقت قد آن للتوقف لبعض الوقت لنستجمع قوانا قليلاً ونتعاطى القهوة لترفع من معنوياتنا. وكنا قد اجتزنا الوادي الثالث وبدأنا نصعد المنحدر الطويل خلف الوادي في طريقنا إلى قمة الحيد والتي أطللنا منها على وادٍ آخر تعقبه تلال متموجة من الخلف. وكنا نسلك اتجاه غرب الشمال الغربي، وحين رأينا إلى الشمال منا ونحن نلقي نظرة عجلى على الأفق، صورة ظليّة لخيمة على منحدر حيد بعيد. وكان من الواضح أنها إحدى خيامنا تنصب لأول مرة منذ مغادرتنا لشنَّة إذ كنا قد آثرنا كسب الوقت على كل أنواع الراحة. وكانت الخيمة في حد ذاتها تنبئ بشيء لا يسر: فإن كان ينم عن تغيير مفاجئ لاتجاه السير فهو ينذر بالشؤم. ولم يكن الوقت قد تجاوز منتصف النهار، وكنت أشكو مر الشكوى من تلكؤ قافلة الأمتعة في السير وأشجب أداءها بألفاظ جارحة.

وتصدى لي فراج متحدياً بحديث يتسم بالتشنج: «نحن نكدح من أجلك دون جدوى، ونجهد جمالنا حتى تقع وأيضاً دون جدوى، وأراك على الدوام غير راضٍ عما نفعل، بل ناقداً له. فهل تريدهم أن يسيروا في هذا الحر القائظ؟ ربما أرادوا أن يرتاحوا لساعة أو ساعتين». ومع ذلك كنت أشعر وأحس في داخلي بأنه يعرف أن الخيمة كانت تنذر بالشر، ربما بكارثة. هل يمكن للمرء أن يكف عن انتقاد - بل أن يكون متيقظاً من مثل - هؤلاء الرفاق الذين كانوا على استعداد تام للتضحية بكل ما أهدف إليه وما أصبو إلى تحقيقه في سبيل راحتهم البائسة؟ إنها عَادتهم، دائماً يتشبثون بالحياة بكل مآسيها، وإذا ما بدر ما يهدد تلك الحياة، فإنهم يفقدون صوابهم ورغبتهم فيها.

وتقدمنا نحو الخيمة ونحن نتجادل، وعندما وصلنا إليها بعد ساعة وجدنا أن خمسة أو ستة من جمال قافلة الأمتعة قد انهارت من العطش والجوع والإرهاق. وفعلاً وجدنا أحدها يستلقي تحت غطاء الخيمة بينما اقتيد اثنان أو ثلاثة منهم إلى الخيمة بعد إزاحة الحمل عنها حتى تستعيد بعض نشاطها. فقد كان الوضع محرجاً للغاية مما يستدعي إعادة النظر في بعض خططنا. وهكذا وجدت نفسي في أزمة حقيقية، ولكن المعركة الحقيقية بدأت بعد ذلك وانتهت عند منتصف الليل بهزيمة أخرى لي.

نصبت خيمتي بجانب الخيمة الأخرى فور وصولنا. وبعد أن أودعت أمتعتي وأشيائي المنقولة فيها، أسرعت للحاق برفاقي الذين وجدتهم في مزاج فظ وفي حالة تمرد مكشوف، ويعزون سبب هذا الانهيار الكامل إلى إصراري الجنوني على كل شيء ابتداء من قيامي بهذه المهمة أساساً إلى السير أثناء الحر القائظ دون مراعاة لحالة الإبل ولا الإنسان. وحاولت جاهداً بأن أكون استرضائيّاً بقدر الإمكان في مثل هذه الظروف وأوضحت لهم بكل لطف بأن السير ليلاً سيلغي الهدف الأساسي للرحلة. وواصلت قولي مشيراً إلى أنني سبق وأن ألححت ونحن لا نزال في شنَّة على تقسيم قوتنا وإرسال كل أمتعتنا الثقيلة عن طريق الآبار إلى الرياض أو الهفوف حتى نتمكن من عبور الصحراء بفرقة معدة ومجهزة وسهلة القياد. وبهذا فهم الذين جلبوا هذه الكارثة على أنفسهم بتجاهلهم لنصيحتي. وعلاوة على ذلك فقد أنذرتهم في شنَّة أن الرحلة قد تأخذ ١٥ يوماً على الأقل ولكنهم تشبثوا بقول ابن سويلم بأنها ستأخذ ١١ أو ١٢ يوماً فقط، وما كان عليهم إلا أن يلوموا أنفسهم على ما أصابهم من خيبة أمل. وقد قطعنا ثلث المسافة

في ثلث الوقت الذي أفردته لهم، ولا داعي لأي حديث بإلغاء المهمة. إنني لن أسمح بذلك بكل تأكيد حتى ولو استدعى ذلك أن أقوم بها بمفردي، وعليهم أن يعودوا ويخبروا أسيادهم بأنهم قد تخلوا عن ضيفهم وحيداً في الصحراء. «والآن» واصلت حديثي: «فإن مسلكنا واضح جداً؛ فما زال في إمكاننا أن نعيد حيوانات الأمتعة إلى نيفة ومنها يمكنهم العودة إما إلى الأحساء أو أن يلتقوا بنا في وادي الدواسر عن طريق بئر فاضل والأفلاج. أما الباقي فبإمكانهم مواصلة السير مباشرة إلى السليّل حيث يمكننا انتظار قدوم جمال الأمتعة». وكان عَليّ أن لا أذعن مهما كان موقفهم، وفي الوقت نفسه أتبع أسلوباً استرضائيّاً بقدر الإمكان. ولكن يبدو أن صراحتي قد أذكت نار التمرد بينهم وهم جلوس حول موقد القهوة يفكرون في صمت، وأقداح القهوة تدور بينهم.

وكان عبد الرحمن عامل القهوة هو الذي بدأ الحديث، وهو سليل عشائر من ضرما الصارمة، وكان عادة ما ينهمك في عملية إعداد القهوة إلى حد يشغله عن المشاركة في أي حديث عام. ولكنه هذه المرة رفع بصره بزمجرة ونطق بألفاظ نابية وملاحظات جارحة حول عدم اكتراثي بالآخرين. والتفتُّ إلى المجتمعين من حولي وبدأت أوبخهم قائلاً بأنني قدمت إلى خيمتهم لأناقش الوضع معهم حتى نضع سويّاً مخططاً لما سنفعله مستقبلاً وإنني لم أحضر لأسمع تعبيراتهم الجارحة، ويدهشني أن أراكم تجلسون في صمت وتدعون ملاحظة جارحة كهذه تمر دون عقوبة. أما أنا فلن أحتمل مثل ذلك من أي أحد منكم ومهما كانت الظروف. وبذلك قذفت بكوب

القهوة على الأرض وقمت لأغادر الخيمة. وهنا تدخل ابن معدي، يتذكر بلا شك حادثة سعدان في عدرج، رافعاً غصن زيتون وقال: «إذا كانت هذه رغبتك، فسنجلد عبد الرحمن على ما بدر منه من وقاحة». فأجبت بالنفي وأنا أمشي بعيداً: «لا أرغب في ذلك، بل إنني أعفو عنه. وإذا أراد أحد منكم أن يناقشني في أمر ما فليأتني في خيمتي. فأنا لن أحضر إلى خيمتكم». ففي مثل هذه الظروف كان من الأفضل أن لا أخلق عداوات دون مبرر، كما أن عبد الرحمن قد يكون معذوراً في تصرفه بتلك الطريقة. فقد كان يوماً عصيباً ومرهقاً عليه وخاصة عندما رأى الجمال تنهار أمامه، وربما كان يتوقع الموت لنفسه من العطش. فعلى المرء في مثل هذه الحالات أن يتوقع مثل هذه الكلمات النابية وثورات الغضب، وكنت أتعاطف معهم فيما يعانونه من ضيق، ولكن لم أكن ميالاً لأذعن لمطلبهم لتراجع مهين ومخزٍ عن ما عقدت العزم على إنجازه. ولذلك تركتهم يتحدثون وجلست في خيمتي لأرسم طريق الرحلة من شنَّة إلى حيث نقف، بينما نتف من حديثهم المفتوح تنساب إلى أذني.

لم أجد وقتاً كافياً خلال الأيام الخمسة الماضية لأقوم بمثل هذه الأعمال؛ وكان لزاماً عليّ أن أعرف بالتقريب ودون تأخير موقعنا الحقيقي في هذه الصحراء القاحلة الكبيرة. وأحضر سعدان إلى خيمتي إبريق الشاي وبعض ما دار من حديث بين الرفاق، الذين بدؤوا يفدون بين حين وآخر لمعاودة المفاوضات معي بخصوص تحركاتنا المستقبلية.

انتهيت من مهمتي عند المغيب وبحلول الليل خرجت لأقوم بالملاحظات الفلكية الضرورية لأتأكد من دقة اتجاهات البوصلة. ولم يكن تقدمنا في

السير مرضياً بأية حال، ولكن لم أعر اهتماماً لمثل هذه الطوارئ المتوقعة فعلاً، فما زال أمامنا ثلثا المسافة التي يجب اجتيازها، وقد يستغرق ذلك حوالي عشرة أيام مع إمكانية تخفيضها إلى ثمانية أيام لو سرنا جزءاً من الليل. فهل يمكن لأفضل جمالنا أن يقمن بذلك؟ كانت هذه هي المسألة التي تقلقنا لأنه كان يتحتم علينا إيصال جمال الأمتعة لأقرب مصدر ماء في أقرب فرصة ممكنة. ولم يكن أمامنا خيار في شأن المسافة بين شنَّة ونيفة وإلى أيهما نتجه، ولكن كنت أعرف بأن ما من قوة ستجبر رفاقي للتوجه إلى شنَّة. فقد كانوا يخشونها كما الطاعون ولم يكن من سبب لأرفض ما يرونه أفضل لهم في هذا الشأن. فقد كان الوضع بالنسبة للجمال -أو إلى حد ما بالنسبة للرجال- مسألة حياة و موت، وها هي أربعة منها تستلقي أمامنا في حالة انهيار تام، وليس هنا أكثر من الماء نحتاط في استخدامه إذ لا فائض منه ولا يمكن الاستغناء عنه تحت أي ظرف إذا ما أدخلنا في حسباننا كل المطالب الأخرى.

وقد مكنني كثرة الزائرين الذين وفدوا إلى خيمتي من تصميم مشروع كان يبدو معقولاً ومقبولاً وإن لم يجد الاستحسان والحماس الذي يتطلبه وضعنا المحفوف بالمخاطر وكنت أرى أن يُشجع الغائبان -زايد وعلي بن جهامان- على مرافقة جمال الأمتعة إلى نيفة. كما أصررت بأن يرافقني ابن سويلم كدليل لأنه الوحيد الذي يعرف الاتجاه العام وظروف السير التي تواجهنا بما يكفي ليتصرف في حدود هذا الاختصاص، مع أنه لم يجتز الصحراء الواقعة إلى الجنوب من فَرْجة ومقينمة في حياته. أما سعدان فسيأتي بالطبع معي لأن تلك رغبته ولا يمكنني الاستغناء عنه في أعمالي. وأصبحنا بذلك

ثلاثة انضم إلينا صالح لاحقاً دون شروط مسبقة. أما فراج فقد بدا متردداً وممزقاً بين طمعه وجشعه والخوف من ارتياد المجهول، ولكنه في النهاية انضم إلى جماعتنا، وحميد لا يريد الانفصال عن صالح في حين أتى سويد -الذي أدان الرحلة كلها في البداية بأنها جنون محض- أتى إلى خيمتي وأشار بحركات مبهمة بأنه سيكون معي. واكتمل العدد بانضمام أبي جعشة الذي لا يمكن أن أستغني عن خدماته الكثيرة. ووافقت بدوري على أن يتم جزء معقول من رحلتنا بالليل. وكان تنازلاً لا يمكن أن أرفضه تحت الظروف الحالية نظراً لأن ما تبقى من ماء لن يكفي حتى نهاية الرحلة، كما يتحتم علينا الاستغناء عن بعض منه للجمال المرهقة وأن تزود قافلة الأمتعة ببعض منه حتى يتمكنوا من الوصول إلى نيفة.

عندما مرت الساعات دون أثر لزايد وعليّ، اتفقنا بأن تبدأ فرقة الصحراء سيرها مع طلوع القمر، غالباً بعد منتصف الليل، إذ لم يكن أمامنا وقت لنضيعه. وقضينا الفاصل الزمني نقوم بالترتيبات اللازمة لتفعيل ما ننوي القيام به، فقمنا بتقسيم ما يتوفر من مواد غذائية واختيار الجمال التي ستلحق بفريقنا، وأصبح كل شيء معداً للرحلة في الوقت المناسب. وكنت قد انتهيت من مراقبة النجوم لتوي عندما انساب إلى أذني من بعيد قباع وثرثرة تنذر بقدوم زايد ورفاقه.

وكما توقعت بشيء من الرهبة، فقد انهار كل ما دبرناه وخططنا له بعناية بقدوم زايد إلى المخيم. وكان من الطبيعي أن يغضب من أي تخطيط متفق عليه يوضع في غيابه، ولم يكن هو ولا علي يريدان الإفصاح بأي شيء عن موضوع الصيد الذي عادا منه خاليي الوفاض. إنما تركونا لنفهم كم من

المتاعب تكبدوها بحثاً عن جمالهم الضالة، وأبديا بزيف وخداع ما تمخض من ضيم لهما من إبعادهما دون استشارتهما مع قافلة الأمتعة العائدة. وأعلن زايد من البداية اعتراضه على مشروعنا. وبعد احتساء كوب القهوة والتي تمكن خلالها من تقييم الوضع كما تخيلت وأنا بخيمتي من احتجاجاته، جاء يسعى إلى خيمتي لمناقشة الموضوع معي. فقد كان ساحراً حلو اللسان في إعلان توكيد خدماته المخلصة: «انظر يا صاح، لا أستطيع أن أتخلى عنك هكذا. سآتي معك شخصيّاً لأن وجهي سيَسْودُّ أبداً إذا تركتك لمصيرك. فالطريق مازال بعيداً، ولا ماء يكفي والجمال قد نفقت. ومع ذلك سنفعل ما تأمر به، ونهلك معك، ستأخذ أفضل الجمال وما تبقى من الماء، فماذا يهم بعد ذلك؟! ونفوض أمرنا إلى الله، فإذا شاء الله أوصلنا إلى السليِّل أحياء، ولكن لا تثريب علينا إن هلكنا في الصحراء. فقد رأيت اليوم عدد الجمال التي انهارت. إنها لا تستطيع المضي في الرحلة مالم نجد مراعي، ولم يبق لنا إلا اثنين أو ثلاثة قادرة على الرحلة، وحتى جمالنا أنا وعلي، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، ومع ذلك فإن ما تأمر به هو الذي سيسري علينا. نعم، قد أديت واجبي في تحذيرك من المخاطر التي ستواجهها، ولكن الأمر متروك لك».

من الواضح أن قدوم زايد قد أحدث تغييراً في الوضع. ففي مقدوره أن يعجّل بحدوث الرحلة أو يفسدها، ولم أكن أثق فيه بأن يقوم بترتيبات تعطينا فرصة للنجاح ولو كان ضئيلاً. وشعرت بأنني فقدت ضربة الحظ، ولذلك لجأت إلى ما تبقى لي من بديل، ويحدوني أمل ضئيل في النجاح في الوصول إلى تسوية في وجه الفشل المحدق بالخطة التي وضعناها. واجهته

قائلاً: «انظر يا زايد إن قدومك قد أفشل خططي وجعلت من رفاقي أعداء لي. فإن أمامك خياران: إما أن تدعني أذهب ومعي رجالي وجمالي التي اخترتها أو أعطني كلمة الشرف هنا وفوراً. فإذا وافقت بأن نعود جميعنا إلى نيفة فهل تتعهد، بعد أن ترتاح وترتاح جمالنا، بأن تركب معي عبر الربع الخالي وحتى إلى السليل، كما تعهدت من قبل في شنَّة؟ فقد كان ذلك جزءاً من المهمة التي كلفك بها ابن جلوي، وأحذرك بأن ابن سعود نفسه سيغضب منك ومن الآخرين إذا فشلت هذه المهمة. أنا لا أستطيع العودة إلا عبر الربع الخالي». فرد زايد قائلاً برقة: «نعم، أتعهد بذلك وأعطيك كلمتي على ذلك يا شيخ عبد الله، ونفوض أمرنا إلى الله. ووقفت لحظة أصارع نفسي، ولكنني لم أجد بديلاً معقولاً إلا أن أضع ثقتي في أي إحساس بالوفاء بقي في زايد. فقد كان الرجال يخشون زايداً إلى درجة تحد من قدرتهم في اتخاذ أية مبادرة بمفردهم. أما صالح وفراج، اللذان صافحا يدي تأكيداً لإخلاصهم ووفائهم لما اتفقنا عليه اليوم، فقد بديا بائسين لتراجعهما المخزي. وخلال تلك اللحظات التي سبقت الوصول إلى قرار نهائي سمعت مشادة كلامية حادة تجري في الخيمة الأخرى. «إنه لا يستطيع المضي لوحده دون دليل. ولذلك دع ابن سويلم يخطره دون مواربة بأنه لن يرافقه في الرحلة. قم يا سالم وأخبره بأننا سنتوجه إلى حيث الآبار -دون تأخير». وفي لحظة جاء سويد يقود ابن سويلم الذي أخبرني بما أُملي عليه كالطفل وغادر دون أن يلتفت.

وهكذا تم الاتفاق على أن نعود على أثرنا إلى نيفة وأن تبدأ قافلة الأمتعة سيرها فور طلوع القمر. وكنتُ الوحيد بين رفاقي الذي عزّت عليه العودة

بهذه الطريقة، والحزين بينهم، بينما واصل البقية عملهم بطريقة تنم عن عزيمة جديرة بمسألة هامة وليس تراجعاً مخزياً. فقد هزمنا الربع الخالي هزيمة نكراء، وكنا قطعنا مسافة ١٤٠ ميلاً عبر صحراء جرداء، وها نحن سنعود نفس المسافة إلى حيث بدأنا هذه المرحلة من الرحلة. أي ٢٨٠ ميلاً دون فائدة، أما كان في إمكانهم السير ثمانية أو تسعة أيام أخرى عبر منطقة لا مراعي فيها؟! ولكن هذا التراجع أتاح لنا بأن نستخدم خمس قرب ماء في إغاثة وإسعاف سبعة أو ثمانية جمال.

وقد صاحب قرار العودة احتفال بتبذير كمية من الماء. وكانت الجمال تمتص الماء من القرب بينما استخدم البعض عملية «نشوق» الماء، وهي طريقة اقتصادية لإنعاش الجمال عن طريق إعطاء جرعات من الماء من إبريق عن طريق الأنف لتبريد الرأس والمخ. ويبدو أنها عملية مؤلمة في البداية ولكن الجمال تستكين لها ولفعاليتها في إحداث الأثر المرجو. وكان منظراً قُدّر لي أن أشاهده كثيراً خلال الأيام التي بقيت لنا في الربع الخالي.

وكان للرجال نصيب من هذه الرعاية، إذ كان هناك قدر كبير من الأرز يغلي احتفلت به الجماعة عند منتصف الليل. ولكنني كنت محبطاً، ولذلك بقيت في فراشي ولم أشارك القوم في الطعام المشبع الوحيد منذ مغادرتنا لشنَّة. فقد كنت لا أزال على حميتي التي تتكون من تناول الشاي ثلاث مرات أو مرتين في اليوم، كما لم أذق الماء منذ أن غادرت الأحساء قبل ٥١ يوماً. وكانت كمية قليلة من لبن النوق تسعفني بالقوة وذلك قبل أن يقل تدريجيّاً مع توغلنا في صحراء لا نبات فيها. ولذلك لم أعان كثيراً من العطش على عكس رفاقي الذين كانوا يشربون الماء بنهم كلما وجدوه

متوافراً، وكلما أسرفوا في شربهم زاد عطشهم. وقد أقنعتني هذه التجربة بأن الاعتدال في شراب الماء هو ترياق للعطش في الظروف الصحراوية وأن شرب الشاي أفضل في هذه الحالات وذا تأثير فاعل عند الشعور بالعطش. ولم يكن رفاقي يعيرون ذلك انتباهاً يذكر، وإن قاموا بإعداد الشاي أفسدوه بإضافة السكر والحليب إليه.

كنت في غاية الإرهاق عندما أويت إلى فراشي تلك الليلة، ولذلك لم يغمض لي جفن وأنا أجتر ذكرى ما دار اليوم وما مرت فيه من تجارب، وعن ماذا تخبؤه لنا الأيام المقبلة. وبعد تناول الطعام مباشرة تحركت قافلة الأمتعة تحت جنح الليل وضوء قمر باهت يضيء الطريق. وهكذا بدأ التراجع الكبير، وهبط السلام والهدوء على الصحراء التي هزمتنا. ورغم أن الصراع كان عنيفاً وقبيحاً فقد انتهى التوتر الذي كان يرهق أعصابنا. وأخيراً دب النوم في جفوني ومحا أسوأ كابوس واجهني خلال الرحلة كلها من بدايتها إلى نهايتها. ومهما كان الأمر، فقد برهنت الأيام أن ما فعلناه كان خيراً لنا في النهاية؛ ورب ضارة نافعة.



الفصل الثاني

الانسحاب

«هذه الربع الخالي - إنها أرض لا تصلح للمسلمين ولا للكفار»

عبد الرحمن

استيقظنا مع أذان الفجر وشرعنا في إنجاز بعض المهام استعداداً لرحلة اليوم، وكان الليل بارداً لأننا نمنا في العراء بعد إرسال الخيام مع قافلة الأمتعة، وجلسنا نتدفأ حول موقد النار ونحن نحتسي أقداح القهوة. وكادت مؤونتنا من التمر أن تنفد إلا من مزودتين منه زودني بهما ابن جلوي لاستعمالي الخاص، والذين رفضت أن يساومني أحد بخصوصهما. ولذلك وضعتهما تحت حراسة سعدان الخاصة لاستعماله عند الضرورة القصوى. أما المخزون العام من التمر فقد بُدد دون اعتبار لما ستؤول إليها أمور الغد، بل كان التمر يعطى بسرية إلى الجمال ليعوضها عن النقص في العلف. وكان استهلاكنا للمؤن مسرفاً إلى حد بعيد، ولم يبق لنا إلا الأرز لنعيش عليه بعد أن قضوا على كل شيء تقريباً. كما لم نعمل حساباً لاستهلاكنا للماء أيضاً. وقد قدّر ابن سويلم -وبطريقة متفائلة كعادته- أن رحلة العودة إلى نيفة ستستغرق ثلاثة أيام. ولكنني أبديت احتجاجي على ذلك بطلب المزيد من الاقتصاد في استهلاكنا للمؤن على أساس خمسة أيام للرحلة. وكالعادة انتصر المتفائلون، وشهد اليوم الرابع نفاد ما نحمله من ماء. وفعلاً وصلنا إلى نيفة بعد مسيرة جادة ومرهقة في تلك الليلة، ولكن عدداً من الرفاق أبدوا ندمهم على قصور رؤاهم عندما بدأت رحلة النهار تحت لفح الشمس الحار.

بدأ التحرك الساعة السادسة صباحاً في اتجاه الشرق وعلى طول مجرى وادي الحوايا الرابع، وهو مجرى واسع يبلغ عرضه ما بين ٥٠٠ و ٦٠٠ ياردة ويجري بين حيود متوازية تحولت تدريجيّاً إلى كتل من الكثبان لتزداد نهائيّاً عند الطرف الشرقي للوادي إلى ركام كبير من تلال مستديرة الشكل. وبعد اجتيازنا لهذه المنطقة أصبح سيرنا مجرد عبور لهذه الأودية من جانب إلى آخر، وكانت تمتد بعيداً على الجانبين، لذلك كان ممتعاً أن نتبع أحد هذه الأودية عبر مجراه إلى أجزائه الدنيا. وكان اتجاهنا نحو الشرق يتيح لنا فرصة جيدة لتكرار التجربة خلال الأيام القليلة القادمة لأن خط السير الأكثر سهولة كان يتطابق مع الاتجاه الذي نسير فيه. وتتفاوت هذه الأودية كثيراً في أطوالها، ربما من ثلاثة إلى ثمانية أميال. وكانت خطتنا أن نسلك مجرى ونسير في وسطه ثم نعبر الركامات التي تنتهي إليها هذه المجاري إلى مجرى آخر، وكنا نمر بين الحين والآخر ببقع من صخر الأديم المكشوفة التي تتناثر على سطحها رمال خشنة.

كنا نمر أحياناً بآثار أقدام قافلة الأمتعة التي توضح أين بَرَك جمل أو توقف لتعديل وتنظيم حمله. فقد رأينا بعض حبات البصل في أحد هذه المواضع وقمنا بتقسيمهما على أفراد الفرقة وأكلناها بنهم شديد لأننا كنا نتضور جوعاً. وكنت قد رفضت تناول الطعام الذي قُدّم لي الليلة السابقة وقضيت ما يقرب من ستة أيام أتناول التمر فقط مع بعض البسكويت المحلّى بالسكر الذي كنت أتناوله مع الشاي. وكنت أشعر بالضعف والإحباط معاً. وقد يكون للحرمان الذي فرضته على نفسي من شرب الماء دور في ذلك، وقد يكون أثر ذلك قد بدأ يتفاقم مع لحظات القنوط والكآبة التي عشتها، مما

سبب لي نوعاً من القلق على صحتي. فقد أنهكت فترات الجهد والعمل الشاق وعدم تناول اللحوم قواي وبدأت أشعر بالوهن، ويبدو أنه لا أمل في الحصول على لحم في هذه الصحراء الجرداء التي لم نر فيها أي أثر للأرانب أو حيوانات الصيد الأخرى. ولم يكن أمامنا من شيء إلا أن نجدّ في السير. وكنت أركب بعيداً من رفاقي وفي صمت لأعبر عن سخطي وخيبة أملي التي سببت هوة تفصل بيني وبينهم. وشعرت بأن عليّ أن أتركهم رغماً عني على هواهم ليتأملوا في النتائج المحتملة التي يمكن أن تترتب على فشل هذه المهمة، وأن يعلموا بأن ما سينالونه في النهاية من استحسان ومكرمة مني لا يمكن أن يأتيهم إلا بالإذعان لما أهدف إليه وقبول ما أطرحه عليهم من خطط. فقد أصبح عبور تلك الصحراء الجرداء هاجساً لي كما كان استكشاف الصحراء الجنوبية الكبيرة لأربع عشرة سنة الماضية. ولم أعد متأثراً بالشعور الشخصي نحو نفسي مما يحيط بي، وأصبحت مجرداً وموضوعيّاً تجاه كل شيء. وبدأ صراع بين عقلي ونفسي في ظروف فريدة للغاية. لماذا المشاحنة مع رفاقي في الشدة الذين حاولوا إنقاذ أنفسهم من خطر قد يهلكنا جميعاً؟ ولماذا لا أتفق معهم لألغي الصراع مع بيئة عدائية ونعود أدراجنا إلى حيث السلام والطمأنينة؟ فأجابت نفسي: إذاً لماذا تعيش؟ فقد أنجزت الكثير من المهمة التي كنت تتوق إلى إنجازها طوال هذه السنين، ولكن ذلك لا يكفي. فما زالت هناك المهمة الكبرى: الصحراء العذراء التي لم يعبرها أحد أو ربما التي لا يمكن عبورها. فإن التقاعس الآن عن هذه المهمة وأنت على عتبة الصحراء مرفوض تماماً، وعليك أن تضحي بكل شيء في سبيل تلك المهمة النبيلة. وهكذا تُكسب الانتصارات

العظيمة، وماذا تعني حياة تسعة عشر شخصاً مقابل الآلاف من القواد الذين ضحوا بحياتهم وكرَّمهم التاريخ؟ فقد كان عقلي يتعاطف مع منطق رفاقي في انحرافهم عما خططناه، بينما كانت نفسي لا تبالي بشيء إلا تحقيق ما خرجت لأحققه من هدف. فقد انتصر رفاقي عليّ مرتين: في شنَّة ووسط رمال الحوايا، وستحدد الجولة الثالثة الأمر بشكل نهائي، وعليّ أن أرغمهم على الإذعان والخضوع بقوة إرادتي، كما يتحتم عليّ أن أتعامل مع زايد بمفرده، ذلك الذي يبدو لي أنه يجسد شخصية الشرير الذي يفرض سيطرته على الجميع بطريقة مدهشة للغاية، لم يكن هناك أحد يكن له حبّاً؛ بل كانوا يخشونه ويهابونه.

واصلنا سيرنا على طول مجاري الأودية وفوق الركامات الفاصلة بينها، وكانت الجمال تسير متثاقلة الخطا ولكن بصمود مدهش قد يكون نابعاً من شعورها بأنها تتجه الآن نحو الماء. وكنا نسير صعوداً إذ أوضحت آلة قياس الارتفاع بأننا ارتفعنا إلى ٢٠٠ قدم. ولم أتناول نصيبي من لبن الصباح لأن النوق كانت قد تقدمت مع قافلة العفش، حتى إن ما تناولته بالأمس كان شحيحاً مما يعكس ما تعاني منه النوق من الجفاف. وعثرنا في طريقنا على قرني وضيحي على الرمال، وزوجين من فراشة اسبنداسز وثلاثة غربان في أحد المواضع. وما عدا ذلك لم نجد أثراً للحياة في هذه الصحراء كما لم نجد ما يثير اهتمامنا باستثناء بقع متناثرة من الصخر المكشوف في بطون الأودية والمنخفضات. وكان نسيم جنوبي يهبُّ خلال الصباح مما أدى إلى طمس آثار أقدام قافلة المقدمة. ويبدو أنها كانت بطيئة في سيرها، إذ استغرقت أربع ساعات في قطع المسافة التي اجتزناها نحن في ساعتين فقط؛ وبدا واضحاً أنها كانت تعاني مما عليها من أثقال.

ثم مررنا بجانب منطقة كانت الحيود فيها مرتبة الواحد خلف الآخر في شكل عروق نصف دائرية، مثل كَرَاس مصفوفة في المسرح، لتتجمع عند نهاية الوادي.

عندما واصلنا السير -بعد تناول مرطبات الصباح- في مرتفع متموج تغطيه بعض شجيرات العبل، مررنا من منطقة الحاذ إلى منطقة القصب التي تتميز ببقايا القصب الجافة والكثبان الرملية العالية التي تتناثر فيها شجيرات العبل. وكان السير صعوداً إلى قمة الهضبة العارية وتلالها الجميلة الشكل مرهقاً للغاية. وإلى يمين هذه التلال وجدنا مجرى وادٍ تكثر به بقع صخرية عارية عديدة على امتداد ميلين مما يعطي انطباعاً وكأنه مجرى نهر متصل. وعندما وصلنا هنا كانت الريح الجنوبية قد بدأت تشتد مما أضفى على حالة السير متعة كنا نفتقدها. ولكننا توقفنا قليلاً ونحن نهبط إلى الوادي لنقتسم جرعات من الماء بيننا، إذ فرضت ندرة الماء لدينا أن يشارك الجميع في اقتسامه فيما بينهم بالتساوي وبطريقة لا مجاملة فيها. وكانت الجمال تمد رقابها الطويلة أملاً في احتساء نقطة من السائل الثمين ولكن دون جدوى.

صادفنا أثناء مرورنا عش غراب قديم بين أغصان شجيرة عبل، ثم اشتدت سرعة الريح وبدأت تثير الأتربة كأعلام خفاقة من فوق الكثبان، وفقدنا آثار أقدام قافلة الأمتعة التي طمستها الرمال، ولم نر أثراً لهم. ورأينا من بعيد رجلاً يجري نحونا تعرّفنا عليه أخيراً: إنه علي بن جهامان، الذي أوضح لنا بأن قافلة العفش تسير خلفنا من جهة اليسار، وكان علينا أن نتوقف حتى تلحق بنا. وسعدت لذلك إذ كنت مرهقاً جسمانيّاً ونفسيّاً وأحتاج إلى بعض الراحة، وكانت الرياح قد هدأت قليلاً عند الظهر وأصبحت تهب من

جهة الجنوب الشرقي، ولكن الجو ظل معتدلاً. وبعد ثلاث ساعات من توقفنا، أي الساعة الخامسة مساءً، وصلت قافلة الأمتعة المخيم وهي في حالة إعياء تام وتبدو عليهم الكآبة. فقد انهار أربعة أو خمسة من الجمال، وسارع الرجال في إعادة تنظيم وترتيب الأحمال للتخفيف عن تلك الأكثر سوءاً، كما تم استنشاق البعض بالماء، ووضعت ناقة مولوداً غير مكتمل ذبح في حينه وأتي باللحم محمولاً على جانبي الحيوانات. وجاء علي يزف إلينا الخبر السعيد بأن اللحم قد توفر، ولكن عندما سألته عن إمكانية الحصول على مزيد من اللبن بعد الآن، أجاب بالنفي قائلاً بأن الناقة لن تدر اللبن إلا بعد أن تشرب كفايتها من الماء. وكنت منهوك القوى حينئذٍ، ولذلك جلست متوانياً بين رفاقي حول النار وهم يشوون اللحم الطري عليها. وبعد أن تناولت نصيبي من الشواء، شعرت بقوة تدب في أوصالي وعدت إلى خيمتي وشعور غريب بالصحة يعتريني، وتناولت الشاي وصحناً من الأرز كان زيد قد طبخه لي ولسعدان.

جاء زايد إلى خيمتي يحثني على الموافقة بالسير ليلاً. فالجمال حالتها سيئة، وما لدينا من ماء أصبح شحيحاً، وإن ما قطعناه طوال اليوم الأول لم يتعد ٢٠ ميلاً، وما زالت أمامنا مسافة طويلة يجب أن نجتازها بسرعة لنتفادى أية كارثة قد تحل بنا. وكنت في حالة مريحة للتفاوض بعد أن نأيت بنفسي منهم لفترة، وفي وضع يمكنني من تحويل كل شيء لصالحي. فلا أحد يستطيع إجباري على السير ليلاً لأنني لا أتقاسم الماء معهم، وفي إمكاني أن أطلب منهم أن لا يسرفوا في استخدام الماء كما أفعل أنا، مع أنني أعرف أن هذا سيقلقهم كثيراً: «انظر يا زايد أنت الذي تصدني في كل

جولة، وبقية رفاقك يخافون منك، وكانوا سيتبعونني دون اعتراض لولا هذا الخوف، فأنت الوحيد الذي تستطيع مساعدتي في إنجاز خطتي. أما الباقون فلا فائدة منهم البتة، فهل تفعل ما أريد إذا فعلت ما تريده مني بخصوص السير ليلاً؟ فقد تعهدت من قبل بأنك ستتوجه معي جنوباً صوب الصحراء بعد أن نرتاح في نيفة، فهل تؤكد لي بأن ذلك هو نيتك فعلاً؟ فإذا كانت كذلك فسأسير ليلاً بما تقتضيه الضرورة لكي نصل إلى نيفة سريعاً».

فرد زايد قائلاً بكل عفوية: «الله أكبر! وسأذهب معك مرة ثانية بمشيئة الله، كما وعدتك، وسنرسل الأمتعة إلى الأحساء عن طريق الآبار وسيرافقك عدد منا وهناك الكثير من الماء عبر الصحراء». وهكذا سوينا هدنة بيننا بعد معركة طويلة، واتفقنا على أن تغادر قافلة الأمتعة عند منتصف الليل، ونحن بعد ثلاث ساعات. وفعلاً غادرت القافلة ونمنا نحن حتى الساعة الثالثة والنصف صباحاً وبدأنا السير لأول مرة تحت ضوء القمر، وكنت أعزّي نفسي بأنني رأيت هذه المنطقة من قبل وأعرف عن أجزائها ما يكفي، وأن السير ليلاً تجربة في حد ذاتها. وانطلقنا اتجاه الشمال الشرقي متخذين نجمي النسر الطائر والذنب دليلاً لنا كما أن ضوء القمر كان كافياً ليظهر لنا الموقع العام للحيود والأودية، وصليب الجنوب يرافقنا من يميننا. ولكن كل ما بَشّرتْ به بدايتنا المبكرة تبدد عندما توقفنا الساعة الخامسة صباحاً لأداء صلاة الفجر وأصر خمسة من رفاقي على عمل القهوة. وكان ذلك تراجعاً عما خططنا له، ولكنني آثرت السكوت وعدم إبداء أي انتقاد لهم على أساس أن تنظيم تحركاتنا أصبح ضمن صلاحية زايد. وعندما واصلنا السير بعد ذلك، تأخر فراج ليسير معي وقال: «هل تعرف بأنني كنت سأواصل السير معك إلى السليل إذا ما قررت ذلك؟ فأنا في خدمتك أبداً والرزق على

الله». فرددت عليه قائلاً: «لقد جاء كلامك متأخراً. لقد كانت لك ولصالح فرصة لإثبات ذلك الليلة الماضية، ولكنكما خذلتماني والآن كل شيء في يد زايد. وكلما أردت خدمة أو شيئاً آخر فسأطلبه من زايد. أما صالح فقد ظل بمعزل عني بينما آثر عليّ -كتعبير عن استيائه من أحداث الليلة في مخيم الحوايا- السير مع قافلة الأمتعة لليومين الأوائل من الرحلة. وكان ابن حميد يؤدي دوره كدليل مؤقت، ولكنني كنت سعيداً بالتخلص من علي إذ كنت أرى أنه لم يعد بذي فائدة عملية بالنسبة لي. وكنت قد قررت بأن ألغى فراجاً وعليّاً من قائمة فريق الصحراء الذي سيرافقني من نيفة إلى الجنوب. وكان الجلوس حول النار في الصباح البارد، ونحن نحتسي القهوة بالحليب المحلى من ناقة ابن حميد، مبهجاً. وبعد الفراغ من ذلك واصلنا السير، ونسيم معتدل يهب من الجنوب الشرقي، عبر مرتفع تتخلله بعض الحيود المستعرضة التي بدأت النجوم التي كنا نهتدي بها ليلاً تختفي الواحد تلو الآخر خلفها مع بزوغ ضوء النهار. وفي حوالي الساعة السادسة أشرقت الشمس وبدأ معها العمل اليومي الفعلي وقد قطعنا فقط خمسة أميال.

بعد أن دخلنا خلة الحوايا أصبحت المنطقة أشبه ببحر متلاطم الأمواج يمتد في محور شمالي شرقي- جنوبي غربي. وهنا عثرنا على آثار حديثة لزوجين من الوضيحي قضيا الليل هنا، كما لاحظت وجود نبات معظمه من العبل وبعض العلقا متناثرة هنا وهناك، وهو نبات يفضله الوضيحي والجمال سويّاً. وكانت بقع من صخو ر الأديم المكشوفة ذات اللون الأزرق المعتم تضفي تنوعاً على رتابة المنظر الرملي السائد. وفي إحدى هذه البقع

وجدنا بعض شظايا بيض لطائر صغير مدفونة فيها، ربما لقبَّرة الصحراء التي رأينا عدداً منها خلال اليوم. وهنا أيضاً عثرنا على آثار تدل على أن قافلة الأمتعة توقفت هنا لأداء الصلاة على بعد عشرة أميال فقط من حيث بدأنا وبعد خمس ساعات من السير: إنها نتيجة غير سارة. ولكن يبدو واضحاً أن الجمال أصبحت مرهقة تماماً. وكان هذا هو اليوم الحادي عشر منذ آخر ارتواء جدي للجمال، ولم نمر خلال تلك الفترة بمراعي خضراء تعوض ذلك النقص المريع في السائل الثمين. وعادة ما تصاب الجمال في مثل هذه الظروف بظاهرة النفاخ -الطبال أو امتلاء البطن بالغازات- وهو داء خطير، ويلجأ العرب في علاجه إلى طريقة غريبة إذ يخيطون فتحة الشرج أو يغلقونها بعجين من روث الجمال ثم يربطون الذيل بالسرج بحبل يمر بالبطن وبين الرجلين حتى يمنع انبعاث أي ريح أو هواء. وقد خضعت الناقة (شعلة)، لهذه العملية ولولاها لما تمكنتْ، كما يؤكد الرفاق، من السير أبداً.

أخذت الريح الجنوبية الباردة تشتد تدريجيّاً حتى بدأت تثير الرمال وتطمس آثار أقدام قافلة الأمتعة، وتنبه رجالها من تجربة الأمس وشرعوا في وضع فروع شجيرات العبل على رؤوس التلال على مسافات في الطريق لنسترشد بها. وكان الوهج الصادر من الرمل متعباً، وبدا لي بأن كل ما حولنا يتحرك بتناغم مع الرياح. لقد مضى وقت طويل منذ أن رأينا ضباباً حقيقيّاً. قال عبدالرحمن وهو من سكان المدن: «لقد أمضيتُ أسابيع وشهور لم أرَ خلالها إلا هذه الرمال التي تجرفها الرمال. إنها ليست أرضاً للعيش، إنها فقط الربع الخالي ولا غير ذلك».

وقبل أن نتوقف لاستراحة ما قبل الظهر بقليل، مررنا بجانب مجموعة من ثلاث بقع صخرية مكشوفة من على يسارنا، كانت إحداها تنخفض في الوسط كفوهة بركان صغيرة يملؤها الرمل إلى نصفها، وربما كانت بئراً قديمة منسية دفنت بالرمال. ولكننا لم نقف لنتفقدها عن قرب واكتفينا بمجرد إطلاق اسم «بئر الحوايا» عليها. وكانت شجيرات العبل بالقرب من المخيم تعج بحشرات اليسروع. أمسكت لاحقاً بواحدة منها، وفيما عدا ذلك كانت المنطقة بصفة عامة عارية وكئيبة المنظر. وبعد فترة الراحة القصيرة واصلنا سيرنا عبر سهل متموج تتخلله بعض الكثبان العالية المتناثرة وقليل من الحيود المنخفضة. وبعيداً أمامنا لمحنا قافلة الأمتعة تكد في سيرها بتثاقل، وبعد فترة قصيرة رأيناها تتوقف وتجري الاستعدادات لنصب الخيام. وعندما التحقنا بهم وجدنا أن حوالي سبعة من الحيوانات تحتمي من وهج الشمس تحت الخيم وقد انهارت تماماً. وكان الوضع يبدو قميئاً وخاصة أننا لم نقطع إلا ثلث المسافة وأن كمية الماء قد قلَّت تماماً لدرجة تنذر بالخطر. ولم نكن نتوقع أن تقوم الجمال المحملة بمعجزة في الرمال تحت هذه الظروف القاهرة، وأن دفعها للتحرك ثانية أثناء النهار معناه مراودة أو مغازلة الكارثة.

ومع ذلك فإن عليها أن تمضي في الطريق بأية وسيلة أو تهلك في الصحراء. وعلى أساس ذلك اتفقنا أن ما يمكننا أن نفعله الآن هو أن ننقسم إلى جزأين: قافلة الأمتعة وندعها تسير بالليل وخلال النهار بقدر ما تستطيع حتى نتمكن من الوصول إلى نيفة في أقرب وقت ممكن. أما الجزء الآخر- الذي تقلص عدده إلى ستة أشخاص بما فيهم أنا- فكان عليه أن يواصل سيره كما كان، رحلة قصيرة بعد الفجر ثم مواصلة السير حتى المغيب. أما علي الذي أفاق من عبوسه فقد تطوع لمرافقتنا كدليل، ربما للاحتفاظ بجمله

الذي كان في أفضل حالاته، وظل زايد وفياً ومخلصاً على غير عهدي به وبقي معي. واكتملت الفرقة الصغيرة بانضمام صالح وحميد وسعدان إلينا. وهكذا تم ترتيب كل شيء بشكل مرضٍ، وبعدها توجهت بعد الظهر لاستكشاف الوادي الذي كنا نخيم فيه. وصادفت على مسافة قصيرة مجموعة من الجروف الجيرية المكشوفة ترتفع إلى حوالي ١٥ قدماً وتقع مقابل حيد رملي مرتفع يشكل أحد جانبي الوادي. وكانت الجروف مدفونة إلى نصفها برمال الحيد. وبعد فحص دقيق للأرض العارية عند قاعدة الجروف وجدت بعضاً من القواقع الحلزونية الصغيرة، وجمعت منها عينات متنوعة من الصخور. وشعرت بعد ذلك بإرهاق شديد وخفت أن لا أجد القوة للعودة إلى المخيم. فقد كنت جائعاً أتوق إلى التهام ما كان يعد آنذاك من أرز مطبوخ، ولم أستجب لأذان المغرب وأخذت أتسلق الرمل بجهد وصعوبة والتهمت بصلتين، كنت قد بدأت أحمله في جيوبي دائماً مع بعض حبوب النعناع لمثل هذه الطوارئ لعله يزودني ببعض الطاقة. وبدأت أزحف ببطء تجاه المخيم حيث تجمع كل الرفاق حول وعاء أرز كبير وجلست آكل منه حتى آخر لقمة فيه.

ولسوء الحظ كان سعدان قد أعلن دون إذن مني بأن زادي من الشاي قد نفد. وكنت قد أخبرته بأن يحتفظ بورق الشاي القديم ويستخدمه مرة ثانية ولكنني استخدمته مرة ثالثة قبل أن أخلد إلى النوم تاركاً جزءاً منه لأشربه في الصباح بارداً قبل مغادرة الرحلة. وكنت قد احتفظت ببعض الشاي للحالات الطارئة، ولكني كنت أوفره فقط للرحلة التي كنت أنوي القيام بها إلى الجنوب. ولهذا قضيت الأيام القليلة التالية بدون شاي ومحروماً من ما

يجلبه لي من راحة بينما تقلص النصيب اليومي من الحليب إلى العدم تقريباً. ووصلت إلى نتيجة مؤداها أن أتخلى حين أصل نيفة عن حمية عدم شرب الماء طول إقامتي فيها وأعاودها عند مغادرتي لها إلى السليل.

وخلال هذه الفترة أطلقنا قافلة الأمتعة في رحلتها الشاقة الساعة السابعة وخمساً وأربعين دقيقة مساءً آملين أن لا نراها ثانية حتى نصل نحن إلى نيفة. كان الليل يعج بالفراشات ومعظمها من نوع النكتويد[1] التي تتغذى في مرحلة الشرنقة على نبات العبل الذي بدأ مورقة بشرابتها الحمراء الباهتة وزهورها الصغيرة البيضاء التي تؤكل. وتصنع المناصير وجبة من زهور العبل مخلوطة بالأرز تسمى مكيكة وينصحون بتناولها خالياً من اللحم الذي يحيل تماسك الخلطة -إذا أضيف- إلى ما يشبه قطعة الجلد. وكنت أحياناً، وعندما يبلغ بي الجوع أشده، أتناول بعض هذه الزهور النيئة أثناء سيرنا، كما اكتشفت لاحقاً بأن الأغصان الجافة لهذا النبات يمكن أن تؤخذ بعد طحنها وخلطها بالماء بديلاً معقولاً للشاي. فلونها مقبول وإن كان مذاقه به بعض المرارة وقابض للأمعاء. وعلمت فيما بعد بأنه ترياق لأملاح ماء نيفة القوية. وتقوم النساء البدويات بدق أو سحن براعم العبل الخضراء لصنع صباغ، كما أن خشبها يشكل أفضل وقود في الصحراء. وهكذا فإن لنبات العبل فوائد عظيمة، ولذا فهو منتشر يعم خيره الجميع. ويقال له في منطقة نجد الأرطا، ويبدو أنهم يتجاهلون فوائده الكثيرة هناك.

تحركنا، بعد نوم قصير ولكنه منعش، الساعة الثالثة صباحاً متخذين مسلكاً بين نجمي النسر الطائر والنسر الواقع، ولكن لم نكد نسير حوالي الساعتين حتى طالب الرفاق بالتوقف لأداء صلاة الفجر، وطبعاً لتناول

---

(١) نوع جديد فيما يبدو.

القهوة بعدها. وفعلاً أُوقدتْ النار ووضع الماء عليها ليغلي، في حين استلقيت أنا على الرمل ورحت في سبات عميق حتى موعد الصلاة، وجلسنا بعدها حول النار نتناول المقدار القليل من القهوة واللبن. وبعدها تحركنا وضوء قرمزي يلوح في الأفق الشرقي على يميننا، ثم أشرقت الشمس وكست الكثبان المتموجة بلونها الذهبي. وشاهدت قبرتين تغردان كما حلّق غراب فوقنا ربما يبحث عن بقايا طعام حيث توقفنا أخيراً.

وفي طريقنا مررنا بجانب كثيب مرتفع ذي خطوط وثنيات جميلة بشكل غريب، ولكننا فوجئنا بأن فرقة المقدمة قد توقفت لأداء صلاة الفجر على مسافة قصيرة من هذا الكثيب. وكنا قد قطعنا حوالي ١٢ ميلاً من مخيمنا ولم نصدق أن قافلة الأمتعة لم تتقدم كثيراً خلال تسع ساعات. فقد كان الموضع الذي أوقدوا فيه النار لإعداد القهوة وآثار الصلاة واضحة، وربما أخطؤوا وضلوا الطريق في الظلام. ولكن مهما كان سبب التوقف فإن الحقيقة تبقى بأنهم لم يحرزوا أي تقدم وأننا سنلحق بهم قريباً.

وأمامنا من جهة اليمين كانت تقع منطقة «حاذ القطا»، وعلى مسافات كانت مجموعة من شجيرات الحاذ تشير إلى أننا نسير على الخط الفاصل بين هذه المجموعة والخلات حيث قضينا معظم نهار اليوم نمشي فيها. وظهر صف من عشب العندب الأخضر معلناً دخولنا للمرة الثانية في المناطق التي شهدت هطول أمطار خلال السنة أو السنتين الماضيتين. وبدأ السهل المتموج يفسح المجال بعد مسافة قصيرة لسلاسل الكثبان المتوازية الطويلة التي تتميز بها تكوين السواحب والتي تمتد دون انقطاع من هنا إلى مقشن البعيدة الواقعة في الرمال الجنوبية الشرقية. وكنا نتقدم بجهد عبر الأودية والحيود

المتعرجة التي لا تنتهي، حتى وجدنا موضعاً مناسباً عبرنا منه هذه المتاهة. وهبت ريح من الجنوب الشرقي بدأت معتدلة ومنعشة ثم أخذت تسخن سريعاً. ولاحظت أن الرمال التي تتجمع في مقدمة الشجيرات تتجه إلى الشمال والشمال الغربي، إشارة إلى الرياح السائدة هنا لأيام مضت.

توقفنا لنتناول القهوة في الساعة العاشرة والنصف بعد مسيرة خمس ساعات وقاموا بعمل الشاي مع بعض الهيل والسكر بدلاً عن القهوة ولم نتناول خلالها أي طعام عدا بعض حبات البصل التي أكلناها كالعادة نيئاً. وواصلنا السير بعد ذلك عبر أرض مرتفعة تتكون من تلال وحيود عالية متموجة نتعرج خلالها حتى عبرنا، في حوالي الساعة الواحدة مساءً، حيداً شديد الانحدار لنجد منخفضاً في أسفله وفرقة المقدمة قد توقفت ونصبت المخيم فيه. فقد كانت المرحلة الأخيرة من الرحلة في حر قائظ، وفرحنا برؤية منظر كان أيضاً يبعث على القلق. فقد كانت بعض الجمال تحتمي من الشمس تحت الخيام، وإليها اندفعت جمالنا بكامل حمولتها تطلب أيضاً الحماية من الشمس؛ ووجدنا صعوبة في جعلها تبرك في العراء وإزالة السروج من على ظهورها. ووجدت نفسي أشارك خيمتي مع ثلاثة جمال وبعض رجالي. وكان زيد قد قطع شوطاً كبيراً في إعداد وجبة الأرز التي قضينا عليها وبدأنا نستعد للقيلولة. وكانت الجمال تبدو مرهقة تماماً وفي حالة من الإعياء يصعب وصفها.

أغوتني فراشة على الخروج للعراء ولكنني عدت أدراجي إلى الخيمة وغفوت حتى أذان العصر. وبعد أداء الصلاة وقبل الساعة الخامسة مساءً بقليل حملنا الجمال وبدأنا السير جميعنا عبر منطقة مماثلة لتلك التي قطعناها

مع اختلاف بسيط هو أن تجاويف الكثبان كانت تواجه جهة الشمال بدلاً من الجنوب الشرقي. وغابت الشمس بعد ساعة وتوقفنا لأداء صلاة المغرب، وبعدها واصلنا السير في الغسق عبر نفس منظر الحيود الطويلة التي تفصل بينها الأودية ونحن نهتدي بالمشتري في تحديد اتجاه سيرنا. وكان زايد يركب جملاً وهو نصف عار ليتمتع بالبرودة، وبعد ساعة ونصف الساعة وصلنا إلى طرف خلة عدرج ومنها واصلت قافلة الأمتعة سيرها بينما توقفت فرقتي لترتاح قليلاً. فقد كنا قد قطعنا ٣٠ ميلاً وبقي لنا حوالي ٥٠ ميلاً لنجتازها. وكان الماء قد نفد تقريباً. استلقيت على الأرض لأرتاح دون أن أعكر نفسي بالتفكير في أي شيء، وسرعان ما استسلمت لنوم عميق، وقام رفاقي بعمل القهوة واللبن ولكنهم تركوني نائماً. وهكذا بقيت دون عشاء حتى أوقظت الساعة الثانية والنصف صباحاً لنعاود السير. وكانت بالحق ليلة ممتعة باردة وساكنة والقمر في آخر منازله يطل فوق الأفق البعيد.

توقفنا بعد ساعتين لأداء صلاة الفجر داخل حدود حاذ عنسلة؛ وهناك أتينا على آخر ماء لدينا في محاولة أخيرة لنجمع شجاعتنا ونشحذ همتنا، واستخدم سعدان ما تبقى من ورق الشاي للمرة الخامسة وقدمه لنا مصحوباً بالحليب، وأعدّت القهوة وقام صالح بإعداد فطور متواضع من الأرز المخلوط بالسمن بما تبقى من ماء. وكانت بالحق وجبة دسمة تحركنا بعدها وصالح يحاول استثمار تلك الوجبة في التودد إلي مرة أخرى: «هل أعجبتك الوجبة؟ لقد طبخته خصيصاً لك وللأمير -أي زايد-، فأنا أريد خدمتكما دائماً». اعترفت له ولكن على مضض بأنني فعلاً استمتعت بالوجبة. دخلنا للمرة الثانية خلة عدرج بعد ساعتين ونصف وبعد عبورنا وادياً تكثر به

أشجار الحاذ والعلقا. وكنت أدرك بأننا، ومنذ أن غادرنا المخيم في الصباح، كنا نسير مرة على هذا الجانب ومرة على الجانب الآخر من الحد الفاصل بين منطقتي حاذ عنسلة وخلة عدرج. وفجأة جاء صالح يصيح وهو يلحق بنا من المؤخرة حيث كان مع علي بن جهامان: «أخبار سعيدة لكم بالخير!» واعتقدت بأنهما ربما أمسكا بأرنب نائم بين الشجيرات وإن لم أسمع طلقة بندقية. وتابع صالح: «لقد ظهرت أعراض ولادة مبكرة على ناقة علي ونتوقع الحدث السعيد في أي وقت». ومع ذلك فقد كان وقتاً سيئاً الذي اختارته الناقة للولادة إذ كنا نحتاج لكل دقيقة لنصل إلى نيفة. وكان علينا أن نتوقف حتى تلد الناقة. وبدأ علي بجمع الحطب ليوقد ناراً يشوي عليها لحم الوليد المتوقع. وذهبت أبحث عن الحشرات بينما هيأ صالح نفسه ليغفو تحت شجيرة - وتولى علي وابن حميد مهمة توليد الناقة، وقاما بمحاولات متكررة لولادة مبكرة ولكن دون جدوى. وكانت الناقة تقف مرة وتستلقي على جنبها مرة أخرى، وعندما ظهر رأس الوليد قام علي بشدِّه بكل قوة والأم تزمجر وتئن من الألم حتى خرج إلى الوجود وراحت الأم تمد رقبتها على الرمل لترتاح بعد عناء الولادة العسيرة، ثم تنهض بعد دقائق لتقتات على أوراق العبل كأن شيئاً لم يكن. أما الوليد فقد كان بين الحياة والموت وتجمع حوله الرفاق لسماع الحكم لأنه إذا مات فإن لحمه يعد حراماً. وبعد برهة أصدر الوليد زفيراً مشيراً بذلك أنه على قيد الحياة وكانت تلك نهايته على يد أحد الرفاق وتدفق دم أحمر قانٍ على الرمل وسكن الجسد نهائيّاً، وكان عمره آنذاك تسعة أو عشرة أشهر حَسب تقدير الرفاق وشكله مكتملاً.

بدأ رفاقي عملهم فوراً في سلخ وتقطيع الوليد إلى قطع مناسبة ووضع

نصيب الرفاق الغائبين بعناية لينقل إلى نيفة وحفظ جزء منه ليطبخ لنا على العشاء، أما الباقي فقط قطع إلى أجزاء مناسبة وأودعت النار للشواء وبعد فترة وجيزة كانت معدة للأكل. لا أعتقد أنني كنت سأشارك، في الظروف العادية في تناول هذه الوجبة، ولكن لم تكن الظروف عادية وكنت أتضور جوعاً وعلى استعداد بأن ألتهم أي شيء مطبوخاً أو نيئاً، وشاركت في الوليمة بنهم، وكانت وجبة لذيذة بالفعل.

استغرقت هذه العملية كلها قرابة الساعة والربع واصلنا بعدها الرحلة ونحن مبتهجين. وسارت الأم المكلومة لوحدها دون راكب إذ ركب علي خلف ابن حميد. ولتفادي داء النفاخ، رُبط ذنب الناقة بالطريقة التي شرحناها سابقاً، وكانت المشيمة ما زالت تتدلى على جانبها وقد تترك حتى تسقط من نفسها أو تُنزع.

بدأت النباتات تظهر بكثرة لم نعهدها منذ أيام، وكانت تنمو بالذات على جانبي حاذ عنسلة من خط التقسيم الذي دخلنا فيه بعد معاودة الرحلة مباشرة. ووجدنا فيها نباتات العندب والعلقا الطرية تنمو بكثرة بجانب شجيرات الحاذ والعبل، وكانت جمالنا تقضم أوراقها وهي تسير ولكن بحذر شديد لأنها كانت تشعر بالاضطراب الناتج من العطش الشديد الذي يمنعهم من الأكل إلا خلال ساعات الليل الباردة. وكانت الجمال تمضي وهي تجر أرجلها عبر سهل ذي تموجات هينة وبني اللون ويمتد بعيداً إلى جهة اليسار بينما كانت سلسلة من الكثبان العالية تحجب أنظارنا من ناحية الجنوب.

وكنت أفكر أثناء السير بشجيرة الحاذ وكيف تكتسي بزيها الأخضر الربيعي الذي يضفي عليها جمالاً يجعلها من أجمل نباتات الصحراء. فلونها الأخضر الضارب إلى الرمادي وأغصانها التي تحمل حلقات من

الشوك، لها سحر يسر الناظرين. ياله من سحر يفعله الطعام حتى ولو كان قليلاً! فقد كنت أشعر قبل ٢٤ ساعة مضت بضعف ووهن من الجوع، أما الآن، وبعد تلك الوجبة، فأنا أشعر بقوة وبهجة؛ وكنت مازلت أحتفظ كذكرى فمي بعظم رخو ظللت ألوكه بعد ساعة من انتهاء تلك الوليمة.

كانت مجموعة من أربع أو خمس سلاسل كثبانية تقع بعيداً إلى اليمين عند الطرف الشمالي لحاذ القطا قالوا إنها «بني فزران». وكانت المنطقة التي نسير عبرها من نوع السواحب النموذجي وفي الساعة الثانية مساءً طلبت من الفرقة التوقف قليلاً لنتغلب على أسوأ ساعات الظهيرة، ولكن علياً أبدى اعتراضه الشديد على ذلك قائلاً: «انظر! أنا لا أعرف هذه المنطقة جيداً. ويمكن أن أتلمس طريقي أثناء النهار، أما بالليل، سأضل طريقي، ولا أستطيع أن أقودك إلى الماء في الظلام». ومع ذلك أصررت على التوقف لأنني كنت أعرف بأنه يكذب، ولم يعد هناك ماء لصنع القهوة ولذلك كان يتوق إلى الوصول إلى نيفة دون تأخير ليشربها هناك. وتحت شجيرة عبل نمت بعد أن نشرت عليها عباءتي.

وواصلنا سيرنا الساعة الرابعة مساءً بعد أداء الصلاة. ولمحنا بعض السحب في جهة الغرب، وبدأ الجو يبرد قليلاً بطريقة غير مألوفة. وكنت أركب ورأسي عار من الغطاء لأستمتع بالنسيم الذي كان يهب آنذاك. وغابت الشمس غير مأسوف عليها. فقد كنا نتوق إلى غيابها حتى يأتي الليل ومعه البرودة والسكون.

توقفنا لأداء الصلاة على قمة حيد كبير، وكنا قد قطعنا ما يقرب من ٣٠ ميلاً. وكنت أريد أن أترك ما تبقى لنا من الرحلة حتى الصباح، ولكن رفاقي كانوا يلحون في طلبهم بمواصلة السير، ولذلك واصلنا السير في غسق الليل

على طول الأودية الفسيحة وعبر الحيود الشديدة الانحدار حتى اجتزنا سلسلة عنسلة المألوفة حوالي الساعة السابعة مساءً. وكان علي يركب جمل زايد الذي بدوره كان يمتطي ناقتي ناعرية. هو الذي كان يقودنا قيادة العارف بالمكان مع أنه ادعى عدم معرفته به من قبل. وبدأ الإعياء يظهر على ناقتي التي بدأت تتأخر عن الركب ولم يعد يجدي حثي لها على السير.

واقترح البعض بأن أركب جملاً آخر وجدته بالفعل أسرع خطى، وكان يحمل من قبل الأدوات الخفيفة الضرورية التي أحتاج إليها. وفعلاً حدث تقدم في سيرنا ولكن كانت المسافة من عنسلة إلى نيفة ما زالت بعيدة. ودار نقاش بيننا حول ما إذا كنا قد ضللنا الطريق في الظلام أم لا. فقد قادنا علي مباشرة إلى ما يشبه حاجزاً جبلياً يصعب اختراقه. ولما صعدنا واجهته الحادة الانحدار إلى القمة كنت أتخوف من هبوط محفوف بالمخاطر من الناحية الأخرى، وكانت المفاجأة أنْ وجدنا تحتنا مباشرة نار المخيم وهي تشتعل في حضن منخفض نيفة نفسها. وكنا لحسن الحظ قد وصلنا القمة عند نقطة يبدأ عندها دهليز هين الانحدار يؤدي بين حائطين كبيرين إلى حيث توجد البئر. وفعلاً تفوق ابن جهامان على نفسه، وكان إحساسه بالصحراء ودروبها لا يقل عن إحساس كل العارفين بها. فقد كان شيئاً لا يصدق، شيئاً لا يمكن تفسيره. وقلت له، ورفاقي تلهج ألسنتهم بالشكر والثناء لله على سلامة الوصول، قلت بأنك لا تعرف طريقك في الظلام. فأجاب بأن الله هو الذي يقود وأن الجمال كانت لا محالة هالكة لو تأخرنا يوماً.

هرعنا في غير اتساق نحو نيفة والساعة تشير إلى ما بعد الحادية عشر ليلاً؛ وكنا قد قطعنا ٤٥ ميلاً خلال اليوم. وكان إنجازاً كبيراً لجمال لم تذق الماء كثيراً خلال تسعة أيام ولرجال أعياهم الجوع. وتلبدت السماء فجأة

بالغيوم من ناحية الشمال والشمال الشرقي ولمعت بروق تنذر بعاصفة بعيدة.

سألت زيداً وأنا أمر أمام مطبخه: هل لديك ماء؟ نعم، وها هو بارد كالثلج. وأفرغته في جوفي ببطء وتلذذ، وكان أول جرعة أتذوقها منذ ٥٥ يوماً، وملأت الكوب ثانياً وثالثاً وشربت حتى ارتويت تماماً وكان كالرحيق تماماً مع أنه هو ماء نيفة المالح الذي تركناه قبل أيام.

ولم يضع زيد وقتاً منذ وصول قافلة الأمتعة قبل ساعة من المغيب إذ جلسنا بعد قليل حول صحن كبير من الأرز نتغدى، وارتوت الجمال، ووضعت فراشي في العراء لأرتاح من عناء السفر المرهق. وهكذا انتهى الانسحاب الكبير بنجاح دون تكبد خسائر. ونحتاج الآن إلى وقت لنتعافى ونسترد قوتنا ونعيد تنظيم قواتنا قبل مواجهة آخر معركة في صراعنا مع الصحراء.

الفصل الثالث

التعافي واسترداد القوة

«سيطيب لك الأمر إذا كان جوادك طيباً، ويضعف الراكب الذي يمتطي جواداً ضعيفاً» فراج العرجاني

كان الليل عاصفاً وهائجاً، وكانت الريح تندفع بعنف بين حين وآخر عبر سريري في عصفات شديدة ومزعجة تجرف الرمال فوقه، ومع ذلك رحت في نوم عميق حتى الساعة الخامسة صباحاً عندما صحوت على أصوات قطرات خفيفة من المطر استمرت لربع ساعة من الزمن. واستلقيت على ظهري التقط القطرات بفمي، وعدت أغفو ثانية حتى صحوت على صوت الأذان. وفي الساعة الثامنة صباحاً جاءت زخة عنيفة لفترة قصيرة، ثم واصل المطر سقوطه ولكن كرذاذ متقطع لفترة ساعة أخرى. وظلت السماء ملبدة بالغيوم طوال اليوم، ولكن دون مطر، وإن هبت علينا حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً ريح شديدة، مصحوبة ببعض الأمطار ومندفعة إلى المنخفض من جهة الشمال الشرقي، واقتلعت الخيام التي تركناها كما هي ملقاة على الأرض حتى تسكن الريح وتهدأ. وعند الظهر سكنت الرياح تماماً وإن ظلت السماء ملبدة بالغيوم، وحل محلها نسيم عليل رطب يومئ أيضاً بالأمطار. فقد كان الثاني من مارس يوماً مباركاً. وكان الرفاق جذلين مبتهجين وقضوا اليوم يترددون إلى قمم الكثبان القريبة ومن هناك يصيحون بأعلى أصواتهم ينقلون إلينا أخبار الطقس من حولنا. وكانت الأمطار في

البداية تقتصر على الأجزاء الشمالية ثم بدأت تتحرك إلى جهة الجنوب الغربي الذي بدت تظهر منه لمعات متكررة من البرق تبعتها زمجرة رعد بعيد. أما الجهات الغربية والشمالية الغربية، والتي تهمنا، فلم يبد منها ما يدل على سقوط مطر. وانتظرت بشوق مشوب بالقلق لأي مؤشر عن مزاج رفاقي ولم أطرح أي سؤال إيحائي عن أحوال الطقس في الجهات الغربية، ومرت عليّ لحظة حرجة عندما دار حديث عن بئر فاضل، ولكنني آثرت أن أبقى صامتاً.

كان من المحتم أن يتجه اهتمامنا بعد الصلاة مباشرة إلى الجمال التي قضت الليل تشرب الماء باحتراس بعد معاناتها من العطش الطويل، وها هي الآن تقاد إلى البئر لتشرب مرة أخرى حتى ترتوي. وكانت تصحب هذه العملية جلبة وصخب من قبل رفاقي أمام البئر التي تزاحمت الجمال حولها وهي تتصارع في الحصول على الماء من الوعاء الوحيد الذي كان الرجال يحاولون الاحتفاظ به مليئاً بالماء على الدوام حتى ترتوي الجمال. وبعد أن ارتوت ظلت واقفة أمام البئر لتعود من حين لآخر للوعاء لجرعة أخرى حتى ارتوت تماماً، وبعدها انتشرت في المنخفض تجول بين شجيرات العبل تأكل منها، بينما جلس الراعيان، علي البحيحي ومحيميد، يتناولان الفطور ويجمعان المؤن الضرورية التي يحتاجون إليها خلال الأيام الثلاثة التي سيقضونها في المراعي الواقعة ما بعد عنسلة، حيث قرر الرجال إرسال الجمال إليها لتستعيد نشاطها وتتعافى من الإعياء والحرمان اللذين عانت منهما وتستعد للمحنة التي تنتظرنا فيما بعد.

وكان أمامنا مسألة أخرى مهمة يجب مناقشتها واتخاذ قرارات حولها.

وفيما يتعلق بالمؤن، فقد كان مخزوننا من الأرز جيداً، في حين نفد ما لدينا من تمر إلا الكيسين اللذين بحوزتي لاستهلاكي الشخصي، والذي خصصته للفرقة التي سترافقني في رحلتي عبر الصحراء القاحلة، كما لا نستطيع أن نأخذ معنا الأرز؛ لأن طبخه يحتاج إلى الماء الذي نريد ادخاره لأغراض أكثر أهمية. ولكننا أيضاً لا يمكن أن يقتصر أكلنا على التمر لأنه لا يكفي كغذاء بمفرده، كما أن قافلة الأمتعة لا يمكن أن تستغني عن الأرز بديلاً كغذاء. أما اللحم فيعد إضافة هامة للغذاء، وهناك مصدران للحصول عليه: الصيد. وهذا لا يمكن الاعتماد عليه من واقع تجربتنا الأخيرة في الصحراء، ولكن إذا ذبحنا جملاً فسيزودنا ذلك بما يكفي من لحم لأيام عديدة. وكنا قد اتفقنا بأن نحتفل بوصولنا سالمين إلى نيفة بذبح جمل كان قد تم اختياره مسبقاً، وهو أحد ضحايا الانهيار. جمل مكتنز لحماً لا قوة. وها قد آن الوقت لتفعيل ما خططنا له، وبعد أن ارتوت الجمال اقترحت أن نعزل الضحية المزمع ذبحها عن بقية القطيع التي ستقاد إلى المراعي. ولكنني لاحظت تردداً من قبل رفاقي الذين كانوا يرغبون في تناول اللحم فوراً ودون تأخير. وكانوا ينتظرون موافقة زايد على ذلك. ألم نترك جملاً في وبار يموت بدلاً من ذبحه والاستفادة من لحمه عندما منعه العرج من مواصلة السير؟ فإن ابن جلوي لم يكن ليعترض على ذلك، ولكن المعروف أنه أيضاً كان قاسياً حتى مع أتباعه الأوفياء الذين يقومون بذبح أحد جماله لإشباع نهمهم للحم وهم في حملة رسمية.

ولم يكن زايد على استعداد ليقول كلمته المصيرية حول هذا الموضوع الذي ظل معلقاً إلى حين. وحاولت جاهداً أن أستغل نفوذي في تأمين اللحم

للرفاق وذهبت إلى حد إصدار أوامري إلى أبي جعشة للقيام بالمهمة . ولكنه تخاذل ، مما استدعى مناقشة الأمر مع زايد الذي أكدت له مسؤوليتي التامة عن هذا العمل . وبدأ زايد يتراخى قليلاً قليلاً من معارضته للفكرة حتى وافق عليها ، وهرع أبو جعشة وقاد الضحية إلى مخيم المطبخ ، وبعد قليل رأينا الدم الأحمر ينساب فوق الرمل وسط أصوات الابتهاج والتهليل . وتم سلخ الجمل في دقائق وأرسلت قطعة من اللحم للرعاة الذين أسرعوا بها مع بقية القطيع إلى حيث المراعي ، وانصرف الباقون إلى أمور الطبخ والجزارة . ثم تناولت بعض الشواء الذي أُعد بسرعة ، ولكنني احتفظت بكل شهيتي للطعام الذي كان زايد قد شرع في إعداده . أما رفاقي فقد قضوا اليوم يطبخون ويأكلون قطعاً مختارة من اللحم ، في حين نال الكلب السلوقي (العقفا) نصيبه الكامل من اللحم وراح يمشي بتثاقل نحو قدح ماء وارتمى باسترخاء على الأرض يلعق السائل وعلامات الرضا والشبع بادية على هيئته .

وكنا نتناول وجبتين من لحم الجمل والأرز يومياً . وبدأنا نسترد قوتنا التي تبددت بالجوع طوال الأيام السابقة ، ولم يصيبنا أي سوء من الانغماس في تناول اللحم لما في ماء نيفة من مزايا تقوّم من أعراض سوء الهضم .

اتخذت قراراً بعد حفلة الطعام الصاخبة بأن أشرب الماء دون قيد طوال مدة إقامتي في نيفة ، وخاصة بأنه لم يعد هناك شاي أشربه ، ثم أعود إلى حميتي الأولى -عدم شرب الماء- ، مباشرة بعد بدء الرحلة عبر الصحراء . والتزمت بهذا البرنامج ، وربما لذلك زاد وزني كثيراً عندما وصلت مكة . وكانت مياه نيفة غير مستساغة ومرهقة ، فقد كان مذاقها مالحاً . وقمت بتجربة إضافة ملح الفواكة -إينو- إلى الماء عند الشرب ، وكانت تجربة

ناجحة إذ أضفى على الماء طعماً حالياً أعجب بعض رفاقي الذين استهوتهم أيضاً ما يصدر من فقاقيع عند إضافة ملح إينو، فماء نيفة ماء مليِّن قوي من نوع ملح إبسوم ويمكن قياس فعاليته بما حدث لقرب الماء التي حملنا فيها الماء إذ كانت متآكلة بفعل الملح الذي يحتويه. وقد يكون مفعوله على لحم الجمل القوي الذي التهمناه مماثلاً إذ إن كثرة تردد الرفاق إلى الخلاء أصبحت دعابة يتندرون بها. كم كانوا يكرهون ذلك الماء وآثاره التي لا ترحم!

وكنت الوحيد الذي أصرّ على إبراز مزاياه الصحية، وأشرح لهم بأن هناك من أثرياء بلدي الكثير الذين هم على استعداد لإنفاق مبالغ طائلة ليكونوا حيث أنتم الآن لو فقط تدركون أهمية هذه المياه. وعندما سألني ابن سعود في مكة عن ما إذا وجدنا شيئاً ذا دلالة أو أهمية عملية في الصحراء أخبرته بأن في نيفة -وربما في كل أجزاء خيران- تتوفر كل إمكانات منتجع صحي جذاب إذا أراد تطويرها، مثل إيفيان Evian في فرنسا، والتي يمكن أن تقرأ بالعكس، مع اختلاف بسيط، لاسم نيفة Naifa. وقد تم تحليل عينة من الماء لاحقاً في معمل أبحاث شركة الزيت الإنجليزية - الفارسية في مدينة صَنْبري على نهر التايمز في إنجلترا ووجدتها تحتوي نسبة عالية من الأملاح الذائبة[1]،

---

(١) نتائج التحليل بالتفصيل حسب إجرائه في ٦ أغسطس ١٩٣٢:

مجموع المواد الصلبة مجففة بدرجة ١١٠ْ ٨٦١ نقطة/ ١٠٠،٠٠٠

الكلسيوم	٦١،٥ » / »
المغنسيوم	٢٠,٤ » / »
الصوديوم	١٧٠ » / »
كبريتات	٢٧٤ » / »
الكلوريد	٢٠٩ » / »
كربونات	١٩ » / »
ثاني كربونات	خالٍ

نحصي منها أملاح الكلورايد وسلفات الصوديوم والكالسيوم والماغنيزيوم. وكتب دكتور ج. م. ليز لي يقول: «لا غرابة أن للماء ذلك المفعول الذي وصفته. . وقد بحثت في تحاليل مياه مدن أوربية متنوعة، ووجدت أنها لا تتطابق مع ماء نيفة لأن ما يحتويه من أملاح الكلورايد أكثر مما هو متاح في مياه الشرب في أوربا؛ إنه مثل مياه بادن التي تحوي أملاحاً عادية إضافية ونسبة أقل من السلفات، وربما يأتي هذا الماء من صخور غنية بالجص وسلفات الماغنيزيوم وملح الطعام».

بعد أن وضعنا كمية اللحم التي سنحتاج إليها فيما بعد جانباً، لم ينس رفاقي ما سنحتاج إليه مستقبلاً. فقد أثبتت التجارب السابقة أن تمليح اللحم لحفظه يسبب صعوبة إذا لم يتوفر الماء بكمية كافية يطفئ الظمأ الذي يترتب على أكلة. ولهذا تم الاتفاق على تقديد اللحم الإضافي وتجفيفه في الشمس والرياح دون استخدام الملح. ووفقاً لذلك، تم تقطيع اللحم إلى شرائح خفيفة ونشرها على أجمة عبل مناسبة لتجف في العراء، ولفترة ما كانت الرائحة المنتنه في المخيم وحوله فظيعة، ولكن كان رفاقنا حريصين على إزالة الأجزاء الفاسدة أولاً بأول.

وبعد نهاية إقامتنا تجمعت لدينا كتلة من اللحم المقدد جيداً والتي تم توزيعها بين الفريقين اللذين سيتجهان لوجهتين مختلفتين. وكان اللحم المقدد يشبه قديد اللحم -الذي يستخدم في أفريقيا الجنوبية- الذي لم أره وأتذوقه في حياتي. وعملية التقديد معروفة تماماً لدى صيادي الوضيحي والغزلان في هذه الصحراء. اتخذ زوجان من الغربان مكانهما فوق الكثبان ويحلقان أحياناً فوق شجيرات العبل التي تحمل اللحم ولكنهما لم يتجرأا

على الاقتراب منها، وسبب الاحتراس أن أحداً من الغربان فقد رجله عندما أصابته رصاصة من بندقية زايد. أما الكائن الآخر باستثناء أنفسنا فكان الطائر الأبلق الذي كان يتردد كثيراً على الماء حول البئر، وكانت سقسقته الجميلة -وخاصة خلال ساعات الصباح الباكر- تشنف أذني. ولم ينقطع صيادونا من تفتيش الصحراء بحثاً عن الأرانب ولكن دون جدوى، مع أن الراعيين قد أمسكا بزوجين منها وهما يرعيان الإبل حول عنسلة.

بعد أن أدينا ما علينا من مهام رئيسة -بما فيها الوجبة الجيدة- قررت بأن آخذ حماماً كما فعل رفاقي، وكانت صينية الأكل تستخدم أيضاً للاغتسال، وقام زايد يسحب الماء من عمق عشرة أقدام وصبه على جسدي مرات حتى اكتفيت تماماً. وكان الماء فاتراً وقد استمتعت بأول حمام حقيقي منذ أن غادرنا الأحساء، كما لم أبدل ملابسي طيلة تلك الأسابيع حتى تخيل إلي أن جسمي قد امتلأ بما كنت أخشى منه ويعاني منه رفاقي وجمالهم. ولذلك قررت أن أبدل كل ملابسي بعد الحمام، وثبت ما كنت أخاف منه عندما فحصت ملابسي الداخلية، ولذلك قررت بأن لا أهمل نفسي مرة أخرى.

وهكذا انتهى يومي الأول في نيفة كان كل شيء يبشر بخير، فقد بدأ توتر الأيام السابقة يفسح الطريق لجو من القناعة وحسن النية، وكانت استجابة أجسامنا للطعام الجيد بعد أن أنهكها الجوع والعطش جيداً، وأويت إلى الفراش مبكراً في تلك الليلة وشعور التفاؤل والعافية ينتابني. ولأول مرة منذ أن بدأت الحملة أشعر بأن نجوم الحظ بدأت تنصاع إلى جانبي، ودعوت الله بأن تتواصل الظروف العاصفة لأيام مقبلة.

واستجاب الله لدعائي إذ استيقظت الساعة الثانية صباحاً على قطرات

المطر تسقط على سقف خيمتي وتستمر لنصف ساعة وتنتهي بزخة قصيرة عنيفة نمت بعدها نوماً خفيفاً ولمعان البرق يضيىء السماء التي بدت ملبدة بالغيوم. وعند الظهيرة كانت درجة الحرارة قد وصلت ٨٤ْ ف لترتفع بعد ذلك إلى ٨٨ْ ف ثم لتنخفض ثانية إلى ٧٠ْ ف خلال الليل. وكانت أدنى درجات حرارة في الصحراء أقل من هذه بكثير وتتراوح ما بين ٦٠ْ و ٦٣ْ ف خلال الأيام القليلة السابقة.

قام صالح الذي لم يكف أبداً عن إسعادي، بإعداد الشاي من العبل بعد صلاة الفجر، ووجدت أنه قد لطّف كثيراً من قسوة الماء. وأخذت حماماً آخر عند الظهر، ولكن سرعان ما أصبحت الحرارة لا تطاق. فقد وجدت المشي فوق الرمل عاري القدمين مؤلماً، وسجل جهاز قياس الحرارة الذي بخيمتي ٩٧ْ ف عند الساعة الثالثة مساءً. وظهرت الشمس ساطعة بعد عاصفة الصباح وتحول المنخفض إلى ما يشبه الفرن مما أحدث إحباطاً لدى الرفاق الذين بدؤوا يتحدثون من جديد عن انسحاب سريع نحو الشمال. وجاءني سعدان يحمل اقتراحاً من زايد قاله في معرض حديث دار بينهم حول النار بأن أعطيهم ضماناً مكتوباً بالعفو والأمان في حالة هلاكي في الصحراء! ولم يكن قبول شرط كهذا مع رفاق كهؤلاء ممكناً -بل مستحيلاً- بالنسبة لي. ولكن الأمر لم يثر اهتمامي البتة. وعندما جلست أتناول القهوة معهم بعد صلاة العصر، اغتنمت الفرصة لأثير نقاشاً حول خططنا المستقبلية.

قلت لهم: «كما تعلمون أنه في بداية رحلتنا هذه كنا نتوقع إنهاء الحملة معاً كي نصل إلى مكة في الوقت المناسب لأداء الحج، ولا يزال هناك متسع من الوقت لأولئك الذين سيذهبون معي عبر الصحراء إلى السليل للوفاء

بذلك الالتزام». ولكننا اتفقنا بأن قافلة الأمتعة لا يمكنها أن ترافقنا -في هذه الرحلة عبر الصحراء- ولكني آمل بأن نذهب عبر طريق بئر فاضل ومقينمة لتقابلنا في وادي الدواسر، ولكن لا وقت لذلك. ولهذا أقترح الآن بأن تتجه قافلة الأمتعة مباشرة إلى الرياض وسأرسل خطاباً معهم للأمير سعود أسأله بأن يرسل أولئك الذين يريدون أداء الحج مباشرة إلى مكة بالسيارات، بينما يمكن لأولئك الذين يرغبون في اللحاق بعوائلهم أن يتجهوا إلى الأحساء بجمالهم.

وكنت قد طرحت هذه الفكرة على اثنين من رفاقي كانا معي عند البئر، ووافقا عليها تماماً وكان واضحاً أنهم نقلا الفكرة إلى رفاقهم دون تأخير. وقد اندهشت على الموافقة الجماعية للمشروع عندما أعلنت عنه؛ ولم يرد أي ذكر للضمان المكتوب أو شروط أخرى فيما يتعلق برحلة الصحراء. وتمكنت في حينه أن أدون أسماءهم في الفرق الثلاثة التي تصورتها في اقتراحي. وكنت أنا وزايد قد اتفقنا على أن تتكون فرقة الصحراء من تسعة أشخاص بما فيهم أنا. ولم يواجه تكوين هذه الفرقة أية صعوبة لأنني أبديت رغبتي الصريحة في إبعاد كل من علي وفراج منها. وإذا استثنينا الراعيين لغيابهما مع الجمال، بقي معنا ثمانية أشخاص لنتخلص منهم. وكان من هؤلاء ثلاثة يريدون الذهاب إلى مكة عن طريق الرياض، بينما لم يعبر الباقون عن أية رغبة أخرى غير العودة في أقرب فرصة ممكنة إلى ذويهم وعوائلهم.

وتركنا الأمر عند هذا الحد مؤقتاً، وكنت في غاية السعادة لعودة الانسجام والتوافق الفعلي بيننا مرة أخرى. فقد حلمت الليلة الماضية بأنني رأيت ابن سعود العظيم يقف بجانبي وهو منزعج لما أصابني من قنوط وإحباط

ويقول: «ما بك؟ ماذا فعلت بك الدنيا حتى أراك محبطاً هكذا؟ لا تفكر في ما يشغلك، فسأقوّمه لك». ويبدو أن هذا التآلف الجديد بيننا، بالإضافة إلى قرار محدد وواضح في صالح محاولة اختراق الصحراء، كان من نتائج تلك الرؤيا.

أحدثت ظروف الطقس المتغيرة والأمطار والرياح العاصفة أثراً ملحوظاً في رمال نيفة المغردة، التي بقيت صامتة طيلة فترة إقامتنا الوجيزة باستثناء لحظة عابرة في الساعة الرابعة مساءً في اليوم الثالث من مارس عندما سمعت العزف المألوف. وحسبما أستطيع أن أؤكد فإن بداية الحفلة الموسيقية تعود إلى أسباب طبيعية، لأن أحداً من رجالنا لم يكن حينذاك على أو بالقرب من المنحدر، ولكن الموسيقى لم تستمر إلا خمس ثوان فقط. ولم يأت إرسال سعدان إلى قمة الحيد بنتيجة، مما يومئ بأن الظروف لم تكن مواتية أو مناسبة وإنه -رغم ارتفاع درجة الحرارة آنذاك- يبدو لي أن كمية الرطوبة التي امتصتها الرمال من الأمطار الحديثة كانت سبباً للصمت الذي ران على المنحدر هذه المرة. ولكن أبو جعشة كان له رأي آخر، إذ يرى أن الجن كانوا غاضبين بسبب المرح الصاخب وغير المحتشم الذي أبديناه أثناء عرضهم «أي الجن» الموسيقي احتفاءً بزيارتنا لديارهم، ولهذا فإنهم يعاقبوننا بهذه الرياح الشديدة والعاصفة المصحوبة بالمطر بدلاً من الموسيقى العذبة الساحرة.

استمرت العاصفة تهب طوال الليل مصحوبة بالبرق من جهة الشمال والشمال الغربي. وصحونا صباح اليوم التالي على جو صحو جميل مع سحب خفيفة مرتفعة تتحرك بطيئاً نحو الشمال. ولكن وبعد فترة هبت علينا الرياح الشمالية في عصفات عنيفة أخذت تكنس المنخفض في دوامات من الرمال المتحركة التي أخذت تهدد باقتلاع المخيم وكادت أن تدفن مخزوننا

من اللحم المرصوص في المطبخ، ولم يعد الوضع مريحاً في المخيم تحت رحمة هذه الزوابع العنيفة. ولكن السماء كانت ملبدة بالغيوم والشمس تطل من حين لآخر بين فجوات السحاب، ولهذا كان الجو أبرد كثيراً من ظهر اليوم السابق، وكنت سعيداً بأن أرى أن المطر كان يتركز بعيداً في جهة الغرب على نفس الخط الذي سنتبعه قريباً.

عدت بعد الظهر إلى مكان البئر لآخذ حماماً وأتهرب أيضاً من فساد الهواء في خيمتي الذي تفاقم بسبب رفاقي الذين أخذوا يتجمعون عندي بانتظام للمؤانسة والاستئناس إثر روح المزاح التي أبديتها مؤخراً، والذي قد يتمخض عن توزيع آخر للجوائز مع أنني قررت أن لا أمنح أحداً جائزة إلا إذا كان يستحقها فعلاً. أما فريق قافلة الأمتعة فسينالون استحقاقاتهم في الرياض بعد تسليم كل الصناديق والطرود الملحقة في خطابي المرسل إلى ولي العهد سالمة. وكنت أتوقع مسار الأحداث بعد ذلك إلى الحد الذي أستطيع القول بأنها وصلت سالمة وكاملة إلى مكة. وقد نال الرجال المعنيون النقود التي أشرت إليها في خطابي بينما كوفئ الذين رافقوني في حملتي بعد نهاية الرحلة.

سقطت بعض قطرات المطر وأنا أستحم. وفي الساعة الخامسة مساء اندفعت عاصفة عنيفة تجاهنا من جهة الشمال الشرقي واستمرت لأربع ساعات. وقد ملأت الزوبعة منخفض نيفة بدوامات من السحب الرملية، وانهارت خيمة رفاقي على رؤوسهم وتلتها خيمتي وأنا أحاول الإمساك بأي شيء حتى لا تجرفني الريح، وانكسرت إحدى الأوعية الزجاجية التي جمعت فيها عيناتي، وزحفنا كلنا من تحت الخيام المنهارة وبقينا في العراء تحت رحمة ذرات الرمال اللاسعة. وكنا نجد صعوبة في الوقوف بثبات أثناء

أداء الصلاة. وتناولنا طعام العشاء تحت ظروف لا تخطر على بال أحد، ولا أدري كيف تمكن زيد وابن مسيند من إعداد طعام خال إلى حدٍ كبير من الرمال المخلوطة.

خرجت قبل المغيب إلى الصحراء لألقي نظرة على ما حولنا. وكان المنظر الذي شاهدته مدهشاً للغاية. كانت سحب سوداء من الرمل تتسابق خلف ريح هوجاء على طول القمم التي تحيط بنا مثل سرايا الخيالة، بينما كانت أعلام سوداء تتموج في أعالي الكثبان مثل أعلام سوداء ترفرف في سطح أرضية الصحراء وكأنها كنست بثلوج متدفقة ولوح وراء لوح من الرمال البيضاء تتسابق مثل أمواج متتالية من الفرسان المهاجمين.

كان منظراً لا ينسى: منظر الصحراء وهي في مزاج عاصف مع هزيم الرعد القادم من بعيد ولمعان البرق الذي يخطف الأبصار وهو يمزق السحب المكفهرة. سكنت العاصفة فجأة كما بدأت فجأة ولكن السماء ظلت ملبدة بالغيوم. كان عليّ أن أنتظر حتى الفجر لكي أجري الرصد الفلكي الضروري التي انتظرته على مضض طيلة الأيام السابقة. ولكنني لم أتمكن بعد ذلك إلا من رصد نجمة واحدة وهي السنبلة، وأوقف ضوء النهار المتنامي رصدي لنجم النسر الطائر.

وهكذا بزغ فجر اليوم الموعود -الخامس من مارس، اليوم الذي حددناه لتدشين رحلتنا مرة أخرى إلى الصحراء الجرداء مهما كانت النتيجة. وصلت الجمال من المرعى خلال الصباح حسب الخطة، وعكف زايد ورفاقه طول اليوم على القيام بالاستعدادات الضرورية. فقرب الماء تحتاج إلى ترقيع وتدهين ثم ملئها بالماء: ٢٢ قربة وثلاثة براميل سعة ٥ جالونات (التي حملنا

فيها الزيت المخصص للإضاءة) لفرقة الصحراء، بينما خصصت العشرة الباقية لقافلة الأمتعة التي ستسلك طريقاً تكثر به الآبار. وكان لابد من تقسيم ما تبقى من المؤن والجمال: ١٥ جملاً ستذهب معنا و١٤ جملاً ستعود مع قافلة الأمتعة. أما الكلب السلوقي فكان من نصيبنا؛ وما عدا ذلك لم يكن ترتيب الفريقين قد تحدد نهائيّاً حتى اللحظة الأخيرة. توسل محيميد- أصغر الرعاة- أن يُسمح له بالذهاب إلى مكة معنا عبر الصحراء. وشعرت باطمئنان عندما وجدت أن أحداً من الذين سجلوا معنا من قبل لم يكن راغباً في الانسحاب، بل إن عدداً من الآخرين تطوعوا، بل توسلوا للانضمام إلى فرقتنا. وكان فراج أكثر الذين رفضت انضمامه إلينا؛ أما حسن خر الذيب فقد قررت ضمَّه مع محيميد إلى فريقنا، وهكذا ارتفع عدد فرقتنا إلى أحد عشر شخصاً. أما الباقون فقد كان أمامهم أن يقرروا بين مزايا الذهاب إلى مكة أو إلى ذويهم في الأحساء. وقرر فراج في النهاية ومعه علي بن جهامان ومحيميد بأن يتجهوا إلى الأحساء. وهكذا حُسم الأمر وكتبت خطاباً بذلك للأمير سعود ورُشح عبد الرحمن بأن يحمل الخطاب إلى سموه.

كرست ما تبقى من وقت في تعبئة كل شيء سيرسل إلى الرياض. أما بالنسبة لرحلة الصحراء فكان لابد من أن أحصر المعدات التي أحتاج إليها في أشياء لم أستطع تحديد أيهما أرسل للرياض وأيهما أحتفظ بها معي. وكان علي أن أفكر في ذلك مليّاً. ففي وجه الحوادث -وهي كثيرة في الصحراء- كان عليّ أن أرسل الخرائط وكذلك الكتب التي دونت فيها ملاحظاتي ومذكراتي الأساسية على أساس أن لا تضيع هذه الأشياء وتصل

إلى المهتمين بهذا الموضوع في حالة فشلنا في عبور الصحراء. ولهذا قمت بتدوين مذكراتي حتى آخر ما حدث قبل أن أودعها أحد الصناديق العائدة إلى الرياض. وقضيت أكتب لآخر لحظة رغم تدفق أولئك الذين سيرافقون الفرقة العائدة للاستفسار عن استحقاقاتهم وهل ستتأثر لأنهم تركوا خدمتي في هذه الرحلة. وكان فراج وعلي بن جهامان أكثر أفراد الفرقة إلحاحاً في ذلك قال علي: «يا شيخ عبد الله أنت تعلم كم أود أن أرافقك في رحلتك عبر الصحراء، ولكن قافلة الأمتعة تحتاج إلى دليل وأنا أعرف المنطقة التي ستمر بها أكثر من الآخرين، ولا أعرف شيئاً عن الصحراء من هنا إلى السليل ولكن أنا تحت خدمتك، أذهب معك حيث تريد. وكما تدري أن المؤن التي خصصتها لنا غير كافية، فهل نطمع في أن تعطينا نقوداً لنبتاع بها المؤن في طريقنا؟» فأجبته باحتشام: «وأين في الصحراء ستجد المؤن لتبتاعها؟» فأجاب علي: «سنبتاع ما نريده عندما نصل إلى الخرج». فقلت له: «ما عليك، عندما تصل إلى الخرج ستكون على مسيرة يوم واحد من الرياض». فتراجع علي دون خجل ليعود ويعبّر عن أمله في أن أكون مجزياً معه في المكافأة بصفته الدليل والمرشد. فأجبته بأنه هو والآخرين سيعرفون المكافأة التي خصصتها لكل منهم عند وصولهم للرياض. وحصل كل فرد منهم نفس ما حصل عليه الآخر.

وقبل مغيب الشمس، كان كل شيء معداً للرحلة. فقد ارتوت الجمال تماماً بعد قضاء فترة في المراعي، ودعينا جميعاً إلى العشاء الأخير المكون من الأرز ولحم الجمل بعد الساعة الخامسة مساءً مباشرة، وبدأ بعده تحميل

الجمال . وبدأت قافلة الأمتعة رحلتها بعد نصف ساعة في اتجاه الشمال الشرقي . وتسكع فراج وعلي بن جهامان قليلاً حول موقد القهوة حيث تجمع جميعنا لتناول القهوة قبل مباشرة الرحلة الطويلة . وعندما قاما لمتابعة آثار أقدام قافلة الأمتعة ، صافحني علي قائلاً : «اعف عنا تقصيرنا» . فأجبته : «ليس هناك ما يعفى عنه ، بل أشكرك على خدماتك ، في حفظ الله» . وهكذا افترقنا مع ثمانية من رفاقنا الذين صاحبونا في السراء والضراء طوال شهرين في الصحراء . كم هو شجاع وقوي وحميم العربي عند الوداع . إنه يودعك بكلمات رقيقة ثم يمشي بخطى واسعة تجاه الصحراء ويمضي في سبيله . . دون أن يلتفت أبداً إلى الوراء ! .



الفصل الرابع

الصحراء الجافة

«هي الربع الخالي، لا أحد يذهب إلى هناك، حيث لا يوجد ماء» سويِّد العزمة

كانت رمال نيفة تتراجع خلفنا في الغسق ونحن نسير صوب الشمال الغربي تجاه عدرج، في جمع يتكون من أحد عشر رجلاً على خمسة عشر جملاً وكلب. وكانت الجمال تتزين بقرب الماء وأكاليل من اللحم المقدد الذي تنبعث منه رائحة جميلة تعبق بهواء الليل البارد.

كانت السحب قد بدأت تتجمع فوقنا عندما بدأنا أولى خطواتنا نحو المغامرة الكبرى. وكان كل شيء يومئ بفأل حسن. فقد كنا جميعنا رجالاً وجمالاً في أحسن حالاتنا الصحية، وكان ضباب يكسو الكثبان الرملية في غلالة رقيقة، ورذاذ خفيف من المطر يروِّح عنا بين فترات فاصلة ونحن نتوجه للصحراء في الظلام الذي كان يلف كل شيء في صمت رهيب، لا يتبين فيه إلا صور رفاقنا الظلّيّة وهم يسيرون في صمت مطبق. وهكذا كان الحال خلال خمس ساعات من السير عبر نجود ووهاد منطقة نيفة وعنسلة المألوفة لنا الآن، حتى قدمنا إلى سلسلة رملية كبيرة في حدود عدرج حيث توقفنا للمبيت، والجوزاء تطل علينا من الأفق الغربي. وأحدثت حادثة وحيدة بعض الاضطراب خلال الرحلة عندما وجدنا الكلب مفقوداً. ويبدو أنه افتقد صديقه الطباخ ورجع إلى نيفة يبحث عنه. وكنا قد بدأنا نفقد الأمل

في العثور عليه، واعتبرناه في عداد الموتى، عندما وجدناه يأتي جارياً إلى المخيم بعد وصولنا مباشرة. ولما لم يجد أحداً في المخيم المهجور جاء عائداً يقتفي آثار أقدامنا مما ينم عن ذكاء الكلب الصحراوي.

عانينا بعض الشيء من الظلام ونحن نحاول التغلب على حيود السواحب العالية. ولكن هبوب نسيم شمالي مصحوب برذاذ خفيف من المطر بعث نشاطاً فينا ونحن نسير عاريي الرؤوس. ومع ذلك وصلنا إلى المخيم والإعياء بادٍ علينا. وأعد لنا أبو جعشة مشكوراً قدراً كبيراً من الأرز كان قد ادخره من عشاء الليلة الماضية، وجلسنا نأكله مع اللحم المقدد المشوي في النار، كما حصلنا على حليب وفير من النوق بعد أن اقتاتت جيداً في تلك المراعي الجيدة، ثم ختمنا العشاء كالعادة بتناول القهوة قبل أن نهيئ أنفسنا للنوم. فقد كانت بداية طيبة من كل النواحي.

نمنا في العراء لأن الخيام كانت قد أرسلت مع قافلة العفش. وعندما صحونا عند الفجر كانت الأرض مبللة بالندى كما حدث في نيفة الليلة الماضية، وكان نسيم بارد يهب بهدوء -ولكن بتواصل- عبر الصحراء بينما سحب خفيفة تغطي معظم السماء. وبدأنا نتحرك استعداداً للرحلة، وقضينا وقتاً أطول حول النار نحتسي القهوة. وكانت تلك الحركة مفيدة لأوصالنا. وفي الساعة السادسة والنصف صباحاً بدأنا السير ملاصقين للحافة الجنوبية للحيد الرملي حتى وصلنا ممراً منخفضاً تمكنّا من خلاله أن نعبر الحيد ونواصل سيرنا في اتجاه غرب الشمال الغربي.

كانت النباتات وفيرة في هذه النواحي ومتنوعة[1]. وكانت الجمال تقضم

(١) تشمل الحاذ والعبل والعندب وبركان - تقريباً كل نباتات الرمال الجنوبية ما عدا الزهر.

النبات كما تشاء أثناء سيرها، ولذلك كان السير بطيئاً آثرت حياله أن ألتزم الصمت. وكانت ناقتي هي الناعرية، بطلة الولادة في الصحراء، أفضل الجمال كلها، قوية وسريعة وإن كانت خشنة بعض الشيء. وكان علي بن جهامان كارهاً لفراقه لها، ولكن حاجتنا إليها كانت قوية بما يكفي لتطغى على العواطف والأولويات الشخصية. فقد عدّيتُ الناعرية جموحة وصعبة المراس بالنسبة لي قبل شهرين، ولكنها الآن -بعد هذه الرحلة الطويلة في الصحراء- قد أصبحت وديعة وسهلة الانقياد مع وجوب بعض الحصافة والحرص عند الركوب الذي كنت أحرص على أدائه دون مساعدة حتى أصبحت ماهراً في ذلك. أما مركوبي الأصلي -البحرانية- فقد كان من نصيب زايد وكانت جيدة وإن كانت بطيئة الحركة نسبيّاً. وكان زايد هو سيد الجمال والخبير فيها، وكان في وسعه الاستفادة منها دون جهد يذكر كما كنت أفعل سابقاً.

تركنا قمة عدرج البارزة على بعد ثلاثة أميال إلى شمالنا، وانطلقنا عبر التلال المتموجة التي أصبحت وبشكل محسوس أكثر عرياً من النبات كلما سرنا قدماً. وكان الجو البارد والرطب والسماء الملبدة بالغيوم هو كل ما نريد ونصبو له في مثل هذه الظروف. وكان الكلب السلوقي (العقفا) يجري أحياناً وراء أثر أرنب، ويبدو أنه -كما يرى العرب- يعتمد على النظر أكثر من اعتماده على حاسة الشم، وإن كانت حاسة الشم تؤدي دوراً في نشاطاته كما يظهر في التقاطه لأي طعام يلقى له في الظلام. كانت الرياح الشمالية التي سادت بعد التغيير الذي طرأ على الطقس مؤخراً قد بدأت تترك صفوفاً من ذيول الرمال وراء باقات الأعشاب ودغل الشجيرات، وإن كنا نجد بعضاً من هذه الذيول في أماكن أخرى إلى جهة الغرب.

وكان سالم الذي بدا سعيداً بوظيفته الجديدة كدليل وحيد للحملة يرافقني في المقدمة. وكان جمله الضخم والثقيل الخطى يحمل قربتين من الماء تتدلى عليهما هوابط من اللحم المقدد الذي كان يتناوله بين حين وآخر وهو يقول: «إنه جيد، خذ قطعة منه وتذوقه وسترى كم هو لذيذ» فطلبت منه بأن يعطيني قطعة صغيرة من تلك التي كان يحملها، ولما أكلته وجدته لذيذ المذاق. وقويّاً بعض الشيء، وإن لم يكن فاتحاً للشهية، ولكنه يكفي لدرء الضعف الذي ينجم عن الجوع. وكان سالم وسويد اللذان ينتميان إلى نفس العشيرة يدخران للمستقبل مخزوناً مشاعاً من اللحم المقدد، ويتقاسمان محتوى أربع قرب من الماء كانا يحملانها معهما. وكان يتعين على أحد أن لا يشرب دون مشورة الآخر ودَعْوته لتناول نفس الشيء الذي يتعاطاه، وسرعان ما وجدت نفسي مشتركاً في مخزونهما المشترك من اللحم، ولكني كنت قد توقفت عن شرب الماء أثناء الرحلة. وكان سالم يتكلم كثيراً عن الأشياء الجميلة الكثيرة التي سيحملها لذويه من مكة وهو يخاطبني قائلاً: «ستتحدث إلى ابن سعود لتطلب منه أن يعطيني أمراً للميرة الملكية في الأحساء بأن يمنحني كيسين من الأرز وكيساً من السكر والقهوة» فأجبته بقولي: «ستشتري كثيراً من القهوة في السليل أو بيشة لو ذهبنا إلى هناك. فهناك ترد القوافل التي تحمل القهوة من اليمن عن طريق نجران، ومن المؤكد أنك ستجده رخيصاً». فقال سالم: «نعم والله!! صحيح ما تقول، أنت كالصقر. . -أي أنت ذكي! وأذكى مني- وإن شاء الله سيكون طريقنا مباركاً، وأدعو الله أن يكون ابن سعود راضياً عنا». وكان أيضاً يريد عباءة لأن عباءته كانت من نوع رديء وخفيفة لا تقي من البرد. وعبّرت له عن

نيتي في إعطائه العباءة التي أرتديها عند نهاية الرحلة، إذا ما نجحت. وفعلاً كانت من نصيبه في النهاية. وكانت عباءة ثقيلة وجيدة ومصنوعة في الأحساء وثمنها ثلاثة جنيهات إسترلينية.

واجهتنا خلال الساعات الأولى من الصباح بعض الصعوبات في التغلب على بعض سلاسل الكثبان المرتفعة والوعرة لما كان يعترض طريقنا من مجموعات معقدة من الرمل تشبه الركامات. ولكن عند مرورنا عبر طريق الحاذ الذي يعين الحد الفاصل بين منطقة عنسلة وخلة عدرج، كنا قد دخلنا سهلاً ذا تموج هين تتخلله حيود منخفضة على مسافات بعيدة. وكان السهل خالياً من نباتات الحاذ والبركان، وكان عشب العندب ميتاً أو جافّاً تماماً في حين بقيت شجيرات العبل محتفظة بخضرتها مع نبات العلقا الطري الندي الذي كان يكثر هنا.

ومررنا ببعض روث الوضيحي، ولكن لم نجد أثراً لكائن حي قبل توقفنا في الساعة الحادية عشر صباحاً إلا من طائر صحراوي مغرد وحيد. وجلسنا نتناول الغداء الذي كان يتكون من البلح المغموس في السمن مع القهوة، وبعده أخذنا قسطاً من الراحة لإتاحة الفرصة للجمال بأن ترعى على ما في المنطقة من نبات. واغتنمت هذه الفرصة لأمسك ولأول مرة وبعد محاولات عديدة العينة الوحيدة من فراشة اسبنداسز . وكانت السماء مغطاة بسحاب خفيف، ونسيم منعش لطيف يهب من جهة الشرق عندما واصلنا سيرنا في منتصف النهار.

بدا غطاء النبات الطبيعي يقل كلما توغلنا في السير داخل الصحراء باستثناء بعض شجيرات العبل المتناثرة هنا وهناك مع عدد قليل من النباتات

الأخرى. وظهر غراب على مسافة منا في الأمام مما يعزز افتقار المنطقة إلى أي أثر للحياة. وقضيت وقتاً أسجل الحيود والأودية التي نمر بها، وكانت مهمة رتيبة في عالم يتسم بالرتابة الشديدة. وكان الرجال يحدون للتخفيف عن الملل الذي أطبق عليهم. وقد أفصح لي سالم عن تجاربه الكثيرة والطويلة في الصحراء، وإنه خلال هذه الفترة كلها لم يحاول أحد عبور هذه الصحراء من شنَّة أو نيفة، ولم يسمع عن أحد قام بذلك. وأضاف قائلاً: «من المؤكد أننا أول من يفعل ذلك. وإني لا أعرف شيئاً عن الأجزاء الواقعة بعد الحوايا والشويكلة. وكل ما لديَّ من معلومات عن هذه الأماكن مستقاة من الآخرين، ولكني رافقت قبل زمن طويل آل نفل في رحلة من منطقة الأفلاج إلى نيفة، ونحن نبحث عن قبيلة الصيعر للإغارة عليها، كما ذهبت مرة أخرى من بئر فاضل إلى السليل مع إبلنا للرعي عندما هطلت أمطار هناك. وقد تركت الإبل في الصحراء وتوجهت إلى القرية لأبتاع التمر والمؤن الأخرى، ولكن هذه هي الربع الخالي ولا أحد يأتي إلى هنا . . . أبداً».

وبعد الظهر انطلقنا بتثاقل مشوب بالإعياء عبر سهول متموجة فسيحة تتخللها بين حين وآخر بقع أكثر وعورة حيث تلتقي الكثبان والحيود. ولم تكن في البداية رياح، وكان الجو ساكناً إلى حد ما باستثناء بعض العصفات التي تأتي من جهة الشمال الشرقي، بينما كانت السحب تتراكم في الجنوب والغرب طوال اليوم. ثم بدأت الريح تشتد وأخذت تثير صفائح من الرمال مما جعل المرحلة الأخيرة من الرحلة بعد الظهيرة مزعجة لنا. وفي حوالي الساعة الثالثة والنصف هبت عاصفة أثارت زوابع رملية خفيفة شملت منطقة واسعة وحجبت رؤيتنا إلى حد كبير. ومع ذلك واصلنا السير ونحن نصارع

العاصفة. وبدت على سالم أعراض الإرهاق والتعب، وطلب التوقف قليلاً حتى يشرب الرفاق الماء، ولكني طلبت أن يواصل السير وشجعته على ذلك لأن التوقف سيضيع علينا وقتاً عزيزاً. وبما أننا نقود القافلة فإن الآخرين سيتبعوننا مادمنا قد واصلنا السير، أما إذا توقفنا هنا فمعنى ذلك أننا سنبيت هنا أيضاً. فالتوقف يعني المبيت. ولكن سالماً واصل كلامه متذرعاً هذه المرة بوجود نبات يمكن أن ترعى فيها الجمال. ولكني ألححت عليه بأننا سنجد نباتاً أفضل قبل المغيب. وكانت النباتات المألوفة تكثر في هذه المنطقة، ولكننا تجاوزناها بإلحاح مني، ولكننا لم نجد نباتاً أمامنا كما توقعت. وبعد ساعة من البحث الفاشل عن مراعٍ جديدة، توقفنا بإلحاح من زايد الذي جاء يهرول من المؤخرة ليبدي اعتراضه على سيرنا المتواصل في منخفض ضيق يقع عند الجانب الجنوبي لحيد طويل من الكثبان المرتفعة. وكنا لا نزال في منطقة خلة عدرج بعد مسيرة ٢٧ ميلاً خلال اليوم، وكانت مسافة معقولة وإن لم يكن الأداء كما ينبغي، ومع ذلك لم يكن هناك ما يغضب عن الأداء العام منذ مغادرتنا نيفة عند المغيب يوم أمس، والتي قطعنا خلالها ٤٥ ميلاً. وظل الطقس مواتياً وجميلاً، كما كانت السماء ملبدة بالغيوم أثناء الليل وإن لم نجد أثراً للمطر في أي اتجاه. وبدأت الريح تهدأ وتتحول إلى نسيم عليل قادم من الشمال. أما بالنسبة إلى المكان، فقد كان مقفراً يبعث على الكآبة والإحباط إذ لم نر أثراً للحياة في المنطقة التي عبرناها إلا أربعة طيور: دُعْره وطائر مغرد وتلك التي ذكرتها من قبل. وتناولنا اللحم هذه المرة ليخفف عنا حدة الجوع لبعض الشيء وإن أخطؤوا في أنهم طبخوا اللحم هذه المرة بالسمن، وهذا يزيد العطش. كما تناولنا بعض التمر الذي تصدق به سعدان

من القلتين. وكنت قد أعطيته تعلميات صارمة بأن يقتصد في التصرف فيه على افتراض أن الرحلة ستستغرق ١٢ يوماً. ثم ختمنا الوجبة بشرب القهوة والحليب، وكان من نصيبي إبريق شاي أيضاً عمل من الكمية التي كنت أقتصدها والتي افترضت أنها ستكفينا خلال الرحلة حسب معدل الاستهلاك اليومي الذي لا يتجاوز ثلاثة أباريق صغيرة يومياً. ثم أوينا إلى فراشنا مبكرين على أمل أن نبدأ الرحلة مبكراً، ومضى الليل هادئاً إلا من الرياح التي غيرت اتجاهها من الشمال إلى الشرق.

استيقظت بعد منتصف الليل بساعة على أثر قطرات من المطر تسقط على وجهي من سحب منخفضة، وكان نسيم خفيف لا يزال يهب من جهة الشرق ورطوبة رقيقة وباردة تملأ الجو. لم يكن هناك شيء يؤخر سيرنا الذي بدأ مباشرة تجاه الغرب عبر تلال رملية هينة التموج تتخللها ثلاثة حيود وجدنا صعوبة في التغلب عليها، حتى بلغت الساعة الخامسة فجراً عندما وقفنا لأداء صلاة الفجر، وتناولنا الإفطار. ولم ينقطع المطر الخفيف المتقطع عنا خلال الرحلة. وعند الفجر كان هزيم الرعد مصحوباً بالبرق يتردد صداه في جهة الجنوب.

وعندما واصلنا سيرنا بعد التوقف لساعة من الزمن، دخلنا مباشرة منطقة حاذ بني زينان، وهي منطقة سهلة فسيحة متموجة ومتغيرة ذوّت كل نباتاتها من الجفاف ما عدا عدد قليل من شجيرات العبل المتناثرة. وكان أثر الجفاف واضحاً في بقايا وجذور الأجمة التي اسودّ لونها لطول فترة التعرض للشمس كأنها احترقت بالنار. وكانت بالفعل منطقة مقفرة تلك التي مررنا بها صامتين. وكنا نركب عاريي الرؤوس. وكانت الرياح قد سكنت تماماً،

وبدأت السحب تنقشع قليلاً قليلاً. ولم نجد أثراً للحياة هنا إلا من بعض روث حيوان الوضيحي. فقد دخلنا بالفعل في قعر داره. ولكن بدا واضحاً أن صيادينا كانوا قد فقدوا الرغبة في مطاردته. فقد كان مثيراً للدهشة أن لا نرى أثراً لهذا الحيوان الذي كنا نأمل في العثور عليه بكميات كبيرة، وكان علي بن جهامان قد تحدث عن إمكانية الاقتصاد في ما نحمله من ماء عن طريق عصر ما تختزنه كرش هذا الحيوان من ماء بعد صيده مما يؤكد أننا سنلاقيه بكثرة في هذه الأماكن. قلت لسالم ونحن نركب بعيداً في المقدمة: «إذا افترض أن أصيب أحدٌ بالعطش، ولم يكن لديه ماء، فهل يمكن أن يتعاطى بول الجمال؟ إني أراكم تستخدمونه لغسل الشعر وكدواء لبطونكم فهل يمكن استخدامه أيضاً للشرب العادي إذا اضطررنا لذلك؟» وأجاب سالم: «لا. إنه يزيد العطش ولكننا أحياناً نحصل على ماء قابل للشرب بطريقة أخرى، نأخذ الطعام غير المهضوم من الجرّة ونعصر منها الماء» وسألت سالماً: «هل أمضيت وقتاً طويلاً وأنت عطشان؟» فأجاب: «ربما يومين لا أكثر والحمد لله على ذلك. فقد سمعت عن رجال قضوا فترة أطول من ذلك عطشى، ربما أربعة أيام ونادراً أكثر من ذلك».

وبينما كان الصباح يمضي ببطء، وتثاقل، بدأت بقع جميلة من السماء الأزرق يلوّن السحب المنتشرة، وبدأت الشمس تلفحنا بحرارتها من خلف غلالة رقيقة من الضباب. وكان الجو يبدو خانقاً، وبدا سطح الرمل قويّاً ومتماسكاً إثر المطر الذي هطل حديثاً عليها. وكان خليط من الحيود القصيرة عديمة الشكل تغير هنا وهناك من رتابة السهل المقفر بينما لاحظنا في بقعة أخرى كتلة من الكثبان الرملية على مسافة ميل أو نحو ذلك إلى جهة

الجنوب الغربي، وهي تبدو بيضاء أو رمادية تحت سلسلة متناوبة من ضوء الشمس وظلال السحب الساقطة عليها. وفي كل اتجاه تتجه إليه أنظارنا كنا نجد نباتات جافة وميتة، ولم نجد أثراً للحياة حتى وقت الظهر عندما أثار انتباهي وجود طائر سنونو صغير ضائع في الصحراء! عندما رأيناه لأول مرة كان يحلق فوق شجيرة عبل ثم دار حولنا بطريقة ودية قبل أن يختفي فوق حيد ربما في اتجاه الشمال. ورأينا بعد أيام رفاقه بأعداد كبيرة في السليل التي ربما تقع على طريق هجرتهم الفصلية، ويبدو أن طائر السنونو قد ضل طريقه من السرب الرئيس ولم يكن أمامه من ماء إلا في يبرين.

واصلنا السير في طريق مواز لسلسلة من الكثبان طويلة ومنسقة بشكل غير عادي وتمتد على مدى البصر في اتجاه شمالي شرقي – جنوبي غربي. واقتحمنا في الوقت المناسب جانبه الحاد الانحدار في زاوية قائمة وهبطنا من قمتها إلى سهل مقفر تماماً حيث كانت الرمال تستلقي في شكل ضلوع محددة المعالم عبر طريقنا، وسطحه مخضل بالرطوبة إلى عمق نصف بوصة. ويبدو أن المنطقة قد شهدت هطول أمطار أغزر مما شاهدناها من قبل. وبدأنا نتحدث بشوق عن الأعشاب الفنية التي ستنمو قريباً في هذه المنطقة. فقد تأتي متأخرة بالنسبة لنا، ولكن ربما سيأتي عرب الصحراء العظيمة خلال شهر من الآن بقطعانهم إلى هنا ليستمتعوا بالمراعي الندية وسيجدون بالتأكيد الوضيحي والأرانب بأعداد كبيرة لقدور الطهي.

يبدو أن اسم بني زينان يشير إلى الطبيعة السهلة بهذه المنطقة التي تتكون من أودية وسهول واسعة لا معالم لها، والتي تقع بين حيود منخفضة متباعدة على عكس منطقة «الحوايا» التي تدل على منخفضات أو أودية

ضيقة بين سلاسل كثبانية مرتفعة، وتشبه الأمواج المتكسرة في بحر ضحل. في حين أن منطقة الحباكة ذات التكوين الركامي، والتي تختلف تماماً عن المنطقتين الأخريين، تشبه إلى حد كبير بحراً متلاطم الأمواج يعلوه زبد - كالجياد البيضاء.

كنا قد سرنا بتواصل ما يقرب من سبع ساعات دون توقف عندما اتفقنا حوالي الساعة الواحدة مساء على أن نتوقف قليلاً في سهل متموج واسع لتناول بعض المرطبات. ولم نجد فيه شيئاً ترعى عليه الجمال. وكانت الشمس قد بدأت تطل علينا من خلال فجوات السحب التي ظلت متجمعة في جهة الجنوب، مما جعل الجو حاراً رغم هبوب نسيم شمالي خفيف. وكنا قد رأينا قبل أن نتوقف بقليل آثار أقدام حديثة لأرانب وأبعار وضيحي وغزال الريم، ولكن ما كان من أمل أن نرى صيداً في هذه الظروف القاسية، إذ لم يكن هناك ما يقتات عليه الصيد، مع أننا عثرنا بعد الظهيرة على روث الوضيحي والغزال بكميات متكررة بعث فينا أملاً في العثور على مراع طرية على مسافة قريبة أمامنا.

وفعلاً بدأنا نحس بتحسن في ذاك المجال، إذ صادفنا في طريقنا عدة سرائح من النبات حيث توجد شجيرات العبل القليلة وبعض شجيرات الحاذ الخضراء خلاف خطوط دقيقة من أعشاب العندب التي كانت قد نبتت إثر الأمطار التي هطلت حديثاً، أو زخات منعزلة أصابت هذه المنطقة. وكان سويد أو أحد الرفاق يترجل على مسافات ليكشط الرمل السطحي بعيداً ليرى العمق الذي اخترقته الرطوبة في الرمل، ووجدوا في بعض الأماكن أن العمق يصل إلى ست بوصات. ومررنا بالفعل بمنخفضات معتدلة الحجم تجمعت فيها مياه

الأمطار مكونة بركاً جفت مياهها بعد ذلك . كما رأينا منخفضات في موضع آخر ، وقد نُخر سطح الرمل فيها بحفر كأنما ارتطمت به كميات من البَرَد أو قطرات كبيرة من المطر . ومع ذلك لم يكن هناك أثر لكائن حي إلا من طائر مغرد صحراوي واحد وفراشة واحدة بالإضافة إلى طائر السنونو الذي أشرنا إليه من قبل .

قررنا التوقف بحلول الساعة الثامنة مساء ، ونصبنا المخيم في الجانب الشمالي من أحد حيود بني زينان . وكانت السماء قد بدأت تنقشع مؤقتاً بينما ظلت ملبدة بالغيوم في أجزائها الشمالية التي كان يهب منها نسيم معتدل . ولحسن الحظ وجدت الجمال بعض الأعشاب الخضراء بجانب المخيم . واستطعت بدوري -ولأول مرة منذ مغادرتنا نيفة- أن أسجل بعض القراءات الفلكية . وكنا قد قطعنا ٤١ ميلاً خلال ذلك اليوم ، وكانت مسافة تستحق الفرقة بعدها وقتاً للراحة والاستجمام كما اقترح زايد ، وواصلنا السير في الساعة الثانية صباحاً تحت سماء صافية ونسيم عليل يهب علينا من جهة الشمال الشرقي يطلقون عليه اسم «النَّعَش» -من برج بنات نعش- .

اكتشفنا بقعة من الحيود المتكررة وعبرنا بالقرب من الحيد التاسع منها خلال الساعات الثلاث التي انتهت بالتوقف لأداء صلاة الفجر . ويبدو أن سالماً لم يعد يرى طريقه واضحاً في الظلام ، وكان يمشي معظم الوقت بجانبي وهو يقود جمله ، إذ كان يتحسس ويتلمس الرمل تحت قدميه ليحدّد الاتجاه الذي توجد فيه الأسطح المتماسكة والقمم السهلة . وحدث مرة أو مرتين أن تورط في السير في مواضع لينة ومنحدرات حادة مما يهدد قرب الماء الممتلئة بالسقوط . فالجمال عندما تترك لوحدها فإنها تترنح عند الاندفاع

تجاه المنحدرات. ويحدث أحياناً خلال هذه العملية أن يصطدم جملان ببعضهما أثناء الهبوط، ولكن لحسن الحظ لم تصب قرب الماء بأي ضرر لأن سالماً عادة ما يتخلف عن أي منحدر صعب إما ليساعد أكثر الجمال عناداً ويقوده بيديه أو ينطلق بهم عبر المنحدر واحداً إثر الآخر.

بدأت آثار الإعياء تظهر على سالم مما دعانا إلى التوقف المبكر لإعداد القهوة والشاي قبل حلول وقت الصلاة. وكان الجو هادئاً والسماء صافية مع بعض الرطوبة. واغتنمت هذه الفرصة ورحت في سبات بينما انهمك رفاقي في إشعال النار وإعداد المرطبات، ولم أشعر بشيء إلى أن أيقظني سويد لنؤدي صلاة الفجر. وتناولنا بعدها طعام الإفطار الذي كان يتكون من التمر مع الحليب والقهوة والشاي. وكنت قد التهمت كمية من اللحم المقدد أثناء الرحلة ولذلك لم أشعر بذلك الجوع الذي أرّق مضاجعنا أثناء انسحابنا إلى نيفة. وما عدا ذلك كان كل شيء على ما يرام، فقد كنا قد قطعنا حوالي ٩٥ ميلاً أو ما يقرب من ربع المسافة إلى السليل.

وعندما واصلنا سيرنا مع شروق الشمس، وجدنا أنفسنا في منطقة منخفضة ذات تموج هين وعارية تماماً ومقفرة من النبات، وإن كانت سهلة العبور. وكان هذ المحيط من الرمل تتناثر في سطحه كثبان قصيرة متعاقبة في شكل سلاسل. ولكننا استطعنا الابتعاد عنها في ضوء النهار دون أن نطيل المسافة أو نتراجع من خط سيرنا. واندهشت عندما طار طائر مغرد من دغل قريب ونسر عرّفه رفاقي بالحقب «العقاب» الذي يختلف، كما يقولون، عن الصقر الذي يستخدم في الصيد وأيضاً يختلف عن الشبوط. وكان المكان بأكمله يحمل آثار أمطار حديثة، كما لاحظت وجود فقاقيع صغيرة غريبة

في الرمل شرحها لي صالح بقوله: «إنها آبيار السلطان. هكذا يقال عنها في بلادنا». ولكن سالماً رد عليه وهو يغمز بعينه: «إنك تكذب. لا نعرف اسماً لها. فإنها مجرد حفر في الرمل نتجت من قطرات المطر الكبيرة». ومع أن الأمر لم يكن بذي أهمية، فقد ظللت منفتح الذهن لآراء أخرى، لأن المناصير لديهم القليل من المعرفة التقليدية واللغة التي يجهلها جيرانهم. ومع ذلك فإن صالحاً كان يكذب في قوله دون شك. فقد لاحظت ذلك في مناسبات عديدة ولكنني لم أعارض حرصه الواضح في تزويدي بمعلومات هذه الصحراء وأطرافها. وتتميز المناصير بخاصة عربية تتمثل في الدور الذي تؤديه المرأة في مخططهم العام. وقد ألمحت إلى بعض هذه الأمور في صفحات سابقة؛ وكثيراً ما يُخَاطب الرجال بأسماء زوجاتهم مثل يا شوق فلانة «زوج فلانة». أما في نجد فنادراً ما يطلق اسم الزوجة في مكان عام إلا إذا كانت مشهورة.

كان غريباً أنّ بقع صخر الأديم الجصية والجيرية المكشوفة، والتي كانت تشكل معلماً ظاهراً من معالم الجزء الجنوبي من هذه الصحراء، لم يشاهد خلال الأيام التي قضيناها في نيفة، ولا المكان الذي نقف عليه. وقد وجدنا فيها -وعلى بعد ١١٠ أميال من نيفة- بقعة صغيرة من الصخر المكشوف بلغ طولها حوالي ١٠٠ ياردة حيث توقفنا لفترة قصيرة، ولكننا لم نجد فيها ما يثير الاهتمام إلا من وقوعها في مجرى وادٍ محدد المعالم، دخلنا بعده منطقة مرتفعة متناسقة من الكثبان المضطربة. وفجأة طرأ تحسن لا نعرف له سبباً في الغطاء النباتي، فقد بدأت شجيرات العبل تظهر بكثرة وهي تحمل فروعاً خضراء كما كان هنا بعض العلقا، دعك من شجيرات الحاذ الطرية. زمجر سالم: «خفتوا أصواتكم!. يا لهم من قوم! إنهم لا يفكرون بل يثرثرون أبداً

ويغنون، قد نجد وضيحي في مثل هذه المراعي، وسيهرب عند سماعه أي صوت». فقد كان المكان يعج بروث غزال الريم ولكننا لم نر شيئاً أثناء مرورنا.

توقفنا حوالي الساعة العاشرة والنصف صباحاً لفترة ساعة في صقع مرتفع عار إلاّ من بعض شجيرات متناثرة من الحاذ والعبل وتركنا إبلنا ترعى فيها، كما مررنا ببعض مواضع الكثبان الصعبة. ولاحظت على مسافة قصيرة وعلى يمين طريقنا بقعاً صغيرة أخرى من الصخر المكشوف عند قاعدة جرف رملي. ويطلق على هذه الصخور المكشوفة اسم «شُقة». وسألت سالماً إن كان قد سمع أصلاً عن الخرايم[1] أو الفَرَجة أو الأرض الفضاء في الرمل، التي سمعت عنها قبل عدة سنوات من جابر الذي رافقني في رحلة سابقة. وبدا سالم متردداً. ويبدو أنه لم يسمع بالاسم من قبل، ولكن صالحاً كعادته تطوع بإعطائي بعض المعلومات عن الموضوع كانت تطابق الانطباع الذي سبق وأن تركه جابر في ذهني. أجاب صالح: «إنها تشبه الشقاق، ولكنها تختلف عنها إذ إنها أكثر اتساعاً. وعموماً هي ما يعرف بالملاحات أو الأحواض التي تقع في مؤخرة الأودية التي تنتهي في الرمال قادمة من منطقة قارة الواقعة في الجنوب. ونحن نعرفها باسم خريمة، وقد رأيتها حول مُقْشن. وبدا سالم غير مقتنع بما قاله صالح لأنه لم يسمع عن هذه الأشياء أبداً، ولكن صالحاً كان مصيباً هذه المرة، وقد ذكر توماس[2] هذه «الخرايم» -التي وصفها وكأنها دهليز محيط-، كمَعْلم مميز للصحراء في الطرف الجنوبي من الرمال العظيمة.

(١) مفردها: خريمة.

(٢) انظر: «الجزيرة العربية السعيدة» ص ١٥٦.

بدت السماء صافية مع أن ظروف الطقس ظلت باردة بفضل النسيم الذي كان يهب عبر الرمل المخضل بالرطوبة من جهة الشمال. وامتد طريقنا مباشرة عبر سهل متموج تتخلله شجيرات خفيفة جافة وذاوية، وفي وسطها وجدنا بقعة أخرى من الصخر المكشوف في منخفض ضحل. ولم يكلل بحثنا فيها عن القواقع وأحجار الصوان بالنجاح، ولكننا أمسكنا سحليتين وجلسنا نروّح عن أنفسنا، ونحن نتأمل الكلب السلوقي وهو يجلس فوق أحد جمال الأمتعة بطريقة مثيرة للضحك تفادياً لحرارة الأرض.

آثار سويد جلجلة من الضحك وسط الأصدقاء إثر بلية خفيفة ألقت به والجمل وكل ما حمل أسفل منحدر حاد من الرمل اللين وطأه دون حذر واحتراس. فالثنيات التي تغطيها الرمال بين الكثبان العالية ما هي إلا صدوع مخيفة على المرء أن يتلافاها بقدر الإمكان. ولكن غالباً ماتفتقر هذه الأماكن إلى أي شيء يدل على الخطر المحدق وإن كان لدى البدوي غريزة خارقة لمثل هذه المآزق التي لا يسهل إدراكها. وكنت كثيراً ما أبدي إعجابي بما يبدونه من رأي معتمد وراسخ يقودهم إلى صعود قمة كثيب وعرٍ أو عبوره رغم وجود ممر سهل، وذلك لإدراكهم لوجود كتلة عميقة من الرمل الناعم المتحرك هناك. ونادراً ما كان أحدهم يقع في مأزق كالذي وجد فيه سويد نفسه، أو كما حدث لصالح وزايد مرة أو مرتين أثناء تجوالنا، إذ انبطحا أرضاً في حوادث مماثلة.

بدأنا نصعد مرتفعاً من الكثبان والحيود تنمو بين منخفضاته الضيقة كثير من شجيرات العبل والحاذ. وقد استنتج رفاقي من حالة النباتات بأن أمطاراً قد هطلت هنا قبل أربع أو خمس سنوات. ومنذ ذلك الوقت لم يحدث ما

يشجع نمو النبات لفترة ليست بالقصيرة حتى ارتوت الصحراء بالماء الذي توفر مؤخراً وبدأت تزدان من جديد بحياة زاخرة من النبات. وإنه من المدهش أن أتصور، وأنا أكتب هذه المذكرة عن هذه الصحراء الكئيبة ومنخفضاتها، بعد أشهر من اجتيازنا لها، وقد اكتست ثوباً أخضر يبعث البهجة للوضيحي وغزال الريم والحيوانات الأخرى وقد عادت تتجول فيها دون إزعاج أو مضايقة من أحد.

مررنا أيضاً ببقعة صخرية مكشوفة أسفل أحد حيود هذا المرتفع. وعلى مقربة منها رأينا ذرات رقيقة من الرمل تصدر من حفرة عظات منهمكة في تصليح مأواها الذي انهار سقفه تحت تأثير الأمطار، وكانت تعمل بهمة ونشاط أقرب إلى الاهتياج وهي تقلقل الرمال برأسها ورجليها الأماميتين وتدفعها بقوة برجليها الخلفيتين، كما رأينا آثار مخالب غراب وإن لم نر الطير نفسه.

غادرنا نطاق النبات الطري سريعاً لندخل سهلاً عارياً من النبات كان يشكل نطاقاً انتقاليّاً من صقع بني زينان إلى حاذ الحوايا التي كان الخط الخارجي لكثبانها المتموجة يتبع اتجاهاً يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وكان مظهر الأرض مقفراً ولا أثر للحياة فيها، وكان ما بها من شجيرات العبل والحاذ رغم كثرتها ميتة. فقد كان الذين طالبوا بإلحاح بالتوقف عند تلك المراعي الجيدة التي تركناها خلفنا على حق، وخاصة تحت هذه الظروف غير المواتية التي وجدنا أنفسنا فيها. فطلبت من سالم بأن نواصل السير قدماً، لعلنا نجد مراع أفضل أمامنا. وإذا بزايد يأتي مسرعاً من مؤخرة القافلة، وكنا قد وصلنا الحيد الثالث من حيود الحوايا عندما لحق بنا

طالباً التوقف لأداء صلاة العصر قبل مضي وقتها، فوافقت بخنوع انصياعاً للأمر الذي أصدرته بأن تكون كل تحركاتنا تحت إمرته. وهكذا ترجلنا للمبيت تاركين الجمال تبحث عن شيء تأكله في مكان تحيط به سلاسل منخفضة من الكثبان ترتفع فوق محيط التلال المنخفضة. وكنا قد قطعنا ٤٠ ميلاً خلال اليوم أو ١٦٠ ميلاً خلال ثلاثة أيام، وبهذا كنا قد وصلنا إلى خط الطول الذي تراجعنا منه إلى نيفة قبل حوالي عشرة أيام. وحينئذٍ كنا قد انهزمنا ونشعر بروح الهزيمة. أما الآن فكانت معنوياتنا عالية ويملؤنا التفاؤل كما كنا نعرف تماماً بأن المشكلة الكبرى ما زالت تنتظرنا ونعي بأننا قد اجتزنا جزءاً كبيراً منها دون معاناة تذكر. وصحيح بأن الجمال لم تكن محظوظة في العثور على مراع جيدة، لكن كان من الممكن أن يكون الوضع أسوأ مما كنا فيه. ولم يكن يعوزنا شيء فيما يخص المؤن. فما زال لدينا الكثير من اللحم المقدد والماء. والفضل يعود في ذلك إلى الطقس البارد الذي رافقنا خلال الأيام الماضية.

واصل النسيم الشمالي الشرقي هبوبه خلال اليوم يروّح عنا، وأتاح لي صفاء السماء إجراء بعض الملاحظات الفلكية. أما حدث المساء فكان ظهور رؤية هلال ذي القعدة، وهو ثالث وربما آخر هلال جديد نراه أثناء تجوالنا في هذه الصحراء. أما التالي فسيكون في مكة بإذن الله. وكان حسن -الذي لقب بخر الذيب- يدّعي بأنه أحدّ الجميع نظراً، وقد كان بالفعل يتمتع بقوة بصر أهلته لرؤية الهلال قبل مغيب الشمس بقليل. وقضينا وقتاً نبحث عنه إلى أن عثرت عليه وتلاني زايد في حين لم يتمكن سعدان من رؤيته إلا مساء اليوم التالي. وكان سعدان يفكر، ليس في الذهاب إلى مكة للقاء زوجته

كما كنا نتوقع، بل في الزواج بأخرى في بيشة، التي اشتهرت بنسائها الجميلات، وذلك بالنقود التي سيحصل عليها مقابل خدمته لي. هكذا كان رفاقه يروجون، وكان سعدان يستغرق خلال تلك الأيام في التفكير كثيراً عن تعدد الأزواج وما له وما عليه.

وكانت ليلة باردة وصافية وساكنة تغري بالنوم في العراء. وفعلاً رحت في سبات عميق لم يدم طويلاً إذ أيقظني الرفاق لنواصل السير في الظلام عبر سهل منبسط عريض وكوكب المشتري يطل علينا من أمامنا. وكان الجو مضيئاً بطريقة غريبة، وكانت أشكال الرجال والجمال المظلمة تبرز بحدة ووضوح مقابل ضوء غريب لم أجد له تفسيراً. وكان المشتري مضيئاً بما يكفي لإلقاء ظلال ولكن لم يكن مسؤولاً عن الضوء الذي أحاط بنا والذي ربما نشأ من انعكاس ضوء ملايين النجوم على صفحة الرمال الناصعة التي غسلتها الأمطار.

سرنا حوالي عشرة أميال تحت ضوء النجوم ثم توقفنا قبل ميعادنا المعتاد لتناول بعض المرطبات وأداء الصلاة بعد غروب المشتري بقليل. وكان مخزوننا من اللحم المقدد قد بدأ ينتهي ولكنني لاحظت أن سالماً وسويداً لم يكفا عن تناوله أبداً إذ كانا يخرجان كميات محسوبة من أعماق جراب السرج ويأكلانه دون مشاركة أحد. وكنت أتغاضى عن ذلك وألوذ بالصمت مقابل نصيبي الذي كان يصلني بانتظام في الظلام. وربما كان للرفاق كميات أخرى مخبئة. وعندما توقفنا استلقيت على الأرض لأنام قليلاً قبل الصلاة، وبعد أدائها تناولنا فطور خفيفاً يتكون من التمر المغموس في السمن أو الحليب. فقد أمضيت وقتاً لأتعود على مثل هذا الطعام الذي يحبه العرب.

ومع مرور الأيام اعتدت على تناول كل ما يقدم لي من طعام. وكان رفاقي يشقون التمر ويغرفون به السمن ثم يلتهمونه وهذا لم أكن أطيقه أبداً.

وجدت عند الفجر قليلاً من الندى يبلل الأرض ويتناثر فوق الشجيرات. وبزغت الشمس من ورائنا كاشفة منظراً فسيحاً من الحيود تمتد في اتجاه شمالي شرقي – جنوبي غربي وتحتضن بينها أودية تبلغ أعراضها في المتوسط حوالي ميل، وكانت النباتات التي تتناثر فيها قد ذوت إثر الجفاف الذي أطبق على هذه الأماكن منذ عشرين سنة. وكانت الحوايا تمتد شمالاً حتى سهل رعلة الحصبائي الذي يبدأ على مسيرة نصف يوم إلى الغرب من الطويرفة ويندمج في سهب أبي بحر الكبير الذي يقع في طريقنا. ويبلغ عرض سهل رعلة حوالي ٥٠ ميلاً. وكنا نصادف أثناء السير خطوطاً خضراء من عشب العندب النامي مع بعض شجيرات متناثرة من العلقا والعبل. أما شجيرات الحاذ فقد كانت ميتة تماماً.

وجدنا بين أغصان أجمة من شجيرات العبل عش غراب قديم يحكي عن أيام رخية مضت منذ زمن، كما رأينا آثار أقدام حديثة لجربوع صحراوي. أما الكائن الوحيد الحي الذي رأيناه في هذه الصحراء المقفرة فكان قبرة واحدة. كان السهل يمتد من حولنا في كل جهة تماماً كبحر كبير تغمره وشوشة أمواج خفيفة وبطيئة. وفجأة بدأ النسيم يغير اتجاهه من الشمال إلى الجنوب مما يومئ بنُذُر متاعب بدأنا نعد أنفسنا لمواجهتها. فقد بدأت الشمس تفرض وجودها بقوة من سماء صافية. وهدأت العاصفة أخيراً وبدا وكأننا مقبلين على رحلة قاسية عبر هذه الصحراء الحارة المقفرة. ورغم ذلك كانت الأرض تحمل بصمات الأمطار الحديثة وحتى زخات البَرَد في بعض المواضع مما يبشر بأيام رخية لاحقة تخفف وطأة الجفاف التي أحالت الأرض يباباً.

اقتربنا بتثاقل واليوم يكاد ينتصف من الطرف الغربي للحوايا، وظهر أمامنا من بعيد صف كثبان الشويكلة الطويل، وظهر شريط عريض من عشب السَبَط الجاف الذي يمثل الحدود الطبيعية بين هاتين المنطقتين، الحوايا والشويكلة.

وهنا توقفنا لتناول طعام الغداء خلف حيد منخفض مستدير الشكل ثبت أنه يشكل آخر استحكامات منطقة الحوايا. وعلى كل وجدنا بأن هذا الجزء الشمالي من الحوايا يتميز بسطوح ذات تموجات هينة، أي أقرب إلى بني زينان، بالمقارنة مع أجزائها الجنوبية التي تتسم بتلك الحيود والأودية والركامات المختلفة. وهنا كانت الأودية بصفة عامة أكثر ضحالة واتساعاً بينما كانت السلاسل الكثبانية أكثر انخفاضاً وسهولة. وكان الهواء ساكناً باستثناء نفحات النسيم القادمة من الجنوب بين حين وآخر، كما كان الحر يزداد لحظة بلحظة مع تقدم النهار. وكان أن ألقينا بساطاً وعباءات فوق أجمة من شجيرات الحاذ واحتشدنا تحتها في الظل بينما ظلت الجمال إما باركة أو واقفة بتوانٍ دون إبداء أية رغبة للبحث عن أعشاب تقتات بها، إذ لم يكن هناك أثر لها في هذا المكان المقفر.

أمضينا ساعة من الزمن ونحن نتناول القهوة والتمر والشاي، وأمسكنا خلالها بسحلية بينما هربت أخرى، وفشلت في الإمساك بفراشة. وبعد ذلك واصلنا السير تجاه الشويكلة التي دخلناها من خلال فجوة في الحيد الخارجي الطويل والمتقطع، والذي يقع طرفه الشمالي الشرقي على بعد مسيرة نصف يوم إلى يميننا. وكان هناك حيد قريب يقع خلف الحيد الأول ويفصل بينهما منخفض ضيق حيث وجدنا عش غراب قديم في شجيرة

عبل. وأصاب عيوننا وهج حاد ينعكس من سطح الرمل الناعم ذي اللون البني الفاتح، وشعرنا معه وكأننا نلج عالماً آخر.

أثار مجرد ذكر اسم الشويكلة[1] الكائنة في هذا الركن القصي من الربع الخالي، أطياف كارثة في أذهان رفاقي، وذلك عندما سألت علياً عَرَضاً قبل حوالي شهرين ما إذا كان على علم بهذه المنطقة. فقد وضع توماس الاسم على خريطته معتمداً على معلومات سماعية. وكان رد فعل عليّ تجاه استفساري عن الاسم أن نظر إليّ بفضول كما لو كان يتعجب كيف تسنى لي أن أعرف مكاناً موغلاً في البعد مثل الشويكلة. وقد تذكر رفاقي تلك الحادثة وضحكوا على ما اعتراهم من خوف ورهبة آنذاك. فقد عركتنا الرحلة الطويلة عبر الربع الخالي، وأصبح الصقع الذي كان يبعث الرهبة في قلوبنا مجرد مرحلة في الطريق المؤدي إلى الموئل النهائي لنا.

كانت معظم أجزاء منطقة الشويكلة في البداية تقع إلى الجنوب وجنوب غربي مسارنا. وكنا قد عبرنا جزءاً صغيراً منها يمتد في اتجاه الشمال الشرقي على طول الطرف الغربي من الحوايا فاصلاً إياها عن منطقة أخرى في الصحراء بدأت تلوح لنا من بعيد. وخلف سهل متموج من الرمل الثابت، تناثرت عبره بعض شجيرات الحاذ والسبط، كان يقع حاجز منخفض من الكثبان وخلفه كما البحر رأينا خطّاً ثابتاً ذا لون أزرق داكن أثار كوامن شجوننا وجعل سالماً يصيح بأعلى صوته: «والله، إنها السحماء! السهل الحصبائي الذي يقلّم الصحراء بين الكثبان. وهناك خلفه سلاسل الأوارك. إنه سهل منبسط كما أتذكر. فقد جئت إلى هنا مرة عام الجهاد وأتيته قادماً

---

(١) يقال إن الاسم مشتق من أصل «شكل» الذي يعني الشبه، ولكن اشتقاق هذه الأسماء البدوية مشكوك بها.

من الشمال مع فرقة مغيرة»، مشيراً إلى الحملة الناجحة التي قادها ابن سعود ضد الملك حسين خلال عام ١٩٢٤ - ١٩٢٥م [١٣٤٣هـ]. «يا إلهي! لم أكن أتخيل بأنني سأصله خلال هذه الرحلة، بل توقعت أن أرى الجزء الجنوبي منه فقط بعد عبور الشويكلات[1] التي حسبت أن عبورها سيستغرق مسيرة ثلاثة أيام. فقد كنا نسير إلى الشمال أكثر مما توقعت». وتدفع السحماء ألسنة نحيفة وطويلة من الحصباء شمالاً وشرقاً داخل رمال شويكلة التي تبدأ بالتلاشي تجاه السهل كهداب ممزق وغير مرتب، ويتناثر فعلاً داخلها في شكل كثبان منعزلة عرضية أو بقع طويلة، كالنوع الذي يُعرف باسم «زُبارة». أما السهل الرئيس، والذي يتروح عرضه ما بين ميلين إلى خمسة أميال وأكثر في بعض أجزائه، فيبدو من بعيد وكأنه بحيرة شاطئية كبيرة يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتحيط بها سلسلة من الكثبان على جانبيها - شويكلة إلى الشرق والغرب والأوارك في الجانب الآخر - ويواصل غرباً كسلاسل بني معارض.

ويعد السهل من الناحية التضاريسية مجرد نتوء شرقي لسهب أبي بحر الحصبائي الفسيح؛ ومن الناحية الجيولوجية يشكل انتقالاً من السهب المتواصل إلى الرمال التي تمتد دون انقطاع والتي تبدأ بشويكلة وتمتد إلى خط السهب الذي يفصل الصحراء الجنوبية العظيمة من أقاليم عمان وقاره وحضرموت الجبلية. وكما رأيت لاحقاً فإن الأصقاع الرملية لأوارك وبني معارض كثيراً ما تمزقها مساحات صغيرة شبيهة بالسحماء مما يضفي على كل المنطقة وحدة جغرافية تتمثل في الحصباء التي تعلو أجزاءها بعض الكثبان

(١) مفردها: «شويكلة».

والحيود الرملية، والتي يبدو أنها قد تزحف وتغطي مع مرور الأيام السهل كله.. ويحتمل أيضاً أن الذي حدث هو عكس ما قلت. وأن ما يحدث الآن هو انحسار الرمل من السهل ليكشف ما نراه اليوم في السحماء، ولكن يبدو على العموم أن الرمال تزحف باستمرار على السهوب أكثر مما تنحسر، وأن اسم السحماء ربما يعني «مقلم أو مخطط»، وهو اسم مناسب تماماً لما عليه الحال الآن.

كانت الرياح ساكنة، باستثناء بعض نفحات النسيم التي كانت تأتي من كل الاتجاهات، ونحن نهبط آخر منحدرات الشويكلة ونطأ أرضاً حصبائية لأول مرة من حوالي ستة أسابيع. وكانت الجمال أول من تعرف الفرق، إذ بدأت تتبختر في مشيتها بحذر شديد فوق الحصباء الحارة ذات الزوايا الحادة؛ وكانت أخفافها الناعمة تتألم وأحياناً كانت الجمال تنهار بحركة التواء مفاجئة وهي تطأ أشياء أكثر حدة. وتفاقم الوضع مع اشتداد الحرارة عند الظهر. وطارت دعرة فوقنا تحيينا بسقسقتها الغريبة قبل أن تهرب بعيداً، وكانت الأثر الوحيد للحياة في هذا السهل المقفر، في حين تمثّل النبات الوحيد -إن كان لنا أن نسميه كذلك- في عشب السبط الجاف الذي أتت عليه الرياح حتى أصبح لا يُرى، وإن كانت تطعن الأرجل العارية كالإبرة.

ترجّلت من ركوبي بعد وصولنا صقع السحماء الرئيس مباشرة وانطلقت عبر وسطه الذي تحيط به الرمال من الجانبين لدراسة وجمع العينات من الحصباء التي بدت شبيهة بتلك التي وجدناها في الأماكن المكشوفة في الجافورة وحول مقينمة. وكانت الحصى تكوّن عينة تشبه إلى حدٍّ كبير الحجر الناري والحجارة الأخرى التي تنتشر في الأجزاء الغربية من الجزيرة العربية

والتي يتكون منها جبال الحجاز[1] والهضبة التي تليها من جهة الشرق. ولابد أن الحصباء قد جلبت إلى هذه الشواطئ الشرقية بفعل الماء، فنحن الآن نعلم يقيناً بأن الأنهار الكبيرة كانت تجري عبر هذا الجزء من الجزيرة العربية خلال أزمنة قديمة على الأقل حتى خط طول شنَّة وبئر فاضل. وكان اهتمامي البالغ بشيء تافه كالحصباء يزعج رفاقي الذين لم يكن لديهم أي ميل للوقوف جانباً في هذه الحرارة الخانقة وأنا أتفحصها بحثاً عن أشياء لا تهمهم كثيراً. وكان أبو جعشة يركب بجانبي ويمسك بكل فخر مظلتي وهو مستغرق في عملية دفع الجمال التي تحمل الأمتعة على السير. ونظر الآخرون إليّ شزراً أثناء مرورهم وهم يتساءلون إذا ما كنت أريد منهم التوقف أم لا. ولكي لا أثير مشكلة لوحت لهم بأن يواصلوا سيرهم، وأخبرت سالماً بأن يقود جملي خلفهم إلى حين ألتحق بهم. ولكنني اكتشفت للأسف الشديد بأن الأمر لم يكن سهلاً البتة، فقد نسيت أن ألبس صنادلي ولم تستطع قدماي الحافيتان تحمّل حرارة الحصباء ولا طعنات الأشواك؛ وكان سراب يتلألأ بعيداً في الأمام؛ وجعلت الحرارة اللافحة من السير أمراً غير محتمل، وكم كان سروري عندما رأيت سالماً يتوقف لألحق به، وشعرت حين ركبت الجمل بأنني قد درست الحصباء بما يكفي. وبدأنا السير عبر منتصف السهل لنلحق بالرفاق الذين انحرفوا عبر السهل تجاه كثبان الأوارك التي لاحظت بأنها تحمل دغلاً كبيراً -وطريّاً كما يبدو من بعيد- من شجيرات العبل.

ولاحظت بعد لأي، وعند الساعة الرابعة مساءً، وتلك الحركة المألوفة

(١) انظر الملحق.

التي توحي بأن قراراً قد اتخذ للتوقف من قبل الرفاق. فقد كان نسيم من الجنوب يهب علينا، وبلغت درجة الحرارة حوالي ٩٠° ف في الظل. وبدأت الكتيبة، التي كانت تسير برزانة وانتظام، تتصرف مسرعة حين أخذ كل راكب يهرع باحثاً عن مكان مناسب للمبيت؛ وتلى ذلك إبراك الجمال عند طرف الرمال. وكان سالم ينظر إليهم متشوقاً بدون شك إلى قدح من القهوة، وكنت مرهقاً تماماً، ومع ذلك لاحظت صعروراً صحراويّاً دون جناح في الحصباء. وكنت كارهاً مغادرة السهل دون الحصول على عينته أو اثنتين منها، إذ لم أشاهدها إلا نادراً منذ زيارتنا للبريهيمة، حيث كانت متوافرة. وترجلت مرة أخرى وأرسلت سالماً مع علي إلى حيث المخيم بينما أخذت أتجول هنا وهناك بحثاً عن طريدتي. وبعد أن نجحت إلى حد ما في الحصول على ما كنت أسعى له توجهت نحو المخيم الذي وصلته وأنا في غاية الإرهاق من الجهد الذي بذلته والعطش. أحضر لي سعدان إبريق الشاي المعتاد ولكن لم يكن ذلك كافياً ليطفئ ظمئي، فقلت له: «انظر ياسعدان، تعرف أنني لم أكن أصر خلال الأيام السابقة في تناول نصيبي من حليب ناقتي كما اعتدت من قبل ليلاً ونهاراً؛ فقد كنت أتقاسمه معكم إلا الماء الذي كنت أمتنع عن شرابه طوعاً. وأنا الآن أموت عطشاً وأتوق إلى قدح من الحليب. اذهب ورتب مع أبي جعشة لإحضاره لي عندما تعود الإبل ويقوم بحلبها. عليّ أن أتناول ما يخصني من الحليب، على الأقل هذه الليلة، ولكن رتب الأمر معه دون معرفة الرفاق فقد يحزنهم ذلك». فأجاب: «حسناً، سأفعل ذلك». استدعيت سعدان بعد ساعة من جانب نار المخيم مستفسراً عن الحليب فأجاب بأن أبا جعشة لم يبدأ في الحلب: «ها

هي الإبل قادمة من المرعى. سنتناول الحليب بعد فترة قصيرة». ومضى نصف ساعة ولا أثر للحليب. ثم أعلن عن موعد تناول العشاء بعد ذلك وذهبت لأشارك رفاقي في الوجبة عندما رأيت قدحين من الحليب وسط المجموعة التي بدت مرتبكة بعض الشيء بينما حياني أبو جعشه هاشّا، وهو يقول: «لقد حلبت ناقتك لتوي، يا شيخ عبد الله، اشربه هنيئاً مريئاً». وشعرت بتحد في نبرته وكأنه يقول: خذ هذا القدح لنفسك، أما نحن فسنشترك في الثاني. وكان التحدي أمام الجمع الذين شجعوه على ذلك. فقلت له: «شكراً لك، ولكن دع إخوتي يشربونه، فإنهم يحتاجون إليه أكثر مني. فقد أرهقوا أنفسهم تحت حرارة الشمس القائظة. صحيح أن ابن جلوي قال بأن حليب الناقة لي وحدي، ولكن ذلك لا يهم! فقد تشاركنا في كل شيء خلال هذه الأيام، ومن الآن وللأيام القادمة فتمتع بالحليب لوحدك، فلن أذوق الحليب حتى أصل إلى السليّل، وهذا قَسَمٌ يحرّم علي تعاطي الحليب». وكأن ألقيت عليهم قنبلة، ذاك كان وقع كلامي عليهم! ولذلك بدؤوا يحثوني على تناول الحليب، وأصررت على أني لن أحنث العهد الذي قطعته. ولم يلمس أحد الحليب وإنما اكتفوا بتناول التمر المغموس بالسمن، وانتهى الأمر عند ذاك الحد.

وحاول صالح جاهداً أن يشغلنا بشيء آخر فروى كيف أن عقرباً لسعته الليلة الماضية ولكننا لم نجد أثراً لورم في قدمه أو تهيجاً ساماً، ومع ذلك ذهبت أبحث عن قارورة الأيودين. وهناك بجانب السرير وجدت قدح الحليب. فناديت أبا جعشة بصوت عال حتى يسمعني الباقون: «أبا جعشة تعال هنا، ما هذا؟» فأجاب: «إنه قدح الحليب أتيت به لنشربه بالليل».

فقلت له: «ألم تسمع ما قلت، هل تريد أن أحنث قسمي. تعال خذه واشربه أنت وزملاؤك، ولا تحضر لي حليباً بعد الآن حتى نصل إلى السليل». وكان اللبن في النهاية من نصيب الكلب (العقفا). ووجدت أن سعدان، وكذلك سويداً لسبب آخر، قد أقسما على عدم تناول الحليب. ووجدت أن البدو حين يقسمون في مثل هذه الحالات لا يحنثون في قسمهم أبداً. أما أهل المدن فإنهم عادة ما يقسمون بالطلاق في مثل هذه الحالات. وإذا لم يتمسك بقسمه تطلق زوجته تلقائيّاً بحيث لا يستطيع إعادتها إلا بعد أن تتزوج من رجل آخر، أي لا تحل له إلا بعد أن تتزوج من قبل رجل آخر.

كان المخيم يقع وسط شجيرات العبل التي كانت تنمو عند الخط الفاصل بين كثبان الأوارك وسهل السحماء الذي بلغ عرضه هنا حوالي ثلاثة أميال. وإلى الشمال الغربي من حيث كنا كانت سلاسل الكثبان الخمسة التي تشكل منطقة الأوارك، سلسلة وراء أخرى يفصل بينهما ألسنة من الحصباء، وتمتد إلى عمق خمسة أميال. وإلى خلفها كانت تقع حيود بني معارض المنخفضة التي يبلغ عددها ما بين سبعة إلى ثمانية. أما بالنسبة لطريقنا الذي سنسلكه في اتجاه يتراوح بين غرب الجنوب الغربي وجنوب الجنوب الغربي، فقد خططنا أن نتجنب وهاد ونجود الأماكن الرملية بالالتفاف حول طرق السحماء مروراً بأطرافها الجنوبية التي تصطف فيها حيود وخطوط من الكثبان المتنوعة. وكانت الرمال تتوغل أحياناً من جهة الشمال على الحصباء ومشكلة ألسنة رقيقة وكثباناً معزولة، وأحياناً عبر السهل حتى أطراف شويكلة التي تحيط بالسهل من الناحية الجنوبية. أما السحماء فكانت تقع كلية جنوبي الأوارك وبني معارض، باستثناء ألسنة السهل الصلب الناتئة التي كانت تشكل ما يبدو كمصبات

وخلجان في الرمل. ومما تسعفني به الذاكرة عن حديث سالم ومعلوماته الغامضة حول هذه المنطقة، يبدو أن السحماء يلتقي مع سهب أبي بحر الكبير عن طريق رواق ضيق يقع بين شويكلة وأطراف بني معارض الجنوبية.

عندما حلت الليلة الخامسة من الرحلة كنا قد قطعنا حوالي ١٧٠ ميلاً من نيفة، وكان أداءً مرضياً، ولكن أفضل أجزاء المئتي ميل من الرحلة كانت لا تزال أمامنا، وقد يحتاج اجتيازها حوالي خمسة أو ستة أيام أخرى. وكان لابد من السير ولو مرة واحدة خلال الليل. وعلى الرغم مما عانيناه خلال ذلك اليوم الحار المرهق والشمس اللافحة، كنا على ظهور جمالنا الساعة الواحدة والنصف صباحاً، وسرنا في الظلام لمدة ثلاث ساعات عبر الحصباء تاركين الرمال على يميننا مباشرة. وللمرة الثانية أثار انتباهي ذلك التوهج الحراري الغريب الذي ينشأ بالليل في هذه المناطق الرملية. فقد بدت الصورة الظلية الداكنة للجمال وكأنها محاطة بهالة ضوء غريب، وكان في مقدورنا رؤية الشجيرات ومخطط الكثبان بوضوح شديد.

كان الجمع الذي تجمع لتناول طعام الفطور كئيباً بعد حادث اليوم السابق. ولم تُدع الجمال للحلب، واكتفينا بقليل من التمر، إذ كان علينا أن نحافظ على ما تبقى لنا منه لأنه أصبح مصدر رزقنا الوحيد. وكنت قد أكلت شيئاً من اللحم المقدد خلال الليل، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى الكمية المتبقية منه. وآثرت أيضاً أن ألزم الصمت حيال ذلك. ولم يجد الكلب ما يأكله إلا نواة التمر الذي نلقيه أرضاً ويلتقطه ليبتلعه كاملاً، ولا شك أنه معتاد على مثل هذا الغذاء، كما أن قدح الحليب قد أسعفه ببعض القوة. وكانت جمالنا تتضور جوعاً ولكننا لم نفكر في شيء إلا أن نغذ السير بأسرع ما يمكن.

أطلت علينا شمس الصباح من خلف أفق سطح شبيه بالبحر بعد تحركنا مباشرة، وبدا وكأننا مقبلين على يوم مرهق. فقد كانت جمالنا تعاني من السير على الحصى، ولكننا آثرنا المشي على الحصباء أكثر من تتبع رمال الأوارك المتموجة التي كانت تقع قريباً منا من جهة اليمين. وكان واضحاً أن هذه المنطقة لم تنعم ببركة الأمطار الأخيرة ولذلك بدت عارية تماماً، مع أن سالماً كان يبدو متفائلاً من أننا سنعثر على أشياء أفضل أمامنا. وكان يعنّف رفاقه الذين كانوا يحدون أثناء السير، فقد تكون هناك غزلان ووضيحي تذعر من أصواتنا أو عصابات المغيرين أو العبيد يجذبهم حداؤنا. وكانت هذه الأناشيد في أفضل حالاتها -وكما يبدو لي- مملة وهزيلة، مجرد فورة مجموعة متورطة في مهمة لا طائل من ورائها. فقد كان الحداء والنوادر والحكايات المرحة هو الترياق الوحيد لكسر ذلك الملل القاتل؛ فالقاعدة التي تسري في الصحراء ليلاً هي التزام الصمت خوفاً من الأعداء. ولكن رفاقنا في الربع الخالي درجوا على كسر تلك القاعدة بدلاً من الالتزام بها، بل إن البعض كانوا يروّحون عن أنفسهم بترديد حداء بصوت مرتفع مؤذٍ للأذن. وكان ابن معدّي هو أسوأهم وأنكرهم صوتاً وأقل أفراد الفرقة جاذبية، ولكنه ارتبط بحملتنا على أساس أننا سنعود عن طريق وادي الدواسر، وكان من قرية رنية. وقد حاول صالح أن يجاري ابن معدي رغم ما يتمتع به من صوت عميق خفيض وأقل إيذاء، ولكن كان أقل وطأة علينا من ابن معدي لما يتمتع به من روح مرحة.

بدا سهل السحماء يتسع ليصل عرضه إلى حوالي أربعة أميال مع امتدادات كالأصابع داخل الرمال الشمالية التي كانت بدورها تطلق ألسنة عرضية من الرمل عبر طريقنا. وعبرنا ما يشبه مصبّاً خليجيّاً من الحصباء

يبلغ عرضه ميلاً أطلق عليه اسم «جناح السحماء» بعد أن انطلقنا عبر نتوء ضخم من الرمل يحمل شجيرات عبل متفرقة حيث رأينا بالفعل قُبَّرة وآثار أقدام حديثة لغراب، كما وجدنا على مسافة قصيرة قرون وهيكل عظمي لوضيحي على الرمل. وكان جناح السحماء يجري، على حد قول سالم، لمسافة طويلة في اتجاه الشمال الشرقي، مشكلاً الخط الفاصل بين سلسلتي الأوارك الكثبانية. وكانت الأرض ترتفع تدريجيّاً صوب الغرب الذي كنا نسير في اتجاهه وإن لم نكن نشعر به؛ ولم نفكر في اتخاذ طريق أكثر سهولة من السهل الحصبائي الفسيح الذي بدأت أتخيله يوماً مرتعاً -بعد أن تصيبه الأمطار- لقوافل السيارات التي تأتي لصيد الوضيحي والغزلان، وأرى أن لا عائق غير عدم توفر الماء يحول دون اختراق قلب الربع الخالي بالسيارات حتى خط عرض ١٩ درجة شمالاً أو ربما أبعد من ذلك. ولكن ستظل الصحراء الرملية الواقعة إلى الشرق من السحماء أبداً بعيدة دون انتهاك من متناول السيارات؛ فهي متاهة لا يمكن اختراقها، ومجنون من يفعل ذلك بهذه الوسيلة.

كان رفاقي يتناوبون بين النوم فوق سروجهم والاندفاع في الحداء الرتيب عندما يستيقظون للتخفيف من كآبة منظر الصحراء ورتابتها المملة. وخلال ساعات الصباح الأولى هب نسيم من جهة الجنوب الشرقي ينعشنا من الخلف ببرودته، وبقع من بحيرات السراب تنقط السهل الممتد. بدأنا نشعر بالإعياء وقررنا في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً أن نتوقف قليلاً لنأخذ قسطاً من الراحة لنا ولجمالنا، واجتزنا حيداً منخفضاً نائياً من رمال الأوارك لنتوقف عنده. وكانت علامات العطش الشديد قد بدأت تظهر على ناقتي وعلى بعض الجمال الأخرى، التي كانت تبرك حولنا

مغمومة وهي تنظر إلى ما حولنا من مناظر دون مبالاة. وخرج بعض منها يسير على غير هدي بحثاً عن شيء تقتات به. ولاحظت أن زايداً كان أكثر الرفاق نشاطاً في إرجاع أي جمل يذهب بعيداً عن القطيع إذ يحدث كثيراً في هذه الحالات أن يضلّ جمل عطشان في محاولة للوصول إلى حيث يوجد الماء، وقليلاً ما يصل إلى حيث يريد ويهلك في الطريق، وهذه خسارة فادحة لا تعوض. فالجمال التي لدينا بالكاد لا تكفي لاحتياجاتنا. كانت حرارة الشمس تلفحنا، وبدأ بعض الرفاق يطالبون بإطالة فترة التوقف حتى تنحسر حرارة الظهيرة وتخف، ولكن زايداً عارض ذلك بشدة قائلاً: «إنه الجنون بعينه، أن نضيع الوقت الآن فقد اجتزنا نصف المسافة ونحن الآن في منتصف الطريق ويمكننا أن نواصل. فنحن الآن بعيدين من الماء في أي اتجاه، ولم يكن يجدي الانسحاب، وتغيير خط السير إلى الشمال أو الجنوب إذاً لن يترتب على أي منهما أي تغيير في وضعنا الآن. فنحن في وضع لا يحسد عليه فيما يتعلق بالماء؛ وضع لا مثيل له لا في الجزيرة العربية ولا حتى في الصحراء الليبية والصخراء الكبرى. وكانت الرحلة الوحيدة المماثلة لرحلتنا هذه هي رحلة جيرهارد روهلفز الذي سافر عام ١٨٤٧م [١٢٦٣هـ] من الواحات الداخلة إلى واحة سيوه وقطع خلالها ٤٠٠ ميل عبر منطقة جرداء لا ماء فيها خلال ثلاثين يوماً، ولكن الله أسعفه بعاصفة ماطرة في الثلث الأول من رحلته فاضت على أثرها الصحراء وتمكن من إرواء جماله وملء القرب بالماء.

يصعب دائماً، وربما يثير الاستياء، إجراء مقارنة مع إنجازات ظاهرية لشخص مماثل مع الأخذ في الحسبان ما يعتري كل وضع من اختلافات في الزمن والموسم والمكان والظروف العامة التي ترمي بانعكاساتها الخاصة على هذا الوضع. ومع ذلك فإن رحلة روهلفز لها من التجارب ما يماثل رحلتنا

عبر هذه الصحراء المجدبة، كما أن قصته -التي نشرت بالألمانية[1] قبل نصف قرن- لم تتوفر لدى قراء اللغة الإنجليزية العاديين، مما يستدعي سرد معالم رحلته الرئيسة مقارنة بتجربتي الخاصة حتى يتسنى للقراء الحكم على ما كنا نعانيه من خلال هذه الرحلة.

كانت رحلة الألماني روهلفز في المقام الأول بأمر من الخديوي إسماعيل باشا ورعايته كما كانت رحلتي تحت رعاية ابن سعود ملك الجزيرة العربية. وكان نجاح الرحلة في الحالتين يعتمد على مثل هذه المساندة الجليلة والمهابة، وفي رحلتي بصفة خاصة. ثانياً: يبدو أن هدف روهلفز هو أن ينطلق مباشرة عبر الصحراء الليبية المجدبة غرباً من الواحات الداخلة إلى الكفرة -وهي مسافة تصل إلى حوالي ٤٠٠ ميل-. كما كان هدفي هو عبور الصحراء المجدبة (٣٧٥ ميلاً) من شنَّة أو نيفة إلى السليّل. وقد تحقق هدفي خلال عشرة أيام من السير الشاق والمضني، بينما وجد روهلفز، بعد سبعة أيام من الرحلة، أن مواصلة الرحلة غرباً عمل لا يمكن إنجازه نظراً لوجود منطقة كثبان رملية وعرة أمامه. ويمكن مقارنة هذا الانقطاع المفاجئ للرحلة بذلك الذي حدث لنا عند محاولتنا الأولى لاختراق الصحراء المجدبة من شنَّة. وكان روهلفز قد قطع ١٠٥ أميال آنذاك بينما كنا قد اجتزنا ١٤٠ ميلاً في أقل من يومين، واضطررنا للانسحاب من تلك النقطة لمسافة ١٤٠ ميلاً إلى نيفة، أي إن جمالنا قطعت مسافة ٢٨٠ ميلاً دون ماء. أما مشكلة روهلفز فتم حلها بطريقة أخرى، إذ بينما هو ورفاقه يعيدون النظر في خطتهم، هطلت أمطار

---

(١) «ثلاثة أشهر في الصحراء الليبية» جيرهارد روهلفز (نشره ثيودور فيشر في كاسل، ١٨٧٥م).

غزيرة ولفترة طويلة أتاحت للرحالة ورفاقه وجماله بأن يرتووا تماماً[1]، وكان روهلفز قد عقد العزم على السير صوب واحة سيوة عبر منطقة الكثبان وفي طريق مواز لواحات الداخلة والفرافرة. . إلخ، وعلى مسافة حوالي ١٠٠ ميل في المتوسط من الواحات. وهكذا لم يكن روهلفز في أي مرحلة من مراحل رحلته الطويلة بعد هطول الأمطار (٢٨٥ ميلاً) على بعد مئة ميل من أقرب مصدر ماء، كما أنه كان في إحدى المرات على مقربة ٥٠ ميلاً من بئر نصلة. وهكذا كان وضعنا أسوأ بكثير، فقد كانت المسافة التي تفصلنا بين مصدر الماء في البداية والنهاية هي ٣٧٥ ميلاً، ولم يكن أقرب مصدر للماء أقل من ١٨٠ أو ١٩٠ ميلاً. وإذا تركنا ذلك جانباً، فإن كمية المياه التي كان يحملها روهلفز كانت كافية إلى حد أنه أعطى لجماله كمية منه في موضع أطلق عليه اسم ساندهايم حيث توقف لذاك الغرض. وهكذا نجد أن جماله كانت قد قضت ١٧ يوماً منذ آخر إرواء في الداخلة وثمانية أيام فقط منذ الأمطار الغزيرة، ووصلت بعد ثمانية أيام إلى سيوة، أي أن جماله قضت ثمانية أيام فقط دون ماء في كل مرحلة من مراحل الرحلة من الداخلة إلى سيوة، بينما قطعت جمالنا المرحلة الأولى من الرحلة الفاشلة من شنَّة إلى حاذ الحوايا وعائدة إلى نيفة (٢٨٠ ميلاً) في تسعة أيام، والمرحلة النهائية (٣٧٥ ميلاً) في عشرة أيام، ودون ماء في الحالتين باستثناء الجرعات الاضطرارية لبعض الجمال المهددة بالموت ونشوق الماء أحياناً.

ويبدو أن فرقة روهلفز قد فقدت عشرين جملاً خلال المغامرة مع أن

(١) لم يشر روهلفز في الحقيقة إلى أنهم والجمال ارتووا من تلك الأمطار الغزيرة، وأشار إلى أنه في ١٢ فبراير ارتوت الجمال قبل ١٧ يومًا في الداخلة، ولكنه من المؤكد ومن غير المعقول أن لا يستفيدوا من ذلك المطر.

جماله كانت قد اختيرت في الداخلة لأول مرة بينما لم نفقد جملاً، مع أن جمالنا كانت قد تكبدت الكثير من التعب أثناء السير الذي استغرق شهرين عبر منطقة تقل فيها الأعشاب وذلك قبل أن نبدأ في المرحلة الأخيرة من رحلتنا عبر الصحراء القاحلة.

وكانت الجمال تكتفي بما يجود به الربع الخالي من شجيرات جافة أو محتضرة في حين أن جمال روهلفز كانت تحمل علفاً تقتات منه. وقد يفسّر هذا ذلك التفاؤل الذي أبداه قائد روهلفز البدوي الحاج مجذوب الذي أكد أن الجمال يمكن أن تواصل سيرها لمدة أربعين أو خمسين يوماً دون أن تحتاج إلى ماء. وأوحى بذلك إلى أن الجمال يمكن أن تصل إلى سيوة دون أن تحتاج إلى ماء. أما رجالي فلم يكن لديهم تحت الظروف التي شرحتها، ذلك التفاؤل عند البداية. فقد أبدى رفاقي تخوفهم من أن الجمال ستتغول على ما لدينا من ماء أي ستشاركنا ما لدينا من ماء. وفي النهاية لم يتبق لنا إلا ثلاث قرب من ٢٤ قربة ماء بدأنا بها الرحلة من نيفة، ومع ذلك كنا مقتصدين في استخدام الماء إلى حدٍّ كبير.

هذا فيما يخص الجمال. أما من ناحية المؤن المخصصة للناس فقد كان الاختلاف والتناقض واضحاً بين الفريقين. فقد اختلفت تجاربنا من ناحية المؤن المخصصة لفريقي الرحلة. فالبنسبة لنا لم يكن لدينا غير اللحم المقدد والتمر والقهوة وبعض الشاي ليقيم أودنا؛ وعندما وصلنا السليل لم يبق لنا شيء لعمل وجبة واحدة. أما بالنسبة لروهلفز فقد كانت لديه في آخر يوم من رحلته من الميرة ما يكفي لعدة أيام أخرى. وعندما بدأت الرحلة من الداخلة دوّن في مذكرته ما يأتي: «بجانب الماء وعلف الجمال والمؤن العادية[1]،

---

(١) كان حجم مؤنه كبيراً جداً إلى درجة أن العديد من مجاميع التمر والبسكوت تم التخلص منها في ريجنفلد قبل بدء الرحلة للتخفيف.

فقد كنت محظوظاً في الحصول على شرائح لحم الخنزير والنقانق والجبن والخمر والشوكولاه والكماليات الأخرى، بينما كان أحد الجمال يحمل قفصاً مليئاً بثلاثين دجاجة! ولهذا كان متوسط ما يقطعه من مسافة خلال اليوم لا يتعدى ١٥ ميلاً -أو ١٨,٥ إذا طرحنا الأيام الخمسة التي توقف خلالها للراحة- مقارنة بـ ٣٥ ميلاً لنا. وإذا كانت حملته أكثر تنظيماً، فيمكننا أن ندّعي بأننا واجهنا اختباراً دقيقاً وصعباً لشح الصحراء وقسوتها.

تحت ظروف الجفاف الطويل تُعد الصحراء الليبية -من جميع النواحي- أسوأ حالاً مقارنة بالربع الخالي وخاصة من ناحية توافر النبات. ولكن يمكن تجنب آثار المحل في الصحراء الليبية بحمل العلف اللازم للجمال بينما يتحتم على الإبل في الجزيرة العربية أن تستفيد بقدر الإمكان بما تجود به البيئة من نبات وإلا ستنفق جوعاً. ولهذا عليها أن تغذ في سيرها، فالسرعة عامل مهم وخاصية مستحبة في تربية الجمال العربية. وتختلف الجزيرة العربية وأفريقيا في نقطة غريبة ومثيرة للاهتمام: فالعربي يفضل الناقة في رحلاته بينما يفضل الذكور في صحاري مصر وليبيا. ولم يكن في قافلتنا إلا جملٌ واحد وكان مخصياً مما خيّب أمل أحد المربين في السليّل الذي جاء يقود ناقته على أمل أن يلقحها بذكر من سلالة العمانية المشهورة، فلم يجد مبتغاه.

ليدفع أقرانه إلى العمل بذل زايد مجهوداً كبيراً في تحميل الجمال بالأمتعة وإعداد القافلة للرحيل بينما كان إخوانه يغطون في النوم. وبدأ السير حوالي الظهر في منطقة أصبحت رقعة داما حقيقية من بقع رملية وحصبائية متناوبة، اخترنا طريقنا عبره وبدأنا بعد اجتيازنا للأطراف المنخفضة لسلاسل الأوارك، ننحرف تدريجيّاً بعيداً عن سهل السحماء الرئيس. وكان الحر

قائظاً على الرغم من نفحات نسيم جنوبي تهب علينا من حين لآخر؛ وكان زايد يقود القافلة معي والنعاس يداعب جفونه. وفجأة صحونا على منظر غريب لا يمكن تخيله في مثل هذا المكان: آثار أقدام ناقة ومعها صغيرها تعبر طريقنا من الجنوب إلى الشمال!! فقد كانت الآثار حديثة، ربما قبل يوم لا أكثر. ووقف سالم يدرسها بانتباه شديد وباستغراق دفعه إلى تتبع الآثار لمسافة قصيرة قبل أن يعود إلينا ويواصل سيره، وبدا وكأنه أشبع فضوله ومن ثم راح يفسر لنا ذلك بقوله: «ربما فرقة صيد ضلّت الناقة منها أو غزاة؛ ولكن لم يكن هناك إلا آثار ناقتين، وغريب أن لا يتبعهما أحد». وسرنا قليلاً نبحث عن آثار أخرى ولم نجد شيئاً. ولم نكن في وضع يسمح لنا بمتابعة الناقة رغم ما في ذلك من إغراء؛ فالصغير قد يزودنا باللحم والأم باللبن. ولكنهما قد ذهبا بعيداً الآن وضلا طريقهما منذ فترة طويلة إذ لا أثر لأقدام من يبحثون عنهما. والذين ربما قد عادوا إلى السليل خوفاً من العطش، أو إلى نجران إن كانوا غزاة. وربما لصوص وكانت الناقة إحدى غنائمهم وتكون قد ضلت طريقها في الظلام وهي تحاول العودة إلى قطيعها الأصلي، إنها تتجه للشمال -ربما للأفلاج». وهكذا ظل سالم يتحدث وإخوانه يشاركونه الرأي. وقد كان سالم مصيباً فيما توصل إليه من استنتاجات، إذ سمعنا القصة بحذافيرها عندما وصلنا السليل ووادي الدواسر لاحقاً. كان صديقنا جابر بن فسل قد أتى بخطة، بعدما سلمناه الصندوق المليء بالأحافير ليوصلها إلى الهفوف، عندما وجد المبلغ الذي ادخره كافياً للوفاء بالتزماته الأسرية وواجبات الضيافة وشراء ما يلزم عائلته من ضروريات وكماليات في أسواق الأحساء. ولذلك قرر أن يذهب بمفرده

إلى هناك مع جملين وصندوقين بينما تسوق زوجته قطيعها الذي يتكون من ٤٠ رأساً إلى مراعي الدهناء على بعد ١٠٠ ميل، وتنتظر هناك قدوم زوجها في موضع معين بجوار «رجم الشويعر» على طريق الرياض - الأحساء.
وفي طريقها إلى هناك التقت المرأة مجموعة صغيرة من قطاع الطرق قادمة من نجران، وكانت رائحة النار المنبعثة من موقدها هي التي اشتمها علي بن جهامان في مقينمة وكان أن سلبوها كل قطيع ابن فسل وتركوا لها خمسة جمال بما فيها اثنين من جمالهم المتعبة، لتواصل سيرها بهم، ورجعوا بالقطيع مسرعين إلى نجران. وقد ضلت الناقة وصغيرها -اللتان رأينا آثارهما على الأرض- طريقهما من القطيع ولم ير أفراد العصابة ضرورة في البحث عنهما خوفاً من المطاردة أو العطش. وسمعنا مؤخراً بأن الناقة وصغيرها قد عادتا فعلاً إلى صاحبهم الشرعي الذي عاد حسب الموعد للقاء زوجته ولكن فوجئ بما دبّره القدر من مفاجآت تطارد العربي طيلة حياته حتى في ظل الأوضاع الآمنة والمستقرة التي وفرتها حكومة ابن سعود.
صحيح أن ابن سعود ألغى تماماً من حياة الناس عادات قديمة مثل شن الغارات، ولكن اتساع أراضي الدولة وحدودها الطويلة يقفان وراء تلك الفوضى التي يثيرها بعض قطاع الطرق والخارجين عن النظام من حين لآخر. وقلما يقوم قطاع الطرق بتجاوز حدود الدولة بشكل شائع كما في الماضي. وكانت نجران منطقة مثيرة لمثل تلك التجاوزات. وفي الوقت الذي كانت فيه الحملة التأديبية التي أرسلها ابن سعود إلى نجران تقوم بواجبها بكل إخلاص، كانت تلك العصابة من قطاع الطرق من تلك المنطقة تقوم بسلب ماشية جابر بن فسل على بعد ألف ميل تقريبا. ونتيجة لتلك الحملة التي

قادها خالد بن لؤي من الخرمة والمعركة التي حدثت بين الجانبين استسلمت نجران ودخلت نهائيا في طاعة ابن سعود في هذا الشهر، مارس. كان هذا ربما بمثابة رد اعتبار بالنسبة لجابر الذي سُلبت أملاكه والذي ربما أسهمت أنا في حدوثه أيضاً.

أدى اكتشافنا المدهش لهذه الآثار في منطقة معزولة جداً إلى تحويل انتباهنا مدة ساعة أو أكثر من تأثير قيظ تلك الظهيرة. ولم نر طوال اليوم أثراً للحياة إلا من زوجين من طائر الأبلق وسط مخيمنا، وما عدا ذلك كان كل شيء ميتاً من حولنا. فقد كانت الشجيرات القليلة المتناثرة جافة وذابلة تتناثر بين فروعها بعض الأوراق الخضراء التي كانت الجمال تقطفها وهي ماضية في سيرها. وهنا وهناك تتناثر عظام بيضاء وقرون غزال تحكي عن آخر لحظات حياتها وهي تنازع الموت. ومررنا بجحر فأر صحراوي تشير آثار أقدامه إلى أنه ما زال بالداخل، ولكننا كنا متعبين ولم نحاول إخراجه من الجحر. وكانت البقع الحصبائية المتناثرة وسط كثبان وحيود الأوارك تلمع بالسراب؛ فقد كان الحر قائظاً لا يطاق، ولكن لم يكن أمامنا إلا أن نواصل السير حتى اجتزنا منطقة الأوارك عند العصر ودخلنا أودية بني معارض الضحلة التي تحدها على الجانبين حيود منخفضة من الرمال المتموجة. ولم يحدث تغيير في منظر الأرض إلا الاسم، وكانت رتابة الأرض المبتلية «بالجفاف» أكثر ضجراً ومضايقة من الشمس المتوهجة. قال سالم: «انظر إلى الجمال كم هي عطشى: يجب علينا أن نجري عملية النشوق عليهم الليلة لأنها لن تحتمل العطش أكثر من هذا». وها نحن أمام كارثة أخرى تنذر بالانسحاب، ولكن كان ذلك بعيداً هذه المرة. فقد كنا فرقة منسجمة كما كان ما لدينا من الماء كافياً لتجترع منه الجمال ما يكفي لتبريد أمخاخها ونخفف حدة العطش وآثاره المدمرة.

أصبح سهل السحماء الرئيس بعيداً من جهة اليسار، ولم يعد يُرى، ولكن فروعاً منه ظلت ترافقنا ونحن نسير صوب الجنوب الغربي على طول أول وادٍ عريض من أودية بني معارض. وبدا واضحاً أن أمطار الأسبوع الماضي لم تصب هذه المنطقة، وكانت حالة شجيرات العبل والحاذ الجافة توحي بأنها لم تر أمطاراً منذ سنوات عديدة، ربما منذ عشرين سنة أو أكثر، كما قال سالم. ولم نر أثراً للحياة إلا من طائر أبلق وحيد وروث قديم لحيوان الوضيحي والريم، كما أثار انتباهنا وجود شظايا من بيض نعام كامل[1]. ملقاة على الأرض شبه مدفونة بالرمل. وقمت بجمعها وإضافتها إلى مجموعتي. ولم يكن هناك شك في أن البيضة قد فقست هنا في نفس الموضع ولكن من الصعب أن نصدق بأنها فقست قبل ٤٠ أو ٥٠ سنة مضت كما أصر سالم وسويد. فإن أحداً لم ير النعام هنا إلا كبار السن منهم الذين رافقوا آباءهم في رحلات الصيد. أما بالنسبة إلى الذين ولدوا بعد ذلك فقد بقي اسم النعام أسطورة من الماضي البعيد.

انتقلنا من الوادي الأول إلى الوادي الثاني عبر حيد مجاور ثم توقفنا عند طرف الوادي الثاني البعيد وعلى طول الحيد الثالث لنأخذ قسطاً من الراحة وسط أجمة ذابلة من شجيرات العبل. وكنت أشعر بإرهاق من الحر الشديد الذي لازمني طوال الرحلة لأنني لم أتناول شيئاً غير الشاي. وكان أن استلقيت على الأرض تحت شجيرة ونمت. وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب عندما أيقظني سعدان ومعه إبريق الشاي. وكنت قد أفقت بعض الشيء وشعرت ببعض الانتعاش لأجري بعض الملاحظات الفلكية وبعض

(١) انظر الملحق.

الإجراءات الأخرى اللازمة للسفر. وبدأت أتساءل ما إذا كان في مقدوري أن أحافظ على لياقتي وقوتي بدون ماء مع قليل من التمر واللحم المقدد الذي بدأ يتناقص تدريجيّاً كل يوم. ومع إبعاد الحليب عن وجبتي أصبح استهلاكي اليومي من السوائل يقتصر فقط على خمسة أباريق صغيرة من الشاي أي حوالي أربعة لترات. وعندما التحقت بالرفاق لأتناول الغداء البسيط قدم زايد إليّ قدحاً من الحليب طالباً مني أن أتناوله وأنسى ما حدث الليلة السابقة. رفضت ذلك على أساس أنني أقسمت ولن أحنث في قسمي وقلت له: لا عليك اشربوا أنتم وهنيئاً لكم، وثق بأنني لا أحمل ضغناً لأحد. فاحتسوا ما به فرحين وهكذا تم الصلح بيننا. وبعد تناول الغداء بدأ الرفاق يعتنون بالجمال ووجدوا أن أربعة منها تحتاج فعلاً إلى شرب الماء بما فيهم ناقتي الناعرية. وأُفرغت قربة ونصف من الماء في جلد غنم مقلوب على السرج، بينما اكتفى الباقون بإبريق ماء لكل منهم يشربونه بواسطة مصبه. عدت أنا للنوم وهم يقومون بإسعاف الحيوانات. وبعد نصف ساعة من منتصف الليل واصلنا السير، وكانت درجة الحرارة آنذاك تصل إلى ٧٢ْف، كما كان الجو بارداً ورياح جنوبية شرقية تهب علينا. وكانت سحب كبيرة قد بدأت تتجمع في الأفق الغربي لتنتشر لاحقاً وتغطي نصف السماء عندما توقفنا عند الفجر. واستلقيت على الأرض ونمت أثناء إعداد القهوة والشاي حتى أذان الصبح. وطلبت منهم الاعتناء بالكلب السلوقي ونحن نتناول المرطبات، وذكرت لهم بأنني رأيته في المنام يهوي من منحدر ويكسر رجله. فتشاءم البعض في حين طمأن الآخرون بأن شيئاً لن يحدث بإذن الله وحذّر أحدهم بأن ساعتي ربما تنكسر، والله أعلم. وكانوا يدرون تماماً كم أعتز بتلك الساعة وكيف أحملها بحرص شديد. وواصلنا سيرنا مع الفجر

الكاذب عبر سهل رملي قاحل يمتد إلى الجانب الجنوبي من حيد بني معارض الخامس. وكان الجو بارداً ومنعشاً وكانت سحب كثيفة تتجمع في جهة الشمال الشرقي بينما نجما قنطورس والخيّال[1] يلمعان في الجزء الجنوبي الصافي من السماء. ودب نشاط في أوصال الرجال بعد تناول القهوة وبدؤوا يرددون حداءهم ويتكلمون إلى أن صاح سالم فجأة يطلب منهم الكف عنها: «لوجه الله كفوا عن الغناء في الظلام، إنه عيب. فالرجال الحمر[2] لا يحدون ولا يتكلمون ليلاً. . إنهم يلتزمون الصمت». ولكن أحداً لم يعر اهتماماً له إلا أبا جعشة الذي ظل صامتاً طوال الوقت. فقد ظل منذ حادثة الحليب ساكتاً، ولم يعد يتكلم بأفعال الرجولة كما كان يفعل. ولما أشرقت الشمس وجدنا أنفسنا في واد منبسط وفسيح ترى الحيود فيه كأمواج خفيفة، ورأينا في ضوء النهار آثار أقدام ذكر وضيحي بالغ على الرمل، وكانت تتجه شمالاً قبل ثلاثة أو أربعة أيام مضت.

بدأت خصائص السطح تتغير تدريجيّاً من الأودية والحيود الرملية التي اجتزناها إلى خليط من الرمل والحصى الخفيف. وأشار سالم بأن كل هذا يعد جزءاً من السهل الحصبائي الكبير الذي بدأ الرمل يزحف عليه. ويخضر هذا السهل بعد الأمطار ولكنه الآن خال من أي نبات، وحتى المنحدرات الرملية كانت قاحلة وعارية. وكانت بعض شجيرات من العبل الجافة تُرى من بعد على طول حيد من جهة اليسار؛ وكانت الأمطار الحديثة قد أصابت هذا السهل وراح سويد يحفر في التربة ليرى إلى أي مدى تسرب الماء فيها.

---

(١) الخيّال والزمّال.

(٢) يقابلها الرجال البيض عندنا.

وصلنا أخيراً لآخر حيد من حيود بني معارض، وكانت تتناثر عليها بعض شجيرات العبل الجافة. وأطللنا من قمة الحيد على متسع من أرض ذي لون داكن كان يبدو كالبحر. وكان ذلك هو السهل الحصبائي الكبير المعروف باسم «أبو بحر» الذي يبرز جنوباً من سهب الصمان كنتوء فسيح من الأرض الصلبة وسط ذلك المحيط الرملي. وكان يمتد أمامنا فسيحاً ومنبسطاً وعارياً إلى مدى الأفق المستقيم، ولم يكن فيه ما يكسر رتابته المؤثرة إلا جزيرة من الكثبان تحتلّ وسطه من جهة الشمال الغربي. ويحيط به على طول طرفه الغربي، وحتى مد البصر تجاه الجنوب الغربي والشمال الشرقي، الحاجز المنخفض لرمال بني معارض. انقض علينا غراب ربما ليحيينا؛ وكان طائر أبلق يحتمي بين فروع شجيرة ميتة. ومع تردد مشوب بالرهبة والإثارة دخلنا هذا المكان المقفر المهجور ونحن نجهل امتداده. ودون أن تكون لدينا أدنى فكرة عن الساعات المنهكة الشاقة التي كانت تنتظرنا إلى أن نصل إلى رحاب الرمال الواقعة خلفه.

أثبتت منطقة بني معارض، على عكس ما يوحي الاسم، بأنها منطقة هينة من الرمل الثابت الخفيف الذي يغطي أساسها الحصبائي، بينما كانت الحيود الستة التي تجري مستعرضة عبرها على مسافات واسعة أكثر انخفاضاً وأسهل عبوراً من أية منطقة من السواحب الأصلية. أما أبو بحر من ناحية أخرى، فقد كان، كما يوحي اسمه، محيطاً أملس، هادئاً، صامتاً لا معالم فيه يمكن الاقتداء بها. وكان سالم متردداً في الانطلاق عبر ما بدا لي طريقاً واضحاً، ولفترة توجه صوب الجنوب الغربي ملتصقاً «شاطئ» بني معارض، الذي تتناثر على أطرافه شجيرات العبل، بدلاً من أن يخاطر في اقتحام تلك البرية الرتيبة الممتدة تجاه الغرب. كانت عقارب الساعة تشير إلى

السابعة صباحاً، وربما كان سالم يفكر آنذاك في تلك الساعات التي سيقضيها قبل أن نتوقف لتناول القهوة، حين نحتاج إلى وقود للنار. ثم انطلق عبر السهل دون أن يجمع ما يكفي من الحطب الجاف. ومع ذلك كان سالم يشعر بعدم الارتياح؛ فقد رأيته كثيراً وهو يضع يده فوق عينيه ليمعن النظر في الأفق. وكان ما نحمله من ماء هو شغلنا الشاغل، وكانت محاولتنا الذهاب بعيداً عن طريقنا المخطط يعني زيادة المسافة التي سنقطعها وما يترتب على ذلك من مشكلات. ولذلك طلبت منه أن نسير في طريق مباشر عبر السهل بدلاً من الالتفاف حوله وإطالة المسافة فردّ سالم قائلاً: «ما تقوله صحيح. ولكن انظر. أنا لم أحضر إلى هنا من قبل ولا أعرف كم هو عرض واتساع أبى بحر؛ ولن تجد حطباً للوقود، ولن نصل إلى رمال الرُميلة قبل حر الظهر القائظ. فهل سننتظر كل هذا الوقت قبل أن نتناول قهوتنا. ولكن ربما لن تكون بعيدة كما تصورت إن شاء الله. إنني لم أعد أرى جيداً كما كنت، ولذلك أطلب منك أن تنظر وتبحث عن سلاسل الكثبان أمامنا، فقد سمعت الرجال يقولون بأن المسافر هنا يرى الرمال من بعيد وهو يدخل أبو بحر من جهة الشرق. فقد رأيتها من موقع شمالي حين عبرته أثناء رحلتي من مقينمة إلى السليل. أخبرني هل ترى حيوداً رملية أمامك؟ لن يخطئ نظرك. إنها صفٌ من الكثبان الرملية العالية!» حملقت في الأفق ولكنني لم أر شيئاً. ولكنه كان قد غيَّر مساره تجاه الغرب، ولم يكن أمامنا بديل إلا السير قدماً بأسرع ما يمكن. إذ لو كان سالم قد عرف أنه لن يرى الرُّميلة في ذلك اليوم لحمل معه حزماً من الحطب من شجيرات بني معارض الجافة.

تناولنا الشاي والقهوة حوالي الساعة الخامسة مساءً، وكان آخر ما نتناوله منها حتى الخامسة صباح اليوم التالي، وأن يقضي العربي ١٢ ساعة دون

احتساء القهوة لهي تجربة واختبار صعب، وفعلاً كان عبورنا لسهل أبى بحر اختباراً كشف عن معدن العربي وإبله في أفضل وجه. فقد كان بالحق عملاً مذهلاً، عملاً بطوليّاً وهم يتغنون برواياتهم القصصية ويتبجحون بملاحمهم وفروسيتهم القديمة. فقد كان بالحق تتويجاً مجيداً للمغامرة كلها. وإن كان تتويجاً جاء بعد معاناة وألم.

يمتد سهل أبى بحر الحصبائي -حسب قول سالم- من الحدود الجنوبية للصمان إلى مسافة حوالي ١٥٠ ميلاً صوب الجنوب حتى الخط الذي يلتقي عنده قرنا بني معارض والرميلة حيث ينتهي. وتقع ريدا خلفها من ناحية الجنوب، وهي صقعٌ يبدو أنه يتكون من رمل خفيف أو حصباء ويحده من الشرق تلال القونس الرملية المتموجة ومن الجنوب امتداد سلاسل الأوارك الكثبانية. ووراءها تقع «كرش البعير» التي لم يستطع سالم تحديد موقعها بدقة لأن معلوماته عنها كانت سماعية. وذكر سويد أنه رافق مرة حملة لصيد الوضيحي توغلت إلى حوالي ١٥٠ ميلاً -مسيرة ستة أيام- جنوب شرقي السليل؛ وحسب روايته فإن الانتقال بين القونس إلى بني معارض يتم عبر شريط رملي يعرف بالظهور يتكون من سلاسل متوازية من الكثبان. وبعد بني معارض وصل سالم موضعاً يتكون من تلال رملية يعرف بـ «الفقار»(*) وبعدها عبر كثبان الأوارك إلى «كرش البعير» (أو حوايا البعير) التي وصفها كمتاهة معقدة من كثبان غير منتظمة، ربما من نوع الركامات. ويقع إلى جهة الجنوب من تلك الرمال سهل الجلدة الحصبائي الأجرد والذي ربما يمتد إلى كثبان القعاميات العالية. وحاولت أثناء سيرنا أن أضع تصوراً معقولاً لمخطط طبوغرافي للصحراء الكبيرة. فقد كان صف بني معارض

(*) ورد الاسم في النص الإنجليزي: الفقار، وهو موقع على الخرائط باسم: أبو فقار. (المراجعون).

ينحسر بانتظام في ضباب من رَوَابٍ خيالية تسبح في سراب لا نهائي. وكان نسيم خفيف يأتي متقطعاً وينعشنا. ولكن الشمس لم ترحمنا بحرارتها القائظة عند الظهر. ورأينا أن نخفف وطأتها بالتوقف قليلاً حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، وهرع رفاقي إلى قرب الماء يطفئون به الظمأ، وجلسنا بعد ذلك نتناول وجبة من التمور المغموسة في السمن بينما تم «استنشاق» الماء لبعض الجمال لتخفيف حدة الحر المقبل. وكان سويد يمسك بالماء في فمه وينفخ به في فتحات أنف ناقته بينما استخدم إبريق الماء بالنسبة للجمال الأخرى. وجمعت مجموعة من الحصى وبحثت دون جدوى عن بعض الصعرور أو الحشرات الزاحفة. فقد كان عالماً لا حياة فيه.

رأينا بعد مسيرة ساعة مرغاة رمال بعيدة، وظننا أنها الرُّميلة ولكن خاب أملنا إذ كانت مجموعة معزولة من الكثبان تجمعت فوق الحصباء. وبعيداً ارتفعت زوبعة ٢٠ متراً إلى أعلى بطريقة لولبية ثم اختفت كما ظهرت فجأة. وكانت الشمس ترسل أشعتها اللافحة علينا، ورأيت رفاقي يغفون وهم جالسون على سروجهم، وهي تجربة لم أتعود عليها بعد. وكان سالم يغفو مثلهم ولكنه يصحو بين الحين والآخر ليشير إلى الاتجاه الصحيح بنخرة من صوته. وكنت أتعجب كيف، وفي مثل هذه الظروف وهو نصف نائم ودون جهاز، يتمكن من ملازمة أي اتجاه أو يبقى فيه. ولذلك كنت كثيراً ما أراقب اتجاه سيره ببوصلتي وأندهش لدقة قيادته. وعندما سألته كيف يدير ذلك وينجح فيه أجاب بالنفي. وقد يكون هذا إحساساً غريزيّاً بالاتجاهات من رجال وحيوانات الصحراء يتحكم فيه إدراك لا واعي بحركه الشمس أو النجوم. ولم يكن لدى سالم أي فكرة عن الوقت كوقت. فإن ساعة من

الوقت لم تكن شيئاً بالنسبة له. لكن لم يكن يتردد أو يرتبك في تحديد الاتجاهات خاصة إذا كانت السماء صافية.

كنا قد وصلنا أسوأ أوقات اليوم حرارة؛ تلك الساعات الكئيبة بين الواحدة والثالثة مساءً. وبدأت أشعر بعطش شديد، ولم يكن هناك أمل لتناول بعض الشاي ونحن ننطلق من السراب الذي بدأ يتحرك تدريجيّاً إلى الواجهة. وبدأت أتساءل كم من الوقت سأتحمل هذا الظمأ، وشرعت أقضم بعض البصل النيئ لعله يخفف من وطأته. وبعد أن أكلته بدأت أمص حبوب النعناع التي أحمل قليلاً منها في جيوبي بصفة دائمة.

ولكن كل هذا لم يأت بفائدة، فقد زادت حدة العطش، وندمت على رفضي تناول الماء الذي قدم لي أثناء توقفنا الأخير. وها أنا على وشك أن أطلب ما رفضته، ولكنني قاومت تلك الرغبة إلى أن توقف سالم في الساعة الثانية والنصف مساءً لتناول بعض الماء، ودعاني أيضاً إلى مشاركته في ذلك، وجلست على الأرض أحتسي ذلك السائل الثمين. وكان فاتراً وبني اللون- حتى اكتفيت، وعدت أركب جملي ونواصل السير، وكانت تلك أول جرعة ماء أتناولها بعد مغادرتي نيفة التي تبعد الآن حوالي ٢٥٠ ميلاً. ولم أتحسر على كسر حميتي التي فرضتها على نفسي طيلة هذه المدة. فقد هزمتني الصحراء وقررت منذ تلك الساعة فصاعداً أن أتناول الماء دون قيد أو ندم.

واصلنا السير بعد فترة الراحة تلك. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أشعر بنعاس شديد لم أستطع مقاومته ولم أعد قادراً على البقاء في وضع مستقيم على السرج، إلى أن أسعفني الوقوف مرة أخرى لأداء صلاة العصر في الساعة الرابعة مساءً من ذلك الصراع المرهق، وتحسنت حالتي بعد أن

تناولت جرعات من الماء . وشعرت بأن السفر لم يخفف من فعالية وقوة ماء نيفة المالحة . وكنا نستخدم الشاي لتخفيف ملوحته والآن عاد إليّ ذلك الشعور بالتعب والإنهاك الذي كنت أشعر به في نيفة ، وقد يكون السير لساعات طويلة دون نوم كاف قد ساعدني لتفاقم الوضع أيضاً . وكان السير تجاه الشمس الآيلة للمغيب أكثر معاناة ومحنة وإرهاقاً . ومع ذلك لم يبدُ على رفاقي ما يشير إلى رغبتهم في التوقف والبحث كما جرت العادة عن مكان يبيتون فيه . فقد اندفع زايد للأمام وهو يشع حيوية ونشاطاً عندما رأى الناس يتباطؤون في السير ، وبدأ يتكلم دون انقطاع مع أولئك الذين في المقدمة ، عن تجاربه وإنجازاته الشخصية أثناء الغارات ، ويروي قصصاً عن أسفاره الطويلة والأيام الغثة حول الحدود الصحراوية لعمان ، وحكايات عن الكرم وحسن الضيافة في مضارب البادية للشيوخ وما يقدم فيها من قهوة ولحوم . وبدت الجمال تستجيب تدريجيّاً للمزاج الجديد الذي شمل القوم ، وتغير المشي البطيء المتثاقل إلى سباق مع الزمن أثناء الساعات الأخيرة التي تسبق المغيب . وغابت الشمس دون أن نرى أثراً للرمال المترقبة ، ومع ذلك واصلنا السير .

توقفنا لأداء صلاة المغرب وعندها تنفست الصعداء . إن معاناة اليوم قد انتهت ، ولكنني كنت مخطئاً إذ إنه مجرد أن انتهينا من أداء الصلاة وتناول بعض الماء ، حتى أصدر زايد أوامره بمواصلة السير . وكنت مرهقاً للغاية ولم يكن أمامي من خيار إلا أن أستجيب لندائه بكل خنوع . فإقامة مخيم حيث توقفنا كان يعني التخلي عن أي أمل لقهوة المساء ، وكان هذا لا يرضي أحداً من رفاقي ؛ ومن ناحية أخرى كنا قد رأينا قبل نصف ساعة من المغيب آثار طرق جمال قديمة مثلمة في السهل الحصبائي يعود تاريخها إلى تلك الأيام

المطرة التي سبقت فترة الجفاف الحالية التي امتدت لعشرين سنة . ففي تلك الأيام الخوالي كان العرب يأتون بقطعانهم إلى هذه الأماكن النائية لترعى الأعشاب الريانة . وكانت الجمال تبقى بدون ماء لفترات طويلة ويعيش الرجال على ألبانها طيلة بقائهم هناك . وكان استنتاجاً معقولاً ذلك الذي توصلت إليه بأن السهل الحصبائي قد أوشك على الانتهاء وأن مسيرة قصيرة ستأتي بنا إلى الرمل حيث يمكننا العثور على بعض الشجيرات الميتة لنوقد بها النار . ولذلك أسرعنا إلى خببٍ بمعدل خمسة أميال في الساعة .

كانت آثار الأمطار الحديثة واضحة الآن في كل مكان ، ووجدنا ما يشير إلى ذلك في وسط سهل أبى بحر حيث لاحظنا تموجاً خفيفاً لا يكاد يرى . فقد سرت مياه الأمطار بين أخاديدها في وقت قريب جداً ؛ وكان في الحقيقة مؤشراً ساراً للتغيير المتوقع أمامنا . وعندما حل الظلام بدأت أحس بأن سطح السهل أصبح أكثر تموجاً كلما تقدمنا فيه ومقلَّماً إلى حد ما بخطوط من الرمال . ونظرت لأرى الوقت فإذا بي أجد ساعتي مفقودة . وعقدت بسرعة مجلس حرب لندرس هذا الفقد العظيم ، واقترحت بأن يعود شخصان على أثرنا للبحث عنها . فالمكان الذي فقدت فيه الساعة ليس ببعيد إذ إنني لاحظت الوقت عندما توقفنا عند المغيب لأداء الصلاة! وأوضحت لهم بأنني لا أستطيع الاستغناء عن الساعة ولن أذهب بدونها . ويمكننا أن نواصل السير على أن يلحقا بنا فيما بعد وإلاّ علينا أن نخيم هنا الليلة . ثم طلبت منهم الانتظار هنيهة حتى أقوم بتفتيش المخلاة التي كانت تضم كثيراً من ممتلكاتي ، وكانت منبعجة عند الفتحة وقد تكون الساعة قد انزلقت فيها من رسغي . وفعلاً كانت الساعة هناك ولكن بطوق ممزق . عمت الفرحة بين القوم الذين ذكروني بتفسير حميد لحلمي الذي رويته لهم .

واصلنا السير، نخبُّ أحياناً ونمشي أحياناً أخرى. وطال بنا السير دون أن نلمح شيئاً أكثر من الأرض التي نمشي عليها، والتي بدت كسهل متموج تتخلله منخفضات واضحة، لكن دون أثر لما يشبه الشجيرات أو الأعشاب. وربما قد مررنا قريباً من مثل هذه الأشياء دون أن نلاحظها في الظلام الذي بدأ حالكاً أكثر مع تلك السحب العاصفة التي تراكمت في السماء من جهة الشمال الشرقي. وكانت البرودة التي بدأنا نحس بها منعشة بعد حرارة النهار القائظة، وكانت قطرات المطر القليلة التي بدأت تسقط مؤشراً لظروف أفضل غداً. وكان ما يشغل زايداً ورفاقه خلال هذا كله هو القهوة، وما يشغلني أنا هو النوم. فقد كان معظمهم يغفون على سروجهم طوال ذلك اليوم المرهق، وكانت حاجتهم للقهوة أكثر من حاجتي لها، ولكنني لم أستطع أن أغالب النوم. وكانت الإبل التي يدفعها زايد كما لو كان الشيطان يطارده قد فاقت طاقتها في التحمل، كما لم يكن هناك أدنى أمل للعثور على علف لها حتى ولو وجدنا حطب الوقود.

استطلعت آراء سالم وحميد حوالي الساعة السادسة مساءً وفرحتُ بأنهم يتفقون فيما أرى بأن لا فائدة من البحث عن حطب الوقود في هذا الظلام الدامس دون أن تكون لنا أية فكرة عن أماكن وجوده أو المسافة التي سنجده فيها. وقد يطول بنا الليل دون أن نعثر عليه وتكون حالتنا حينذاك أسوأ من تلك التي بدأنا بها. «دعونا نستريح الليلة وننام ونعطي بعض الراحة لجمالنا. فإذا كان أحدهم يعرف مكاناً به حطب الوقود خلال خمس أو عشر دقائق فليقدنا إليه؛ وإلا سأتوقف هنا وافعلوا أنتم ما تريدون». فوافق القوم على المبيت إلا زايداً الذي أتى من المقدمة ومعه بعض الرجال يسبون

ويحتجون على قرارنا الغبي كما ادعوا. «نعم، إنه الغباء فعلاً» قلت وأنا أبرك الناعرية: «إنه الغباء نفسه أن نسير دون هدى. أما أنا سأتوقف هنا وأنام هنا. وأنت أمير القافلة وعليك أن تفعل ما يسرّك، قد تجد الحطب - الوقود- قريباً أو بعيداً، خلال خمس دقائق أو خمس ساعات، ابحث عنه كما تريد. سآتيك حينما تعثر عليه وسأقتفي أثرك في الصباح ولكنني لم أعد قادراً على الجلوس فوق الجمل!».

خضع زايد لرغبتنا أخيراً وهو يسب ويلعن. في الساعة التاسعة والربع هدأت الجمال لترتاح بعد مشقة السفر القسري الذي بدأ بعد منتصف الليل بقليل قطعت خلاله ٧٠ ميلاً. وبركت الجمال ورقابها الطويلة ممدودة على سطح الرمل البارد دون حراك ونحن نزيح الحمولة من على ظهورها ونعد الأسرّة استعداداً لراحة نستحقها بجدارة. وأتى سعدان يحمل قدحاً من الماء وكتلة من التمر لأتعشى بها، وكان هذا كل ما لدينا. وطلبت منه أن يأتيني بعلبتين من الفواكة المعلبة كنت قد أحضرتها معي من مكة إلى الهفوف؛ وتناولت محتويات علبة واحدة مع سعدان، ثم استلقيت لأملأ جفوني من النوم والسحب تتجمع حولنا وهزيم رعد بعيد يشنّف أذني.

وهكذا وأخيراً قصمنا ظهر الصحراء كما قصمت هي ظهرنا من قبل مرتين: عندما رجعنا من الحوايا ثم خلال اليومين السابقين. وكان علينا أن نقاوم، ونجحنا رغم المعاناة التي أوصلتنا إلى حافة الانهيار. ولكننا نجحنا وانتصرنا وبقي لنا حوالي المئة ميل ونصل بعدها إلى الماء. فقد قطعنا ٢٧٠ ميلاً خلال ستة أيام من مغادرتنا نيفة وفي ظروف قاسية من ناحية المراعي، وبمعدل ٤٠ ميلاً في اليوم. إنه إنجاز مرض تحت تلك الظروف. صحيح أن

ثلاثة أيام منها كانت معتدلة من ناحية الطقس، ولكن كانت هناك ثلاثة أيام أخرى مرهقة بمعنى الكلمة. أما الجمال التي عبرت سهل أبى بحر خلال أحرّ ساعات النهار وقطعت ٤٨ ساعة دون طعام، فلم تبدأ هذه الرحلة وهي في أحسن حالاتها، فقد كانت على سفر لشهرين كاملين في أفقر صحراء ودون راحة تذكر، وكانت بالحق أفضل جمال يمكن أن نعتمد عليها في عمل شاق كهذا الذي أنجزناه.

غادر رفاقي فراشهم صباح اليوم التالي مبكرين «١٢ مارس» وهم يطلبون القهوة بشدة، وسماء ملبَّدة بسحب داكنة في الشمال والشمال الشرقي تحيينا. وسرعان ما امتطينا الإبل وتحركنا في شفق الغسق، وكان الجو رطباً ودبقاً وكانت الرياح الشمالية الشرقية -التي كانت تهب طوال الليل- تنعشنا ببرودتها ونحن نسير في سهل أبى بحر الحصبائي الذي تغير الآن إلى سهب متموج عار ومجدب تتخلله خطوط من الرمل وأرض صخرية هنا وهناك أضفت تنوعاً ساراً على رتابة الحصباء. ولم نكد نمشي أكثر من عشر دقائق حتى صادفتنا بقعة من شجيرات الحاذ الذابلة، ولكن زايداً أصرّ على مواصلة السير على أمل أن نجد ما هو أفضل منها لوقود القهوة وعلف للجمال. وهكذا واصلنا السير بجانب ثلاثة أكوام من صخور ناتئة ترتفع إلى ٢٠ قدماً فوق مستوى السهل حيث لاحظنا آثار سيل حديث.

وبعدها أتينا إلى غطاء خفيف من الرمل كان يوحي بالانتقال من أبى بحر إلى الرميلة التي بدت أول سلسلة من كثبانها على يميننا، بينما امتد السهل الحصبائي على يسارنا هين التموج ومنقطاً ببقع صخرية ومقلمة هنا وهناك بألسنة من الرمل. وبعد ذلك مباشرة صادفنا بعض شجيرات العراد

الخضراء، وكانت أول نبات يؤكل نصادفه خلال ٤٨ ساعة. ولم تكن هناك قوة تمنع جمالنا من الاستمتاع بها، ولذلك تركناها تقضم ما شاء لها من النبات الذي أتت عليه تماماً في وقت قصير.

ثم دخلنا رمال الرميلة الحقيقية التي كان صدرها المتموج مندّباً هنا وهناك ببقع من صخور الأديم المكشوفة، وعليها وجدنا شجيرات الحاذ بكثرة، وإن كانت جافة. وتوّجه إليها الكلب يبحث عن آثار أقدام أرانب لعله يجد أرنباً يقيم به أوده. وتعد الرميلة -التي تتكون من أودية رملية واسعة تفصل بينها أمواج طويلة من الكثبان- كامتداد جنوبي للدهناء التي تنفصل منها على مسافة رحلة يوم شمال خط سيرنا، بمربخٍ أو سهلٍ رملي منبسط تتناثر فيه شجيرات الحاذ والعبل ونباتات أخرى. وتفتقر الرميلة نفسها إلى شجيرات العبل، لكننا صادفنا باقات جافة من نبات بركان وجذامة السبط.

كان الوادي الذي يلي أول سلسلة كثبانية يحتوي على مساحة كبيرة من الصخور المكشوفة -مادة جيرية غبراء اللون، ومررنا ببقعة صغيرة بها حفرة طبيعية كانت بها آثار ماء حديث، وبالقرب من هذه البركة القديمة وجدنا خطّاً خفيفاً من عشب العندب الأخضر الذي قضت عليه الجمال، كما رأينا زوجين من طائر أبو بليف وقبرة صحراوية ونحن نعبر خط الكثيب الثاني إلى سهل عريض حيث توقفنا وسط شجيرات حاذ غزيرة ولكنها جافة. وبركت الجمال حولنا أو تركت لتتجول بحثاً عن شيء تقتات به، بينما جلسنا نحن نعد القهوة والشاي الذي تناولناه مع حبات من التمر، وهو طعام لا يقيم أوداً. وتناول البعض الحليب. وبدأت الرياح الشمالية الشرقية تشتد ونحن مستغرقين في تناول القهوة. وعندما قمنا لمواصلة الرحلة كانت

الرمال قد بدأت تتحرك كالخصل لتلف المكان في غلالة من الضباب الرقيق.

كان سيراً ممتعاً على هذه الرمال المتموجة بعد تلك الرحلة الشاقة عبر السهل الحصبائي. وانتابنا شعور بالراحة والسعادة بعد تناول المرطبات التي كنا انتهينا منها والشمس ترسل أشعتها الباهتة خلال سحب خفيفة كانت تجري في السماء وهي تغطي الأرض بشريط متناوب من الظل والضوء.

وكانت الأمطار التي هطلت هنا حديثاً قد بعثت الحياة في هذه الصحراء القاحلة في شكل براعم ريانة خضراء من نباتات الصحراء التي بدأت تطل برؤوسها من الأرض مثل الحلم والسعدان التي تناثرت أغلفة ثمارها الشائكة الخشنة في أرض الصحراء الرملية وأخذت تلتصق بأخفاف الجمال التي كانت تضرب الأرض للتخلص منها. وكنا نضطر أحياناً للوقوف لإزالة الشوك من على الأخفاف. وهذه الأشواك القصيرة لا تخترق الخف إلى الغضروف إنما تبقى ملتصقة بأعداد كبيرة به وتسبب إثارة شديدة ومقلقة للجمال.

آثار العثور على أكوام صغيرة من بعر الجمال نصف المدفونة بالرمال التي طمست كل آثار الحيوانات التي أخرجتها، نقاشاً حيّاً بين الرفاق عن دلالتها. واستمر النقاش على فترات حتى وصلنا الموضع الذي خيمت فيه الفرقة التي كانت تتكون من ثمانية أو تسعة جمال حسب تقديرهم، وكانوا قطّاع طرق، وربما الذين شممنا رائحة نارهم في مقينمة، وإن لم نستطع آنذاك أن نحدد ما إذا كانت العصابة ذاهبة أم عائدة من غارتها، أم أنها الفرقة التي فقدت الناقة ووليدها التي عثرنا على آثار أقدامهما في قلب الصحراء. ولكنهم اتفقوا حول نقطة واحدة وهي أن الروث كان أملس ومستوي الشكل كروث جمالنا. روث جمال صحراوية تسير عبر منطقة فقيرة الأعشاب، وهذا ما يفعله قطاع الطرق.

حَملنا طريقنا المتجه غرباً في خط مائل عبر أودية وتموجات الرميلة حتى حل وقت الظهر حين توقفنا عند طرفها الغربي لنجمع حطب الوقود من الشجيرات الميتة التي تتناثر على طول قاعدة سلسلة الكثبان الخامسة والأخيرة، وإلى خلفها كانت منطقة القونس المتموجة المنخفضة العارية من النبات. وحتى لا تتكرر الغلطة التي ارتكبناها في سهل أبى بحر، كان علينا أن نجمع ما يكفينا من الحطب؛ ولم نكن نرغب ذلك اليوم أن نسير طويلاً بعد معاناة اليوم السابق، كما كنا نأمل في اجتياز رمال القونس والتوقف مبكرين للمبيت في سهل الجدّة الواقع خلفها.

كان الماء الذي نحمله يكفي لإجراء إسعاف عاجل للجمال التي خضعت مرة أخرى لعملية «الاستنشاق» المهينة كما أُعلن أن إحداها أصابتها العين الشريرة[1] وتبع ذلك عرض لبعض العادات المتوارثة. فقد طُلب من كل واحد منا أن يتف أو ينفث في قدح الماء المخصص للناقة المريضة، وصب دواء غريب في أنفها وهي تحت قبضة ستة رجال يحاولون الإمساك بها أثناء هذه العملية التي قام بها سويد بنجاح. لم أحاول أن أعرف أعراض هذا المرض، ولكن رفاقي كانوا على يقين بأن الروح الشريرة قد غادرت جسد الناقة نهائيّاً. ولكن سرعان ما دبّ بينهم شجار حول عادات تقديم القهوة المعقَّدة؛ وعادة ما يقدّم الشخص الذي يتولى التوزيع قدحاً لكل شخص مرة ثم مرة أخرى ويدور كذا بين الجالسين لكنه يفوِّت على نفسه، ثم يقدّم قدحاً ثالثاً للشخص الجالس على يمين الموزّع قائلاً إنه لك فيشربه الشخص ثم يصب قدحاً للذي امتنع بهز قدحه. ويتوالى ذلك مع الذي يليه حتى يصبح

(١) أي «منظورة»، أصابتها عين حاسدة.

الأمر تقديراً للكمية التي تناولها كل شخص. وبعده يصرّ الساقي على التوزيع والكل يرفض. وجرت العادة أن يترك كل شارب ثمالة قدحه. وعندما تكون الأعصاب مشدودة وخاصة في الصحراء، كثيراً ما يدب شجار فعلي بين الربع حول هذه الأمور.

عندما دخلنا تلال القونس التي يقع طرفها الشمالي على بعد عشرة أميال شمالي طريقنا، حسب قول سالم، حوّلنا اتجاهنا صوب الشمال الغربي. وكانت المنطقة عارية إلا من بعض جذامات عشب السبط ولكننا قضينا وقتاً نتسلى ببعض السحالي، كما رأيت لأول مرة في هذه الصحراء القاحلة جرادة واحدة ميتة ملقاة على الرمل. وكانت الأرض تحمل ذكرى أيام رطبة مضت تتمثل في روث الجمال ومواقد نار المخيمات المتناثرة في أرجائها. وأشار سالم إلى أن الوضيحي نادراً ما يأتي إلى هنا، أما غزال الريم فيكثر هنا عندما تخضرّ الصحراء بعد الأمطار. أما الآن فقد غادروها إلى أماكن أخرى تتوفر بها المراعي -غالباً في الشمال. وقد بدأت الصحراء تخضرّ هنا من جديد بعد الأمطار التي أصابت هذه المنطقة حديثاً كما ترى في نبات السعدان الذي بدأ ينمو من جديد. وفعلاً رأيت الأرض تلمع بلون أخضر يكسو المنحدرات الهينة، ووجد سويد أن الرطوبة قد تسربت في التربة إلى عمق قدمين أو ثلاثة أقدام إثر الأمطار الحديثة.

ظهر عن بعد، ربما حوالي ستة أو سبعة أميال صوب الجنوب الغربي، حيد مشيمخ الرملي الطويل الذي يُعَدُّ معلماً مألوفاً للصيادين القادمين من السليل، كما يدل أيضاً على انتهاء منطقة القونس التي أطللنا من آخر حيد فيها على منظر بعث في نفوسنا البهجة -بحر واسع أزرق كما يبدو- ألا وهو

سهل الجدَّة[1] السهبي الكبير، وبعيداً على ظهره كان حاجز طُوَيق البعيد. وهكذا وأخيراً تركنا «الصحراء الحقيقية» خلفنا، واستقرت عيوننا مرة أخرى على تخوم الأرض المزروعة. وهناك في مكان ما في ثنية أحد المرتفعات التي أمامنا تقع نهاية رحلتنا: السليل. وتمكن سويد وسالم من التعرف على تلة أبراج ابن جفّال المعزولة حيث توقفا مرة أثناء رحلة قاما بها من مقينمة إلى جهة الغرب، وكانت تقع بعيداً إلى جهة الشمال الغربي على مسافة ١٥ أو ٢٠ ميلاً تجاه الصحراء، وتذكرا كيف سحبا الماء آنذاك من منخفض صخري كبير يعرف بالمكينية. وكان السهل في بداياته يغطيه رمل خفيف انساب من أطراف القونس، ولكن بدأ السطح الصخري والحصبائي ذي اللون الداكن والعاري من النبات يسود تدريجيّاً كلما توغلنا فيه. وبرز وراء الأرض المرتفعة صف من تلال مسطحة القمة، والتي تمثل بقايا من صف طويل من الجروف المنخفضة، والتقت بطريقنا من جهة الشمال الشرقي ومن هذه التلال، كانت الصحراء تمتد إلى الخلف حتى تلتقي مع المرتفعات البعيدة عند الأفق الذي تلفه غلالة من الضباب. وابتهجنا للمرة الثانية ونحن نسير ونسيم رطب بارد يهب علينا من جهة الشرق. كم هو مختلف اليوم من الأمس حين كنا نعاني من الحر القائظ والعطش والشك!! فقد تغيرت ملامح السماء، وذلك المنظر الذي يتراءى لنا من بعيد -رغم ما يتسم به من كآبة- هو موطن البشر. «لا ريب أن طويق هو أبونا» صاح سعدان الذي كانت قريته تقع في ثنية بين شعابها على بعد ما يقرب من مئة ميل تجاه الشمال. «نعم طويق أبونا والدهناء أمنا. نشكر الله الكريم أننا نراهما مرة

---

(١) يسمى «جدة الفرشة»؛ وأحياناً يسمى «حدبة الفرشة».

ثانية بعد أن اجتزنا الربع الخالي. وغداً إن شاء الله وبإذنه، سنمتع أنفسنا برؤية وجوه الرجال والنساء أيضاً، وسنجد في السليل نساء يمكن أن نتزوجهن!، فقد كان يفكر دائماً في زوجته الصغيرة التي تركها في مكة، وأيضاً في تلك اللائي يمكن أن يلتقي بهن مستقبلاً ويذهب بهن كزوجة إلى نعيم منزله الصغير الكائن في حي المعابدة. كان يوماً مبهجاً اتسم فيه كل شيء بالبساطة.

توقفنا للمبيت بعد الساعة الخامسة مساءً مباشرة بعد مسيرة ٢٥ ميلاً فقط. وكان حيد مشيمخ الطويل يبدو بارزاً في جهة الجنوب على مسافة ثمانية أو عشرة أميال من حيث كنا، ومن خلفنا كانت رمال القونس تغطي الأفق بساحلها الطويل، وما عدا ذلك لم يكن هناك شيء إلا السهب الداكن اللون الذي يمتد إلى الخلف تجاه المرتفعات المتموجة ووسطه العريض الذي يرتفع هنا وهناك في شكل حلمات صغيرة. غابت الشمس وبدأت السحب تتجمع من جهة الغرب والشمال، وخلدنا نحن إلى الراحة من عناء اليوم. وكانت هناك مفاجأة تنتظرني عندما استدعوني لتناول طعام العشاء، إذ كان صالح قد أعد وجبة من الأرز للاحتفاء بهذه المناسبة. وكانت بالحق وجبة جيدة بعد وجبات التمر واللحم المقدد الرتيبة، إذ كان سالم يزودني خلسة من اللحم الذي بدا مخزونه منه كثيراً. فقد وعدني بأن ما بقي منه يكفي ليوم الغد. ولا أدري هل كان موقف الآخرين من اللحم كذلك أم لا. وعدت بعد العشاء إلى إجراء بعض الملاحظات بواسطة الثيودولايت، وكان سعدان يعاونني. وفي خلسة من الجميع اشتركنا في تناول آخر علبة من المشمش المعلب قبل أن نهيئ أنفسنا للنوم.

نمنا تلك الليلة ونسيم بارد من الشرق يلطف الجو طوال الليل، مع أن الحرارة لم تهبط دون ٧٢ْف. وكانت السماء قد تلبدت بالغيوم حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً عندما أيقظنا زايد في محاولة لإشعارنا بحلول موعد التحرك، وذلك قبل أن يحين ميعاده الفعلي والمتفق عليه. ولكنه عاد إلى نومه ساخطاً وهو يدمدم ويتذمر عندما رفضت الانصياع له ولما يقوله ويريده. فقد كان يتوق إلى الوصول إلى السليل عصر اليوم التالي، ولكني لم أر منطقاً في إصراره على القيام بسير قسري خلال الليل في هذه المرحلة مما سيحرمني من رؤية المنطقة نهاراً. وفعلاً تحركنا بعد ساعتين، وكان الجو لا يزال مظلماً آنذاك وخاصة أن السماء كانت ملبدة بالغيوم ولا نجوم نهتدي بها. وكان سالم عاجزاً بالفعل من اتخاذ مسلك له. وكانت بوصلتي تشير بأننا نتجه صوب الشمال الغربي بينما كان اتجاهنا خلال عصر اليوم السابق نحو الغرب تماماً. وقبل سالم بإلحاح مني أن نلتزم بالاتجاه السابق نفسه لكنه غيّر اتجاهه فجأة طالباً مني القيادة في ذلك الاتجاه بواسطة البوصلة لأنه لن يتمكن من ذلك في الظلام حيث لا نجوم ومعالم نهتدي بها. أما الباقون فقد امتعضوا على ما حدث من تغيير في الاتجاه وأخذوا يسبّون ويلعنون أسلوبنا في تحديد الاتجاه، مما أجبرني على الشرح لهم عن أهمية البوصلة وفائدتها في مثل هذه الظروف، وتأكيد التزامي التام بالسير في الاتجاه الذي حدده سالم. ولكنهم رغم الشك الذي ساورهم، ظلوا خلفنا وهم يعترضون بين حين وآخر على مغبة الاعتماد على الآلات في حين أن كل ما هو مطلوب هو إحساس بالاتجاه ليرشدنا على نحو قويم. قلت لهم: «قد يكون كلامكم صحيحاً. ولكن سالماً يقول بأن نلتزم نفس الاتجاه الذي كنا نسير فيه خلال اليوم السابق وحتى تَوقُّفنا للمبيت، وهذا هو الاتجاه الذي

نسير فيه الآن. ولكن أخبروني، أين المشتري هذه الليلة، ذلك النجم الكبير الذي كنا نهتدي به يومياً؟» فأشاروا دون تردد تجاه الشمال الغربي، الاتجاه الذي كانوا يسيرون فيه عندما استدعيناهم. فقلت لهم: «لا. ليس كذلك. إنه أمامنا مباشرة خلف السحاب، والله أعلم».

ولكنهم لم يقتنعوا إلا سالماً الذي وضع ثقته العمياء فيما أقول. وهكذا واصلنا السير والجمال تتعثر في مشيها فوق الأرض الحصبائية، وفجأة انقشع جزء من السماء أمامنا وإذا بالمشتري يطل من أمامنا مباشرة، وصفق سالم جذلاً وهو يهتف: «أنت الذي قدتنا يا شيخ عبد الله هذه الليلة الحالكة، أنت وبوصلتك، أليس كذلك، يا رفاق؟ ذلك هو النجم الذي نهتدي به ولولاه لانحرفتم عن الاتجاه الصحيح. وكنا سنصل إلى حمام وليس السليل إذا ماتبعناكم!» ابتهج الرفاق؛ إذ كان ثمة هاجس صحيح وشك يساورهم حول الاتجاه الصحيح الذي نسير فيه، واندهشوا من تمكني من قيادتهم أثناء الظلام بمعاونة جهاز البوصلة. وأريتهم النقاط اللامعة «في عقرب البوصلة» وقد اندهشوا لذلك، وأخذوا يتذكرون بكثير من الإطناب ما حدث من قبل مثل معرفتي بشويكلة وتحديد موضع نيفة بالنسبة إلى السليل. وكنت قد أخبرتهم بأننا نحتاج ١١٢ ساعة لاجتياز ٣٥٠ ميلاً لنصل إلى السليل. وفي النهاية وصلت مدة سيرنا ١١١ ساعة، رغم أنه من المحتمل أننا سرنا بشكل إجمالي بمعدل جيد يزيد على خمسة أكيال في الساعة واستطعنا قطع مسافة أقرب إلى ٦٠٠ كيل من ٥٥٥ كيلاً اقترحتها بناءً على حساباتي المعتمدة على المسافة التي تفصل بين نيفة والسليل عبر الطريق الذي سلكناه، وهي مسافة تصل إلى ٣٧٥ ميلاً.

اختفى المشتري خلف السحب ثانية وواصلنا السير في الظلام وأنا أتأمل في كيف أن هذا الكوكب قد ارتبط بمصيري منذ البداية. فعندما كنت في الرياض في نوفمبر، حين اعتدت على أن أصحو مع أذان المؤذن الأجش لأراه يحملق بوجهي من قصره في المنجل وكأنه يسخر مني، وكنت أنتظر على أحرّ من الجمر موافقة ابن سعود على ما كنت أنوي القيام به. وكان المشتري يطرح عليَّ نفس السؤال كل يوم: هل ستتحقق أمنيتي أم لا؟ ثم حلّت أيام البهجة عندما تحدث ابن سعود عن الرحلة ووافق عليها، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً رافقني الكوكب ليلاً عبر السماء يحميني أثناء تجولنا في الصحراء، وأخيراً قادنا خلال آخر مرحلة من رحلتنا الليلية عبر الصحراء الجافة عندما أطل برأسه من خلال فجوة السحاب ليؤكد صحة قيادتي.

كانت لحظة عظيمة تلك التي ركبنا فيها جمالنا لنواصل السير الذي سيؤدي بنا إلى ديارنا. وكان العالم من حولنا قد تحول تماماً تحت جنح الليل، إذ وجدنا أنفسنا في سهل حصبائي، وإن كان يختلف عن ذلك الذي مررنا به في كونه مقلماً بشرائط، ليس من الرمل، بل من الشجيرات الخضراء. وكانت الأرض تفيض بالرطوبة وثمة خطوط داكنة من نبات الحرمل تعيّن مجاري السيول الضحلة التي تتدفق من مرتفعات طويق، بينما بعيداً إلى جهة اليسار كان شريط أعرض من الخضره يكشف عن مكان مجرى وادي الدواسر الذي ينتهي حاليّاً في الصحراء الحجرية، فائضاً بالأمطار المحلية التي كان يجري بها فيما مضى نهر كبير يصب في دلتا شنَّة. وكانت مجموعة من شجيرات الأكاسيا تنتشر هنا وهناك في المجاري التي

تنتشر على السهل الحصبائي، واستطاع صالح أن يسحب بومة لجأت إلى حفرة ضب مهجورة.

بقينا أنا وسالم في المقدمة نقود القافلة عبر السهل العظيم والمجاري العديدة التي تعبره من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وكأنها تنحدر من منحدرات جبال طويق متجهة نحو مجرى وادي الدواسر الرئيس. وبدا السهل وكأنه لوحة شطرنج تتناوب فيه بقع من الألوان الداكنة والخفيفة، وخالياً من أي علفٍ لأبلنا. فالحرمل نبات سام بينما لم تحظ الأكاسيا باهتمام الجمال التي تأففت من الاقتراب منها. ولكن اختلف الأمر عندما وصلنا إلى بقعة من عشب الضَّعة المتناثرة، كانت نصف ميتة لكنها عادت مخضرة بعد الأمطار الحديثة. وقد تجمعت حوله الإبل وهي تدفع بعضها البعض وتأكل بنهم شديد، وكان قليلاً لا يقيم أود تلك الحيوانات الجائعة التي قضت ما يقرب من ثلاثة أيام دون طعام. وقال سالم بأنه لم يقم برحلة طويلة كهذه دون طعام للجمال التي تعطش بسرعة إن لم تكن قد أكلت علفاً طريّاً؛ وإذا أصابها العطش الشديد فإنها لا تشرب إلا بعد أن تأكل، ولا تستطيع الصبر على السير دون طعام أكثر من خمسة أو ستة أيام كحد أقصى وبعدها تهلك، ولكن بإذن الله سنجد طعاماً أفضل أمامنا». وكان هذا رأي الجميع. ولذلك اندفعنا وسط السهل المجدب نسابق الزمن. وكان مزاج زايد معكراً، ولم يعد يشجّع كعادته إعداد القهوة عندما توقفنا عند الفجر ليعبِّر عن امتعاضه لإصراري على المبيت الليلة الماضية؛ ثم جاء المشتري ليدحض اعتراضه على الطريق التي حددته بوصلتي. وكان مثار اعتراضه هو ضياع تلك الساعات الثمينة التي كانت ستوصلنا إلى السليل قبل المغيب، وكان أن

أخـذ يدفع الجمـال دفعـاً ليـحقق ذلك الهـدف رغم أنفي، ولكنني التزمت الصمت عندما علمت من بوصلتي بأن سالماً غير اتجاهه إلى الجنوب الغربي بدلاً من الغرب الذي كنا نتجه إليه. وكانت الصحراء تمتد أمامنا إلى ما لا نهاية، وكان في إمكاننا أن نصحح الاتجاه حيث نريد، فإن أميالاً إضافية لا تضر وإن كانت ستحرم زايداً من نشوة الانتصار.

وهكذا واصلنا السير لخمس ساعات أخرى عبر برية فسيحة من الحصباء ذات لون مائل للبياض تتناثر فيه حفر الضب، ولكن لم يكن هنا أثر للنبات إلا من شـجيرات الحرمل والسمر، وإن كـانت النبـاتات قـد بدأت تطل برؤوسها من الأرض، ولكنها كانت قصيرة جداً لا تستدعي التوقف من أجلها، ولكن صفوف نبات الحرمل البعيدة كانت تدفعنا نحوها على أمل أن تكون نبات الضَّعة. وهكذا سرنا حتى حلت الساعة العاشرة صباحاً عندما أعلنت عن نيتي في التوقف عند أول مجموعة من أشجار سمر نمر بها. أسرع زايد الخطى وأصبح في المقدمة حين تباطأ الآخرون ليتأكدوا إلى أي مدى ألتزم بما أقول. وفعلاً توقفت عند أول مجموعة من الأشجار وذهبت أطارد فراشة رأيتها تثب من زهرة حرمل إلى أخرى، بينما انصرف الباقون إلى إعداد القهوة. وجاء زايد وقد ازرق وجهه من الغضب، ولكنني التزمت الصمت وتركته لرفاقه يمتصون غضبه ويهدِّئونه. ولكنه جلس بعيداً مقطب الوجه والجبين ونحن نحتسي أقداح القهوة ونأكل التمر. وبعد ساعة واصلنا السير، وعندئذٍ وضحت لسالم خطأ الاتجاه الذي نسير فيه. ومع ارتفاع الشمس إلى كبد السماء، أصبحت الصحراء غائمة إلى حد ما ولم تعد الرؤية الضعيفة تتيح لنا رؤية المرتفعات البعيدة بكل وضوح. واقترح سالم بأنه من

الأفضل والأمان أن نتجه نحو الغرب لمسافة حتى نتمكن من رؤية أي معلم لنهتدي به بعد ذلك. وكان أن غيرنا الاتجاه. وجاء زايد يعدو خلفنا وقد اشتد به الغضب وهو يصيح: «ما هذا؟ هل جننتم!! تغيرون الاتجاه هكذا، فقد جاء الظهر وأنتم تتجولون هنا وهناك في هذه الصحراء. إن الماء هناك، هناك!» قالها بتحدٍّ وهو يشير إلى الجهة التي حولنا اتجاهنا عنها. لم أكن أريد أن أترك سالماً يتحمل وطأة ما حدث، ولذلك تصديت لزايد وتحديته فيما قال، إذ بدا أنه غير متأكد مما يقول: «يا زايد! سالم هو قائدنا وقد قادنا عبر الصحراء طوال الأيام السابقة. ما هو الخطأ الذي ارتكبه حتى تتساءل عن قدرته في القيادة الآن؟ وهل أنت من أولئك الذين يدّعون معرفة مصادر المياه في منطقة لم ترها منذ ولادتك! ومع ذلك فكل ما تقوله عن وجود الماء هناك صحيح، فهناك توجد مياه الحسي والقُرّية على الطريق الذي يؤدي إلى نجران، ولكننا نبحث عن السليّل وآبار لطوة، وهذا يختلف، وهذا يقع في هذا الاتجاه -اتجاه الشمال الغربي- وإلى هناك سأتجه وليس إلى حيث تريدنا أن نذهب، أما أنت فأفعل ما تريد لنفسك. ومع ذلك، انظر يا زايد، لقد عبرنا الربع الخالي ولك الشكر في أنك حاولت أن تفسد خططي مرتين من قبل، وتريد أن تفسدها هذه المرة، وإني أريد أن أسألك، لماذا تريد أن تتشاجر الآن وماذا ستكسب من ذلك؟ ويمكنك أن تذهب من السليل إلى منزلك، ولكن ليس في صحبتي، كما يمكنك أن ترافقني إلى مكة إذا أردت ذلك. ولكن من الآن فصاعداً، لا أحتاج إليك، ودعنا نعيش في سلام. فقد تشاحنا كثيراً، ولا أريد أي شيء من ذلك الآن. وعلى أي حال، سأذهب مع سالم إلى هناك، وإذا أردت أن ترى السليل، عليك أن تأتي معنا، ولكن كف عن الكلام والزم الصمت!».

تراجع زايد إلى مؤخرة القافلة مهزوماً بينما كان سالم جذلاً لأني دافعت عنه، وهكذا واصلنا السير عبر الصحراء المقفرة دون أي أثر لتلك المعالم التي يمكن أن نهتدي بها. وكان سالم يبخس في تقدير المسافة، ولكن بدا أكثر ارتباكاً من ذي قبل. وأخيراً توقف وهو يضع يده فوق عينه ويحملق بعيداً في الفراغ الذي أمامه، وقال: «انظر، لقد تُهت. فقد مضى وقت طويل منذ أن رأيت هذه الأماكن، ولم أعد أعرفها الآن». فطمأنته قائلاً: «لا تخف. ولكن إذا أردت، عليك أن تتحرك أكثر إلى اتجاه الشمال الغربي. ومن الأفضل أن تتجه شمالاً إلى طويق بدلاً من الاتجاه جنوباً إلى الصحراء الجافة الواسعة». وهكذا سرنا تجاه الشمال الغربي لنصف ساعة عندما رأينا بعيداً على يسارنا حيداً منخفضاً ينتهي بهضبة صغيرة مدورة يعلوها ركام من الحجارة، بينما كان شريط من أشجار الحرمل والأكاسيا يتبع على يميننا مجرى وادٍ ينحدر من منحدرات الطويق السفلى. قال سالم: «إنني لا أرى جيداً، ولكن إذا كان الذي يبدو هناك ركام من الأحجار فإنه بالتأكيد رجْم الماء». ثم طلب من سويد أن يذهب بصحبة بعض الرفاق ليتأكد من أن ذلك هو الركام الذي يعنيه. وانطلق سويد ومعه صالح، فيما واصلنا نحن السير في اتجاه شمال الغرب لنأتي مباشرة بعد ذلك إلى مسارين أو ثلاثة من مسارات الجمال وهي تتعرج عبر الصحراء. فتنفس سالم الصعداء قائلاً بأن هذه المسارات ستقودنا إلى الماء إذا تبعناها. وكلما تقدمنا في السير تدفقت المسارات من كل جانب وهي تتجه من مراعي الصحراء إلى حيث الماء. ومررنا بأماكن الصلاة المحاطة بالحجارة، ورأينا على البعد «عرق الرمّاك» الذي يفصل بين سهل الجدّة الفسيح وسهل الفَرْشة الأصغر حيث يتفلطح الوادي ويتسع إلى دلتا في زاوية تتشكل من الأجزاء الشمالية

والجنوبية من طويق. وكان نسيم عليل يهب من خلفنا من جهة الشرق يلطف من شدة الحرارة، وكانت السماء ملبدة بغيوم داكنة فوقنا، وهطلت قطرات منها ونحن نتجه إلى أجمة من أشجار الأكاسيا لنؤدي صلاة العصر. وكان المكان يعج بروث الغزلان التي كانت تفد هنا بأعداد كبيرة للقيلولة.

بدأت الرياح، التي غيرت اتجاهها إلى الجنوب الشرقي، تشتد ونحن نواصل سيرنا عبر الكتف الأيمن المسطح لعرق الرماك والذي أطللنا من خلفه على خط عريض من الشجيرات الكثيفة التي تشكل الفَرْشة أو السهل الفيضي لوادي الدواسر من النقطة التي يتدفق منها إلى الصحراء عبر مضيق لطوة. وكان الخط الخارجي لطويق يقع إلى يميننا مقلماً بمجاري سيول كثيرة تحمل شجيرات غزيرة وتنتهي عند السهل حيث تنتهي مصباتها عند حيود رملية تغطيها شجيرات الغضا. ويعرف أكبر هذه الحيود باسم «قوز الشَّيدية» من اسم شُعب يحمل نفس الاسم كنت قد عبرته في مجراه الأعلى وسط الطويق خلال رحلتي عام ١٩١٨م [١٣٣٧هـ]. بدأت قطرات قليلة من المطر تهطل ونحن نؤدي الصلاة، ورافقنا رذاذ في آخر مرحلة من رحلتنا عبر السهل الحصبائي الذي بدأ يكتسي بغطاء خفيف من الرمل حتى أطراف مجاري الفرشة الواسعة والتي قررنا أن نخيم فيها للمبيت. وكان بالحق مكاناً ساحراً عندما رأيناه صباح الغد. وكانت الريح تصفر بصوت مخيف ونحن نستلقي في العراء وكان لمعان البرق يخطف الأبصار وهزيم الرعد يأتي مكتوماً من بعيد. وكنا متعبين بعد رحلة قطعنا خلالها ٤٨ ميلاً رغم ظروف الطقس الملائمة التي صاحبتنا وعناد وغضب زايد المدروس الذي ألقى

بظلاله الكئيبة علينا في وقت كان المفروض أن نحتفي بهذا الإنجاز العظيم بما تبقى لدينا من مواد غذائية. آثرت أن أبقى بعيداً من الجمع الذي تجمع حول نار القهوة، كما رفض زايد وجلس بعيداً رغم إصراري على دعوته للمشاركة مراراً. ولهذا تناولت نصيبي من التمر مع الشاي وحيداً، ولم تكن الظروف مواتية لإجراء ملاحظاتي الفلكية المعتادة، وكان مخزوني من غاز البرافين قد نفد منذ فترة، ولذا لم يعد هناك ما أفعله إلا الخلود إلى سريري. ولم أكد أفعل ذلك حتى انهمرت السماء بزخات عنيفة من المطر، ولكنها توقفت فجأة كما بدأت وإن استمرت تمطر بين حين وآخر خلال الليل مما حرمنا من النوم العميق المتواصل. وبدأ سالم يعلن عن وجودنا وهويتنا بالطريقة المعتادة في الصحراء حتى لا ينقض علينا اللصوص الذين ربما يتربصون بين الشجيرات حتى يحين الوقت المناسب للهجوم علينا. وهلل القوم عند الدعوة لتناول طعام العشاء، وجاء سويد وهو يردد: «انظروا أيها الناس، نحن من رجال ابن سعود، نسير في مهمة ملكية إلى السليل، وأنا سويد العزمة من الدمنان، تعالوا إلينا وتفضلوا وتقاسموا ما معنا من طعام. لدينا الكثير منه وكذلك القهوة». وأطبق علينا صمت الليل، ولم نسمع شيئاً إلا من اجترار الجمال التي وجدت ما يكفي من علف في أشجار المرخ والحمض والغضا بعد أن تركناها تتجول لفترة ساعة تأكل منها.

صحوت على صوت المؤذن وهو ينادي لصلاة الفجر وعلى صوت شقشقة الطيور بين أشجار السمر والطلح؛ فقد كان كالموسيقى ينساب إلى أذني بعد أيام الصمت الرهيب في الصحراء كما استمتعنا بما قضيناه من وقت هنا، بينما الجمال ترعى ثانية النبات المبلل والريح تجفف أمتعتنا

المبلولة. وكانت النجوم قد اختفت، وغاب المشتري والمليك «في قلب الأسد». فقد تحقق ما سعينا له، ولن نسير بعد الآن ونحن نتخبط في الظلام بحثاً عن اتجاه يقودنا إلى حيث نريد. وكما يقول المثل العربي، قائد من يملك الإرادة والعزم يذلل الصعوبات ليصل إلى مبتغاه، (فمن جدّ وجد)، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم!.

تحركنا بعد أداء الصلاة وتناول القهوة مباشرة يتقدمنا عبد الله بن معدي وسويد لإعلان قدومنا إلى أمير السليل، ولم ننس أن نفوِّضهم بأن يعدّوا وجبة مناسبة للاحتفاء بوصولنا بالسلامة. وكنا فعلاً نتشوق إلى لحم غنم مسلوق بعد تلك الفترة الطويلة «شهرين ونصف» التي قضيناها بدون لحم يذكر، والذي كان يتكون عادة من لحم الإبل وبعض الأرانب، كما كنا نتوق إلى الخبز الذي لم نذق طعمه منذ مفارقتنا الهفوف، إذ حُذف الدقيق من مؤونتنا حينذاك. هكذا كنا نفكر في الغداء الدسم الذي ينتظرنا في السليل عندما تحركنا الساعة الثامنة صباحاً على طول الحد الشمالي من مجرى الفرشة، وكان الجرف المنخفض لطويق الشمالية يلتقي على يميننا، وعبر سهل منبسط من الحصباء والطين، مع الطريق الذي نتبعه والذي كان يتجه قليلاً إلى شمال الغرب صوب الممر الضيق الذي ينبثق منه وادي الدواسر بعد مروره من طويق.

وكانت منحدرات طويق الجنوبية الهينة تلتقي عند نفس النقطة من جهة الجنوب الشرقي بينما كان دغل الفرشة من الشجيرات المنخفضة الذي يبلغ عرضه ميلين، يجري بين طرفي طويق في خط مستقيم يتجه قليلاً إلى جنوب الشرق حتى الكتف الجنوبي لكثبان الرمّاك.

كان روث البهائم المنتشر في كل مكان يعلن بأننا على أعتاب الحضارة مرة أخرى؛ والتقطتُ يد هون من الأرض كان قد فقدها راعٍ مهمل، وكانت أشجار السرح المزهرة منظراً يسر العين، وهي تقف شامخة إلى ارتفاع يتراوح ما بين ٢٠ إلى ٣٠ قدماً، كما كانت أشجار الأكاسيا المزينة بشرابتها الصفراء الزاهية. وكانت الطيور تغرد وتسقسق بين فروعها وطيور السنونو تحلق منخفضة لتنقض على الحشرات التي تنشط بين زهور الربيع. فقد كان بالحق منظراً رائعاً. وأخيراً رأينا مبنى، برج مراقبة صغير عند طرف مجرى مليء بالشجيرات، ووراء منخفض طيني يقال له المنقع أوالمستنقع. فقد كان جافّاً عندئذٍ، ولكنه اشتهر ببقاء الماء فيه لشهور بعد انتهاء موسم الأمطار، وكانت آثار أقدام الأبقار في الطين الصلب تحكي عن أيام رخية ماضية. وتوقفنا قليلاً نتفرس في البرج الذي بلغ ارتفاعه ١٨ قدماً وكان أول مسكن بشري نراه منذ مغادرتنا يبرين.

أوشكت رحلتنا على الانتهاء. وها هي مجموعات أشجار الطرفا التابعة لقرية الخانق بادية أمامنا في الخانق، وتلك التي تنمو في مجرى وادي الفرشة، كما تراءت أمامنا الخرائب الحجرية الكائنة على المنحدرات الخارجية لطويق والتي رأيتها قبل ١٤ سنة. وفجأة حدثت حركة في الشجيرات التي على يسارنا، ربما بهائم تتحرك؟ لكن ليس كذلك! إنهم رجال يتحركون خلسة في نظام مفتوح كأنهم يريدون اعتراض طريقنا، وقد أحصينا منهم سبعة، ربما هناك أكثر، وامتدت الأيدي غريزيّاً إلى حيث تتدلى البنادق وصوت الذخيرة وهي تعبأ في البندقية. ولكننا لم نتوقف إنما واصلنا السير ببطء وثبات حتى بدا لنا ومن بعيد أيضاً، أنهم لا يحملون

سلاحاً. وهتف صالح مؤكداً بأنهم غير مسلحين، فأيد آخر قائلاً بأنهم نساء يعبرون طريقنا، وربما أتين ليجمعن حطب الوقود، ودون شك يظنون أننا لصوص أو قطاع طرق جاؤوا يغيرون عليهن. انظر كيف يقفن أمام طريقنا. هكذا نساء نجد دائماً! وحينئذ كانوا قد اقتربن منا، فهتفنا: «السلام عليكن»، فرددن التحية صائحات: «وعليكم السلام، أهلاً وسهلاً».

توقفنا عندما وصلنا إلى جماعة النساء، وكن يلبسن العباءات ومتحجبات، وتبادلنا التحيات مرة أخرى. وانبرت من وسطهن امرأة كبيرة وأخذت تتحدث بالنيابة عنهن وهي تتقدم الصف، سأل زايد: «ما هي الأخبار؟ كل شيء على ما يرام. كل خير»، أجابت السيدة: «أهلاً بكم. من أين أنتم قادمون؟». قال زايد: «نحن قادمون، كما ترين، عبر الصحراء ونحن عائدون لوحدنا. لم نر شيئاً إلا خيراً. لا مراعي ولكن الأمطار طيبة». قالت السيدة: «هل رأيتم آثار أعداء؟» فأجاب زايد بالنفي، ثم بدأ يسأل عن المحاصيل وأسعار الدقيق والبلح عندهم. فأجابت بعد أن شكرت الله على النعم التي أغدقها عليهم هذا الموسم: «يمكنك الحصول على صاعين من الدقيق الجيد بريال، والتمر بستة أو سبعة أوزان». كانت بقية النساء الأخريات يقفن خلف السيدة مشدوهات. وتحركت إحداهن، ربما ابنة السيدة، إلى جانب والدتها وبخجل أزاحت الخمار عن وجهها قليلاً لتكشف عن عيون لامعة تحت حواجب في غاية الجمال، وتبادل الرجال الإعجاب بها، ولاحظت أن ضخامة عتادي وتفوق وشموخ ناقتي استرعى انتباهها، إذ حدقتني بنظرة جميلة ساحرة. ولكن لم يكن هناك وقت لنضيعه. كان زايد قد انتهى من حديثه مع السيدة، وكان علينا أن نواصل

السير بعد هذا اللقاء المثير بعد تلك الأيام القاحلة في الصحراء. ثم دخلنا خانق وادي لطوة تاركين النساء يجمعن الحطب، وعدت أنا مرة أخرى إلى أحضان مناظر مألوفة لا تنسى لأيام جميلة مضت.

كانت الخرائب الحجرية لقرية السليل الأصلية ما زالت تغطي منحدر الطريق الهين، حيث تمتد نحو أسفل طرف الوادي، وكانت فتحات الجدار والأجزاء التالفة من الحصن تتوج الحيد بهياكلها الكئيبة. وكان الوادي نفسه يحمل ندبات وبثور جفاف طويل أطبق على هذا الجزء من الجنوب بعد سنة أو سنتين من زيارتي الأولى واستمر دون انقطاع حتى الآن. وها أنذا أحضر هنا على أعقاب أول مطر يصيب المنطقة بعد الجفاف، جاء المطر يحمل الأمل لمستقبل جيد وعزاء للناس من معاناة الماضي.

لم تعد هناك بساتين النخيل المتناثرة التي رأيتها عام ١٩١٨ [١٣٣٧هـ]. فقد ماتت أشجار النخيل أو قطعت، كما جفت الآبار العشرون وهُجرت لأن البهائم قد نفقت من الجوع؛ ولم يتمكن المزارعون الذين أفقرهم الجفاف من تعويضها، وتحولت الأكواخ والمناطق الزراعية إلى خرائب، ولم يترك الجفاف وراءه إلا الدمار والخراب إلا من بعض الحقول المزروعة حول آبار تمكّن الأغنياء من إبقائها فاعلة. وهكذا وصلنا أرضاً متسعة في الوادي يحيط بها من الشمال بقايا «قصر ثاري». وهناك وجدنا بئراً حية تروي حقلاً من القمح والشعير، ووجدنا أربعة رجال وامرأة يسحبون الماء من البئر ثم يفرغونه في الحوض الذي يغذي الحقل.

وجاء رجل من تحت شجرة طرفاء وارفة الظل تقع بالقرب من البئر يقرأ السلام علينا ويستقبلنا باسم أمير السليل: «أهلاً بكم. . أهلاً وسهلاً. ربنا

يعطيكم العافية. إنها ساعة منذ وصول رسولكم وجئت هنا بأمر الأمير فرحان لأخدمكم». كان اسمه ماجد وكان شاباً طلق المحيا وعذب اللسان، ترجلنا وبدأت المصافحة وتبادل التحيات، وسيقت الجمال بعد إنزال ما عليها من أحمال إلى الآبار لترتوي. وهكذا انتهت الرحلة وعبرنا الصحراء الجافة، وربما لأول مرة في تاريخ البشرية، قطعنا خلالها ٣٧٥ ميلاً، بين الماء والماء -أي بين نيفة والسليل-. ومع ذلك كانت الجمال تشرب بحذر.. فقد كانت عطشى للغاية.

الفصل الخامس

الخاتمة

«ها هي جماعة تأتي من أعماق الربع الخالي، حيث تسود المجاعة والجفاف».

زايد

انتهت قصة الربع الخالي. وبعد مسيرة ساعة بعد ظهر اليوم الرابع عشر من مارس وجدنا أنفسنا بين بساتين نخيل السليل حيث نصبت الخيام احتفاء بمقدمنا في ركن إحدى قرى الواحة.. قرية آل محمد. لم يطرأ تغيير يذكر هنا منذ أربع عشرة سنة، نفس صفوف بيوت الطين الطويلة وهي تنتأ تجاه الصحراء، ونفس منظر النساء في ثيابهن الحمراء وهن يتجمعن عند بئر القرية، ونفس الحشد من الأطفال يجرون في صخب دون عمل يؤدونه، ونفس الكبار الذين يعيشون في فراغ دون هدف على ما يبدو. ومع ذلك فقد ساءت الأمور وتدهورت الحال مع مرور الأيام. فقد أتت المجاعة على الماشية وقلصت من المساحة المزروعة نخلاً، كما أغلق حلول السلام في ربوع المنطقة الطرق التجارية المؤدية إلى أسواق اليمن والتي راجت أثناء الحرب؛ وأبعد انهيار صناعة صيد اللآلئ في الخليج العربي، تحت وطأة الكساد الاقتصادي العالمي، مواطني هذه الواحة الصحراوية من عملهم التقليدي. وكان المسن عبدالله بن نادر الذي أكرم وفادتي في قرية الحنيش، يعمل مع آبائه في التجارة، وما زال ابنه سالم يدير تجارة رابحة، وما زال فرحان الرويّة أميراً على قرية آل محمد، وهو رجل جذاب رغم عمره الكبير، ذو طلعة كالثعلب وجشع ولكنه يتميز بالطيبة مما يمحو صفاته

الأخرى. وجاء أحد كبار تجار أيام الرخاء يلتمس الصدقات -بعد أن زال الرخاء- وجاء يستجدي ما يقيم به أوده. كان الفقر والجدب منتشراً. وبعثت أخبار الأمطار التي هطلت خلال الأسابيع الماضية أملاً جديداً في العديد من الناس الذين كانوا قد استسلموا في يأس وقنوط إلى إرادة الله. جلسنا نتناول وجبة غنية من لحم الغنم المسلوق، نغمس الخبز والأرز ونملأ به بطوننا التي لم تذق طعاماً جيداً منذ فترة، ثم تناولنا العشاء مع فرحان، وكان مثل سابقته بسيطاً جيد الطبخ ومغذياً. ولكن معدتنا امتعضت من هذه الوفرة وكان أن قضينا أياماً نعاني من آلام لا سبب لها إلا تناول طعام جيد. ويقال: إن قطعان السليل تتغذى على نبات السنا، وهو نبات مسهل يعرفه ذواقة مكة جيداً، ويمكن أن تكون لحومها مطعمة بالمادة المسهلة، أو ربما من البرد الذي تعرضنا له من المطر والرياح في أيامنا الأخيرة في الصحراء.

كنا جميعنا نعاني من المرض. وبزغت شمس منتصف شهر مارس كئيبة على مجموعة منهكة بمغص حاد. وخلال تلك الفترة كنت أجوب البساتين بحثاً عن الفراشات والنباتات وكان الأطفال يأتون إليّ يحملون طيوراً صغيرة أمسكوا بها في شراكهم المصنوعة محليّاً. وكان لا يزال هناك طريق طويل ومرهق ينتظرنا، وما بقي من الوقت قصير إذا أردنا أن نصل مكة في الوقت المناسب لأداء مناسك الحج. إذن لم يكن هناك وقت نضيعه سدى، ولم يعد هناك شيء يبقينا في السليل بعد أن ارتاحت جمالنا وارتوت ونالت كفايتها من نبات الصحراء وبرسيم المزارع.

وسنعود مرة أخرى خلال الأيام والأسابيع القادمة إلى زيارة قرى وادي الدواسر لنجدها غير ودودة كما كانت -وإن كانت أقل عداء- تحت إشراف

حكم حاكم قوي ونافذ؛ كما سنرى واحات وادي بيشة العظيم، ونعبر مجرى تثليث ورنية، وسنمضي في الوقت المناسب عبر حَرّة البقوم حيث يشيرون إلى اليوم إلى الطرق التي سلكتها جيوش أبرهة، ملك الحبشة، في «عام الفيل»، وسنرى آخر موقعة حربية في الجزيرة العربية تناثرت فيها جماجم وعظام جيش الشريف الذي قضى عليه جيش ابن سعود في تربة، وأخيراً سنصل إلى مكة في اليوم التسعين من مغادرتي الهفوف.

وستحملنا الجمال التي أتت بنا عبر الصحراء إلى مكة لأداء الحج، وبعدها سنفترق أنا ورفاقي إلى الأبد، وتبقى بيننا الذكريات الحلوة التي جمعتنا في مهمة كنت أحلم بتحقيقها لأربع عشرة سنة، وأرهقت أعصابهم لأسابيع مماثلة في صحراء قاسية. وأنا أدين لهم، وإلى تلك الحيوانات التي حملتنا عبر الصحراء، وهي تتضور جوعاً وعطشاً ولكن دون شكوى، بشرف هذه المغامرة العظيمة. أما ما ينالني من شرف في هذا فيتمثل في أن أسرد قصة هذه المغامرة مشفوعة بالإجلال والإخلاص والثناء والتقدير الصادر من القلب إلى ملك الجزيرة العربية(*).

(*) دوّن فيلبي نتائج رحلته هذه إلى الربع الخالي في عدة صفحات ونشرها في كتاب فؤاد حمزة «قلب جزيرة العرب» (الرياض، مكتبة النصر الحديثة، ١٣٥٢هـ) ص ص ٣٩٧ - ٤٠١ وذلك بناء على طلب من فؤاد حمزة. (المراجعون).



الملاحق

نلفت نظر القارئ الكريم أن كثيراً من الأسماء العلمية (اللاتينية) الواردة في هذه الملاحق قد تغيرت الآن، وقد أوردناها كما هي في الكتاب الأصلي.

المترجم

أ- النيازك والمومضات Meteorites and Fulgurites

بقلم د. إل. جي. سبنسر
عضو الجمعية الملكية
قسم المعادن، المتحف البريطاني

١- حديد نيزكى وزجاج - السيليكا من فوهات وبار النيزكية:

تُبينّ قطعة المعدن الكبيرة التي عثر عليها بالقرب من فوهات وبار، تلك السطوح المحدبة، التي يتسم بها الحديد النيزكي، الذي تعرّض لعوامل التجوية. فالقطعة تغطيها جزئيّاً قشرة صدئة، ومن الواضح أنها جزء من كتلة أكبر حجماً، إذ يبلغ وزنها -عندما تُسلِّمت من المتحف البريطاني- ٢٥ رطلاً (١ , ١١ كم)، وتتسم بشكل غير منتظم، وأبعاد تصل في حدها الأقصى إلى ١٠ × ٦ × ٥ بوصات. ومع أن بعضاً من القشرة المفككة قد أزيلت من القطعة، فإن جانباً منها كان لا يزال مكسواً بكتلة سميكة مصفحة ومغناطيسية ذات لون بني غامق مع حبيبات رمل ملتحمة. وبعد تصوير الكتلة (شكل ١٤ أ)، تم نشر طرف منها ثم بَرْدُه وصقله. وعندما غُمس السطح المصقول في محلول مخفف من حامض النيتريك، ظهر التركيب البللوري الداخلي فوراً، وتوقفت عملية الحفر (بفعل الحامض) بعد مضي دقيقتين أو ثلاث. وكانت النتيجة الشكل ١٤ ب. وتعرف الأنماط الجميلة التي ظهرت على السطح المحفور بأشكال ويدمانشتاتن Wiamanstatten التي تُرى على هذا المستوى فقط في الحديد النيزكى. ويتكون التركيب البللوري من أحزمة متناوبة من أشابة من الحديد والنيكل وأحزمة أعرض من (الكامسايت) تفصل بينها أحزمة دقيقة من (التينايت) الناصع. أما المكوِّن الثالث والذي يشغل الفجوات الداخلية الزاويّة فتعرف بـ (البلسايت)

ويتكون من الحديد والنيكل ولكن بنسب مختلفة. وتوجد بثور أو فقاعات دقيقة من النزويلايت ذات اللون الأصفر البرونزي (سلفايد الحديد) مطمورة في الحديد - النيكل. ويمكن التعرف على العديد من أنواع الحديد النيزكى وذلك حسب تركيبه البللورى. وقد صُنّف حديد وبار (وفق تركيبه البللورى) كـ (أوكتا هدرايت) متوسط الحجم، ويحمل نظاماً معقداً من خطوط في غاية الدقة (خطوط نيومان) على أحزمة من الكامسايت، وهي أحزمة انزلاقية ربما نتجت من الصدمة التي صاحبت ارتطام النيزك مع الأرض.

وقد أجرى هـ. م. هيي، من المتحف البريطاني، تحليلاً كيمائيّاً مفصلاً على حديد وبار أظهر أن ٩٢,٠٠٪ منه يتكون من حديد و ٧,٣٠٪ من النيكل مع كميات قليلة من الكوبالت والنحاس والكبريت وآثار من البلاتين والكلور والكربون، وبلغ ثقلة النوعى ٧,٦٦ [(١)].

وقد جمع السيد/ فيلبي، بالإضافة إلى هذه القطعة الكبيرة من الحديد، ست قطع أخرى أصغر حجماً، وكذلك شظايا من مواد صدئة تماماً بها حبيبات رملية ملتحمة، تشكل كلها أجزاء متبقية من كتل أكبر حجماً تعرضت لعوامل التجوية. وتزن أكبر قطعة منها ٣٣ جراماً (أكثر من أوقية واحدة). وقد تم نشر إحدى القطع الحاجزتين كما تم صقلها وحفرها بغية تحديد تركيبها الداخلي الذي بدا مغايراً تماماً للتركيب الداخلي للكتلة الكبيرة. فالتركيب الداخلي كان موجوداً، ولكن لم يكن واضح المعالم، بل مشوشاً كما لو كانت قد تعرضت جزئيّاً للتشويه أو الطمس. فقد كانت

(١) ستنشر المعلومات الكاملة عن نيزك وبار لاحقاً في مجلة (المينور ولوجيكال ماجزين).

أحزمة (التينايت) الدقيقة واضحة للعيان بينما بدت (الكامسايت) مفعمة بحبيبات أو ذرات دقيقة. ويمكن إنتاج هذا التغيير اصطناعيّاً في الحديد النيزكي عن طريق تسخينه إلى درجة حرارة ٨٥٠ْم. وثمة إشارات بأن عملية التحبب هذه قد بدأت تصيب أجزاء من كتلة وبار الكبيرة كما يتضح من الصورة (شكل ١٤ ب).

من المحتمل أن تصل درجة حرارة النيازك القادمة من الفضاء الخارجي إلى الصفر المطلق (أي ناقص ٢٧٣ْم). وعند مرورها القصير عبر الغلاف الجوي حين يتوهج سطحها باحتكاكها مع الهواء، لا يتيح ذلك الوقت القصير للنيزك، وخاصة الأجزاء الداخلية، امتصاص كمية كافية من الحرارة. ولذلك تكون النيازك دافئة فقط عند التقاطها مباشرة بعد سقوطها على الأرض. وتظهر كتل صغيرة من الحديد لا يتعدى وزنها بضعة أرطال، والتي شوهدت تسقط فعلاً، تركيب (ويدمانشتاتن) بصورة واضحة وذلك في نطاق ضيق على السطح الخارجي، مما يشير إلى أن درجة الحرارة لم تقارب ٨٥٠ْم.

ومن المحتم أن الظروف في وبار كانت مغايرة، بل شاذة، لما يحدث عادة عند سقوط النيازك. فالذي حدث هنا أن وابلاً من كتل حديدية هو الذي تسبب في حفر تلك المجموعة من الفوهات، وأن الدليل المباشر لتولد درجة عالية من الحرارة حينذاك يتمثل في زجاج السيليكا الرائع الذي جمعه السيد/ فيلبي. ولا شك في أن كتل الرماد تلك وكذلك الخبث البركاني التي تناثرت بكميات كبيرة حول الفوهات هي التي أدت إلى نسج أسطورة المدينة المحروقة. كما أن هذه الكتل قد أوحت أيضاً بنفس القدر بوجود بركان وحدوث ثورة بركانية. ولكن عند إخضاعها للدراسة تبين أن هذه المادة تتكون تقريباً من زجاج سيلكوني نقي يحتوي، حسب التحليل المفصل

الذي أجراه السيد/ هيي، على ٨٨, ٩٢٪ من السيليكا بالإضافة إلى كميات من الألومينا وأكاسيد الحديد والجير والبوتاش . . . إلخ. مع كثافة نوعية تصل إلى ١٠, ٢ ومعامل انكسار ٤٦٨, ١، كما أن الزجاج متساوي الخصائص من كل جهاته من الناحية البصرية.

وبهذه الأوصاف ومن حيث وفرة حدوثها اللافت للنظر، تمثل هذه العينة أكثر أنواع زجاج السيليكا التي تم اكتشافها على الطبيعة حتى الآن. وبالإضافة إلى الكتل الرمادية المحطمة التي تبلغ تسع بوصات من جانب لآخر، توجد أعداد كبيرة من مقذوفات بركانية ذات أشكال وأحجام متنوعة تتروواح ما بين خمس بوصات إلى حجم (اللآلئ السوداء). وتتسم هذه المقذوفات البركانية بخفة وزنها لكونها مجوفة ولاحتوائها على فقاقيع كثيرة ذات أحجام متنوعة تتراوح من ٥, ٢ بوصة إلى ١/٥٠٠٠ من البوصة. ويتكون الكثير من هذه المقذوفات من الداخل من زجاج سيلكوني ناصع البياض يشبه الخفاف (البيوميس)، ومطلي من الخارج بغطاء رقيق من زجاج سيلكوني حالك السواد يخلو تقريباً من الفقاقيع، كما أن سطحه عادة ما يكون ناعماً ولامعاً ويحمل بثوراً صغيرة تتكون أيضاً من الزجاج الأسود. ويُظهر التحليل الذي قام به السيد/ هيي على الزجاج الأسود نسبة أقل من السيليكا مقارنة بتلك التي ورد ذكرها بشأن الزجاج الأبيض. وكانت النسبة ٤٥, ٨٧٪ سيليكا ونسبة أعلى من الحديد (في شكل أكسيد حديد Ferrous بنسبة ٧٧, ٥٪ وأكسيد حديد Ferrie بنسبة ٢٨, ٠٪) وقليل من أكسيد النيكل (٣٥, ٠٪).

ولا شك أن هذه المقذوفات البركانية قد قُذفت من بركة من السيليكا المصهور تكونت بصهر رمال الصحراء النظيفة في الموضع الذي ارتطم عنده النيزك بالأرض. ولا شك أيضاً أن طبيعتها المسامية العالية تعود إلى التبخير

الجزئي الذي تعرض له السيليكا. واكتست المقذوفات البركانية -وذلك عند تبعثرها وتناثرها خلال بخار السيليكا والحديد والنيكل- بطلاء من زجاج أسود اللون. وربما تمثل البثور التي تناثرت على الطلاء قطرات من ندى السيليكا التي تكثفت على سطوح المقذوفات البركانية. وفي فترة فاصلة لاحقة، شملت العملية حجراً رملياً سفلياً أقل نقاوة (إذ يحتوي على ٦, ٩٢٪ سيليكا) انصهر إثر ذلك إلى زجاج سيلكوني ذي لون أغبر مائل إلى الزرقة ويحتوي على شظايا زاوية من الزجاج الأبيض كان قد تصلّب وتماسك قبلا. ولكنه لم يقذف خارج الكتلة بل طمر بداخلها مما أفرز نوعاً من الدملوك أو الخرسانة الطبيعية (كونقلومرات). وتُظهر العينة سطحاً لزجاً ودبقاً من السيليكا المصهور (شكل ١٢ أ) وتبدو كإحدى المقذوفات التي قذفت لاحقاً بعد فترة قصيرة.

ينصهر الكوارتز عند حوالي الحرارة ١٧٠٠ْم ويتبخر عند درجة حرارة أعلى في القوس الكهربائي. وبإجراء عملية حسابية بسيطة يتضح أن الحرارة التي تتجاوز هذا الحد يمكن أن تتولد من تأثير التصادم المفاجئ لنيزك كبير الحجم مثل كتلة ضخمة من الحديد ذات قوة دافعة واجهت كبحاً قليلاً نسبيّاً من قبل مقاومة الهواء المحيط بها.

تملك كتلة من الحديد تزن ١٠٠ طن (٢٤, ٢×١٠ْ أرطال)[1] وتنطلق بسرعة ٢٥ ميلاً (٣٢, ١ × ١٠ْ أقدام) في الثانية، طاقة حركية تقاس بـ ٩٥, ١ × ١٠ ^{15} أقدام - لاوند، وذلك حسب المعادلة: e = 1/2 mv2

(١) يبدو هذا التقدير معقولاً. فقد تآكلت أجزاء من نيزك هوبا في جنوب غرب أفريقيا والذي يبلغ وزنه الفعلي الآن ٦٠ طنّاً، وكان يبلغ حين سقط حوالي ١٠٠ طن. أمّا وزن النيزك الذي حفر فوهة ولاية أريزونا فقد قدر وزنه بمليون طن. ويمكن أن يصل محيط كرة حديدة بهذا الوزن ٢٠٨ أقدام، وهو صغير بقياس جسم سماوي، وقد تصل سرعته إلى ٤٥ ميلاً في الثانية. فإذا تم تربيع هذه السرعة، يمكننا الحصول على أرقام أعلى.

فإذا أوقفت هذه الكتلة فجأة، فإن الطاقة الحركية ستتحول إلى حرارة، وستنتج، حسب معادلة جول لتكافؤ الحرارة الميكانيكي، ١٥ , ٢ × ١٠^١٢ وحدات حرارية بريطانية - أي ما يكفي لرفع حرارة ١٥ , ٢ × ١٠^١٢ أرطال من الماء درجة واحدة فهرنهايت. ولكننا نتعامل هنا مع كميات محدودة من الحديد ورمل الكوارتز والتي حُددت حرارتها النوعية عند رجات أعلى من الحرارة بـ ٢٢ , ٠ و ٢٥ , ٠ على التوالي. وإذا قسمنا هذه الكمية من الحرارة بين ١٠٠ طن من الحديد وكمية متساوية من الرمل، فإن ما يتولد من حرارة ستصل إلى ما يساوي ٣٨ , ٢ × ١٠^٧ درجات مئوية أو ٠٠٠ , ٠٠٠ , ١٣°م. وحتى بسرعة ١٠ أميال فقط في الثانية، ستصل درجة الحرارة إلى حوالي ٠٠٠ , ٢٠٠°م.

تبدو هذه النتيجة منافية للعقل، ولا شك أن عدداً من العوامل لم يدخل في الحسبان -أي أغفل عنها- في هذه العملية البسيطة. ولكن أن ما يتم إدخاله في الآلة الرياضية هو ما نحصل عليه في النهاية. فإن ما تولد من حرارة سيكون أكثر من كافٍ لتبخير الكتلة كلها؛ ولكن الاصطدام بالأرض كان فوريّاً بحيث لم يترك وقتاً لانتقال الحرارة إلى قلب كتلة الحديد قبل أن تنفجر ومعها الأرض المجاورة من جراء الغازات التي تولدت نتيجة ذلك الاصطدام. وعندها تحولت الرخوية التي توجد في الرمل وما تحته من صخور في الحال إلى بخار. ولكن يحتمل أيضاً أن الغازات التي تولدت نتيجة تبخر الحديد والسيليكا كانت أكثر فعالية في إحداث (نار خلفية) هائلة ومروعة.

يبرهن تركيب (ويدمانشتاتن) الواضح المعالم في الكتلة الأكبر من حديد وبار أن هذا الجزء من الكتلة لم تتجاوز حرارتها ٨٥٠°م، كما يشير التدمير الجزئي لهذا التركيب ونشوء ذلك التركيب أو التكوين الحبيبى الذي شاهدناه في القطعة الصغيرة، إلى أن درجة الحرارة هذه قد حدثت هنا. ومن

الواضح أن قطع الحديد التي لدينا بغية دراستها هي مجرد بقايا كتلة أو كتل أكبر حجماً بكثير. وثمة ما يثبت أن بعضًا من الحديد والسيليكا قد تبخر بالفعل من خلال التركيبات التي تظهرها مقذوفات الزجاج السيكلاني.

ومن حسن الحظ أن سقوط مثل هذه النيازك التي تحفر فوهات نادراً ما يحدث على سطح الأرض وإن كان حدوثه على سطح القمر أكثر كما يقترح البعض. وإذا استثنينا سقوط نيزك في سيبريا في الثلاثين من يونيو عام ١٩٠٨م، والذي لا نعرف الكثير عنه حتى الآن، لم يشهد العالم سقوطاً للنيازك بهذا المستوى حديثاً. فإن سقوط نيزك بهذا المستوى يمكن أن يزيل مدينة لندن من الوجود. فما زالت الفوهات النيزكية التي تشكل معالم طبوغرافية على سطح الأرض قليلة حتى الآن. وفي هذا الصدد تلقي ملاحظات السيد / فيلبي وما جمعه من مواد في وبار كثيراً من الضوء على هذه المشكلة. وقد تم التعرف عام ١٨٩١م في ولاية أريزونا على أكبر هذه الفوهات النيزكية حجماً، والتي يبلغ عرضها ثلاثة أرباع الميل وعمقها ٥٧٠ قدماً. ومازالت هذه الفوهة مثار جدل بين العلماء في حين أن دليلاً حاسماً حول هذا الموضوع قد عثر في مجموعة الفوهات التي تم اكتشافها عام ١٩٣١م بالقرب من هانبري في أستراليا الوسطى. أما ما حدث في وبار وما صاحب ذلك من نشوء الزجاج السيليكوني، فيعد أكثر هذه الأدلة حسمًا في هذا الصدد(١).

التقطت قطعة حديد نيزكي أخرى في حجم وشكل حبة الفاصولياء وتزن ٨ جرامات، في الرمال حول نايفة، التي تبعد بحوالي ١١٠ أميال جنوب

(١) نشرت مقالة بعنوان (الفوهات النيزكية) في مجلة الـ (نيتشر) بقلم ل.ج. سبنسر، عدد مايو ٢٨ (١٩٣٢م)، ص(٧٨١-٧٨٤)، دونت بعد أيام من تفريغ المواد التي جمعها السيد/ فيلبي في المتحف البريطاني.

شرقي وبار. ويحتمل أن هذه القطعة كانت جزءاً من الوابل الذي أصاب وبار (مما يوحى بأن النيزك الضخم قد أتى من جهة الجنوب أوأن هذه الشظية قد تم نقلها على يد العرب من وبار إلى نايفة). وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى حديد نيزك (نجد) الذي يشبه حديد وبار في تركيبه البللوري وتكوينه الكيميائي. ويبلغ وزن قطعتين من هذه الكتلة وصلتا من الجزيرة العربية في عامي ١٨٨٥م و١٨٩٣م، ١٣١ و١٣٧ رطلاً، ولكن تاريخهما يشوبه الغموض، ويقال إنهما سقطتا خلال عاصفة رعدية عام ١٨٦٣م. ولكن يحتمل أنهما جلبتا من وبار من قبل العرب قبل ذلك التاريخ. ويحتفظ المتحف البريطاني بإحدى هذه القطع ضمن مجموعته من النيازك وذلك في متحف التاريخ الطبيعي في ساوث كنزنجتون.

وقد وجد فيلبي في الصحراء حول عنسلة وعدرج وأم الطينة، التي لا تبعد كثيراً من نايفة، شظايا من أحجار نيزكية متآكلة نتيجة تعرضها لعوامل التجوية، وأقرب إلى كتل متحجرة من الصخر الحديدي وأشبه بالحجر النيزكي الذي تعرف عليه السيد/ كامبل سميث وسط مجموعة كبيرة من عينات الصخور. وتبدو من أجزائها الدقيقة أنها من نوع الحجر النيزكي نفسه الذي عثر عليه السيد/ برترام توماس في بواح عام ١٩٣١م (١٣٤٩/ ١٣٥٠هـ) والتي تقع في المنطقة نفسها ووصفت بـ(نيزك السواحب)[1] ولا شك أن هذه الأحجار، وإن كانت تنتمي إلى الوابل نفسه من الحديد النيزكي، إلا أنها تختلف عن ذلك الوابل الذي أصاب وبار ولا علاقة بينهما. فمن

(١) د. كامبل سميث ١٩٣٢م حجر نيزكي جديد من الصواحب، الجزيرة العربية، مينورولوجيكال ماجازين ١٩٣٢م، ٢٣، ص٤٣-٥٠.

الواضح أن الجزيرة العربية تمثل مكاناً جيداً لحفظ النيازك التي سقطت في أزمنة ماضية.

٢- المومضات Fulgurites

تم أيضاً جمع كميات قليلة من الزجاج السيلكوني الذي يختلف تماماً من حيث الشكل من تلك المواد المتوافرة في وبار، وذلك من ثلاثة مواضع أخرى من الصحراء. وتتخذ هذا العينات شكل أنابيب أشبه بسبيكة دودية أفرغت في قالب من الرمل، ووصفها السيد/ فيلبي (كإضافات خارجية غريبة) ومن الواضح أن فيلبي لم يكن لديه أدنى فكرة أو معرفة عن كنه هذه القوالب ونوعها. فقد كانت هذه العينة في الحقيقة، مومضات أو أنابيب برق تحدث عندما تصيب الصواعق الأرض بقوة تتولد على أثرها درجة عالية من الحرارة تؤدي إلى انصهار رمل الكوارتز على طول مسلك التيار الكهربائي وتلاحمه بالإذابة. وتتسم الأجزاء الداخلية لهذه الأنابيب دائماً بالنعومة واللمعان، بينما يكون الجزء الخارجي منها خشن الملمس تلتصق بها حبيبات من الرمل المصهور. أما جدارها الخارجي فعادة ما يكون رقيقاًوهشّاً بحيث أن عيناتها تجمع فقط كشظايا. وهذه الأنابيب وإن كانت تتخذ شكلاً أسطوانيّاً، فإنها تستدق عند الأطراف وقد تتشعب أحياناً مكونة فروعاً لها. وعند تسطيحها غالباً ما تكتسب الأنابيب حواف رقيقة من المواد المصهورة المتلاحمة التي تبدو بارزة من جوانبها، ويطلق عليها (المومضات المجنحة). وتتكون أكثر عينة متكاملة من الومضات الموجودة ضمن المجموعة المعدنية التابعة للمتحف البريطاني، من جزء من أنبوب يبلغ طوله ثلاثة أقدام ومحيطه يتراوح بين ٢/١١ بوصة وجلبت من ما لدونادو في أورجواي، في حين أن أطول أنبوب -وإن كان يتكون من أجزاء ضُمت إلى بعضها- يبلغ

طوله ١٦ قدماً وعثر عليه بالقرب من درسدن، كما حدث اقتفاء أثر مومضة على طول ٣٠ قدماً دون الوصول إلى نهايتها، وذلك بين الكثبان الرملية عند دريج المطلة على ساحل كمبرلاند. ونادراً ما يعثر على عينات من هذه المومضات بصفة عامة، كما إن المجموعة الموجودة في المتحف البريطاني تخلو من أمثالها.

أما العينات التي جمعها فيلبي، فهي عبارة عن شظايا وجدت سائبة أو مفككة على سطح الأرض بين التجاويف التي توجد بين الكثبان الرملية. والمثير في هذا أن العرب يعدونها مؤشراً لوجود الماء، وذلك لأن الصواعق تصيب أكثر أجزاء الأرض رطوبة وتوصيلاً للكهرباء.

وقد وجدت العينات في ثلاثة مواضع هي:

١- بني جلاب (جمعت العينة بتاريخ ٩/ ٢/ ١٩٣٢م). وهي عبارة عن أنابيب ضيقة يبلغ محيطها ١/٢سم، ويبلغ طول أطول شظية منها ٧سم وهي أسطوانية الشكل ومستقيمة وتتميز بجدارها السميك ويتوسطها تجويف رقيق كالخيط. وتتكون جميع المومضات هنا تقريباً من زجاج سيلكوني أغبر اللون مليء بفقاقيع صغيرة مما يوحي بأن البرق أصاب رملاً جافاً مما أدى إلى تقليل ذلك التمدد الجانبي للأنبوب الذي ينتج من الضغط الذي يشبه بخار الماء. وتنقسم إحدى القطع إلى فرعين.

٢- بني جفنان (جمعت العينة بتاريخ ١٨/ ٢/ ١٩٣٢م). وتتكون من شظايا ذات شكل غير منتظم بها نتوءات مثل الشوك. وهي ذات جدران رقيقة وتجويف مركزي كبير ومصقول. ويصل طول أكبر شظية منها ٣ ١/٢سم وله قطاع عرضي مسطح يبلغ ١ ١/٢ × ١ ١/٢سم.

٣- حباكة القعاميات (جمعت العينة بتاريخ ٢٤/ ٢/ ١٩٣٢م) وتقع على بعد حوالي ٤٠ ميلاً إلى الغرب من شنّة. وتتكون العينة من شظايا مكسورة من الأنابيب المسطحة التي تبرز منها أشواك وأجنحة، في حين أن جدرانها سميكة وتضم تجويفاً مركزيّاً واضحاً يحتل من حيث حجمه موضعاً وسطاً بين عينات بني جلاب وبني جفنان. ويبلغ طول أكبر شظية منها ٤سم والقطاع العرضي ٢ × ١سم.

(ب) النتائج الجيولوجية

١- المعادن والصخور

بقلم د. كامبل سميث، قسم المعادن بالمتحف البريطاني

أ- مقدمة:

بالإضافة إلى النيازك والمواد المهمة ذات الصلة بنشأة الفوهات النيزكية، أحضر السيد/ فيلبي مجموعة كبيرة من العينات الجيولوجية، وقد قام السيد/ سبنسر بوصف النيازك بينما تناول السيد/ ل. ر. كوكس دراسة الأحافير وصلتها بالتاريخ الجيولوجي للجزيرة العربية. ويعطي ما تبقى من عينات وصخور ومعادن دليلاً آخر -وإن كان أقل دقة- للتركيب الجيولوجي للمنطقة كما يوفر ثروة من المواد توضح الظروف الخاصة والمميزة التي تسود في الأقاليم الصحراوية الجافة.

ومن المناسب تصنيف هذه المادة تحت العناوين التالية:

١- صخور بارزة فوق سطح الأرض.

٢- السهول الحصبائية و(الحجارة السيارة).

٣- الرمال.

٤- الإرسابات السطحية.

١- صخور بارزة فوق سطح الأرض:

إلى الغرب من الحافة التي تتكون من الصخور الجوراسية التي وضعت في التقرير الذي أعده السيد/ كوكس عن الطبقات والأحافير بأنها تكوّن هضبة طويق، وجد السيد/ فيلبي مساحة كبيرة من الصخور القديمة تغطي المنطقة

الواقعة إلى الغرب من خط يجري تقريباً من الدوادمي (غربي الرياض) إلى جوار بيشة وتثليث (جنوب شرقي مكة المكرمة)، تتكون الصخور التي جمعت بالقرب من الدوادمي من شيست مايكا وسيريتتاين وجرانيت، كما وجدت أنواع عديدة من الصخور على طول مجرى وادي الدواسر كما يتضح من قائمة المواقع والعينات التالية:

١- الجزلاء، الجزء الشرقي: رماد بركاني متغير وحجر رملي رمادي اللون، وبيوتايت برفايري متغير.

٢- الجزلاء، الجزء الغربي: ريولايت أحمر متغير.

٣- أبرق المقاريب: ريولايت أبيض متغير أو فلسايت.

٤- شعيب ملاح: بيوتايت، جرانيت أحمر، كوارتز عرقى، هور نبلند، بروفايري.

٥- بني شوحطة: جرانيت غرافى أحمر، كوارتز عرقى، مايكرو، يورايت.

٦- بني حوباي: جرانيت أبيض فقير في البيوتايت، أبلايت قرنفلي اللون.

٧- محمل، بين بني حوباي والعرق: بيوتايت، جراينت أبيض.

٨- المنطقة الواقعة شرقي تثليث: إبيديورايت؟

٩- المنطقة الواقعة غربي تثليث: مايكرو ديورايت، جرانيت أحمر.

١٠- خشيم الذيب: بجماتايت أحمر، أبلايت قرنفلي اللون، بيوتايت، جرانيت أحمر.

١١- المتعرضات: بازلت متغير (سبلايت؟)، هورنبلند، جرانيت أبيض، أبيدوت في كوارتز، عرقي.

١٢- دحثمي: بيوتايت، جرانيت أحمر، دولارايت متغير

١٣- بالقرب من وادي رنية: ريولايت مرقط.

١٤- روضة ابن غنّام: ريولايت يشبى أحمر اللون.

١٥- بئر ابن غنّام: أبلايت قرنفلي اللون.

١٦- هضبة شعيب الضعّة: هوربنلند، بيوتايت، جرانيت، أبيدوت في كوارتز عرقي.

١٧- وادي قارة: كوارتز، شيست ونايس ناعم الحبيبات.

١٨- تربة: هورنبلند، شيست، كوارتز، بروفايري.

ولم يعثر على ما يدل على عمر الصخور البركانية الأقدم عمراً في هذا الجزء من البلاد ولا على الفترة التي حدث فيها تدخل الصخور الجرانيتية ولكنها بصفة عامة شبيهة بالصخور النارية البركانية القديمة والصخور المتحولة الموجودة في صحراء مصر الشرقية المطلة على الساحل الغربي للبحر الأحمر. كما لم تكتشف حتى الآن صخور ذات عمر وسط بين هذه الصخور النارية القديمة وتلك التي تتكون من الصخور الجيرية الجوراسية (الطباشيرية) الأحفورية في هضبة طويق. أما الصخور الكريتاسية فهي كمثيلاتها الجوراسية، تتكون من صخور أساسية من الرمل الهش كانت تشكل الطبقات الأدنى وتوجد الآن مكشوفة على السطح في المنطقة نفسها كما في ممر بويب. وتعلو طبقات جيرية متماسكة طبقة صفراء من الحجر

الرملي في السليل وخشم العامور في وادي الدواسر، وتحتوي على شظايا من القواقع لم يتم التعرف على أنواعها. وقد عثر على حجر جيري بللوري ذي لون أصفر برتقالي في القامة.

كما جمعت أحجار جيرية ذات ألوان فاتحة أيضاً، ولكن دون أحافير، في أماكن عديدة مثل دكاكة برباك وروضة برباك (في الصمان)، وكذلك بين الجيدة وحافة الشوكية (في الأحساء)، كما في جنوبي الهفوف فوق الحافة الواقعة بين الخن ويبرين وفي قليبة ومقينمة ووادي الدواسر. ولم يعثر على دليل يشير إلى عمر هذه الصخور حتى الآن.

وفي أم النصي الواقعة إلى الجنوب من يبرين، عثر على عقيدات مكسورة من العقيق الأبيض وكذلك على أحجار صوانية ذات لون أسمر فاتح متناثرة في الحفاير وضربون. ويحتمل أن العقيق وأحجار الصوان قد اشتقتا من الحجر الجيري الأساس.

وتظهر الصخور المايدسينية بشكل واضح في جنوب أنباك وفي نصلة بالقرب من أنباك، حيث تتكون طبقاتها الأحفورية من صخور جيرية صلصالية وما يدل (طين غني بكاربونات الكالسيوم) وقد بلغ محتوى هذه الصخور من كربونات الكالسيوم حالة رقيقة وناعمة من الانقسام مما يرجح احتمال ترسبها كيمائيّاً. وقد التحم بعض الجير مع الملح ليكوّن صخراً صلداً.

وتتكون الطبقات التي تعلو الطبقة الأحفورية من الآتي:

الطبقة (١): حجر جيري كلس قرنفلي اللون تتخللها قواقع صغيرة ومنخرمات.

الطبقة (٢) : حجر رملي جيري هش بلون الطوب الأحمر .

الطبقة (٣) : حجر رملي ذو لونين : أبيض وقرنفلي .

وتوجد طبقات شبيهة بالطبقتين (١) و(٢) أيضاً في جوب البعيج والخرزة مرتبطة في الموقع الأخير بخرسان طبيعي حصوى (كونقلو مرات) . وتتكون الصخور المرتبطة بأحافير المايوسين الموجودة في قرن أبو وايل بالقرب من سكاك ، من صلصال رملي ذي لون أخضر باهت مُشرَّبٌ بالملح ، ومن صلصال جيري قرنفلي اللون ويحتوي على كربونات في حالة من الانقسام الناعم . ويأتي صلصال أحمر مماثل من آبار القديرات . أما المارل الأبيض فيشبه تلك المواد التي تستخرج من المحاجر الموجودة في المنطقة الواقعة بين الهفوف والمبرز لصنع الأواني والأدوات الخزفية . وتُظهر المحاجر الكائنة بالقرب من الهفوف أيضاً طبقات من صلصال ذي لون أخضر فاتح وقرنفلي وسمك يتراوح بين ١٠ و١٢ قدماً ويحتوي على جبس ليفي وصفائح من السلفايت . ولم يعثر على أية أحفورة في هذه الطبقات ، كما يوجد صلصال أخضر اللون مماثل فوق حافة بالقرب من العيون .

وتعطي الصخور الجيرية المتماسكة التي عثر عليها في مواقع عديدة أمثلة جيدة لطلاء الصحراء Desert Varnish الذي يشار إليه كثيراً في أقاليم الصحراء الجافة . ويتباين هذا السطح المصقول في ألوانه من اللون البرتقالي الأصفر أو الأسمر الفاتح إلى لون الطوب الأحمر ، وإن كان أكثر الألوان شيوعاً هو اللون الأغبر بظلاله المتنوعة . ويتكون السطح المصقول في بعض الشظايا الغبراء اللون من (جلد) حقيقي -أي الشوتزرنده Sehutzrinde- الذي وصفه ج . والترز[١] .

(١) والترز (جوهانس) ، (١٩١٢م) ، ص١٤٤-١٥٣ .

وتحتوي إحدى الصخور الجيرية التي تكتسي بطلاء أغبر باهت اللون عثر عليها في المعمورة، حيوانات بحرية دنيا مثقبة الأصداف (فورامينفرا) من نوع (الفيولينا)، ويبدو أنه صخر جيري نقي. كما يحتوي نوع آخر من هذه الصخور الجيرية البنية اللون كميات من حبيبات من الكوارتز الزاويّة داخل إسمنت من الكالسايت البلوري. ويبدو أن (الجلد) الأسود (الشوتزرنده)[1] وطلاء الصحراء يتكونان على سطوح أكثر من نوع من أنواع الصخر الجيري وإن لم يعثر على حصوات الصخر الجيري التي جمعت من السهول الحصبائية، ووجد أيضاً على الأجزاء الناتئة من التكوينات السطحية كما على القطع المفككة، بينما تكتسي بعض الكتل المتحجرة الكلسية كلية بالشوتزرنده أو طلاء الصحراء.

أما المواقع التي جلب منها السيد/ فيلبي هذه العينات، فهي: المطيوى وقليبة ومقينمة وبئر فاضل ورقة الشلفا وبئر مكسّر، وأيضاً من بني جفنان والمعمورة وأبي محيرات وشقة الحوايا إلى الغرب من أبي محيرات وفي هذا الموضع الأخير لم يكن الطلاء أغبر اللون بل أصفر برتقاليّاً وأحمر طوبيّاً.

تبرز على السطح صخرة غير عادية المنظر وسط رمال زويرة وإلى الغرب من أبي محيرات. ومن أول وهلة تبدو وكأنها صخرة جيرية كلسية تتكون من حبيبات مستديرة يبلغ محيطها ما بين ٢/١ و١م، ولكنها عند التفتيش الدقيق أظهرت أن ٥٠٪ من الحبيبات تتكون من كوارتز لا لون له بينما يتكون ما تبقى منها من حبيبات مستديرة من الحجر الجيري مطلية بطبقة

---

(١) وكون أن اللون الأغبر والطلاء هما مظاهر سطحية فتؤكدها عينة من صخر جيري صدفي بللوري أصفر اللون حُصل عليه من المليحة بالقرب من الخثيفان، والتي وجدت بأنها تشبه من ناحية خصائها الصخرية، بعض الصخور الجيرية الكريتاسية.

رقيقة جداً من كربونات الكالسيوم التي أرسبت حديثاً. وتبدو الصخرة وكأنها خليط من كوارتز (حجر جيري) رمل متماسك وصلد الشكل مثل تلك التي عثر عليها السيد/ برترام توماس[1] في شنّة. وتتكون المادة اللاحمة الخفيفة من أسمنت كلسي كان قد غطى أيضاً على الحبيبات الحتاتية مُكسياً إياها سطحاً باهت اللون.

وعثر أيضاً في منطقة أبي محيرات نفسها وعبل الخادم وأم الطينة على كوارتز وصخور رملية هشة تحتوي على كميات قليلة من الأسمنت الكلسي. وتتسم هذه الصخور بلون أصفر برتقالي خفيف مما يشير إلى أنها تحتوي على كميات قليلة من أكاسيد الحديد التي تكسب اللون للرمال الأكثر حداثة في العمر. وتوجد في عنسلة صخور رملية من النوع نفسه، لكنها أكثر خشونة، كما أن بعضها يخلو من أي أسمنت كلسي. فهي تتكون كلية تقريباً من كوارتز يتكون بدوره من حبيبات مستديرة يبلغ محيطها أحياناً «١» م. ومن الملاحظ أن أصغر هذه الحبيبات حجماً زاويّةٌ في شكلها أو قليلة الاستدارة. ويحتوي الحجر الرملي الموجود على عمق ٢٢ قامة في إحدى آبار بئر فاضل على حصوات صغيرة يبلغ محيطها ٢ أو ٣ م.

والصخور الرملية النقية من هذا النوع قد تكون هي الصخور الأصلية نفسها التي عثرت فيها فوهات وبار النيزكية. فالصخور المحيطة بالفوهات، كما وصفها الدكتور/ سبنسر في مذكرته عن هذه الفوهات، تتكون من صخور رملية ذات لون فاتح ومظهر مفتت مصهور غريب الشكل. وقد أظهرت نتائج التحليل الذي أجراه السيد/ هيي عليها بأن محتواها من

(١) برترام توماس، العربية السعودية، ١٩٣٢، ص٣٦٧.

السيليكا يصل إلى ٩٢٪، كما أن حبيبات الكوارتز، التي يبلغ محيطها في المتوسط حوالي «١» م، تبدو تحت المجهر محطمة ومفتتة وتتقاطعها سطوح كسر عديدة غير عادية. وتوجد معها وفي شكل أنسجة بيخلوية أحياناً، كمية من معدن أبيض اللون وذروري غير شفاف لم يتم تحديده بعد، وإن كان من المحتمل أن يكون سيليكا غير متبلورة.

وقد وجد أن الصخور الرملية الطباشرية الشبيهة بتلك التي وجدها الماجور/ د. تشيزمان في جبل غنيمة بالقرب من الهفوف تنتشر على نطاق واسع. وتتكون هذه الصخور من كمية كبيرة من حبيبات كوارتز مستديرة صُبت في أسمنت كلسي صلب أبيض غير شفاف، وتبدو غير أحفورية تماماً إلا في موقع أو اثنين في الحوايا وبني زينان، حيث تحتوي قوالب من «الميلانويدز تيوبركيولاتا Melanoides Tubereulatl».

وقد التقى السيد/ فيلبي هذه العينات لأول مرة عند الطرف الغربي للنعلة في طريقه إلى الهفوف، كما أنها تظهر مرة أخرى في مجموعات جمعت من أم الخيسة والعيون وحافة ثوير، وتشكل هذه الصخور هنا وأيضاً في الخرزة حافات منخفضة وإن كانت تتناثر في الخرزة مع الحصوات المستمدة من الحصباء في شكل طبقة رقيقة. أما بعد الهفوف، فإنها تظهر فوق الحافة الواقعة بين الخن ويبرين مكونة تلالاً صغيرة عند الطرف الجنوبي من الصمان وعلى مسافات متباعدة في جهة الجنوب حتى عدرج كما في الحوايا وبني زينان والرميلة.

وقد وجد تشيزمان هذه الصخور نفسها تشكل جبل جوامر وجبل يبرين الأوسط.

ففي جبل جوامر وجد تشيزمان هذه الصخور ملتحمة بالملح وتستلقى على صخور رملية ذات لون أبيض وقرنفلي، كما وجد فيلبي حجراً رملياً قرنفلي اللون متماسكاً (لكن بأسمنت كلسي) أسفل صخور الخرزة الرملية الطباشيرية البيضاء، ويحتمل أيضاً أن توجد هذه الصخور في الوضع نفسه في جوب البعيج.

ليس من دليل يؤكد عمر هذه الصخور الرملية الطباشيرية ولكنها بالتأكيد أصغر عمراً من تلك التي تنتمي إلى عصر المايدسين، ويحتمل أن تكون أصغر عمراً حتى من الحصباء التي تتكون منها السهول الحجرية.

ويشير ما تحتويه هذه الصخور من قواقع (الميلونويرز تيوبركيولاتا) في بعض المواقع إلى أن عملية إرساب الرمل هنا قد حدثت من الماء، ولكن من الممكن أن المادة اللاحمة قد اشتقت من النز التدريجي للمحاليل الغنية في كربونات الكالسيوم (ومحتمل السلفات) كما حدث بالنسبة إلى (الصخور الجيرية السطحية) في بعض أجراء جنوب أفريقيا. وكون أن مخزوناً من أملاح الكالسيوم يتوافر هنا يؤكده الانتشار السائد لإرسابات سطحية من الجبس وكذلك إرسابات متحجرة عبر جزء كبير من المنطقة التي تحتلها الصخور الرملية الطباشيرية.

وتشمل بعض الصخور الرملية الكلسية الحصوية التي حُصل عليها من رقة الشلفا والطرف الشرقي من السحماء مادة نسيجية كلسية بيضاء اللون كتلك التي وجدت في الصخور الرملية الطباشيرية. ويحتمل أن تكون هذه الصخور أيضاً سطحية وأن تشيزمان كان قد وجد حجراً مشابهاً أسفل إرسابات مفككة من الحصباء في صحراء الجافورة.

أما الخرسانة الطبيعية الحقيقية (الكونقلومرات) والتي تحتوي على حصوات مستديرة الشكل ناتجة من فعل الماء، فتوجد فقط في بطون وادي السهباء، ووادي الدواسر، وتشكل هضاباً صغيرة مدورة بالقرب من برزان في وادي الدواسر حيث تستلقى الخرسانة الطبيعية على صخر رملي. وتحتوي (الكونقلومرات) هنا على حصوات من الصخر الرملي وكذلك من الكوارتز والجرانيت . . . إلخ . وتتكون المادة النسيجية البيخلوية من الرمل مع غشاء رقيق من الجبس يحيط بالحصى. أما مادة النسيج بيخلوية (بين الخلايا النسيجية) في الخرسانة الطبيعية في وادي السهباء فهي أكثر كلسية وتشبه تلك التي توجد في الصخور الرملية (الطباشيرية) في حين أن الخرسانة الطبيعية التي جلبت من وادي رانيا تحمل كل المظاهر الخارجية لحصباء التحمت حديثاً.

إرسابات المياه العذبة:

يحتمل أن الغرين الكلسي الناعم ذا اللون الأسمر الفاتح الذي وجد في النميلة وشقة الخلفات يمثل أحدث إرساب تحتمائي عثر عليه، وقد وجد هذا الغرين في الموضع الأخير مرتبطاً بقواقع المياه العذبة (ينيو Unio) التي أشار إليها السيد/ ج. ربسون في تقريره. ويتكون الغرين من حبيبات زاوّية دقيقة (١٤ , ٠ مم) من الكوارتز ومعادن أخرى وذرات من الكالسايت. ومن المحتمل أن هذه المادة قد جلبتها الرياح أثناء عاصفة ترابية وأرستها في برك من المياه الراكدة.

الصخور البركانية:

ستأتي الإشارة أدناه إلى بعض شظايا البازلت التي عثر عليها على سطح

الصراء حول عُج وأم الحديد على بعد أميال من المراكز البركانية المعروفة. توجد أقرب براكين خامدة رآها السيد/ فيلبي في المنطقة المجاورة لتُربة (وهي حرة البقوم وحرة النواصف). وتتكون العينات التي جمعت في عبل الريات في هذه المنطقة من (مقذوفات) بركانية وقطع من اللابة المخرمة ذات لون أحمر باهت في حين أن العينة المجلوبة من العان (غربي تربة) تتكون من تراكايت أحمر اللون وبال من تأثير التجوية وتشبه بعض أنواع اللابة الحبشية والتي تنتمي أساساً إلى العصر الجيولوجي الثالث وعصور أحدث، وسيكشف ما يجمع من اللابة التي لم تتعرض لعوامل التجوية، وخاصة أنواع التراكايت، من هذه المنطقة بعضاً من المعلومات المثيرة للاهتمام.

٢- السهول الحصبائية (والأحجار السيارة)

تقدم السهول الكمبيرية التي اجتازها السيد/ فيلبي أفضل تشكيلة متنوعة من الحصوات الجميلة التي صقلتها الرياح وأكسبتها ألوانها الزاهية وأظهرت مزاياها بأفضل طريقة.

شكلت هذه الحصوات موضوع تقرير قصير في الملحق السابع في كتاب السيد/ تشيزمان (الجزيرة العربية المجهولة)، (ماكميلان وشركاه، لندن، ١٩٢٦م). فقد وجدها تشيزمان في منطقة تمتد من الحرملية في صحراء الجافورة وعبر سهل سر المعيد (إلى الجنوب من وادي السهباء) حتى جبل عقولا الواقع على بعد ١٥ ميلاً شمال يبرين. وكان برترام توماس قد عبر هذه السهول بعيداً تجاه الشرق شمالي البنيّان في منطقة الجوب كما اجتازها في سنام الشمالية. أما السيد/ فيلبي فقد التقى بها أول مرة في مطرب والخرزة حيث تشكل الحصباء غطاء رقيقاً فوق سطح الحجر الجيري، ثم

يذكرها باستمرار من زبارة محميد حتى حدبة البدوع. وبعد أن جمع أعداداً قليلة من الحصوات من عُج أخذ يتابع هذه السهول الحصبائية للمرة الثانية من مقينمة إلى الطويريفة، كما عثر على رقعة منعزلة منها في أم الحديد والبريهيمة.

وثمة سهل حصبائي آخر يوجد بعيداً في اتجاه الجنوب الغربي في السحماء وأبي بحر وحدبة الفرشة حيث جمع السيد/ فيلبي هناك حصوات شبيهة لتلك التي توجد في السهول الشمالية.

وحصوات هذه السهول هي الحصوات نفسها التي سجلت من المجموعة التي أحضرها تشيزمان وهي: الكوارتز وصخور جيرية ذات ألوان صفراء وصفراء برتقالية تشوبها نقاط ملونة سوداء، وريولايت ذات ألوان سوداء وقرمزية غامقة وأحجار الكوارتز السماقية (كوارتز بروفايرى) وأبيسود وأحجار الرماد البركاني.

أما الأنواع الوحيدة التي ترد مراراً في مجموعة فيلبي، تلك التي يندر وجودها بين الأنواع التي جمعها تشيزمان، فتشمل أنواعاً من الجرانيت الناعم ذي اللون الأحمر والأبيض[1].

وفي المناقشة التي دارت حول مشكلة أصل تلك الحصوات التي مر بها الماجور/ تشيزمان (المرجع السابق، ص٤٢٣) ذكر الآتي: (لا نعلم شيئاً عن المصدر الأصلي لهذه الحصوات). كان هذا هو الوضع عام ١٩٢٦م، ولكن السيد/ فيلبي قد نجح في تفسير تلك المشكلة بشكل مرض.

(١) عثر على قطعة من الجرانيت الأحمر كالتي اشتقت من حصاة كبيرة، في قصر ابن دحباش (يبرين). وقد تكون الشظية التي وجدها تشيزمان في نفايات بئر بالقرب من جبل جوامر شريحة من حصاة مماثلة.

فقد وجد فيلبي إلى الغرب من خط يجري تقريباً من بيشة وتثليث (إلى الجنوب الشرقي من مكة المكرمة)، حتى الدوادمي (غربي الرياض) كتلة من صخور نارية ومتحولة قديمة تشكل العمود الفقري للمنطقة. وقد وجد في المنطقة الممتدة من الجزء الشرقي لجزلاء حتى تُربة أحجاراً متنوعة من الجرانيت الأحمر والأبيض وأحجار السماق السمراء اللون وريولايت مخطط بألوان بنية وحمراء غامقة، وكوارتز عرقي (يشوبه الأبيدوت أحياناً). فهذه الأحجار هي أكثر الأنواع وجوداً في هذه السهول الحصبائية، ومن ثم لم يعد هناك سبب يدفعنا للبحث عن مصدر هذه الحصوات في مكان آخر غير هذا، ويمكن لأي شخص أن ينسب حصباء المنطقة الجنوبية (السحماء إلى حدبة الفرشة) إلى تلك الصخور النارية الأقدم السطحية التي توجد بعيداً في الغرب على طول مجرى وادي الدواسر، كما يمكن أن نستنتج بشكل مصقول مصدراً غريباً لتلك الحصباء الواسعة التي توجد في الجافورة والصمان.

أما الأدلة حول أعمار هذا الحصى فهي شحيحة وغير كافية، وكان ما اقترح في المذكرة الخاصة بالمجموعة التي أحضرها تشيزمان في أنها تنتمي إلى عصر البلايوسين وتطابق تلك التي وجدت في سلسلة بختياري في العراق، مجرد تخمين وحدس لا أكثر، ولكن قد يكون هذا الاقتراح أقرب إلى الحقيقة. وكل ما يمكن قوله من دراسة موقع هذه الحصوات بالنسبة إلى صخور معروفة أعمارها، بأنها وبكل تأكيد تنتمي إلى عصر ما بعد الميوسين. أما علاقتها بالصخور الرملية الطباشيرية البيضاء في يبرين والهفوف فغير واضحة، وإن كانت ثمة أدلة تشير إلى كونها أقدم عمراً من الصخور التي تشكل تكوينات سطحية حديثة أو حديثة جزئيّاً.

وهذا الامتداد الواسع لهذه السهول الحصبائية يظهرها وكأنها أكثر انتشاراً من إرسابات أودية مثل السهباء والدواسر والتي تنتمي -بكل وضوح- إلى تاريخ أسبق من عمليات التعرية التي أصابت قيعان هذه الأودية الحالية.

تُظهر حصوات الصخر الجيري الصفراء والصفراء البرتقالية التي توجد في هذه السهول الحصبائية آثار الحفر الرائعة المتقنة التي أحدثتها المحاليل والتي تحدث عندما تُطمر حصوات الحجر الجيري في الرمل الرطب الكائن تحت الأرض. فهذه الحصوات المحفورة أو (الريلنشتاين Rillensteine) معروفة تماماً حيثما توجد حصوات الصخر الجيري في الصحاري الرملية. وقد كان يفترض منذ مدة طويلة بأن تكوين هذه الحفر أو (الجداول) يعود إلى فعل الرياح، ولكن بات معروفاً الآن أنها من تأثير المحاليل. ويظهر هذا التأثير واضحاً في بعض أنواع الصخور الجيرية التي تحتوي على المرجان كما أشرنا سابقًا، أو يُترك المرجان بارزاً من حول الأنسجة البيخلوية المحيطة به. أما فعل الرياح الذي يحدث السفح الرملي الطبيعي، فإن ما ينتج عنه في هذه الحالة هو الصقل الناعم وليس تثليم الأحجار.

وتوضح الصخور الجيرية كل مراحل تكوين الأحجار المواجهة للرياح مثل (الحصوات الهندسية أو ثقوب الريح Vantifacts) و(الحصاة ثلاثية القرن Dreikanter).

وتتخذ هذه الصخور شكلاً شائعاً يتمثل في قاعدة إهليجية طويلة ذات جانبين مصقولين ينحدران انحداراً هيناً ويلتقيان عند طرف هين الانحناء. وثمة شكل آخر يتسم بالطول والرقة ويستدق عند الطرفين كالمغزل. أما أكثر الأشكال شيوعاً ووفرة فتتمثل في تلك الأقراص الدائرية ذات السطح

المصقول والمنقّر قليلاً والمشتقة من الحصوات الدائرية المسطحة التي توجد بكثرة في السهول الحصبائية. وحسب ما ذكره د/ ريد الذي أجرى دراسة متأنية للحصوات المواجهة للريح في مصر، فإن هذه الحصوات تمثل آخر مرحلة في عملية إعادة تشكيل هذه الأحجار بإزالة زوائدها، ويكون السطح المصقول المسطح في هذه الحالة على مستوى سطح الرمل نفسه.

الأحجار السيارة Walking Stoes:

يعتقد العرب أن بعض الحجارة في الصحراء تتجول تاركة آثارها خلفها على الرمل، ويعزون هذه القوة الاستثنائية إلى الأرواح. وقد قام الدليل المرّي الذي رافق الماجور تشيزمان برسم نمط الأثر الذي تتركه الأحجار السيارة على الرمل بشكل يشبه ذيلاً طويلاً ومجعداً تتخلله حلقات غير منتظمة الشكل. وقد وصف الدليل الأحجار بأنها مستديرة وفي حجم بيض الدجاجة، ثم عَرض لاحقاً حصاة من الكوارتز العرقي بيضاوي الشكل وذات حجم يبلغ ٦ × ٥ × ٥سم والتي قال بأنها تمثل أحد الأنواع التي تتجول فعلاً [١]. ومع ذلك فإن رفقاء تشيزمان لم يشاهدوا حجراً يتجول أو حتى عند نهاية مساره مع أن العساكر قاموا برسم مسار حجر بدقة بهدف الاحتيال على الدليل وكان أن صدّق ذلك مشيراً بأن المسار هو لحجر سيّار إلى أن اكتشف بأنه خُدع فعلاً.

وقد أحضر السيد/ فيلبي عدداً من هذه (الأحجار السيارة) وكان أكبرها حجماً تلك التي (وجدها عضوان من فرقته شاهدا آثاره أولاً ثم اقتفيا أثره حتى عثر عليه) في حباكة القعاميات، وكانت عبارة عن حصاة من الحجر

---

(١) د. تشيزمان، في الجزيرة العربية المجهولة، لندن، ١٩٢٦م، ص٢٣٦، و٢٨٣.

الجيري ناعمة وأسطوانية الشكل تصل مقاساتها إلى حوالي ١٢ × ٦سم، وتزن ٦٧٠ جراماً. أما تلك التي عثر عليها في الطويريفة فهي «حصاة ثلاثية القرن (درايكنتر) مثلثة الشكل تقريباً ويصل طولها إلى ٤سم ووزنها ٢٦ جراماً». وبينما كانت الحصاة الأولى تتدحرج بسهولة، كانت الأخيرة تزحف فقط!

أما (الحجرة السيارة) الأخرى من الطويريفة فقد كانت مختلفة تماماً إذ كانت عبارة عن نصف قطعة مستديرة من خبث بازلتي بركان أسود اللون وتزن ١٨ جراماً ويبلغ محيطها ٤سم. ومع ذلك، فثمة قطعة أكبر حجماً شبيهة بالخبث البركاني تأتي من بئر فاضل وتزن ٢٠٧ جرامات ومقاساتها (بالتقريب) ٩ × ٥ × ٥سم. ولم يتضح بعد أن ادّعى أحد بأن هذه القطعة هي (حجرة سيارة)، أم أنها مجرد «ذلك النوع الذي يسير فعلاً». ولكن ما يثير الانتباه هنا أننا وجدنا في مجموعة سابقة كان السيد/ فيلبي قد بعث بها، قطعتين من خبث بازلتي ذي لون بني يميل إلى الأحمر جلبتا من حرة كشب بالقرب من الطائف (الضوة BM ١٩٣١، ٤٣٠، ١) وكان سمو الأمير عبدالله قد شهد آثاراً لهما تمتد لحوالي ٥٠ ياردة.

أما تفسير كيف ظهر الاعتقاد في (الأحجار السيارة) فيجب أن نتركه لآخرين، ويمكن أن نضيف إلى ذلك مشكلة أخرى تتعلق بهذا السؤال: كيف وصلت شظايا الخبث البركاني إلى الصحراء؟!

يقول العرب بأن قطعاً مثل تلك التي حُصل عليها في بئر فاضل توجد أحياناً ملقاة على سطح الرمال، وكما رأينا، فإن أحداً من أعضاء الفرقة لم ير حجراً آخر في الطويريفة.

أما مطابقة هذه الأحجار بأنها خبث بركاني، فقد تأكدت من خلال تحليل كيميائي كمي كامل قام بإجرائه السيد/ هـ. م. هيي، إذ وجد أن تركيب الحجر يتفق إلى حد كبير مع بعض أنواع اللابة البازلتية (نفلين - بازانايت).

وبالإضافة إلى قطعتي الخبث البركاني، وجدت شظيتان من البازلت: إحداهما في عُج والأخرى في أم الحديد، وكلتاهما بعيدتان من مواطن (الأحجار السيارة)، إذ أنهما نموذجان من البازلت: فالأولى شبيهة بالزجاج وحويصلية وتشبه (الحجر السيّار) الذي جُلب من الطويريفة، في حين أن الأخرى شظية بازلت زجاجي متبلور وحويصلية إلى حد ما، وقد صقلتها الرياح ولا أثر لفعل المياه يبدو عليها.

عُثرت على هاتين القطعتين من البازلت و(الأحجار السيارة) التي تتكون من الخبث البركاني على مسافات على طول ١٥٠ ميلاً من الطريق الذي سلكه السيد/ فيلبي. وعلى الرغم من أن القطعتين وجدتا في المنطقة التي تسود فيها السهول الحصبائية، فلم يتم العثور على أخريات وسط الحصوات الحصبائية، كما لا يحتمل أنها أرسبت بواسطة المياه. وتقع أقرب المناطق البركانية بالقرب من تُربة التي تقع على بعض ٦٠٠ ميلاً شرقي الطائف؛ وليس ثمة إشارة إلى بركان لم يتم اكتشافه بعد في الربع الخالي. ومن ثم فإن وجود البازلت في هذا الجزء من الصحراء بعيد المنال[١].

وأكثر التفسيرات احتمالاً هو أن العرب الذين يجتازون هذه الأماكن قد حملوا أحجاراً من هذا النوع وأسقطوها هناك، ويمكن أن نجد ما يؤيد ذلك

---

(١) جمعت قطعتان أخريان في عشيرة بالقرب من الطائف في رحلة سابقة.

في تلك المعلومات التي زوّدنا بها السيد/ فيلبي ومفادها أن البدو يستخدمون مسحوق هذه الأحجار كدواء في علاج أمراض العيون.

٣- الرمال:

تتسم رمال الربع الخالي باتساقها وتناسق خصائصها ولا يستدعي التعليق عليها. فهي تتكون كلية تقريبًا من كوارتز ذي حبيبات مدورة ومحيط يبلغ في المتوسط حوالي ٠,٧ مم. ويحتوي بعض هذه الرمال خليطاً من كوارتز لا لون له وذا لون أصفر باهت وإن كان اللون العام لرمال الصحراء يكون أصفر برتقاليّاً يميل إلى القرمزية. ويُعد الرمل ذو اللون البرتقالي الناصع من عنسلة، والذي يتكون كلية من حبيبات مدورة يبلغ محيطها ١ مم، استثناء عن هذه القاعدة. وقد وجدت كل العينات التي تم فحصها بأنها تحتوي على حبيبات دقيقة من الحجر الجيري. وقد لُوحظ ذلك لأول مرة في المجموعة التي أحضرها السيد/ برترام توماس، وتتكون حبيبات الصخر الجيري من لونين: أبيض وبني، وتُعد عادة من المكونات الدقيقة التي يبلغ محيطها في المتوسط ٠,٠٧ مم. وأحياناً تتضمن هذه الرمال كريات من الحجر الرملي (الطباشيري) الأبيض، وأخريات من صخر جيري ذي لون أسمر فاتح أو أغبر يصل عرضها إلى ٢ أو ٣ مم. أما معادن الرمل الثقيلة فلم يتم تحديد أنواعها بعد، وإن كان معدن الجلوكونايت الأخضر الذي لوحظ في العينات التي أحضرها السيد/ برترام توماس، تبدو في حالات كثيرة وكأنها حبيبات معزولة. كما لوحظ وجود حبيبات مدورة من الفلسيار. ولا تقدم رمال نايفة المغردة خصائص غريبة أو شاذة من وجهة النظر المعدنية إذ أنها تتكون أساساً من كوارتز في شكل حبيبات كاملة الاستدارة ونظيفة، ويصل محيطها إلى ٠,٣ مم في المتوسط في حين يبلغ محيط أكبر الحبيبات حجماً

٧, ٠ مم. وتوجد بالإضافة إلى الكوارتز حبيبات أخرى من الصخر الجيري ذات لون أبيض وبني، وكذلك حبيبات عَرضية من الفلسيار.

٤- الإرسابات السطحية:

كربونات الكالسيوم:

توجد: إرسابات كلسية متحجرة وبأشكال متنوعة في معظم المواضع التي تقع على طول الطريق الذي سلكه السيد/ فيلبي بين عنسلة والحوايا. كما تم جمع عينات منها خارج هذه المنطقة في رقة الشلفا والطويرفة وأم الحديد وبني زينان. ولتسهيل عملية الوصف، سيتم تقسيم هذه الإرسابات إلى ثلاثة أنواع:

١- رقع ذات شكل غير منتظم يحتمل أنها تكونت في الرمال عن طريق نز المحاليل الكلسية من الأسفل. وعندما تزال الرمال تبقى هذه الإرسابات في شكل كتل قاسية أو صلبة صقلتها الرياح إلى حد ما. وتتخذ بعض هذه الرقع شكل لحاء أو طلاء أغبر اللون لتبدو بعدها وكأنها قطع من فحم الكوك المسامي.

٢- قشور خارجية قاسية تتكون على سطح الصخر الجيري أو الرمل. وقد يحدث أن تتحلل الصخرة الداخلية بعد أن لانت بفعل عوامل التجوية وتختفي نهائيّاً تاركة القشور الكلسية المجوفة أو الشظايا الصفائحية المسطحة.

٣- كتل متحجرة أنبوبية الشكل: كثيراً ما تتخذ هذه الكتل شكلاً مستقيماً يصل محيطه إلى حوالي ١ سم، ونادراً ما تكون منحنية كالجذور وعادة ما تكون مجوفة. ويحتمل أنها تكونت حول سيقان أو جذور النباتات التي

تنمو في الرمال. ولم يعثر على كتل من هذا النوع ضمن هذه المجموعة وإن كانت هناك عينات منها وجدت في تلك التي جلبت من المنطقة الواقعة بين حاذ أبي خشبة والحوايا.

ومن الواضح أن الإرسابات الكلسية كانت تنتشر فيما مضى على نطاق واسع في عنسلة التي جمع فيها السيد/ فيلبي عدداً كبيراً من قطع الطوفا الأسطوانية الشكل، كل قطعة منها تغلّف أنبوباً أسطوانيّاً أملس الجدار. ويتراوح محيط الأنابيب من ١ إلى ٢سم في حين تصل أطوالها إلى ١٥سم. ويتسم جدارها الداخلي بالنعومة كما أن محيطها عادة ما يكون متسقاً من بداية الأنبوب إلى نهايته. وتحتوي بعض قطع الطوفا أكثر من أنبوب. وفي مثل هذه الحالات تكون الأنابيب متوازية تقريباً أو منفرجة انفراجاً قليلاً، أما السطوح الخارجية لقطع الطوفا فهي، وإن كانت أسطوانية الشكل تقريباً، غير متساوية وذات مسامية عالية مثل الطوفا الكلسية النموذجية أو التزافيريياين، في حين أن بعضاً منها قد تعرض لقليل من الصقل والتملس بفعل الرياح.

لفترة من الزمن لم يتمكن المختصون من العثور على دليل حاسم لحل لغز كيفية نشأة هذه الأنابيب المكسوة بالطوفا. وقد اقترح البعض جذور وسيقان النباتات كأسباب، ولكن وجد أن هذه الأنابيب تبدو أكثر نعومة واستقامة واتساقاً في محيطها مما تتيحها جذور وسيقان النبات. وجاء التفسير بمحض الصدفة حينما تذكر الكولونيل ج.ك. روبرتسون بأنه رأى أنابيب مماثلة في طوفا كلسية جُلبت من الأردن. وباقتراح منه، أهدى السيد/ ج. بالمر عينة منها إلى المتحف البريطاني، وكانت تتكون من ساق قصب من نوع أرندو Arundo يبلغ محيطه ١٤م ومغلف تماماً لأكثر من ٤٠سم من طوله داخل غطاء أنبوبي من طوفا كلسية ذات تركيب متشعب. وعندما أزيل الغطاء تماماً

من ساق القصب ظهر داخل الأنبوب أملس للغاية ومتسق المحيط. كما وُجدت تورمات أو انتفاخات على السطح الخارجي لغلاف الطوفا عند العجزات أو منابت الأوراق من الساق. وعندما نقارن أنابيب السيد/ فيلبي الأسطوانية المجوفة مع هذه العينة (الأردنية) فليس من شك أن الأولى أيضاً تتكون من غطاءات سيقان القصب.

وقد عثرت العينة الأردنية من قبل أحد مهندسي شركة رندل وبالمروتريتون في قاع وادي زهار أحد فروع وادي العرب، على الحافة الشرقية لوادي نهر الأردن.

ومن هذه المماثلة والمطابقة بين العينات وكذلك من وفرة الأسطوانات المجوفة التي توجد متناثرة على السطح، يتوجب على المرء أن يستنتج بأن مسكية قصب كانت تنمو في عنسلة في عصر ليس ببعيد جيولوجيّاً، كما يمكن للمرء أن يربط مسكية القصب هذه بفترة كانت تعيش فيها قواقع المياه العذبة التي ورد ذكرها في تقرير السيد/ كوكس. ففي أحد هذه المواقع وبالذات في أبي محيرات، قام السيد/ فيلبي بجمع عينة وحيدة من الطوفا تُظهر ذلك التجويف الذي تركه ساق القصب. وهذه العينة تمثل السجل الآخر الوحيد لما تبقى من تلك العصور الرطبة.

الجبس أو الجص. يبدو أن الجبس في شكل قشور سطحية ينتشر بكثرة عبر أجزاء من الطريق الذي سلكه السيد/ فيلبي. فقد تم جمع عينات من (طوفا جسية) تتكون من حبيبات ناعمة في الضربون وعُج وبئر ابن جهيم. وفي الموضع الأول وجدت العينة تستلقي فوق صخر رملي قرمزي اللون، كما وجدت إرسابات مماثلة بعيداً في اتجاه الجنوب في بني جفنان وأبي خشبة

(مكشوفة على حافة صخرية) وعلى طول الطريق من شنّة حتى أبي مُحيرات.

وفي مواقع قليلة، تتكون الكتل الجصية من مجموعة من بللورات منبسطة المظهر ودائرية تقريباً في تصميمها؛ وقد وجدت هذه الأنواع في حافة صخرية في جوب البعيج وأم النصي وعند بئر الحفاير.

وتوجد أشكال أنبوبية متحجرة في مواقع كثيرة يحتمل أن قد تكونت حول جذور وسيقان نباتات، مثل الكالسايت المشار إليه أعلاه. وفي الحقيقة فإن كثيراً منها يتكون جزئيّاً من كربونات الكالسيوم. وكثيراً ما يكون الجدران الداخلية لهذه الأنابيب مبطنة بجبس ذروري أبيض اللون مثل ذلك الذي يغطي سطح (الطوفا الجبسية).

وبالإضافة إلى هذه (الطوفا) السطحية والمتحجرات الأنبوبية، وجد السيد/ فيلبي في مواقع كثيرة بللورات من الجبس محشوة بحبيبات الكوارتز التي طوقتها البللورات وهي تنمو في الرمل الرطب[1]. وتعد هذه البللورات من الأشياء المألوفة عند أولئك الذين يزورون طوغورت في الجزائر حيث تعرف بـ(ورود الصحراء) حيث تكتسب البللورات لوناً أصفر برتقاليّاً يميل إلى القرنفلي وذات معالم خارجية سداسية الشكل تقريباً وقطاع مزدوج التحدب. وتوجد معظم العينات الجزائرية في شكل مجموعات وتكتلات، ولكن تلك التي عثر عليها فيلبي في القديرات تتكون من بللورات منفردة مفككة يبلغ محيطها حوالي ٨مم.

---

(١) وفي طريقة نموها، تشبه هذه البللورات بللورات الكالسايت المحشوة بالرمل والموجودة في فونتنبلاو والتي كثيراً ما تحتوي على نسبة من الرمل تتراوح ما بين ٦٠ و٨٠٪.

أمـا البللورات التي وجـدت في مـواقع أخـرى فكانت ذات أشكال مـختلفة. فهي أقرب إلى التصـميم العـام لبللورات الجبس ذات الشكل الكلايتـو ينكويد (٠١٠) والأهرامـات (١١١) المتطورة. أمـا الموشـورات والأورثو دومز فتتمثل فقط من خلال تجاويف كهفية خشنة. ويزيد طول بعض هذه البللورات ليصل إلى أكثر من ١٠سم. وبين الفينة والأخرى، عثر على بللورات مزدوجة ذات التصميم المعروف بـ (خطافى الذيل). أما البللورات الأقل حجماً فإنها كثيراً ما تكون أفضل شكلاً وتحتفظ بوجوه موشورية خشنة. وقد عثر على بللورات من هذا النوع في عنسلة ومنيفة والزكرت والمعمورة والطريوة وبئر ابن سويلم.

أما البللورات الأصغر حجماً فتوجد في مجموعات ذات لون قرنفلي أو أسمر فاتح وتوجد فيها رمال بصورة كثيفة وتبرز على سطح البللورات إلى درجة تجعلها تبدو وكأنها قد بُنيت كلية من حبيبات الكوارتز، في حين أن الجبس الذي يضفي للمجموع شكله العام فلا يمكن اكتشافه حتى باستخدام العدسات. وأحياناً تصبح حبيبات الرمل أكبر من قدرة الجبس على احتوائها، وعندئذٍ يبقى الشكل البللوري الأساسي مخفيّاً أو غير واضح تماماً.

لم يعثر على الجبس بأشكاله الأخرى، مثل الصفائح الشفافة عديمة اللون والمعروف بالسلفات والمرمر الأبيض المدمج، إلا في محاجر الصلصال بالقرب من الهفوف و(المرمر) في جوب القديرات وفي شكل قطع صغيرة عند جوب إنباك. ويحتمل أن هذا الحدوث يرتبط بطبقات الميوسين الموجودة في هذه الأماكن.

الليمونايت (أكاسيد الحديد المائية). لا تبدو طبقة الحديد القشرية الصلبة، التي توجد بكثرة في العديد من التكوينات الرملية، كثيرة الحدوث في الربع الخالي. أما العينات الثلاثة التي افترض أنها تمثل كتلاً حجرية مستديرة من طبقة الحديد القشرية فقد وجدت عند الفحص الدقيق لها بأنها نيازك حجرية شبيهة بتلك التي عثر عليها السيد/ برترام توماس في بواح في الصواحب، وتشكل موضوع مذكرة خاصة يجرى إعدادها حاليّاً.

وقد جُمعت عينات من الليمونايت ذات سطح مصقول بالقرب من ضباء في العرماء، كما يظهر الليمونايت في شكل طبقة حديد قشرية صلدة ومتحجرات حديدية أنبوبية بالقرب من الدُّغم في منطقة الرياض.

٢- علم الطبقات وعلم الأحافير

بقلم ل. ر. كوكس

ماجستير، قسم الجيولوجيا، المتحف البريطاني

أ- صخور جبل طويق الجوراسية:

أوضحت رحلات السيد/ فيلبي السابقة أن هضبة طويق، التي يشكل طرفها الغربي حافة متواصلة يتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ - ٨٠٠ قدم ابتداءً من وادي الدواسر في الجنوب إلى ما بعد الزلفي في الشمال - وهي مسافة تتجاوز ٤٠٠ ميل - تتكون من الصخور الجوراسية. وإلى الغرب مباشرة توجد في السهل منكشفات واسعة من الصخور الجيرية التي تنتمي إلى عمر أقدم إلى حد ما من صخور الحافة، وإن لم تثمر عن أحافير حتى الآن. وبعيداً في جهة الغرب وحتى منطقة الصخور النارية القاعدية في غربي وجنوب غربي نجد، تطل الصخور الأقدم عمراً محجوبة بغطاءات واسعة من الحصباء. وقد وصف د. ب. نيوتن[١] عدداً قليلاً من الأحافير التي جمعت من ثلاثة مواقع على هضبة طويق هي: بقين جنوب غربي الرياض، وعشيرة وحمار الواقعتان في منتصف الطريق بين الرياض ووادي الدواسر. ويرى نيوتن أن هذه الأحافير تنتمي عمريّاً إلى فترتي السيكواني والكمريدجي.

وقد جمع السيد/ فيلبي خلال أحدث رحلاته عينات عديدة من صخور طويق الجراسية وبالأخص من المنكشفات الغنية بالأحافير الكائنة بجوار ممر الحيسيّة الواقع شمال غربي الرياض، وكذلك من منطقة شعيب المرخ التي

(١) حوليات مجلة التاريخ الطبيعي، المجموعة التاسعة، الجزء السابع، ص ص: ٣٨٩ - ٤٠٣.

تقع على بعد ٥٠ ميلاً شمالي الممر، وأيضاً من خشم العامور في الجنوب حيث يخترق وادي الدواسر حافة طويق.

وقد حُفظت حفريات الحيسيّة في صخر جيري هش أصفر اللون ويشتمل على أمونايت الذي يؤكد وجوده بأن أعمار هذه الحفريات تعود إلى فترة كالوفيا العليا. وفيما يلي قائمة بالحفريات التي وجدت ضمن الأنواع التي عثر عليها في هذا الموقع:

١ - الأمونيديات : AMMANOIDEA

اريمنوسيرا Erymnoceras spp

٢ - صفائحية الخياشيم : LAMELLI BRANCHIA

-Parallelodon sp
-Mytilus jurensis Roemer
-Mytitus (Arcomytilus) cf. asper (J. Sowerby)
-Mytilus (Pharomytilus) plicatus (J. Sowerby)
-Heligmus integer Douville
-Lopha ef. solitaria (J. de C. Sowerby)
-Eæogyra nana J. Sowerby
-Chlamys cf. ftbrosa (J. Sowerby)
-Chlamys n. sp
-Ceratomya eæentrica (Roemer)
-Ceratomya ef. paucilirata (Blanford)
-Ceromyopsis ef. heluetica De Loriol
-Ceromyopsis ef. rostrata Douville
-Quenstedtia ef. mactroides (Agassiz)
-Homomya inornata (J. De C. Sowerby)
-Pholadomya carinata Goldfuss
-Pholadomya aubryi Douville

وقد عثر في العويند المجاورة على عينة من فصيلة صفائحية الخياشيم هي

لوفاهاستيلاتا (شلوتهايم) محفوظة في حالة جيدة، كما أن العينات التي جمعت في الرياض نفسها تُظهر أن هذه البلدة تقبع فوق صخور جيرية جوارسية مماثلة لتلك الموجودة في الحيسية. أما الأحافير التي جمعت من شعيب المرخ فتتكون أساساً من قوالب من نوع النيرينا Nerina حفظت في حجر رملي ذي لون بني يميل إلى الإصفرار ولكنها تتضمن أيضاً أنواعاً أخرى مثل Maetromya (Unicardium) cf. globosa و Homomya cf. inornata (Sowerby) ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن مادة النسيج البيخلوية (الواقعة بين الخلايا) لهذه العينات مماثلة ومتطابقة مع نوع نيرينا نفسه الذي سجل في بقين وورد ذكره في ورقة نيوتن وأيضاً من المسرجيات Brachiopods التي جلبت من حمر وسجلت باسم Rhynchonella cf subvarlabilis Dav .

أما أحافير خشم العامور فتوجد جزئيّاً في صخر رملي ذي لون باهت إلى حد ما مقارنة بلون الطبقة التي وجدت فيها أحفور نيرينا في بقين وشعيب المرخ وجزئيّاً في صخر رملي باهت اللون وتتضمن الأنواع التالية :

١- بطن قدميات Gastvopada :

Nerinea cf Desvoidyi d' orbigy

٢- صفائحية الخياشيم Lamellibranchia

-Parallelodon sp
-Musculus n. sp
-Mytilus (Pharomytilus) Plicatus (J. Sowerby)
-Heligmus cf. Dsiaticus Douville
-Mactromya ef. globosa Agassiz
-Ceratomya eæcentrica (Roemer)

-Ceromyopsis ef. heluetica de Loriol

-Homomya inornata (J. de C. Sowerby)

-pholadomya aubryi Douville

تشتمل الأحافير المذكورة سابقًا على الأنواع الثلاثة التي وجدت في طبقة النيرينا في شعيب المرخ، ومن ثم فإن أفقها -أي تربتها- تبدو متماثلة . وقد عثر في أرض الصومال على عدد من الأنواع الواردة في القائمة السابقة في طبقة تنتمي إلى فترة كالوفى، ولذلك فإنه يحتمل أن تكون هذه الطبقات، مثل تلك التي في الحيسيّة، تنتمي إلى الفترة الكالوفية .

ونخلص من هذا بأنه قد يبدو أن ثمة دليلاً قويّاً يعزز تعين عمر كالوفى بدلاً من سيكواني - كميريدجى لكل العينات التي جمعت حتى الآن من أماكن طويق الجوارسية .

أما ذلك النوع المميز من الأحافير لوفافيلباي Lopha Philbyi (والذي لسوء الحظ مرادف لـ L. Costellata Cdouvlle) . الذي جمعه فيلبي أصلاً من حمار، فلم يعثر عليه في مواقع أخرى في طويق . ولكن بات من المعروف الآن أن هذا النوع يوجد بكثرة في الطبقات التي تنتمي إلى العصر الكالوفى (وربما أيضاً الباثوني) في أرض الصومال، بينما يسمى النوع نفسه في سيناء أفقا ويعتقد دوفيل بأنه ينتمي إلى الفترة الباثونية العُلْيا . أما أحفور نيرينا الذي عثر عليه في طويق، وإن كان ذا صلة وثيقة بنوع N.desvoldyi (وهو مرجاني) فقد جمعه أيضاً الماجور هـ . س . هازلجروف من مكان قريب من نوبات في ظهير عدن[١] .

(١) انظر نيوتن: حوليات مجلة التاريخ الطبيعي، المجموعة الثامنة، مجلد٢، ١٩٠٨، ص٩ .

أما عمر الطبقات الموجودة في نوبات فلم يتأكد بعد، مع أن ثمة تقارير تشير إلى وجود أحافير كالوفية في جول ركاب Golrakab (؟) في ظهير شقراء التي تقع شمال شرقي عدن[١]. أما الأحافير التي جمعت من وهالا التي تقع على بعد ٥٠ ميلاً شمالي نوبات وقام بتوصيفها كل من نيوتن وكريك (مرجع سابق)، فتنتمي إلى فترة كمديدج الأسفل، في حين أن حيوانات الأفق الأعلى تتميز بوجود أنواع مثل:
Paralleladona egertonianus, stoh Traehus arabiensis Newfon, Nueula Cunelformis sowerby التي لم يعثر عليها بعد في منطقة طويق.

ب- صخور الكريتاسي الأعلى من هضبة العرمة:

إلى شمال وشمال شرقي الرياض وعلى مسافة حوالي ٣٠ - ٤٠ ميلاً شرقي حافة طويق، تحدد حافة أخرى موازية الطرف الغربي لحافة العرمة. ويبلغ ارتفاع هذه الحافة عند الخفس الواقعة على بعد ٦٠ ميلاً شمالي الرياض، حوالي ٢٠٠ قدم، ثم تبدأ في الانخفاض في اتجاه الجنوب حتى تصل مستوى السهل الحصبائي الذي يحتل الجزء الغربي من صحراء الربع الخالي.

تتكون حافة العرمة من صخر جيري ذي لون يتراوح من أبيض إلى أصفر باهت (كريمي). وينتمي إلى العصر الكريتاسي الأعلى. أما أكثر الأحافير وفرة هنا، والتي جمع السيد/ فيلبي عينات عديدة منها في الخفس

---

(١) انظر ستيفانيني، الملحق لكتاب ليتل، و. هـ: جغرافية وجيولوجية المكلا (جنوب الجزيرة العربية)، ١٩٢٣ ص١٩٤.

ومسيجيري، فقد كانت من نوع كبير من المحار المروحي الطي Lepha di-chotoma (Bayle) وهو شكل وجد في الطبقة السينونية في بلاد فارس وأيضاً في مواقع كثيرة في إفريقيا الشمالية. وتشمل الأحافير الأخرى التي عثر عليها في الخفس، وذلك بالإضافة إلى القوالب الداخلية لعدد من أنواع الرخويات، عينة من فصيلة صفائحية الخياشيم السينوني المعروفة وهي Roundairia drui ورودست Rudists غير محددة المعالم وفورا منيغرا قرصاني الشكل يحتمل أنها تنتمي إلى جنس السايكولايت Cyclolites (من نوع C.elliptica و C. Polymorpha)، وكلاهما نوعان سينونيان. ومن ثم فإن هناك ما يبرر القول إن صخور حافة العرمة تنتمي إلى الفترة السينونية، وثمة عمل إضافي يتوجب القيام به لتحديد ما إذا كانت هناك صخور كريتاسية تحتية توجد مباشرة في جهة الغرب.

ج- صخور الأيوسين:

يحتمل كثيراً أن توجد صخور الأيوسين في مكان ما بين هضبة العرمة وصخور الأيوسين التي وجدت جنوبي خليج البحرين، كما يمكن إحالة الصخور الجيرية في الهفوف إلى التكوين نفسه. ومع ذلك لم يعثر على أحافير فيها. وقد اكتشف دكتور ج. م. ليز أن شبه جزيرة قطر تتكون من صخور أيوسينية وهي ملاحظة أكدّها السيد/ ب. س توماس الذي جمع أحفورات أيوسينية منها عندما كان قادماً إلى الدوحة من جهة الجنوب.

د- صخور المايوسين:

في قرن أبي وايل بالقرب من السكاك الواقعة عند الطرف الجنوبي لخليج البحرين، وكذلك من المنطقة المجاورة لجوب إنباك على بعد حوالي ٣٠ ميلاً

في اتجاه الجنوب الغربي، جمعت عينات من عدد من الطبقات المكشوفة والغنية بالأحافير ثبت فيما بعد أنها تنتمي إلى عصر المايوسين. وتتكون هذه الطبقات من مارل (طين جيري) لين ذي لون أبيض وقرنفلي وتحتوي على قوالب عدد من القواقع الصغيرة يتكون بعضها من قواقع محارية محفوظة في حالة جيدة وتنتمي أساساً إلى جنس Ostrea latimarginata Vred وقليل منها إلى ٥٠ hyotis (Linnie) . أما القوالب الرخوية فتنتمي إلى نوع Diplodonta cf rotondata و Clementla Papyracea كما توجد أنواع أخرى تنتمي إلى Mytilus و Anamia و Chlamys و Anadara و Lueina و Cardium و Cypraea و Turritella، بالإضافة إلى أجناس أخرى. وتحمل بعض أنواع O. Latimarginata ندبة تشير إلى أنها نمت ملتصقة بقوقعة من نوع Turritella كما حدث في عينة ميوسينية فارسية في النوع نفسه الذي وصفه دوغلاس[1].

ويوجد صخر كلسي من نوع الفورامنيفرا ذي لون أبيض أو قرنفلي مرتبطاً بالطين الكلسي الرخوي (مارل)، كما توجد طبقات من الجبس يتم استخراجه من يبرين، ويبدو أنها تقع بالقرب من الحد الجنوبي الغربي للخليج المايوسيني.

ويشير وجود كل من O. Latimarginata وطبيعة التكوين الصخري للطبقات إلى أنها معاصرة ومتزامنة مع طبقات فارز الأسفل في بلاد فارس، التي تنتمي إلى فترة البيروقالى - الهلفيتي (أي: الميوسين الأسفل والأوسط).

(١) إسهامات في علم الأحافير الفارسية، الجزء الأول، ١٩٢٧، اللوحة أ الشكل ٢.

وقد عثر حديثاً على طبقات من العمر نفسه في الكويت. وفي جوب إنباك توجد الطبقات الأحفورية مغطاة بصخور رملية حمراء التي تنتمي إلى مجموعة المايوسين، مع أنها قد تكون مرادفة لطبقات البختياري في فارس التي تنتمي إلى عصر البلايوسين.

هـ - البلايستوسين أو الهولوسين: الإرسابات البحيرية أو النهرية السطحية:

يُعد ما اكتشفه السيد/ فيلبي من إرسابات سطحية تحتوي على قواقع المياه العذبة في مواقع عديدة في قلب الصحراء جديرة بالاهتمام وذلك لأنها تشير إلى أن ظروفاً أقل جفافاً من الآن كانت تسود هناك فيما مضى. ففي الزقرت كانت الإرسابات تتكون من صخرة كلسية متماسكة في حين أنها في الحوايا كانت متماسكة على حد سواء ولكن من صخرة أكثر رملية في تكوينها. وفي كلتا الصخرتين تتمثل القواقع (وهي أساساً من نوع Melanoides Mullev Fuberculata) في قوالبها الخارجية. وفي خلة الحوايا وجدت صخرة كلسية سطحية تحتوي على قواقع صغيرة من نوع Planorbis كما وجدت في بعض الأماكن -وبشكل لافت للنظر- في شقة الخلفات وأبى محيرات، كميات كبيرة من القواقع وهي مفككة ومحفوظة في حالة جيدة. وكما أوضح السيد/ ج. س. روبسون والماجور م. كونللي في تقريرهما، فإن كل هذه القواقع تبدو وكأنها تشير إلى أنواع معايشة ومن ثم -ولسوء الحظ- ليس ثمة دليل حاسم فيما يخص العمر الدقيق لهذه الإرسابات.

وفي الختام يتوجب علينا أن نسجل -شاكرين ومقدرين- بأن مجموعة السيد/ فيلبي من القواقع قد أهديت من قبل صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها إلى قسم الجيولوجيا بالمتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي)

ويحدونا الأمل في أن ينشر توصيف أكثر تفصيلاً لهذه القواقع في أماكن أخرى. كما يتوجب عليّ أن أشكر الآنسة/ هـ. م. موير وود والدكتور/ ل. ف. سباث على ما قدماه من مساعدة في إعداد هذا التقرير، كما أشكر الدكتور/ هـ. د. توماس على تحديده لأنواع القواقع التالية وهي على التوالي:

المسرجيات Branehiopods والأمونايت والمرجان Corals.

٣- قواقع المياه العذبة:

نذكر فيما يلي ما كتبه السيد/ ج. س. روبسون، من المتحف البريطاني، في هذا الصدد.

أنهى الماجور/ م. كونللي دراسته للقواقع العربية الخاصة بك، وأنا بدوري أرفق معها قائمة المحطات وأسماء الأشكال المتنوعة التي عثر عليها في كل منها.

الحيوانات الممثلة في هذه القائمة هي مجموعة سورية - بيزوبتامية نموذجية تحتوي على بعض من الأشكال الواسعة الانتشار (على سبيل المثال Mclanoides Tuberculata) التي لا يمكن التعويل عليها في إثبات أي شيء، كما أنه ليس لديها أية صلة مع حيوانات أماكن نائية مثل: حيوانات النيل أو شمال أفريقيا. ويمكن القول عموماً بأنها عينة ممثلة لحيوانات (الشرق الأدنى) العامة.

ويبدو واضحاً أن إجراء تحليل إحصائي لن يتمخض عن نتائج ذات جدوى وذلك بسبب أن ما نعرفه عن الحيوانات المحلية الحالية أو الحديثة ليس كافياً لابداء رأي حاسم حول مدى دلالة ما يلاحظ من مميزات في أشكال القواقع التي جمعتها. وما يهمنا هنا هو أننا لم نتمكن حتى الآن من تحديد أعمار هذه الحيوانات على الرغم من أنها لا تُظهر انحرافاً ذا دلالة من الحيوانات الحالية.

ولكن ثمة حقيقة واضحة تتمثل في وجود نوع Unio الذي يبرهن -دون شك- على وجود مورد جيد ودائم للمياه هنا. فالنوع U. termlnalis هو نوع بحيري، على الأقل من ناحية توزيعه الحالي، كما أن وجود قواقع من

نوع Corbicula يمكن أن يتخذ برهاناً على ذلك أيضاً إذ يقال بأنه نهريٌّ بصفة خاصة وأن وجوده يشير إلى وجود أكثر من مجرد مستنقعات وقنوات ونهيرات.

قائمة القواقع التي جمعها السيد/ فيلبي

المكان		النوع
١- بئر فاضل		Melanoides tuberculata (Mull)
		Corbicula Crassula Mouss
٢- شقة الخلفات		Unio terminalis Bgt
٣- النميلة		Unio terminalis Bgt
		Bulinus truncatus (Aud)
		Mel. tuberculata (Mull)
٤- رقة الشلفا	أحجام صغيرة	Mel. tuberculata (Mull)
		Corb. Crassula Mouss (?)
		Bul. truncatus (Aud)
		Lymnaea lagotis Schrank (?)
٥- الطويرفة	شظايا قواقع محتملة من نوع	Unio
٦- عنسلة	شظايا من نوع	Cypraed
٧- حدبة أبو خشبة	أحجام متوسطة من	Mel. tuberculata Mull
	ويحتمل أن تكون من نوع	Lymnaea juv, Lagotis
		Mel. tuberculata Mull

٨- أبو المحيرات		Unio terminalis Bgt
	أحجام كبيرة وصغيرة	Mel. tuberculata
		Corb. Crassula Mouss (?)
		Planorbis Cf. Corneus (Lin)
٩- أبو صبّان	صغيرة الحجم	Mel. tuberculata
		Corb. Crassula Mouss. (?)
١٠- خلة الحوايا	منحوتة إلى حد كبير	Mel. tuberculata
١١- كميدة	أحجام صغيرة	Mel. tuberculata
١٢- وادي رنية	عينة واحدة مشوهة الشكل	Planorbis sp (?)

١- لا يبدو أن أيّاً من هذه القواقع من نوع C. fuminalie Mull الكبير الحجم الذي يتسم بارتفاع أكثر مقارنة بعرضها. فقد كانت الأنواع قيد الملاحظة تتسم بأعراض أكثر كبراً مقارنة بارتفاعها مما يجعل إطلاق اسم عليها عرضة للتساؤل نظراً لوجود أسماء مرادفة عديدة. ويمثل نوع. Crassula Mouss أحد أقدم الأنواع عمراً ويساوي ربما نوع -Syriaca Loc ard وأنواع أخرى لاحقة.

٢- يبدو أن كل أنواع الـ Unio تقع في حدود هذا النوع المتغير أو القابل للتغيير.

٣- هناك فقط عدد قليل من القواقع غير المتطورة ولكن يبدو أن كلها تنتمي إلى نوع Lagotis الذي يمثل النوع السوري الشائع.

٤- تتسم معظم القواقع التي جلبت من الجزيرة العربية بأنها سُرِّية الشكل

بطريقة استثنائية بالنسبة لهذا النوع الواسع الانتشار. ولكن يتسم بقابليته للتغيير الكبير وبتنوعه (انظر جيرمين في سجلات المتحف الهندي، مجلد/ ٢). ونظراً لوفرة وجوده في آسيا الصغرى، وليس من سوريا وفلسطين، فليس ثمة سبب في الشك حول وجود هذا النوع في الجزيرة العربية.

وتتكرر القواقع نفسها في الصناديق المختلفة (التي لا تحمل ملصقات تعريفية إلا الصندوق الخاص بأبي محيرات)، وكان أكثرها لفتًا للنظر عينتان أو ثلاث جيدة من نوع Bulinus truncatus وأفضل أنواع Lymmaeas وإن كانت صغيرة الحجم.

ليس هناك من شيء يساعد في تحديد أعمار هذه المجموعة من الناحية الجيولوجية وذلك نظراً لأن كل الأنواع تبدو وكأنها مازالت موجودة الآن في الشرق الأدنى. ولكن وجود نوع Uniunidae وإلى حد ما نوعى Corbiculide و Lymnaea يبرهن على وجود مورد وفير من المياه العذبة، وربما أنهار وبحيرات، في المنطقة التي وجدت فيها هذه الأنواع.

ملحوظة: يجب قراءة هذه الملاحظات، التي أبداها -مشكوراً- الماجور كوننلى (الذي تعرّف على العينات) بناء على طلبي، وبمعاونة السيد/ روبسون، في إطار علاقتها بالأهمية العامة لمجموعة قواقع المياه العذبة التي جمعتها من الربع الخالي، وليس كإسهام نهائي وجازم وموثوق به في أدبيات هذا الموضوع. فما زالت مسألة الدلالة الكاملة لقواقع المياه العذبة من الصحراء العربية تشغل بال الخبراء وتجذب اهتمامهم. ومن الأهمية بمكان أن نضيف هنا أن كل الأدوات الصوانية التي وجدت مرتبطة بقواقع المياه

العذبة هذه –وذلك على سطح التربة الغرينية (الفيضية) التي تتناثر فوقها الحصباء– تنتمي إلى العصر الحجري الحديث (أو ذات مصدر لاحق لهذا العصر) وإنني لم أعثر على أدوات صوانية تنتمي إلى العصر الحجري القديم في أي مكان في الربع الخالي – فيلبي.

ج- بَيْض النعام

تقرير حول بعض شظايا قشرة بيض نعام جمعها السيد/ فيلبي أثناء رحلته الأخيرة عبر الجزيرة العربية.

بقلم بيرسي/ لو

يمكن تصنيف شظايا قشرة بيض النعام التي جمعها السيد/ فيلبي من مواضع مختلفة خلال رحلته عبر الربع الخالي إلى مجموعتين هما:

١- مجموعة حديثة التي، وإن فقدت طلاء القشرة السطحى الناصع البياض، ما زالت تحتفظ بذلك اللون والمظهر الناعم الطبيعيين اللذين يتميز بهما بيض النعام السوري.

٢- مجموعة أحفورية وممعدنة مشربة بألوان متباينة تتراوح من بني غامق تشوبه ظلال بنفسجية فاتحة إلى اللون البني الفاتح (قهوة باللبن). وإلى جانب هذا التلوين المميز للشظايا المتحجرة، فإن أطرافها قد شطفت بوضوح بفعل التعرية الناجمة من الرمال التي تذروها الرياح. وقد حدثت عملية الشطف هذه على حساب سطح القشرة الخارجية الرقيقة والذي -في حالة الشظية التي عثر عليها في شقة الخلفات- يمتد من الطرف نحو الداخل لمسافة ٤م. وإلى جانب ظاهرة الشطف واللون المميز فإن كل هذه الشظايا المتحجرة تظهر سطحاً ناعماً صقلته الرياح. ويبدو هذا الصقل بوضوح على السطح الخارجي، كما أن هذا السطح الناعم الأملس المصقول يعلو في كل الأحوال سطحاً خشن المظهر أو محفوراً إلى حد ما، والذي يعزوه زميلي السيد/ كامبل سميث إلى الحفر الناتج من عمل الندى.

وما يدعو إلى الغرابة أن المجموعتين اللتين تتكونان بكل تأكيد من شظايا

قشرة حديثة تنتمي إلى المجموعة (١)، قد جمعتا في محاور الصمان وبني معارض على التوالي: أي عند بداية الرحلة ونهايتها.

أما كل شظايا القشور التي جمعت بين هذين الموضعين فقد كانت ممعدنة وملطخة باللون بصورة أكثر، كما كانت أكثر رقة، وفي بعض الأحيان رقيقة جداً، نتيجة تعرضها لعملية التعرية الرملية.

ويعتقد أن الشظايا التي جمعت في محاور الصمان كانت تنتمي إلى بيضة واحدة. ومن المهم أن نلاحظ هنا أن أحداً لم ير النعام السوري (كما علم السيد/ فيلبي من مرشده) في هذا الجزء من الجزيرة العربية منذ أربعين أو خمسين سنة. ويبدو أن بات مؤكداً أن المجموعتين الأحفورية والحديثة، كانتا تنتميان إلى النوع نفسه من النعام ألا وهو النعام السوري Struthio Syriacus. ولكنني أقترح في هذا الصدد بأن المجموعة الأحفورية قد تنتمي إلى أفق أقدم عمراً ربما يتطابق مع فترة مماثلة عمراً وتاريخًا لسطح الأرض القديم وذلك قبل أن تغمره الرمال.

البسامورنيس: طائر نعام ضخم Psammornis

يمكن أن نستثني من هذا التعميم تلك الشظية التي جمعت من شقة الخلفات لما تتسم به من تميز خاص يتمثل في سمكها الذي يبلغ ٣,٠مم مقارنة بسمك شظايا القشور الحديثة الذي يتراوح ما بين ١,٩ و١,٢مم. وعند التعامل مع السماكة النسبية لقشور البيض، فإن هذه المقاسات تمثل فرقاً كبيراً. ولا يساورني شك في أن هذه الشظايا تنتمي إلى بيض أكبر حجماً من بيض النعام السوري. ومن حيث سماكتها، فإنها تقرب من سمك شظايا نموذجية لطائر البسامورنيس ٣,٢مم التي جمعها روتشيلد وهارتت بين

طوغورت والعويد في الجزائر وقام بتوصيفها أندروز بأنها تنتمي إلى جنس جديد من النعام الأحفوري.

وتتفق نتائج الفحص المجهري لأجزاء من الشظية التي وجدها فيلبي في الجزيرة العربية في كل تفاصيل خصائصها الدقيقة، مع أجزاء مماثلة قطعت من شظايا قشور بيض البسامورنيس التي جمعت في الجزائر. وإلى جانب ذلك، فإن اللون البني المائل للاغبرار الذي تتميز به شظية الجزيرة العربية يتطابق تماماً مع شظية وجدت في الجزائر. ومن ثم فإن الاستنتاج الوحيد الذي توصلت إليه هو أن طيراً نعامياً ضخم الحجم يعرف باسم. بسامورنيس روتشيلد، كان يقطن الجزيرة العربية أيضاً.

اكتشف السيد/ فيلبي شظية قشرة البيض العربية من قاع نهر قديم يقع عند حوالي خط عرض ٢٢ شمالاً من موضع عُثر فيه أيضاً على قواقع مياه عذبة. وقد أخبرني اللورد روتشيلد بأنه جمع الشظايا الجزائرية في مكان من أرض تعرضت مؤخراً لعواصف رملية عنيفة عرّت الأرض من ما بها من تلال رملية وحيث تم اكتشاف بعض الآبار القديمة. وقد عثرت على هذه الشظايا ملقاة على السطح بجوار هذه الآبار مباشرة.

فإن مدى انتشار طائر البسامورينس الواسع مثير للاهتمام وذلك لأنه يوحي بوجود اتصال أرضي أكثر اتساعاً مما هو الآن مع شمالي أفريقيا، خاصة خلال الفترة التي ازدهر أثناءها هذا النوع من النعام، في حين أن وجود شظايا قشرة بيض هذا الطير مرتبطاً برخويات المياه العذبة قد يوحي أيضاً بأن هذا الطير كان يعيش ضمن حيوانات أخرى كانت تحتل أرض الجزيرة العربية القديمة قبل أن تقهرها الظروف الصحراوية.

وقد قمتُ بوصف[1] شظايا قشرة بيض نعام جمعت من صلصال هباريوني أحمر (بلايوسين الأسفل) في شمالي الصين وتنتمي إلى نوع يبدو ظاهريّاً بأنه من جنس النعام. وقد قمتُ أيضاً بتوصيف، ومن الموضع نفسه، حوض نعام أطلقتُ عليه اسم Struthio Wimami. وقد بلغ سمك شظايا قشرة بيض النعام البلايوسينى، الذي كان أكبر حجماً من النعام الحديث، ٢,٦م في المتوسط. وبعد أن تفككت من الصلصال بفعل التجوية، لم تتعرض الشظايا كثيراً لتعرية تذكر من العوامل الجوية، بينما تعرضت شظايا قشرة بيض النعام العربي للتآكل مما يدفعنا إلى التخمين بأن الشظايا الأخيرة كانت في الأصل ذات سمك يبلغ أكثر من ٣,٠م. ونستنتج من ذلك أن حجم طير البساموريني كان يبلغ على الأقل ضعف حجم النعام الحديث[2].

---

(١) باليونتولوجيكا سينيكا، ١٩٣١، مجلد ٦ ملزمة ٤ ص١-٤٠، أجزاء ١-٤ وأشكال ١-٢.

(٢) في خطاب لاحق كتب دكتور/ لو ما يلي استجابة لبعض التساؤلات التي أثرتها:

١- من الغريب أن تثير هذا السؤال حول ما إذا كان طائر البسامورنيس قد ينتمي فعلاً إلى مجموعة الرُّخ Aepyornis، وهو جنس نعامي أحفوري ينحصر وجوده حتى الآن في مدغشقر. وذلك لأنني أثرت هذا السؤال من قبل (مداولات الجمعية الزولوجية، ١٩٢٨م) ويرى لا مبرخت أن هذه الفرضية يدعمها اكتشاف عظم أحفوري (عُظيمات الكاحل والوظيف أو مشط القدم لطائر نعامي ذي ثلاثة أصابع) في طبقات أوليجوسينية في الفيوم والذي أطلق عليه اسم Stromeria Fayumensis.

وفي ظل هذا الشح الواضح لأية معلومات حتى الآن، سيظل السؤال التالي دون إجابة وهو: ما العلاقة بين طائر البساموريني ونعام ويماني S. Wimani الصيني؟ ولهذا فإنني لا أحبذ أن ألزم نفسي على نحو محدد بفكرة أن طير البسامورنيس ذو صلة بطائر الرُّخ. إنه حقّاً لتخمين مثير للاهتمام. وبالطبع لم يبرهن بعد وبنحو محدد أن وجود طائر الرخ الأسطوري قد بُني على طائر Aepyornis الضخم من مدغشقر، ولكنني أعتقد بأن طائر الرخ كان -بلا شك- ضخماً كذلك.

٢- هل النعام تشرب الماء؟ ليست لدي معرفة عملية مستمدة من الملاحظة، ولكنني أعلم يقيناً من=

ويمكن أن أضيف أن سمك بيوض نعام شمال أفريقيا (S. Camelus) يتراوح حسب ما أجريتُ من قياسات بمقياس فيرنير، من ١,٨ إلى ١,٩م.

= مقال كتبه لينز عن طيور المناطق الشمالية والوسطى من دارفور (طائر أبي منجل، ١٩٢٥، ص٧٩١)، بأنه كان عليك أن تضمن كل الطيور عامة في سؤالك هذا عن النعام.

يقول لينز في هذا الصدد: «لا يمكن لأي نوع من الطيور في المناطق الشمالية والوسطى من دارفور، على سبيل المثال، أن يحصل على أي نوع من مياه الشرب، بما في ذلك الندى، خلال السنة كلها إلا أثناء شهور المطر التي قد تمتد لأربعة أو خمسة أو ستة أشهر». وقد أخبرني بيتس برواية مماثلة فيما يخص الجزء الجنوبي من الصحراء الكبرى حيث لا يوجد ماء ولا ندى، وحيث يمكن تجفيف الملابس خلال الليل، ومن هذا يُخيل لي أن النعامة يمكن أن تقضي وقتاً غير محدد دون أن تتعاطى ماء.

وبهذه المناسبة فإن طائر Aepyornis في مدغشقر كان يحصل على كمية كبيرة من الماء.

وثمة سؤال يتعلق على الأقل بنوع واحد من هذه الطيور: هل لم يتخذ أحد من هذه الطيور من أطراف هذا البحيرات موطنًا له؟

يقول نيوتن في قاموسه عن الطيور: «مع أن النعامة عادة ما تسكن أكثر أجزاء الأماكن جفافاً، فإنها تحتاج للماء لشربه وأيضاً للاستحمام فيه أحياناً. ولكن هذا ما سيفعله أي طائر إذا ما وجد الفرصة لذلك».

د- الرمال المغرّدة

زودني دكتور/ فوقان كورنيش -مشكوراً- بهذه الملاحظات بعد محادثة معي حول هذا الموضوع.

حول ما أثرته من رأى مفاده أن الجلبة التي تحدثها الرمال في الصحراء قد ترجع إلى ما يحدث من ارتداد أو اهتزاز على سطح انزلاقي مائل ومستو داخل الكثيب الرملي، أرسل إليك هذه المذكرة لتزودك ببعض المعلومات التي يمكن أن ترجع إليها عند الحاجة.

إن ما لدي من رأي حول آلية التحرك -وفي فكرة يتوجب اختيارها محلياً- هو أنه أثناء انزلاق حبيبات الرمل السطحية السائبة فوق المنحدر المحجوب من الرياح، نحو أسفل الكثيب، وذلك نتيجة لأي إقلاق أو اضطراب يصيب الحبيبات، يحدث أن هذه الحبيبات تجر أو تسحب تلك التي توجد تحتها مباشرة وهذه بدورها تجر ما تحتها مما يزيد ويعمق من اضطراب الرمل، وأثناء ذلك تبدأ الجلبة التي تحدثها حبيبات الرمال المنزلقة في الارتفاع، وإن كان مشوشاً، إلى أن تصل الحبيبات المنزلقة في النهاية إلى سطح مستوٍ محدد حيث يتوقف الانزلاق الرملي عنده ويتوقف معه الصوت الصادر منه.

ويبدو طبيعيّاً بما يكفي أن يكون هذا السطح مستوياً ومحدداً، أو شبه مستو، وذلك عندما ندخل في حسباننا الحقيقة بأن الرمل الذي يبقى تحت الضغط لفترة طويلة يكتسب درجة عالية من الثبات والاستقرار دون وجود مادة لاحمة لها.

أما ما لاحظته حول ما يطرأ من تغيير في الصوت من نغمة مشوشة إلى

غريف ثابت ومستقر وواضح، فإنني أعزوه -بشرط أن يخضع هذا إلى اختيار حاسم- إلى مرور الرمل المتكئ فوق هذه الأرضية المائلة.

وأعرفُ أن سطوحاً انزلاقية داخلية تحدث عندما تتحرك تربات ذات طبيعة طينية، وذلك من خلال مشاهداتي لتلك الانزلاقات الأرضية الكبيرة التي حدثت في مجاز كولبرا في قناة بنما، وقد جمعت عينات من فوق السطح الانزلاقي المائل الذي بدا مثلّما ومصقولاً نتيجة الحركة النسبية للمواد المتكئة عليه.

وعن النقطة التي أثرتها حول ما انتابك من شعور بأن الرمل تحتك كان يمتص قدميك وذراعيك إلى أسفل عندما دفعت به داخل الرمل المتحرك وذلك أثناء صدور تلك الحركات والأصوات، فقد طرأ على بالي تفسير ذلك بعد محادثتك معي بوقت قصير. ففي الورقة التي كتبها ج. هـ. دارون، والتي ذكرتها لك (حول الدفع الأفقي للكتلة من الرمل. في Min. Inkt. Cf مجلد ٦١ (١٨٨٣) ص٣٥٠-٣٧٨) ذكر دارون بأنه قبل أن يبدأ الرمل في الانزلاق، كانت الحبيبات تدفع بعضها جانباً حتى تأخذ ترتيباً أو وضعاً مفتوحاً مغايراً لما كانت عليها من وضع متراص وذلك قبل أن تبدأ عملية التحرك أو الانزلاق. وإذا حدث الشيء نفسه عندما بدأت رمال الكثيب في الانزلاق، فإن الهواء الكامن بين الحبيبات يبدأ في التخلخل بالتمدد والتوسع، ومن ثم لم يعد ضغطه مساوياً للضغط الجوي الفوقي. ولهذا فإن الأقدام والذراع المغروز في الطبقات العليا من الرمل السائب سيُدفعان إلى أسفل بواسطة الضغط الجوي الذي يبدأ في التغلغل داخل الرمل ليملأ الفراغ الناتج من تخلخل الهواء بين الحبيبات.

هذه هي الآراء التي راودتني من عمل كنت قد قمت به منذ سنوات مضت. ولكنني تذكرت كاتباً آخر بجانب أوزبورن راينولدز و. ج. دارون، ألا وهو س. فيلبي الذي كتب مقالة في «مداولات المعهد الملكي مجلد ١٩ص، ٧٤٢»، (المحاضرة كانت في الحادي عشر من فبراير عام ١٩١٠م)، وكانت ملخصاً لمحاضرة تجريبية كنت قد حضرتها وتتضمن ليس فقط خلاصة ما قام به راينولدز من عمل حول تراكم حبيبات الرمل بل بعض التجارب الأصلية التي أجراها الرائد فيلبي وحصل منها أولاً على صوت جلجلة ينتهي بنغمة موسيقية واضحة ومميزة، وذلك من انسياب الرمل (بحركة تفاضلية) في أنبوب زجاجي. وقد ابتكر، كما يتراءى لي، تجربة بهدف تفسير الأصوات التي تصدر من رمال الصحراء وما يميزها من تلك التي تنبعث من رمال شواطئ البحار. وكنت قد نسيت هذه التجربة عندما كنا نتحدث معاً. وحينئذ تذكرت ما رأيته على مستوى كبير في قناة بنما. فقد أثبتت التجربة التي أجراها الرائد فيلبي صدق ذلك الرأي الذي يقول بأن الرمل يمكن أن يُصدر نغمة محددة عندما تنساب حبيباته على سطح انزلاقي مستو. وأرى أن الملاحظات التي أبداها عدد منا حول ما يطرأ من تغيير في اتساق وتناغم الرمل عن عمق معين، بالإضافة إلى الحقيقة المعروفة والمثبتة حول وجود السطوح الانزلاقية المستوية الداخلية في الانزلاقات الأرضية العادية كما تمثلها تلك التي حدثت في مجاز كولبرا في بنما، تُعد إضافة مفيدة للتجارب التي أجراها فيلبي، وذلك في أن كل هذه النتائج تزودنا بتفسير ما عن وجود مثل هذه السطوح الفاصلة في ظل ظروف يسود خلالها انسياب غير محدود ومتحرر تماماً من تلك القيود الاصطناعية التي تترتب عند استخدام الأنبوب الزجاجي الصغير. أرجو أن تستفيد من هذه

الملاحظات بأية طريقـة تشـاء. وعلى أية حـال، فـمن المهم أن نـوجـه انتبـاه المسـافـرين (في الصـحـراء)، بأن يبـحـثـوا عن وجـود أو عـدم وجـود سطح انزلاقي في رمال الصحراء يعزف ويدندن.

هـ - ثدييات الربع الخالي

(مع الشكر للكابتن ج. دولمان، المتحف البريطاني)

١- الخفاش: Eptesicus sp عينة واحدة من شنّة.

٢- الثعلب: Cyna lopex sp ثلاث عينات من عنسلة وعبل الخادم التي تبدو بنفس شكل العينة التي حصل عليها برترام توماس. وقد تحتاج إلى توصيف لها. (الاسم العربي: ثعل، ثعلب، الحصنى).

٣- القط Felis ocreata : جمجمة محطمة من أم القرون. الاسم العربي: العطفة أو الهرة.

٤- الأرنب Lepus ويحتمل Dmanensis Cheesmani : إحدى وثلاثون عينة من مواقع عديدة في الجافورة والجيبان والربع الخالي. (الاسم العربي: الأرنب).

٥- الجربوع Jaculus : أربع عينات من الجافورة ويبرين. (الاسم العربي: الجربوع).

٦- العضل Gerbillus orarduus Gerbil: عينتان. (الاسم العربي: الفأر).

٧- الوضيحي Dryx leucoryx Cbetrix : رأس واحد وعدة قرون مزدوجة وعظام... إلخ. (الاسم العربي: الوضيحي).

٨- الغزال الأبيض: عدة قرن مزدوجة (الاسم العربي: الريم).

و - طيور الربع الخالي

بقلم ن. ب. كينير (المتحف البريطاني)

تعد هذه المجموعة الصغيرة التي جمعها السيد/ فيلبي مثيرة للاهتمام نظراً لأنها توضح ليس أنواع الطيور التي تقطن الربع الخالي فحسب، بل تلك الأنواع التي تعبر هذه الرمال القاحلة وهي في طريقها إلى أماكن التكاثر الصيفية.

وضمن هذه المجموعة ثمة أنواع معينة، وخاصة تلك التي تقطن في أطراف الصحراء الحقيقية، ترتاد هذه المنطقة خلال فصل الشتاء وهي قادمة من مناطق شمالية بعيدة. ومن الجدير بالذكر هنا أن من ضمن هذا الطيور المهاجرة ثمة خمسة أنواع منها حُصل عليها في الجزر البريطانية وإن كانت فقط كطيور تائهة نادرة.

١ - الكروان Burhinus oedicnemus astulus : عينتان من جوب البعيج وسلوى (١١ فبراير). وشوهدت عينات أخرى في عنسلة وخلة الحوايا. والكروان طائر مقيم بالجزيرة العربية وشائع الوجود في الأجزاء الجنوبية منها، كما يوجد في العراق وجنوبي بلاد الفرس. الاسم الإنجليزي : Arabian Stone Curlew .

٢- الحباری Chamydotis undulata Macqueens Bustard Mac-queenii : عينة واحدة من الحديدة (وبار) (الرابع من فبراير). وشوهدت عينات أخرى على مسافات متباعدة في الربع الخالي، وينتشر من جنوبي روسيا إلى تركستان وبلوخستان، ويهاجر جنوبا خلال الشتاء إلى الهند والجزيرة العربية وأحياناً يوجد متجولاً في أوربا الغربية، إذ لوحظ في الجزر البريطانية في أربع مناسبات.

٣- الشـبـوط (البـاشق) Accipiter nisus hisus, Sparrow Hawk : عينة واحدة من نباك (١٢ فبراير) حيث شوهد زوجان منه، وهو طائر شائع الوجود في الجزر البريطانية وأوربا وأجزاء من سيبريا، ويمر عبر الجزيرة العربية أثناء هجرته في الربيع والخريف.

٤- القبيصة (البوم) Otus scops scops scops owl : عينة واحدة من حدبة الفرشة (١٣ مارس). في شنّة سمعنا صوت بوم دون أن نراه (١٢ فبراير). ينتشر البوم الصغير في منطقة واسعة من أوربا وآسيا الغربية، ويرتاد الجزيرة العربية وأفريقيا حتى يوغندا جنوباً خلال الشتاء، ويأتي نادراً إلى الجزر البريطانية.

٥- أم الغُـرير (أبو بليق) Oenanthe ، Eastern Desert Wheateater deserti atrogularis : وجدت عينات منها في مقينمة والطويرفة وسعفج (١٤ يناير، ٢ فبراير). ولوحظ مراراً في نقاط عديدة أثناء الرحلة. وحسبما رواه الماجور تشيزمان فإن طائر أم الغرير هو أكثر الأنواع انتشاراً في يبرين خلال فصل الشتاء، كما سجل الكولونيل ما ينرتزهاقن وجوده الشائع في عدن. ويتخذ أم الغرير أعشاشه في آسيا الوسطى، وفي فصل الشتاء يتجه جنوباً إلى شمال أفريقيا والهند، ويقضي العديد منه الشتاء في الجزيرة العربية، وقد وَجَدْتُ طيوراً تائهة منه في أوركني وكنت في الجزر البريطانية.

٦- البجرى أو الدعجة Arabian pied Wheateater (الأبلق العربي الأرقط)، Lugens lugentoides Oenanhe : وُجد في السليل (١٥ مارس)، كما سُجل وجوده من قبل في اليمن ومحمية عدن وشمالي أرض الصومال.

٧- البوسية European Stonechat (القليعي الأوربي المطوق) Saxico-la Torguata rubicola : من السليل (١٥ مــارس)، وترتاد البــوســيــة الأوربية الجزيرة العربية في الشتاء كما تجتازها عبوراً خلال هجرتها في الربيع والخريف.

٨- السُوَيوالا أو الدخلّة الصحراوية Desert Warbler، Sylvia nana nana : عينات من السنام ومجاري المعشية وبني جلاب وعنسلة وعدرج. ويلاحظ كثيراً في جميع أنحاء الربع الخالي. ويعلق الماجور تشيزمان أن هذا الطائر المغرد كان أكثر الطيور شيوعاً في يبرين، وقد أكدّ ذلك السيد فيلبي من واقع تجربته. وحيثما توجد شجيرات في الصحراء فمن المؤكد أن تجد زوجين من طائر السويوالا تحوم بجانبها. ويقطن هذا الطائر صحاري جنوب غربي آسيا الرملية الممتدة من سيناء إلى الهند.

٩- الساعو، السعوة (الأنثى) أو الذعرة أسود الرأس Black - headed wagtail.

Motacilla feldegg feldegg : من السليل (١٥ مارس) يتكاثر هذا الطير في جنوب شرقي أوربا وشرقي آسيا، ثم يهاجر عبر الجزيرة العربية في فصلي الربيع والخريف حيث يقضي عدد منه الشتاء فيها. وقد عُثر على هذا النوع من الطيور في إنجلترا أربع مرات.

١٠- العقيلي أو المسلك Motacilla Alba? : λ White Wagtail Subsp (نوع فرعي): من السليل (١٥ مارس). وقد شوهدت عينة منه في السحماء (؟) في الصحراء القاحلة. وكانت عينة السليل محطمة إلى درجة لم تمكن من تحديد النوع الذي ينتمي إليه من هذه الفصيلة وبما أن تشيزمان

ومااينرتزهاقن قد التقيا أثناء عبورهم أنواعاً من العقيلي الهندي الأبيض Motacilla alba hermonensis فمن المحتمل أنه ينتمي إلى ذلك الجنس الذي يتكاثر في سيبريا.

١١- الحمراء (القبرة) Callandrella ،palestine Short - toed Lark brachydactyla hermonensis: عينات من الصمان (بالقرب من مقينمة والنميلة) (٢٣-٢٩ يناير)، كما لوحظت أخريات. ويسكن نوع أحمر اللون من هذه القبّرة فلسطين كما يوجد محليّاً في شمال أفريقيا حتى حدود المغرب غرباً. ويبدو أنه يهيم على وجهه في الشتاء إذ وجدت عينات منه في السودان، كما حصل وايمان بري على نظيرين له في اليمن.

١٢- أم سالم Bifaciated Lark (القبرة الهدهدية) Alaemen alau-dipes doria عينات من مقينمة والحوايا والطويرفة وسعافيج والسنام (٢٥ يناير - ٦ فبراير)، ولوحظ كثيراً طوال الرحلة، ويعد أحد الأنواع القليلة من الطيور التي تسكن الأجزاء الداخلية من الربع الخالي. وبجانب الجزيرة العربية، يسكن أم سالم السند وبلوخستان.

١٣- الحمراء (قبرة الصحراء) Ammomanes ، Desert Lark λ Cinctura عينة واحدة من الجافورة (٤ يناير)، وعينة أخرى تأتي من الحفيفية في نجد (٢٢ نوفمبر ١٩٣١). ولا تتفق عينات الحمراء مع تلك الموجودة ضمن مجموعة المتحف البريطاني. وقد تكشف الدراسة لها بأنها قد تنتمي إلى جنس جديد.

١٤- الغراب Corvus corax ruficollis ، Brwn - necked Raven أربع عينات من يبرين والنميلة وحاذ فارس (٢١ يناير - ٨ فبراير)، كما

شوهد هنا وهناك. ويتجول الغراب في مكان واسع يمتد من غربي الهند إلى شمال أفريقيا كما ينتشر في نطاق واسع من الجزيرة العربية، ويتغلغل بعيداً داخل الصحراء. وكقاعدة عامة يشاهد الغراب دائماً كزوجين، ويتكاثر مبكراً من السنة. وقد التقط تشيزمان عشّاً في منطقة الجافورة في الثالث عشر من فبراير كما وجد السيد/ فيلبي ثلاثة كتاكيت في عش في النميلة في الثامن والعشرين من يناير.

ملحوظة: بالإضافة إلى عينات الطيور المذكورة سابقًا والتي تم إثبات وتوثيق أصولها من خلال التعرف عليها من قبل السيد/ ن. ب. كينير، فقد شاهدت الأنواع التالية (فيلبي).

(أ) العقاب Eagle: وربما العقاب الحبشي الأسمر المصفر اللون Aquila rapax raptor.

(ب) النسر Vulture: من الممكن أن يكون النسر المصري Neophron Percnopterus.

(ج) نوع من الصقر أو الباز Hawk؟ أو الهار Harrier (أبو حقب).

(د) الدرجة أو الدرجلان Cursarius Cursor Cursor: طائر عدّاء من جنس الزقزاق لونه أصفر فاتح (وقد تم التعرف على عينة منه بالقرب من الرياض، وتبدو مشابهة للطيور التي شوهدت في الربع الخالي).

(هـ) الصرد أو الصربتي Lanius excubitor : Aucher's shrik aucheri: شوهد واحد منه في شنّة، ويبدو مشابهاً لعينة أطلق عليها الرصاص في القويعية في نجد.

(و) الهدهد Hoopoe: شوهد واحد منه في السنام (٤ فبراير).

(ز) أبو الخسيفان أو الرقيعي Swallows : شوهد اثنان منه في مناسبات مختلفة وسط الربع الخالي في السابع والعشرين من يناير والسادس من مارس. يوجد بأعداد كثيرة في السليل.

ز- الزواحف

قام بالتعرف عليها وإعداد قائمة مصحوبة بملاحظات حولها السيد/ هـ. و. باركر من المتحف البريطاني.

١- السحالي Lizards

(أ) الأبراص Geckonidae :

(١) Stenodactylus Sthenidatylus Licht :

خمس عينات منها من الدفينة في وسط نجد. لم يُسجل هذا النوع من قبل في الجزيرة العربية الأصلية، بل فقط من سيناء وفلسطين وسوريا وشمال أفريقيا.

(٢) Alsophylax blandfordii Strauch : البرص البلاندفوردي:
خمس عينات من الربع الخالي. ولم يسجل وجوده من قبل من المنطقة الواقعة بين حضرموت ومصر.

(٣) Hemidactylus persicus Anderson : البرص الفارسي:

عينة من الأحساء (؟). وكما يوحي الاسم فإنه نوع فارسي وينتشر حتى العراق. والعينة الوحيدة التي سجلت من الجزيرة العربية جاءت من الهفوف (الماجور تشيزمان).

(٤) Ceramo dactyius rnajor Parker عينتان من الربع الخالي.

(ب) العظايا Agamidae.

(١) phrynocephalus maculatus Anderson : غطاءة:

إحدى عشرة عينة من الربع الخالي، وهو نوع يقطن المناطق الرملية.

(٢) Phrynocephalus arabicus Anderson : سحلية ضفدعية الرأس ثلاث وثلاثون عينة من الربع الخالي مماثلة للنوع السابق ولكنها تقطن الأراضي الحجرية (الحصباء والاستبس).

(٣) Agama jayakari Anderson : عظاءة جاياكار عينة واحدة من الربع الخالي.

(ج) السحالي الحقيقية Lacertidae .

(١) Acanthodactylus Cantoris Gunther : السحلية العربية :

خمس عينات من الربع الخالي، وهي من النوع الوسط بين النوع الفرعي Arabicuc (من عدن وحضرموت) و blandfordi (فارس). وقد حصل برترام توماس على النوع السابق في ظفار والآخر في جوب الغربة (العضبة؟)، ولكن لم تُظهر أية عينة من هذه العينات علامات الأنواع الوسيطة.

(ملحوظة: ولأن كل العينات التي جمعها جُلبت من الربع الخالي ومن المنطقة الواقعة بين يبرين وشنة، فإن الصحراء الجنوبية الكبرى تبدو وكأنها كانت تشكل جسراً أو معبراً بين الجنسين: العربي والفارسي - فيلبي).

(٢) A. Scutellatus Audouin : سبع عينات من الربع الخالي.

(٣) A. boskianus asper Audouin : عينة واحدة من الربع الخالي.

(٤) Acanthodactylus Sp. n. (?) : عينة واحدة من الربع الخالي.

(٥) Eremias brevirostri Blanf : عينة واحدة من الربع الخالي.

(٦) Eremias adramitand Bouenger : أربع عينات من الربع الخالي.

(د) الصقنقورات Scincidae .

(١) Ssincus Mitranus Anderson : الصقنقور عينات عديدة من الجافورة والربع الخالي .

(هـ) الثعابين Snakes .

(١) Tarbophis gunthari Anderson : عينة واحدة من الحجاز .

(٢) Psammophis Schokari Forsk : الزاروق/ أو السيور عينة صغيرة السن من قطرات (الربع الخالي) .

(و) الضفادع Frogs

(١) Rand ridibunda Pallas : ضفدعة البركة :

ثلاث عينات صغيرات السن من الأحساء . وقد وجد تشيزمان هذه الأنواع في الهفوف . ولكنها لا تتوزع توزيعاً واسعاً في الجزيرة العربية بحكم ظروف بيئتها الطبيعية .

ح- الحشرات Insects

١- خنافس (Cogeopetra) الربع الخالي:

بقلم ك. ج. بلير (من المتحف البريطاني)

من الطبيعي أن تكون الخنافس التي جمعها السيد/ فيلبي من النوع الصحراوي غالباً، تنتمي نسبة كبيرة منها إلى الخنفساء الصحراوية -Teneb rionidac إلى حد بعيد. وهذه الخنافس في أغلب الأحوال نوع أسود اللون وكبير الحجم إلى حد ما، يجري بعض منها نهاراً تحت أشعة الشمس في حين يظل البعض مختفياً أثناء النهار.

ويمثل هذا النوع من الخنافس الصحراوية، التي تتضمن ٦٠ من ٦٧ عينة، سبعة من إجمالي أحد عشر نوعاً، وأن نوعاً واحداً من هذه السبعة (ألا وهو Mesostena Puncticollis Sol) هو الذي يحظى بتوزيع واسع على أي حال، وهو حشرة شائعة في مصر والجزيرة العربية. أما الأنواع الأربعة من هذه الخنافس والتي لم تشملها المجموعة المودعة في المتحف البريطاني من قبل، فقد حصل عليها السيد/ برترام توماس من الإقليم نفسه. وقد تم توصيف نوعين من هذه الخنافس الأربع وهما: Tentyria thomasi Blr وPimelia arabica klug والنوع الفرعي thomasi Bly بأنهما جديدان. أما النوعان الآخران وهما Apentanodes و Rhytinota فيبدو أن أحدًا لم يقم بتوصيفهما بعد. وثمة يرقة جديرة بالاهتمام قد تنتمي إلى نوع -Sepidi um sp وعلى عكس معظم يرقات الخنافس الصحراوية Tenebrionid، فإن تلك اليرقة كانت مكسوة بشعر حريري طويل وذات أرجل قوية ومسطحة ولها مخالب قوية. ويبدو واضحاً أنها حفَّار جحور تمتد عميقاً

داخل الأرض. أما يرقات العائلة الفرعية Sepidiinae فتبدو أنها غير معروفة تماماً. وربما تُدفع هذه اليرقة القوية ذات الشكل الأسطواني واللون الأصفر، والتي تشبه الدودة السلكية، لمغادرة مخابئها أثناء الحفر بحثاً عن الماء.

وإذا تركنا الخنافس الصحراوية من نوع Tenehrionidae جانباً، فإن أكثر الخنافس إثارة للاهتمام هي خنفساء Dynastid Temnorrhynchus sp والتي لم يؤكد توصيفها أيضاً.

وتلي قائمة للخنافس التي تم التعرف عليها مؤقتاً حتى الآن[1].

أ- الخنافس الصحراوية Tenebrionidae

(١) Apentanodes philbii sp.n

عينة واحدة من عنسلة

(٢) Erodius octocostat Peyer :

٤٥ عينة من هنا وهناك

(٣) Erodius reicheri All :

عينتان من بني جلاب:

(٤) Tentyria thomasi Blr :

تسع عينات (من مدرة إلى نايفة)

---

(١) للحصول على قائمة تفصيلية للخنافس الصحراوية التي اصطادها السيد/ فيلبي مصحوبة بتوصيفات لأنواع جديدة، انظر مقال بلير، ك. ج. في مجلة: علم الحشرات الشهرية، مجلد ١١٩، ص٤-٧.

: Rhyotinota desertrcola sp.n (٥)

عينة واحدة من الطويرفة

: Mesostena Puncticollis Spl (٦)

ثماني عينات (شنة ونايفة)

: thomasi Blr فرع فرعي من Pimegiw arabica klug (٧)

عينة واحدة من مربخ أبي ليلى.

ب- بوبر سيتدا Buprestidae

Psiloptera Mimosae klug (١)

عينة من أبي خشبة. كما عثر السيد/ برترام توماس على نوع منه ذي شكل مميز.

ج- ديرمستيدا Dermestidae

: Dermeste frisch klug (١)

عينة واحدة من عنسلة، وهي إحدى خنافس البيكون b.con - bcetles ذات الانتشار الواسع (العالمي) وتتغذى على جيف الجثث الناشفة.

د- هابوسوريدا Hyposoridae

: Hyposorus illigeri Rche (١)

عينة واحدة من بريكة. وهو نوع واسع الانتشار في جنوبي أوربا وأفريقيا، وتوجد شرقاً حتى الهند.

هـ- داينستيدا Dynastidae

: Temnorrhynchus sp (١)

أربع عينات من بئر فاضل وبني جلاب والقعاميات وحاذ الحوايا.

٢- بقات Bugs الربع الخالي

بقلم: و. إي. تشاينا (المتحف البريطاني)

(أ) بنتاتوميدا Pentatomidae

: Chroantha ornatula H.S

عينة واحدة من النميلة، وقد سُجل من قبل من الجزيرة العربية (حضرموت) من قبل ثيودوز بنت، كما سُجل من أقطار عديدة في جنوب أوربا وشمال أفريقيا وآسيا ما بين إسبانيا وتركستان.

(ب) سايدنيدا Cydnidae

: Amaurocoris arbiclaris Jak

عينة واحدة من القعاميات، كما سُجل من تركستان والجزيرة العربية (برترام توماس، ١٩٣٠).

(ج) كابسيدا Capsidae

: Laemocoris sp-n

عينة من عنسلة ذات صلة بنوع L. zaruduyi Reut من فارس. وينتشر هذا الجنس من البعد في مكان واسع يمتد من إسبانيا والجزائر ومصر إلى فارس وتركستان.

: Tuponia Pallida Reut (٢)

من بني زينان، ويمثل هذا النوع إضافة جديدة للمجموعة الموجودة من قبل في المتحف البريطاني، إذ لم يكن معروفاً إلا من تركستان فقط.

(د) بلوستوماليدا Belostomalidae :

Hydrocyrius Colmbiae Spin (أو بق الماء الضخم).

من الهفوف. وقد سجل تشيزمان وجوده في نفس الموضع من قبل، كما سُجل أيضاً من مسقط ومن أقطار أفريقية عديدة تمتد من الجزائر إلى الحبشة وموزمبيق.

٣- فراشات وعتات الربع الخالي lepidoptera Moths

(مع الشكر للسيد/ ن. د. رايلي، القيِّم على قسم الحشرات بالمتحف البريطاني).

أ- الفراشات Butters-gies

١- Apharitis gilletti riley :

جاء توصيفها الأصلي من أرض الصومال، ولم يُمسك بها من قبل في الجزيرة العربية حيث يوجد نوع A. scamac في سوريا والعراق وعدن وكذلك في السند ومصر. عينة واحدة من خلة عدرج كما شوهدت مجموعة منها في مواقع عديدة في منطقة الرمال.

٢- Pyrameis Carudi :

عينة واحدة شوهدت بالقرب من نايفة ولم نستطع الإمساك بها.

(ب) العتات Moths

عينة واحدة شوهدت من عنسلة ولم يمسك بها.

عدد العينات:

- Sphingidae Macroglossa stellatarum not taken	١	1
- Agrotinae Chloridae peltigera Sehiff	١	1
- Agrotinae Euæoa saracenica Tams	١	1
- Hadeninae Scotogramma trifolii Roths	١	1
- Erastranae Tarache hortensis Swinh	١	1
- Catocalinae Leucanitis cabylaria B.Haas	١	1
- Catocalinae Anydrophila? sp. n. nea simiola Pang	٢	2
- Ophiderinae Anumeta stramineata B. Haas	١	1
- Ophiderinae Anumeta ? sp. n. near spatzyi Roths	٤	4
- Ophiderinae Anumeta ? sp. n. near cestis Menat	٤٩	49
- Ophiderinae Anumeta ? sp. n. near hilgerti Christ	٦٤	64
- Ophiderinae Anumeta ? sp. n. near spilota Ersch	٢	2
- Ophiderinae Tathorhynchus eæsiccata Led	١	1
- Lasiocampidee Chilend ? sp. n. near geyri Roths	١	1
- Anerastunae Saluria ? sp. n.	٢	2
- Anerastunae Saluria ? sp. n.	٦	6
- Phycitinase Lardamia biformis Roths	٢٨	28
- Phycitinase Heteregraphis ? sp. n.	١	1
- Phycitinase Heteregraphis ? sp. n. near costabella	٢	2
- Phycitinase Ancylosis ? sp. n.	١	1
- Phycitinase Ortholepis ? sp. n.	١	1
- Larentunae Eupithecia ? sp. n.	١	1
- Larentunae Eupithecia ? sp. n.	١	1
- Larentunae Eupithecia ? sp. n.	٦	6
- Sterrhinae Euis ? sp. n.		

ملحوظة:

من الجدير أن نلاحظ أنه من مجموع المئة والثمانين (١٨٠) عتة الواردة في القائمة السابقة والتي تمثل ٢٥ نوعاً، فإن ما لا يقل عن ١٦ نوعاً تشمل ١٦٤ عتة، لا يمكن إحالتها مؤقتاً إلى أي نوع معروف. فقد تؤدي دراسات إضافية إلى تقليل أعداد العتات المجهولة هذه، ولكن من الثابت الآن أن الربع الخالي قد طورت مجموعة متميزة خاصة بها من العتة.

٤- ذباب (Diptera) الربع الخالي

(مع الشكر للآنسة/ أوبرتين من المتحف البريطاني)

أ- كاليفورايدا Colliphoridae

: Rhynchomyia Callopisn Loewe

عينة واحدة.

ثلاث من حشرة ربما ذات صلة بجنس عربا Araba من بني زينان. وتذكر الآنسة أوبرتين بأنها لم تر من قبل شيئاً من هذا القبيل ولا تعرف تماماً ماذا تقول عنها.

(ب) تاكيندا Tachinidae

عينة واحدة لم يتم التعرف عليها.

٥- جنادب الربع الخالي (Orthoptera) Grasshoppevs

(مع الشكر للسيد/ ب. أوفاروف، المتحف البريطاني)

أ- Mantidae الصعارير:

(١) Eremiaphila laevifrons 1 uvr :

عينة بالغة العمر من شقة الخلفات، ويرقات عديدة يتعذر الفصل أو البت فيها، ربما تنتمي للنوع نفسه، عثر عليها من ستة مواقع متناثرة ومتباعدة. وقد تم توصيف هذا النوع لأول مرة من مسقط.

(٢) جنس؟ ربما جديد، عينة واحدة غير مكتملة النمو جمعت من نايفة.

ب- اكريديدا Acrididae

١- Schistocerca gregaria Forsk : الجراد الصحراوي.

عينات من خمسة مواقع في الرمال.

٢- Platypetra pietipes Uvr :

عينة واحدة من شقة الخلفات. تم توصيفها من مسقط كما أمسكتُ بواحدة منها في جدة.

٦- دبابير أوزنابير ونحل ... إلخ. (هايمنوبتير) الربع الخالي التي جمعها السيد/ فيلبي:

بقلم السيد/ هيوسكوت، المتحف البريطاني

بقدر ما يمكن استخلاصه أو استنباطه من نتائج من هذه المادة، فإن هذه الحشرات في الواقع تمثل أشكالاً قطبية جنوبية قديمة، وإن صلتها بجهات اثيوبية أو شرقية قليلة إن لم تكن معدومة البتة. ويجدر الذكر أن ثمة نوعًا من النمل واسع الانتشار يمثله في الربع الخالي نوع سُجل من قبل في سوريا (أي قطبي قديم) ويمثله في جبال قارا نوع فرعي واسع الانتشار في أفريقيا المدارية. وقد يشير هذا إلى أن ثمة خط تقسيم معين يفصل بين حيوانات مرتفعات الجزيرة العربية الساحلية الجنوبية والصحراء الواقعة إلى الشمال

منها . ولكن نظراً لأن عددًا كبيراً من هذه الأنواع تمثلها عينة واحدة أو عينات قليلة لم يتم تحديدها بعد بدقة إلا بإحالتها إلى جنسها ، فإن التعميم حول هذا الموضع أمر محفوف بالمخاطر .

أ- اشنيومونيدا (أوفيونينا) :

١ - اوفيون Ophion sp :

من مندرة، عينة واحدة .

٢ - Hemicospilus sp :

أربع عينات من عنسلة وحاذ فارس والحوايا . هذه العينات لا تتفق مع أيٍّ من الأنواع المعرّفة والموجودة في المتحف البريطاني .

ب- براكونيدا (تشيلونينا) :

Phanerotama sp

عينة واحدة من مندرة .

ج- أيومينيدا gumenidae :

(زنابير حقيقية متوحدة أو منفردة)

Ddynerus so بالقرب من D. floricola Sauss

عينة واحدة من عنسلة .

د- بومبليدا (بسامُكورايدا) :

Pompilida (psammo chridac)

زنابير أحفورية متوحدة أو متفردة تتغذى على العناكب وتزود بها أعشاشها .

١ - Platyderes sp :

عينة واحدة من بني جفنان

٢ - Pompilus sp بالقرب من Platy canthus sp :

عينة واحدة من عنسلة .

هـ- سكولايدي Scogiide

دبابير طفلية متوحدة . «في حالة تكون عادات وسلوك هذه الحشرات معروفة ، فقد وجدت تتطفل على يرقات الخفافس من نوع كوكشافر ، ولكن قد لا ينطبق هذا الوضع على الجنس المشار إليه هنا» .

Iswaro sp واحتمال I. Chobauti Andre وهو نوع تم تسجيله من بلوخستان . سبع عينات (كلها ذكور) من بني جلاب ووبار وشنة ونايفة والقعاميات . كل الذكور مجنحةٌ تماماً (أي لها أجنحة كاملة) ومن المفروض أنها تطير بشكل جيد أما الإناث فإنهن ذات أجنحة قصيرة ويحتمل أنها لا تطير .

و- النحل Bees

Megachile sp (نحلة صغيرة تقطع أوراق النبات) .

عينة واحدة من عنسلة

ز- النمل Ants

(١) Camponotus (Tanaemyrmex) compressus f والنوع الفرعي thoracicus F من عنسلة (١ عسكري وعاملتان كبيرتا الحجم وعاملة صغيرة الحجم) . وقد وجد برترام توماس هذه العينات الفرعية نفسها في جبال قارا ، كما تم تسجيلها من قبل في صحارى الجزائر وتونس .

(٢) Messor barbarus L والنوعان الفرعيان Semirufus var nigri-ceps Santschig Andre:

ثلاث عاملات من الطويرفة. وقد سُجل هذا النوع من قبل من فلسطين. أما النوع الأول الذي حصل عليه برترام توماس من جبال قارا، فقد كان مختلفاً، وينتشر عبر الحبشة والسودان وإفريقيا المدارية.

(٣) Crematogaster (Sphaerocrema) sp:

سبع أنثيات من بئر فاضل وأبي خشبة والحوايا. وهذا النوع، الذي من المتعذر البت فيه في إطار الجنس الأنثوي وحده، كان برترام توماس قد حصل عليه أيضاً في الربع الخالي. ويتسم انتشار العروق في جناحه بالشذوذ، أو يفتقر إلى الخلية القرصية، وقد نجد في النهاية إنشاء جنس فرعي أو جنس لهذا النوع من النمل ضرورياً.

(٤) Crema togaster (Acrocoelia) auberti Emery والنوع الفرعي jehovae forel:

عاملتان من بني زينان. وقد تم تسجيل هذا النوع من قبل من فلسطين.

ح- الأرضة Termites

عينة وحيدة مُمدّدة من الطائفة المجنحة من بني زينان، لا يمكن البت فيه دون بيانات إضافية.

ط- نباتات الربع الخالي

(مع الشكر للسيد/ رامز بوتوم، القيّمُ على القسم النباتي في المتحف البريطاني)

الاسم العربي	الاسم العلمي[1]
(١) العَبَل	Calligonum sp
(٢) عَاذر	Artemisia monosperma
	Artemisia Scoparia watdst. and kir
(٣) العَلقى – العلقا :	Dipterygium glaucum Decne
(٤) العَنْدب	Cyperus conglomeratus Rottb
(٥) العاقول	Prosopis Stephaniana Kunth
	Prosopis sp
(٦) العرفج	Francoeuria crispa Cuss
	Rhanterium Suaeveolens Desf
(٧) العرّاد	
(٨) العدتا	Calligonum comosum L'Herif
(٩) بركان	Fagonia glutinosa Del
(١٠) ضعة	Lasiutus hirsutus (Forsk) Boiss
(١١) ذانون (ذنون أو إذنون)	Phelipaea lutea Desf
(١٢) ضُمران	Traganum mudatum Del

(١) نلفت نظر القارئ إلى أن كثيراً من الأسماء العلمية لهذه النباتات قد تغير.

(١٣) درياء	Fagonia Cretica L (Fogonia mollis Del أيضا)
(١٤) فانى	
(١٥) الغَضَا	Arthrocnemon Fruticosum Moq
(١٦) الغاف	phragmites communis Trin
(١٧) الحاذ	Cornulacea monacantha Del
(١٨) الحَلَم	
(١٩) حَمْض	Zygophyllum album
(٢٠) حرم	
(٢١) الحَرمَل	Rhazya Stricta Decne
(٢٢) الأثل	Tamarix sp cf T articulata vahl
(٢٣) الخيس (الخيسة)	Dwarf palm
(٢٤) كُريش	
(٢٥) مَرْخ	
(٢٦) نَمصَ	Juncus maritimus Lam
(٢٧) نصي	Aristida sp
(٢٨) قَرْنُوه	aff Erdium bryonifolium
(٢٩) قصب	Graminae indet
(٣٠) قَطف	

(٣١) رمرام	Heliotropium europaeum var. tenuiflorum (Guss) Boiss
	Heliotropium lignosum
	Heliotropium sp. aff.hispidum Forsk
	Heliotropium sp
(٣٢) رمْث	
(٣٣) سَبَط	Aristida sp
(٣٤) السعدان	Neurada Procumbens L
(٣٥) سَلَم	Acacia asak willd
	Acacia flava Schweinf
(٣٦) سمر (قرنات)	Acacia laeta R.Br
(فرع)	Acacia tortilis Hayne
(٣٧) سرح (سرحة)	Maerua uniflora vahl
(٣٨) شنان	Seidlitzia rosmarinus Bunge?
(٣٩) سَوّاد	Suaeda Vermiculata Forsk ?
(٤٠) الطرفاء	Tamarix gallica L
(٤١) طرثوث	Cynomorium Coccineum
(٤٢) الثمام	Graminae sp ?
(٤٣) ثُليث	Halapeplis perfliata (Forsk) Bge
(٤٤) زهر	Tribulus macropterus Boiss

قائمة بالأماكن المجهولة التي تم اكتشافها وإطلاق أسماء عليها من قبل أعضاء الحملة:

١- روضة الرُّمح «في الصمان، بالقرب من مقينمة»: عثر فيها على رأس سهم من البرونز.

٢- رقّة الشلفا «في الرمال، شمالي النميلة»: عثر فيها على أدوات صوانية.

٣- شُقَّة أبو نهار «في الرمال، جنوبي النميلة»: أرض رعوية تكثر بها الشجيرات.

٤- بئر مقرن «بالقرب من الطويرفة»: بئر مدفونة في قاع وادٍ حصبائي.

٥- بئر مكسِّر «بالقرب من الطرف الغربي لصقيع بني مكسِّر»: بئر مدفونة في بقعة حصبائية.

٦- البئر المخفية «غربي عنسلة»: صخرة مكشوفة بين الرمال يشتبه وجود بئر مدفونة فيها.

٧- السلاّن «بالقرب من عنسلة»: بقعة صخرية مكشوفة، موضع محتمل لبئر منسية.

٨- منيفة «بالقرب من عنسلة»: تلة صخرية بارزة في تجويف حدوة حصان.

٩- بئر جَفْنان «عند الطرف الشمالي لصقيع بني جفنان»: بئر مدفونة.

١٠- أم القرون «جنوبي بئر جفنان»: بقع مكشوفة من الجص الأبيض.

١١- أم الصحنين «جنوبي أم القرون»: بقعتان مفلطحتان من الجص ذات شكل دائري.

١٢- أبو مُحَيْرات «عند الطرف الغربي للقطرات» ترسبات ضخمة من قواقع المياه العذبة.

١٣- أم الطينة «شمالي شنَّة» تربة غرينية خشنة مكشوفة بها صفائح صوانية وشظايا نيزك حجري.

١٤- أبو صبّان «غربي أبو محيرات» ترسبات قواقع مياه عذبة.

١٥- وادي الحوايا «في حاذ الحوايا» مجموعة من أربعة منخفضات شبيهة بالوادي تضم قيعاناً صخرية مكشوفة.

١٦- بئر الحوايا «من خلة الحوايا» يشتبه وجود بئر مدفونة.

ارتفاعات الأرض في الربع الخالي:

ملاحظة: هذه القائمة التي أعدت من القراءات التي سجلتها بواسطة جهازي قياس الارتفاع «الأنيرويد» و«الهبسومتر»، من قبل موظفي الجمعية الجغرافية الملكية، تعد موثقة.

+ فوق منسوب البحر - دون منسوب البحر. ؟ ارتفاع تقديري.

الارتفاع بالأقدام	الموضع	ملاحظات
مستوى البحر	العقير	على الساحل
+٤٢٥	الهفوف	بلدة
+٤٧٠	قصر الدليقية	المعسكر على ارتفاع ٣٢٥+
+٤٢٠	بئر نابت	
+٤٥٠	آبار بَعيج	المعسكر على ارتفاع ٣٢٥+
مستوى البحر	سلوى	على الساحل
+١٤٠	قرن أبو وايل	قمة التل
-٢٠	السكك	سطح التل
+١٤٠	بئر أبو عرزيلة	
-٥	نباك	قاع مصب خليجي
+١٢٠	بئر قديرات	
+٢٢٥	بئر حفائر ابن الأدهم	
+٤٥٠	بئر القضا	
+٥١٠	وادي السهباء	المعسكر في مجراه
+٥٦٠	سر المعيد	

+٤١٥	بئر بركان	المعسكر في ارتفاع ٥٨٠؟
+٤٥٠	قرية الخَن	
+٤٩٠	يبرين «أم الرَماد»	(الارتفاع الذي سجله تشيزمان هو ٦٠٤ قدم)
+٥٦٠	قصر ابن دحباش	
+٦٣٥	آبار الحفاير «حوض يبرين»	
+٦٧٠	قمة الضربون	قاعة الحيد ٥٥٠ قدم؟
+٦١٥	بئر القليبة	
+٥٨٥	بئر العوج	
+٦٨٠	بئر ابن جهيّم	
+٨٥٠	بئر مقينمة	
+٧٧٥	بئر فاضل	
+٨٨٥	شقة الخلفات	إرسابات قواقع
+٨٠٠	بئر النميلة	
+٦٠٠	بئر الطويرفة	
+٧٦٥	فوهات وبار	
+٥٩٠	بئر فَرَجة	
+٦٨٠	بئر أم الحديد	
+٦٦٠	بئر البريهيمة	
+٧٨٥	مجاري وادي تسرات	معسكر
+٦٠٠	مجاري وادي معشية	معسكر
+٧٩٠	خلّة جُدير	معسكر
+٧٣٠	عروق بني جلاب	معسكر

٥٢٥+	بئر عنسلة	
٥١٠+	بئر نيفة	
بئر زكرت	بئر الزقرت	
٩٢٥+	أم القرون	جَص مكشوف
٩٦٠+	أم الطينة	
٩٢٥+	بئر شنَّة	
٩١٠+	بئر ابن سويلم	
٩٣٠+	بئر معمورة	
٩٤٠+	بئر زويرة	
٩٦٠+	بئر طريوة	
١٠٨٠+	قطارات	معسكر على تلال رملية
٩٨٠+	أبو محيرات	إرسابات قواقع
١١٩٥+	حباكة القعاميات	معسكر على تلال رملية
١٠٥٠+	أبو صبّان	إرسابات قواقع
١٢٣٠+	عبل خادم	معسكر على تلال رملية
١٣٤٠+	خلة الحوايا	معسكر على تلال رملية
١٢٨٠+	حاذ الحوايا	معسكر في منخفض
١٤٥٠+	قصبة الحوايا	معسكر على تلال رملية
١٣٥٠+	خلّة الحوايا	معسكر على تلال رملية
١١١٠+	خلة عدرج	معسكر على تلال رملية
١٠١٠+	بني زينان	معسكر على تلال رملية
١٢٨٠+	حاذ الحوايا	الطرف الشرقي

+١٠٨٥	حاذ الحوايا	الطرف الغربي
+١١٤٥	سهل السحماء الحصبائي	سطح صحراوي حقيقي
+١٣٦٠	بني معارض	معسكر على تلال رميلة
+١٣٤٥	سهل أبو بحر الحصبائي	الطرف الشرقي
+١٦٤٥	سهل أبو بحر الحصبائي	الطرف الغربي
+١٨٧٠	تلال الرميلة الرملية	الطرف الغربي
+١٩٠٠	جدة الفرشة	معسكر في السهب
+٢١٢٥	مجرى الفرشة	معسكر
+٢١٣٥	السليّل	واحة

ملحوظة:

حيثما تنسب ارتفاعات مختلفة لمواضع ذات اسم واحد، فإن هذه الارتفاعات تشير إلى مخيمات نصبت في أجزاء مختلفة من الإقليم نفسه.

أقسام قبيلة آل مُرّة

البطن	الشيخ الكبير	فخذ	الشيخ والأعيان
(١) الغفران(١) (٦٠٠)	أحمد بن صالح بن جلاّب(٢)	١- آل عوير	حمد بن صالح بن جلاّب(٣)
			فرج آل عوير
			صالح بن علي آل عوير
			علي بن صالح بن جهامان
			محمد بن حميّد
		٢- آل زايد(٥)	صالح بن علي أبو ليلة
			حمد بن سلطان بن هادي(٤)
		٣- آل بريص	سعيد بن الأحيمر
		٤- آل بقيع	سالم بن سعيد الدماغ
		٥- آل بنّا	محمد بن محمد بن صويلح

(١) أشار تقرير شركة أرامكو عام ١٣٦٩هـ عن «المناطق الشرقية من مناطق الحسا» إلى أن شيخ الغفران هو محمد بن صالح أبو ليلة الذي جاء بعد والده صالح ابن علي أبو ليلة رئيس فخذ آل هادي بن زايد أيضاً كما ذكر دونالد كول في كتابه «بدو البدو Nomads of the Namads» في صفحة ٩٦ أن آل أبو ليلة يرأسون الغفران (المراجعون).

(٢) الاسم الصحيح هو حمد بن هادي بن جلاب. (المراجعون).

(٣) الاسم الصحيح هو حمد بن هادي بن جلاّب (المراجعون).

(٤) من فرع آل عوير واسمه الصحيح هو حمد بن هادي بن سلطان (المراجعون).

(٥) آل هادي بن زايد (المراجعون).

البطن	الشيخ الكبير	فخذ	الشيخ والأعيان
		٦- آل نفل (١)	
		٧- آل شيبة (٢)	
(٢) آل عذبة (٤٠٠)	فيصل بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن نقادان	١- آل منصور	فيصل بن نقادان
			سالم بن نقادان
		٢- آل جفيش	جابر بن حمد بن برجس بن حنزاب
		٣- آل فارس	هزاع بن هزاع
			فاضل (حافر بئر فاضل)؟
			ابن حُقَيّ ؟
		٤- آل عفير	ابن عفير ؟
		٤- آل عفير	ابن عفير ؟
(٣) آل بحيح (٥٠٠)	متعب بن محمد الصعّاق (ابن سِمره)	١- آل سمرة	متعب بن صعّاق
			ابن الأدهم ؟

(١) من فرع آل بقيع (المراجعون).

(٢) من فرع آل عوير (المراجعون).

البطن	الشيخ الكبير	فخذ	الشيخ والأعيان
		٢- آل سنيد	محمد بن عَدَيّه[١]
		٣- آل حسنا	راشد بن نديلة
		٤- آل سعيد	محمد الهطيل
		٥- آل صالح بن ضرفاس	طالب المحنّا
		٦- آل حنيتم	متعب بن المنخّس
		٧- آل جحيش	سويد بن الحَول
		(٨) آل بريد	علي المدحوس
		(٩) آل سويحيت	جابر بن فرج (توفي)
		(١٠) آل زقيباء	؟ محمد بن الحيم[٢]
		(١١) آل راشد	محمد بن راشد
			علي بن صالح ؟
(٤) آل جرابعة	حمد بن نهّاب	(١) آل جبران	سعيد بن فسل (توفي)
(٣٠٠)			جابر بن سالم بن فسل
			سالم بن فسل

(١) الصحيح محمد بن دعيّة (المراجعون).

(٢) أو ربما محمد بن لهيم. (المراجعون).

البطن	الشيخ الكبير	فخذ	الشيخ والأعيان
		(٢) آل نجم	محمد الحصوان
		(٣) آل نابت	مبارك بن راشد معيوف
		(٤) آل غياثين	سعيد بن سعيد الحرير
		(٥) آل بزّام	علي بن خميس
(٥) آل هتيلة (٤٥٠)	محمد بن صويلح	لا أفخاذ لها ؟	ربما نفس فخذ آل سعيد من آل بحيح
(٦) آل دمنان (٦٠)	سويد بن هادي العزمة	(١) آل العزمة	سويد العزمة
			سالم بن سويلم
		(٢) آل دكمة	محمد بن علي الدكمة
		(٣) آل خيارين	علي بن ناشر
(٧) آل جابر (٣٠٠)	فيصل بن حمد المرضّف	(١) آل زقيمة	فيصل بن المرضّف
			؟ عويضة بن عظيمان
			؟ عايض بن عُزرة
			؟ علي بن جهيمّ
			؟ صالح بن منيّة
			؟ سالم بن منيّة ؟

البطن	الشيخ الكبير	فخذ	الشيخ والأعيان
		(٢) آل هادي بن حمد	ضيغم بن هجّاج
		(٣) آل غضوان	علي أبو ساق
		(٤) آل مقلم	حمد بن نوطان
			؟ سعود بن قريع
			؟ علي بن دحباش
			؟ هادي بن شدوق
			؟ سالم بن جابر
(٨) آل فهيدة	لاهوم بن شُريم	(١) آل شفيع	لاهوم بن شريم
(آل بشر) ؟		(٢) آل شافع	علي بن جلمود
(٤٠٠)		(٣) آل عازب	علي بن حنظل
		(٤) آل غيان	صالح بن رشدان
		(٥) آل غانم بن هادي	بجاش بن حمد

ملحوظة (عن الجدول)(*):

تشير الأرقام المدرجة بين قوسين إلى تقدير أولي لعدد الخيم (أي العوائل) التي يتكون منها كل بطن حسب المعلومات التي استقيتها من الرواة -علي بن جهامان وسويد العزمة. وإذا افترضنا أن متوسط أفراد العائلة أربعة، يكون سكان قبيلة آل مُرّة حوالي ١٠,٤٤٠ شخصاً (أو قل ١٠,٠٠٠) وقد يكون هذا التقدير مبالغاً فيه وقد يكون العدد ٥٠٠٠ أقرب إلى المجموع الكلي لقبيلة آل مُرّة. أما التوزيع الجغرافي للقبيلة فيكون كالآتي:

آل غفران: شنَّة وما يجاورها والخيران.

آل عذبة: جيبان وما جاورها حتى بئر فاضل.

آل بحيح: الجافورة.

آل جرابعة: وبار والجزء الأوسط من الرمال.

آل هتيلة: منطقة الأحساء.

آل دِمنان: الصحراء القاحلة الممتدة من مقينمة إلى نجران.

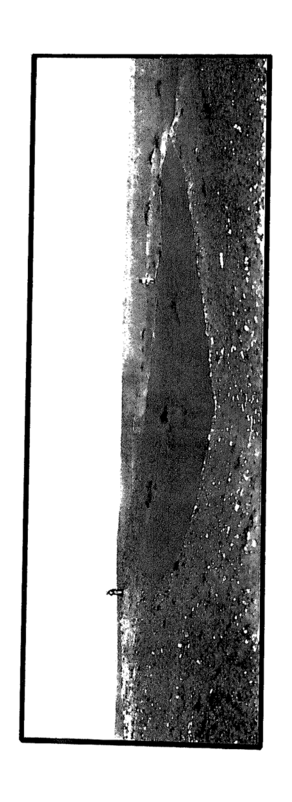
آل جابر: يبرين ومقاطعتها.

آل فهيدة: منطقة الأحساء.

(١) تنبغي الإشارة هنا إلى عدم دقة جدول أقسام قبيلة آل مرة. ولقد تم تعديل الأخطاء الواضحة بالرجوع إلى بعض المصادر المتوفرة وإلى بعض الأشخاص من القبيلة. (المراجعون).

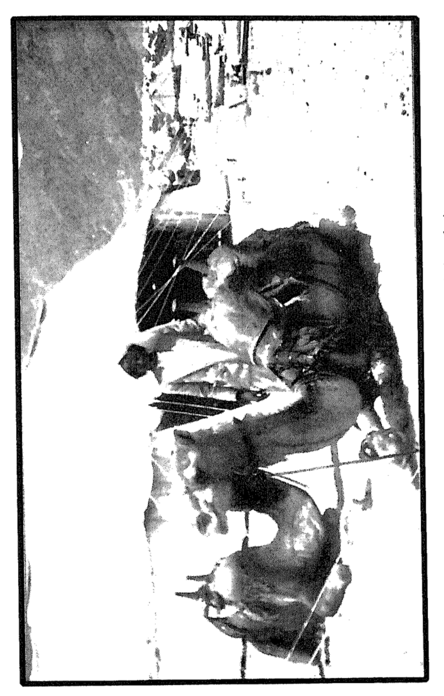


قائمة الأشكال التوضيحية (الصور)

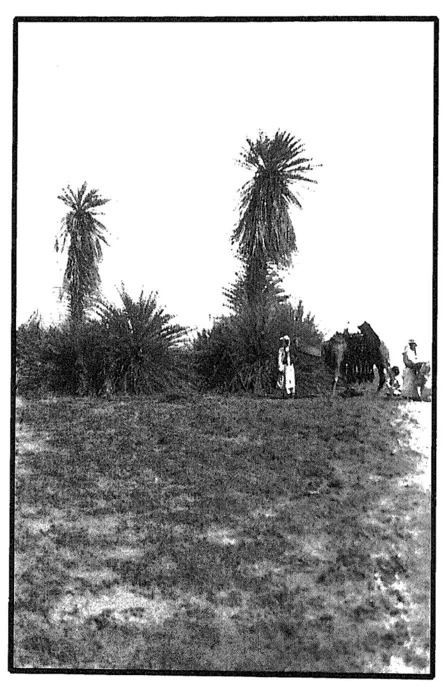


الشكل (١)

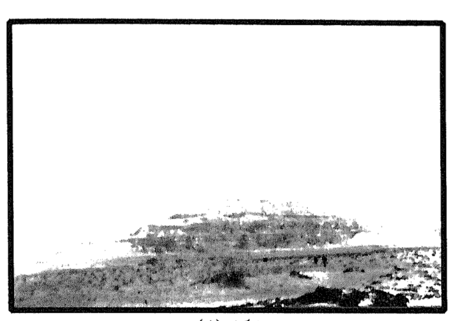
منظر فوهة النيزك (أ) من وبار من جهة الجنوب الغربي



الشكل (٢) سعدان ومعه الناقة «البحرانية»

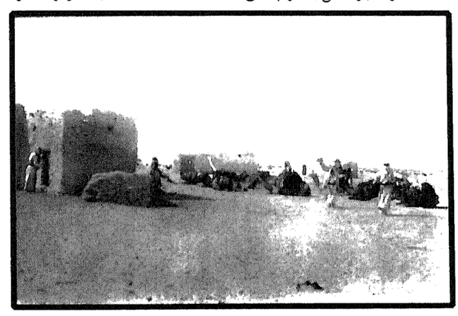


الشكل (٣)
بستان نخل على الساحل عند سلوى



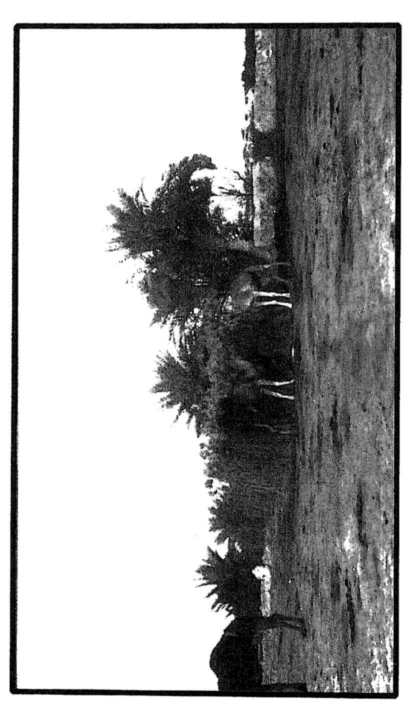
شكل (٤)

أ- تلة قرن أبو وايل بالقرب من السكك عند قاعدة شبه جزيرة قطر



الشكل (٤)

ب- التوقف عند قرية الخِن المهجورة



الشكل (٥) عين من عيون نباك تغص بالقصب والنخيل

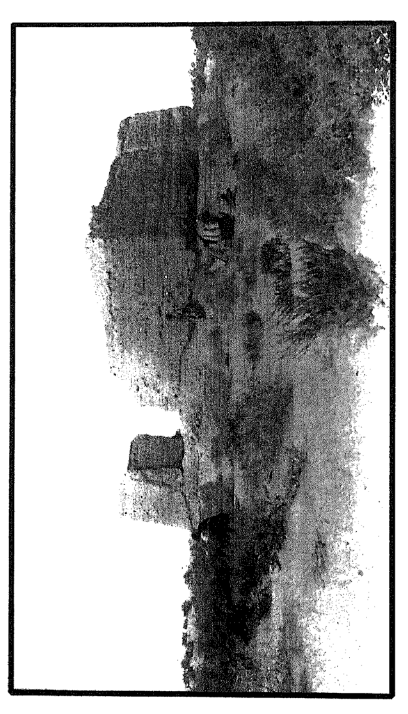
الشكل (٦)

ب- علي بن صالح بن جهامان، المرشد الرئيس
ومعه البحرانية في مقينمة



الشكل (٦)

أ- أعضاء الفرقة من قبيلة المناصير:
حميد بن الأمحج وصالح بن عزيز

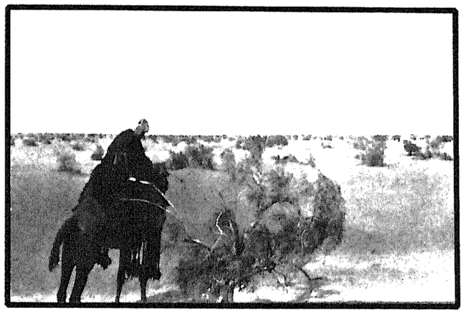


الشكل (٧) قصر ابن دجاش في منطقة بيرين



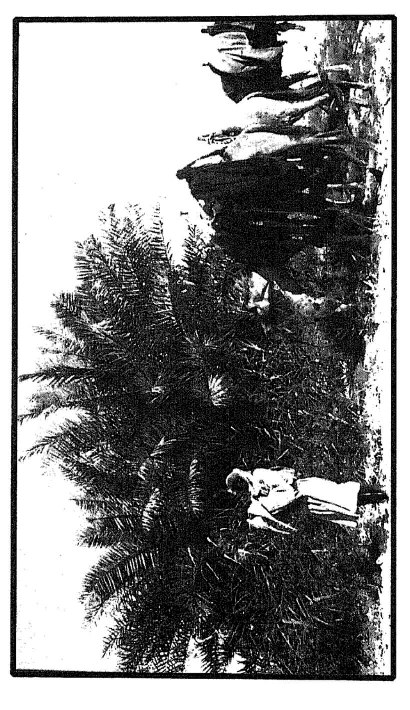
الشكل (٨)

أ- آخر من رأيناهم من البشر لفترة ٥٣ يوماً: جابر بن فسل من آل مرّة مع خيمته وعائلته في يبرين

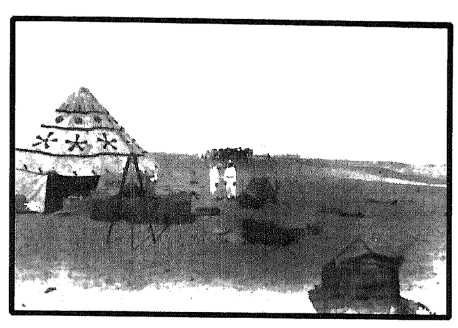


الشكل (٨)

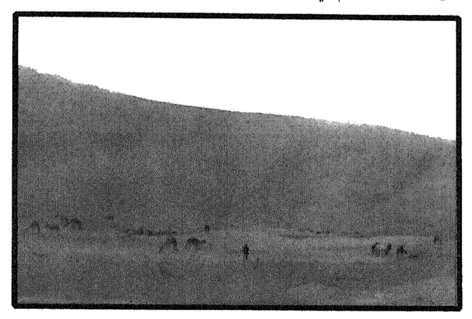
ب- عش غراب قديم في شجيرة غضا بين مقينمة وبئر فاضل



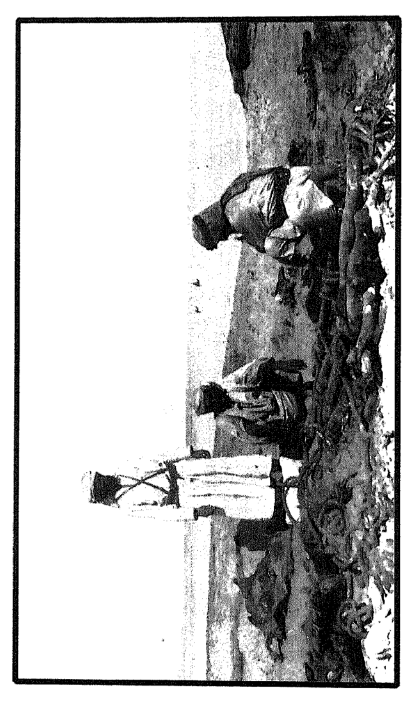
الشكل (٩) سويد والغراب بجانب نخيل ونبات القصب التي تنمو في بركة تغذيها العيون في عُبيّة في منطقة يبرين



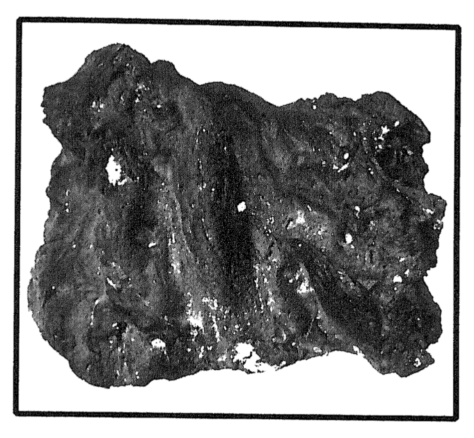
الشكل (١٠) أ- الخيام في مقينمة والجمال ترتوي عند البئر الواقعة في الخلف



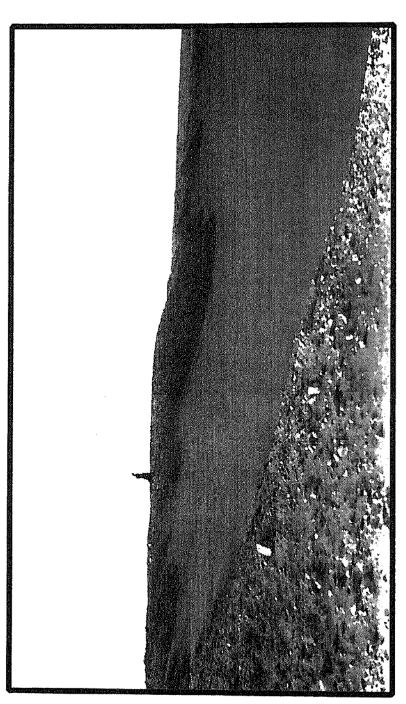
الشكل (١٠) -ب- آبار عدرج من جهة الشمال



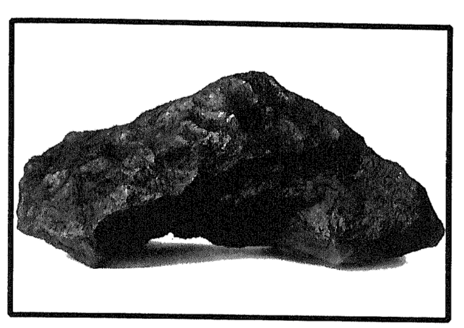
الشكل (١١) علي بن جهامان وسالم وزايد وهم يزيلون الغطاء عن فتحة بئر مقينمة



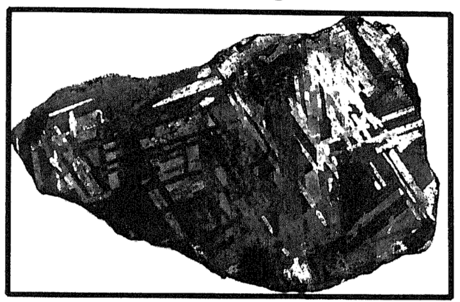
الشكل (١٢) كتلة من زجاج السيليكا -الخارجي-
من فوهات وبار النيزكية



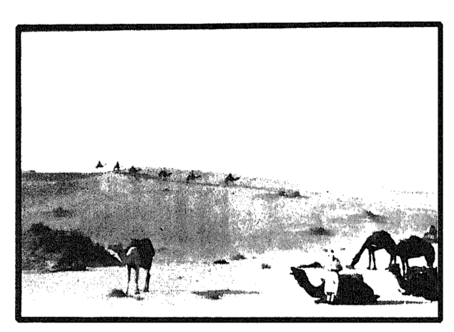
الشكل (١٣) الفوهة النيزكية (ب) في وبار



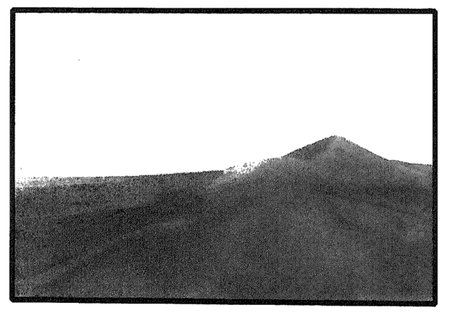
الشكل (١٤) -أ- قطعة من حديد نيزكي وجد في وبار
مقطوعة ومصقولة لتوضح أثر النحت في الحديد «نيكل + حديد»



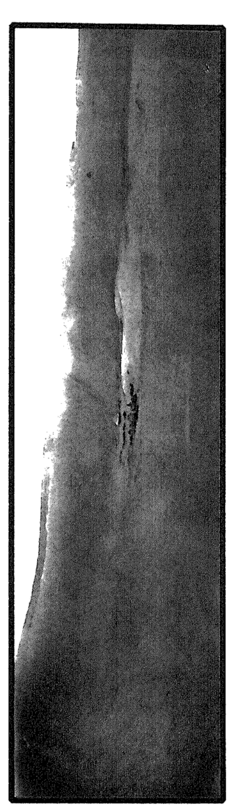
الشكل (١٤) -ب- الجزء النهائي من القطعة



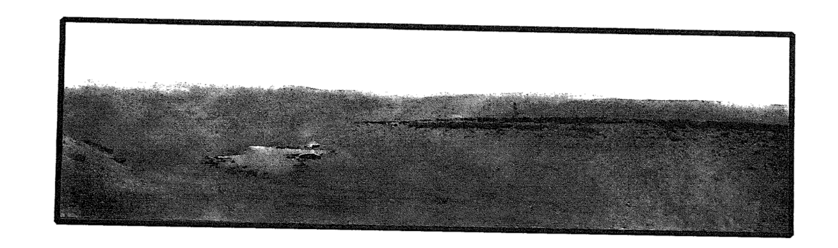
الشكل (١٥) -أ- الوصول إلى المعسكر في مقاطعة بني جلاب



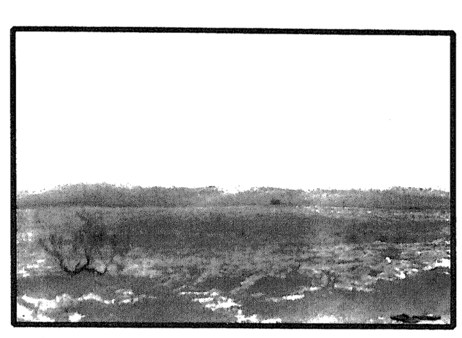
الشكل (١٥) - ب- قمة رملية في إحدى السلاسل الكثبانية في بني ناصر



الشكل (١٦) المخيم عند بئر –ميتة–
في عنسلة الواقعة في مقدمة كثيب مجوف وعند أسفل سلسلة من الكثبان الرملية المرتفعة



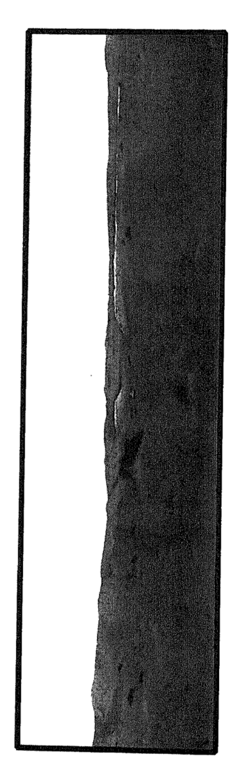
الشكل (١٧) المخيم عند آبار الزقرت
وتوضح حافات صخرية مكشوفة من صخر الأساس الذي تغطيه الرمال



الشكل (١٨) -أ- صخور الجص المكشوفة وسط الرمال، نموذج من أم القرون



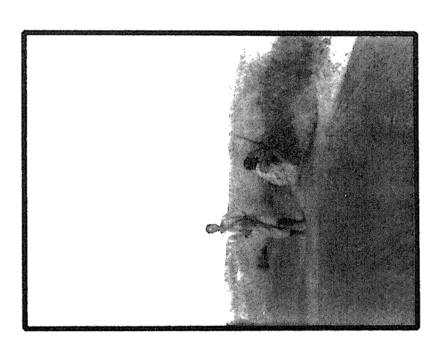
الشكل (١٨) -ب- علاج أخفاف الجمال المجروحة بالحصباء



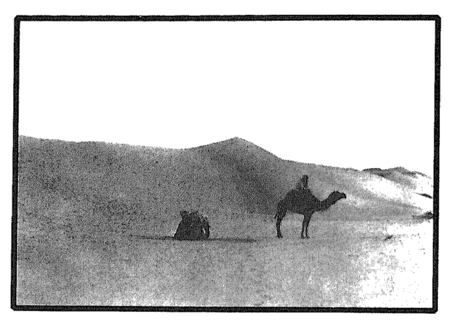
الشكل (١٩) المخيم عند آبار شنّة، من جهة الجنوب الشرقي



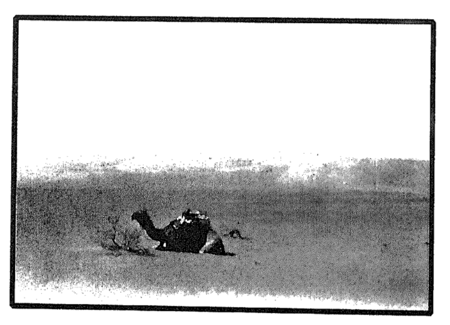
الشكل (٢٠-أ)
جثة الوضيحي الذي مات جوعاً ولم تأكلها الغربان
أو الحيوانات الضارية



الشكل (٢٠-ب)
سويد وسالم وهما يراقبان في شنَّة



الشكل (٢١) -أ- منظر نموذجي من خلّة الحوايا

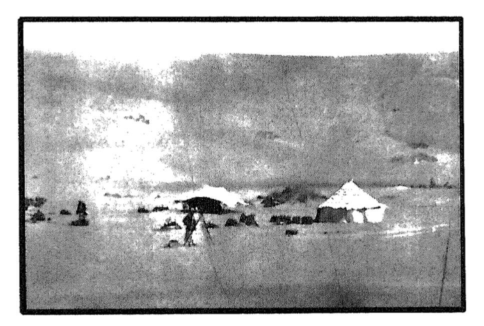


الشكل (٢١) -ب- سلسلة من الكثبان الرملية في خلّة الحوايا



الشكل (٢٢)

أ- أبعد نقطة وصلناها عند المحاولة الأولى لاختراق الصحراء القاحلة

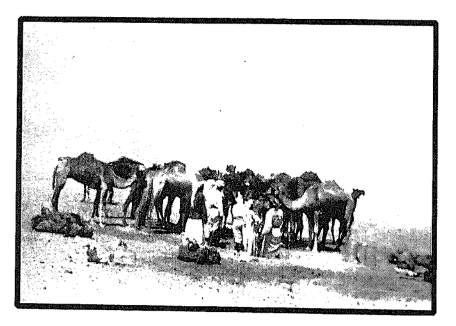


الشكل (٢٢)

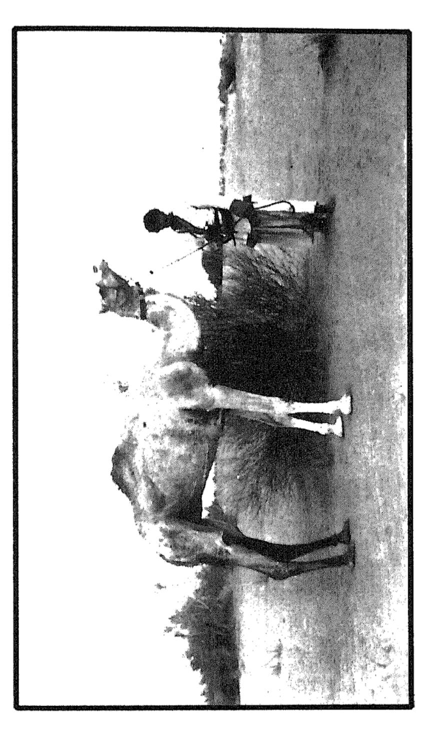
ب- المخيم في نيفة وخلفه يرى الطرف المرتفع من «الرمال المغردة»



الشكل (٢٣) -أ- الفرقة العائدة إلى الرياض من نيفة



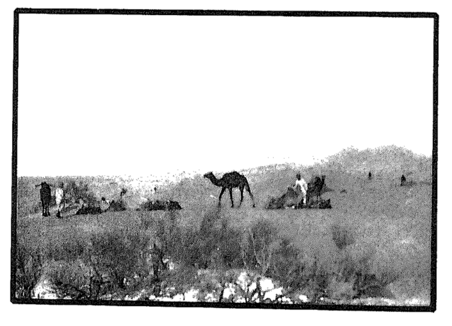
الشكل (٢٣)
ب- الجمال وهي ترتوي من بئر نيفة في الخامس من مارس ١٩٣٢، وقبل البدء في عبور الصحراء القاحلة



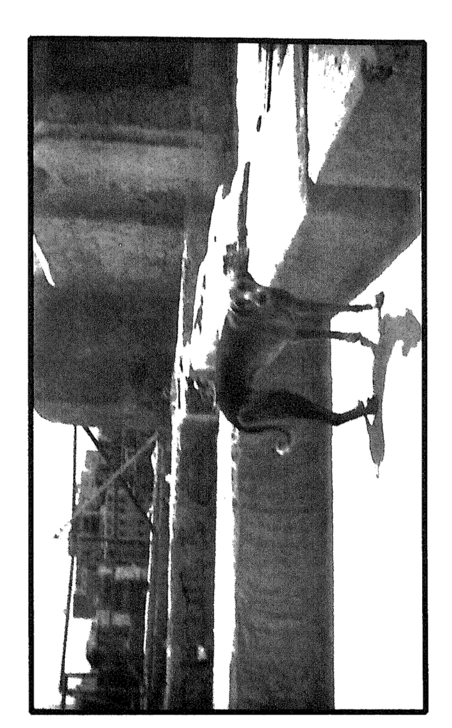
الشكل (٢٤) الناقة الناعرية، والتي ركبها المؤلف من نيفة إلى السليل ومن هناك إلى مكة



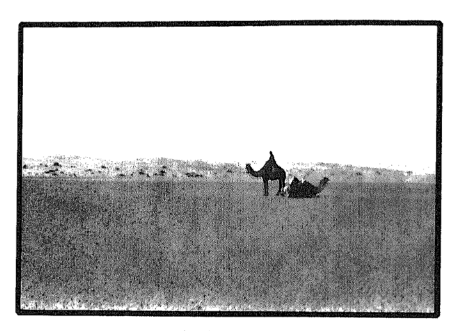
الشكل (٢٥)
أ- السير على طول سلسلة كثبان بني زينان بحثاً عن مكان مناسب لعبورها



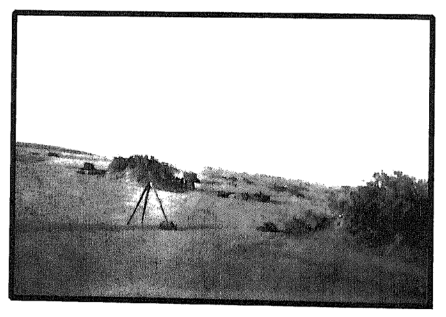
الشكل (٢٥) -ب- المخيم في بني زينان



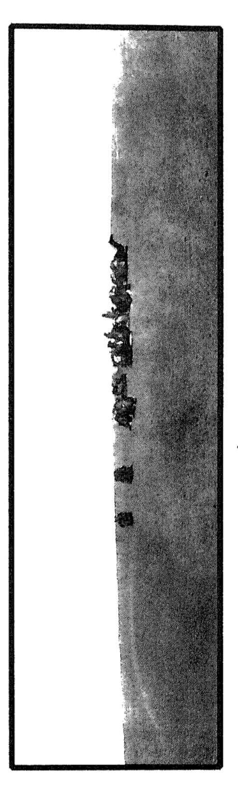
الشكل (٢٦) الكلب السلوقي (العقفا) الذي رافق الحملة من يبرين إلى نهايتها



الشكل (٢٧)
أ- سهل السحماء الحصبائي وحيد الأوارك الرملي، من جهة الشمال



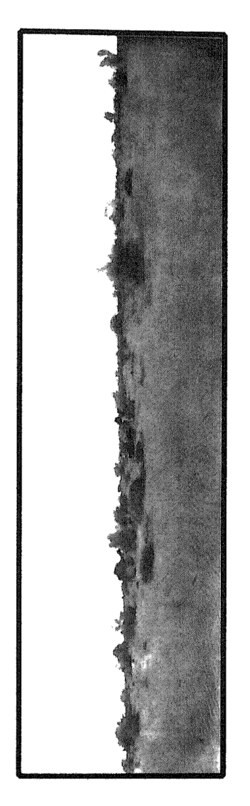
الشكل (٢٧)
ب- المخيم وسط شجيرات العبل في رمال الأوارك عند طرق سهل السحماء



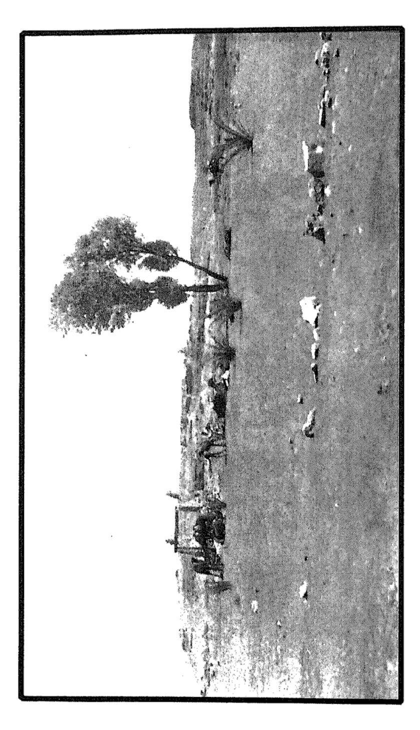
الشكل (٢٨) التوقف في سهل أبو بحر الحصبائي



الشكل (٢٩) حميد وصالح وهما يقومان بعملية «النشوق» لإحدى النوق في الرميلة



الشكل (٣٠) الفرشة، آخر مخيم في الصحراء الكبيرة قبل الوصول إلى الماء بالقرب من السليل



الشكل (٣١) آبار لطوة بالقرب من السليل التي وصلناها في ١٤ مارس بعد عبور الصحراء القاحلة



الشكل (٣٢) رأس خشم العمور حيث يخترق مجرى وادي الدواسر هضبة طويق ينتهي في الصحراء القاحلة

الكشـاف

كشاف الأعلام والأسماء

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص، ض، ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

• • •

كشاف الأماكن والمواضع والجبال والآبار وغيرها

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(ل)

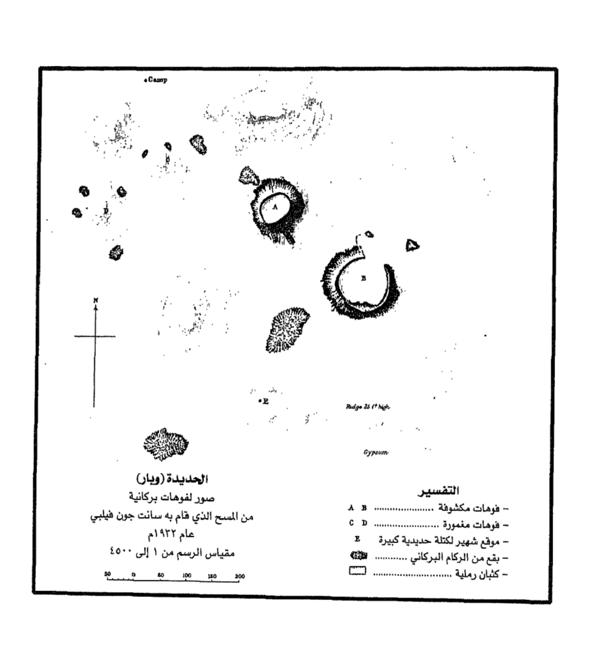
(م)

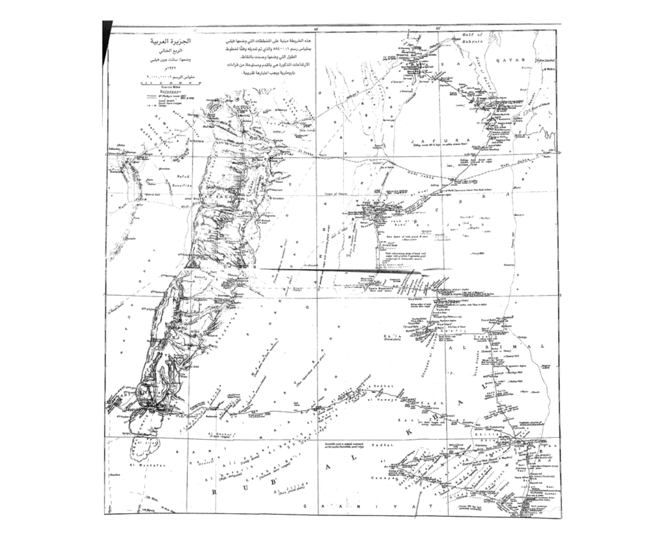
(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

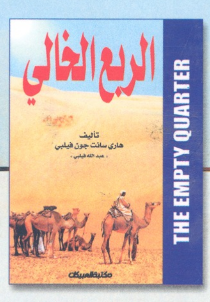

Camp
A
B
C
D
E
N
Ridge 25 ft high
Gypsum
الحديدة (وبار)
صور لفوهات بركانية
من المسح الذي قام به سانت جون فيلبي
عام ١٩٣٢م
مقياس الرسم من ١ إلى ٤٥٠٠
50 0 50 100 150 200
التفسير
- فوهات مكشوفة .... A B
- فوهات مغمورة .... C D
- موقع شهير لكتلة حديدية كبيرة E
- بقع من الركام البركاني ....
- كثبان رملية ....



الجزيرة العربية
الربع الخالي
وضعها: سانت جون فيلبي
١٩٣٢م
مقياس الرسم ١: ٢،٠٠٠،٠٠٠
Statute Miles
Reference
هذه الخريطة مبنية على المخططات التي وضعها فيلبي بمقياس رسم ١: ٥٨٤٠٠٠ والذي تم تعديله وفقًا لخطوط الطول التي وضعها وحددت بالنقاط.
الارتفاعات المذكورة هي بالقدم ومستوحاة من قراءات بارومترية ويجب اعتبارها تقريبية.
Gulf of Bahrain
QATAR
JAFURA
Wadi Sahba
Nafud Dahi
J A F U R A
R U B' A L K H A L I
A R R I M A L
Q A M I Y A T
Al Mundafan
Al Jiban
Hadhat

قائمة كتب فيلبي
التي تحت الطبع

١- حاج في الجزيرة العربية. / طُبع /
A Pilgram in Arabia
٢- مغامرات النفط العربي. / طُبع /
Arabian Oil Ventures
٣- الربع الخالي. / طُبع /
The Empty Quarter
٤- بنات سبأ. / طُبع /
Sheba's Daughters
٥- أيام في جزيرة العرب.
Arabian Days
٦- أربعون عاماً في البرية.
Forty Yeaers in The
Wilderness
٧- نجود الجزيرة العربية.
Arabian Highlands
٨- الذكرى الذهبية
للملكة العربية السعودية.
Arabian Jubilee
٩- العربية السعودية.
Saudi Arabia
١٠- قلب الجزيرة العربية.
The Heart of Arabia
١١- أرض مدين.
The Land of Midian
١٢- جزيرة العرب الوهابية.
Arabia of The Wahhabis



تعد كتب فيلبي أول موسوعة معربة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية، حيث غطت حقبة زمنية مهمة، وقد تناول فيها فيلبي تاريخ المملكة وجغرافيتها وأعلامها وآثارها واقتصادها وقبائلها بأسلوبه الرصين، وتحليله العلمي الدقيق، وقد دعم ذلك كله بالكثير من الصور الشمسية التي تعين القارئ على تصور الأشياء وحسن فهمها.

وقد جاء عمل فيلبي هذا ثمرة للمدة الطويلة التي أقامها في المملكة واتصاله بالملك عبد العزيز - يرحمه الله - مما أتاح له فرصة التنقل في مختلف أنحاء الجزيرة العربية، والاطلاع على المواقع الأثرية والنقوش القديمة.

وقد تم انتقاء مجموعة من هذه الكتب لنشرها في سلسلة تاريخية؛ لتكون رافداً ثقافياً لأبناء هذا الجيل، ومن هذه الكتب كتاب (الربع الخالي) الذي قدم وصفاً حيّاً للصحراء الجنوبية الكبرى للجزيرة العربية، تلك المنطقة المهمة التي ظلت مجهولة سنوات كثيرة على الرغم مما فيها من آثار قيمة وكنوز ثمينة، لقد عَبَر المؤلف الربع الخالي في رحلة غير مسبوقة وهي من أشق الرحلات وأصعبها، وقد وصف كل ما رآه من سهول وأودية وحيوان وطيور، أضف إلى ذلك ما قدمه للقارئ من معلومات تاريخية وجغرافية مهمة.

ومكتبة العبيكان يسرها أن تقدم للقارئ الكريم هذه الكتب لأول مرة بـ
إدراكاً منها لأهمية الدور الثقافي الذي تقوم به خدمة لبلادها، وأداءً لوا
الجوانب المضيئة من تاريخها لأبناء هذا الوطن الغالي، راجية النفع للجمي

هذا والله من وراء القصد.

الناشـ

ردمك: ٩٩٦٠ - ٢٠ - ٨٦٠ - ٥

